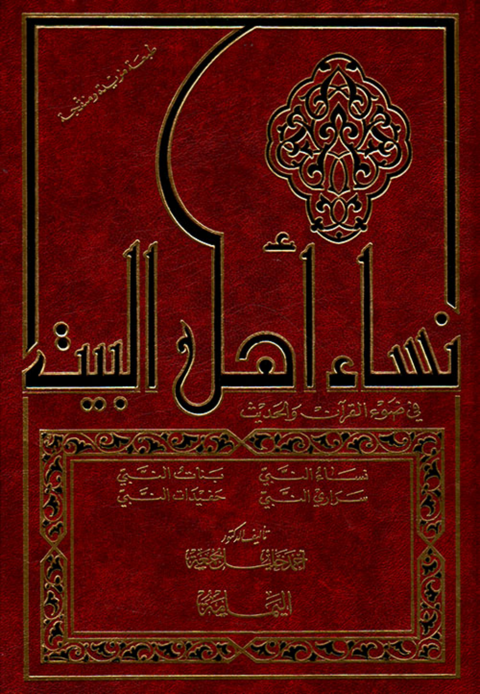


طبعة مزيدة ومنقحة
نساء أهل البيت
في ضوء القرآن والحديث
نساء النبي
بنات النبي
سراري النبي
حفيدات النبي
تأليف الدكتور
أحمد خليل جمعة
اليمامة

نساء أهل البيت

في ضوء القرآن والحديث

نساء النبي — بنات النبي

سراري النبي — حفيدات النبي

تأليف

أحمد خليل جمعة



الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

الصف التصويري: دار اليمامة بدمشق



اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات

ص.ب ٣٧٧ - هاتف ٢٤٣٢٤٥ - بيروت - ص.ب ٥٤٨٨ / ١١٣

الإهداء

إلى واسطة العقد الفريد في نساء أهل البيت

خديجة بنت خويلد أم المؤمنين

رضي الله عنها

أهدي هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمُد لله الذي أرسل محّمداً شاهداً ومبشّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسِرَاجاً منيراً، وَجَعَل بيته أشرف البيوتِ فأذْهَبَ عنه الرِّجْسَ وطهَّره تطهيراً.

وبعد:

إنَّ الحديَث عنْ أهلِ البيتِ النّبويّ حديثٌ ممتعٌ وشَائقٌ، ومَنْ كأهلِ البيتِ يُستحلى الحديثُ عنهم؟

إنَّ نساءَ أهلِ البيتِ النَّبويّ الطَّاهرِ، هُنَّ صفةُ الصَّفْوَةِ مِنْ نساءِ الدُّنيا، نستلهُم منْ سِيَرهنَّ عبيرَ الفضائل، ورحيقَ الإيمان، وكريمَ الشَّمائل، ففي سيرة كلّ واحدةٍ منهنَّ ما تشتهيه الأَنْفُس، وتلذُّ الأَعْيُنُ منْ عظيمِ الصِّفَاتِ، وحميدِ المكرمات...

إنَّ الرَّحْلَةَ مع نساء أهلِ البيت الطَّاهراتِ، تحملُ بين طيّاتها نفحات هؤلاء الكريمات اللواتي عطَّرنَ السِّيَرَ بطيِّبِ عرفِ سيرتهنّ.

لقد تناول المصنِّفُون سيرةَ نساء النَّبيِّ ﷺ، وسيرة بناته الطَّاهرات، وسِيَر بَعْضِ شهيراتِ النِّساءِ في العَصْرِ النَّبويّ، ولكنّي لم أجِدْ مَنْ تحدَّثَ عن نساءِ أهلِ البيت ممن عِشْنَ في رحابهِ، ونَعِمْنَ في ظلالِ الرَّحْمَةِ النَّبويّة، وينبوع الكرامةِ المحمّدية.

ولقد قرأتُ ما وَقَعَ تَحْتَ يدي عمّا كُتِبَ عن هؤلاءِ، ولكنّي وجدتُ أنَّ ما

كُتِبَ لا يروي ظَمَأَ مَنْ أراد أنْ يرتويَ منْ معينِ هؤلاء، لأنَّ ما كُتِبَ عنهنَّ لم يتناولْ إلا جانباً أو اكثر منْ حياة كلٍّ واحدةٍ منهن أو أكثر، ولم أجدْ كذلك مَنْ تعرَّضَ للحديثِ عن دورِهنَّ في الحياةِ العِلميّة، وروايةِ الأحاديث النَّبويّةِ الشَّريفة، أو عن آثارهنَّ في مختلفِ النَّواحي العِلْميّة الأخرى.

لذلك بدأتُ الحياة ـ مِنْ جديدٍ ـ مع هؤلاء العظيمات، وبدأتُ الحديثَ عنهنَّ في صورة أخرى، أعتقدُ أنَّها ستكونُ أكثرَ وضوحاً منْ ذي قَبْل.

وكان البحثُ شَائقاً، ولكنَّه كان شاقّاً، إذْ كلَّفَني ذلك العودة إلى مئاتِ المصادر، كيما أنظم العِقْدَ الفريد لسيرة نساء أهل البيت، وكيما تكون موسوعتنا هذه تحملُ أكبر الفائدة للقُّراء على مختلفِ طبقاتهم.

أمَّا المصادر التي اعتمدناها فستجدها منثورة في ثنايا الكتاب، وفي مقدّمتها: الُقرآن الكريم وعلومُه، وكُتُب التَّفْسير الكثيرة القديمة والحديثة؛ والصَّحيحان: الُبخاريُّ ومسلم، وكُتُب الحديث والسُّنَّن والمسَانيد، وقد راعينا ذِكْرَ مظانّ كلّ حديث، وأشرنا إلى تخريجِ الأحاديث في مواضعها بحواشي الكتاب، لكي يكون البحثُ وثيقاً موثوقاً موثّقاً، ولكي ننهَج في بحثنا في ضوءِ الُقرآن الكريم والحديث النّبويّ الشَّريف.

ثمّ اعتمدنا في موسوعتنا على كُتُبِ السِّيرة النّبويّة الكثيرة، وانتقينا منها الأخبار الوثيقة التي لها أَصْلُ في كُتُبِ الحديث النّبويّ، أو توافق ما جاء في الأخبار الصَّحيحة السَّليمة.

وكانت كُتُب الَّطبقات والسِّير والتَّراجم منْ روافد موسوعتنا هذه، حيث تُعْتَبر هذه المصادر مادة غنيّة بالمعلوماتِ تزيد عَمَلَنا رونقاً وجمالاً وبهاءً وثراءً علميّاً، كما تجعل منه مصدراً جديداً منَ المصادر التُّراثية المهّمة.

أمّا كتُبُ التَّاريخ فقد كان لها نصيبٌ وافرٌ أيضاً، حيث اعتمدنا عليها لربطِ الأحداث، وتناسقها مع ترجمة كلّ شخصية منَ الشَّخصيّات، ولفَهمِ الحوادث بشكل يتناسبُ مع منطق العصر النّبويّ، ويتناسق مع تاريخ نساء أهل البيت

الطَّاهرات، وكنتُ أقارن بين الأحداث، وأختارُ منها ما يتوافق مع ما ورد في الصَّحيح من الأحاديثِ والآثار.

ولم تَخْلُ موسوعتنا منَ الاعتمادِ على أمّهاتِ كُتُبِ اللغة، والاعتماد على كُتُب المعاجم في اللغة، وفي الأماكن والبلدان، وفي الأعلام وغيرها وحاولنا ضَبْطَ الأعلام والأماكن بشكل سليم.

كما وشّينا موسوعتنا هذه بنفائس نوادر الأخبار، ورقائق روائع الأشعار، التي وردتْ في كتب الأدبِ والمعارف المتنوعة، ممّا لا نجده في غيرها منَ المصادر الأخرى.

يُضافُ إلى ذلك كلّه كتب الثَّقافة المتّنوعة التي وشحنا بها هذه الموسوعة، ليكون العمل أَضْوَأ، ولتكون المعلومات متكاملة الجوانبِ قدْرَ المستطاع، وحتى تكون التَّرجمة للشخصية أقرب ما تكون إلى الوضوح والسَّلاسة والسَّلامةِ، ولتكون وحدة متكاملة متماسكة تعطي الفائدة، وترفد بالعطاء.

ولقد كنتُ أتتبّعُ ـ من خلال البحث ـ أصحَّ الأقوالِ، وأرجح الرِّوايات التي وَرَدتْ عنِ الشَّخصية التي أترجم لها مقتفياً بعضَ الأحداث التي تتصلُ بحياتها، كمولدها، ووفاتها وذكْر مكانه وتحديده، وإيضاح الإشكال لبعض الشُّبهات التي أُثِيْرَتْ حولها ، وكذلك تبيان حياتها العلمّية في ضوءِ القرآن الكريم، مع دورها في رواية الحديث الشَّريف، ونَقْلِ العلم إلى شُدَاةِ المعرفة، وطّلاب الحقيقة، الذين كانوا يَفِدُونَ إلى رحابِ البيت النَّبويّ من كلّ فجٍّ عميق، كي يستمعوا ويستمتعوا ويقتنصوا ممّا أفاء الله على أهلِ البيت منَ العلوم والمعارف، كما كنتُ أنوِّهُ إلى بعض النّقاط النّفيسة في حياة كّلِ واحدة منْ نساء أهل البيت رضي الله عنهن.

فمثلاً، أبرزُ دورَ الكمالِ والسّمو الرُّوحي في شخصيةِ أمِّنا خديجة بنت خُويلد رضي الله عنها، وحياتها المعطاء في ظلال البيت المحمّدي، وتحدثتُ بشيءٍ مِنَ التَّفصيل عن موقفها الكريم عند نزول الوحي على النَّبيِ ﷺ.

كما أبرزتُ كذلك دورَ العِلم والحفْظِ في شخصيةِأمِّنا عائشة رضي الله عنها، وعن مدرستها العلميّة التي ظلَّتْ قرابةَ نصف قرن المنارة الأولى في عالم النِّساء.

وأبرزتُ كذلك الفضائل الحِسَان في شخصيات بنات النّبيﷺ، وكذلك في حفيداته.

وستجدُ في هذه الموسوعة مدى الجهد الذي بذلتُه، والصَّبْر الذي تَخِذْتُه لي طريقاً في استصفاءِالمعلومات، واستخلاص الأخبار الوثيقة، وإظهار بعض المواقف الغامضة بشكل جَليٍّ واضح، والوقوف عند بعضِ الأخبار وِقْفَةَ تمحيص وتدقيق، ثمّ إبراز الخبر بشكل سليم يتوافق مع القرآن الكريم، والحديث الشّريف.

خُذْ على سبيل المثال سيرة أمّ سلمةَ أمّ المؤمنين، ستجد مصداقَ ما قلناه، ولاحظ ـ بدقةٍ ـ مشورتها في يوم الحديبية، ثمَّ لاحظِ التَّنويهَ إلى فَهْمِ الموقف بشكل صحيح يتوافق مع المنطق النّبوي، ولا يخرجُ عن هدي القرآن الكريم.

هذا، وقد كان لتجرِبَتي في الكتابة عن عالم النِّساء في مختلفِ العصور كبير الأثر في الحديث عن نساءِ أهل البيت اللاتي جَعَلَتْهُنَّ العناية الإلهيّة في هذا البيتِ المبارك، ليكُنَّ القدوة الحسنة لكلّ إمرأة في هذا الوجود.

ولقد سبقَ لي الحديث عن نساءٍمبشّراتٍ بالجنَّةِ في العَصْر النَّبويّ، وعنِ المكانة التي جعلَتْهُنَّ من المبشَّرات.

ثمَّ تحدثتُ في كتابٍ آخر عن نساء أخريات منْ عَصْر النّبوة، ثمّ تلوته بكتابٍ عن نساءٍ منْ عَصْر التَّابعين، ودورهن في مختلف مجالات الحياة، وخصوصاً حياة العِلْم ورواية الحديث الشَّريف.

كما تحدثت في كتابٍ آخر عن نساءِ الأنبياءِ في ضوء القرآن والسُّنَّة، وأعتقد أنَّه بِكْرٌ في موضوعِهِ، ثمّ كانت هذه الموسوعة اللطيفة عن نساءِ أهل البيت، بالإضافة إلى الكتابة عن نساء أخرياتٍ في مختلف العصور تحت عنوان: نساء من الإسلام، وكلّ هذه الكتُب طبعت وكُتِبَ لها القَبُول ـ وهذا مِنْ فَضْل الله عزّوجلّ ـ.

وإنّني أرجو الله عزّوجلّ أنْ يتقبّلَ مني هذا العمل، وأنْ يجعلَنا في معّية أهل البيت النّبويّ الطّاهر.

وإنّني أرجو القارىء الكريم إنْ وَجَدَ فائدةً في هذا الكتاب أنْ يخُصّني بدعوة صالحةٍ منه في ظهْرِ الغيب، وإنْ وَجَد هفوة أنْ يتجاوز عن ذلك.

اللهم إنّا نسألك أنْ تكونَ أعمالنا خالصة لوجهك الكريم.

﴿ربنا لا تؤاخذنا إنْ نسينا أو أخطأنا...﴾ [البقرة: ٢٨٦]

صدق الله العظيم.

الاثنين

دمشق - حرستا: ١٦ من المحرم ١٤١٤هـ

٥ من تموز ١٩٩٣م

وكتبه: أحمد خليل جمعة.

أُمّ المؤمنين

خديجة بنت خُويلد

رضي الله عنها

- أوّل الخلْقِ إسلاماً، وصِدِّيقة المؤمنات الأُولى.
- أُولى أمّهات المؤمنين وواسطة العِقْد الفريد في نساء أهل البيت، وأمّ أولاده ﷺ.
- كانت عاقلة جليلة دِّينة مصونة كريمة رضي الله عنها.
- خصَّها الله عزَّ وجلَّ بالسَّلام على لسان جبريل عليه السَّلام وبشَّرها ببيت في الجنَّةِ منْ قَصَب.
- سيرتها عطرٌ للمجالسِ، وأُنْسٌ للمُجَالسِ، ورحيقٌ مختوم بالمسك رضي الله عنها.

أُمّ المؤمنين

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

البدايةُ العطرةُ:

من أين نبدأ أيّتُها السَّيِّدة الكريمة؟

من أين نبدأ أيّتُها الأمُّ التي لا يداني فضْلك فَضْل؟

إنَّ سيرتَك كلّها فضيلةٌ في فضيلةٍ في فضيلة...

إنَّ حياتَك مِن أوَّل يومٍ عرفتِ فيه سيِّدنا رسول الله ﷺ كلّها بركات تَتْرى.

فالحديثُ عنك سَيدتي - بل أمّي - واسع الآفاق، عميق المدى، نديّ العطاء... فيه سُبُحاتٌ مباركات في بِحَار أنْوارِ صَفَائِك وكرمك الذي كان قِبْلَة النِّساء في هذا المجال....

إنَّ تاريخَ النِّساء في دنيا التَّاريخ، لم يحفظْ في أوراقهِ أنَّ إمرأةً من فضيليات النِّساءِ في دنيا النِّساء قد فاحتْ سيرتها بالعطاء كما كُنتِ أنتِ...

لقد تناولَ التَّاريخُ سِيَرَ نساءٍ كثيرات، اشتهرن بجانبٍ أو أكثر، ولكنّه لم يحدثْنا - كما حدثَنَا عنك - أنهنَّ بلغْنَ قممَ المكارم في كلِّ الفضائلِ كما بلغتِ أنت. وقد حفظ التَّاريخ كثيراً منْ فضائِلك ولكنّه - على الرّغم ذاكرتهِ الواسعة - لم يستطعْ أنْ يحصرَ تلك الفضائل بين دفتيه..

لقد كنتِ واسِطَةَ العِقْدِ في نساء أهلِ البيت الذي أذهب الله عنه الرِّجْسَ وطهَّره تطهيراً.

لقد كنتِ عنوان كلّ فَضْل وفضيلة في نساء ذلك البيت المجيد الحميد الذي بارك الله فيه وعليه.

فهل تسمحين أيّتُها الأمُّ الرَّؤوم أنْ نتفيأَ بظلالِ سيرتك بعضَ الوقتِ كيما تكون سيرتك زاداً لنا في هذه الحياة التي نحياها، ولتكون سيرتك جوازَ مرورٍ إلى مرتبة الفضل، وسدة العطاء..؟

فما أُحَيْلى تلكم الأوقات التي نحياها مع أمِّنا؛ أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد(1) زوج رسول الله ﷺ، وأمّ الذُّرية الطَّاهرة، وسيدة نساء العالمين، وقدوة نساء المسلمين.

---

(1) سير أعلام النّبلاء (2/109 ـ 117) ونساء مبشّرات بالجنة(1/13 ـ 52) وفضائل الصّحابة للإمام أحمد (2/847) وطبقات ابن سعد (1/131 و133) و(8/14 ـ 19 و52) وأُسْدُ الغابة(6/78 ـ 85) ترجمة رقم (6867) ومجمع الزّوائد (9/218ـ 222) والاستيعاب (4/271 ـ 281) والإصابة (4/273 ـ 276) وشفاء الغرام (1/434 ـ 438) وجامع الأصول (9/120 ـ 125) والمحبّر (ص11ـ , , 18) والمنمّق في أخبار قريش (ص247) وجوامع السّيرة النّبويّة (ص30) وزاد المعاد (1/105) والشّفا (1/258) والفصول (ص94) والدّرر (ص13 و14) وعيون الأثر (1/62) وأنساب الأشراف (1/95) وتهذيب الأسماء واللغات (2/341 و342) والسّير والمغازي (ص243) وتاريخ الإسلام للذّهبي (السّيرة النّبوية ص63) وفتح الباري (7/167) وأزواج النّبي للصّالحي (ص 35 ـ 76) والمواهب اللدنيّة (2/176) والبداية والنّهاية (3/127) وأزواج النّبي لأبي عبيدة (ص54 ـ 61) والأوائل (ص 77) ودرّ السّحابة (ص 313ـ 317) ونسب قريش (ص21 و230 و231) وتاريخ الخميس (1/263 ـ 265) ونهاية الأرب (18/170 ـ 172) ومختصر تاريخ دمشق (2/109 ـ 117) وكنز العمال (2/213) وأعلام النّساء (1/326 ـ 331) وصفة الصّفوة (2/7 ـ 9) وتفسير القرطبي (14/164) والمستدرك (3/182 ـ 186) والمعارف (ص59 و70 و132 و144 و150 و219) والمعرفةوالتّاريخ(3/253 و255 و256 و257) وتاريخ الطّبري (1/521 و522) وأخبار مكة (2/199) وتلقيح فهوم الأثر(ص19) والسّيرةلابن هشام(1/187) والسّيرة الحلبية (1/223) والتّاج الجامع للأصول (3/377 ـ 379) وجلاء الأفهام (ص180 ـ 182) وغررالتّبيان (ص238 و424 و513 و530) ومسند

إذن، فلتكنِ الرّحلةُ سعيدة ـ إن شاء الله ـ مع سيرتك المِعْطار، ومع وِقْفَات نبيلة كريمة من حياتك، من عطائك المُسْتَمَدّ من شخصية النّبيِّ الرَّؤوفِ الرَّحيم و حبيبنا محمّدﷺ.

ظِلاَلُ الماضي:

هبط ظلام الليل على مكةَ. . . . وخيّمَ على الكونِ سكونٌ عميق. . . . لكنَّ الحركةَ لم تنقطعْ حولَ البيتِ العتيق، فقد كان الطَّائفون بالكعبةِ تقطعُ هَمَسَاتهم وكلماتهم ذلك السُّكون، وتمِّزقُ حركاتهم هدوءَ الليلِ منْ حول الكعبة.

مع ثلّة الطَّائفينَ والطائفاتِ كانت خديجةُ بنتُ خويلد رضي الله عنها تلوذُ بالبيت العتيق، يسترها ظلامُ الليلِ عن عيون رجال قريش هي ونسوة كُنَّ معها.

كانت سِّيدةُ نساء قريش خديجة ابنة خويلد رضي الله عنها تطوفُ مع النِّساء، وتبتهل إلى ربِّ البيت العتيق أنْ يباركَ لها في تجارتها. . . وفي مالها.

كانت خديجةُ راضيةَ النَّفسِ، رضيّة القلب بما حقّقَتْه من نجاحٍ في تجارتها، فقد باتت قافلتها إلى الشَّام تعدل قوافل قريش . . . كانت سعيدة بما بلغته في دنيا التِّجارة، وكانت مسرورة بما وصلت إليه في سُلْطان المالِ، وفي سلطان الجاه. . .

ويبدو أنَّ فكرةً اعترضتْ في ذهن خديجة وهي في طوافها، برزتِ الفكرةُ بشكلٍ واضح، ونقلَتْها إلى ظِلالِ الماضي القريب، إلى ذكرياتٍ أخذتْ مساحةً واسعةً من ذهنها.

صحيحٌ أنهَّا سعيدةٌ ـ الآن ـ في تجارتها، إلا أنَّ سعادتَها في حياتها الزَّوجيّة قد تعثّرتْ وتمزَّقَتْ أكثر من مرة، ولم تعرفْ إلى قلبها الكبير سبيلاً، بل ضلّتِ

= أبي يعلى (١٢/٥٠٤ و٥٠٥) والرّوض الأنف (١/٢١٥) ودلائل النّبوة للبيهقي (٢/٦٨) والاشتقاق (ص٩٢ و١٤٢) وجمهرة أنساب العرب (١/١٦) والكامل لابن الأثير (٢/٣٩ و٤٠) وانظر كتب الصّحيح والسّنن أبواب الفضائل وغيرها من المصادر التي لا تحصر هنا.

السَّبيل منذ بدايتها؛ كان قلبُ خديجة يرنو إلى حياةٍ زوجيّة رفيعة، فيها سموٌّ وبَذْلٌ وتضحية وكفاح في سبيلِ تحقيقِ غاية سامية نبيلة.

تزوَّجت أبا هالة بنَ زرارة التَّميمي(١)، ولّما تبلغْ ربيعها الخامس عشر، راحت تجاهدُ ليكون زوجها سيداً بين السَّادة من الرِّجال، ليكون من رجال قريش المعدودين في الجاه والشَّرفِ والسِّيَادة... ولكنَّ الموتَ لم يتركْ لأحلامها مجالاً، فقد اختطف زوجها أبا هالة قبل أنْ يصبحَ شيئاً مذكوراً، وقبل أنْ يسلكَ طريق المجد ويرتقي سلّمَ الشّهرة.

انقضى زمنٌ على موت زوجها أبي هالة بن زرارة التّميمي، فتقدَّم لها أحدُ أشراف قريش وهو عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومي(٢)، فتزوّجت وأنجبت، ولكنَّ هذا الزَّواج لم يَدُمْ طويلاً.

أصبحت خديجةُ سيّدة نساء قريش بلا زوج أيضاً، وقبل أنْ تبلغَ من عمرها الخامسة العشرين، وانتهت هذه الفترة من حياتها، ثمَّ تلاشتْ ذكرياتها، ودُفنتْ في مَهْدِ الماضي.

كانت خديجةُ رضي الله عنها امرأة عالية الهمة، جيّاشة العواطف، واسعة الأفق، مفطورة على التَّديّن والنقاء والطُّهْر، حتى لقد عُرفتْ بين أترابها وبين نساء قريش بالطَّاهرة(٣) ـ وناهيك بهذه الصِّفة التي حلّقتْ بها فجعلتها في سماء السُّبَّق إلى ساحة المعالي ـ.

كانت خديجةُ رضي الله عنها تصغي كثيراً إلى أحاديث ابن عمِّها ورقة بنِ

---

(١) أسد الغابة ترجمة رقم (٦٨٦٧) وسير أعلام النّبلاء (٢/١١١) ونساء مبشرات بالجنة (١/١١٨).

(٢) المنّمق (ص٢٤٧) ومختصر تاريخ دمشق (٢/٢١٧) والسّمط الثمين (ص١٣) وسير أعلام النّبلاء (٢/١١١). وقد ورد في بعض المصادر أنَّ اسمه: عتيق بن عائذ من عابد.

(٣) سير أعلام النّبلاء (٢/١١١) وفتح الباري (٧/١٦٧) ونساء مبشّرات بالجنّة (١/١٧) ومصادر أخرى كثيرة.

نوفلَ عن الأنبياء، وعن الدِّين، وكثيراً ما كانت أحلامُها المجنّحة ترفرفُ في سماوات عالية من الفضْلِ والفضيلة لم تكن لتصلَ إليها أماني أهل عصرها من رجال ونساء..

لكنَّ خديجةَ كانت تشعرُ بأنَّ شيئاً ما يسيطر على أحلامها، ويزرع الطّمأنينة في نفسها الكبيرة المشرقة، إلا أنَّها لم تكتشفْ سرَّ هذا، ولكنَّها تحسُّ به، بل تتوقعُ حَدَثاً ما، وكان يساورها إلهام أنَّها ستحضن شيئاً ما، ولكنْ متى، وأينَ، وكيف؟ هذا ما لم تستطعْ أنْ تمسكَ بطرفهِ، أو تعلَم شيئاً عن كنههِ، فكيف الطَّريق إلى هذا السِّرِّ؟! هكذا كانت خديجة تحدِّثُ نفسها بين الحينَ والآخر.

رُؤْيَا نُورَانيَّة

في ليلةٍ غارت نجومُها، واحلولكَ ظلامها، جلست خديجة في بيتها ـ بعد أنْ طافتْ مراراً بالكعبة ـ ثمَّ تفقدتْ أبنائها الذين كانوا يغطّون في النَّوم، عندئذ ذهبتْ إلى فراشها وقد ارتسمت على شفتيها علائم الرِّضا والابتسام، ولم يدرْ في ذهنها أي خاطر في ذلك الوقتِ، وما أسلمت جَنْبَها للرّقاد حتى استسلمت للنّوم وراحت في سُبات.

ورأت فيما يرى النّائم شمساً عظيمة تهبط من سماء مكة لتستقرَّ في دارها، وتملأ جوانب الدَّار نوراً وبهاء، ويفيض ذلك النُّور من دارها ليغمر كلّ ما حولها بضياء يبهر النّفوس، قبل أنْ يبهرَ الأبصار بشدّةِ ضيائه.

هبّتْ خديجةُ من نومها، وراحت تديرُ عينيها فيما حولها بدهشة، فإذا بالليل ما يزال يسربل الدُّنيا بالسَّواد، ويجثمُ على الوجود والموجودات، بَيْدَ أنَّ ذلك النُّور الذي بهرها في المنام لا يزال مُشْرقاً في وجدانها، ساطعاً في أعماقها.

مرَّتْ لحظاتٌ تتبعها لحظات، والنُّور والإشراق لايفارقان وجدان خديجة.... بعد لحظات تمددت لتعاودَ رقادها، ولكنَّ الوسنَ لم يطفْ بعينيها، بل صَحَا ذهنها، وخفق قلبُها، وأشرق عقلها.

راحت تستعيد من جديدٍ هفهفة ذلك الحلم، وتلك الرُّؤيا، وهي موزعة

النَّفْس بين مشاعر شتى من الأمل والرَّهبة، والماضي والحاضر، إنَّه حلمٌ غريب حقّاً! جميل حقاً! تساءلت خديجة: شمس في داري؟ نور يضيء الدُّنيا من هذا البيت؟ إنَّ هذا لشيء عجيب!! . . . . .

عندما غادر الليل الدُّنيا، غادرت خديجة فراشها، ومع إشراقة الشَّمس، وصفاء الكون في الصَّباح الباكر، كانتِ الطَّاهرةُ خديجة في طريقها إلى دارِ ابنِ عمها ورقةَ بن نوفل، لعلَّها تجد عنده تفسيراً لحلمها البهي في ليلتها الظَّلماء.

دخلت خديجة على ورقةَ، فألْفَتْه قد عكفَ على قراءة صحيفة من الصُّحف السَّماويّة التي شُغف بها، فراح يقرأ سطورها كلّ صبح ومساء، وماأن مسَّ صوت خديجة أدنيه حتى رحّب بها وقال متعجِّباً:

خديجة؟ الطّاهرة؟

قالت: هي، هي؛

قال في دهش: ما جاء بكِ السّاعة؟

جلست خديجة، وراحت تقصُّ عليه ما رأت في منامها حرفاً حرفاً، ومشهداً مشهداً.

كان ورقة يصغي إلى خديجةَ في اهتمامٍ جعله ينسى الصَّحيفة في يده، وكأنَّ شيئاً ما نبّه إحساسه، وجعله يتابع سماع الحلم إلى النِّهاية. . .

وما أن انتهت خديجة من كلامها حتى تهلّل وجهه بالبِشْر، وارتسمت على شفتيه ابتسامة الرِّضا، ثمَّ قال لخديجة في هدوءٍ ووقار: أبشري ياابنة العمِّ. . . . لو صدَّق الله رؤياك ليدخلنَّ نور النّبوّة دارك، وليفيضنَّ منها نور خاتم النَّبيين. . الله أكبر. . . ماذا تسمع خديجة؟ مالذي يقوله ابن عمها؟ وجمت خديجة لحظات. . . . سرتْ في بدنها قشعريرة، جاشت في صدرها عواطف مشبوبة زاخرة بالأمل والرّحمةِ والرَّجاء. . تحرّكت في ذهنها أشياء بدأتْ تتوضح.

كانتِ الأشياءُ بالأمسِ سرّاً، بدأت تنقشعُ غيوم الغموض عن تلك الأشياء، لا ريب أنَّ ابن عمّها ورقة عنده عِلْمٌ من الكتاب، وعلْمٌ عن هذه

الأشياء الغامضة التي تعتملُ في صدرِها، وتتوضّعُ في نفسها ووجدانها.

أفاقت من شرودها ـ الذي دامَ لحظات ـ وانتبهت إلى ورقةَ وهو ينظرُ إليها، فلم تشأْ خديجة أنْ تُوصِدَ ذلك الباب الذي انفتح عن أعظمِ نبأ تبحثُ عنه منذ زمن بعيد. . . راحت خديجةُ تسأل ورقة عن خاتم النّبيين وعن صفَته، وعن أحواله، وورقة يجيبُ في هدوءِ العلماء العارفين. . . كانت خديجة سعيدة تَعي ما يقوله ورقة حرفاً حرفاً، وكلمةً كلمةً، وجملةً جملةً، وفي ذاكرتها اختزنت كلّ المعلومات والمعارف التي ذكرها ورقة عن خاتم النّبيين، ورسول ربّ العالمين.

ظلّت خديجة رضي الله عنها تعيش على رفْرفِ الأمل، وعبير الحلم الذي رأته، فعسى أنْ تتحققَ رؤياها، وتكون مصدر خير للبشريّة، ومصدر نور للُدنيا، فقد كان قلبها الكبير مَنْبعاً للخيرات، أمّا عقلها فكان يستوعب كلّ ما حولها من أحداثٍ بشكلٍ يتّفقُ مع حياتها.

كانت خديجةُ رضي الله عنها إذا تقدّم إليها سيِّدٌ من ساداتِ قريش لخطبتها، تقيسه بمقياسِ مِقْبَاس الحلم الذي رأتْه، والتّفسير الذي سمعته من ابن عمّها الشّيخ الوقور ورقة بن نوفل. . . ولكنْ ـ إلى الآن ـ لم تنطبقْ صفات خاتم النّبيين على الذين تهافتوا على خطبتها والاقتران بها، فكانت تردهم ردّاً جميلاً، وتخبرهم أنها لا تودّ الزّواج ، فقد كانت تحسُّ إحساساً غامضاً أنَّ القَدر الإلهي يخبىءَ لها شيئاً رائعاً لا تدري ما هو، لكنّها تستشعر أنَّ منه ما يدخل الطُّمأنينة إلى قلبها.

ذكر أهلُ الأخبار أنّه كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه عند الحرم، وفي أحَدِ الأعياد، خرجت خديجةُ من بيتها نحو الكعبة، ثم طافت بالبيت العتيق، وراحت تبتهل إلى الله وتدعوه في صدْقٍ أنْ يحقّق لها حلمها، ثم انطلقت نحو نسوة كُنَّ بالقُربِ من الكعبة، وجلست معهن يتجاذبْنَ أطرافَ الحديث، وطرائف الأخبار.

في تلك السّاعة، قطع أصوات النّسوة صوتُ صارخٍ وقف بالقربِ منهن،

كان هذا الصَّارخ من اليهود، وقف بالقرب منَ النِّسوةُ وصرخ: يا معشر نساء قريش . . . فالتفتتِ النِّسوةُ إليه وأصغْنَ السَّمع فقال: يا معشر نساء قريش، إنَّه يوشك فيكن نبيّ، فأيّتكن استطاعت أن تكونَ فراشاً له فلتفعل.

ويبدو أنَّ نسوة قريش، حسبنه يهذي، فرماه بعضهنَّ بالحصباء، وألقى عليه أخريات منهن سَيْلاً من الشَّتائم والسِّباب، بينما قبّحنه أخريات، وأغلظن له القول، وطردنه منْ ذلك المكان.

أمَّا خديجة ابنة خويلد رضي الله عنها فقد خفقَ قلبُها في شّدة، فحديث هذا اليهودي أهاجِ ذكرياتها، وأعاد إلى ذاكرتها شريط حلمها الذي ليس هو ببعيد. . . إنَّه أعاد إلى ذهنها حلمها الذي رأته، وذلك الحديث الشَّجي العَذْب الذي دار بينها وبين ابن عمّها ورقة بن نوفل، حول خاتَم الأنبياء.

إنَّ ذلك اليهودي ليس يهذي، وليس بمجنون، إنَّه يعي ما يقول، فقد أعلن على الملأ أنَّ نبياً قَرُبَ وجوده، وهو يدعو مَنْ استطاعتْ من نسوة قريش أنْ تكونَ زوجاً له، وخديجة قد رأت في منامها أنَّ الشَّمس هبطت من سماءٍ مكةَ لتسقر في دارها. . . أشياء كثيرة ازدحمت في ذهن خديجة. . . أفكار تصارعت في مخيّلتها تساءلت: أيكون ذلك كلّه عبثاً؟! كلا وربّ هذا البيت. . . إنّها تحسُّ في أغوار نفسها الصَّافية أنَّ رؤياها ليست عبثيّة، وأنَّ ما ذكره اليهودي ليس عبثاً، وأنَّ ما قصَّه عليها ورقة بن نوفل من بشارات في التَّوراة والإنجيل والصُّحف بالنّبي المنتظر ليس عبثاً أيضاً، بل ليس مصادفة، إنَّ ذلك كلّه مجموعاً مجتمعاً(١) لا بدَّ له من حقيقة ستكون في يومٍ منَ الأيام ساطعة. . .

ترى متى يكون هذا اليوم؟!

---

(١) من الأعاجيب الكونيّة، والخوارق المعجزة ـ التي تستندُ إلى روايات تاريخية صحيحة ترويها المصادر العاليةمن كتب الحديث والسُّنّة ودواوين التّاريخ ويؤيدها القرآن الكريم بالإشارة إلى منابعها التي تستقي منها ـ بشائر أهل الكتاب من اليهود والنّصارى، وإنباءاتهم بزمن مولد النّبيّ محمّدﷺ ومبعثه وبحثهم عن بلده وأسرته، وتعّرف أخباره وأحواله، والكشف

لَعَلَّ خديجَةَ تُرسلُ إليَّ:

كانت خديجة ابنة خويلد تعرفُ محمدَ بنَ عبد الله حقَّ المعرفة، فعمّته صفيّة بنت عبد المطلب زوجة أخيها العّوام بن خُويلد، وقد ترامت إليها سيرته العطرة، وأخباره المباركة، فودّتْ لو أنّه عملَ لها في تجارتها. ولكنّها كانت تعتقدُ أنَّ في تجارة بني هاشم منفساً له، وما درت أنَّ كثرةَ العيال قد ذهبت بتجارةِأبي طالب، وأنَّ حمزة بنَ عبد المطلب قد شُغلَ بالقنص والصَّيد والفتوّة عن التِّجارة، وأنَّ العبَّاس بن عبد المطلب يخرج هو في تجارته، وأنَّ أبا لهب قد انغمسَ في الفجور واللهو والشّراب والعربدة والمقامرة.

ويبدو أنَّ أبا طالب عمّ النّبيّ ﷺ قد رغّبَ إلى ابن أخيه محمّد ﷺ أنْ يعرضَ نفسه على خديجة بعد أنْ ذكَرَ له قلّة مَالِهِ، وأنَّ الزّمان قد اشتدَّ عليه، ونصحه أنْ يتجَر بمالِ خديجة، فلعلَّ الله أنْ يسوقَ له رزقاً حسناً من مالِ خديجة الممدود.

= عن أوصافه ونعوته اعتماداً على ما ذكرته كتبهم المقدسة، وتناقله أخلافهم عن أسلافهم من التّنويه بذكره والتّصريح باسمه ودلائل وجوده، وتعيين بعض خصائصه، مما لا يقدم على إنكاره إلا مُمارٍ مُكَابر أو معاند جاحد.

وقد سّجل القرآن الكريم على اليهود والنّصارى يقينهم بمعرفة محمد رسول الله ﷺ لوجود نعوته في كتابهم، وقد سّجلت كتب المصادر أيضاً شواهد كثيرة، ودلائل عديدة على معرفة أهل الكتاب، وبعض متحنفي العرب وغيرهم صفة رسول الله ﷺ؛ من هذه المصادر: دلا ئل النّبوة للبيهقي للأصبهاني، والطّبقات الكبرى لابن سعد، وسيرة ابن إسحاق، وفتح الباري لابن حجر، وغيرها كثير.

ومن أمثلة ما رواه البيهقي وأبو نعيم الأصبهاني عن حسان بن ثابت رضي الله عنه قال: إنّي لغلام ابن سبع سنين أو ثمان أعقل ما رأيت وسمعت، وإذا بيهودي يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود، فاجتمعوا إليه ـ وأنا أسمع ـ فقالوا: ويلك مالك؟ قال: قد طلع نجم أحمد الذي يولد به هذه الليلة.

وللمزيد من هذه الأخبار: انظر كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» (٢/ ١٧ ـ ١٩) ترجمة سيدنا مالك بن سنان رضي الله عنه.

روى ابنُ سيد النّاس ـ رحمه الله ـ في العيون(١) خبر تجارة سيدنا محمّدﷺ بمال خديجة بسندٍ رفعه إلى نُفَيسة بنت منية أخت يعلى بن منية قال: لّما بلغَ رسول اللهﷺ خمساً وعشرين سنة، وليس له بمكةَ اسمٌ إلا الأمين لِمَا تكاملت فيه من خصال الخير، قال له أبو طالب: يا ابن أخي، أنا رجلٌ لا مَالَ لي، وقد اشتدَّ الزّمان علينا، وألَحَّتْ علينا سنون منكرة، وليس لنا مادّة ولا تجارة، وهذه عيرُ قومك قد حضر خروجها إلى الشَّام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً مِنْ قومك في عيراتها، فيتّجرونَ لها في مالها، ويصيبون منافعَ، فلو جئْتَها فعرضْتَ نفسك عليها، لأسرعتْ إليك وفضَّلَتْك على غيرِك لما يبلغها عنك من طهارتك، وإنْ كنتُ لأكره أنْ تأتِيَ الشَّام، وأخاف عليك من يهود، ولكن لا نجد من ذلك بداً.

وكانت خديجةُ بنت خويلد امرأةً تاجرةً ذات شَرَفٍ ومال كثير وتجارة، وتبعثُ بها إلى الشَّام فتكون عيرها كعامّة عير قريش، وكانت تستأجر الرَّجال، وتدفع إليهم المال مضاربة، وكانت قريش قوماً تجاراً، ومَنْ لم يكن تاجراً من قريش فليس عندهم بشيء؛ فقال رسول اللهﷺ: «فلعلّها ترسلُ إليّ في ذلك» فقال أبو طالب: إنّي أخاف أنْ تولي غيرك فتطلب أمراً مُدْبراً..

وبلغ خديجةُ ما كان منْ محاورة عمِّهِ له، وقبل ذلك بلَغَها ما بلغها منْ صِدْقِ حديثه، وعظمِ أمانته، وكرم أخلاقه، فقالت: ما علمتُ أنّه يريدُ هذا، ثمَّ أرسلت إليه، فقالت: إنّه دعاني إلى البعثةِ إليك ما بلغني منْ صدقِ حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيكَ ضعْفَ ما أعطي رجلًا من قومك. ففعل رسول اللهﷺ، ولقي أبا طالب، فذكر له ذلك، فقال: إنَّ هذا لرزقٌ ساقه الله إليك.

فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدم الشَّام، وجعل عمومته يوصون به أهل العير، حتى قدم الشَّام. فنزلا في سوقِ بصرى في ظلِّ شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له: نسطورا، فاطّلعَ الرَّاهبُ إلى ميسرةَ ـ وكان يعرفه ـ فقال:

(١) أي في كتابه اللطيف: عيون الأثر في فنون المغازي والشّمائل والسِّيَر.

يا ميسرة، مَنْ هذا الذي نزل تحت هذه الشَّجرة؟
فقال ميسرة: رجلٌ من قريش من أهْلِ الحَرم.
فقال له الرّاهب: ما نزل تحت هذه الشَّجرة إلا نبي.
ثم قال له: في عينيه حُمرة؟
قال ميسرة: نعم، لا تُفارقه.
قال الرَّاهبُ: هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أنِّي أدركه حين يُؤمر بالخروج.

فوعى ذلك ميسرة، ثمَّ حضر رسولُ اللهﷺ سوق بصرى، فباع سلعته الّتي خرج بها واشترى، فكان بينه وبين رجلٍ خلاف في سلْعَة، فقال الرَّجل: أحلفُ باللات والعزّى.

فقال رسول اللهﷺ: «ما حلفتُ بها قطّ وإنّي لأمرُّ فأعرضُ عنها»
فقال الرَّجل: القولُ قولُكَ.

ثم قال لميسرةَ ـ وخلا به ـ: يا ميسرة هذا نبيّ تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم. فوعى ذلك ميسرة، ثم انصرفَ أهل العير جميعاً.

كان ميسرة يرى رسول اللهﷺ إذا كانت الهاجرة[1] يرى ملكين يظلّانه من الشَّمسِ وهو على بعيره، وكان الله عزّ وجلّ قد ألقى على رسول اللهﷺ، المحبة من ميسرةَ، فكان كأنَّه عبدٌ لرسول اللهﷺ، وباعوا تجارتهم، وربحوا ضعْفَ ما كانوا يربحون، فلّما رجعوا فكانوا بمرِّ الظّهران[2]، قال ميسرة: يا محمّد، انطلق إلى خديجةَ فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرفُ لك ذلك.

فتقدّمَ رسولُ اللهﷺ حتى دخل مكة في ساعة الظَّهيرة ـ وخديجة فِي علْيَةٍ لها معها نساء فيهن نُفيسة بنت منية ـ فرأتْ رسولَ اللهﷺ حين دخل وهو راكب على بعيره، ومَلَكان يظلّان عليه، فأرته نساءها، فعجبْنَ لذلك، ودخل عليها رسول اللهﷺ، فخَّبرهَا بما رأتْ، فقال لها ميسرة: قد رأيتُ هذا منذ خرجنا من الشَّام،

---

(١) الهاجرة: اشتداد الحر.
(٢) واد قريب من مكة.

وأخبرها بقول الرَّاهب نسطورا، وقول الآخر الذي خالفه في البيع، وربحت في تجارتها ضعف ما كانت تربح، وأضعفتْ لرسولِ اللهﷺ ضعفَ ما سمَّتْ له[1]. . . .

أَطْيَافٌ مِنَ الذِّكْرَيات:

يبدو أنَّ خديجة رضي الله عنها قد وَعَتْ جيّداً ما أخبرها به غلامها ميسرة عن كرامةِ محمّدﷺ. ويبدو أنها ذهبتْ إلى ابنِ عمِّها ورقةَ بنِ نوفل، وقصّت عليه ما حدَّثها به غلامها ميسرة عن أخبار محمّدﷺ، وعمَّا فَعَلَ الأمينُ في رحلته، فقال لها ورقة: إنْ كان هذا حقاً يا خديجة، إنَّ محمّداً نبيٌّ هذه الأمّة، وقد عرفتِ أنَّه كائن لهذه الأمّة منتظر هذا زمانه.

شُغلتْ خديجةُ بأحاديث وذكريات، شُغلت بحديث ميسرة عن محمّدﷺ، وبقولِ ابن عمها ورقة: إنَّ محمّداً نبيٌّ هذه الأمّة، واحتلّ الحلمُ ـ الذي رأتْ فيه الشَّمس تهبطُ من سماء مكة لتستقرَّ في دارها ـ أقطارَ رأسها، وراح صوتُ ورقة يتردّدُ في أعماقها: أبشري يا ابنة العمّ، لو صدق الله رؤياك ليدخلنَّ نور النّبوة دارَكِ، وليفيضنَّ منها نور خاتم النَّبيين.

وطافت بذهنها ذكرى أخرى، ذكرى يوم العيد الذي خرجت فيه نساء مكةَ إلى الكعبةِ، تذكَّرتْ ما قاله ذلك اليهودي هنالك: يا معشر نساء قريش، إنَّه يوشك فيكن نبيٌّ قَرُبَ وجوده، فأيّتكنَّ استطاعتْ أنْ تكون فراشاً له فلتفعلْ.

كانت خديجةُ تطلقُ لخيالها العَنَان ليحلِّق كيف شاء وأنّى شاء، فهذا سيلُ مِنَ الذِّكريات يتدفّق على خيالها فيملأ صفحة حياتها أُنْساً وسروراً.

إنَّ الدلائل لتشير إلى أنَّ محمَّد بن عبد الله ذو شأن، فهو خير أهل مكة، وأفضل أهل الحرم، فإذا لم تكنِ النّبوّة فيه، ففيمن تكون؟!

إنَّ كلَّ الرُّهبان والكهّان قد بشّروا به وبقربِ ظهوره، بل وبسماته وعلاماته

(١) انظر: عيون الأثر في فنون المغازي والشّمائل والسِّيرلابن سيد الناس(١/ ٦٠ ـ ٦٢).

وموطنه، حتى ابن عمّها ورقة الشّيخ الكبير الذي أنفق عمره في النّظر في الكُتُب القديمة، وعرف اللغات الأخرى قال لها: إنَّه نبيٌّ هذه الأمّة، ثمَّ إنَّ خديجةَ هي نفسها لتحسَّ إحساساً خاصاً، أنَّ محمّداً ليس كغيره من النّاس، ومن رجالات قريش. .

انتقلت خديجة من سيلِ ذكرياتها إلى الواقعِ الذي تحياه، نظرت وفكّرتْ في محمّد، فإذا هو يملأ صفحة خيالها، إنَّ شخصية محمّد كانت أقرب إلى هالة من نور تشرح الصَّدر، وتملأ النَّفْس نقاءً وضياءً، وتوقظ في الوجدان عوامل الخير.

إنَّ محمّداً هو هو. . . هو الذي خُلق ليكون سيّداً، ليكون راعياً للبشر، مَنْ رآه بديهة هابه، ومَنْ خالَطَه أحبَّه، فهو لطيفُ المحضر، يَصِلُ الرَّحم، ويصدق الحديث، هو الأمين، وهو أصدق النَّاس لهجة، وأوفى النّاس ذمّة، لكأنّما خُلقَ من مكارم الأخلاق، فهو على خُلُقٍ عظيم، وخلق كريم، أحبَّ النّاس، وأحبّه النّاس، بل استولى على قلوبهم برفْقِهِ ورقّته ودماثة خلقه.

اجتمعت الدلائلُ والقرائن عند خديجة بأنَّ محمّداً هو الرَّحيقُ الذي يُختم به الأنبياء، فباتت ترجو أنْ تكونَ زوجاً له ولكن أنّى الطّريق إلى ذلك؟!

خَديجَةُ ورغبةٌ مَبَاركةٌ:

كان تقديرُ خديجةَ رضي الله عنها لسيِّدنا محمّدﷺ تقديراً واقعياً، دافعاً لها على أنْ تفكرَ في شأْنِهِ تفكيراً آخر أكبر من كونه يتجرُ في مالها فتربح ويربح.

إنَّها عرفتْ محمّداً بما عرفه به قومه أميناً صدوقَ الحديث، عزوفاً عن الدَّنايا، طموحاً لعوالي الأمور، متسامياً بنفسه عن مغامزِالمروءةِ، كسوباً للخير، فعّالاً له، بل إنَّ خديجة قد عرفت محمّداًﷺ أكثر مما عرفه قومه، عرفته عاملاً في مالها، وصَحِبَهُ في سفره غلامها الأمين ميسرة، فحدَّثها عن أخلاق محمّدﷺ في السَّفر والعمل، وحدَّثَها بما شهد من دلائل مستقبل هذا الفتى الكريم، وحدَّثها عن تنبؤات الرّهبان، وحدثها عن مظاهر رعاية الله له، ورأت هي من مظاهر الرِّعاية ما عجّبتْ منه نساءها، وتذكرت حديث اليهودي في أَحَدِ أعياد قريش

عندما أعلن بظهور نبيّ، فَوَقَرَ كلّ ذلك في نفسها.

إنَّ خديجةَ الآن امرأةٌ خليةٌ مِنَ الزَّوج، شريفة حسيبة، ذات مال كثير، يحتاج إلى يَدٍ أمينة تدبّره وتنمّيه وتحوطه، ثم إنَّ محمّداًﷺ في ذروة الشَّرف من قومها، أليس هو سليل عبد المطلب شريف قريش وسيدها؟! بلى. . . . أوليس هو أنبل فتى وأعقله، وأعظمه أمانة، وأكمله مروءة ؟! ثم إنَّه خليٌّ هو الآخر لم يتزوّجْ وقد بلغ سنّ اكتمال الشَّبابِ، فما يمنعها أنْ تكونَ زوجاً له، وما يمنعه أنْ يكونَ زوجاً لها؟!

لقد علمتْ خديجةُ رضي الله عنها ـ وهي ذات الشَّرف الطَّاهر، والمال الوافر الظَّاهر، والحَسَبِ الفاخر ـ أنَّ محمّداًﷺ حاله حال التُّقى والزُّهد والحياء، وهذه السِّمات فيه سجيةٌ وطبيعةٌ لا اكتساب، وأتى خديجة الأحاديث الكثيرة، بأنَّ الغمامة والشَّجر قد أظلّتْ محمّداًﷺ ، كما أتتها الأخبارُ من بعض الأحْبَارِ بأنَّ وَعْدَ الله لرسولهﷺ بالرِّسالة قد قرب الوفاء به، وقَرُبَ مبعثه، فبسبب ذلك خطَبَتْه خديجة، وعرضت نفسها بطريقتها الخاصّة عليه، وما أحسن بلوغ الأذكياء ما يتمنونه، ولله درّ البُوصيري حيث أشار إلى ذلك في همزيته اللّطيفة الشّهيرة:

ورأَتْـهُ خـديجـة والتُّقى والـزُّهْـ ـد فـيـه سجـيـةٌ والحـيـاءُ
وأتـاهـا أنَّ الـغـمـامـةَ والسَّر ح أظـلتـه مـنـهـا أفـيـاءُ
وأحـاديث أنَّ وَعْـد رسـول الـلـ ـه بـالبعث حـانَ منه الـوفـاءُ
فـدعتـه إلى الـزَّواج ومـا أحـ ـسنَ أنْ يبـلغَ المنى الأذكيـاءُ

لقد عرفتْ خديجةُ كلَّ شيء عن محمّدٍﷺ، ولكنْ ما الطَّريق الذي يوصلها إليه؟! إذن فلتدسَّ إليه صديقة من صديقاتها اللاتي تثقُ بهنَّ، ويعرفنَ رغباتها، ومن ثمَّ تلقي إليه هذه الرَّغبة إلقاءً عارضاً كيما تعرف مكانها من نفسه.

روى ابنُ سَعْدٍ من طريق شيخه محمّد بن عمر بن واقد الأسلميّ الواقديّ ـ رحمها الله ـ عن نُفَيْسَة بنتِ منية قالت: كانت خديجة بنت خويلد امرأةً حازمةً،

(١) انظر: السيرة الحلبية(١/ ٢٢٧ و٢٢٨) بشيء من التصرف.

جَلْدةً، شريفةً، مع ما أراد الله بها منَ الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريشٍ نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكلّ قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيساً إلى محمّدﷺ بعد أنْ رَجَعَ من عِيْرها من الشَّامِ.

فقلتُ: يا محمّد ما يمنعك أنْ تزوّجَ؟

فقال: «ما بيدي ما أتزوجُ به»

قلتُ: فإنْ كُفيتَ ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشَّرف والكفاءة، ألا تجيب؟

قال: «فمَنْ هي»؟

قلتُ: خديجة..

قال: «وكيف لي بذلك»؟

قلتُ: عليّ

قال: «فأنا أفعل»

فذهبتُ فأخبرتُها.

فأرسلتْ إليه أن ائت لساعةِ كذا وكذا، وأرسلتْ إلى عمّها عمرو بنِ أسد ليزوّجها فحضر، ودخل رسول اللهﷺ في عمومته، فزوّجه أحدهم، فقال عمرو بن أسد: هذا البُضْعُ لا يُقْرع أنفه. وتزوّجها رسولُ اللهﷺ، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة، وُلدتْ قبل الفيل بخمس عشرة سنة[1].

لقد وضح الطَّريق وسَهُلَتْ مهمّة الصِّدِّيقة الأمينة خديجة، ودُعي محمّدﷺ إلى الجمال والشَّرف والعقل والكمال، إلى خديجةَ ابنة خويلد سَيدة نساء قريش وأطهرهن، فأجاب كفْأً كريماً، وزوجها عمّها عمرو بن أسد[2]، وزوّج محمّداًﷺ عمه.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (١/ ١٣١ و١٣٢) قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح عن خديجة رضي الله عنها: وهي من أقرب نسائه إليه في النسب.

(٢) قال الواقدي ـ رحمه الله ـ: الثبت عندنا المحفوظ عند أهل العلم أنَّ أباها خُويلد بن أسد مات قبل حرب الفجار، وأنَّ عمَّها عمرو بن أسد زوجها رسول اللهﷺ.

كانت خديجة رضي الله عنها في سِنِّ اكتمال الأمومة، وكان محمّدﷺ في سنّ اكتمال الشَّبابِ، وفي هذا منْ أَسْرارِ الموافقات النّفسيّة ما يجعلنا نعجز عن أداءِ ذلك بالكلام، لأنَّ محمَّداًﷺ كان إلى عاطفة الأمومة وحنانها وبرّها أدنى منه حاجة إلى عاطفة الزَّوجة وحبِّها، وخديجة رضي الله عنها كانت هي الزَّوجة في حبِّها، وهي الأمُّ في حنانها وبرّها، ومنْ ثمَّ كانت امرأة واحدة في تاريخ الدُّنيا لم تتكررْ في الحياة، ولن تتكررَ في هذا الوجود. . . .

خطْبَةُ الزَّوَاجِ :

في بيتِ خديجةَ رضي الله عنها كانت ثلّةٌ من رجال بني هاشم منهم سيّدنا وحبيبنا محمّدﷺ وأعمامه: حمزة، العبّاس، وصدِّيقاه: أبو بكر، وعمّار بن ياسر، وجَمَعَ المجلسُ ابن عمّها ورقةَ بن نوفل وابن أخيها حكيم بن حزام، بينما كانت صفيّة وعاتكة ابنتا عبد المطلب عند خديجة، وبعض نسوة من صويحباتها وإمائها.

في تلكم اللحظات ما كان أحد يقّدرُ ذلك الموقف مثل خديجة الطّاهرة سّيدة نساء قريش، فكأنَّما قد رُفع عن بصيرتها الحجاب، فرأتْ مستقبلها مع محمّد الأمينﷺ الذي تنتظر الأمم مبعثَه.

في ذلكَ المجلسِ اللطيف، قام أبو طالب يخطبُ، ذكر أبو العبَّاس المبّرد ـ رحمه الله ـ وغيره، أنَّ أبا طالب خطبَ خطبة الإملاك فقال:

الحمدُ لله الذي جَعَلنا مِنْ ذريّة إبراهيم، وزَرْعِ إسماعيل، وضئضيء ـ أصل ـ معدّ، وعنصر مُضَر، وجعلنا حَضَنَة بيته، وسوّاس حَرَمه، وجَعَل لنا بيتاً محجوباً، وحرماً آمناً، وجَعَلَنا الحكّام على النَّاس؛ ثمَّ إنَّ ابن أخي هذا محمّد بن عبد الله لا يوزنُ برجلٍ إلارجح عليه براً وفضلاً، وشرَفاً وعَقْلاً، ومجداً ونبلاً.

فإنْ كانَ في المال قَلٌّ ـ قلّة ـ فَإنَّ المالَ ظِلٌّ زائلٌ، وأَمْرٌ حائل، وعاريةٌ مسترجعة، ومحمّد مَنْ قد عرفتم قرابته، وقد خَطَبَ خديجة بنت خويلد، وبذلَ لها ما آجله وعاجله من مالي عشرين بَكْرة، وفي رواية: وقد بَذَلَ لها من الصَّدَاق اثنتي عشرة أوقية ذهباً ونشّاً ـ أي نصف أوقية ـ ثم قال أبو طالب: وهو والله بعد

هذا له نبأٌ عظيمٌ، وخطر جليل، فزوّجها[1].

ولما أتمَّ أبو طالب الخطبة، تكلَّمَ ورقةُ بن نوفل، فقام عندئذ خطيباً وقال: الحمُد لله الذي جَعَلَنا كما ذكرتَ، وفضَّلَنا على ما عددتَ، فنحنُ سادة العرب، وقادتها، وأنتم أهل ذلك كلّه، لا تنكرُ العشيرة فَضْلَكم، ولا يرد أحدٌ من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصالِ بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليَّ معاشر قريش بأني قد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمّد بن عبد الله على أربعمئة دينار.

ثم سكتَ، فقال أبو طالب: قد أحببتُ أنْ يشركَكَ عمّها. فقال عمّها: اشهدوا عليَّ يا معشر قريش أنّي قد أنكحت محمّد بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وشهد على ذلك صناديد قريش.

إنَّ ورقةَ بن نوفل هذا، ابن عمٍّ خديجة، ومن أشراف قومها، وذوي أسنانهم، فلا غرابة أنْ يقدّموه في الردِّ على خطبة أبي طالب، وكأنّما أحبَّ أبو طالب أن يوثّق العَقْد، ويؤكّد الرِّضا، فأحبَّ أنْ يشاركَ عمَّ خديجة ابن عمّها، فأسرع عمُّها إلى إجابةِ أبي طالب إلى طلْبَتِهِ، فتولّى زواجها.

وقد أَوْلَمَ رسول الله ﷺ على زواجه بخديجة، وفرحت خديجة بهذا الزَّواج فرحاً شديداً.

رُوي أنَّ رسول الله ﷺ لما تزوَّجها، ذهب ليخرج، فقالت له: إلى اين يا محمّد؟ اذهب وانحر جزوراً أو جزورين، وأطعمِ النَّاسَ، ففعل.

قال صاحبُ كتاب «إنسان العيون»: فأمرت خديجة جواريها أنْ يرقصْنَ بالدّفوف[2]، وقالت: مُرْ عمّك ينحر بكراً من بكراتك وأطعمِ النّاس، وهلم فَقِلْ

(١) انظر: الكامل في اللغة والأدب للمبرد (٤/٤) والسّيرة الحلبية (١/٢٢٦) مع الجمع بينهما. وانظر: السّمط الثمين (ص١٧) والرّوض الأنف للسّهيلي (١/٢١٣) وغير ذلك من مصادر متنوعة.

(٢) قال ابنُ شهاب الزهري ـ رحمه الله ـ: وطفق رجاز من رجاز قريش تقول:

لا تزهدي خديجُ في محمّدِ ... جلدٌ يضيء كضياء الفرقد

المغازي النبوية (ص٤٣)

مع أهلِكَ، فأطعَمَ النَّاسَ، ودخلﷺ فقَالَ معها، فأقرَّ الله عينه، وفرح أبو طالب فرحاً شديداً وقال: الحمُد لله الذي أذهب عنّا الكرب، ودفع عنّا الهموم. وهي أوّلُ وليمةٍ أوْلَمَهَا رسول اللهﷺ[1].

السَّعَادةُ الزَّوجيَّةُ في بيتِ خَديجة:

رفرفتِ السَّعادة بأجنحتها على بيت خديجة رضي الله عنها، فقد وجدت الطَّاهرة خديجة في الأمين محمّد خيرِ الأزواج، فهو لطيفُ المعشر، سابغ العطف، يحيط به كلّ إنسان وكلّ حيّ، وكلّ شيء؛ فأخلاقَ محمّدﷺ كانت تنبعُ من فطرته بِنسَبٍ متّفقةٍ متكاملة، فصبره مثل شجاعته، وشجاعته مثل كَرَمِهِ، وكرمُه مثل حلمه، وحلمُه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته، وخصائصهﷺ كثيرة في الفضل.

إنَّه ليس بفظّ ولا غليظِ القَلْب، قد وسعَ حبّه جاريته بركة الحبشية[2]، فأخذها معه لما انتقل إلى دار الزَّوجية، وأكرمها وغمرها بحنانه، وفاض قلبه الكبير رقّة مسّتْ قلوب أبناء خديجة، فكان هند ابن خديجة عند أمّه بعد زواجها من محمّدﷺ، فكان ربيبُ النّبيّ سعيداً غاية السَّعادة أنْ يشبَّ وينشأَ في كنَفِ أصدق النَّاس لهجة، وأوفاهم ذِمّة، وألْيَنهم عريكة، وأكرمهم عشرة.

لقد وسع حبُّ محمّدﷺ زيدَ بنَ حارثة، ذلك الفتى الذي اشتراه حكيم بن حزام من سوق عكاظ، ووهبه لعمته خديجة، وقد تعلّق محمّدﷺ بزيد، وأحبَّ زيد محمداً حباً لم يحبّ أحداً مثله من قبل. وقد فطنت خديجة إلى هذا الحبّ الأبوي، فوهبت زيداً لزوجها فأعتقه، ولم يكتفِ بأنْ ردَّ إليه حريته السَّليبة، بل شرَّفه ورقّاه بأنْ نسبه إلى نفسه فكان زيد بن محمّد.

أحبَّتْ خديجة رضي الله عنها زوجها محمّداًﷺ حبّاً مَلَكَ عليها كلّ مشاعرها، حبَّ الزَّوجة لزوجها الكريم الذي تمثّلتْ فيه مكارم الأخلاق ومعالي

---

(١) انظر: إنسان العيون الشهير بالسيرة الحلبية (١/٢٢٧).

(٢) اقرأ سيرة بركة أم أيمن الحبشية في كتابنا «نساء مبشرات بالجنة» (١/١٤٩ ـ ١٨٢) ففيها إشراقات ولطائف تصقل النّفوس.

المكارم، فقد كانت على مرِّ الأيام وطول العشرة، تزدادُ يقيناً بأنَّ الرَّجلَ الذي اختارته لنفسها هو أصلح أهل الأرض لأداء رسالته، والنّهوض بأمّته.

كانت خديجةُ رضي الله عنها تهيىء لرسول الله ﷺ كلَّ أسباب الرَّاحة وكلّ أطراف النَّعيم، إذا أشار لبّت إشارته متهللة النّفس، رضية القلب، كريمة اليدِ، فما كانت تبخل بأموالها أيضاً، وكانت سخيّةً بعواطفها ومشاعرها وأموالها، بل لم تكن تبخل بحبِّها على مَنْ يحبّ زوجها، وكانت تكرم مَنْ يحبّه إكراماً يملأ النَّفسَ رضىً وسروراً.

في جلسة غمرتها أنوارٌ ربانيّة كان محمّد ﷺ يتحدَّثُ مع خديجة، فكان صوتُه الصَّحْل يمسُّ أوتار فؤادها وتلك الحكمة المتدفِّقَة من بين شفتيه تغمرُ روحها بسعادة عارمةٍ مجنَّحة تسمو بها فوق وجودها الملموس، وتعيشُ في أفقٍ نوراني.

في تلك اللحظات جاءت مولاة خديجة وقالت: مولاتي: إنَّ حليمةَ بنتَ عبد الله بن الحارث السَّعديّة[1] تودُّ الدخول. ولما سمعَ رسول الله ﷺ بحليمةَ السَّعديّةِ، خفقَ قلبه الشَّريف حناناً، وراحتِ الذِّكرياتُ الحبيبةُ والحانيةُ الدَّافئةُ تطفو على سطح ذهنه، ذكريات حبيبةإلى نفسه، تذكَّر بيداءَ بني سَعْدٍ ورضاعته هنالك، كانت لحظة مفعمة بالمشاعر النَّاعمة، لحظة أحْيَتْ ـ في مثل لمح البصر أو أسرع ـ أيام طفولته، وأيام نشأته بين ذراعي حليمة، وفي أحضانها.

قامتْ خديجةُ رضي الله عنها لتدخلَ حليمة، فطالما حدَّثها عنها حديثاً يقْطُر حباً ورحمةً ودفئاً وكرامةً، وعندما وقع بصرهُ الشَّريف عليها، مسَّ سَمْعَ خديجة صوته اللطيف وهو ينادي في لهفةٍ وحنان «أمّي، أمّي».

نظرتْ خديجةُ إلى رسول الله ﷺ فألفته قد فَرَشَ لها رداءه، ومرَّر يده عليها في حنانٍ دافقٍ، وقد ترقرقتْ في وجهه سعادة عارمة، وتألّق في عينيه فرحٌ فيّاض، لكأنما كان يحتوي في أحضانه أمّه آمنة بنت وهب وقد بُعِثَتْ من مرقدها.

---

(١) اقرأ سيرة حليمة السَّعدية في كتابنا «نساء من عَصرِ النّبوة» (١/ ٩ ـ ٢١) ففي سيرتها مواقف عطرة باسمة فياضة بذروة الحنان.

وفي غمرة اللقاء الحار بين رسول الله ﷺ وحليمة، سألها عن حالها، فراحت تشكو إليه قسوة الحياة والجدْبِ الذي نزل ببادية بني سعد، ثمَّ شكتْ ضيق العيش، ومرارة الفقْر، فأفاض عليها من كرمه.

وبعد ذلك حدَّثَ النَّبي ﷺ زوجة خديجة ـ في تأثرٍ واضح ـ بما أَلَمَّ في مرضعتِه حليمة من ضيق، وما حاقَ بها وبقومها من كرب، فتدفَّقت كنوزُ فؤاد خديجة بالعطف والرَّحمة، وأعطتها عن طيبِ خاطر أربعين رأساً من الغنم، كما وهبتها بعيراً يحمل الماء، وزوَّدتها بما تحتاجه في رجوعها إلى باديتها، وكانت خديجةُ رضي الله عنها متأهِّبَة على الدَّوام لتجودَ بكلٍّ أموالها، إرضاءً لزوجها محمَّد ﷺ، فَشَكَرَ لها أريحيَّتها، ثم انطلقَ ليضعَ بين يدي مرضعته ما جادتْ به خديجة.

ذُريّةٌ طَيّبَةٌ:

مضت مدّةٌ على الزَّواج الميمون، وخديجة تُدخِلُ السَّعادة إلى البيت النّبوي، وتدخل السُّرور على قلب رسول الله ﷺ، وتعمل على مرضاته. كانت تضفي على البيت النّبويّ روحها الصَّافية، وتغمره بما استطاعت من عَطْفٍ وحَنَان.

وذات يوم كانت خديجة تحمل بُشْرى عظيمة إلى زوجها، أفضتْ إليه بسرّها، أخبرته أنّها حامل، وإنْ هيَ إلا شهور حتى تضع ما في بطنها، وكانت تهتزُّ طرباً لهذا الحادث المفرح، حيث تحسُّ في صميم وجودها أنَّ في إنجابها الذُّرية من محمّد ﷺ شيءُ رائع يثلج الصَّدر ويجعل النَّفس تشرقُ بآمالٍ عظيمة، فمرور الأيام يؤكد لها أنْ سيكون لزوجها نبأٌ عظيمٌ، وشأنٌ أي شأن.

عرف السُّرور طريقه إلى قلبِهِ الشّريف ﷺ، فهل هناك فرحة أعظم لرجلٍ من أنْ يكون له عَقِب؟ وخصوصاً في المجتمع المكي عصر إذ؟! كان سرورُهُ عظيماً بالنَّبأ السَّارِّ السَّعيد الذي زفَّتْهُ إليه زوجة الرَّؤوم خديجة بنت خويلد.

وما هي إلا بضعة شهور حتى وضعت خديجة طفلة جميلة، فضمَّها محمَّد ﷺ إليه في عطف وحنان، وشكر الله على ما وهبه وسمّاها زينب.

مضت أيامٌ وشهور، كانت زينبُ خلالها فلذة الفؤاد، تتفتَّحُ تفَتُّحَ الزَّهر، وكان قلب رسول اللهﷺ يخفقُ حبّاً لها، وتنسبط أساريره عندما يراها فيرفعها ويقبلها في حنان.

تخطتْ زينبُ ربيعها الأوّل، وها هي تدخلُ في الرَّبيع الثَّاني، كانت طفلةً حُلوةً لطيفة، بينما كانت أمّها خديجة تنتظرُ مولودها الثّاني ، وكانت إذ ذاك سعيدة غاية السَّعادة، عرفتِ السَّكينةَ بعد القَلق، وذاقت حلاوة نعيم الحياة تحت ظِلال زوجها الأمين.

كان محمّدﷺ يتفرّس في وجْهِ ابنته زينب، وقد امتلأ قلبه نشوة واستبشاراً، فقد كانت تشبه خديجة، وهذا مما يزيده حبّاً لها.

أمّا خديجة رضي الله عنها فقد وضعت مولودها الثَّاني، وجاء أنثى، ففرح محمّدﷺ بما آتاه الله عزّ وجلّ، وشكره بقلبه أَنْ مَنَّ عليه بذريّةٍ طيّبةٍ، ثمّ إنَّه سمّى ابنته الثَّانية رُقَيّة، ثمّ إنَّ خديجة بعد ذلك ولدت ابنتها الثَّالثة أمّ كلثوم.

أمّا رسول اللهﷺ فقد راحَ يرنو إلى أسرته الكريمة في انشراحٍ ، فهو لا يفرّق في حبّه بين بناته ، وهند بن أبي هالة، وكذلك زيد بن حارثة مولاه، فقد وسعهم جميعاً قلبه الكبير، وفاضَ عليهم مِنْ كُنوز حَنَانِهِ وفيض رقّتِهِ، وكرم رحمته وخلقه.

كانتِ الأسرةُ المحمديّة تعيشُ حياةً ناعمة هادئة، فخديجةُ رضي الله عنها امرأة نادرة المثال في الصّفاء والنَّقاء، وفَهْمِ الحياة الزَّوجية على أساس صحيحٍ فكانت كلّما طالت عشرتها مع محمّدﷺ ازدادت إعجاباً به، فقلبه أصفى من الصّفاء، وأنقى من النّقاء، فهو بكلّ جوارحه ووجدانه وقلبه لله، ومَنْ كان لله كان الله له.

ثم بعد ذلك وهب الله عزّ وجلّ للبيت المحمديّ ابنة كريمة، أضحت فيما بعد سيّدة نساء العالمين في زمانها أمّ الحسنين، وأمّ أبيها فاطمة الزَّهراء الصَّابرة الدّيّنة الخيِّرة الصّينّة القَانِعة الشّاكرة لله عزّ وجلّ، وقد وهبَ الله سبحانه وتعالى

خديجة ولدين هما: القاسم وعبد الله، إذن فقد ولدت خديجة أربع بنات وولدين[1].

وشاءتْ إرادة الله عزّ وجلّ أنْ لا يعيش للنّبيّ ﷺ وَلَدٌ ذَكَرٌ، في وقتٍ كان العرب يتعلّقون بالنبين ويحرصون على الإنجاب، ولكنْ في تلك البيئةِ المفتونة بالنبين دون البنات، كان الحبيبُ المُصطفى ﷺ القدوة الصّالحة للمؤمنين، والمثل الأعلى للنّاس على مَرِّ العصور.

خَديجَة وَمَكَارِمُ المَعالي:

إنَّ الأخلاقَ العاليةَ، والمكارمَ النَّبيلةَ التي فُطرتْ عليها خديجةُ جعلتْ منها معْقِدَ الفضل لأهلِ الفضلِ، وينبوع الحياة لكلّ مَنْ استظلَّ تحتَ سقف بيتها المبارك الذي اكتنفته العنايةُ الإلهيّة، وسطعت فيه شمس البشريّة ونورُ الدُّنيا سيّدنا وحبيبنا محمّد ﷺ.

كانت خديجةُ رضي الله عنها تملك أسبابَ المكارم، فقد استطاعت أنْ تغذيَ بيتها بألوانِ الرَّحمة والعطف، وتجعل الأفراد الذين يعيشون في كنفها يتعلّقون في محبَّتِها، بطريقةٍ جعلتهم يحسُّون أنَّ خديجةَ أمّهم التي ولدتهم.

فقد انضمَّ إلى البيت النّبويّ أَحَد أفراد الإسلام وعباقرة الدُّنيا، وأحد أكارم بني هاشم وأكابرهم، سّيدنا عليّ بن أبي طالب، حيث كَفِلَه رسول الله ﷺ وهو طفلٌ صغير، وكذلك كان بطل مؤتة سّيدنا زيد بن حارثة حبّ النّبي ﷺ ممن ظللّته رعاية خديجة، ونَالَه مِنْ عطفها وعطف محمّد رسول الله ﷺ ما جعله ينسى أهله، لا بل فضّل البيت المحمّدي على أبويهِ الحقيقيين. . . . ومَنْ كمحمّد وخديجة؟

فقد كان محمّد ﷺ يحبُّ زيداً، وكانت خديجة تحبُّ كلّ مَنْ يحبُّه رسول الله ﷺ، وهَوَاهَا دائماً معَ مَنْ يكون هوى زوجها معه، فقد أحبَّتْ عليَّ بن أبي طالب،

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (١/١٣٣) والكامل في التاريخ (٢/٤٠) وتاريخ الإسلام للذهبي (السيرة النبوية ص٦٥ و٦٦) ونساء مبشرات بالجنة (١/٢٥) وغيرها من المصادر الوثيقة.

وأحبَّت الحاضنة أمّ أيمن الحبشية، وأحبّتْ زيد بن حارثة ذلك الذي ضَرَبَ أورعَ الأمثلة في الوفاء لخديجة، وفي الوفاء لعطفها وبرّها به وكرمها معه...

وقد أثبتَ زيدٌ هذا في أدقِ المواقف وأحرجها، وقد وعت ذاكرة التّاريخ ذلك الموقف المبارك لزيد.

ففي أحدِ أيامِ الحجِّ، كان رسول اللهﷺ في عَرَفة، وكان معه مولاه زيد بن حارثة في أهل بيته، وكان زيدٌ قد سُبيَ من عند أهله، وهناك في عَرَفَةَ رآه بعض قومه من بني كلب فعرفه، فذهب إليه وقال له: مَنْ أنت يا غلام؟

قال زيدٌ: منْ أهلِ مكة.

قال الرَّجلُ: مِنْ أنفسهم؟

قال زيد: لا.

قال الرّجل الكلبيُّ: فحرٌّ أنتَ أَمْ مملوك؟

قال: مملوك.

قال الرجل مستوضحاً: عربيٌّ أنتَ أمْ أعجمي؟

قال زيد على الفور: بل عربيٌّ من بني كلب، وبالتّحديد من بني عبد ودّ...

فقال الرَّجل: ابن مَنْ أنتَ؟

قال زيد: ابن حارثة بن شراحيل

قال الرَّجل: وأين سُبيتَ؟

قال زيد: من عند أخوالي في طيء.

قال الرَّجل: ما اسم أمّك؟

قال زيد: سُعْدى بنت ثَعلبةَ.

قال الرَّجل: اسمعْ حالَ أبيك حارثة، وما ينشد في التّفجّعِ عليك، وكيف كان يبكي في غيبتك التي لا يُعرف لها نهاية، ولا يعرف لك فيها مستقراً أو مقاماً، وراح الرّجل ينشد قول حارثة والد زيد:

بكيتُ على زيدٍ ولم أدْرِ ما فعل   أحيٌّ فيرجى أمْ أتى دونَه الأجل
فوالله ما أدري وإنّي لسائلٌ   أغالكَ بعدي السّهل أمْ غالكَ الجبل

واستمرَّ الرَّجل في إنشاده، وزيد مطرق الرَّأس تتصارعه عواطف شتى، فأراد أنْ يكفكفَ دموعَ أبيه وقومه، ويخفّفَ من لهفتهم عليه ببعْثِ الطُّمأنينة إلى قلوبهم، وإرسال بريد شفوي يعلمهم بحياته وسلامته، ويخبرهم - مع ذلك - بسعادته العظيمة حيثُ يقيمُ في أرغد مقام، وقد أبدله الله بأبٍ خير من أبيه، وبأمّ خير من أمّهِ، وبأخوةٍ خير من إخوته(١)، ثم قال للرَّجل ومَنْ معه من بني كلب ممّنْ عرفوه وعرفهم: أبلغوا أهلي هذه الأبيات، فإنّي أعلم أنَّهم قد جزعوا عليَّ، فقال:

أحنُّ إلى قومي وإن كنتُ نائياً | فإنّي قطينُ البيتِ عندَ المَشاعرِ
فكفّوا مِنَ الوجْدِ الذي قد شجاكمُ | ولا تعملوا في الأرض نصَّ الأباعرِ
فإنّي بحمدِ الله في خيرِ أسرةٍ | كرام معدّ كابراً بعد كابرِ

انتهى موسم الحجِّ، وانطلق الرَّجلُ الكلبيُّ وقومه، فأعلموا أباه وحارثة، وعمّه كعب، ووصفوا له موضعه، وعند مَنْ هو وأنشدوا شعر زيد ابنهم، فكانت الدموع تجري، والألم يتجدد، وإنْ تحرك في الصَّدر آمال، وإنْ خفقَ القلب بالرجاء

شدَّ حارثةُ وكعبُ ابنا شراحيل الرِّحال إلى مكةَ لفداء زيد، حتى إذا ما بلغاها، انطلقا إلى دار خديجة بنت خويلد وسألا عن محمّدﷺ، فقيل لهما: هو في المسجد، فدخلا عليه فقالا: يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيّد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكّون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك، فامننْ علينا، وأحْسِنْ إلينا في فدائه، فإنّا سنرفع لك في الفداء.

قال رسول اللهﷺ ولم تفارقِ الابتسامةُ شفتيه الشَّريفتين: «مَنْ هو»

قالا: زيد بن حارثة يا ابن الأكارم الأطهار الأخيار.

فقالﷺ لهما: «أَوَ غيْرَ ذلك»؟

قالا: ما هو؟

قالﷺ في صدقٍ ويقين: «أَدْعُوهُ فأخيّره، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فو الله ما أنا الذي أختار على مَنِ اختارني أحداً».

---

(١) ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة، أن إخوة زيدهم: قيس وعمرو ويزيد وجبلة بنو حارثة بن شراحيل.

وفرح حارثةُ وكعب فرحاً شديداً، فما كان يخطرلهما أنْ يعرضَ أحدٌ مثل هذا العرض الكريم السَّخي الذي ينمُّ عن خُلُقٍ عظيم، ومنتهى مكارم الأخلاق ومعاليها، وعندئذ قالا لرسول الله ﷺ: أحسنتَ وزدتنا عن النِّصف.

ودعا النَّبيُّ ﷺ زيدَ بنَ حارثة، فلّما جاءه قال له في رفق أبوي: «هل تعرفُ هولاء»؟ وأشار بيده الشَّريفة إلى حارثةَ وأخيه كعب.

قال زيدٌ في هدوء: نعم، هذا أبي حارثة بن شراحيل، وهذا عمي كعب بن شراحيل.

فقال النَّبيُّ ﷺ في بساطةٍ وهدوء: «فأنا مَنْ قد علمتَ، ورأيت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما».

ولم يتردَّدْ زيدٌ في الإجابة أو يتلجلجْ لسانهُ بحرفٍ واحد، وإنَّما قال وهو يرنو إلى النَّبيِّ ﷺ في حبٍّ صادق وقول أكيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنتَ مني بمكان الأبِ والعمِّ.

فقال أبوه حارثة وعمّه كعب وقد اعتراهما دهش وفزع: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحريّة، وعلى أبيك وعمّك وأهل بيتك؟

وقطع زيدٌ على أبيه وعمّه دهشهما فقال دون تردّدٍ: نعم، إنّي قد رأيتُ مِنْ هذا الرَّجل شيئاً ما أنا بالذي أختارُ عليه أحداً أبداً.

فلّما رأى ذلك رسول الله ﷺ أخرجه إلى الحِجْرِ - محل جلوس قريش - وقال: «يا مَنْ حضر، اشهدوا أنَّ زيداً ابني، يرثُني وأرثه».

ولما رأى ذلك أبوه وعمّه طابت أنفسهما، فانصرفا، ودُعي زيد بن محمّد، حتى جاء الله بالإسلام، ونزل قوله تعالى: «ادعوهم لآبائهم» [الأحزاب: ٥] فدُعيَ يومئذ زيد بن حارثة[1].

---

(١) رجال مبشّرون بالجنة (١/١٣٩ - ١٤٤) بشيء من التّصرف. وانظر زاد المعاد (٣/٢٠ و٢١) والقصة مشهورة في كتب التّفسير والحديث والسِّيرة والطّبقات فلتراجع في مواطنها.

معرفتُها قَدْرَ النَّبيِ ﷺ:

رسالةُ سيّدنا محمّدﷺ أكمل الرِّسالات كمالاً، وأفضلهم فضلاً، وأعْلاهم قَدْراً، وأشرفهم شرَفاً وأقربهم قُرْباً، وأرفعهم منزلةً، وأعلمهم بالله، وأتقاهم لله، وأخشاهم لله، وأكرمهم إلى الله، وأعزّهم عند الله، وأهداهم سبيلاً، وأعمُّهم رسالة، وأشملهم دعوةً إلى الله، وأحكمهم حكمة، وأيسرهم هدىً، يُضاف إلى ذلك أنّه محمّد رسول اللهﷺ خاتم النّبيين، وسيد المرسلين.

ولقد كانت خديجةُ رضي الله عنها الزَّوجة الأمينة الوفيّة بفطرتها الأصيلة أعرف النّاس بقَدْرِ محمّدﷺ، وأعلمهم بجلالِ مقامه عند الله.

فقد عَرفَ محمّدﷺ ربَّه قبل أَنْ يُبعث، وأشرق قلبه بأنوار يسَّرَتْ له مشاهدة ما وراء حواسه، فاستوى بصره وبصيرته، وأرشد إلى طريق الحقِّ، حتى إذا ما أتمَّ الله تدربيه، وإعداده لتحمّلِ نزول الوحي عليه كلِّفَ بالِّرسالة، فكان عليه وحده بتأييدٍ مِنْ ربِّهِ أنْ يخلعَ الشِّرْكَ وعبادة الأوثان من رقاب النَّاس.

هذا وقد حبب الله عزَّوجلَّ إلى محمّدﷺ الخلوة، فلم يكن شيء أحبَّ إليه منْ أن يخلوَ وحده، وما كانتِ الطَّاهرةُ خديجة لتضيق ذرعاً بهذه الخلوات التي تبعده عنها أحياناً، وما كانت لتعكر صَفْوَ تأملاته بأشياء تافهة، وإنّما حاولت أنْ تحوطه بالرِّعاية والهدوء ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وذلك معرفةً لقَدْرِهِ، فإذا ما انطلق إلى غارِ حراء للعبادة، ظلَّتْ عيناها ترعاه من بعيد، ولم تكتفِ بهذا، بل كانت ترسلُ وراءه مَنْ يحرسه ويرعاه دون أنْ يقتحَم عليه خلوته، أو يعكرَ عليه صفاءه، أو يقطعَ صلته بربِّهِ في ذلك الغار.

أمَّا محمَّدٌﷺ فقد كان ربُّه يرعاه ليصنعه على عينه، وألقى منْ فيضِ كرمه في قلْبِهِ الأنوار، ففتح الله عليه منْ مزايا لطْفِهِ ورحمته، فإذا هو على نورٍ من ربِّهِ.

وفي غار حراء، أقبل محمّدﷺ بكيانه على الله، فإذا بأنوارٍ ربانيّة تغشى المكان، وإذا برحمةٍ إلهيّة تتنزل على من اصطفاه ربّه ليكون رسوله إلى النَّاس، وإذا بالرُّوح الأمين يكلِّفُه برسالةٍ تنوءُ بحملها الجبال، رسالة هداية البشريّة جمعاء،

ودعوة النَّاس إلى عبادةِالله وحده لا شريك له. . .

خَديجَةُ وبَدْءُ الوحْيِّ:

قال ابنُ قيّم الجوزيّة ـ رحمه الله ـ في كتابه القيّم «زاد المعاد»: فلّما كمل لهﷺ أربعون أشرقتْ عليه أنوار النّبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثَه إلى خَلْقِهِ، واختصَّه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده.

وفي تلك الأثناء، وفي بدايةِ نزول الوحي جبريل الأمين، على الأمين محمّدﷺ، كانت خديجةُ ذات أثر كبير، وفضل جسيم في هذا الموقف العظيم، حيث أثبتت أنّها سيّدة النِّساء في هذا، واستطاعت أنْ تلقيَ كلماتٍ نورانّية ما يزال شعاعها ينيرُ العقول إلى ما شاء الله. ولنقفِ الآن أمامَ السِّيِّدة الطَّاهرة العاقلة خديجة رضي الله عنها، ولنتصور ذلك الموقف عندما نزل الوحيُّ على رسول اللهﷺ للمّرةِالأولى. .

روى الإمامُ البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في الجامع الصَّحيح، في باب؛ كيف بدأ الوحي، عن عائشةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنَّها قالت: أوّلُ ما بديء به رسول اللهﷺ منَ الوحيّ الرُّويا الصَّالحة أو الصَّادقة في النَّوم ـ كما في رواية كتابَي التّفسيرُ والتعبيرمن البخاري ـ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح، ثمَّ حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، يتحنّث فيه ـ وهو أي التّحنّث: التّعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أنْ ينزعَ إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءه المَلَك، فقال: اقرأ[1].
قال: ما أنا بقاريء

(١) إنَّ في طلب القراءة في وحي اليقظة، وبدء الرِّسالة من النّبيِّﷺ وهو الأميّ الذي لا يعرفُ القراءة ولا يحسنها، تنبيهٌ على أنَّ قراءته التي يُطلب منه تحقيقها لا تجري على سننِ مألوفِ النَّاس في حياتهم البشرية، وإنّما تحقق له القراءة بمحض الفيض الإلهي مستعيناً باسم ربّه الذي جعل من قراءته وهو أمي معجزة رسالته، وهي رسالة لا تقف عند حدود طبيعته الشّخصية في أميته، بل هي رسالة؛ أساسها العلم والمعرفة وأنَّ علمه ومعارفه اللّذين

قال: فأخذني فعطّني حتى بلغَ منّي الجهدُ، ثمَّ أرسلني فقال: اقرأ. قلتُ: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطّني الثّانية حتى بلغ منّي الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ: فقلتُ ما أنا بقارىء، فأخذني فغطّني الثّالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿**اقرأ باسم ربّك الذي خلق. خَلَق الإنسانَ من عَلَق. اقرأ وربُّك الأكرم**﴾ الآيات، إلى قوله ﴿**علّم الإنسانَ ما لمْ يعلم**﴾ فرجع بها رسول اللهﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: «زملوني، زملوني» فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة: ـ وفي كتابي التَّفسير والتَّعبير ـ فقال: أيْ خديجة مالي؟ لقد خشيتُ على نفسي، فأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي.

فقالت خديجة: كلّا، والله لا يخزيكَ اللّهُ أبداً، إنَّك لتصلُ الرّحمَ، وتصدقُ الحديثَ، وتحملُ الكلَّ، وتكسبُ المعدومَ، وتقري الضَّيفَ، وتعينُ على نوائبِ الحقِّ.

فانطلقتْ به خديجة حتى أتتْ به ورقةَ بن نوفل بنِ أسد ابن عبد العزى، ابن عمّ خديجة، وكان امرءاً تنصَّرَ في الجاهلية وكان يكتبُ الكتاب العبراني، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانيّة ما شاء الله أنْ يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عميَ، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ: اسمع من ابنِ أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟

فأخبره رسول اللهﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا النَّاموس الذي نزّل اللّهُ على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيّاً إذْ يخرجك قومك فقال رسول اللهﷺ: أو مخرجي هم؟

قال: نعم، لم يأتِ رجل قطّ بمثلِ ما جئتَ به إلاّ عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نَصْراً مؤزّراً، ثمّ لمْ ينشبْ ورقة أنْ توفيَ، وفَتَرَ الوحي(1).

= تعتمد عليها رسالته الخاتمة لرسالات السَّماء الخالدة بخلود الحياة، ليسا ممّا يتعارض مع وصفة الطّبيعي في أميته التي جعلها الله خصيصته في رسالته، وجعلها مناط صدقه في دعوته، ودعامة معجزته في رسالتهﷺ.

(1) رواه البخاريُّ، انظر فتح الباري (1/30) حديث رقم (3) وأخرجه البخاري كذلك في =

وفي هذا الحديث الشَّريف يتبيّنَ لنا مِقْدارَ ما وصلت إليه خديجة رضي الله عنها من ثبات اليقين، وقوته، وإشراق الكمال في نفسها، واكتمال معالم شخصيتها التي تفرَّدتْ بها في عالم النِّساء في عَصْر النّبوة، ولنا وِقْفَة مباركة مع كلماتها النّورانية للحبيب المصطفى ﷺ عند نزول الوحي عليه...

خَديجةُ وكلماتُ النُّورِ والإلهَام:

كانت أمُّ المؤمنين السَّيّدة خديجةُ رضوان الله عليها أعرفَ النَّاس بقَدْرِ ومكانة محمّد ﷺ، فهي رضي الله عنها إذ يعودُ إليها ﷺ من متعبّدِهِ وخلوته إثْر مفاجأة المَلَكِ له في غار حراء، ويتحدَّث إليها، بعد أنِ استراحَ متزملاً، متدثّراً في فراشهِ، لتهدأ نفسهُ الكريمة منْ هول ما كابدت من عَنَاءِ المفاجأة، وما احتفَّ بها الغَطِّ الجاهد المجهد، الذي هزَّ بشريته هزّاً بالِغَ الأثر في بدنه ويقول لها: «أي خديجة، ما لي؟ لقد خشيتُ على نفسي» ويخبرها خَبَر ما رأى وما سمع وما جرى له.

وكانت خديجةُ عليها سحائب الرضوان على يقينٍ تامٍّ بما يملكُ محمّدُ ﷺ من رصيدٍ في مكارم الأخلاق، وفضائل الشَّمائل، فتقولُ له مستلهمةً إيمانها الفطريّ بتوفيقِ الله: كلّا، لا تخش شيئاً يعوقك عن الوصول إلى ما أُريدَ بك منَ الخير والشَّرفِ، وإنَّك لبالغ من فضل الله وإنعامه وكرمه وفيضه، ما يبلغك أهداف ما حُمِّلْتَ من أعباء الحقِّ والهدى والهداية، ولن يخزيَكَ الله أبداً، لأنَّه أعدَّكَ بما ألبسك مِنْ خِلَعِ المكارم الإنسانيّة، فقد جَمَّلَكَ بأحوالِ المكارم التي لا يُخزى من يُحلّى بها لا سيّما وأنّه صُنعَ على عينِ الله ورعايته الصَّمدانية التي ترفعك عالياً عالياً...

= مواضع عديدة برقم (٣٣٩٢ و٤٩٥٣ و٤٩٥٥ و٤٩٥٦ و٤٩٥٧ و٦٩٨٢). وانظر صحيح مسلم بشرح النووي (٢/١٩٧ ـ ٢٠٤) وأخرجه أحمد في المسند (٦/٢٣٢ و٢٣٣) وعبد الرزاق في المصنف (٩٧١٩) والبيهقي في الدلائل (٢/١٣٥) وأسد الغابة (٦/٨٢) والسِّيرة (١/٢٣٦ ـ ٢٣٨).

قالت خديجة:

إنَّك لتصدقُ الحديثَ،

وتصلُ الرَّحِمَ،

وتحملُ الكلَّ،

وتكسبُ المعدومَ،

وتقري الضَّيفَ،

وتعينُ على نوائب الحق،

وتؤدّي الأمانةَ.

إنَّ خديجةَ أمّ المؤمنين ـ رضوان الله عليها ـ تُريه بهذه الكلمات المشرقة، أنّها تستبعدُ كلَّ الاستبعاد، ما هجَسَ في نفسهﷺ إشفاقاً أنْ تضعفَ قواه البشرية عن تحمّل أثقال ما حُمِّلَ من أعباء الرِّسالة الرَّبانيَّة.

لقد كانتْ كلماتُ الإيمان الفطريِّ النُّورانيّة مِنَ الزَّوجة الأمينة الوفيّة ـ وزيرة الصِّدق، ومأنس الرَّوح والقلب، أعقل نساء العالمين خديجة ـ سُبُحات تستشرفُ أُفْقَ مستقبل محمّد رسول اللهﷺ في أطوار رسالته بأمل فسيح مبارك موصول بكمال شخصيّته وفضائلهِ الإنسانيّة النَّبيلة التي كانت معالم معروفة بين أبناء قومه ومَنْ يعرفه بتلك الشَّمائل الحسنة.

فأمُّنا أمّ المؤمنين خديجة عليها سحائب الرّضوان كانت مباركة في إلهامها عندما ترجمت بكلماتها النُّورانية عنوان تلك المعالم في مستقبل زوجها محمّدﷺ نبياً ورسولاً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

ولهذا كلِّهِ كانت أمُّنا خديجة رضي الله عنها نفحةً من نفحاتِ المددِ الإلهيّ في سجلِّ الرِّسالةِ المحمّديّة، نفحة ندية نادرة لم تتكررْ ولن تتكررَ، وتلك نعمة مِنَ الله يَمُنُّ بها على مَنْ يشاء مِنْ عباده، وتلك رحمةُ الله يصيبُ بها مَنْ يشاء من خلقه والله ذو الفضل العظيم، ولا يضيع أَجْر المحسنين.

وقْفَةٌ نديَّةٌ مَعَ كَلِمَاتِ خديجة:

إنَّ الكلماتِ العظيمة التي قالتها خديجة لرسول اللهﷺ، وهو في ذلك

الموقف الحرج، لدليلٌ على إلهام الفراسة، وفراسة الإلهام، ونستطيع أنْ نقفَ وقفات نديّة تحت ظلال تلك الكلمات النَّضرة.. كلمات النُّور التي قالتها خديجة، كلمات الحقِّ والثبات واليقين التي زكتْ موقفها، وكأنها أرادت أنْ تقولَ:

يا أبا القاسم، يا أكمل الكملة منَ الخلق، لن يقعَ لك ما تتخوَّفه على نفسك الزَّكية العلية من ضعْفٍ عن تحمُّلِ أعباء ما شَّرفَك الله به منْ رسالةِ الخلود.

لن تعجزَ يا أبا القاسم عن القيام بموجبات تبليغِ الأَمْر الإلهي، لأنَّ الله تعالى هو الذي اختارك له وخصّك به، وهو أعلم حيثُ يجعل رسالته.

إنَّكَ يا أبا القاسم، قد فَطَركَ الله على أفضلِ مَنْ فَطَرَ عليه أحداً مِنْ خلقه، فلن يخزيَك أبداً، ولن يحزنَ قلبك الكبير السَّليم بوقوعِ شيء مما تشفقُ منه وتخافه على نفسك، لأنَّ فيك من خصالِ الجِبِلَّةِ الكماليّة ومحاسن الأخلاق الرضيّة، وفضائل الشِّيم المرضيّة، وأشرف الشَّمائل العلية، وأعلى معالي المكارم، وأكرم مكارمِ المعالي ما يضمن لك الفوز، ويحقّق لك الفلاح والصَّلاح والنَّجاح، وستظفر بطلبتك، وتؤدي رسالتك، ويخلد ذكرك، ففيك منْ الخصالِ الحميدة، والصِّفات الرَّشيدة ما يجعلك الخالد أبَدَ الدهر.

فمن نفحات الكلمات الأولى للطَّاهرة خديجة: إنَّك لتصدقُ الحديث، أرادتْ أنْ تقولَ: فأنتَ الصَّدوقُ المصدَّق، وأنتَ الصَّادقُ الأمينُ، فصِدْقُ الحديث عندك سجية، إذا قلتَ شيئاً قالتِ الموجوداتُ من حولك وهتفتِ الدُّنيا: صَدَقْتَ..... أبا القاسم وصَدَّقتَ وقومك ـ على الرِّغم من عجرِهم وبجْرِهم ـ دعَوْكَ فيما بينهم «الأمين» وقد جهروا بهذا اللقب معترفينَ لك بهذه الخصلةِ النَّبيلة، خصلة الصِّدق في الحديث..... شهدوا على أنفسهم فقالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً.

بل إنَّ أعتى أعدائك يشهد لكَ بسجيّة الصِّدق، ففي حديث أبي ميسرة أنَّ

رسولَ اللهﷺ مرّ بأبي جهل[1] وأصحابه فقالوا: يا محمّد والله ما نكذّبك وإنَّك عندنا لصَادق، ولكنْ نكذّبُ ما جئتَ به، فنزلتِ الآية الكريمة: ﴿فإنَّهم لا يكذّبونك ولكنَّ الظَّالمين بآياتِ الله يجحدون﴾ [الأنعام: ٣٣] نعم فالصِّدق أشرف الخِصَال أبا القاسم...

وفي ظلالِ الكلمةِ الثَّانية لخديجةِ رضي الله عنها تقول: وتَصِلُ الرَّحم،

وأنتَ يا أبا القاسم، وصولٌ للرحم، تقرِّبُ البعيدَ، وتدني القصيّ، وتغسلُ الأحقاد، وتزرعُ الألْفَة والمودّات، وهذه فضيلة ومكرمة توثق عرى المحبَّة بين ذوي القربى، وتجمعُ القلوب على الصَّفاء والودِّ؛ وصلة الرّحمِ هذه أصل من أصول مكارم الأخلاق التي من سجاياك.

وثالثةُ الكلماتِ تقول: وتحملُ الكلّ.

وأنت تحملُ الكلّ، حمل الضّعيف الذي أعجزته الأيام والليالي، فنفسك الكريمة، وقلبك الرحيم، لا يرضيان أن يريا ضعيفاً أثقلت كاهله الحياة، فأنتَ تحسنُ إليه بإحسان تنتعشُ من خلاله روحه وتحييّ في نفسه الآمال.

ورابع الصِّفات من الكلماتِ الرَّائعات قولها: وتكسبُ المعدوم.

إنَّك يا أبا القاسم، تكسبُ المعدوم بجودِكَ وإيثارك، فقد فطرك اللّه على مكارمِ الجودِ، فأنتَ أجود النَّاس، بل أنتَ أجود بالخير من الرِّيح المرسلةِ.

يقول الإمامُ القسطلانيُّ ـ رحمه الله ـ في كتابه النَّفيس: «المواهب اللدنيّة بالمنح المحمّدية» وقد كان جودُهﷺ كلّه لله، وفي ابتغاءِ مرضاته، فإنَّه كان يبذل المال تارةً لفقيرٍ أو محتاج، وتارة ينفقه في سبيل الله، وتارة يتألّفُ به على الإسلام مَنْ يقوى الإسلامُ بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطي عطاءً يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسهِ عيشَ الفقراء، فيأتي عليه الشَّهر والشَّهران لا تُوقد في بيته نارٌ، وربما رَبَط الحجر على بطنهِ الشَّريف من الجوع[2].

---

(١) انظر مواقف أبي جهل المخزية والسلبية في كتابنا «المبشرون بالنار» الجزء الأول ترجمة أبي جهل.

(٢) انظر المواهب اللدنّية (٢/٣٧٢).

نعم يا أبا القاسم، ومَنْ يعطي عطاؤك؟ إنَّك تعطي ذوي الحاجة المعدومين ما لا يمكن أنْ يمنَحه غيرك، ولا تسمح به نفسُ غيرِ العِلْيَةِ، فأنتَ أكرمُ العالمين، وأسخى الأكرمين، وأجود الأنام[1]، فأنت الذّروة في السَّخاء وفي الإيثار.

إنَّ الكرمَ مجمعةٌ للقلوب، يملك بكرمه زمام محبّة الأفئدة، ويستسأثر مَنْ أكرمهم بإحسانه بفواضله فيؤثرونه بمودّتهم على كلِّ محبوب؛ ويرحمُ الله العلّامة أحمد بن محمّد القسطلاني، إذِ استقصى هذه النّواحي في شَخْصِ النّبيّ ﷺ، الذي كان كما وصفه سيّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: كان أجود النّاس كفّاً، وأصدق النَّاس لهجة. قال القسطلاني: فهو ﷺ بلا ريب أجود بني آدم على الإطلاق، كما أنَّه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة، وكان جودُه بجميعِ أنواع الجودِ، من بذْلِ العلمِ والمالِ، وبذل نفسه لله في إظهار دِيْنِهِ وهداية عباده، وإيصال النَّفع إليهم بكلِّ طريق، من إطعام جائعهم، ووعْظِ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمّلِ أثقالهم، ولقد أحسن ابنُ جابر حيث قال:

يُروى حديثُ النّدى والبِشْر عن يَدِهِ
ووجْهُه بينَ مُنْهَلّ ومنْسَجِمِ
منْ وجهِ أحمدَ لي بدرٌ ومنْ يَدِهِ
بَحْرٌ ومنْ فمِهِ درٌّ لمنتظمِ
يَمِّمْ نبيّاً تُباري الرِّيحُ أنْمله
والمزنُ من كلِّ هامٍ الوَدقِ مرتكمِ
لو عامَتِ الفلكُ فيما فاضَ منْ يدِهِ
لم تلقَ أعظم بَحْرٍ منه إنْ تعِمِ
تحيطُ كفّاهُ بالبحرِ المحيطِ فَلُذْ
به ودعْ كلَّ طامي الموجِ ملتطمِ

---

(١) ولله در أحمد شوقي إذ أصاب كبد المعنى في هذا المجال فقال:

فإذا سخوت بلغتَ من جود المدى ... وفعلت ما لا تفعل الأنواء

لـو لم تُحِطْ كفُّه بـالبحرِ مـا شملتْ
كـلّ الأنامِ وروّتْ قلبَ كـلٍّ ظمي

فسبحان مَنْ أطلع أنوار الجمال من أفقِ جبينه، وأنشأ أمطار السَّحاب من غائم يمينه[1].

وخامسة أفياء كلمات خديجة قولها: وتقري الضَّيف.

أرادت خديجة أنْ تقولَ: إنَّك يا أبا القاسم لن يخزيَك الله أبداً، فإكرامُ الضَّيف منْ أعظمِ الفضائل الإنسانية، ففيه عظيم الأثر في قوّةِ اجتذابِ القلوب، وأَسْرِ النُّفوس، وخصوصاً في البيئة التي نَهَدَ فيها محمّدﷺ، تلك التي شحيحة بمطالب العيش ووسائل الحياة لوجودِ الصَّحارى والجبال والوديان والقِفَار.

ولذا فقد كانت فضيلة قِرَى الأضياف موضعَ منافسة المتنافسين في صنائع المعروف، وكانت مما يُتَمَدَّح بها أجواد العرب وفضلاؤهم لتنشر محاسنهم في القِرى بين الأقوام، وكم احتفظَ تراثنا كثيراً من القَصَصِ الطَّريفة، وحفظ المُسْتَجاد من فعلاتِ الأجْوَاد ما تضيق عنه الصَّفحات والسِّجلات.

وسادسة كلمات أمِّ المؤمنين خديجة قولها: وتعينُ على النَّوائب.

كأنَّ أمَّ المؤمنين خديجة أرادت أنْ تقولَ: يا أبا القاسم، إنَّ من أخصِّ صفاتك أنْ تعينَ على نوائب الحقِّ، إنَّ ذلك فطرة فطرك الله عليها، وخليقة جَبَلك بها، والإعانة على نوائب أفضلية الفضائل، ومكرمة المكارم، فهي أجمع موارد الخير ومصادره، وهي منقبة البرِّ والمعروف.

ومن فتوحاتِ الكلام ما قاله الإمام ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح: وقولها: ـ أي خديجة ـ وتعينُ على نوائب الحقّ، هي كلمةٌ جامعة لأفرادِ ما تقدم من أصول المكارم وما لم يتقدم .

والحقيقة، فقد كانت هذه الخليقة خُلُقاً لمحمدﷺ إذ شارك قومه في صنع

(١) المواهب اللدنية (٢/٣٦٩).

المكارم، وها هو عضو بارز في حلْفِ الفضول، يتعاهد مع المتعاهدين بالله ليكونن مع المظلوم ورفْعِ الظُّلم عنه حتى يؤدى إليه حقّه ما بلّ بَحْرٌ صُوفة.

ومما يعزِّز هذه السِّمَة في شخصية محمّدﷺ قصَّة الإراشيّ الذي ابتاع منه فرعون قريش وفرعون الأمة، أبو جهل بن هشام إبلاً ومَطَلَه أثمانها ابتغاء غَصْبِها، فلم يُعِنِ الرّجل الإراشي إلاّ محمّدﷺ إذ ذهب مع الإراشي أبي جهل الذي دفع الحَّق راغماً خائفاً ذليلاً حقيراً مذموماً مدحوراً. ونجدة المظلوم والإعانة على نوائب الحقّ تملأ صفحات السِّيرة النَّبويّة، ولا يمكن حصرها في هذه الصَّفحات.

وختام كلماتِ خديجة النُّورانيّة وسابعتها قولها: وتؤدي الأمانة. أرادت أمُّنا أنْ تقولَ:

نعم يا أبا القاسم، أنتَ الأمينُ في السَّماء، وأنتَ الأمينُ في الأرض،

فالأمانةُ أجمع مكرمة لمكارم الأخلاق، فالأمينُ هو ذو الخلقِ العظيم، الجامع لأشتاتِ الفضائل، وقد كان خلق أداء الأمانة خُلُقاً أثيراً في مكارمك، فلم يُعرفْ لقبُ الأمين على إطلاقه إلا لَكَ.

لقد قالت قريش يوم أنِ اختلفوا على وضْعِ الحجر الأسود في مكانه منَ الكعبة: هذا الأمين رضيناه حكماً، وحكمت بحكمك حكماً أطفأ نيران الفتنة، وأصلح ذات بينهم وجمع شملهم...

تلكم هي ظلال وأفياء في رحاب كلمات أمِّنا الطَّاهرة خديجة لحبيبنا محمّدﷺ، كلمات نابعة من يقين إيمانها، وإيمان يقينها، وصدق وفائها، ووفاء صدقها مع الله ومع الرَّسولﷺ، فكانت فِراسة الإلهام في كلماتها مصداقاً لصفاتِ الحبيب الأعظم عليه الصَّلاة والسَّلام.

فِرَاسَةٌ وَإِلهَامٌ:

إنَّ السَّيِّدة خديجة رضي الله عنها لوثيقِ معرفتها بأخلاق محمّدﷺ الفطريّة التي خبرتها فيه بتجاربها وفراستها، وبما كان يخصُّه به مجتمعه من الإكبار وحُسْنِ الأحدوثة؛ أقسمت على الله تعالى لن يخزيه، وأكدتْ ذلك بلفظِ التَّأييد،

واستدلّتْ بوحي عقلها الرَّصين على ما أقسمت عليه بأمْرٍ استقرائي، فوصفته بأصول مكارم الأخلاق.

قال العُلماء في هذا: وإنَّما كان ما ذكرته خديجة أصول المكارم، لأنَّ الإحسان إمَّا إلى الأقاربِ كما في صِلَة الرَّحم، وما يتفرَّعُ عنها من التَّعاطُفِ والتَّراحم وفروعها، من صِدْقِ الحديث، وأداء الأمانةِ، وكسْبِ المعدوم لمن يحتاج إلى المعونة من الضَّعَفة، وإمَّا على مَنْ يستقلُّ بأمره، كما في مكرمة الإعانة على نوائب الحقِّ، أو مَنْ لا يستقل بأمْرٍ كما في الكلِّ الضَّعيف الذي لا يقوم بأمْرِ نفسه.

هذا وقد كانت كلمات أمِّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها نوعاً من فراسة الإلهام الذي ينظر إلى ما وراء الحُجُبِ، خفَّفتْ بها عن رسول اللهﷺ ما شعر به من آثار المفاجأة الرَّهينة عند نزولِ الوحي[1] وقد آبَ إليها من خلوتهِ ومتعبَّده في

---

(١) أودّ عزيزي القارىء أنْ أشيَر هنا إلى مراتب الوحيّ وكيفيته وذلك لإتمامِ الفائدة إنْ شاء الله فللوحي مراتب ودرجات كثيرة فصّلها العُلماء وأئمة البحث من أعلام الإسلام، وجمعها إجمالاً قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وما كان لبشرٍ أنْ يكلِّمه الله إلا وحياً أو منْ وراءِ حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنَّه عليم حكيم﴾ [الشّورى: ٥١].

وقد ثبتَ منها لنبيِّنا محمّدﷺ أجلّها وأرفعها في مقامات القُربِ، ونحن مرسلو القول بما ثبت ثبوتاً بيّناً جليّاً بالقرآن الكريم، والسُّنَّة النّبويّة الصَّحيحة.

إحداها: الرُّؤيا الصَّادقة، وكانت مبدأ وحيهﷺ.

الثَّانيةُ: ما كان يلقيه المَلَكُ في روعه وقلبه وخاطره من غير أنْ يراه.

الثَّالثةُ: أنَّهﷺ كان يتمثّل رجلاً، فيخاطبه حتى يعيَ عنه ما يقول وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة الكرام أحياناً.

الرَّابعةُ: أنّه كان يأتيه ـ الوحي ـ في مثل صلصلة الجرس، وكان أشدّه عليه، فيلتبس به المَلكُ حتى أنَّ جبينَه ليتفصَّدُ عَرَقاً في اليوم الشَّديد البَرْدِ.

الخامسةُ: أنْ يرى النَّبيُّﷺ المَلَكَ في صورته التي خُلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أنْ يوحيه؛ وهذه المرتبة وقعت للنَّبيِّﷺ مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السَّماء، كما جاء في سورتي: النّجم والتّكوير.

حراء، فرأَتْ منهﷺ حالاً من مشقّةِ الجهد لم تكن تراها عليه من قبل في أوباته إليها، ليتزود لخلوته، ويجد ببيته وولده وزوجه عهد الحنان والحبِّ.

لذلك جلسَ إلى خديجةَ بعد أنْ هدأتْ نفسُه، وحدّثها وحدّثته، وسمعتْ منه جديداً، لم تكن من قبل تسمعه منه، وكان في هذا الحديث نَغَمٌ هامِسٌ ساحر، نَغَمٌ يفوحُ بروحانّية جديدة، تتلمّس دفء الحنان في أحضان الوفاء.

فمنذ أنْ بلغَﷺ سنَّ الرجوليّة، كانت البشائر تتوالى عليه قبل أنْ يُنَبّأ، وكانت خديجة رضي الله عنها على عِلْمٍ بالكثير من ذلك، وقد ثبت أنَّها رأتِ الغمامةَ تظللّهﷺ قبل أنْ يتزوَّجها، ولم تفارقْ ذاكرتها أحاديث غلامها ميسرة عما شاهَدَ وشَهِدَ من الأعاجيبِ والآيات التي وقعت لهﷺ..

كانت آمالُ خديجة رضي الله عنها منذ صارت زوجة محمّدﷺ تحلّقُ حوله في آفاقِ تطلعاتها إلى الأفق العلويّ، وتجلّيات الملأ الأعلى لمحمّدﷺ في لقاء المواجهة ولقاء الرِّسالة، فكانت آمال الفراسة النُّورانيّة وإلهام التَّوسم تتحقَّقُ شيئاً فشيئاً عند السَّيِّدة خديجة رضوان الله عليها.

فقد حدَّثَ رسولُ اللهﷺ زوجة الوفيّة الأمينة خديجة عن خَلَجات ضميره، فما كان من الزَّوجة العاقلة إلا أنْ شَدَّتْ أزره، وكانت وزيرَ صدق على الإسلام، ولكي تشدَّ أزرهﷺ، ذهبت به إلى ابنِ عمِّها ورقةَ بنِ نوفل - كما مرّ معنا - الذي وَدَّ أن ينصرَه نصراً مؤزراً إنْ أدركه، وأعتقد أنَّ ورقةَ شدَّدَ وصيَّته لخديجةَ بأنْ تكونَ شديدة الاهتمام والرِّعاية لمحمّدٍﷺ، فكانت كذلك..

عن هذا الموقفِ العطر لخديجة تحدثُنا بنت الشاطئ - عائشة عبد الرحمن - فتقول: هل كان لأنثى غيرها أنْ تهيىءَ له الجوَّ المسعف على التَّأمل، وأنْ تبذلَ له من نفسها - في إيثار نادر - ما أعَدّه لتلقي رسالة السَّماء؟

= السَّادسةُ: ما أوحاه الله عزَّ وجلَّ إليه كفاحاً من دون واسطة مَلَك، ووقع ذلك للنَّبيّ الكريمﷺ وهو فوق السَّماوات ليلة المعراج من فرض الصَّلاة وغيرها من فرض الصَّلاة وغيرها من الشّرائع والفروض.

هل كان لزوج عداها أنْ تستقبلَ دعوته التَّاريخية من غارِ حراء بمثل ما استقبلته هي به من حَنَان مستثار، وعطف فيّاض، وإيمان راسخ، دون أنْ يساورَهَا في صدقه أدنى ريب، أو يتخلى عنها يقينها في أن الله عز وجل غير مخزيه أبداً؟

هل كان في طاقة سيّدة غير خديجة، غنيّة مترفة منعّمة، أنْ تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانبه في أحلك أوقات المحنة، وتعينه على احتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد، في سبيل ما تؤمن بأنَّه الحقّ؟ كلا. . . بل هي وحدها التي مَنَّ الله عليها بأنْ ملأتْ حياة الرَّجل الموعود بالنّبّوة، وإن كانت أوّل النّاس إسلاماً، كما بها أمَّنَ على رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام ملاذاً وسكناً ووزيراً[1].

نعم لقد كانت خديجة رضي الله عنها مناط كلّ فضيلة، ومعقد كلً رجاء عند كلِّ مِلَّمة، والرَّحيق المختوم لكلّ أَمْرٍ يعرض رسول اللهﷺ أو يعترضه، لم تبخلْ لحظة واحدة من حياتها المعطاء في تقديم كلٍّ ما يذلل صعوبات الدَّعوة المحمّدية.

فقد كانت الطَّاهرة أمّنا خديجة عليها سحائب الرِّضوان، تروّح عن قلبهﷺ الهموم، وتُذْهِب عن صدره الأحزان بما لها من كياسة وفطنة، وبما وهبها الله عزَّ وجلَّ من رفق ولين، ولين ورفق، وتضحية وفداء، وصبر ونبل، وأمل ورجاء، ورجاء وعزيمة، ناهيك بخلقها الذي كان منبع فيض الخيرات لكل مَنْ أراد أنْ يقتديَ بها من النِّساء على مَرِّ الدُّهور والأعصار.

لقد عُرفَ الحبيب المصطفىﷺ بأنَّه كان يأنسُ إلى زوجه الوفيّة الأمينة الطَّاهرة السَّيدة خديجة رضي الله عنها أنساً لم يأنسه بأَحَدٍ سواها، فيحدثها بما يكون قد رأى وسمع في خلوته، بمتعبّده أو في مرجعه إليها من غرائب الأحداث، وعجائب الآيات، فيجد عندها مشاعر صدق الودّ والحنان ما يخفّفُ من آثار ما

---

(١) تراجم سيدات بيت النبوة (ص٢٣٧) طبعة دار الكتاب العربي.

عسى أنْ يكونَ قد شقَّ عليه، بل وتثَبِّته وتكشفُ له عن محاسن الفضائل المتمثلة فيه[1] ليتابع طريق التَّبليغ الإلهي للنَّاس كافة، وبهذا تفرّدت أمُّنا خديجة في هذا المضمار الكريم.

أَسْبَقُ السَّابقين:

أجمعَ أهلُ العلم منْ أئمة الإسلام على أنَّ أمَّنا خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، كانت أوَّل البشَر قاطبة إيماناً بالله عزَّ وجلَّ، وبرسوله محمَّدﷺ.

يقول عز الدِّين بن الأثير ـ رحمه الله ـ: خديجة أول خلق الله أسلم بإجماعِ المسلمين، لم يتقدمها رجلٌ ولا امرأة[2].

ويقول البيهقيّ ـ رحمه الله ـ في الدَّلائل: إنَّ أول مَنْ أسلم من هذه الأمّة خديجة بنت خويلد.

وقال ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ: كانت خديجة أوّل مَنْ آمنت بالله ورسوله، وصدَّقت ما جاء من عند الله عزَّ وجلَّ، ووازرتِ النَّبيَّﷺ على أَمْرِهِ، فخفَّفَ الله

---

(١) أودّ أنْ أشيرَ هنا إلى ناحية مهمة، وهي أنَّ النَّبيَّﷺ كان قبل لقاء مَلَك الوحي في غارِ حراءِ ومخاطبته على يقين كامل بأنّه نبيٌّ اصطفاه الله عزَّ وجلَّ بوحيه، وأيّده وكرمه بآياته ومعجزاته، فإذا جاءته مرتبة من مراتب الوحي أشد وأثقل تحملاً من سائر مراتب وحي النّبوّة التي مرَّ بها قبل هذا اللقاء المفاجىء في اليقظة، فلن يمحوَ ذلك من عقله وقلبه وروحه أنّه نبي معصوم، وأنّه يعرض أنْ يأتيه من الوحي درجات ومراتب لم تسبقْله في نوعها وطريقتها وشدتها. وكانت السَّيدة خديجة رضي الله عنها على علمٍ بذلك أيضاً، ولكن لتوفيقها وسعادتها كانت تلهم تلك الكلمات المضيئات.

(٢) انظر: أسد الغابة (٦/٧٨) ترجمة رقم (٦٨٦٧) والكامل في التَّاريخ (٢/٥٧). . ونقل الإمام النّووي عن الثّعلبي ـ رحمهما الله ـ أن اتفاق العلماء على أسبقية خديجة إلى ساحة الإيمان بالله ورسوله، وإنما اختلافهم في اختلافهم في أول من أسلم بعدها. وقال الإمام النّووي ـ رحمه الله ـ إنّه الصَّواب عند جماعة المحققين.

وقال النّووي أيضاً: ذكر الزّهري وخلائق من العلماء أنّها أول مَنْ أسلم وآمن بالنبيﷺ. (تهذيب الأسماء واللغات ٢/٣٤١) وانظر: (الدرر لابن عبد البر ص٢١).

بذلك عن رسوله، فكان لا يسمعُ شيئاً يكرهه من رَدٍّ عليه، وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرَّجَ عنه بخديجة رضي الله عنها، إذا رجعَ إليها تثّبته، وتخفّفُ عنه وتصّدقه، وتهون عليه أَمْر النَّاس[1].

ومنَ الطَّبيعي أنْ تكون طليعة السَّابقين خديجة زوج النَّبيِّ ﷺ الوفيّة الأمينة الطَّاهرة، أعقل نساء العالمين، التي كانت على أكملِ المعرفة ببشائر نبوّته ﷺ، بل كانت متطلّعة إلى اصطفائه نبيّاً ورسولاً، حتى اختاره الله تعالى لنبّوته ورسالته رحمةً للعالمين.

ويبدو في طليعة السَّابقين إلى حظيرةِ الإيمان برسالة حبيبنا محمّد ﷺ سيّدنا عليّ بن أبي طالب، فهو ثاني اثنين في السَّبْقِ إلى الإسلام، إذ كان ربيب النّبوّة، ورضيع ثدي الرِّسالة، المتقلّب على فراشِ الإيمان، النَّاهد في مهد أكرم المكارم، فقد آمن في سنِّ الصِّبا قبل أنْ يبلغ الحلم، فَشَبَّ معه الإيمان حتى خالط مشاعره ووجدانه وملأ قلبه، وأفعم بالنُّور روحه، وكانت العناية الرَّبانية قد ساقته إلى حِجْرِ رسول الله ﷺ وزوجه خديجة الطَّاهرة رضي الله عنها وأرضاها.

ومن الذين حازوا قصب السبق في حلبة التَّسابق إلى ساحة الهداية، زيد بن حارثة الحبّ الذي كان ثالث ثلاثة في السَّبق إلى الإسلام، وهو الذي أفرده الله عزَّ وجلَّ بأشرف الشَّرف، فذكَرَهُ في القرآن الكريم والذِّكْر الحكيم باسمه، ممتناً عليه بإنعامه عليه بنعمة التَّوفيق إلى الإيمان في طليعة أسبق السَّابقين، وممتناً عليه بإنعام رسوله ﷺ بالحرية والولاية، قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه**﴾ [الأحزاب: ٣٧].

---

(١) السِّيرة النّبوية (١/ ٢٤٠). وقال ابنُ قيّم الجوزية ـ رحمه الله ـ: وبادر إلى الاستجابة له ﷺ النّساء خديجة بنت خويلد، وقامت باعباء الصّديقية فعلمت بكمال عقلها وفطرتها، أنَّ الأعمال الصَّالحة، والأخلاق الفاضلة، والشّيم الشّريفة تناسب أشكالها من كرامة الله، وتأييده وإحسانه، ولا تناسب الخزي والخذلان، وإنّما يناسبه أضدادها، فمن ركّبه الله على أحسن الصِّفات وأحسن الصِّفات والأعمال، إنما يليق به كرامته، وإتمام نعمته عليه، وبهذا العقل والصّديقية استحقت أنْ يرسل إليها ربّها بالسَّلام منه مع رسوليه جبريل ومحمد ﷺ. (زاد المعاد ٣/ ١٩) مختصراً.

قال ابنُ عبد البرِّ ـ رحمه الله ـ في كتابه النَّفيس «الاستيعاب»: روي عنه عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال: «أحبُّ النَّاس إليَّ مَنْ أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه».

وزيدُ الحِبّ رضي الله عنه من صميم العرب، وعُلْيا قبائلهم، فهو صريح النَّسب من جهة أبيهِ وأمِّه، وعاش في كنف البيت المحمديّ الطّاهر، وتحت ظلال السَّيّدة الطَّاهرة خديجة رضي الله عنها، واستقى من مناهل عرفان الإيمان ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فكان منَ الأوائل الميامين.

وقد كان بيتُ خديجة رضوان الله عليها واحة الإيمان في صحراء الكفر والضَّلالة، وكان السَّراج المنير في ظلمات بعضها فوق بعض، يذكر فيه اسم الله بالغدو والآصال، فلا عجب أنْ يستضيءَ قلب زيد وعليّ رضي الله عنهما بنور الإيمان منذ أنْ أشرقتْ نسماتُ الإسلام على البيت المحمديّ الطَّاهر.

هذا وقد كان أولادهﷺ من خديجة من السَّابقين إلى الإسلام، ولم يذكرِ العلماء في هذا الصَّدد أسبقية أولاده الأطهار إلى الإيمان برسالته والتَّصديق بدعوته، لأنَّ أبناءه الذّكور: القاسم، وعبد الله، ماتا في سِنّ الطُّفولة، وكذلك ابنه إبراهيم من السَّيِّدة مارية بنت شمعون المصرية، مات صغيراً أيضاً.

وأمّا بناته الطّاهرات العابدات: زينب، ورقيّة، وأمّ كلثوم وفاطمة[1] رضي الله عنهن، فكلُّهن أدركن الإسلام وأسلمن، ونعمن بنعيمه العظيم، وكنَّ مع أمّهن سيّدة نساء العالمين السَّيِّدة خديجة في أسبق السَّابقين والسَّابقات إلى ساحة الإيمان بهﷺ نبيّاً ورسولاً.

ومنَ المُسَلَّمِ الطَّبيعي أنْ تكونَ بنات خديجة ومحمّدﷺ منَ السَّابقين، لأنَّهن رضعن لبان الإيمان من أصولها، ونشأن على التَّمسك بالهدي النّبويّ، والسّيرة الحسنة قبل البعثة.

---

(١) اقرأ سيرتهن العطرة في هذا الكتاب.

روى ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ عن أمِّ المؤمنين عائشة بنت الصَّديق رضي الله عنهما قالت: لما أكرم الله نبيّه بالنّبوّةِ، أسلمت خديجة وبناته.

وفي روايةٍ أخرى عنها قالت: أسلمتْ رقية حين أسلمت أمها خديجة، وبايعت حين بايع النساء، وأسلمت أم كلثوم حين أسلمت أخواتها وبايعت معهن.

فبناتُ النّبيِّ ﷺ في قَرَنٍ مع أمهن السّيّدة الطّاهرة خديجة، ينظمهن معها عِقْد أسبق السَّابقين، وأسبقِ السَّابقات إلى الإسلام، والتَّصديق برسالة أبيهن سيّد الخلق ﷺ الذي كان أباً قبل أنْ يكونَ رسولاً. وقد كانت مكارم أخلاقه، ورفيع صفاته، وكريم معاملته، يرينها رأي البصر والبصيرة، ويسمعن أحاديث النَّاس عنها، والولد على نهج أبيه وأمِّه ينهج ويدرج وينشأ.

ثم آمن أول مدعو إلى الإسلام، الصِّديق الأعظم، فَحْلُ الملة، وإمام الأمة، سيِّد المسلمين، وأفضل أتباع الأنبياء والمرسلين، ثاني اثنين إذ هُما في الغار، مَنْ وسَمَه الله عزّ وجلّ بأشرفِ الألقاب؛ سيدنا أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه وأرضاه.

روى الطَّبراني ـ رحمه الله ـ أنَّ عليّاً رضي الله عنه كان يحلف بالله أنَّ الله أنزل اسم أبي بكر من السَّماء صِدِّيقاً، قال علماؤنا من السَّلف والخلف: وهذا حكمه الرَّفع إلى رسول الله ﷺ إذ لا مدخل للرّأي والاستنباط في مثله.

رِحْلَةٌ مَعَ المكَارِمِ

كان لأمِّنا خديجة رضي الله عنها في مطالع إيمانها مشرق الرِّسالة سوابق لم تكن لبشرٍ قطّ، وقد انفردت بفضيلة السَّبْق وشرفِ الإيمان بمكرمة لا يلحقها فيها لاحق.

فأسبقيةُ خديجة وبناتها من رسول الله ﷺ إلى الإسلام، من المكارم التي تنضحُ برحيقِ الفضل، وكذلك أسبقية عليّ بن أبي طالب وزيد بن حارثة رضي الله عنهما، ونظرة لطيفة إلى هؤلاء الغرِّ الميامين، نجدْ أنَّه كان يُظلّهم سقف البيت

النّبوي، في رعاية أطهر الطّاهرات أمّنا خديجة رضي الله عنها.

فإسلامُ هذه الأسرة الكريمة ـ أسرة رسول الله ﷺ: زوجه خديجة، وبناته الطّاهرات، وربيب رعايته وتربيته علي ابن عمه، ومولاه وحِبّه زيد ـ كان إسلام الفطرة الطّاهرة النّقية، التي ولدت في مهد الإيمان، ونشأت بين أحضان النّبوّة، حيث شاهدت أكرم مكارم الأخلاق، ورأت معالم النّبوّة وآياتها تتجلى في حياة النّبيّ ﷺ قبل نزولها، ثم رأتْ معالم الوحي، وسمعت آيات الله تُتلى في بيت خديجة، والحكمة تتنزّل بينهم، فتمثلوا كلّ هذا، فسرتْ نسماتُ الإيمان والتّصديق برسالة النّبيّ ﷺ.

إنَّ هذا كلّه ـ على ما أعتقد ـ منَ المكارم الجليلة الفوّاحة التي خصَّ الله بها سيّدة النِّساء خديجة رضوان الله عليها، إذ لم يكن في بيتها إلا مؤمن بالله، ومصدق بمحمّد ﷺ، ومغمور بأنوارِ هدايته منذ بدأتِ الرِّسالة بإنزال: ﴿**اقرأ باسم ربك. . .**﴾ [العلق: ١].

فالسَّيِّدة خديجة ـ عليها سحائب الرضوان ـ ذات مكارم ندية، وكرامات جليلة، ومكانة نفيسة عند الرَّسول ﷺ. فقد كانتِ الزَّوجةُ الأمينة الوفية التي حباها الله عَقْلاً لَمّاحاً(١)، ورزقها فطنة صافية زاكية، وأنعم عليها بنفس صافية

---

(١) نستطيع أنْ نستشفَ مدى رؤية أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها لحقيقة الوحي، واتزان عقلها وتفكيرها من خلال الخبر الذي أورده الذهبي نقلاً عن ابن هشام ـ رحمهما الله ـ إذ قال: قالت خديجةُ لرسولِ الله ﷺ: يا ابن عمّ، أتستطيع أنْ تخبرني بصاحبك ـ أي الوحي ـ إذا جاءك؟!

فلّما جاءه قال: «يا خديجة هذا جبريل»

فقالت: اقعد على فخذي، ففعل.

فقالت: هل تراه؟.

قال: «نعم» فألقت خمارها، وحسرت عن صدرها.

فقالت: هل تراه؟.

قال: «لا».

قالت: أبشر، فإنّه والله مَلَك، وليس بشيطان. (سير أعلام النّبلاء ٢/١١٦).

طاهرة، فلم يعرفْ تاريخ الإنسانية لها ندّاً في صدق وفائها، وأمانة سرها، واستشراف عقلها إلى مطالعة أعماق النّفوس البشرية، في ظلال مرضاة الله عزّ وجلّ، ومرضاة رسوله ﷺ، فكانت في مقدمة السُّبّق، وكانتِ الظّافرة في ذلك السِّباق الإيماني الميمون، فرزقتِ الخلود مع الخالدين في سجلّ أوفى الأوفياء في دنيا الطّهر والوفاء والصَّفاء.

خَديجَةُ والصَّلاةُ:

ذكر رواة السِّيرة النّبويّة أنَّ الله عزَّ وجلَّ فرضَ على رسوله ﷺ صلاة أول ما أوحى إليه، وكان لخديجة رضوان الله عليها فضيلة السَّبق إلى الصَّلاة، وامتثال أَمْرِالله عزَّ وجلَّ، فكانت أول مَنْ صلّى مع النّبيّ ﷺ.

ذكر ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ أنَّ بعض أهلِ العلم حدّثه أنَّ الصَّلاة حين افترضتْ على رسول الله ﷺ، أتاهُ جبريل وهو بأعلى مكةَ، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عينٌ فتوضَّأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر ليريه كيف الطّهور للصَّلاة، ثم توضَّأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل يتوضأ، ثمَّ قام جبريل فصلّى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرفَ جبريل.

فجاء رسولُ الله ﷺ خديجة فتوضأَ لها ليريها كيف الطُّهور للصَّلاة، كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ، ثم صلى بها رسول الله ﷺ، كما صلى به جبريل فصلّتْ بصلاته.

وَرَدَ في عددٍ من المصَادر عن شاهدِ عيان ما يؤكّد أولية خديجة رضي الله عنها في السَّبق إلى الصَّلاة، وقد كانتِ الصَّلاة في مَطْلع شمس الإسلام شيئاً غريباً عن المجتمع المكيّ، بل والمجتمع الجاهليّ آنذاك.

حدّثَ عفيفُ الكنديّ عن هذا فقال: كان العّباسُ بنُ عبدِ المطلب لي صديقاً، وكان يختلفُ إلى اليمنِ يشتري العِطْرَ، ويبيعه أيام الموسم، فبينما أنا عند

(١) السّيرة النّبوية (١/٢٤٤).

العبّاس بمنى، فأتاهُ رجلٌ مجتمع(١)، فتوضأَ فأسبغَ الوضوء، ثمَّ قام يصلي، فخرجت امرأة فتوضأتْ، ثمَّ قامتْ تصلّي، ثم خرجَ غلامٌ قد رَاهَقَ، فتوضأ ثمَّ قامَ إلى جنبهِ يصلي؛ فقلتُ: ويحك يا عبّاس، ما هذا الدِّيْن؟!!

قال: هذا دِينُ محمّد بن عبد الله ابن أخي، يزعم أنَّ الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخي عليّ بن أبي طالب قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة قد تابعته على دينه.

قال عفيف ـ بعد أنْ أسلمَ ورسخَ في الإسلام ـ: يا ليتني كنتُ رابعاً(٢).

فلتُحلّق خديجة في سماءِ المكارم، ولتكن أوّل امرأة تقيمُ الصَّلاة في دنيا نساء أهل البيت الطَّاهر.

خدِيْجَةُ تَتَحمَّلُ أَذَى الكُفَّار:

أخذَ رسولَ اللهﷺ يدعو عشيرته الأقربين، ويدعو قومه إلى الإسلام بالله تعالى ربّاً، وبمحمد نبياً رسولاً، وراحَ يدورُ على مجالسِ قريش يدعوهم إلى الإسلام، فيلقون إليه أسماعهم مّرة، ويعرضون عنه مستهزئين مّرات، والرَّسولُ الكريمُﷺ صابرٌ يصدع لأمْرِ الله عزَّ وجلَّ، ويلقى مِنْ عَطْفِ زوجه خديجة رضي الله عنها ورعايتها وتشجيعها ما يخفّفُ عنه آلام الدعوة.

وأعتقدُ أنَّ السَّيِّدة خديجة رضي الله عنها كانت تدعو من تعرف من جماعة النِّساء إلى الإيمان بالله عزَّ وجلَّ وبرسوله محمدﷺ، ولا شكَّ أنَّها كانت تجدُ بعض الإعراض من النِّسوة اللاتي كانت تدعوهن إلى صراط العزيزِ الحميد، الله ربِّ العالمين.

وتابع البيتُ المحمديّ المضمخ بأريجِ النّبوّة الدَّعوةَ إلى الله عزَّ وجلَّ، ووقف المجتمع الوثني يريد أنْ يسدَّ منافذَ النّور، بينما انطلق كبار الفجار، وأسياد

---

(١) مجتمع: بلغ أشده واستوى.

(٢) انظر: عيون الأثر (١/١١٦) ومجمع الزوائد (٩/٢٢٢ و٢٢٣) وغير ذلك من المصادر المتنوعة.

الأشرار يظهرون غلظتهم في تعذيب مَنِ استجاب لدين الحقّ، وبدأت مساوماتهم مع رسول الله ﷺ كيما يكفّ عن ذِكْرِ أصنامهم بسوء.

ولكن رسول الله ﷺ كان يتنزّل عليه القرآن، ويقصُّ عليه أحسن القَصَصِ، فكان يقرأُ عليهم بعض الآيات ويسمعهم بعض السُّور، فإذا بالقرآن الكريم يحرك العجب في نفوسهم، إذ كانت كلماته من عند الله عزَّ وجلَّ ترنُّ في أغوارهم، وهم صفوة العرب فيعرفون إذ ذاك عظمة القرآن.

إلا أنَّ ملأ الأشَرار غلبت عليهم الشِّقْوة، وصعب عليهم أنْ يفارقوا ما ألْفَوْا آباءهم عليه عاكفين، وقالوا قلوبنا في أكنّةٍ مما تدعونا إليه، وتواصوا فيما بينهم أنْ يتابعوا طريقَ اللدد والعناد، ويرموا رسول الله ﷺ بالسِّحْرِ، وكان زعيم فريق الفجّار عتبة بن ربيعة[1] وشايعه عدد من أكابر المجرمين.

كانت قريشُ غنيةً بأموالها، غنية برجالها، معتزة بمكانتها في العرب، بينما كان محمّد ﷺ وصحبه أغنياء بنورِالله الذي أشرقَ في قلوبهم، وأضاء نفوسهم، كانوا أقوياء بالله ربِّ العالمين، فلم يثنِهم عن إيمانهم تعذيب المشركين، وإنّما تابعوا طريق الإيمان مع رسول الله ﷺ، تابعوا ذلك الطَّريق القويم كيما يكونوا من الذين يرثون الفِردوس، فيكونوا فيه خالدين.

صُوَرٌ منْ صَبْرِ خَديجَةَ:

حارب الرِّجال والنّساء في مكةَ دعوة الإسلام والسَّلام التي يدعو إليها الحبيبُ المصطفى محمّد ﷺ. وكان بعضُ رجال بني أمّية ونسائهم، وبعضٌ من رجال بني مخزوم ونسائهم، قد اشتهروا في عداوتهم لرسولِ الله ﷺ.

كانت أمُّ جميل بنت حرب ـ حمّالة الحطب ـ زوج أبي لهب من ألدِّ أعداء نبيّ الإسلام، فقد سخّرتْ زوجها أبا لهب لكي يصدَّ عن سبيل الله وما نزلَ من

---

(١) كان عتبة يتعاقل في عداوته، اقرأ ذلك في كتابنا «المبشرون بالنار» الجزء الأول: ترجمة عتبة بن ربيعة.

الحقِّ، حتى نزلت في حقِّهما سورة كاملة تندِّدُ بهما وتنذرهما بنارٍ ذات لهب[1].

ومن المتوقّع أنْ تكونَ أمَّ جميل قد صبّت بنار غضبها على خديجةَ رضي الله عنها، وحاولت أنْ تضعَ العوائق العديدة لمنعِ سير رسالة الإسلام، وأوعزتْ إلى ولديها أنْ يفسخا زواجهما من ابنتي رسول اللهﷺ لإرهاق الدَّعوة الرَّبانية، وإرهاقِ محمّدﷺ وخديجة عليها سحائب الرِّضوان، وكذلك إرهاق ابنتي النّبيّﷺ.

لكنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أكرم ابنتي رسول اللهﷺ، وصانهما عن بيت أبي لهب وزوجه الحاقدة أمّ جميل، وتزوّجَ عثمانُ بنُ عفانَ رضي الله عنه رقيَّةَ ابنة الرَّسول رضي الله عنها. ثم تحمَّلتْ رقية هي الأخرى مع زوجها نصيباً من أذى قريش، وها هي تهاجر إلى الحبشةِ بصحبةِ زوجها عثمان، وثلّة منَ الأولين الذين تحلّقوا حول دوحةِ الإيمان في مشرق شمس الإسلام.

كانت خديجةُ تودِّعُ ابنتها رقيّة، وهي تتجلدُ، وإنْ كانتِ الدُّموعُ تسبقها، لكنَّ خديجةَ عاهدتِ الله أنْ تكونَ مع رسوله الأمين لآخرِ نَفَسٍ من حياتها. . . .

إنَّ خديجة رضي الله عنها ضحَّتْ بأموالِها وراحتها في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، وفي سبيل إعلاء كلمته، وهي على استعدادٍ لَأنْ تجودَ بكلِّ شيءٍ كيما تكون كلمةُ الله هي العليا، ويشرق نوره على الوجود، وكيما تكون كلمة الذين كفروا السُّفلى.

إنَّ فراقَ الأحبَّةِ ليهون ما دام ذلك في طلبِ مرضاة وَجْهِ الله ليس غير، وما أخفَّ لوعة بعاد فلذات الأكباد إذا ما قيست بلذّةِ القُربِ من المليك المقتدر، الذي أعدَّ للمتقين جنَّات ونَهَرَ، في مقْعَدِ صدق عند وجهه الكريم وفيضه العميم.

راحَ المسلمون يتأهّبون للفرار[2] بدينهم إلى الحبشة خيفة الفتنة؛ وودّعَ رسولُ اللهﷺ وخديجة، عثمانَ ورقيّةَ، وانطلقَ المهاجرونَ مصحوبينَ بعناية الله، ودعواتِ رسول اللهﷺ وزوجهِ خديجة رضي الله عنها، كانوا أَحَدَ عَشَرَ رجلاً وأربعَ نسوةٍ من صفوة أعلياء قريش.

---

(١) للمزيد من سيرة هذين الشقيين راجع كتابنا «المبشرون بالنار» الجزء الثاني.
(٢) كان من مقاصد الهجرة إلى الحبشة نشر الإسلام هنالك أيضاً كما أثبتت النتائج.

مضتْ سنون ولم يدخلْ في الدِّين القويمِ أكثر من أربعينَ من المؤمنين والمؤمنات الذين أضاء الله قلوبَهم بأنوارِ اليقين، وصَقَلَ نفوسهم بجوهر الحقِّ المبين، فباتوا أسعدَ الثَّقلين بارتباطهم بالله عزَّ وجلَّ الذي خصّهم بالاصطفاءِ والسَّبْقِ إلى الفضائل، فأضحوا سادة الدُّنيا وأسياد العالم.

يئسَ رؤساء الكفَّار من مضي المسلمين في طريقهم لا تلهيهم طريقة تعذيبٍ، ولا تثني عزائمهم فظائع المشركين، وراح رؤوس الفجرة الكفرة من قريش، يتشاورون فيما بينهم عمّا يعملونه لتحطيمِ الدَّعوة وقتلها في مكةَ، قبل أنْ تعمّ الأرض، وانضمّ إلى ركبهم فاجرٌ من طبقتهم هو أبو لهب بن عبد المطلب الذي فارق قومه، وظاهر على رسول الله ﷺ قريشاً، وأجمعوا أنْ يقتلوا محمّداًﷺ.

وثار بنو هاشم وبنو المطلب على ما أجمع به كفّار قريش، وأعلن بنو هاشم حمايتهم لرسول اللهﷺ. ـ وإن لم يكونوا جميعاً على دِينه ـ وهنا اقترحَ النَّضر بنُ الحارث العبدريّ(١) أحد أكابر المجرمين من قريش منابذةَ بني هاشم وبني المطلب، وإخراجهم من مكةُ إلى شِعْبِ أبي طالب والتَّضييق عليهم بمنعِ حضور الأسواق، وألّا يناكحوهم، وألّا يقبلوا لهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقَتْلِ، وارتفعتِ الأصواتُ مؤيدة مردّدة ما قاله الفاجرُ الخبيث النَّضر بنُ الحارث، كأنَّما قد وضع كلامه في أفواههم: لا تناكحوهم ولا تنكحوا إليهم، ولا تبيعوهم شيئاً ولا تبتاعوا منهم شيئاً، ولا تقبلوا منهم صلحاً.

واتَّفق المجرمون على أنْ يكتبوا بذلكَ صحيفة، ويعلِّقوها في الكعبة توكيداً على أنفسهم، ثمَّ ذهب الذين اتبعوا أَمْرَ الوشاة إلى الكعبة وعلّقوا الصَّحيفة فيها، فرأى أبو طالب أنْ الحرب قد أُعلنتْ على قومه، فجمع بني هاشم والمطّلب مؤمنهم وكافرهم، وأمرهم أنْ يدخلوا برسولِ اللهﷺ الشِّعب ويمنعوه، فانطلقوا إلى الشِّعب ورسول اللهﷺ فيهم.

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفاجر النضر بن الحارث ومواقفه السلبية وعداوته للإسلام والمسلمين والحق في كتابنا «المبشرون بالنار» الجزء الثاني ترجمة النضر.

كان دخولُ النَّبيِّ ﷺ والذين معه الشِّعب هلال المحرم سَنَة سَبْع من النّبوّة، فضرب كفّار قريش حول شِعْب أبي طالِب نطاقاً من الحّراس يمنعون النَّاس من الدُّخول، أو الاتصال بمن قبلوا الدُّخول لحماية رسول الله ﷺ تطوعاً.

ومرَّت الأيامُ، ودار الحول، وانقضتْ سَنَة، وبنو هاشم والمطّلب في ضيق، فقد نفد ما كان عندهم، وخوت بطونهم، وزاغت عيونهم، وتفككت أوصالهم، وأَنَّتْ نساؤهم، وبكى صغارهم، وراحوا يصرخون يطلبون الطَّعام، فكانت دموع النِّساء تنهمرُ، وأكباد الرِّجال تتفتَّت..

مضتْ ثلاثُ سنواتٍ عجاف على المسلمين، وهم محاصرون داخل الشعب، كانت أيامهم فيها أيام شدة وضيق، وصبروا صَبْر الكرام لهذه المحنة العظيمة، وهم ممتثلون لأَمْرِ ربّهم حتى يقضيَ الله أَمْراً كان مفعولاً.

ثم جاء الفرجَ الإلهي، إذ نادى أفرادٌ منْ قريش بفكِّ الحصار عن المُسلمين، ومُزّقتِ الصّحيفة الظَّالمة، وخرجَ المسلمون وهم يكبِّرون: الله أكبر، الله أكبر.

وهكذا فرّجَ الله عزَّ وجلَّ عن المُحاصرين ما أهمّهم وما أغمهم، وخرجوا جميعاً ليمارسوا حياتهم الطَّبيعية بينَ أفرادِ المجتمع المكيّ، وكان خروجُ الحبيب الأعظم سيّدنا محمّد ﷺ ومَنْ معه مِنْ محنةِ الحصار(١) في السَّنَةِ العاشرة من البعثة قبل الهجرة إلى المدينة المنّورة بثلاث سنين.

---

(١) كانت هذه المحنة الظّلوم لوناً من ألوان التّربية الإلهيةِ التي تعهّد الله عزَّ وجلَّ بها نبيّه محمّداً ﷺ، ليعدّه لتحمّل أثقال الدعوة إلى الله تعالى، ويبلغ رسالاته، بما كان فيها من شدائدَ ومحن وتمحيص لعزائمِ أهل الإيمان رضي الله عنهم ورضوا عنه. وهذه المحنُ القاسية بما فيها من ألوان تعذيب المشركين للمسلمين، كانت صقيلاً لعزائم المؤمنين، ومدداً لعزيمة رسول الله ﷺ، ودروساً للتّربية في مستقبل الدعوة القريب والبعيد، وتأسيساً لمنهج الوراثة في الدّعوة إلى الله تعالى.

رحْلةُ الخُلُودِ..

كانت أمُّ المؤمنين خديجة رضوان الله عليها أعرفَ النَّاسِ وأقدرهم على وزن ما حُمِّلَ رسولُ الله ﷺ من أمانة رسالته، فقد آمنتْ به وصدقته رسولاً أميناً لله تعالى، يتلّقى وَحْيَه، ويبلّغ رسالته، فيلقى منَ البلاء ما تنوء تحت ثقلهِ ثوابتُ الرَّواسي، فتنفِّسُ عنه وتشجعه وتعينه على الصَّبْرِ، وتمسحُ عن صدره ضائقات الصُّدور، وتهمس له بلواطفِ العواطفِ النَّبيلة، كيما يتمّ تبليغ ما أَمَره الله.

قضتِ السَّيدةُ الطَّاهرة خديجة رضي الله عنها في كنف رسول الله ﷺ أشقّ مراحل الدَّعوة، فكانت حياتها معه أوفى حياة زوجة لزوجها، وأبّر شريكة لشريكها، كانت تشاركه مباهجه ومسّراته، وتهيىء له أسباب تفرّغه لعبادة ربّه، تخدمُه في بيتها وعقلها وروحها ووجدانها، وتردُّ عنه عاديات الحياة بين قومه، حتى إذا جاءته النّبوّة بطلائعها ووحيها، كانتْ أول مَنْ آمَنَ بهِ وصدَّقه، وعندما حدَّثها عن الوحيّ، وعنِ المفاجآت التي لقيها، عرفتْ بفراستها الواحية، وحسّها المرهف، وشعورها المستشرف أنَّ أَمْرَ هذا الزَّوجِ الأكرمِ، لم يَعُدْ أمْرَ حياةٍ زوجية يملؤها دفء الحنان، وهمس الوفاء، ولكنَّها ارتقتْ إلى حياةٍ جديدة في معالمها، إلى حياة رسالة ورسول، إلى حياةٍخالدة، حياة دعوة تهدم وتبني، تهدم الشِّرك والوثنية، وتبني التَّوحيد والعبادة، تهدمُ التقليد الأبله، وتبني المعارف والهداية.

وبهذا، فلترتفع خديجة الصِّديقة الأولى، بحياةِ الزَّوجيّة الوفيّة إلى حياة الصِّدِّيقيّة العظمى، حياة الإيمان بالرّسالة والرسول، ولتكنِ الطَّاهرةُ معه وزيرةَ صِدْق، ورفيق إخلاص وفداء؛ فالرَّسولﷺ هو الصَّادق الأمين، ومجمع مكارم الأخلاق، وموئل الفضائل، ومنتجع الشَّمائل، ومنبع المحامد، ومصدر الخير، وقد اجتباهُ الله تعالى أميناً للرّسالة، وقد عرفتْ خديجةُ الطَّاهرة رضوان الله عليها هذه المحامد كلَّها وقدَّرتْ شَخْصَ الرسولﷺ حقَّ التَّقدير.

ومرَّتِ الحياةُ في ظلِّ وفاءِالزَّوجيّة، وصدّيقيّة الإيمان، بين محمّدﷺ الزَّوج الكريم الحبيب، وبين خديجة الزَّوجة الوفيّة الصِّدِّيقة المؤمنة.

وقد كان عَمَلُ خديجةَ رضي الله عنها في بيتها بالوفاءِ الزَّوجي، وتربية أولادها، أكرمَ عملٍ كبير يُسدي للرِّسالة فَضْلاً، ويمدُّها بقوةٍ، إلا أنَّ رسولَ الله ﷺ أحوجُ ما يكون وهو يخوضُ نضالاً مريراً في سبيلِ تبليغِ رسالته إلى عاطفةِ الوفاءِ في زوجةٍ صادقةِ الإيمان برسالتهِ، تنسكبُ في قلبه بَرْداً وسَلاماً عندما يؤوب إلى بيته، فيحدِّثُ ويتحدَّث في جوٍّ مفعمٍ بالإيمان، فكانت تهِّونُ عليه الصِّعاب، وتجددُّ عزائمه، فيخرج إلى حياة النَّاس مسيحَ الآلام، فسيحَ الآمال، روي الفؤاد بالصَّفح والإحسان.

وبهذا الأَدب الإلهي الذي اعتصمتْ بعواصمهِ خديجة رضي الله عنها، عاشت في كَنَفِ محمّد الزَّوج ﷺ، ومحمّد الرَّسول ﷺ، تتقاسم معه الشَّعور بالسَّعادة في التطلع إلى آمال المستقبل في آفاق الحياة، وتقاسمه الإحساس بأعباء تبليغِ الرِّسالة معتصمة بالصَّبر الجميل تأسيّاً برسولِ الله ﷺ في مجالات الحياةِ.

دخلتْ خديجةُ رضي الله عنها حصار الشِّعب مع زوجها رسول الله ﷺ، فشاركته آلامَ المحنةِ ومرارتها راضيةً صابرةً محتسبةً تواسي الحبيبَ المصطفى ﷺ وتخفّفُ عنه وَقْعَ هذا الظُّلم الأليم الفاجر، إلى أنْ خرجَ ﷺ مِنْ هذا الحصار ظافراً منصوراً يتابعُ نَشْرَ دعوتِهِ وتبليغِ رسالته، وخرجت معه زوجه الوفيّة خديجة الطّاهرة أطهر الطّاهرات إلى بيتها تتابعُ سيرها في الحياة زوجةً أمينة، مستظلةً بظلِّ الإيمان وصادق الوفاء..

ولكنَّ السَّيِّدة خديجة رضي الله عنها، لم تلبثْ إلا قليلا بعد الخروج منَ الحصار، حتى ذبلتْ، ودبَّ الوهن في جسدها، ولكنَّ عزيمتَها لم تذبلْ، وإنَّما كانت تنظرُ إلى رسول الله ﷺ نظرةَ إكبارٍ، فهو زوجها ورسولها الذي أخرجها من ظلماتِ الجاهلية إلى نور الإسلام والسَّلام، وأخذَ بيدها إلى النَّبعِ الرُّوحي الصَّافي الذي نهلت منه، فلم تظمأ بعدها أبداً، فقد فتحَ بصيرتها وفؤادها لاستقبالِ نفحات ربِّها، وعرفها السَّعادة الحقيقية بأشراق أنوار المعارف في عين ذاتها.

وذات يوم لبَّتْ خديجة نداءَ ربِّها راضيةً مرضية[1]، مبشَّرةً من رسول الله ﷺ

---

(١) دَفنت أمّ المؤمنين خديجَة رضي الله عنها في جبلِ بأعلى مكةَ عنده مدافن أهلها، ويسمى

بالنَّعيم المقيم في فراديس الجنان، عند مليك مقتدر.

انتهت رحلةُالحياة مع خديجة رضي الله عنها لتبدأ رحلة الخلودُفي نعيمٍ لا يزول، ولتظلّ في أفئدةِ المؤمنين الذين أحبّوا سيرتها وأحبّوا أمَّهم، وأحبَّوا زوجة نبيّهم الحبيب الأعظم محمدﷺ.

«سَلَامٌ قَولاً مِنْ رَبٍّ رحيم»

عندما تعرّض الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ للحديثِ عن أمِّنا خديجة قال: خديجة أمّ المؤمنين، وسيّدة نساء العالمين في زمانها، أمّ القاسم ابنة خويلد بنِ أسد بنِ عبد العزى بنِ قصي بن كِلاب القرشيّة الأسديّة، أمّ أولاد رسول اللهﷺ، وأوّل مَنْ آمنَ بهِ وصدَّقه قبل كلّ أحد وثبّت جأشه، ومضت به إلى ابنِ عمّها ورقة[1].

وقال الذَّهبي أيضاً: ومناقبها جمّة، وهي ممن كمل من النِّساء، كانت عاقلةً جليلةً ديّنة مصونةً كريمةً، من أهل الجنَّةِ، وكان يثني عليها، ويفضّلها على سائرِ أمّهات المؤمنين، ويبالغُ في تعظيمها، بحيث إنَّ عائشة كانت تقول: ما غِرتُ من امرأةٍ ما غرتُ من خديجةَ، من كثرة ذِكْرِ النَّبيِّﷺ لها[2].

ومن كرامتهاﷺ أنَّها لم يتزوّجْ امرأة قبلها وجاءه منها عًدة أولاد، ولم يتزوجْ عليها قطّ، ولا تسّرى إلى أنْ قضتْ نَحْبَها، فوجَدَ لفقدها، فإنَّا كانت نعمَ القرين، وكانت تنفقُ عليه مِنْ مالها، ويتجرُ هوﷺ لها. وقد أَمَرَهَ الله أنْ يبشِّرهَا ببيتٍ في الجنةِ من قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَب[3].

= ذلك المكان «الحجون» وقد أدخلها رسول اللهﷺ بيده في قبرها، وكان عمرها (٦٥سنة) رضي الله عنها وأرضاها.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩).

(٢) الحديث صحيح أخرجه الشَّيخان، البخاريُّ(٧/ ١٠٢ و١٠٣) ومسلم (٢٤٣٥) في فضائل الصحابة، والترمذي (٣٨٧٥) في المناقب.

(٣) انظر: سير أعلام النّبلاء للذّهبي (٢/ ١١٠).

هذا وقد خصَّها الباري عزَّ وجلَّ بالسَّلام[1] على لسان جبريل عليه السَّلام.

روى البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحهِ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النّبيﷺ وهو بغارِ حراء ـ كما عند الطَّبراني في رواية سعيد بن كثير ـ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتْ معها إناءٌ فيه إدامٌ، أو طعام، أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السَّلام[2] من ربِّها ومني وبشِّرها ببيتٍ في الجنَّةِ من قَصَبٍ لا صَخَبَ فيه ولا نَصَب[3].

---

(١) قال صاحبُ الزَّاد في الزَّاد عما خُصَّتْ به خديجة بالسَّلام: وهي فضيلةٌ لا تُعرفُ لامرأةٍ سواها. (زاد المعاد لابن قيّم الجوزية ١/١٠٥) ومما يزيدُ في رصيدِ أمّ المؤمنين خديجة، ما ورد عن محمّد بن داود المتوفى سنة (٢٩٧هـ) صاحب كتاب «الزّهرة» أنّه سُئل: أيهما أفضل خديجة أو عائشة؟

فقال: خديجة أقرأها النّبيّﷺ السلام من ربِّها، وعائشة أقرأها السَّلام من جبريل، فالأولى أفضل.

وقال الشّيخ ولي الدّين العراقيّ ـ رحمه الله ـ خديجة أفضل أمهات المؤمنين على الصَّحيح المختار (المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٢/٧٧).

ويمكنني أنْ أقولَ الآن: تبقى هذه المسألة وأشباهها مجرّد آراء، والكلام في التّفضيل صعبٌ، ووعر المسالك، وفيه من المزالق الكثيرة التي لا تعود بفائدة ولا ينبغي التّكلم إلا بما ورد في الصَّحيح المتواتر، والسكوت عما سواه، وحفظ الأدب وحسن اختيار الألفاظ التي تناسب مقام هؤلاء الفضليات الطّاهرات المطهرات، وأعتقد أنّه لا يحقّ لنا بأنْ ندليَ دلونا في هذه المسائل، وإنّما نحن نحبُّ الجميع، ونربي أنفسنا ونساءنا على الاقتداء بنهجهن المنير المستمد من نور رسول اللهﷺ ـ والله تعالى أعلم ـ.

(٢) كان الرّسولﷺ يُسلّم بنفسهِ على مَنْ يواجهه، ويُحَمِّلُ السَّلام لمن يريد السَّلام عليه منَ الغائبين عنه، ويتحّمل السَّلام لمن يبلغه إليه، كما تحّمل السَّلام من الله عزَّ وجلَّ على صدّيقة النّساء خديجة بنت خويلد أمّ المؤمنين رضي الله عنها ـ كما جاء في الحديث.

(٣) رواه البخاري في مناقب الأنصار وفي التّوحيد ورواه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٣٢ و ٢٤٣٣) والتّرمذي في المناقب برقم (٣٨٧٦) والنّسائي في فضائل الصّحابة (ص٧٥) وأحمد في المسند (١/٢٠٥) و(٢/٢٣٠ و٢٣١) وفي فضائل الصَّحابة برقم (١٥٨٦)، وانظر السّمط الثمين (ص٢٤ و٢٥) ومجمع الزوائد (٩/٢٢٣ ـ ٢٢٥) وغيرها

قال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح: زاد الطّبراني في رواية سعيد بن كثير المذكورة، فقالت: هو السّلام ومنه السَّلام، وعلى جبريل السَّلام.

وعند النّسائي زيادة: وعليك يا رسول الله السَّلام ورحمة الله وبركاته.

وهذه لعمر الله خاصة لم تكن لسواها.

ولنقف وقْفَة ندية مع أمِّنا الطَّاهرة، فنلاحظ معرفتها بعظمة الله عزَّ وجلَّ في ردِّهَا على سلامها عليها، ونعزز هذا القول بما قال الحافظ ابنَ حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح: قال العُلماء: في هذه القصَّة دليلٌ على وفور فقهها، لأنَّها لم تقلْ وعليه

= كثير من المصادر الحديثية وكتب السّيرة والطّبقات والتّفسير.

قال الإمام السُّهيلي ـ رحمه الله ـ في روضه:

النكتة في قوله: «من قصب» ولم يقل من لؤلؤ: أن في لفظ القَصَبِ مناسبة لكونها أحرزت قصب السَّبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها. وقال صاحب اللسان: وأصل قصب السبق؛ أنهم كانوا ينصبون في حلبة السباق قصبة، فمن سبق اقتلعها وأخذها ليُعلم أنَّه السَّابق من غير نزاع، ثم كثر حتى أطلق على المبرز والمشمر.

انظر: «لسان العرب لابن منظور مادة قصب» والمشمر: المجد، والناقة السريعة.

وذكر الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح قال: كان لخديجة من الاستواء ما ليس لغيرها، إذ كانت حريصة على رضاه بكلِّ ماأمكن، ولم يصدرْ منها ما يغضبه قطّ، كما وقع لغيرها (فتح الباري حديث رقم ٣٨١٦).

وقال السُّهيليُّ ما ملخصه في تعليقه على كلمة «بيت»:

لذكرِ البيتِ معنى لطيف، لأنّها كانت ربّة بيتٍ قبل المبعث، فصارت ربّه بيتَ في الإسلام، منفردة به، لم يكن على وجه الأرض في أول يوم بعث فيه رسول الله ﷺ بيت في الإسلام إلا بيتها، وهي فضيلة ما شاركها فيها غيرها.

قال: وجزاء الفعل يذكر غالباً بلفظه، وإن كان أشرف منه، فلهذا جاء في الحديث بلفظ البيت دون القصر. مناسبة نفي هاتين الصِّفتين ـ الصَّخب والمنازعة ـ أنَّه ﷺ لما دعاها إلى الإيمان، أجابت طوعاً، ولم تحوجه إلى رفع الصَّوتِ، ولا منازعة ولا تعب في ذلك، بل أزالت عنه كل تعب، وآنسته في كل وحشة، وهوّنت عليه كل يسير، فناسب أن تكون منزلتها ـ التي بشرها بها ربها ـ بالصفة المقابلة لفعلها.

السَّلام، كما وقعَ لبعض الصَّحابة حيث كانوا يقولون في التَّشهد: السَّلام على الله، فنهاهم النَّبيّ ﷺ وقال: «إنَّ الله هو السَّلام فقولوا: التَّحيات لله» فعرفت خديجة لصحةِ فهمها أنَّ الله لا يُردُّ عليه السَّلام كما يُردُّ على المخلوقين.

إنَّ هذا من عظمِ المنزلة أنْ تتلقى السَّيدة الطَّاهرة خديجة السَّلام مِنْ السَّلام الله ربِّ العالمين، إذ كانت أوفى زوجة، وأصدق صَدِيقة وصِدِّيقة، وكانت دعامة من دعائم الإخلاص الوفيِّ في مسيرحياةِالرِّسالة السَّماوية، فاختصَّها الله عزَّ وجلَّ بهذه المنزلة العظمى، أو ليست خَديجة أوّل المؤمنين والمؤمنات بمحمد نبيّاً ورسولاً؟! إنّها الطَّاهرة الكاملة، وكفى! وهل هناك فخر وراء ذروة المجد والسُّؤدد الذي لا يتكرر ـ ولن يتكرر ـ في هذه الحياة أبداً؟!!

الحَيَاةُ الحقيقيَّةُ:

هل توقفتْ حياةُ أمِّ المؤمنين خديجة بانتقالها إلى الرَّفيق الأعلى؟!

إنَّ ذكرى الطَّاهرة خديجة رضي الله عنها وصورتها لم تكن تبرح خيالَ رسول الله ﷺ أبداً، وكيف تبرحُ صورتها ذهنه وهو أوفى الأوفياء وسيِّد الأصفياء؟!

أعتقدُ أنَّ الحياة الحقيقيّة للسّيّدة خديجة رضي الله عنها ما زالت مستمرة إلى ما شاء الله... لقد رافقتْ ذكرياتها مسيرة حياة بناتها وأحفادها، ثم في حياة كلِّ اِمرأة تؤمنُ بالله ورسوله، وفي ضمير كلِّ مؤمنٍ يحبُّ الله ورسوله.

إنَّ الثَّناءَلايكْتَسبُ بالمال، وإنَّما بما يتركُ الإنسانُ في دُنياه من فضائلَ يبقى أريجها مدى الدَّهرِ، ينتعشُ بذكره الأحياء، وتصفو بذكرياته النُّفوس، وتتغذى بسيرتهِ العقول؛ قُلْ لي بربّك: أليستْ هذه قمّة السِّيادة في الحياة وفي الممات؟!

إنَّ صِدِّيقةَ المؤمنات الأولى خديجة رضي الله عنها لم تكن أمَّ المؤمنين فحسب، وإنّما كانت أمّ كلِّ فضيلة، ولها في عنقِ كلِّ مُوحِّدٍ فضل وحقّ إلى يوم يبعثون، فهل نستطيع أن نفيَ أمّنا جزءاً منْ حقِّها؟!

بعد وفاة خديجة رضي الله عنها ووفاة أبي طالب عمّ رسول الله ﷺ، خلا

الجو لأحلاسِ الشِّرك، وفجّار الوثنية في مكة، فنالوا[1] من الحبيب المصطفى ﷺ ما لم يكونوا نائليه منه، فأطلقَ رسول الله ﷺ على ذلك العام: عام الحزن، إكراماً لصدّيقة المؤمنات الأولى خديجة رضي الله عنها، ولأنَّه لم يجدْ متنفّساً لدعوته، ولا منتجعاً لتبليغِ رسالته في أمِّ القُرى وما حولها، ولكنَّ الله متمُّ نورهِ ولو كرهَ المشركون..

وظلتْ خديجة رضي الله عنها في قلب النّبي ﷺ في كلِّ مناسبة، وفي كلِّ مكانٍ وموضعٍ، لا تكاد تسنحُ سانحة إلا ويعطِّرُ المجلسَ بذكرها، أو يثني عليها، أو يذكرها بالخير، وحسبك بثناءِ رسول الله ﷺ عليها..

تروي أمُّ المؤمنين عائشة الصّديقة بنت الصِّديق رضي الله عنها خبراً مباركاً، يدلُّ على مكانة الطّاهرة خديجة رضي الله عنها، فيعطر الأسماع، ويبهجُ القلوب، ويؤنس النُّفوس، بما للطاهرة مِنْ مكانة عند رسول الله ﷺ، وبما لها من رصيد في مَيْدَانِ الفضائل، وفي سماء المكرمات فتقول: كان رسول الله ﷺ إذا ذكَرَ خديجة لم يكدْ يسأم من ثناءٍ عليها، واستغفارٍ لها، فذكرها يوماً؛ فحملتني الغيرةُ، فقلتُ: لقد عوَّضك الله من كبيرةِ السِّنِّ! فرأيته غضبَ غضباً، أسقطتُ في خَلَدي، وقلتُ في نفسي اللهم إنْ أذهبتَ غضبَ رسولك عني لم أعدْ أذكرها بسوء.

فلما رأى النَّبيُّ ﷺ ما لقيتُ قال: «كيف قلتِ؟ والله لقد آمنت بي إذ كذَّبني النَّاس، وآوتني إذ رفضني النَّاس، ورزقتُ منها الولد وحرمتموه مني» قالت: فغدا وراح عليّ بها شهراً[2].

في اعتقادي أنَّ هذا الثَّناء من رسول الله ﷺ على خديجة يمثِّلُ ذروةَ الوفاءِ

---

(١) لله در البوصيري إذ صور هذا المعنى فأجاد فقال:

وقضى عمّه أبو طالب وال ... دهر فيه السَّراء والضَّراء
ثم ماتت خديجة ذلك العا ... م ونالت من أحمدَ المناء

(٢) انظر: سير أعلام النبَلاء للذهبي (٢/١١٢).

الصَّادق، وخالص الودِّ، وعظيم الإخلاص، فخديجة رضي الله عنها أطهر الطَّاهرات لن يبلغ أحد ما بلغته حتى الصّديقة ابنة الصّديق بما لها عند الرسول الكريمﷺ تقف عندما يغضب لمن يذكر خديجة بأي أسلوب، حتى ولو كان مزاحاً فخديجة في حياةٍ دائمة في حياتهﷺ في جميع مجالاتها.

ويبدو أنَّ ثناء رسول اللهﷺ المتزايد على أمِّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها أثار غريزة الغيرة عند أمِّنا عائشة رضي الله عنها، فتبوحُ بما في مكنونها وتترّجمُ عن مكانة خديجة في نَفْسِ رسول اللهﷺ فتقول: ما غرتُ[1] على امرأةٍ ما غرتُ على خديجة، مما كنت أسمع من ذكْرِ رسول اللهﷺ لها، وما تزوّجني إلا بعد موتها بثلاث سنين، ولقد أَمَره ربّه أنْ يبشّرها ببيتٍ في الجنَّةِ من قَصَب[2].

إنَّ خديجة رضوان الله عليها خيرُ نساء الأرض في عصرها، فقد اقتعدت مكانةً عظمى في سّدة الفضائل لم تقتعدها امرأة غيرها، ولهذا قال عنها الحبيبُ المصطفىﷺ «خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نسائها مريم بنت عمران»[3]

أمّا وفاء عَهْد رسول اللهﷺ لخديجة الطاهرة فليس له نظير في دنيا الوفاء،

---

(١) للإمام الذّهبيّ ـ رحمه الله ـ تعليقٌ نفيسٌ عن سبَبِ غيرة عائشة رضوان الله عليها، لما كانت تسمعه من ثناء رسول الله على خديجة وتفخيمه لشأنها فيقول معقباً على هذا الخبر: وهذا من أعجب شيء أنْ تغارَ ـ عائشة رضي الله عنها ـ من امرأة عجوز توفيت قبل تزوج النبيﷺ بعائشة بمُديدة، ثمّ يحميها الله من الغيرة من عدة نسوة يشاركها في النبيﷺ، فهذا من ألطافِ الله بها، وبالنّبيّﷺ، لئلا ينكدر عيشهما، ولعلّه إنّما خفف أَمْر الغيرة عليها، حبّ النّبيّﷺ لها، وميله إليها فرضي الله عنها وأرضاها (سير أعلام النبلاء٢/١٦٥).

(٢) انظر سير أعلام النّبلاء (٢/١١٢) والحديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم، وانظر التاج الجامع للأصول (٣/٣٧٨) ومصادر أخرى كثيرة.

(٣) أخرجه الشّيخان في صحيحهما، البخاري في فضائل أصحاب النبي، باب تزويج النبيﷺ خديجة وفضلها ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أمّ المؤمنين حديث رقم (٢٤٣٠) والترمذي في المناقب (٣٨٨٧) وانظر التاج الجامع للأصول (٣/٣٧٨).

وفي دنيا النَّقاء، وفي دنيا الإخلاص، وكيف لا والحبيبَ المصطفى ﷺ معقل كلِّ فضيلة، ومعقد كلِّ مكرمة، وموئل كلِّ بركة، فقد كان يودّ مَنْ كان يودّ خديجة، ومَنْ كانت تود خديجة.

ففي صحيح الإمام مسلم - رحمه الله - عن عائشة - رضي الله عنها - أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا ذبح الشَّاة قال: «أرسلوها إلى أصدقاءِ خديجة» فذكرت له يوماً فقال: «إنِّي لأحبّ حبيبها»[1] وفي رواية: «إنِّي رزقتُ حبَّها»[2]

نعم إنَّ الحبيب المصطفى ﷺ ليحبّ مَنْ تحب زوجه الوفيّة خديجة، فإنَّ المحبوب يذكر بالحبيبِ، وهذا ما حدث في بيت الصّديقة ابنة الصّديق رضي الله عنهما. فقد روت عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت عجوزٌ إلى النّبيِّ ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: «مَنْ أنت»؟

قالت: أنا جثامة المزينة.

فقال: «بل أنتِ حسّانة المزينة، كيف أنتم، كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا»؟

قالت: بخير، بأبي أنت وأمّي يا رسول الله.

فلما خرجتْ، قلت: يا رسول الله، تُقْبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟

قال: «إنَّها كانت تأتينا زمن خديجة، وإنَّ حُسْنَ العَهْدِ من الإيمان»[3]

وكان رسولُ الله ﷺ يبرّ صَدَائقَ خديجة رضي الله عنها بعد موتها، إحياءً لذكراها، ووفاء لطهرها وكرمها.

عن سيّدنا أنسٍ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُتي بالشَّيء يقول: «اذهبوا به إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة»[4]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) انظر: التاج الجامع للأصول (٣٧٨/٣).

(٣) انظر: فتح الباري (١٠/٣٦٥) والحاكم في المستدرك (١/ ١٥ و١٦) والأسماء المبهمة (ص٤٧ و٤٨).

(٤) انظر: أزواج النبي للصالحي (ص٦٢).

وفي الصَّحيح عن أمِّ المؤمنينَ عائشة رضي الله عنها: «أنَّ رسول الله ﷺ كان يذبح الشَّاة فيتتبَّع به صدائق خديجة، فيهديها لهن»[1].

ولم يغبْ عن بالِ المصطفى ﷺ صوت زوجه البارَّة خديجة، فكان صوتها الدَّافىء يسكنُ في حناياه الشَّريفة. ففي الحديثِ الذي روته عائشة رضي الله عنها مصداق ذلك.

قالت عائشة: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد على رسول الله ﷺ على رسول الله ﷺ، فعرفَ استئذان خديجة وتذكَّره، فارتاع فقال: «اللهم هالة بنت خويلد» فغِرتُ فقلتُ: وما تذكر من عجوزٍ من عجائز قريش حمراء الشِّدقين هلكت في الدَّهرِ فأبدلك الله خيراً منها[2].

ولكنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ غضبَ لذلك، حتى وعدت عائشة ألاّ تذكر خديجة إلا بخيرٍ، فكان ذلك منها فيما بعد رضي الله عنهما.

نعم، فخديجةُ نسيج وحدها، ولها خواصّ لم يلحقْها واحدة من نساء أهلِ البيت ومن أزواجِ رسول ﷺ، فمن خواصها؛ أنَّها لم تسؤه ﷺ قطّ، ولم تغاضبه، ولم ينلْها منه إيلاءٌ ولا عتْبٌ قط ولا هجر، وكفى بهذا منقبة وفضلاً.

ونحن الآن، ما تزال أمّنا خديجة ملء السَّمْعِ والبصر والقلب ـ وأين مثل خديجة ـ؟ نحبُّ سيرتها، ونستروحُ العبير من زهر رياض حياتها، ونتفيأُ بالرِّياض النَّضرة لسيرتها، لتكون لنا زاد المسير في طريق الطُّهر، وفي درب العَطاء، نحبُّها لنكونَ يوم القيامة مع مَنْ نحبّ ـ بإذن الله ـ فعسى أنْ يحشرنا ربُّنا معها، وعسى الله عزَّ وجلَّ أنْ يكرمَنا لكرامتها ولكرامة رسولِهِ الكريم ﷺ.

اللهم إنّا نسألك عملاً صالحاً يقربنا إليك. اللهم إنّا نسألك أنْ تلهمنا الصَّواب، وتجعل لنا من أمرنا رشداً، والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي، وانظر جامع الأصول لابن الأثير (١٢١/٩).

(٢) الحديث رواه الشيخان، وانظر التاج الجامع للأصول (٣٧٩/٣) وأسد الغابة (٨٤/٦ و٨٥) و«حمراء الشدقين» أي: سقطت أسنانها وبقيت حمرة اللثة.

أُمّ المُؤمِنين

سَوْدة بنت زَمعة

رضي الله عنها

- من السَّابقات إلى دوحةِ الإيمان وأُنْسِ الإسلام.
- هاجرت إلى الحبشة وإلى المدينة فهي منْ أصحاب الهجرتين.
- سيدةٌ جليلةٌ، نبيلة، كريمة، طيّبة النَّفس والقلب، دخلت خدر أمّهات المؤمنين بعد خديجة بنت خويلد.
- روت خمسة أحاديث شريفة.

كانت شديدة التَّمسك بالهدي النَّبويّ، وتوفيت في أواخر خلافة عمر بالمدينة المنورة.

أُمّ المؤمنين

سَوْدة بنت زمعة رضي الله عنها

رحلةٌ مع السَّابقين:

الذين استجابوا لله وللرسول من السَّابقين الأولين، لم يكونوا كلُّهم ولا أكثرهم من الضُّعفاءِ، والأرقّاء، والفُقراء، وحواشي بيوتات مكةَ، وأتباعها المُلتقطين بقايا موائدها، وأراذلها الذين استقرُّوا فيها بادي الرَّأي، بل كانوا في كثرتهم الكاثرة من صميم أبناء بيوتِ قريش وبطونها، وعِلْية شبابها، وأفضلهم في عُلْيا المكارم.

هؤلاء السَّابقون معرفون بأسمائهم وأنسابهم، وبيوتهم، وقبائلهم، وعشائرهم، وإنَّ ما شُهر من أنَّ الذين سبقوا إلى دوحة الإيمانِ بدعوة رسول الله ﷺ، كانوا من المستَضْعَفين والمحرومين، أو من الأرقّاد والموالي، كلامٌ لا عمق فيه، ولا تحقيق، ولا يمتُّ إلى ديوان الأخبار الصَّحيحة بصلة، أو إلى الحقائق العِلْميّة والعمليّة بأدنى رابطة ـ وإنْ كان بعض السُّبّقِ ممَن استُضْعِفوا في الأرض ـ.

إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد بَعَثَ محمّداً ﷺ رسولاً وبشيراً ونذيراً إلى العباد كافة، وأَمَرَه عزَّ وجلَّ بالإنذارِ العام في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُمْ فأنذِر﴾[المدثر: ٢] فنهضَ رسول الله ﷺ بأَمْرِ ربّه، لا يبالي بما يلقاه من شديد الأذى، وفادحِ البلاءِ، لا يتَّقي أحداً من النَّاس، ولا يُصَانع ولا يجامل.

بدأ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ بتبليغِ رسالته، وهو منفردٌ في قومهِ، ليس معه مَنْ ينصره منهم، ولا من غيرهم، بل كانت قريش والدُّنيا من ورائها، إلْبٌ على هذه

الدَّعوة الهاديةِ الهادفةِالرَّاشدةِ التي تُندِّدُ بحياةِ الفوضى والضّياع التي يعيشونها، وتندِّدُ بحياتهم الظَّالمة التي يَحْيَوْنَها دون رادع يردعهم عن فجورِ ظلمٍ يرتكبونه، أو عتوٍّ بغيٍّ يأتونه، إذْلا هدفَ يعيشون من أجله، ولا دِيْنَ، ولا نظام ولا ضمير.

وهذا الحبيبُ المصطفى ﷺ ماضٍ في دعوته، لا يردُّه عن سبيلها رادٌّ، فاستجابَ له أوّل مَن استجاب ـ بعد زوجه الربية النّجيبة، الحسيبة النّسيبة سيّدة قومها جاهلية، وسيّدة نساء العَالَمين إسلاماً خديجة بنت خويلد الأسديّة القرشيّة ـ أبو بكر الصِّدّيق، أَعْلَم قريش بقريش ، وأحد سادتها مالاً وشرفاً ومكانة.

كان أبو بكر رضي الله عنه مُذْ دَخَلَ في الإسلامِ قوّاماً بالدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، دعا أبناء قممِ قريش، وذرى أحسابها[1]، وشباب بيوتها، فاستجاب له هؤلاء، وكانوا نواة الإسلام الأولى، واللّبنات الأساسيّة في صَرْحِ الإسلام.

---

(١) إنَّ الدلائل التّاريخية التّاريخية الممحّصة قاطعة بأنَّ السّابقين الأوّلين، كانت في كثرتها الغامرة، من الأحرار ذوي الشّرف، والمكانة في منابتهم، من قبائلهم وأقوامهم.

وأصدق دليل نسوقه على صدقِ الواقع، ما أجمع عليه الباحثون في السِّيرة النّبوية ورواياتها، وما سجّلوه في مؤلفاتهم، وهي موجودة مُتعارَفَة متعالَمة، إذ تُحصي أسماء أولئك السّابقين، وتتقصىّ أنسابهم في دقّةٍ عجيبة، لا تهمل الاختلاف في بعض الأسماء الواردة في سلسلة النّسبة رجالاً، ونساء، وقبائل، وأمكنة، وأوطاناً، وموالاة، وحلْفا، وعصبة، ورحماً.

وقد بدأت هذه الإحصاءات بأوّل الأولين أبي بكر الصّدّيق رضي الله عليه، وممَنْ رغبّهم في الإسلام، إذ أسلم على يديه ـ كما قال ابنُ إسحاق ـ: عثمان بن عفان، والزّبير بن العَوام، عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عُبيد الله، وغيرهم.

وهؤلاء من قريش وذوي أحسابهم، وأشراف بيوتهم، وزهرات شبابهم، ومن الجدير بالذّكر أنّه كان في قائمة السّابقين الأولين عشر نسوة من المسلمين ممن عُرفن بالشّرف والمكانة والطُّهر والرّفعة، وكنّ في زهرات العمر الأولى.

أمّا الذين اسودّت قلوبهم، وصدئت فطرتهم، وأظلمت أرواحهم، وتبلّد إحساسهم برشح الوثنيّات من الكهول والشّيوخ الذين قوّسَتْ ظهورهم حياة الجاهلية

من هؤلاء المؤمنين السَّابقين إلى دوحة الإيمان: السَّكْران بن عمرو بن عبد شمس القرشيّ العامريّ[1] أخو الصَّحابي الشَّهير سُهَيل بن عمرو العامريّ[2]، وأسلم معه زوجه وابنة عمِّهِ سودة بنت زَمْعَة بنِ قيس القرشيّة العامريّة[3] رضي الله عنها.

= بأوزارها، هؤلاء هم الذين ناصبوا دعوةَ الإسلامِ العداوةَ، وأضمروا لها البغضاء، وتولوا وأعرضوا مستكبرين؛

وللمزيد من أخبار هؤلاء العتاة العصاة قساة الأكباد، راجع كتابنا «المبشّرون بالنار» في مجلديه حيث تجد مصداق مَا أوردناه في هذه الحاشيةِ موسّعاً موثّقاً هنالك. والكتاب مطبوع في دار ابن كثير العامرة.

(١) انظر ترجمته في الإصابة (٢/٥٧) والاستيعاب (٢/١٢٤).

(٢) انظر ترجمته في الإصابة (٢/٩٢ و٩٣) وغير ذلك من كتب المصادر.

(٣) تهذيب الأسماء واللّغات (٢/٣٤٨) والإصابة (٤/٣٣٠) والاستيعاب (٤/٣١٧) وأسُدُ الغابة (٦/١٥٧) ترجمة رقم (٧٠٢٧) وجامع الأصول (٩/١٤٥) وتهذيب التّهذيب (١٢/٤٢٦) والسّمط الثّمين (ص١١٧) ومجمع الزّوائد (٩/٢٤٦ ـ ٢٤٨) وسير أعلام النّبلاء (٢/٢٦٥ ـ ٢٦٩) وطبقات ابن سعد (٨/٥٢ ـ ٥٨) وشذرات الذّهب (١/١٧٩) وأزواج النّبي للصّالحي (ص١٧٣) والبداية والنّهاية (٦/٧٠) و(٣/١٣٢) والكامل في التّاريخ (٢/٣٠٧) وتاريخ الطّبري (٢/٣٩ و٢١١) والمعارف (ص٢٨٤) والمحبر (ص٧٩ و٨٠) ومختصر تاريخ دمشق (٢/٢٧١) وأزواج النبي لأبي عبيدة (ص٦١ و٦٢) وتاريخ الإسلام للذّهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص٢٨٧) والسّيرة النّبويّة (١/٣٦٨) والسّيرة الحلبية (٢/٤٢) والسّيرة النّبوية لدحلان (١/٢٦٨) وزاد المعاد (١/١٠٥ و١١٤) والفصول (ص٢٤٣) وعيون الأثر (٢/٣٧٧) وأنساب الأشراف (١/٢١٩) والسّير والمغازي (ص١٧٧ و٢٥٤) وجلاء الأفهام (ص١٨٢) والمواهب اللدنية (٢/٧٩) والدّرر (ص٤٥) وجوامع السّيرة النّبوية (ص٣١) ودَرُّ السُّحابة (ص٣٢٥) وتلقيح فهوم الأثر (ص١٩) وجمهرة أنساب العرب (١/١٦٦ و١٦٧) والمجتبى من المجتنى لابن الجوزي (ص١٩) ودلائل النّبوة للبيهقيّ (٢/٤٠٩) والأعلام للزّركلي (٣/١٤٥) والمغازي للواقديّ (١/١١٨) و(٣/١١٠٦ و١١١٥) والتّاج الجامع للأصول (٣/٣٨٣) وغرر التّبيان (ص٢٤٠) ومفحمات الأقران (ص١٦٦ و١٦٨) وغيرها كثير من المصادر الحديثية وكتب التفسير والطبقات وغيرها.

عُرِفتْ سودة بأنَّها من ذواتِ السِّيَادةِ والنُّبْلِ والشَّرف في مجتمع نساء قريش، ولما انضمتْ وزوجها إلى ثلّةِ المؤمنين الأولين، وأصبحت من جند دعوة محمّدﷺ مع بقية المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين و المسلمات.

عند ذلك طارت عقول قريش شعاعاً مِنْ أدمغتها، ودارت أفئدتهم في حنايا أضلعهم، وتنفسُوا الصُّعداء غمّاً وهمّاً وكمداً لإيمان هؤلاء الأَبْرار.

بدأتْ فدائحُ البلاءِ تتوالى على هؤلاء البررة المؤمنين، بما أنزل الله مِنَ الهدى ودِين الحقِّ، وطفقوا ينزلون بالمسلمين ألوان العذاب، وراحوا يتفننون في تعذيبهم بأبشع ما يتصوره عقل بشر..

شعر رسولُ اللهﷺ بما ينال أصحابه الكرام، من قواصم البلاء، ومن شديدِ الأذى، وهم صابرون محتسبون، لا يُؤْذَنُ لهم بردِّ الاعتداء، لا لأنَّهم ضعفاء، بل لكونهم دعاة هداية، وأصحاب رسالة، أُريدوا لتبليغها إلى الدُّنيا كلّها في أرضِ الله، ولنْ يستطيعوا أنْ يبلِّغُوا رسالاتِ ربّهم، إذا زجّوا بأنفسهم في الردِّ على أذى المشركينَ، فليصبروا، وليصابروا وليعفوا وليصفحوا وليغضوا الطرف عن سفاهة السفهاء وليتساهلوا مع ظلم الأقارب، حتى يقضيَ الله أَمْراً كانَ مفعولاً، وحتى يأتيَ بالفرجِ من عنده، وكانوا بذلك يقتدونَ بالحلم والصَّبر بحبيبهم ونبيّهم محمّدﷺ، ولله درّ البُوصيري إذ يقول مصِّوراً هذه المعاني بشعره الرّائق الفائق:

جَهِلتْ قـومُـهُ عليـهِ فـأغْضَى ... وأخـو الحِلْم دأبُـه الإغْضَـاءُ
وسِـعَ الـعَـالـمِـينَ عِـلْماً وحـلْماً ... فهـوَ بَحْـرٌ لم تُعْيِـهِ الأعبـاءُ

ولمعتْ بارقةٌ مِنَ الفَرَجِ، فليخرجِ المؤمنونَ إلى حيث يأمنون على أنفسهم منَ الفتنة في دِيْنهم، ويبلّغون رسالة الله، في أرضِ الله، في الحبشة، أرض الصِّدقِ والأَمْنِ والأمان، تلك الأرض التي لا يجدون فيها ظُلماً ولا هضماً، ولا عداوة ولا رهبة، ولا جدال ولا مِرَاء.

فَرَجٌ قَرِيْبٌ:

عَقَدَ المؤمنونَ آمالهم بالفرجِ عندما وجَّههم الحبيبُ الأعظمُ ﷺ إلى الهجرةِ في قوله ـ وهو يرى ما يُصَبُّ عليهم من البلاء ـ: «لو خرجتم إلى أرض الحبشةِ، فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظلَمُ عنده أحد، وهي أرضِ صدْقٍ، حتى يجعلَ الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه»[1]

وفي حديث الزّهريّ ـ رحمه الله ـ عند عبد الرَّزاق قال: لما كثُر المسلمون، وظهر الإيمانُ، أقبل كفَّار قريش على مَنْ آمنَ مِنْ قبائلهم، يعذّبونهم، ويؤذونهم ليردّوهم عن دِيْنِهم. قال: فبلغنا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لمن آمَنَ به: «تفرّقُوا في أرض الله، فإنَّ الله سيجمعكم»

قالوا: إلى أين نذهب؟

قال: «إلى ها هنا»

وأشار بيدهِ إلى أرض الحبشةِ، فهاجر إليها ذوو عدد، منهم مَنْ هاجر بأهله، ومنهم مَنْ هاجر بنفسه.

هذا، وقد كانت سَوْدةُ ابنة زمعة رضي الله عنها مع زوجها السّكران بن عمرو مع النَّفر الثّمانية من بني عامر الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم في الهجرة الثانية، وركبوا عباب البحر، قاصدين أرضَ الحبشة، حتى وصلوها.

مكثتْ سودةُ وزوجها في الحبشة دهراً، ثم قدما مكةَ ليتابعا طريق السَّلامة في الإسلام.

سَوْدَةُ في مَكّةَ:

قال ابنُ سعدٍ ـ رحمه الله ـ: أسلمتْ سودةُ بمكةَ قديماً وبايعتْ، وأسلمَ زوجها السَّكران بن عمرو، وخرجا جميعاً مهاجرين إلى أرض الحبشةِ في الهجرة الثَّانية[2].

---

(١) رجال مبشرون بالجنة (١٠٢/٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٥٢/٨).

وقال النَّوويُّ ـ رحمه الله ـ في تهذيبِهِ: كان السَّكرانُ بن عمرو رضي الله عنه مسلماً، وهو مِنْ مهاجرة الحبشة، ثم قدما مكةَ، فمات بها السَّكران مُسْلِماً رضي الله عنه[1].

وتأثّر النَّبيُّ الكريمُ ﷺ للمهاجرة المؤمنة التي فقدتْ زوجها وأضحتْ أرملةً وحيدةً، تعيشُ في مكة تتحملُ آلامَ وإيلامَ الوحدة وعذاب المشركين، ولكنَّها صبرتْ صَبْرَ الكرام، واسترجَعَت، فالإيمانُ الذي استقرَّ في أعماقها أضاء لها جوانب الحياة في ظلِّ السَّعادة تحت جناح الإسلام.

في تلكم الأيام، كان يؤلِمُ رسول الله ﷺ فراق زوجه خديجة الطَّاهرة رضي الله عنها، وإذ ذاك شعر بعدها وحشة مُمِضَّة، فالطَّاهرة كانت قَبْلَ البعثة خير معين له على أنْ ينقطعَ للعبادةِ، والتَّحنُّث والنَّظرِ إلى وَجْهِ الله عزَّ وجلَّ؛ وما كانت تضيقُ بحبِّهِ العزلةَ، بل كانت تباركُ فيه حبَّ النُّزوع إلى ملكوتِ السَّماء، ومحاولة الاتصال بالخيرِالأسمى، وكمال الكمال.

كانت خديجةُ رضي الله عنها بعد الرِّسالة، نَبْضَ الإسلام، وحاضنة الدَّعوة، والبلسم الشَّافي لكلِّ الجراح، والنُّور المضيء لكلِّ طريق، فما عاد إليها مثقلاً بالهموم والأحزان، إلا وأقبلَت عليه تشجّعه وتواسيه، ولا تقوم عنه حتى تمسح عن قلبه الكبيرِ الأوصاب، وحتى يفترَّ ثغره الجميل الشَّريف بالابتسام، ويتألّق في عينيه الشَّريفتين التَّصميم والعَزْم على احتمال الآلام كلّها في سبيل الله عزَّ وجلَّ، حتى يؤدي الأمانة ويبلّغ ما أُنْزِلَ إليه من ربّه.

لقد أذلَّتْ خديجةُ الدُّنيا بإدبارها عنها، وأعزّتِ الآخرة بإقبالها عليها، ولما توفيتْ بكاها رسولُ الله ﷺ وأولادها وصَحْبه بدمعٍ هتون؛ لقد رحلتِ الطَّاهرةُ سيّدة نساء قريش، وحاضنة الإسلام، وأمّ المؤمنين، وحبيبة رسول ربِّ العالمين، فكان ذلك العام العاشر من البعثة عاماً مفعماً بالأسى والحزن حتى سُمِّي عام الحزن.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٢/٣٤٨).

في هذه الظُّروف الصَّعبة لسيرِ الرِّسالة المحمَّدية، مَنِ المرأةُ التي تستطيع أنْ تملأ الفراغَ الذي تركته صدِّيقة المؤمنات الأولى خديجة رضي بنت خويلد رضوان الله عليها؟!

أعتقدُ أنَّ مكانَ خديجة لا يملؤه إلا خديجة، وأنَّ مكانها ومكانتها في قَلْبِ رسول الله ﷺ سيبقى لها وحدها، لا تشاركها واحدة من نسائه الأخريات فيما بعد..

رُؤْيَا جَمِيْلَةٌ:

عندما تحدَّث الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ عن أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن، ذكر سَوْدَة بنت زمعة ووصفها بقوله: كانت سيِّدةً جليلةً نبيلةً ضَخْمَةً(1).

يُفهم من هذا القول بأنَّ السّيِّدة النّبيلة سودة، كانت من النِّساء اللاتي نشأن على الطُّهر والنَّقاء والصَّفاء، حتى عُرفتْ بهذه الصِّفة بين النِّسوة القرشيَّات، ممَنِ اشتهرن في مطلع عصر النّبوّة وصَدْرِ الإسلام.

ويبدو أنَّ السَّيِّدة سودة بنت زمعة رضي الله عنها، كانت من اللاتي دخلن في دِيْنِ الله مع المبكّرات، وقد تفاعلت مع الدِّين الجديد حتى غَدَتْ تنطقُ بالحكمة، وترى بعين البصيرة ما قد يكون، حتى إنَّ الصِّدِّيقَة بنتَ الصِّديق رضي الله عنهما تمنَّتْ أنْ تكونَ في مثلِ هديها وطريقتها، وصفاء نفسها، وجودة قريحتها، ولذلك اختصَّ الله عزَّ وجلَّ سَوْدَة بأنْ تكونَ أمّاً للمؤمنين، وزوجاً لرسوله الأمين محمّد ﷺ.

وقد رأت سودة رضي الله عنها في منامها ما حققَتْه العنايةُ الإلهيّة ـ فيما بعد ـ فأضحتْ زوجَ الرَّسول ﷺ، ففي طبقاته روى ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كانت سودةُ بنتُ زمعة تحت السَّكران بن عمرو أخي سُهيل بن عمرو، فرأت في المنام كأنَّ النّبيَّ ﷺ، أقبل يمشي حتى وطيء

---

(1) سير أعلام النّبلاء (٢/٢٦٥).

عنقها، فأخبرت زوجها بذلك فقال: لئن صدقت رؤياك لأموتنَّ، وليتزوَّجَكِ رسول اللهﷺ.

فقالت: حجراً[1] وستراً.

ثم رأت في المنام ليلة أخرى أنَّ قمراً انقض عليها وهي مضطجعةٌ، فأخبرت زوجها، فقال: وأبيك لئن صدقت رؤياك لم ألبثْ إلا يسيراً حتى أموت، وتتزوَّجين من بعدي.

فاشتكى السَّكرانُ من يومه ذلك، فلم يلبثْ إلا قليلاً حتى مات. وتزوّجها رسول الله ﷺ[2].

أمَّا عن كيفية زواج رسول اللهﷺ سودة، فقد تكفَّلت بالخبر اليقين واحدةٌ من الصَّحابيات المؤمنات التي قامت بدور الوَساطة في هذه المهّمة الشّريفة، هذه الصَّحابية تُدعى خولة بنت حكيم[3] السُّلَمِيّة زوج عثمان بن مظعون رضي الله عنها وعنه.

اذكُريْهَا عَليَّ:

كان الصَّحابةُ الكرامُ رضي الله عنهم رجالاً ونساءً، يعرفونَ مكانةَ خديجة رضي الله عنها في نَفْسِ الرَّسولِﷺ، وعندما توفيت كانوا يرجُون له ما يخُفِّفُ عنه اللّوعة واللّهفة، أنْ يتزوَّجَ ليعيدَ لبيتهِ وبناته الأُنْسَ والسَّلوى.

ولكَنْ؛ مَنْ للعيال بعد خديجة؟! بل مَنْ ذا الذي يجرؤ أنْ يفاتحَ النَّبيَّﷺ في أَمْرِ زواجه، وكلُّهم يعرفُ ويدركُ مكانة الطّاهرة خديجة من نفسه؟ بل مَن الذي يملك الشَّجاعة ليدلي دلوه في هذا المضمار؟

---

(١) قال هشام بن السائب الكلبي: الحجر: تنفي عن نفسها ذاك.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/٥٦ و٥٧) والمحبر (ص٧٩ و٨٠) والسّيرة الحلبية (٢/٤٢) والسّيرة النّبويّة لأحمد زيني دحلان (١/٢٦٨) وحجة الله على العالمين للنبهاني (٢/١٥٤).

(٣) اقرأ سيرة الصَّحابية الجليلة خولة بنت حكيم في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (١/٢٤١ - ٢٥٢) فسيرتها أنموذج رائع لكل امرأة تؤمن بالله ورسوله.

لم يكن عند أَحَدٍ منهم شجاعة، ليفاتحَ رسول اللهﷺ في أَمْرِ أنْ تحلَّ امرأة أخرى، محلَّ سيِّدة نساء قريش خديجة، حتى سيِّدنا عمر بن الخطاب العبقريّ الشَّديد، أشفق على نفسه من حَمْل هذه الرِّسالة إلى النَّبيِّ الحبيبﷺ.

إذن، ما العمل؟ لا أَحَدَ يَقْدِرُ على شيءٍ مِنْ هذا ولكنَّ المشيئةَ الإلهيَّة جَعَلَتْ خولة بنت حكيم رضي الله عنها واحدة من فُضْليات نساء الصَّحابة، ممن كنَّ يدخلنَ بيت النَّبيِّﷺ، ويعرفنَ بعضَ شؤونه، فكانت تراهُ حزيناً لفراقِ زوجه الطَّاهرة خديجة رضي الله عنها.

وذات يوم، بينما كان رسولُ اللهﷺ في الدَّار، إذا بخولةَ بنتِ حكيم تستأذنُ الدُّخول عليه، ولما رآها رحَّبَ بها وأكرم مثواها، فهي مِنَ المؤمنات الصَّادقات الصَّابرات، قد هاجرتِ الهجرة الأولى إلى الحبشة مع زوجها عثمان بن مظعون رضي الله عنه، ثم ما لبثت أنْ عادت معه إلى مكةَ، ليكونا إلى جوار النَّبيِّﷺ، وإلى جوار المسلمين، يتحمّلان معهم الصَّبر فيما ينزل بهم من أذى قريش حتى يجعل الله من ذلك مخرجاً.

وأحبّت خولةُ أَنْ تدخل السُّرور إلى قلبه الشَّريف، وأنْ تقترحَ عليه أنْ يتّخذَ زوجة[1] له لتملأ بعض الفراغ الذي تركته خديجة رضي الله عنها، وراحت خولةُ لحظ إذ تجمع أطرافَ شجاعتها قبل أنْ يتحرَّك لسانُها بما أرادت أنْ تقوله أو

---

(١) لا يختلفُ العلماء في أنَّ النّكاح مستحبٌّ، مندوبٌ إليه، كثير الفضائل، وفيه فوائد جليلة: منها: الولد، لبقاء النّسل وهذا المقصود؛ وفيه فوائد محّبة الله عزّ وجلّ بالسعي لذلك.
وفيه: طلب محّبة رسولﷺ في تكثير مَنْ به مباهاته الأمم.
وفيه: طلب التبرك بدعاء الولد الصالح، والشفاعة بموت الولد الصغير.
ومن فوائد النكاح: التحصن من الشّيطان بدفع غوائل الشهوة.

ومن الفوائد أيضاً: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، والتكفل به بشغل الطّبخ والكنس والفرش وتهيئة أسباب العيش، فإنَّ الإنسان يتعذر عليه أكثر ذلك مع الوحدة، ولو تكفل به لضاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصّالحة عون على الدين بهذه الطريقة، إذ اختلال هذه الأسباب شواغل القلب.

بما جاءت من أَجْلِهِ، فقالت في هدوءٍ وأَدَبٍ: يا رسول الله كأنّي أراك قد دخلتك خلّة ـ حزن ـ لفَقْد خديجة؟! فأجاب الرَّسول الكريمﷺ في نبراتٍ حزينة: «أَجَلْ كانت أمّ العيال وربّة البيت».

ويبدو أنَّ خولةَ بنتَ حكيم رضي الله عنها قد وجدتْ مدخلاً كريماً، تدخلُ به إلى نَفْسِ[1] النّبيّ الكريمﷺ مِنْ هذا الباب، ووجدتِ الفرصة للحديث عن الزَّواج من إحدى عقيلات قريش. وراحت خولة تجمعُ أطراف شجاعتها من جديد وقالت: يا رسول الله، ألا أخطب عليك؟ فقالﷺ في رفقٍ: «بلى فإنّكنَّ معشر النساء أرفق بذلك»[2]

سكتت خولةُ لحظات، وقد أضاء الأملُ طريق مساعيها الحميدة، وتساءلت: لِمَ لا أحدثه عن سودة بنت زمعة وعن عائشة بنت أبي بكر، فقد تحدثت مع سودة بالأمس القريب، وتحدثت مع أمّ رومان[3] زوج أبي بكر في شأن ابنتها عائشة، وها هَو رسول اللهﷺ يشهد لي بالرِّفق في هذا الموضوع؟!!

---

(١) لا يُفهم من هذا أنْ لا أحد يستطيع أنْ يخاطبَ رسول اللهﷺ، وإنّما مَنْ شاهد أحواله وخبر أخلاقه وآدابه عرف أنّه ألين النّاس عريكة، وأكرمهم عشرة، مَنْ رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه.

ولذا فقد كان الصّحابة الكرام رضوان الله يعرفون فيه الصِّفات العظيمة الكريمة، وكانت تربيتهم الرّفيعة تجعلهم يقفون موقف الاحترام والتّوقير والتّهيب لرسولهم الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، وقد كان الرسولﷺ أحلم الناس، وأسخاهم وأعطفهم، وقد وصفه ربّه بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم وكفى بهذا الوصف وهذا الثناء الحميد من العزيز المجيد.

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/٥٧) والسّيرة النّبوية لأحمد زيني دحلان (١/٢٦٧) والإصابة (٤/٣٣٠).

(٣) اقرأ سيرة أمّ رومان في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (٢/١٧ ـ ٢٦) ففي سيرتها من المواقف النبيلة ما يجعلها من أميرات الفضل والقدوة الحسنة لكل زوجة مؤمنة تريد الله واليوم الآخر.

وشعرت خولةُ براحةٍ عميقة لهذه الفكرة التي تزور مخيلتها الآن، عندئذ فاتحت رسول الله ﷺ بقولها: يا رسول الله، ألا تتزوّج، فإنّي قد وجدتُ لك ما يدخل على قلبك السّرور، وإنْ شئتَ بِكْراً، وإن شئتَ ثيباً؟

فنظر إليها رسول الله ﷺ وقال: «مَنْ»؟ قالت: أمّا البِكْرُ؛ فعائشة بنت أحبِّ خلق الله إليك أبي بكر.

وأمّا الثّيِّب، فسودة بنت زمعة، قد آمنت بك، واتّبعتك على ما تقول.

ثم إنَّ خولةَ أشارت على النَّبيِّ ﷺ بزواجِ سودة، وذكرت له حالها بعد وفاة زوجها السَّكران بن عمرو. فقال رسول الله ﷺ: «فاذكريها عليّ» وكذلك قال عن عائشة.

وطار فؤاد خولة فرحاً حيث نجحت في مهمتها، ووُفِّقت لإدخال السُّرور إلى قلب النّبيّ ﷺ، وانطلقت وهي تكاد تطيرُ من الفرح إلى سودةَ، وقد ترقرق في وجهها الاستبشار.

ولنتركِ الحديثَ الآن لخولةَ نفسها كيما تحدثنا عن بقية مهام مهمتها، ودخولها على سودةَ بنتِ زمعة فتقول: فذهبتُ إلى سودةَ وأبيها زمعة ـ وكان شيخاً كبيراً قد جلس عن المواسم ـ فقلت: ماذا أدخل الله عليكم من الخيرِ والبركة؟
فقالت سودة في دهشة: وما ذاك يا خولة؟
قلت: أرسلني رسول الله ﷺ إليك لأخطبك عليه.

غمر سودة سرورٌ عميقٌ، واستشعرت دموعَ الفرح تبلل وجهها وروحها، وتذكّرت ما رأت في نومها منذ فترة، وها هي رؤياها قد جعلها ربّها حقّاً، وما كانت تطمعُ في أن تكون زوجاً لرسول الله ﷺ بعد أنْ نالت منها السّنون، وإنَّه لشرف عظيم لا يدانيه شرف أنْ تصبح أمّ المؤمنين، ثم توجهت إلى خولة وقالت لها والبشر يملأ وجهها: وددتُ ذلك، ولكن ادخلي على أبي فاذكري له ذلك.
قالت خولةُ: فدخلتُ على أبي سودة، وحييتُه بتحيةِ أهل الجاهلية وقلتُ: أنعم صَبَاحاً.

فقال: مَنْ أنتِ يا هذه؟

فقلتُ: خولة ابنة حكيم بن أميّة السُّلميُّ زوج عثمان بن مظعون الجمحيّ.

قالت خولةُ: فرحَّبَ بي والد سودة، وقال ما شاء الله أنْ يقولَ، فقد كان على عِلْم بأنّي خرجتُ عن آلهة قومي، وآمنتُ وهاجرتُ إلى الحبشة، ثم عُدْتُ إلى مكةَ، وسألني عن حاجتي وقال: ما شأنك؟!

فقلت: إنَّ محمَّدَ بنَ عبد الله بنِ عبد المطلب يذكر ابنتك سودة أمّ الأسود[1]

قال: إنَّ محمَّداً كفءٌ كريم، ولكنْ ما تقولُ صاحبتك سودة؟

قلت: هي تحبّ ذلك.

قال: إذن ادعيها إليَّ.

فذهبتُ ودعوتها؛ فقال لسودة: أي بنية، إنَّ خولةَ ابنةَ حكيمٍ تزعم أنَّ محمَّد بنَ عبد الله قد أرسل يخطبك، وهو كفء كريم، أتحبين أنْ أزوّجك منه؟

فقالت سودةً في صوت يفصحُ عن رغبتها: نعم إنْ أحببت.

فالتفتَ زَمَعَةُ إلى خولةَ وقال لها: قولي لمحمّد فليأتنا.

قالت خولة: فجاء رسول الله ﷺ وعَقَدَ عليها وملكها[2] فزوّجه إياها بعد أنْ أصدقها أربعمئة درهم، ودخلت سودة إلى البيت النّبويّ الكريم لتغدوَ من أمَّهات المؤمنين، وممن تشرّفن بخدمة خاتم النَّبيين[3]

---

(١) قال النووي في تهذيبه: كنية سودة أم الأسود رضي الله عنها.

(٢) عن أزواج النّبي للصالحي (ص١٧٣) ونساء من عصر النّبوة (٢/٢٤٦ و٢٤٧) مع الجمع والتصّرف.

وانظر في هذا: دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢١١) وتاريخ الإسلام للذهبي (السّيرة النبوية ص٢٨٠ و٢٨١) والإصابة (٤/٣٤٩) وأسد الغابة (٦/١٨٩ و١٩٠) وأنساب الأشراف للبلاذري (١/٤٠٨) وتاريخ الطبري (٢/٢١١ و٢١٢) ومختصر تاريخ دمشق (٢/٢٧٦ و٢٢٧) والسّمط الثمين (ص١١٨) وغيرها كثير من مصادر السّيرة والطّبقات والتاريخ والتفاسير.

(٣) انظر: عيون الأثر (٢/٣٧٧).

وكان لأمِّ المؤمنين سودة أخٌ يدعى عبد الله بن زَمْعَةَ لا يزال على دِيْنِ قريش، وكان خارج مكة، فلّما قدم مكة، وَجَدَ أنَّ أختَه سودة قد تزوّجها محّمدﷺ، فطارتْ نفسُه شعاعاً، وتملّكه الغيظ، وركبته حَمّى الجاهلية، وحثا بالتُّراب على رأسه أسفاًوحزناً على هذا الزَّواج، ودخل على أبيه يرغي ويزبد، ويتوعّد ويهدّد، فأيّ عار لحقه إذ تزوّج محّمد بن عبد الله سودة؟

ولما فتح الله عزَّ وجلَّ بصيرته وبصره على محاسن نور الإسلام وآمن بالله، وبمحمّد رسولاً ونبياً، قال محدّثا عن نفسه: إنّي لسفيهٌ يوم أحثو التُّراب على رأسي، أنْ تَزوَّجَ رسول اللهﷺ أختي[1].

كانت سودةُ رضي الله عنها أوّل مَنْ تزوّج بها النّبيّﷺ، بعد موتِ خديجة رضي الله عنها، وكان زواجها في رمضان سنة عشر من النّبوة، وانفردت به نحواً من ثلاث سنين أو أكثر حتى تزوّج بعائشة، وهاجر بها إلى المدينة[2].

وبزواجها من رسول اللهﷺ ارتفعت بمكانتها إلى أمومة المؤمنين، وهل هناك شيء أعلى مِنْ هذه المكانة؟!

سَوْدَةُ في بيتِ النَّبيِّﷺ:

كانت سودةُ رضي الله عنها تدرك بثاقبِ بصيرتها أنَّ في زواج رسول اللهﷺ منها، إنّما هو مواساة لحالها، وتكريم لصبرها، وجهادها، فقد تجاوزت مرحلة الصِّبا ودخلت في مرحلةِ ما فوق الكهولة، وخَلَتْ ملامح الجمال منها، وليس فيها ما يجذب الرجال إليها، فكانت تعرف أنَّ الرسولَ الكريمﷺ لم يتزوَّجْها إلا ليمسحَ عنها ما قاست من أهوال في سبيل الله؛ ولكنّها كانت تتجمّل بجميل

---

(١) أزواج النّبي للصالحّي (ص١٧٥ و١٧٦) بشيء من التصرف. وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٢/٢٧٧) والسمط الثمين (ص١١٨) والكامل لابن الأثير (٢/٣٠٧) والسيرة الحلبية (٢/٤٣) والسّيرة النبوية لأحمد دحلان (١/٢٦٨).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص٢٨٧ و٢٨٨) وتهذيب الأسماء واللغات للنووي (٢/٣٤٨).

الصَّبر، وتتغذى برحيق الإيمان، لذلك أولاها الله عزَّ وجلَّ هذه المكانة وهو العليمُ الخبير.

كانت سودة سعيدة غاية السَّعادة أنْ تكونَ بالقرب من رسول الله ﷺ، وكان وجهها يشرقُ بالابتسام لما ترى الرسول الكريم ﷺ يبتسم من مشيتها، فأقصى آمالها في الحياة أنْ ترى رسول الله ﷺ ناعمَ البَال، راضياً عنها وأنْ تخفِّفَ عنه بعض ما يلقاه من أذى المشركين.

في بيتِ رسول الله ﷺ، راحت سودةُ تحدثه عن أخبار المؤمنين الذين ما يزالون في الحبشة عند ملكها النَّجاشي، وتروي ما كان من أَمْرِ المؤمنين، وكانت إذا ما تحدثت عن رقية ابنة رسول الله وعن زوجها عثمان، يبدو الاهتمام في وجْهِ رسول الله ﷺ؛ إذ كان قلبه الشريف يهفو إلى ابنته رقية التي هاجرت إلى الله ويشتاق قلبه إلى عثمانَ، وربما كانت سودة تشعر أنَّ الحديث عنهما يدخل السُّرور إلى قلبهِ الشَّريف، فكانت تسهبُ في الحديث عنهما لتدخل البهجةَ إلى نفسه وقلبه.

كان الرَّسول الكريم ﷺ يصغي إلى أحاديثِ سودة ليأنس بها، ولكنَّه لم يكن يحدثها عن آلامه، وعن آماله كما كان يفعل مع خديجة، وكانت أقصى آمال سودة أنْ تخفِّفَ عن رسول الله ﷺ ما كان يلقى من اضطهاد.

كانت سودةُ رضي الله عنها، تعلم عِلْم اليقين أنَّها لن تستطيع أنْ تملأ الفراغَ الذي خلَّفته الطَّاهرة خديجة رضي الله عنها في قَلْبِ رسول الله ﷺ، بَيْدَ أنَّ كلَّ سعادتها أنْ تكونَ بقربِ رسول الله ﷺ الذي أخرجها من الظُّلمات إلى النُّور، وتهيىء له ما تستطيع من سُبُل الراحة، فهي تحترم صمته إذا صمت، وتلبّي رغباته راضية إنْ أشار، فقد وطدت نفسها من أوّلِ يومٍ دخلت فيه بيت الرسول ﷺ أنْ تحترم عواطفه، وتحترم ذكرياته ووفاءه[1] لذكرى أمّ المؤمنين خديجة

---

(١) إنَّ محبَّة رسول الله ﷺ لزوجه خديجة، ووفاءه لها، لا لوم فيها، بل هي من كماله، وقد امتنَّ سبحانه بها على عباده فقال: ﴿ومن آياته أنْ خلقَ لكم مِنْ أنفسكم أزواجاً لتسكنوا

الرَّاحلة إلى الفردوس في بيت من قَصَبٍ لا صخب فيه ولا نَصَب.

وفي البيت النَّبويِّ، كان لسودةَ رضي الله عنها مواقف وضيئة، فقد قدمت مكة رقية ابنة رسول الله ﷺ وزوجها عثمان بن عفان من هجرتهم من الحبشة، ووقعت عيناها على الدَّارِ الغالية، دار أمِّها الطَّاهرة خديجة رضي الله عنها، تلك الدَّار التي شهدت رقية فيها أحلى أيام عمرها، دار الوحي والإيمان، ودار الصِّدق والوفاء، فانبجست في جوفها مشاعر متباينة كانت مزيجاً من اللهفة والرَّهبة، والفرح والحزن، والقلق والهدوء، وطرقت الباب، فانتشر الخبر أنْ قدمتْ رقية وعثمان، وراحت أمّ كلثومٍ وفاطمة ومَنْ كان هناك يستبقون إليها، وتعانقتِ الأخواتُ، وسالتِ العبراتُ، واستيقظتِ الذّكرياتُ، وأحسَّ جميعهم غياب الأمِّ الحنون، فانفجرنَ باكيات.

وجاءت سودةُ بنتُ زمعة ثقيلة في خطواتها، وراحت ترحِّبُ هي الأخرى برقية وعثمان رضي الله عنهما، وفي مثل لمحِ البصر، هبَّتْ ذكريات سودة عن هجرتها إلى الحبشة مع المهاجرين، وأخذت تسأل رقية وعثمان، عمَّنْ تركا خلفهما في الحبشة، فقد كانت سودة تمضي أغلب أوقاتها مع رقية وخولة بنت حكيم وبعض النِّسوة يتذاكَرْن أَمْرَ الإسلام، وأَمْرَ رسول الله ﷺ.

لم تحلمْ سودةُ رضي الله عنها في يوم من الأيام بأنْ تكونَ زوجة النَّبيِّ ﷺ، وأنْ تصبحَ أمَّ المؤمنين، وما كان ذلك ليخطر على بال رقية رضي الله عنها، ولولا

= إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾ [الروم: ٢١] فجعل المرأة سكناً للرجل يسكن قلبه إليها، وجعل منها خالص الحبّ، وهو المودة المقرونة بالرحمة، وقد قال تعالى عقيب ذكره ماأحلّ لنا من النّساء وما حرم منهن: ﴿يريد الله ليبيِّنَ لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم. والله يريد أنْ يتوبَ عليكم ويريد الذين يتبعون الشّهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً. يريد الله أنْ يخفِّفَ عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾[النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

وقد استوفينا سيرة أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها في هذا الكتاب، وتكلّمنا عن وفاء رسول الله ﷺ لها، فلتراجع.

عطفُ رسول اللهﷺ على ما أصابَ سودةَ منَ التَّرمّل بعد موت زوجها وتقديره، ولما احتملت من آلام في سبيل الله ورسوله، ما دخلت بيتهﷺ لتملأ بعضَ الفراغ الذي خلفته الطاهرة خديجة رضوان الله عليها،

وبلغ الحبيبُ المصطفىﷺ أنَّ رقية وعثمان رضي الله عنهما قد رجعا من الحبشة، فإذا بوجهه الشَّريف مسفرٌ ضاحكٌ مستبشرٌ، وإذا بالحنانِ يتدفّق من قلبه الشَّريف، وضمَّ رسول اللهﷺ ابنته رقية رضي الله عنها إليه، وغمرها بعطفه، وأخذ عثمان بين ذراعيه، ثم جلسوا يصغون إلى رقيةَ وعثمانَ وهما يرويان حديث الهجرة والحبشة والمسلمين والنّجاشي، وربّما شاركت سودةُ رضي الله عنها في الحديث عن الذّكريات في أرض الحبشة.

مكثت سودة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها في مكةَ إلى أنْ أذنَ الله عزَّ وجلَّ لرسوله وللمؤمنين بالهجرة إلى المدينةِ المنورة، ولما استقرَّ رسول اللهﷺ بالمدينة المنوَّرة، بعث زيد بن حارثة وبعث معه مولاه أبا رافع، وأعطاهما بعيرين، وخمس مئة درهم، فخرجنا جميعاً، وخرج زيدٌ وأبو رافع بفاطمةَ الزَّهراء، وبأمّ كلثوم وبسودة بنت زمعة وبأمّ أيمن الحبشية(1) زوج زيد بن حارثة ومعها ابنها أسامة بن زيد حتى قدموا المدينة المنورة(2)، ونزلوا في بيتِ حارثةَ بنِ النّعمان(3) الأنصاريّ رضي الله عنه.

في المدينةِ المنّورة مكثت سودةُ رضي الله عنها تؤدي دورها، واستطاعت أنْ

---

(1) اقرأ سيرة أمّ أيمن الحبشية في كتابنا «نساء من عصر النبوّة» (١/٣٣ ـ ٤٤) فسيرتها نبع فياض من ينابيع الودّ الحيّة التي تبعث الإعجاب بهذه الصّحابية المعطاء رضوان الله عليها.

(2) انظر: طبقات ابن سعد (١/٢٣٧ و٢٣٨) وسير أعلام النّبلاء (٢/٢٦٩) بتصرف يسير جداً.

(3) اقرأ سيرة الصّحابي الجليل حارثة بن النّعمان الأنصاري في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» (٢/٢٩٩ ـ ٣٢٩) فسيرته رمز من رموز الكرم والعطاء رضي الله عنه.
وانظر: الكامل لابن الأثير (٢/١١٠) وزاد المعاد (٣/٦١).

تقومَ على بيتِ النّبوّةِ، وتخدم بنات النّبي الطّاهرات رضي الله عنها، وأنْ تُدخلَ السُّرور والسَّعادة إلى قلبهِ الشّريفﷺ بتصرفاتها البريئة.

وبعد سنوات ثلاث تزوّجَ النّبيُّﷺ عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنهما، ودخلت عائشةُ بيت النّبوّة، وكان لها مع سودة أخبار مشرقة، ثم دخلتِ البيتِ النّبوي نسوةٌ أخريات كنَّ أزواج النّبيّﷺ مثل: حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، وزينب بنت جحش، وأمّ سلمة المخرومية وغيرهن رضي الله عنهن وأرضاهن.

سَوْدَةُ وعَائشَةُ وأَخْبَارٌ لطيفَةٌ:

في ذلك البيت النّبويّ الشّريف الكريم الذي أذهب الله عنه الرِّجس وطهّره تطهيراً، وأفاضَ عليه البركات لتحفّه، والخيرات لتنبعثَ منه، والنّور ليسطع من جنباته كي يضيءَ الدُّنيا بأسرها فيخرجها من ظلماتِ الجاهلية إلى نور الهدى ودِيْنِ الحقّ، ويهديها سواءَ السّبيل، ويسدد نطقها بالقول الثّابت، ويربيها على مكارم الأخلاق، وعلى الفضائل كلّها.

في هذا البيت الذي يعبقُ بطيوبِ الإيمان، ويفوح بندي الفضائل، كانت سودةُ بنتُ زمعة أمُّ المؤمنين تمارس حياتها إلى جانب أمِّ المؤمنين عائشة بنت الإمام الصّديق الأكبر، ذات الخصال الحميدة، المتفردة في عالم النّساء، بأنّها أَفْقَهُ نساء الأمّةالمحمّدية على الإطلاق، حبيبة الحبيبﷺ، وكذلك أبوها الحبيب المُحَبُّ من الحبيب المصطفىﷺ.

أقول، مع عائشة أمّ المؤمنين كانت سودةُ تعيش في رحاب البيت النّبويّ الطّاهر، وقد هدأت فيها غيرة الأنثى، فلا تطمعُ إلا بمرضاة رسول اللهﷺ الذي كان يشفق عليها، لذا فقد وهبت(١) يومها لضرتها عائشة ابنة الصِّدِّيق رضي الله

---

(١) كان ذلك سنة ثمان من الهجرة كما ذكر الذهبي رحمه الله انظر تاريخ الإسلام (المغازي ص٦٢١).

عنها، رعاية لقلب رسول اللهﷺ، تبتغي بذلك مرضاته عليه الصَّلاة والسَّلام.

أخرج الإمامُ أبو داود ـ رحمه الله ـ في سننه عن هشام بنِ عروةَ عن أبيه قال: قالت عائشة: يا ابن أختي، كان رسول اللهﷺ لا يفضِّل بعضنا على بعض في القسم، مِنْ مكثه عندنا، وكان قَلَّ يوم إلا وهو يطوفُ علينا جميعاً، فيدنو من كلِّ امرأة من غيرِ مسيس حتى يبلغ إلى التي هو يومها فيبيتُ عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنّتْ، وفرقتْ أنْ يفارقها رسول اللهﷺ: يا رسول الله، يومي لعائشة، فقبل ذلك رسول اللهﷺ منها قالت نقول في ذلك: أنزل الله تعالى وفي أشباهها أراه قال: ﴿وإنِ امرأةٌ خافت من بعلها نشوزاً﴾ [النساء: ١٢٨][(١)].

ولهذا أثنت عليها أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وودت لو تكون بهذه النّفسيّة اللّطيفة، وتكون في مثل طريقتها وهديها، وهبت يومها للنّبيّﷺ، وهذا مِنْ خواصّ سودة رضي الله عنها، حيث آثرت بيومها حِبَّ النّبيّﷺ، تقرّباً إلى رسول اللهﷺ، وحبّاً له، وإيثاراً لمقام الصِّديقة بنت الصّديق عنده، فكانﷺ يقسم لنسائه ولا يقسم لها، وهي راضية بذلك، مؤثرة لرضى رسول اللهﷺ.

روى أبو عمر القرطبيّ ـ رحمه الله ـ في الاستيعاب عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما اسنّت سودةُ عند رسول اللهﷺ همَّ رسول اللهﷺ بطلاقها، فقالت: لا تطلّقني، وأنتَ في حِلٍّ مني، فأنا أريد أنْ أحشرَ في أزواجك، وإنّي قد وهبتُ يومي لعائشة، وإنّي لا أريدُ ما تريد النّساء، فأمسكها رسول اللهﷺ حتى توفي عنها مع سائر مَنْ توفي مِنْ أزواجه رضي الله تعالى عنهن[(٢)].

وفي روايةِ ابن سعد ـ رحمه الله ـ أنَّ سودةَ قالت للحبيبﷺ: لكنّي أحبُّ أنْ أُبْعَثَ في نسائك، وإنّي قد جعلتُ يومي لعائشة[(٣)].

---

(١) سنن أبي داود (٢١٣٥) وأخرجه البخاري في النّكاح: باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرتها، وأخرجه كذلك في الهبة؛ وأخرجه مسلم (١٤٦٣) وانظر: الاستيعاب (٣١٨/٤) والإصابة (٢٣٠/٤).

(٢) الاستيعاب (٣١٧/٤ و٣١٨).

(٣) طبقات ابن سعد (٥٤/٨).

والآن، دعونا نستمع إلى ثناء أمِّ المؤمنين عائشة على أمِّ المؤمنين سودة رضي الله عنهما، تقولُ عائشة، ما رأيت امرأة أحبّ إلي أنْ أكونَ في مِسْلاخها[1] من سودةَ بنت زمعة إلا أنَّ بها حدّة، فلما كبرتْ جعلتْ يومها من النّبيّ ﷺ لعائشة. قالت: يا رسول الله قد جعلت يومي منك لعائشة[2].

ولعائشة وسودة رضي الله عنهما أكثر من موقف لطيف ينبىءُ عن لُطْفِ كلّ واحدة منهما، مع كمال سُرور النّبيّ الكريم ﷺ من كلتيهما، وهذا ما حدث فعلاً في إحدى الجلسات، وفي بيت عائشة نفسها.

روى النّسائي وأبو بكر الشّافعي عن عائشة رضي الله عنها قالت: زارتْنَا سودةُ يوماً، فجلسَ رسول الله ﷺ بيني وبينها إحدى رجليه في حجري والأخرى في حجرها، فعملتُ له حريرة ـ أو قال: خزيرة ـ فقلت: كلِيّ، فأبتْ، فقلت: لتأكلين أو لألطخنَّ وجهك؛ فأَبَتْ، فأخذتُ مِنَ القصعةِ شيئاً، فلطختُ به وجهها، فضحكَ رسول الله ﷺ، فرفعَ رسول الله ﷺ رجله من حجرها لتستقيد مني، وقال لها: «لطّخي وجهها» فأخذتْ من الصَّحْفَةِ شيئاً، فلطختْ بهِ وجهي ورسول الله ﷺ يضحك. . . الحديث[3].

---

(١) مسلاخها: أي في مثل هديها وطريقتها. و«المسلاخ» على وزن: مفتاح.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٢٦٦) والتاج الجامع للأصول (٣/٣٨٣) وللحديث أصل عند مسلم (١٤٦٣) في الرّضاع: باب جواز هبتها نوبتها لضرتها. والنّسائي في عشرة النّساء (ص٤٨) وللحديث أصل أيضاً عند أبي داود، والحاكم، والتّرمذي؛ وانظر أسباب النزول للقاضي (ص٨٢) وتفسير الآية (١٢٨) من سورة النّساء في القرطبيّ والطّبري وابن كثير وغيرها من التفاسير.

وتريد عائشة: لا أتمنى أنْ أكونَ مثل امرأة في هديها إلا مثل سودة، فإنها ذات سيرة صالحة رضي الله عنها، فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين؛ يومها ويوم سودة.

(٣) النسائي في عشرة النساء، حديث (٣١) وانظر تحفة الأشراف (١٢/٢٦١) والمواهب اللدنية (٢/٣٤٩) وأخرجه أبو يعلى في مسنده، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٣١٦) رواه أبو يعلى ورجاله الصحيح خلا محمد بن علقمة وحديثه حسن.

فُكَاهَةٌ وَوَدَاعَةٌ:

كان رسولُ اللهﷺ يعاملِ زوجه سَوْدَة بنت زَمْعَةَ بالرِّفق والرَّحمة، لما كانت تحمله من صفات الوداعة والطِّيب، فكان يستمعُ لفكاهتها الطَّيِّبة التي كانت تضحكهﷺ.

ففي طبقاته روى ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ عن سودة رضي الله عنها قالت لرسولِ اللهﷺ : يا رسول الله، صلّيتُ خلفك البارحة، فركعتَ بي، حتى أمسكتُ بأنفي مخافة أنْ يقطرَ الدَّم.

قال: فضحك، وكانت تضحكه الأحيان بالشَّيء[1].

ويبدو أنَّ أمَّ المؤمنين سودة رضي الله عنها كانت خفيفة الظِّل، طيِّبة القلب، ولذا فقد كانت بعض أمهات المؤمنين يمزحن[2] معها، ويداعبنها بغية التماس الفكاهة، وبغية التماس الحكمة الموهوبة أحياناً، أو التَّرويح عن النَّفس أحياناً أخرى، وكان الرَّسول الكريمﷺ يفيض بالسّرورِ، ورقّةِ القلب، ولين الغاية التي لا مرمى وراءها لمخلوق، ويتقبل تلك الدَّعابات بما يُولج حبّه في القلوبِ، ويؤنس أزواجه الكريمات رضي الله عنهن بما لا يتعارض مع الحقوق والدِّينِ.

روتْ خُلَيْسَةُمولاة حفصة بنت عمر أمّ المؤمنين رضي الله عنها، قصّة طريفة عن مولاتها حفصة وعائشة مع سودة بنت زمعة ومزحها معها بأنَّ الدَّجال قد خرج؛ فقد ذكرت خُليسة أنَّ عائشة وحفصة رضي الله عنهما كانتا جالستَيْنِ

---

(١) طبقات ابن سعد (٥٤/٨) وانظر الإصابة (٣٣١/٤).

(٢) إنَّ المزاح اليسير إنْ كانَ صدقاًلا ينهى عنه رسول اللهﷺ، وكان الرسولﷺ يمزحُ، ولا يقول إلا حقّاً، وقد ثبت أنّه قال لرجلٍ «يا ذا الأذنين» وقال لآخر: «إنا حاملوك على ولد النّاقة» وقال للعجوز: «إنّه لا يدخل الجنّة عجوز» ثم قرأ: ﴿إنا أنشأناهن إنشاء. فجعلناهن أبكارا﴾ [الواقعة: ٣٥ و٣٦] وقال لأخرى: «زوجك الذي في عينيه بياض» وقد اتفق في مزاحهﷺ ثلاثة أشياء: إحداهما: كونه حقاً. والثّاني: كونه مع النساء و الصبيان، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال، والثّالث: كونه نادراً، فلا ينبغي أن يحتج به من يريد الدوام عليه، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم.

تتحدثان، فأقبلت سودة زوج النّبيّ ﷺ، فقالت إحداهما للأخرى: أَمَا تَرَي سودة؟ ما أحسنَ حالها! لنفسدن عليها ـ وكانت سودة مِنْ أحسنهن حالاً كانت تعملُ الأديم الطّائفيّ ـ فلما دنَتْ منهما داعبتاها، وقالت لها: يا سودة، أَمَا شعرتِ؟ قالت سودة في بساطة وتعجّب: وما ذلك يرحمكما الله؟! قالتا: خرج الأعور الدَّجّال.

ففزعت سودةُ وخرجت فاختبأَتْ في بيتٍ كانوا يوقدون فيه، واستضحكتا، وجاء رسول الله ﷺ فقال لحفصة وعائشة: «ما شأنكما»؟ فأخبرتاه بما كان منْ أَمْرِ سودة، فذهبَ إليها فقالت يا رسول الله، أخرج الدَّجّال الأعور؟! فقال رسول الله ﷺ: «لا وكأن قد خرج» فخرجتْ، وجعلتْ تنفضُ عنها العنكبوت[1]. وأعتقد أنَّ سودةَ لما علمت بجليّةِ الأَمْرِ ضحكت هي الأخرى كثيراً.

وميدان الدَّعابة هذا ميدان لطيفٌ، فقد كان رسول الله ﷺ يباسطُ الخلق ليستضيؤوا بنورِ هدايته في ظلمات دياجي الجهل، ويقتدوا بهديه ﷺ، ولذا لم ينكرْ على زوجاته تلك الدَّعابة اللّطيفة مع سودة رضي الله عنها وعنهن.

إلا أنَّ رسول الله ﷺ كان يمزحُ ولا يقول إلا حقّاً، ومن خلال بساطة سودة رضي الله عنها يوجهها التّوجيه الهادف، فلا يخلطُ الجدّ بالهزل؛ من ذلك ما أورده الحافظُ ابن حجر في الإصابة أنَّ سودة قالت: يا رسول الله، إذا متنا صلى لنا عثمان بن مظعون حتى تأتينا أنتَ. فقال لها: «يا بنت زمعة لو تعلمين الموت لعلمتِ أنَّه أشدُّ مما تظنين»[2] وبهذا لَفَتَ ﷺ نظر سودة إلى أنَّ الموتَ ليس شيئاً عادياً، والتّفكير به أشدّ وأعظم مما نتوقّع أو نظن.

اعْتِذَارٌ مَقبولٌ:

في غزاةِ بَدْر، أنزل الله عزَّ وجلَّ نَصْره على رسوله، وعلى المؤمنين، وراحَ المسلمون يقتلون فريقاً، ويأسرونَ فريقاً، وكان ممن وقعَ في الأسر سُهيل بن عمرو

---

(١) عن البداية والنهاية (٣٢٧/٥) وأسد الغابة (٨٧/٦) بتصرف يسير. وانظر الإصابة (٢٧٨/٤).

(٢) الإصابة لابن حجر.

العامريّ، وكان الذي أسره مالك بن الدُّخشم.

وسار الجيش الإسلامي المنتصرُ نحو المدينة راجعاً من بدر، يقوده الحبيبُ المصطفى ﷺ، حتى إذا ما اقتربوا من المدينة المنوّرة، قال سهيلُ بن عمرو لمالك بن الدُّخشم الذي أسره: خَلِّ سبيلي للغائطِ.

فقام مالك معه، فقال سهيل: إنّي أحتشم فاستأخِرْ عني.

فاستأخَرَ عنه فمضى سُهيل على وجهه، وانتزع يده من القِرَانِ ومضى، فلّما أبطأ سهيل على مالك بن الدخشم أقبل فصاحَ في النَّاس، فخرجوا في طلبه، وخرج النّبيُّ ﷺ في طلبه بنفسه وقال: «مَنْ وجده فليقتله»

وراحوا ينقِّبون عنه على ظهور الإبل والجياد، وانطلق ﷺ في أثره، فوجده قد أخفى نفسه بين شجرات، فتقدَّم إليه، فإذا بسهيل لا يتحرك من مكانه، بل ظلَّ ثابتاً وهو مأخوذٌ، فقبض ﷺ على سهيل، ثم عاد به، فأَمَرَ بِهِ فرُبطتْ يداه إلى عنقه، ثم قَرَنَه إلى راحلته.

وراح النَّبيُّ ﷺ يتقَّدمُ على ناقته القصواء، وقد رُبطت يدا سهيل بن عمرو إلى عنقه، وقرن إلى النَّاقة، وراح مالك بن الدُّخشم الذي أسره يقول:

أسرتُ سهيلاً فلا أبتغي ... بهِ غيره منْ جميعِ الأمِمِ
وخندف تَعْلَمُ أنَّ الفتى ... سهيلاً فَتَاها إذا تظلَّم
ضربتُ بذي الشَّفر حتى انثنى ... وأكرهتُ نفسي على ذي العلم

ودخل رسولُ الله ﷺ والمسلمون المدينة وهم مستبشرون بنصر الله عز وجل.

وفي تلك الأثناء كانت سودةُ بنت زمعة أمّ المؤمنين وزوج النّبيّ ﷺ عند آلِ عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء[1] اللذين كانا أوَّلَ مَنْ أصابا

(١) اقرأ سيرة الصَّحابية الكريمة عفراء بنت عبيد الأنصارية في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (١/٢٧١ ـ ٢٧٨) فهي امرأة من طراز فريد في تاريخ نساء الصحابة، وسيرتها تحلو للقلوب وتجلو النفوس إن شاء الله.

أبا جهل وكانت ثلّة أخرى من النِّساء هنالك، وجاء مَنْ قال: هؤلاء الأسرى قد أُتي بهم.

وخرجتْ سودةُ بنت زمعة رضي الله عنها إلى بيتها ورسول اللهﷺ فيه، وإذا سهيل بن عمرو مجموعة يداه إلى عنقه في ناحية الحجرة، فما ملكتْ نفسها حين رأته مجموعة يداه إلى عنقه أنْ قالت: أي أبا يزيد، أسلمتم أنفسكم، وأعطيتم بأيديكم، ألا متّم كراماً؟!

ولم تكن سودةُ رضي الله عنها تعلم أنَّ رسولَ اللهﷺ كان يسمعها، فما راعها إلا قولهﷺ من البيت: «يا سودة أَعَلى ربّك ورسوله تحرضين»؟ واستحيتْ سودةُ وقالت في بساطةٍ: يا رسول الله، والذي بعثك بالحقِّ، ما ملكتُ نفسي حين رأيتُ أبا يزيد مضمومة يداه إلى عنقه أنْ قلتُ ما قلت[1].

فتبسَّمَﷺ ضَاحِكاً من قولها، ووعدها خيراً بشأْنِ الأسرى، وقَبِل اعتذارها، حيثُ عَلِمَﷺ أنَّ مقصدها كان شريفاً، وعندئذ قال: «استوصوا بالأسرى خيراً» وكان أحدهم يؤثرُ أسيره بطعامه[2].

وبهذه الطَّريقة الأليفة كان رسول اللهﷺ يوجه زوجاته الطَّاهرات ليكن القدوة الكريمة لنساء الدُّنيا، وليكون نساء آل بيته مَنْبَع الفوائد، وزاد المتبلّغين إلى ما يرضي الله عزَّ وجلَّ، فكنَّ كذلك رضي الله عنهن.

مِنْ مَنَاقِبِهَا وفَضْلِهَا:

لأمِّ المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها فضائل عديدة، منها ما اختصّت به مِنْ قِبَل الحبيبِ المصطفىﷺ، ومنها ما كان ينبعُ من شخصيتها، ويفيض من كرم أخلاقها، ومنها ما كان اقتداء بزوجها رسول اللهﷺ، فمّما اختصت به أَنْ أذنَ

---

(١) عن تاريخ الطبري (٢/٣٩) بشيء من التّصرف. وانظر الكامل لابن الأثير (٢/١٣١) والسّيرة النّبوية (١/٦٤٥).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ (٢/١٣١).

لها رسول الله ﷺ في ليلةِ المزدلفة قبل الزَّحمة في ليلة المزدلفة قبل زحمة الناس.

أخرج البخاريُّ ـ رحمه الله ـ بسنده عِن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذنتْ سودةُ النّبيَّ ﷺ ليلة جمع ـ وكانت ثقيلة ثبطة ـ فأذن لها[1].

ويبدو أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قد غبطت سودة أمّ المؤمنين، وودَّتْ لو تكون هي التي طلبت الإذن من رسول الله ﷺ، فإنَّ ذلك أحبُّ إليها من كلِّ شيء.

أخرج البخاريُّ ـ رحمه الله ـ بسندهِ عن القاسم بن محمّد عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزلنا المزدلفة، فاستأذنتِ النبيّ ﷺ سودةُ أن تدفع قبل حَطْمة النَّاس ـ وكانت امرأة بطيئة ـ فأذن لها، فدفعتْ قبل حَطْمة النَّاس، وأقمنا حتى أصبحنا نحن، ثم دفعنا بدفعه، فلأن أكون استأذنتُ رسول الله ﷺ كما استأذنتْ سودةُ أحبّ إليّ من مَفْروح به[2].

وما دمنا في الحجِّ مع النّبيِّ ﷺ وأزواجه الطَّاهرات رضي الله عنَهن، فقد كانت سودةُ رضي الله عنها مع نسائه اللائي حججن، وكانت متمسكة بهدية وأمْرِه.

روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بسندهِ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لنسائه في حجة الوداع: «هذه ثم ظهور الحُصُر» فكانت سودة تقول: لا أحجُّ بعدها أبداً.

وفي رواية قال: فكنَّ كلّهن يحججن إلا زينب بنت حجش وسودة بنت

---

(١) فتح الباري (٣/٦١٥) حديث رقم (١٦٨٠).

(٢) انظر: فتح الباري (٣/٦١٥) حديث رقم (١٦٨١) وأخرجه مسلم كذلك في الحج، باب: استحباب تقديم الضعفة من النساء وغيرهن من مزدلفة (١٢٩٠) وأحمد (٦/١٦٤) والنسائي (٥/٢٦٦) وابن سعد (٨/٥٦) وانظر زادالمعاد (٢/٢٥٠). «والحطمة»: بفتح الحاء وسكون الطاء: الزحمة، والمعنى: قيل أن يزدحموا ويحطم بعضهم بعضاً. و«مفروح به» ما يفرح به كلّ شيء.

زمعة، فكانتا تقولان: والله لا تحركنا دابة بعد أنْ سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ(١)

وقالت سودة: حججتُ واعتمرت فأنا أقرُّ في بيتي كما أَمَرني الله عزَّ وجلَّ(٢)

وفي ميدان الجهاد كان لأمِّ المؤمنين سودة رضي الله عنها نصيبٌ وافرٌ، فقد حضرتْ معه غزاة خيبر، ويشهد لها بهذا ما أورده ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ في طبقاته قال: أطعم رسول الله ﷺ، سودة بنت زمعة بخيبر ثمانين وسقاً تمراً، وعشرين وسقاً شعيراً.

وتشيرُ المصادر إلى أنَّ أمَّ المؤمنين سودة كانت كريمة، لا تستقرُّ الدَّراهمُ عندها، بل تسارعُ في إنفاقها زهداً وكرماً وطلباً لمرضاة الله عزَّ وجلَّ، من ذلك ما وردَ في مناقبها في هذا المجال أنَّ سيّدنا عمر بنَ الخطاب رضي الله عنه بعث إلى سودةَ بنت زمعة بغِرارة من دراهم فقالت: ما هذه؟ قالوا: دراهم.

قالت: في الغرارة مثل التَّمر؟!! يا جارية بلّغيني القِنْع، ففرقتها(٣).

ومن فضائل سودة أمّ المؤمنين رضي الله عنها أنَّ الله عزَّ وجلَّ، قد أنزل في حقِّها آيات تتلى إلى أنْ يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها، فقد روى جمهور المفسِّرين والمحدّثين والعُلماء وغيرهم ذلك.

أخرج التّرمذي والطّبراني والبيهقيّ وغيرهم عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما قال: خشيتْ سودةُ أنْ يطلّقها النّبيّ ﷺ فقالت: لا تطلقني وأمسكني، وأجعل يومي لعائشة، ففعل، فنزلت: ﴿وإنِ امرأةٌ خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/٤٤٦) و(٦/٣٢٤) وابن سعد (٨/٥٥) وأبو يعلى في مسنده؛ وانظر: أزواج النبي للصالحي (ص١٧٨) وسير أعلام النبلاء (٢/٢٦٨) ونساء مبشرات بالجنة (١/٢٦٢) وأنساب الأشراف (١/٤٦٥) والمغازي (٣/١١٥). و«ظهور الحصر»: أي الزمن بيوتكن. و«الحصر»: جمع حصير؛ والمراد، أن يلزمن بيوتهن ولا يخرجن منها.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/٥٥).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/٥٦) وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/٢٦٩) والإصابة (٤/٣٣١) وأزواج النبي للصالحي (ص١٧٩) و«القنع» الطبق.

فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما والصُّلح خير﴾ [النساء: ١٢٨][1].

سَوْدَةُ والحَديثُ النَّبويُّ:

أمُّ المؤمنين سودةُ بنت زمعة رضوان الله عليها، إحدى نساء آل البيت النّبويّ اللاتي وعَيْنَ الحديث النّبويّ الشّريف، وحفظنه وروينه، وبلّغنه للنّاس دِيْناً وتعليماً، فقد كانت سودةُ رضي الله عنها تروّض نفسها بالتّقوى وحبّ العلم، ووعي الحديث حتى كان ذلك.

قال الذّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: يُروى لسودة خمسة أحاديث؛ منها في الصّحيحين حديث واحد عند البخاري[2].

حدث عنها من الصّحابة: سيدنا عبد الله بن عبّاس، رضي الله عنهما؛ ومن التّابعين: يحيى بن عبد الله الأنصاري ـ رحمه الله ـ

ولنستمعِ الآن إلى الحديث الذي روته أمّنا سودة رضي الله عنها عند الإمام البخاريّ، حيث أخرج في صحيحه بسنده عن الشّعبي عن عكرمة ابن عباس رضي الله عنهما، عن سودة زوج النبيﷺ قالت: ماتت لنا شاة فدبغنا مَسْكها، ثم ما زلنا ننبذُ حتى صارت شنّاً[3].

---

(١) للحديث أصل عند أبي داود الطيالسيّ (٢٦٨٣) وأخرجه التّرمذي في التّفسير، باب: ومن سورة النساء. وأبو داود في النّكاح، باب: في القسم بين النساء، وانظر طبقات ابن سعد (٥٣/٨) والدر المنثور للسّيوطي (٢/ ٧١٠) والتّفسير الكبير للرازي (١١/ ٥٢) ولباب النقول (ص٨٤) والإصابة (٤/ ٣٣٠) وانظر كذلك تفسير ابن كثير والقرطبي والطّبري والبغوي والقاسميّ وغيرها للآية (١٢٨) من سورة النّساء.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٩).

(٣) فتح الباري (١١/ ٥٧٧) حديث رقم (٦٦٨٦). «مسكها»: جلدها، و«الشّنّة»: القربة العتيقة.

قال ابن جمرة الأزد ي ـ رحمه الله ـ في حديث سودة الرّد على مَنْ زعم أن الزّهد لا يتم إلا بالخروج عن جميع ما يتملك، لأن موت الشاة يتضمن سبق ملكها واقتنائها، وفيه جواز تنمية المال لأنّهم أخذوا جلد الميتة فدبغوه فانتفعوا به بعد أن كان مطروحاً. وفيه جواز

ومن مرويات أمّ المؤمنين سودة رضي الله عنها في أحكام الحجِّ، ما رواه الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بسنده عن أمّ المؤمنين سودة بنت زمعة قالت: جاء رجلٌ إلى رسول اللهﷺ فقال: إنَّ أبي شيخٌ كبير لا يستطيع أنْ يحجَّ؛

قال: «أرأيت لو كان على أبيك دَيْنٌ فقضيته عنه قُبل منك»؟

قال: نعم.

قال: «فالله أرحم، حُجَّ عن أبيك»[1]

هذا، وقد توفي رسول اللهﷺ، وهو راضٍ عن سودة التي شهدت معه جانباً من حياته في مجالات شتى.

مَعَ الأَبْرار والمتَّقِيْنَ:

امتدتِ الحياة بسودةَ أمِّ المؤمنين إلى أيامِ الخلافة الرَّاشدة، وكان الصِّدِّيقُ الأكبر أبو بكر ـ عليه سحائب الرّضوان ـ يكرم زوجات النّبيّﷺ، ويقدِّرُ مواقفهن النّبيلة، ثم كان الفاروق عمر ـ رضوان الله عليه ـ يتولى أمّهات المؤمنين بالإكرام والرِّعاية ويتفقَّد أحوالهن.

وقد كانت سودةُ رضوان الله عليها ممن نالها عطاء عمر، وقبلت أمّ المؤمنين سودة رضي الله عنها إكرام عمر وشكرت له ذلك، ولكنّها ـ كما أسلفنا ـ لم تَسْتَبقِ شيئاً في حوزتها، وإنّما وزَّعتها على مَنْ يستحقها من فقراء المدينة المنورة، لتستنير نفوسهم، وتقوى قلوبهم برابطة الحبِّ والاحترام للبيت الطَّاهر، بيت النّبيّﷺ الذي أكرمه الله عزّ وجلّ بالطُّهر، بل خصّه بإذهاب الرِّجس عنه، واختصَّه بالتَّطهير، ليكون نقياً من كلِّ شائبة.

وظلّت أمّنا سودة رضي الله عنها تقتدي بالهديِّ المحمديّ إلى أنْ حان اللقاء

= تناول ما يهضم الطعام لما دل عليه الانتباذ. وفيه إضافة الفعل إلى المالك وإن باشرة غيره كالخادم.

(١) المسند (٦/٤٢٩).

مع الله عزَّ وجلَّ، فقد كانت وفاتُها في آخر خلافة سيِّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1]. ويبدو أنَّها قد ناهزتِ الثَّمانين رضي الله عنها.

وبوفاتها طُويت صفحة من صفحات أمَّهات المؤمنين الطَّاهرات اللاتي تركنَ أثراً كريماً في دنيا النِّساء ما يزال أريجه المعطار ينفحُ الدُّنيا بالشَّذى إلى ما شاء الله. رضي الله عن أمِّنا سودة، وأعلى مقامها في عليين مع الأبرار والمتّقين، ونرجو الله أنْ يدخلنا برحمته في عباده الصَّالحين.

---

(١) انظر: أسد الغابة (١٥٨/٦) وسير أعلام النبلاء (٢٦٦/٢) والإصابة (٢٣١/٤) والاستيعاب (٣١٨/٤) وأنساب الأشراف (٤٠٧/١).
ومن العلماء من قال: إنها توفيت سنة (٥٤هـ) في خلافه سيدنا معاوية رضي الله عنه. انظر مثلاً طبقات ابن سعد (٥٧/٨).

أُمّ المؤمنين
عائشة بنت أبي بكر
رضي الله عنها

- لها أربعون منقبةً لم تكن لغيرها، ونزل بحقِّها قرآن يُتلى إلى ماشاء الله.
- فضلُها على النِّساء كفضل الثَّريد على سائر الطَّعام.
وهي زوجةُ النّبيﷺ في الدُّنيا والآخرة.
- ملأتِ الدُّنيا بعلمها، وكان لها مكان الصَّدارة في البيتِ النّبوي الطّاهر، وهي أَفْقَه نساء الأمّة على الإطلاق.
- هي المرأة الأولى في عالَم الرّواية والحفظ، روت (٢٢١٠) أحاديث.
- كان بيتها مهبط الوحي، ومنبع الفوائد، وموئل العُلماء، وشُدَاة المعرفة، توفيت بالمدينةِ سنة (٥٨هـ) رضي الله عنها.

أُمّ المُؤمنين

عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها

الصِّدِّيقةُ ومناقبُ حِسَان:

قال رسول الله ﷺ: «أُرِيتُكِ في المنام ثلاث ليال، جاءني بك الملَكُ في سَرَقَةٍ من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشفُ عن وجهك فإذا أنتِ هي، فأقول: إنْ يكُ هذا مِنْ عندِ الله يُمْضِه»[1].

وأخرج التّرمذيُّ ـ رحمه الله ـ في جامعه: أنَّ جبريلَ جاءَ بصورتها في خرقَةٍ خضراءَ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: «هذه زوجتك في الدُّنيا والآخرة»[2].

وفي كتابهِ «الإجابة» عَدَّ الزَّركشيُّ ـ رحمه الله ـ أربعينَ منقبة لهذه الزَّوجة لم تكن لغيرها.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في مواضعَ من صحيحه برقم (٣٨٩٥ و٥٠٧٨ و٥١٢٥ و٧٠١١ و٧٠١٢) أخرجه في مناقب الأنصار، باب: تزويج النَّبيِّ ﷺ عائشة وقدومها إلى المدينةِ وبنائه عليها.
وفي النّكاح، باب: نكاح الأبكار، وباب: النّظر إلى المرأة قبل التزويج.
وفي التّعبير، باب: كشف المرأة في المنام، وباب: ثياب الحريم في المنام.
وأخرجه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٣٨) باب: فضل عائشة رضي الله عنها.
و«سرَقة» قطعة قماش من حرير، وأنَّ صورة عائشة كانت بها.

(٢) الحديث أخرجه التّرمذي في المناقب، باب: فضل عائشة رضي الله عنها. انظر: تحفة الأحوذي (١٠/٣٧٨ و٣٧٩) حديث رقم (٣٩٦٧).

كما أنَّ فضلَها على النِّساء كفضلِ الثَّريد على سائر الطَّعام.

إنَّ أمَّ المؤمنين هذه أُعْطيتْ تسعاً من حميد الخصال، وكريم الفضائل، لم تُعْطَهَا امرأة في مشرقِ شمس الدَّعوة المحمديّة إلى أنْ يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

فمَنْ هذه المرأة العظيمة التي ملأتِ الدُّنيا وشغلتِ النَّاس؟!

ومَنْ هذه المرأة التي احتلّت مكانَ الصَّدارة في البيتِ الذي كرّمه الله، فأذهبَ عنه الرِّجسَ وطهَّره تطهيراً؟!

حاولتُ أنْ أحصيَ المصادرَ القديمةَ التي تصدَّرت وتصَّدتْ للكتابةِ عن ضيفتنا اليوم ـ بل نحن ضيوفها ـ فتجاوزتِ المئات، وفاقت تصوّري عندما بدأتُ الحديثَ عنها... وإذ ذاك علمتُ أنَّ ذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء، وهل هناك أجمل من نَشْرِ الفضائل والاقتداء بها؟!

إذن، فلندخلِ البيتَ الذي أُنزلَ فيه شَطْر القرآن كيما يطيب لنا الحديث عن فَضْلِ صاحبته، أو نتعرّف بعض مناقبها ونعرفَ مكانتها، وكيما تكون لنسائنا قدوة يقتدين بها، ويهتدين بهديها، ليُفزْنَ برضوانِ من الله عزَّ وجلَّ.

كان الإمامُ مسروق بن عبد الرحمن الهمدانيّ الكوفيّ ـ رحمه الله ـ وهو تابعيٌّ جليلٌ من كبار التَّابعين إذا حَدَّثَ عنها قال: حدثتني الصِّدِّيقةُ بنت الصِّدِّيق، حبيبة حبيب الله، المبرّأة في كتاب الله.

هذه المبرّأة في كتاب الله هي: عائشة[1] أمُّ المؤمنين بنت أبي بكر الصِّدِّيق

---

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند عن أنس، انظر المسند (٣/١٥٦ و٢٦٤).

(١) تاريخ الإسلام للذّهبي (عهد معاوية ٢٤٤ ـ ٢٥٣) وسير أعلام النّبلاء (٢/١٣٥ ـ ٢٠١) ومسند أحمد (٦/٢٩) وطبقات ابن سعد (٨/٥٨ ـ ٨١) والمعرفة والتّاريخ (٣/٢٦٨) وحلية الأولياء (٢/٤٣ ـ ٥١) وعيون الأخبار (٤/٢٠٤ و٢٠٥) ونسب قريش (ص٢٣٢ و٢٣٧ و٢٥٢) والسّيرة النبويّة (٢/٦٤٤) وتاريخ الطّبريّ (٢/٩ و١٠ و٣٧) والكامل لابن الأثير (٢/٤٨ و٦٨ و١١٠) والزُّهد للإمام أحمد (ص٢٠٥) والكامل للمبرد

الأكبر، القرشيّة التّيميّة، المكيّة، النّبويّة، فقيهة نساء الأمّة، وأفقه نساء الأمّةِ على الإطلاق، زوجة النّبيّ الحبيب محمّدﷺ، وأشهر نسائه الطّاهرات رضي الله عنهن.

وأمُّها هي الصّحابية الجليلة أمُّ رومان بنت عامر التي قال رسول اللهﷺ في حقها: «من سرّه أنْ ينظرَ إلى امرأةٍ منالحورِ العِينْ فلينظر إلى أمِّ رومان»(1).

= (١٥٦/١) ومجمع الزّوائد (٢٢٥/٩ ـ ٢٤٤) وتهذيب التّهذيب (٤٣٣/١٢ ـ ٤٣٦) والإصابة (٣٤٨/٤ ـ ٣٥٠) والاستيعاب (٣٤٥/٤ ـ ٣٥١) وأسد الغابة (١٨٨/٦ ـ ١٩٢) ترجمة رقم (٧٠٨٥) ونساء مبشّرات بالجنة (٧/٢ ـ ٥٢) والمحبر (ص٤٥ و٨٠ و٨٩ و٩٠ و٩٢ . .) والمعارف (ص١٣٤ و١٧٦) والأعلام للزِّركلي (٢٤٠/٣) والمستدرك (٤/٤ ـ ١٤) وصفة الصّفوة (١٥/٢ ـ ٣٨) والفَتْح الرّباني (١١/١٢ و١٢) والبداية والنّهاية (٩١/٨) و(١٣٠/٣ ـ ١٣٣) وغرر التّبيان (ص٢٤٠ و٣٥٩ و٤٢٠ و٤٢٣ و٤٧٦ و٤٨٧ و٥١٢ و٥١٣ و٥١٤) وأزواج النّبيّ لأبي عُبيدة (ص٦٢) وكنز العمال (٦٩٣/١٣) والمغازي للواقدي (انظر الفهارس ١١٨٩/٣) والأخبار الموفقيّات (ص١٣١ و٤٦٢ و٤٧٣) والسِّير والمغازي (ص٢٥٥ و٢٥٦) وأنساب الأشراف (انظر الفهارس ٦٥٦/١) وأزواج النّبيّ للصّالحيّ (ص٧٧ ـ ١٣٦) وبلاغات النّساء لطيفور (ص٣) ووفيات الأعيان (١٦/٣) وفضائل الصّحابة للإمام أحمد (٨٦٨/٢ ـ ٨٧٨) والمجتبى من المجتنى (ص٩٢) وتلقيح فهوم الأثر (ص٢٠) وشفاء الغرام (١٢٧/١ و١٢٨) وعيون الأثر (٣٧٨/٢ ـ ٣٨٠) والفصول (ص٢٤٤) وجوامع السّيرة النبويّة (ص٣١) ودلائل النّبوّة للبيهقي (انظر الفهارس ١٥٥/٧) وأعلام النِّساء (٩/٣ ـ ١٣١) والمنمّق في أخبار قريش (ص٣٩٤) والتّاج الجامع للأصول (٣٧٩/٣ ـ ٣٨٢) والاشتقاق (ص٥٠٥) ودرُّ السّحابة (ص٣١٨ ـ ٣٢٢) وزاد المعاد لابن قيم الجوزية (انظر الفهارس ٣٣٥/٦ ـ ٣٣٧) والسمط الثمين (ص٣٣) والشفا (١٤٦/١) ونوادر المخطوطات (١٥٦/٢) والمواهب اللّدنية (٨١/٢ ـ ٨٣) و(٨/٥ ـ ٣٧٥) ومصادر أخرى حديثية وتفسير وتأريخ وأدب لا يمكن حصره.

(1) انظر أسد الغابة (٣٣١/٦) ونساء مبشرات بالجنة (١٤٧/١) وطبقات ابن سعد (٢٧٧/٨) والاستيعاب (٤٣١/٤) والإصابة (٤٣٢/٤) وكنز العمال (١٤٦/١٢) وأنساب الأشراف (٤٢٠/١) وغيرها كثير من المصادر.

الصِّدِّيقَةُ والدَّوْحَةُ البَاسِقَةُ:

عائشةُ رضي الله عنها إحدى بنات الصَّحابة اللاتي وُلدنَ في الإسلام، وهي أصغر من فاطمةَ الزَّهراءِ رضي الله عنهما بثماني سنين، وكانت تقول عن أبويها: لم أعقلْ أبويَّ إلا وهما يدينان الدِّين[1].

إذن، فقد جُبِلتْ عائشة على الطَّاعة والإيمان منذ إشراقة نور الإسلام في أمِّ القرى مكة المكرَّمة.

وفي أحضان هذين الأبوين الكريمين، نشأت عائشةُ بنت الصِّدِّيق، وفتحتْ عينها على شمسِ الإيمان، وتغذَّتْ برحيقهِ، وتربَّت على لبانه، واشتدَّ عودُها على حبِّه، واستظلَّت بظلِّهِ، فكان أبواها كالدَّوحة الباسقة التي يُستظلُّ بظلها، وكالشَّجرة المباركة ذات القطوف الدَّانية التي تؤتي أكلها كلَّ حين.

ومنذ أنْ كانت عائشةُ طفلة صغيرة، كان أبواها يلاحظان بركتها، ويشعران بحفاوةِ الله تعالى بها، وما كانا يوماً من الأيام يحسبان أنَّها ستغدو حبيبة الحبيبﷺ، وأمّ المؤمنين، وموئل العُلماء، ومقصد العارفين، وبركة نساء النَّبيّﷺ في العلمِ والفِقْهِ والمعرفة.

لقد اختصَّ الله عزَّ وجلَّ البيتَ البَكْريَّ بالصِّدِّيقيّةِ، وخصَّه بالسَّبْقِ إلى الإسلام، وأنعمَ عليه بالإيمان، لتغدو عائشة زوج الرَّسول الكريمﷺ، وحاملة راية العلم في عَالَمِ النِّساء، ولتقوم بأعظم كرامة، وأكرم مهمّة في تاريخِ العلم.

فأبوها الصِّدِّيقُ الأكبر، وشيخُ الصَّحابة، وصَدِيق الرَّسولﷺ ورفيق صباه، تخلَّقَ بأخلاقه، وسار بسيرته، وعرفه حَضَراً وسَفَراً، وليلاً ونهاراً، وعرف أحواله الشَّريفة كلَّها، فسارع إلى دوحة الإيمان، فكان أسبق السَّابقين ـ بعد خديجة رضي الله عنها ـ وهذه الخصال الحميدة كلّها غرسها في أهلِهِ، وخاصة ابنته عائشة رضي الله عنها.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/١٣٩) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/١٨٣) ونساء مبشرات بالجنة (١/١٣٤)

وأمُّها نموذجٌ كريم عن الزَّوجة الوفيّة، والأمّ الواعية التي تنظر إلى الأمور بنور البصيرة، لتستقيم الحياة الزَّوجية، ولذلك أرضعت ابنتها عائشة مكارمَ الأخلاق، وغذّتها بمعالي المكارم لتكون أكرم النِّساء وأوفى الطّاهرات، وأحدوثة النِّساء المُثلى في الغد القريب، فكانت كذلك.

الصِّدِّيقَةُ هَذه فَهَل فَوقَ ذَلكَ مَفْخَر؟

في حديثِهِ عنِ السَّيِّدة عائشة رضي الله عنها أَفْرَغَ الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ سَوَاد عيونِ براعته البيانيّة مِدَاداً لقلمه اللطيف، فأبدعَ وأحْسَنَ، وأجملَ وأنْصَف، وتحدّثَ فقال في صفتها رضي الله عنها:

وكانت امرأة بيضاء جميلة، ومنْ ثمَّ يُقالُ لها «الحُميراء» ولم يتزوَّجِ النَّبيُّ ﷺ بِكْراً غيرها، ولا أحبَّ امرأةً حبَّها، ولا أَعْلَمُ في أمّة محمّدٍ ﷺ، بل، ولا في النِّساء مطلقاً، امرأة أعظم منها. وذهب بعضُ العلماء إلى أنَّها أفضل مَنْ أبيها، وهذا مردودٌ، وقد جعل الله لكلّ شيءٍ قدراً؛ بل نشهد أنّها زوجة نبيّنا ﷺ في الدنيا والآخرة، فهل فوق ذلك مفخر؟ وإن كان للصِّدِّيقة خديجة شأوٌ لا يُلحقْ، وأنا واقفٌ في أيّتِها أفضل، نعم، جزمتُ بأفضليةِ خديجة عليها، لأمورٍ ليس هذا موضعها[1].

وتحدَّثَ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ عن زواجها من رسول الله ﷺ فقال: وكان تزويجه ﷺ بها إثْر وفاة خديجة رضي الله عنها، فتزوَّج بها وبسودة في وقتٍ واحد، ثم دخل بسودة، فتفرّدَ بها ثلاثة أعوام حتى بنى بعائشة في شوال بعد وقعةِ بَدْر، فما تزوج بِكْراً سواها، وأحبَّها حُبّاً شديداً كان يتظاهر به، بحيث إنَّ عمرو بنَ العاص ـ رضي الله عنه ـ وهو ممن أسلم سَنَة ثمان من الهجرة، سأل النَّبيَّ ﷺ: أيّ النّاس أحبّ إليك يا رسول الله؟

قال: «عائشة»

قال: فَمِنَ الرِّجال؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٤٠).

قال: «أبوها»[1]

ويتابعُ الذَّهبيُّ سلسلة الذَّهبِ في كلامه السَّلسبيل عن أمِّنا عائشة رضي الله عنها فيقول: وما كان عليه السَّلام ليحبَّ إلا طيّباً وقد قال: «لو كنتُ متخذاً من هذه الأمّةِ لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكن أخوّة الإسلام أفضل» فأحبَّ أفضل رجل من أمّته، وأفضل امرأة من أمّته، فمن أبغض حبيبَي رسول الله ﷺ، فهو حريّ أن يكونَ بغيضاً إلى الله ورسوله. وحبُّه عليه السَّلام لعائشةَ كان أمْراً مستفيضاً، ألا تراهم كيف كانوا يتحرَّوْن بهداياهم يومها تقرباً إلى مرضاته[2]. ؟!

وفي هذا المجال أقول: هذه الصِّدِّيقة ـ رضي الله عنها ـ رضعت لبان الصِّدْق من أبويها، وتغذَّت على مائدة النّبوّة المحمديّة، فلا عجبَ أنْ تكونَ فريدة بين النِّساء، وأنْ تحظى بحبِّ رسول الله ﷺ لها، إذ جَمَعَتْ كلّ صفات الخير من جميع أطرافه[3]، رضي الله عنها وأرضاها.

ولهذا كلّه حقّ لسيّدة النِّساء الخلود في دنيا النِّساء، ودنيا العلم، ودنيا الخلود، ولكنّه خلودٌ من نوعٍ آخر، خلود العلم الذي يرفع النَّاس بعضهم فوقَ بعض درجات، وهكذا ظلَّت، وستظلُّ أمّنا عائشة تقتعدُ سدّة العِلْم، وتقتعد سدَّة الفَضْل إلى ما شاء الله ، وفَضْلُها على الجملة أنَّك تقرأ من أخبارها ما تقرأ فلا تزال تقول بعد كلّ سِمَةٍ من سماتها: إنّها الصِّدِّيقة ابنة الصِّدِّيق رضي الله عنها.

الصِّدِّيقَةُ ونُورٌ على نُورٍ:

منذ اليوم الأوّلِ لولادة عائشة رضي الله عنها بمكةَ المكرمة، والنُّورانيّة

---

(١) سير أعلام النّبلاء (١٤٢/٢) والحديث أخرجه الشّيخان في صحيحهما؛ البخاري برقم (٤٣٥٨) ومسلم برقم (٢٣٨٤) وأخرجه التّرمذي في السّنن وابن سعد في الطبقات (٦٧/٨) وانظر السّمط الثمين (ص٤٢).

(٢) سير أعلام النّبلاء (١٤٢/٢).

(٣) نساء مبشرات بالجنة (١٢/٢ و١٣).

تصاحب حياتها المباركة، فقد وُلدت في البيت البَكْريّ، بيت الصِّدق والإيمان، وكانت ولادتها في مطلع شَمْس البعثة النّبويّة بمكةَ؛ وفي مرحلةِ طفولتها تبلورتِ الدَّعوةُ الإسلامية، واستوتْ، وفي قائمة السَّابقين إلى دوحة الإسلام، وغديرِ الإيمان، كانت عائشةُ بعد ثمانية عشر إنساناً ممَّنْ أسلم.

قال بدر الدِّين الزَّركشيّ ـ رحمه الله ـ في كتابه «الإجابة»: لم ينكحْ ﷺ امرأة أبواها مهاجران سواها، وذكر من مزايا أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّ أباها وجدّها صحابيان[1].

وتتابعتِ النُّورانيَّةُ في حياة السَّيِّدة عائشة رضي الله عنها، فعندما بدأتْ تدخلُ في مرحلة الصِّبا، جاء الوحيُّ إلى رسول الله ﷺ بصورتها، وأخبره بأنَّها زوجته في الدَّارين، وإذ ذاك خُطِبتْ عائشة إلى النَّبيِّ ﷺ.

أمّا الخطبة فالذي نعلمه منَ الرِّواياتِ المتواترةِ في أمّهات المصادر، أنَّها جاءت بعد اقتراح سيّدةٍ مؤمنةٍ صالحةٍ فاضلةٍ هي خولة بنت حكيم، فقد آلَمها مالحظَتْهُ منْ حُزْنِ النَّبيِّ ﷺ على زوجه الطَّاهرة خديجة رضي الله عنها، فقالت له:

يا رسول الله، ألا تتزوّج؟

فسألها ﷺ: «مَن»؟

قالت خولة: إنْ شئتَ بِكْراً وإن شئتَ ثيّباً؟

فسألها فقال: «مَن البكْر ومَنِ الثّيب»؟

فذكرت خولة أنَّ البكْرَ عائشة ابنة أحبِّ خلق الله إليه[2].

وأنَّ الثَّيب سودة بنت زمعة التي آمنت به واتّبعته.

عندئذ أوفَدَ النّبيُّ ﷺ خولة بنت حكيم إلى كلتيهما، فوفدت خولة إلى بيت

---

(١) أقول: وكذلك جدتها لأبيها أيضاً سلمى بنت صخر أمّ الخير، وللمزيد من أخبار جدتها. اقرأ سيرتها المعطار في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (١/٣١٧ ـ ٣٢٦) فسيرتها أريج يملأ النفوس عطراً، والقلوب أنساً وطيباً.

(٢) انظر: أسد الغابة (٦/١٨٥).

أبي بكر، وجَرَتِ الخطبة المباركة لعائشة في مجراها الذي انتهى بالزَّواج بعد سنوات في المدينة المنَّورة بعد غزاة بدر الكبرى.

كانت عائشةُ عندما تزوَّجتْ في بداية ربيع حياتها، وكانت قد ملكت بيتها الجديد من اللحظةِ الأولى، لأنَّها كانت تدلُّ فيه بمكانة الزَّوجة المحبوبة عند زوجها العطوف، وبمكانةِ البُنوّة النَّاشئة عند الأُبوة الرَّحيمة، ومكانة ابنة الصِّدِيق العزيز التي أضفى عليها المودّة والإيثار، ما كان بين النَّبيِّ ﷺ والصِّدِّيق من مودةٍ هي أوثق من مودة الرَّحم، لأنَّها مودّة الوفاء والإعجاب والإيمان، بل مودّة الحياة وما بعد الحياة.

وانتقلتْ عائشةُ رضي الله عنها من نورٍ إلى نورٍ، ومن ضياءٍ إلى ضياءٍ أشدَّ، وقد سجَّلتْ لنا خطرات نفسها خطرةً خطرةً، ووصفت لنا في بيت النّبوّة كلَّ صغيرة وكبيرة، وكلَّ ظاهرة وخافية، بَيْدَ أنها لم تذكرْ كلمةً واحدة تنمُّ عن وَحْشَةِ الانتقالِ من بيتٍ إلى بيت، ومن معيشةٍ إلى معيشة، ومن ظلِّ أبوين إلى ظلِّ زوجٍ لا تعرفُ عنه إلا ما تعرفه عن النّبيّ ﷺ من صفات النّبوّة، لأنَّ عطفَ النّبيّ ﷺ هو العطفُ الغامرُ الذي لم يحتجْ عائشة إلى عطفٍ سواه، فكان عطفه ﷺ هو المأوى الذي تلوذُ به، وتأوي إليه، وكان النُّور الذي أَلِفَتْه في بيت النّبوّة قد طغى على النُّور الذي حملته من بيتِ أبويها، فازدادت نوراً على نور بما اكتسبته من نورانيّةِ بيت النّبيّ الكريم ﷺ الذي غدا بيتها، وفيه كان مهبطُ الوحيّ يتنزّل بالقرآن ليُتْلى في أصقاع الأرض.

الصِّدِّيقَةُ وأحْدَاثُ الهِجْرَةِ:

كان الإسلامُ نوراً يتسلّل إلى أفئدةِ الذين أراد الله بهم خيراً، وكان الكافرون الأقوياء ـ بزعمهم ـ يحاولون جاهدين أنْ يطفئوا نورَ الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أنْ يتمَّ نوره، ولو كره الكافرون.

وكان الرسول الكريم ﷺ يتلقى الوحيَّ من ربِّهِ، فيأخذ عنه النَّاس عِلْمَ الدُّنيا والآخرة، والحكمة النَّازلة مِنَ السَّماء، وكان في الوقتِ ذاته على خلُقٍ عظيم

تهوي إليه الأفئدة، وتتأثّر بذاته الشّريفة الخصبة العميقة المعطاء، وتغترف من كنوز مكارم أخلاقه، فكلّ مَنْ احتكَّ به مِنْ أتباعه كان يثرى، وتكتسب ذاته عمقاً وخصباً.

استمرَّ كفَّارُ قريش في إيذاء المسلمين، واشتدّتْ عداوتهم ضراوةً لما أيقنوا أنَّ محمّداًﷺ، قد بايع الأوس والخزرج على أنْ يمنعوه فيما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وإذ ذاك أذنَ الرَّسولُﷺ لأصحابهِ بالهجرةِ وقال لهم: «إنَّ الله قَدْ جعلَ لكم إخواناً وداراً تأمنونَ بها».

كان المسلمون يخرجون جماعات إلى المدينة، فلمّا راحت قريش ترصدُ طريق المدينة، أخذوا ينسلّون آحاداً، وأخذ الأنصار في عرينهم يستقبلون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أنْ يقولوا ربّنا الله، وكان هؤلاء الأنصار الأطهار يلقون أسماعهم إلى المهاجرين مستبشرين فرحين، فهم أصحاب نبيِّهم الذي تلقُّوا عنه العلْم والحكمة، وحفظوا عنه القرآن المجيد.

أمّا رسول الله ﷺ فكان على انتظارٍ ربانيّ، كيما يأتيه الإذنُ بالهجرة، ولما أتى أمْرُ الله بذلك، خرج رسول اللهﷺ مستخفياً، وانطلقَ إلى دار أبي بكر في نَحْرِ الظّهيرة، وهناك رأتْهُ أسماءُ بنت أبي بكر[1] رضي الله عنها، فقالت لأبيها الصِّدِّيق وكانت عائشة بقربها: يا أبتِ هذا رسول اللهﷺ مُتَقَنِّعاً. فقال الصِّدِّيق رضوان الله عليه: فداءٌ له أبي وأمّي، والله ما جاء به في هذه السَّاعة إلا أَمْرٌ!.

وسارعَ الصِّدِّيقُ أبو بكر مهرولاً، فقد أتى الحبيبُ المصدوقﷺ في ساعةٍ لم يكن يأْتيهم فيها؛ فقالﷺ لأبي بكْر: «أخرجْ مَنْ عندك».

وكانت أسماءُ وعائشة رضي الله عنهما عنده، فقال: إنّما هم أهلك ـ بأبي أنتَ يا رسول الله ـ.

---

(١) اقرأ سيرة أسماء بنت أبي بكر في كتابنا «نساء مبشّرات بالجنة» (٢/١٣٣ ـ ١٦٠) فسيرة ذات النّطاقين ذات نطاق واسع في مجال الخيرات رضي الله عنها.

ولمّا اطمأن الحبيبُ المصطفى ﷺ إلى مَنْ كان عند الصِّدِّيقِ قال: «فإني قد أُذِنَ لي في الخروج» فقال الصِّدِّيق بلهفةٍ وحبٍّ: الصُّحبةُ يا رسول الله. . . . الصُّحبة يا رسول الله. . فقال الحبيبُ الأعظمُ عليه الصَّلاة والسَّلام «نعم».

إنَّها لحظاتٌ دقيقةٌ، ودقائقُ حرجة، راقت فيها نفس أبي بكر الصِّديق، فرقَّ قلبه، وترقرقَ الدَّمعُ وسالَ على وجنتيه من فرط السُّرور، وهل هناك مِنّة أعظم من أنْ يصحبَ حبيبه وصفيه إلى أرض الله. . . إلى المدينة المنوَّرةِ.

وتعال معي نتصور شعور أمّنا عائشة رضي الله عنها، وكانت لا تزال وقتذاك في ربيعها السَّابع أو أكثر بقليل، ماذا كان شعورها وهي تَرَى رسول الله ﷺ الذي عَقَدَ عليها منذ فترة، وهو يصحبُ والدها الصِّدِّيق ليهاجرا إلى المدينة؟

ماذا دار في خلدها؟ لا شكَّ أنَّها كانت على ثقة منْ أنَّ الله عزَّ وجلَّ سيؤيد زوجها وأباها، فقد سمعت ورأتْ رسول الله ﷺ وهو يتأهَّبُ للهجرة، كان قلبُها يخفقُ بين جوانحها، وكان لسانُها يسيلُ بالدُّعاء وتبتهل إلى الله عزَّ وجلَّ أنْ تصاحبَ السَّلامةُ هَذَيْنِ المُهَاجِرَيْن.

وراح النَّبيُّ الكريم ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه يودّعان أسماءَ وعائشةَ رضي الله عنهما، بعد أنْ جهزتاهما أسرعَ جهاز، وصنعتا لهما سفرة، ووضعتاها في جراب. وتذكَّر رسول الله ﷺ بناته وزوجه سودة ومَنْ تركهم في دَارِهِ من مواليه، فراح يدعو الله عزَّ وجلَّ في حرارةٍ ويقول: «اللهم اصحبني في سفري واخلفني في أهلي». ثم انطلق أفضل ركب[1] في رعاية الله.

---

(١) كان الرَّكبُ قافلة صغيرة تسري في معبد الكونِ، وتسيرُ فيه؛ رسول الله ﷺ قد رطب لسانه بذكر الله، واطمأنَ قلبه بذكر خالقهِ، والصِّدِّيق الصِّديقُ أبو بكر يفكر في جلال الله وفي عظمته، وفي ملكوت أرضه وسمائه.

نعم كان الرَّكْبُ صغيراً، ولكنَّ الحدث كان أعظم حدثٍ في تاريخ البشريّة، وفي تاريخ الدُّنيا، وفي دنيا التّاريخ، وفي ذلك الوقت كان العَفَنُ القاتل قد استشرى، ولامَسَ

ذهب أبو قحافة والدُ الصِّدِّيق ألى دارِ ابنه لمّا علم بخروجه مهاجراً، فاستقبلته حفيدتاه أسماء وعائشة، وأراد أنْ يطمئنَّ فيما إذا كان الصديق قد ترك مالاً لأهله وقال: والله إنّي لأراه قد فجعكم بمالهِ في نفسه.
فقالت أسماء: كلّا يا أبت، إنَّه قد تركَ لنا خيراً كثيراً، وأخذت بِيَدِ جدِّهَا ووضعنها في كوّةِ البيتِ، في المكانِ الذي كان أبوها يضعُ ماله، وكانت قد وضعتْ أحجاراً ووضعت عليها ثوباً ثمَّ قالت: يا أبت ضَعْ يَدَكَ على هذا المال، فوضع يده عليه وقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحْسَن، وفي هذا بلاغ لكم.

كانت عائشةُ رضي الله عنها ترى هذا كلّه، وترتسم في ذهنها تلك الصُّورة الفريدة منْ أختها أسماء التي خطَّت مَجْدَ شهرتها من مثل هذه المواقف العطرة.

بلغَ الرَّسولُ ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه مأمنهما في المدينة المنوَّرة، وما إنِ استقرَّ بالرَّسولِ ﷺ المقام في مهاجره، حتى بَعَثَ مولاه وحبَّه زيد بن حارثة ومولاه الآخر أبا رافع ليحضرا أهل النّبيّ ﷺ وبناته، وأرسل معهما أبو بكر ولده النَّجيب عبد الله بن أبي بكر ليحضر كذلك أمّ رومان وأسماء وعائشة رضي الله عنهن.

في طريق هجرة أمِّ المؤمنين عائشة، شعرت بما نالها من إكرام الله عزَّ وجلَّ، وشعرت بالعناية الإلهيّة تحفُّ بركْبِها ذات اليمين وذات الشّمال، وأحسَّت كذلك

= قَلْبَ البشرية على ظهر الأرض، فكانت حياة بلا أمل، وضياع وأي ضياع؟ إنّه الضياع بلا نهاية.

ولكن، دعوني أقول: كان الرَّكبُ الصَّغير الذي خرج من مكةَ مهاجراً نحو المدينة عرين الأبطال، هو النُّور الذي تفشّى في الدنيا، وقضى على التَّعفن بشمس حقّه الذي طهّرها من كلّ جراثيم الفساد، وكان الأملُ الذي أنقذَ الدُّنيا من ترهات الردى، بل وهو البلسم الشافي لكل أمراض الإنسانية التي أقضّتِ المجتمعات البشريّة، وقضَت على بعضها.

هذا الركبُ ما تزال الإنسانية ـ إلى أنْ يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها ـ تستضيءُ به وتستنير بأعمالها في مقاصده الحسنى التي رفعت الإعلان بتوحيد الواحد القهّار.

بلطفٍ خفيٍ يكتنفها، وهي تسيرُ مع أهلها إلى عرينِ الأنصار في المدينة المنوّرة.

وها هي ذا أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تَصِفُ ما حَدَثَ في طريق الهجرة فتقول:

قدمنا مهاجرين، فسلكنا في ثنيّة صعبة، فنفر بي جَمَلٌ كنت عليه نفوراً قوياً منكراً، فوالله ما أنسى قول أمّي: يا عُويشة ـ أو يا عُريسة[1] ـ فركب بي رأسه، فسمعتُ قائلاً يقول: ألقي خطامه.

فألقيته، فقام يستدير كأنّما إنسانٌ قائمٌ تحته[2].

وتابع الرَّكبُ مسيرته إلى أنْ قدم المدينة المنوّرة، ونزلت عائشةُ رضي الله عنها في دار أبيها بالسُّنَحِ، وأقامت هنالك قرابة سنتين، حتى كانت وقعة بَدْرٍ، ونَصَرَ الله عزَّ وجلَّ المسلمين فيها، وإذ ذاك انتقلتْ عائشة من روضة أبيها إلى رحابِ جنّةِ البيت النّبويّ لتغدو من أهله الذين طهّرهم الله تَطْهيراً.

الصِّدِّيقةُ والزَّوَاجُ المبَارَكُ الَميْمُون:

مضى شهرُ رمضان من السَّنَةِ الثّانيةِ للهجرة، وأقبل شهرُ شوال، وكان رسولُ الله ﷺ والمسلمون فرحينَ بنصرِ الله في بَدْر، وهناك وَجَدَ النّبيّ ﷺ أن يتزوج عائشة ابنة صَدِيْقِهِ وصِدِّيقهِ أبي بكر، وحدَّدَ يوم الزَّواج، وظلَّ ذلك اليوم ماثلاً في فؤادِ أمّ المؤمنين عائشة، فهو أسعد أيام حياتها، فهل هناك أمنية أغلى مِنْ أنْ تكونَ زوج النّبيّ المصطفى خاتم الأنبياء والمرسلين؟!.

أمّا ذلك الحديثُ والحَدَثُ السَّعيد فقد تكفّلتِ المصادرُ ـ الحديثيّة وكتب الطّبقات والسّيرة والتّاريخ وغيرها ـ بروايته عن أمّنا عائشة رضوان الله عليها، ونحنُ مرسلو القول في الجمع بينها وتبسيطها.

---

(١) عُريسة ـ تصغير عروس ـ وتعني أمّ رومان بذلك أنّ عائشة عروس النّبيّ ﷺ.

(٢) رواه الطّبراني، وقال الهيثميّ في المجمع (٩/٢٢٨): رواه الطّبراني وإسناده حسن. وانظر: الاستيعاب (٤/٤٣٣) والبداية والنهاية (٣/٢٢١) والسّيرة الحلبية (٢/٢٧٤).

ففي ذلك اليوم السَّعيد اجتمعَ في بيت أبي بكر رضي الله عنه رجال ونساء من الأَنْصار، وجاءت أمُّ رُومان إلى ابنتها عائشة وهي في أرجوحة بين نخلتين، فأنزلتها منَ الأرجوحة، وسوّتْ شعرها، ومسحت وجهها بالماء، ثم أقبلت تقودها حتى وقفت بها عند الباب وهي تنهج(1) حتى إذا ما سَكَنَ بعض نفسها، أدخلتها الدَّار فإذا نسوةٌ مِنَ الأنصار في البيت فيهن أسماء بنت يزيد(2) الأنصاريّة، فقُلْنَ: على الخير والبركة وعلى خير طائر، وأسلمَتْها أمُّ رومان إليهن، فأصلَحْنَ من شأنِها، حَتى إذا تمَّ ذلك دخلتْ بها إلى حيثُ كان رسول الله ﷺ جالساً، وعنده رجال ونساء من الأنصار، فأجلستها في حجره ثم قالت: هؤلاء أهلك يا رسول الله ، فبارك الله لك فيهن، وبارك لهن فيك.

وقام الرِّجال والنِّساء، وخرجوا، وبنى رسول الله ﷺ بعائشة، فما نُحِرتْ جزور ولا ذُبحتْ شاة، ولكنَّ سعدَ بنَ عُبادة الأنصاريّ رضي الله عنه، أرسل إليهم بحفنتهِ التي كان يرسلها، ومعها قدح من لبن فشرب الحبيبُ المصطفى ﷺ بعضه وشربت عائشة بعضه(3).

كان لشهر شوَّال أثرٌ عَطِرٌ في نَفْس أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ففيه كانت أعظم ذكرياتها وأعزها، ومن أَجْلِ ذلك أحبّتْ هذا الشَّهر. قال أبو عبيدة معمر بن المثنى رحمه الله : كانت تستحبُّ أنْ يُبنى بنسائها في شوال.

---

(1) النَّهج: تتابع النَّفَس.

(2) اقرأ سيرة الصَّحابة الجليلة أسماء بنت يزيد الأنصارية في كتابنا «نساء مبشّرات بالجنة» (٢/٢٠٥ ـ ٢٣٣) فسيرتها مثل شرود في النّدى والإيمان والعلم والصّبر رضي الله عنها.

(3) انظر أصل الحديث وروايته عن أم المؤمنين عائشة في صحيح البخاريّ في مناقب الأنصار برقم (٣٨٩٤) باب: تزويج النّبيّ ﷺ عائشة وقدومها إلى المدينة وبنائه عليها. ومسلم في النّكاح برقم (١٤٢٢) باب: تزويج الأب البكر الصغيرة، وابن حبّان في الاحسان برقم (٧٠٥٥) وابن ماجه في النّكاح برقم (١٨٧٦) باب: نكاح الصّغار يزوجهن الآباء، وأبو داود في الأدب برقم (٤٩٣٣ و٤٩٣٥) باب: الأرجوحة، وانظر المصادر التّالية: نساء مبشّرات بالجنة (٢/٢١٧ ـ ٢١٨) والفتح الرّباني (٢١/١٦) وأزواج النّبي للصّالحيّ (ص٨٣ و٨٤) وسير أعلام النبلاء (٢/١٥٠) والاستيعاب (٤/٣٤٧) والمسند (٦/٤٥٨)

وعن هذا كلّه حدثتْ أمّنا عائشة رضي الله عنها فقالت: تزوَّجني رسولُ اللهﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأيّ نسائه كان أحظى عنده منّي[1]..؟

إذن، لقد أضحى شهر شوال عند أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها شهر الذّكريات العَطِرة، والبركات الكثيرة، والخيرات التي لا حَصْرَ لها، بل شهر الفضل والفضائل والإحسان.

لم يكن مَهْر الصِّدِّيقةِ عائشة رضي الله عنها ذلك المهر الضّخم، وإنّما كان بسيطاً، خمسمئة درهم فقط. وقد ذكرت عائشة مقدار كلّ واحدة من زوجاته الطّاهرات عندما سألها التّابعي الجليل أبو سلمة بن عبد الرحمن ـ وهو أحد الرّواة الثّقات ـ كم كان صدَاق رسول اللهﷺ؟

قالت: كان صَداقُه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشّاً.

قالت: أتدري ما النشّ؟

قال: قلت: لا.

قالت: نصف أوقية، فتلك خمسمائة درهم، فهذا صداق رسول اللهﷺ لأزواجه[2].

حُمِلت عائشة رضي الله عنها إلى الدّار التي أعدّتْ لها، دار النّبيّﷺ التي كانت ملتصقة بالمسجد النّبويّ الشّريف؛ وهناك.. هناك أضحى بيتها مهبط الوحي ومنبع الفوائد، وموئل العلماء والعظماء، وفيه ومنه خرج شطْر العلْم للعالَم كلِّهِ.

= ونساء من عصر النبوة (٢/ ٢٤) وغيرها كثير من المصادر المتنوعة.

(١) رواه الإمام أحمد (٦/ ٥٤ و٢٠٦) ومسلم في النّكاح برقم (١٤٢٣) باب: استحباب التّزوج والتزويج في شوال، والتّرمذي في النّكاح برقم (١٠٩٣) باب: ما جاء في الأوقات التي يُستحب فيها النكاح، والنّسائي في النكاح البناء في شوال (٦/ ٧٠ و١٣٠) وابن ماجه في النكاح برقم (١٩٩٠) باب: متى يستحب البناء بالنساء، وابن سعد (٨/ ٥٩) والمصنف (٦/ ١٩٠).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب الصداق برقم (١٤٢٦).

من الجدير معرفته أنَّ حجرات أزواج النّبيّ الطاهرات قد ضُمّتْ إلى المسجد النّبويّ، إلا حجرة أمّنا عائشة عليها سحابات الرّضوان، ففيها دُفِنَ النّبيُّ ﷺ وصاحباه العُمَرَان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. ولا تزال إلى الآن ـ في ظلال القبَّةِ الخضراء ـ فوّاحة الشّذا، تهفو إليها نفوسهم من مشارق الأرض ومغاربها، يسعون إليها من كلّ فجٍّ عميق، ليشهدوا وليشاهدوا مهبط الوحي، ويسلّموا على رسول الله ﷺ وعلى صاحبيه الصِّدِّيق والفَارُوق.

وفي ذلك البيتِ الطّاهر المطهّر، ومنذ ذلك اليوم الميمون الذي دخلتْ فيه عائشة رحابَ البيتِ النّبويّ، كان رسولُ الله ﷺ يصنعها على عينهِ، ليأخذ عنها المسلمون دِينَهم، فكانت عائشة بفضل تلك البركات الميمونة أَفْقَهَ نساء الأمّة، ومعهن أمّهات المؤمنين عليهن سحابات الرّضوان.

الصِّدِّيقةُ في البيتِ النّبويِّ الطّاهِر:

كانتِ السّعادةُ ترفرفُ على بيوتِ النّبيّ ﷺ على الرّغم من حياة التّقشُّفِ التي عاشها النّبيّ وأهله، فقد كانت تمرُّ الأيام والأسابيعُ، ولا تُوقد في بيوت النّبيّ ﷺ نار، وإنّما كانوا يأكلونَ الأسودين: التّمر والماء.

حياةٌ سعيدة؛ ما دام القلب موصولاً بالله، حياة رقيقة مع الشّظف والفَاقَةِ، سعيدة بالعطف الذي كان يغمرُ به الحبيب المصطفى صاحب القلب الكبير، حتى صار حُطام الدّنيا عند أهله، ومَنْ لاذ به لا يساوي مثقال ذرّة من هباء.

وهذا ما جعل أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها سيّدة في كلّ مكرمة، ولكلّ مكرمة؛ سيّدة في السّخاء، وفي الزُّهد، وفي كلِّ فضيلة، وإنَّ تاريخها الوضيء ليحكي تلك المكارم التي اقتبستها من البيت النّبويّ، واحتضنتها حتى آخر نَفَسٍ من حياتها.

لندخل أعماق السَّيِّدة الأمّ العظيمة أمّنا عائشة رضي الله عنها، ولندخل معها ـ إنْ أذنت ـ بيتها الطّاهر الموفّق وكيف لا وقد أطلقَ عليها رسول الله ﷺ

اسم موفَّقة[1] ـ لندخل الحجرة النّبويّة التي خُصِّصَت لعائشة رضي الله عنها.

منذ الأيام الأولى لزواجِ عائشة رضي الله عنها، أحبّت أنْ تحتلَّ مكان خديجة في البيت المحمّدي الطّاهر، وأن تأخذَ مكان الطّاهرة خديجة في قلبه الشّريفﷺ منذ أول أيامها.

لكنَّ أوفى الأوفياء الرّسول الكريمﷺ كان مخلصاً خالصاً رضي الله عنها، فمقامها ومكانتها لم ولن تشارك فيه امرأة أخرى مهما علا شأنها ومهما ومهما. . . ولقد سبق عائشة إلى البيت النّبويّ زوجة أخرى هي سودة بنت زمعة العامريّة، وكانت قد جاوزت مرحلة الصِّبا، وكان زواجهﷺ منها ـ بالإضافة إلى أنّه وحيّ[2] ـ زواج عطف ومودة ومواساة، وحكمة محمّدية تنضحُ بالرحمة التي أرسلها الله للعالمين.

كانت عائشةُ رضي الله عنها تحبُّ رسولَ اللهﷺ، وترجو أن يكونَ لها ولدٌ منه، كما كان لخديجة، ولكنَّ الأيامَ مرَّتْ دون أن تنجبَ، إلا أنَّ رسول اللهﷺ قال لها:

«اكتني بابن أختك عبد الله بن الزّبير» فكانت كنيتها أمّ عبد الله.

الصِّدِّيقَةُ واللّطْفُ النَّبويُّ:

سجَّلتْ أمُّ المؤمنينَ عائشة رضي الله عنها ذكرياتها الحلوة وخطرات نفسها،

---

(١) أخرج الإمام التّرمذي في الشّمائل أنَّ رسولَ اللهﷺ نادى عائشة «يا موفقة» انظر: التّرمذي، الشّمائل، باب: ما جاء في وفاة رسول اللهﷺ (٣٨٠) وكذلك في كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب من قدم ولداً (١٠٦٢) والمسند (١/٣٣٤).

(٢) لاحظتُ أنَّ كثيراً ممن تصدّى للكتابة عن أزواج النّبيّﷺ، يزعُم أنَّ تعدُّدَ زوجاته إنّما ينجمُ عن أسبابٍ ومصالحَ وسياسةٍ اقتضها مجريات الأمور، ولكنّي أودُّ أنْ أشيرَ إلى أنَّ الزّواج لم تكن مقاصده تلك التي ذكروها فحسب، وإنّما كان بوحيٍ إلهيّ كما ذكرﷺ، على أنّي لم ألاحظْ ما ذكروه من تلك الأسباب في القرآن الكريم، أو في الحديث الشريف، أو في المصادر الوثيقة، لذا أحببت التنويه لذلك.

وما كانت تلقاه من الرِّعايةِ النَّبويَّةِ، واللُّطف والعَطْف عليها في حيلتها الزَّوجيَّةِ في البيتِ النَّبويِّ.

كان رسولُ الله ﷺ يمتلكُ مَنِ العطفِ والرحمة، ما يغني زوجه الصَّغيرة عائشة عن عَطْفِ أبويها، فقد تركها على سجيتها تلعبُ بالعرائس في بيتهِ، كما كانت تلعب بهنَّ في بيتِ أمِّها وأبيها، وربَّما جاء أترابها الصِّغار، فكنَّ يستحين منه ﷺ، ويدخلن وراء السّتر، فكان رسول الله ﷺ يرسلهن إلى عائشة كي يلعبنَ معها لما يعلمَ مِنْ سرورِها بذلك.

روى البُخاريُّ ـ رحمه الله ـ وغيره عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت:

كنتُ ألعبُ بالبناتِ ـ تعني اللعب ـ فيجيء صواحبي، فينقمعن من رسول الله ﷺ، فيخرجُ رسول الله فيدخُلْنَ عليَّ، وكان يسرِّبُهن إليَّ، فيلعبن معي[1].

وروت عائشةُ رضي الله عنها أيضاً قالت:

دخلَ عليَّ رسول الله ﷺ، وأنا ألعبُ بالبنات فقال: «ما هذا يا عائشة»؟ قلتُ: خيل سُليمان ولها أجنحة، فضحِكَ[2].

كان الرَّسولُ الكريم ﷺ يُقدِّرُ حداثةَ سِنِّها، وحاجتها إلى اللهو كيما تستكملَ أنوثتها، ولذلك كانت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تُسدي النَّصائحَ إلى الآباء، وإلى الأمّهات، أنْ ينتبهوا لهذه النَّاحيةِ فتقول: فاقْدُروا قَدْرَ الجارية

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (١٠/٥٤٣) حديث رقم (٦١٣٠) باب الانبساط إلى النّاس. ومسلم في فضائل الصّحابة برقم (٢٤٤٠) باب فضل عائشة، وأحمد في المسند (٦/٢٣٤) وابن سعد في الطّبقات (٨/٦١) و«ينقمعن» يتغيبن عنه. «يسربهن» يرسلهن. «البنات» اللعب.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/٦٢) وأبو داود في الأدب (٤٩٣٢) باب، في اللعب بالبنات، والنّسائي في عشرة النّساء (١/٧٥) وانظر سير أعلام النبلاء (٢/١٥٠ و١٥١) ونساء مبشّرات بالجنة (٢/١٥).

الحديثة السِّنِّ الحريصة على اللهو؛ وفي رواية: فاقدروا قَدْرَ الجارية الحديثة السِّنِّ التي تسمعُ اللهو.

وكانت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ترى السُّودان وهم يلعبون بحرابِهم في المسجد، حتى تنصرف وقد سُرَّتْ بهم؛ روت عائشة أمُّ المؤمنين هذه الحادثة فيما أخرجه أهل الحديث فقالت:

قدمَ وفدُ الحبشةِ على رسول الله ﷺ، فقاموا يلعبون في المسجد، فرأيتُ رسولَ الله ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظرُ إليهم حتى أكونَ أنا التي أسأم[1].

وهكذا كان الحبيبُ المصطفى ﷺ يتعهّدُ زوجه عائشة بما يسرّها ـ وهي في السَّنوات الأولى من زواجها ـ وإنْ عَجبَ الصَّحابةُ لذلك، حيثُ كان ﷺ المثل الأعلى في كلِّ ما يفعل، فالصَّحابةُ الكرامُ لا تتسعُ أحلامُهم لما يتسعُ له ﷺ حلْمه وصَدْره.

فربّما مرَّ أبو بكر الصِّدِّيقُ رضي الله عنه ببيتِ ابنته، فيسمع صوتَها عالياً في حَضْرةِ النّبيّ ﷺ، فيستأذنُ أبو بكر على النَّبيِّ ﷺ، فإذا عائشة ترفعُ صوتها عليه وهنا يكاد يغضب فيقول مُنبِّهاً: يا بنت فلانة، ترفعينَ صوتك على رسول الله ﷺ!! وربّما همّ بلطمها، ولكنَّ النَّبيَّ الكريمَ ﷺ حَالَ بينه وبينها؛ ثم يخرجُ أبو بكر رضي الله عنه، وقد عَلا وَجْه عائشةَ الحزن، فجعل ﷺ يترضّاها وقال لها: «أَلَمْ تَرَيْنِي حُلْتُ بين الرَّجل وبينك»؟ فرضيتْ رضي الله عنها، ثمَّ يستأذنُ أبو بكر

---

(١) الحديثُ صحيح أخرجه البُخاريّ في مواضعَ من صحيحه: في الصّلاة، باب أصحاب الحراب في المسجد (١/٦٥٣) برقم (٤٥٤) وفي العيدين: باب الحروب والدّرق يوم العيد (٢/٥١٠) برقم (٩٥٠) وفي النّكاح: باب نظر المرأة إلى الجيش ونحوهم من غير ريبة (٩/٢٤٨) برقم (٥٢٣٦) وانظر البخاري الأحاديث رقم (٤٥٥ و٩٨٨ و٢٩٠٦ و٣٩٣١ و٥١٩٠). وأخرجه مسلم برقم (٨٩٢) والإمام أحمد (١/٨٤ و٨٥ و١٦٦ و٢٧٠) والنّسائي في العيدين: باب اللعب في المسجد يوم العيد ونظر النّساء لذلك (٣/١٩٥) وانظر: السّمط الثّمين (ص٥٧) وغيرها من المصادر الحديثيّة والتّاريخية والسّيرة والطّبقات.

الصِّدِّيق مرَّة أخرى، فسمعَ تضاحكهما وعندئذ قال رضي الله عنه: أشركاني في سِلْمِكُما كما أشركتماني في حربكما. . قالا: قد فعلنا[1].

وكانتِ السَّيِّدةُ عائشة رضي الله عنها تلقى العطف النَّبويّ في شتّى المجالات، فكان يسابقها مرَّةً، ويمزح معها.

روت عائشة حديث السِّبَاق هذا فقالت:

سابقني النَّبيُّ ﷺ فسبقتُه ما شاء، حتى إذا رَهِقَني اللَّحم، سابقني فسبقني فقال: «يا عائشة هذه بتلك»[2].

الصِّدِّيقَةُ وشُؤونُ الجِهَادِ:

لا شكَّ في أنَّ الإسلامَ قد أصدر أحكاماً بشأن المرأة تَنْبَني على رعاية طبيعتها التي جُبِلتْ عليها، وعلى استعدادها الخَلْقي والعقلي، مما يتمُّ لمصلحتها الشَّخصية وغيرها في المجتمع الإسلاميّ.

ففي مجالِ الجهاد أباحَ الإسلامُ مشاركةَ المرأة في ساحاتِ الجهاد، وكان جهادُها يتناسب مع أنوثتها، كاستخدامِ المرأة في التَّمريض، ومداواة الجرحى، وإيصال الطَّعام والماءِ إلى المجاهدين، وما كانت تشارك في القتال الفعلي، إلا في حالات الضَّرورة القصوى، كما فعلت أمّ عمارة نَسيْبَةُ بنتُ كَعْبِ المازنيَّة[3] في غَزَاةِ أُحُد، حيثُ انخرطتْ في الصُّفوفِ، وراحت تقاتلُ دفاعاً عن رسول الله ﷺ.

---

(١) عن سير أعلام النّبلاء (٢/١٣١) بتصرف، وللحديث أصل عند أبي داود في الأدب: باب ما جاء في المزاح رقم (٤٩٩٩) وأحمد في المسند (٢/٢٧١ و٢٧٢).

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد: باب في السّبق على الرِّجْلِ (٢٥٧٨) وابن ماجه (١٩٧٩) والنّسائي في عشرة النّساء (٢/٧٤) والإمام أحمد في المسند (٦/٣٩ و٢٦٤) وكذلك (٦/١٢٩ و١٨٢ و٢٦١ و٢٨٠) بالإضافة إلى كثير من المصادر الوثيقة المتنوعة.

(٣) اقرأ سيرة الصّحابية المجاهدة نَسيبة بنت كعب الأنصاريّة في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (٢/٥ ـ ١٥) فلها مواقف رائعة وضيئة في الجهاد، وفي ساحات فاضلة أخرى رضي الله عنها.

أمَّا عائشة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها، فقد ضربتْ بسهمٍ وافرٍ في مجال الجهاد، حيث كان لها الأثر المحمود في غزواتِ الرَّسولﷺ، وكانت أُوْلى مشاهدها في غزوة أُحُد، حيث خرجت تؤدي دورها، فكانت تسقي المجاهدين الماء، ويصحبتها أمّ سُليم بنت ملحان الأنصاريّة رضي الله عنها، بل كان الجيش الإسلامي يوم أحد يصحب أربع عشرة امرأة من خيار الصَّحابيات، بينهن سيّدة نساء العالَمين فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها، وأمُّ أيمن الحبشية، وحمنة بنت جحش[1] رضي الله عنهن وغيرهن.

ولما اشتدَّتِ المعركةُ رؤيتْ عائشة رضي الله عنها، تنقلُ الماء لسقايةِ المجاهدين. روى شاهد عيان وهو أنس بن مالك رضي الله عنه دور النّسوة وعائشة في غزاة أحد فقال: ولقد رأيتُ عائشة بنت أبي بكر وأمّ سُليم، وإنَّهما لمشمّرتان أرى خَدَمَ ـ خِلخَال ـ سوقهما تنقلان القِرَبَ على مُتُونهما، ثمَّ تُفرغانه في أفواههم، ثمَّ ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان، فتفرغانه في أفواه القوم[2].

وانتهتِ المعركةُ، وخرجتْ عائشةُ في نسوةٍ تستروحُ الخبر، فلقِيتْ هندَ بنتَ عمرو بنِ حرام الأنصاريّة[3] أخت عبد الله بن عمرو بن حرام[4] تسوقُ بعيراً لها، عليه زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلّاد بن عمرو بن الجموح، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حرام، فقالت لها عائشة: عندك الخبر، فما وراءك؟ فقالت هند: خيراً، أمّا رسولُ اللهﷺ فصالح، وكلّ مصيبةٍ بعده جلَلَ ـ هينة ـ واتَّخذ الله المؤمنينَ شُهداء.

---

(١) اقرأ سيرة حمنة بنت جحش في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (١/٦٩ ـ ٧٧) ففي سيرتها نفحات طيبة تبهج القلوب وتشير إلى مكانتها في عالم الصحابيات رضي الله عنهن جميعاً.

(٢) الحديثُ صحيح متفقٌ عليه.

(٣) اقرأ سيرة الصَّحابية الجليلة هند بنت عمرو بن حرام الأنصارية في كتابنا: «نساء من عَصْرِ النّبوة» (٢/٥٧ ـ ٦٥) فحياتها حياة عطاء وزهد وبر وإحسان، رضي الله عنها.

(٤) اقرأ سيرة الصّحابي الكريم الشّهيد عبد الله بن عمرو بن حرام في كتابنا «رجال مبشّرون بالجنة» (٢/٦٥ ـ ٩٤) ففي سيرته امتاع للنفوس والأسماع رضي الله عنه.

فقالت لها عائشة: فمَنْ هؤلاء؟
قالت هند: أخي، وابني، وزوجي.
قالت عائشة: فأين تذهبين بهم؟
قالت هند: إلى المدينة أقبرهم بها.

وراحت هندُ تزجرُ بعيرَهَا فبركَ البعيرُ؛ ثم زجرته فقام، ولما وجهتْ به المدينةِ بَرَكَ، وكرَّرتْ مِرَاراً والجمل يبرك، عندئذ وجهته راجعةً إلى أُحُدٍ فأسرعَ، فرجعت بهم إلى النبيِّ ﷺ ليدفنهم مع الشُّهداء. وهناك في أُحُدٍ أخبرها رسولُ الله ﷺ أنَّهم ترافقوا في الجنَّةِ جميعاً(1).

وتابعتْ أمُّ المؤمنينَ عائشة رضي الله عنها رحلة الجهاد، فكانت في عداد المجاهدات في غَزَاةِ الأحزاب، فقد نزلت من الحصن الذي كانت فيه مع النِّساء والأطفال، وتقدَّمَتْ إلى الصُّفوف الأماميّة، واقتحمت حديقة فيها نَفَرٌ من المسلمين، ومعهم عمرُ بنُ الخطاب الذي أنكر جرأتها، واستغرب من إقدامها وقال لها: ما جاء بك؟ والله إنَّك لجريئة، وما يؤمنك أنْ يكونَ بلاء أو يكون تحوّز؟
وما زال يلومها حتى تمنَّتْ أنَّ الأرضَ تنشقّ وتدخل فيها.
وإذ ذاك قال طلحة بنُ عُبيد الله لعمر رضي الله عنهما: يا عمر، ويحك إنَّك قد أكثرتَ منذ اليوم، وأين التّحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى(2).

وعادت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى الحصن في المدينة، حتى أنزل الله عزَّ وجلَّ نَصْرَهُ على المؤمنين، وأرسل جنوداً لم يروْهَا، وتشتَّتْ جموعُ

---

(1) نساء من عصر النّبوة (٢/ ٦٣ و٦٤) بشيء من التّصرف، وانظر السّيرة الحلَبية (٢/ ٢٥٨) والمغازي (١/ ٢٦٥ و٢٦٦).

(2) عن طبقات ابن سعد (٣/ ٤٢٢) بشيء من التصرف، وانظر البداية والنّهاية (٤/ ١٢٣) والحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند، وانظر تاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص٣٢١ و٣٢٢) وتفسير ابن كثير لسورة الأحزاب، وغيرها من المصادر.

الأحزاب، وقَذَفَ الله في قلوبهم الرُّعب، فهاموا على وجوههم، وعادوا من حيث أتوا.

وفي السَّنةِ السَّادسة من الهجرة، خرجتِ القُرعة على عائشةَ رضي الله عنها لتكون في عدادِ الجيشِ المنطلق إلى المُريْسِيع لغزو بني المصطلق، وفي هذه الغزوة المّحصةِ للإيمان، وقعتْ أخطر حادثةٍ أدخلت على كلِّ مسلم ومسلمة من البلاءِ مالم يدخلْ عليه مثله في مِحَنِ الشَّدائد والأزمات التي ابتُليَ بها المسلمون، تلك الحادثة هي دسيسة الإفك التي كشفت عن خسَّةِ وفجور المنافقين ومن خلفهم جموع اليهود الذين تغلي قلوبهم بالحقد على الإسلام، وعلى المسلمين، وعلى رسول الله ﷺ خاصة.

الصِّدِّيْقَةُ ومِحْنَةٌ ومِنْحَةٌ:

إنَّ محنةَ الإفكِ التي اخترعها المنافقون والمرجفون في مصانعهم الهزيلةِ الخاويةِ، قابَلَها المسلمون بِصَبْرٍ جميل، وتجلّدوا لها، واحتملوا لهيبها، ونيران فتنتها، لأنّهم فُوجئوا بها، فلم يعرفوا لها مدخلاً ولا مخرجاً.

أعتقدُ أنَّ المقاديرَ الإلهيّة، والتَّدابير الرَّبانيّة، أرادتْها لتكونَ أبلغَ دَرْسٍ في التَّربية الاجتماعيّة الصَّافية للمجتمع المسلم الذي كان نواتُه البيت النّبويّ الذي باركه الله، فأذهب عنه الرِّجْسَ وطهّره تطهيراً، ولقد بدأتْ تلكَ الحادثةُ بالمحنة، ولكنّها خُتمتْ بالمنحةِ الإلهيّة، وهل هناك كرامة أعظم من المِنَحِ الإلهية؟!

كانت حادثة الإفك أسوأ مَكْر، وأخبث فجور، كَادَ به المنافقونَ المجتمعَ المسلم النَّقيَّ القائم في تركيبهِ على الطَّهارة والتَّطهّر من دَنَسِ الأرجاس المعنويّة والحسيّة، وعلى مَنْ كان التَّقول والافتراء؟! ومن هي تلك التي قيل عنها ما قيل؟!!

هي بنتُ الصِّدِّيق الأكبر الذي لم يوصمْ بيتهُ بوصمةٍ لا أَثَرَ لها في الجاهلية، حتى يُوصم بهذه الوصمةِ في الإسلام! ومع نبيِّ الإسلام! وفي بيت الإسلام!!

الله أكبرُ. الله أكبر، أَلا مَا أعظمَ تلك الفِرية التي اختلقها المنافقون!

وخَلَّفَها المرجفون في المجتمع المسلم الطَّاهر، لا، بل في البيت النّبويّ الطّاهر، ذلك البيت العظيم الكريم، الذي أذهَب الله عنه الرجسَ وطهّره تطهيراً.

ولنا وِقْفَاتٌ مضيئةٌ وضيئةٌ، مع القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ، ولا مِنْ خلفه، وكذلك لنا وقْفاتٌ كاشفةٌ مع الحديث النّبويّ الشّريف الذي خَصَّ الصِّدِّيقةَ بنتَ الصِّدِّيقِ بالمكرُمَاتِ من قبل حديث الإفك، ومن بعده.

فلنرهفِ السَّمْعَ والأحاسيس، ولنقف وقْفَةَ إعظامٍ وإكبار أمام كلام العليم الخبير الذي فَضَحَ شراذمة المنافقين، وأذاب شخصيّتهم من المجتمع الطَّاهر في عَصْرِ النُّبوة، كيما يكون المجتمع خالصاً نقيّاً ندياً يفوحُ برائحةِ الطّهر والطَّهارة.

الصِّدِّيقَةُ وحَسَدُ الحُسَّاد:

كان المسلمون بقيادة الحبيبِ الأعظم محمّدﷺ قد أَنْهَوا معركة بني المُصطلق(١) بنصرٍ مَكينٍ على جموع المُصطلقين، وكانت انتصارات رسول اللهﷺ تفعمُ قلوبَ المنافقين حنقاً وغيظاً، وتشحنُ نفوسهم كمداً وهمّاً، وتعترضُ في حلاقيمهم غصَّة مرّة تكاد تكتمُ منهم الأنفاس، فلا يتنفَّسون إلا مِنْ وراء أستارِ الظَّلام، لكونهم لا يملكون الشَّجاعة التي يفقدونها في كلِّ المواقف، وخصوصاً في ميادينِ القتال؛ فهم فَجَرَةٌ جاحدون إذا خَلَوُا إلى شياطينهم من فجّار اليهودِ، وهم مسلمون ـ بزعمهم ـ إذا رأوا نجاحَ المسلمين، ولكن كانوا كما ذكَرَ الله عزَّ وجلَّ في الذِّكْرِ الحكيم: **﴿ويحلفُون بالله إنّهم لمنكم وما هم منكم ولكنّهم قوم يفرقون﴾** [التوبة: ٥٦].

وأتى القرآن الكريم بأدقِّ التَّفاصيل لوصْفِ هؤلاء المنافقين فقال: **﴿لو يجدونَ ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولّوا إليه وهم يجمحون﴾** [التوبة: ٥٧].

كان زعيمُ المرجفين، وكبير كُبَّار المنافقين، وفاجر فجّار الأفّاكين عبد الله بن

---

(١) اقرأ أخبار الغزوة بتوسع في سيرة أم المؤمنين جويرية بنت الحارث من هذا الكتاب.

أُبيّ ابن سَلول[1] الذي اختلق تلك الحادثة الأليمة، حادثة التَّقوُّل بالكذبِ والباطل، والافتراء المختلق في مصانع الفجور والنِّفاق، على أطهر الطَّاهرات المطَّهرات ـ بنصِّ القرآن والحديث ـ الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما، حبيبة الحبيب، سيِّد البشر محمّدﷺ، أمّ المؤمنين عائشة رضوان الله عليها وعلى أبويها.

قلنا: كان الذي تولّى كِبْر هذا الإفك والبُهتان وأشاعه، واستوشاه، هو الخبيثُ الفاجر، رأس النِّفاق، وزعيمُ المنافقين عبد الله بن أُبيّ ابن سلول ـ قبحه الله وأخزاه ـ وجاراه في ذلك بعض مَنِ استَنْزَلَهُم الشَّيطانُ وسوّل لهم، وأملى لهم، فاستحوذَ على مكامن الإيمان من أنفسهم فغطّاها بظلامِ ضلالاته، وكادت تكونُ فتنة قاسمة لظهر المجتمع المسلم لولا فَضْلُ الله ورحمته.

الصِّدِّيقَةُ وشِدَّةُ بَلاءِ الإفْكِ:

في حادثةِ الإفك كادت تكون فتنة عمياء، فقد أصابتِ المسلمين بهزةٍ عنيفةٍ زلزلت كيانهم، ولم يكنِ النَّاسُ فيها سواسية، ولكنّهم كانوا مختلفين في آرائهم تجاه حادثة الافتراء والظُّلم.

فقد سكت بعضهم، فلم يَدْرِ من شدّةِ الدَّهش والذُّهول ما يقول، وأفصح بعضهم بعظيمةِ العظائم، وقبيحة القبائح، وكعَّ أناسٌ عن الإفصاح بالحقِّ في تنزيهِ حليلةِ النّبيِّﷺ الطَّاهرة المطهّرة عائشة رضي الله عنها. وأنزل الله عزَّ وجلَّ عقابه على مَنْ جَبُنَ وسكتَ ولم يدفعِ الإفكَ والبُهتان عن ساحة الطُّهر والكمال، السَّاحة النَّبويَّة البَكْريّة، وادَّخر للمنافقين الذين صرحوا وكذبوا جهنم كلّما خَبَتْ زادها سعيراً وتوقّداً.

أجل لقد كان في هذا الحَدثِ الجلَل، من خَطَرِ الحديث وشدَّة البَلاءِ،

---

(١) اقرأ أخبار سيرة هذا الفاجر الأفاك عبد الله بن أبيّ ابن سلول في كتابنا «المبشرون بالنار» الجزء الثاني، ولاحظ مواقفه المخزية ضد الإسلام والمسلمين والبيت النبوي والبكري.

لرسول الله ﷺ ما لم يعلم مداه إلا العليم الخبير، ولكنَّ رسولَ الله ﷺ كان إمام الصَّابرين، صبر أجمل الصَّبر، وعالج الأَمْر بحكمة هادئة، فقد كان همّه أنْ يقيَ المجتمع المسلم من عواصفِ الفتن، وهزّات المحن، وقواصم المكائد النِّفاقية المنبثقة عن بعض الرَّواسب الجاهلية.

كان هذا الحدثُ الخطير، والحادثة اللئيمة لأمِّ المؤمنين رضي الله عنها، زوجة سيّد الخَلْقِ، وأحبّ النَّاس إليه، وأبويها وآلها، وخاصة المسلمين ما أقضَّ مضاجعهم، ونشَّفَ الدَّمْعَ في مآقيهم، وخصوصاً عائشة رضي الله عنها، حتى مَنَّ الله عليها وعلى المؤمنين، فكشفَ الغمَّة، وفرَّجَ الكربة، وأنزل وَحْيَه بالقرآنِ المجيد على رسوله الكريم محمّد ﷺ بما لم يكن أحدٍ في الحسبان، حيث كان يُظَنُّ أنْ يَرَى الرَّسولُ ﷺ رؤيا منامية في تبرئةِ أطْهَرِ الطَّاهرات، وأفْقَه الفقيهات، أمّ المؤمنين الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما.

لكنَّ الله عزَّ وجلَّ أراد أنْ يجعلَ منها خصِّيصة ليرفع من شأن عائشة رضي الله عنها إظهاراً لشرفها الذَّاتي والاجتماعي، وإنافة لمكانتها في أهل البيتِ طهراً وفضلاً وشرفاً، وثقلاً في ميزان الفَضَائل والمكارمِ الإنسانية والإيمانيّة لمكانتها من قَلْبِ رسول الله ﷺ.

في الفِقْرات التَّالية نشهد الحَدَث كاملاً، تَرْويه لنا أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأسلوبها المُشرق الأدبيّ الرَّصين الذي يُعتبر بحقٍّ قطعة أدبية فريدة في عالم الحديث.

الصِّدِّيقَةُ وبدَايَةُ المَوْقِفِ:

في هذه الفقرة تصوِّر لنا أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بداية الموقف الذي ألمَّ بالبيتِ النَّبويِّ الطَّاهر المطهَّر.

ذكرت عائشة رضي الله عنها من حديثها الطَّويل عند الإمامِ البخاري ـ رحمه الله ـ في الصَّحيح فقالت:

فقدمنا المدينة فاشتكيتُ حين قدمتُ شهراً، والنَّاس يفيضون في قول

أصحابِ الإفك، لا أشعر بشيءٍ منْ ذلك، وكان الذي يُريبني في وجعي أنِّي لا أعرفُ من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنَّما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ ثم يقول: «كيف تِيْكم»؟ ثم ينصرفُ، فذلك يريبني ولا أشعر بالشرِّ[1].

وتتابع امُّ المؤمنين عائشة رواية تفاصيل الحادثة فتقول: فأخبرتني أمّ مسطح بقول أَهْلِ الإفك[2]، فازددتُ مرضاً على مرضي، فبكيتُ يومي ذلك كلّه، لا يرقأُ لي دمع ولا أكتحلُ بنومٍ، وأصبح أبواي عندي وقد بكيتُ ليلتين ويوماً، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحلُ بنومٍ، حتى إنِّي لأظنُّ أنَّ البكاء فالق كبدي.

فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي دخل رسول الله ﷺ علينا فسلَّمَ، ثمَّ جلس، ولم يجلس عندي منذ قيلَ ما قيل، وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه في شأني شيء.

فتشهَّد رسولُ الله ﷺ حين جلس، ثم قال: يا عائشة؛ إنَّه بلغني عنك كذا

---

(١) وقد ورد الحديث في كتب السنة وفي التفاسير وكتب التاريخ والطبقات والسيرة والتراجم وغيرها.

(٢) لقد سمّى الله عزَّ وجلَّ في كتابه الحكيم هذا الافتراء «الإفك» فقال تعالى: ﴿إنَّ الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾ [النور: ١١].

والإفكُ أبلغُ مِنَ الكذب، وأرذل الافتراء، وألأم الاختلاق، كما سمّاه عزَّ وجلَّ بهتاناً، وهو يعاتبُ المؤمنين في سكوتهم لحظة سماعهم بدافع إيمانهم بطهارة ساحة النّبيّ ﷺ، أنْ تكون في عصمته مَنْ تحومُ حولها أدنى الشُّبهات، وبدافع إيمانهم بطهارة ذيل من اصطفاها الله تعالى زوجاً لخير الخلق، فكانت بهذا الاصطفاء أمّاً للمؤمنين، وسيدة نساء العالمين فضلاً وشرفاً ونبلاً وطهراً وعلماً وأدباً وخلقاً بقوله تعالى:
﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾[النور: ١٢] وبقوله تعالى: **﴿لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلّم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم﴾** [النور: ١٦] والبهتان هو البلاء الذي لا يشعر به الإنسان حتى يفجأه بوقوعه.

وكذا، فإنْ كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ، ثمَّ تاب، تاب الله عليه. . .

فلّما قضى رسول اللهﷺ مقالته قلصَ دمعي حتى ماأحسُّ منه قطرة، فقلتُ لأبي: أجبْ عني رسولَ اللهﷺ فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول اللهﷺ، فقلتُ لأمي: أجيبي عني رسول اللهﷺ فيما قال، قالت أمّي: فوالله ما أدري ما أقول لرسول اللهﷺ.

الصِّدِّيْقَةُ وشَهَادةُ البَراءَةِ وبدَايَةُ الفَرَجِ:

حزَّ الحزنُ في نَفْسِ الصِّدِّيقة عائشة رضي الله عنها خطوطاً، ولكنَّها بعد إذ رأتْ أنَّ أبويها عجزا عن الكلام أمام الحضرةِ النّبويّة، ولم يتكلمْ أيّ واحدٍ منهما بكلمة، وهي الأثيرةُ عندهم جميعاً، هنالك فوَّضتْ أمرها للعليمِ الخبير كيما يحلّ ما حلَّ بها وبالبيت النّبويّ، والبيتِ البكريّ، ولنستمعِ الآن إلى بقية الحديث الشّائق، ونحنُ نرقب الفرج القريب مع أمِّ المؤمنين رضي الله عنها.

قالت عائشةُ رضي الله عنها تروي حديث البراءة: فقلت وأنا جارية حديثة السِّنِّ، لا أقرأُ منَ القرآن كثيراً:

إنّي والله لقد علمتُ لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم وصدَّقْتُم به، فلئن قلتُ: إنّي بريئةً لا تصدقوني، ولئن اعترفتُ لكم بأَمْرٍ ـ والله يعلم إنّي منه بريئة ـ لتصدقُنّي، فوالله لا أجدُ لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبرٌ جَميلٌ والله المُستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ١٨]. ثم تحوّلْتُ فاضطجعتُ على فراشي، والله يعلم أنّي حينئذ بريئة، وأنَّ الله مبرِّئي ببرائي، ولكن والله ما كنتُ أظنُّ أنَّ الله تعالى منزّلٌ في شأني وحياً يُتلى، لَشَأْني في نفسي، كان أحقر من أنْ يتكلَّمَ الله فيّ بأَمْرٍ[1]، ولكنْ كنتُ أرجو أنْ يرى رسول اللهﷺ في

---

(١) من التعليقاتِ اللطيفة، في الكلام عن هذه الفقرة، وما يجلو الأفهام ما أورده ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في كتابه اللطيف «جلاء الأفهام» حيث أجادَ وأفهم، وأصاب كبِدَ الحقيقة، ووضع النّقاط على الحروف، ونبّه المغرورين كي لا ينزلقوا في متاهات ومهاوي

النَّومِ رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسولُ اللهﷺ مجلسه، ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتى أنزلَ عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء حتى إنَّه ليتحدر منه العرق مثل الجُمان - وهو في يوم شاتٍ - من ثقل القول الذي أنزل عليه، فسرّي عن رسولِ اللهﷺ وهو يضحك، فكانت أوّل كلمة تكلّمَ بها أنْ قال: «يا عائشة، أمّا الله فقد برّأكِ».

فقالت أمّي: قومي إليه،

فقلتُ: لا والله، لا أقوم إليه، فإنّي لا أَحْمَدُ إلا الله عزَّ وجلَّ.

= الرّدى، ومزالق شيطان الغرور، فقال:

وتأمّل هذا التّشريف والإكرام النّاشىء عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها - يعني عائشة - حيث قالت: ولَشَأني في نفسي كان أحقر من أنْ يتكلّمَ الله فيّ بوحيٍّ يُتلى، ولكنْ كنتُ أرجو أنْ يرى رسول اللهﷺ رؤيا يبرئني الله بها.

فهذه صِدّيقة الأمّة، وأمّ المؤمنين، وحِبُّ رسول اللهﷺ، وهي تعلم أنَّها بريئةٌ مظلومةٌ، وأنَّ قاذفيها ظالمون لها، مفترون عليها، قد بَلغَ أذاهم إلى أبويها وإلى رسول اللهﷺ، وهذا كان احتقارها لنفسها، وتصغيرها لشأنها، فما ظنّك بمَنْ صام يوماً أو يومين أو شهراً أو شهرين، وقام ليلة أو ليلتين، وظهر عليه شيءٌ من الأحوال، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات والمكاشفات والمخاطبات والمنازلات، وإجابة الدّعوات، وأنّهم ممن يُتبرّك بلقائهم، ويُغتنمُ صَالحُ دعائهم، وأنّهم يجبُ على النّاس احترامهم وتعظيمهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم، فيُتمسحُ بأثوابهم، ويقبّلُ ثرى أعتابهم، وأنَّهم منَ الله بالمكانة التي ينتقمُ لهم لأجلها ممن تنقّصهم في الحال، وأنْ يُؤخذ ممن أساء الأدب عليهم من غير إمهال، وأنَّ الإساءة عليهم ذنبٌ لا يكفّره شيءٌ إلا رضاهم، ولو كان من وراء كفاية لهان، ولكن من وراء تخلّفٍ، وهذه الحماقات والرّعونات نتائج الجهل الصّميم، والعقل غير المستقيم، فإنَّ ذلك إنَّما يصدر من جاهل معجب بنفسه، غافل عن جرمه وذنوبه، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والإزراء على مَنْ لعله عند الله خير منه.

نسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة، وينبغي للعبد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيماً، وهو عند الله حقير. (جلاء الأفهام ص١٨٣ و١٨٤).

وأنزل الله تعالى: ﴿إنَّ الذين جاؤوا بالإفك[1] عصبة منكم﴾ العشر الآيات، ثم أنزل. الله تعالى في هذا براءتي[2]..

---

(١) كشفَ الإمامُ الزمخشريّ ـ رحمه الله ـ في كشّافهِ بتفسيره لهذه الآيات من سورة النّور، ما ينمُّ عن عبقريته وفنه في التّفسير، وكذلك رُقيّه منزلةً رفيعةً منْ منازل البلاغة والبيان لم يَرْقَها أحد. . . فقال:

ولو فَلّيتَ القرآن كلّه، وفتشتَ عمّا أوعد به العصاة، لم تَرَ الله تعالى قد غَلَّظَ في شيءٍ تغليظه في إفكِ عائشة رضوان الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشّديد، والعقاب البليغ، والزّجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طُرقٍ مختلفة، وأساليب مفتنة، كلّ واحد منها كاف في بابه.

ولو لم ينزل إلا هذه الثّلاث لكفى بها، حيث جعل القَذَفَة ملعونين في الدّارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم بالآخرة، وبأنَّ ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهدُ عليهم بما أنكوا وبهتوا، وأنّه يوفيهم جزاءهم الحقّ الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك ﴿أنَّ الله هو الحقّ المبين﴾ فأوجز في ذلك وأشبع، وفصّل وأجمل، وأكدّ وكرر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان، إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر. . .

(الكشاف تفسير سورة النور ٦٧/٣ وما بعدها).

(٢) انظر: فتح الباري (٤٩٦/٧ ـ ٤٩٩) حديث رقم (٤١٤١). وأخرجه البخاري أيضاً في مواضع صحيحه الجامع، فمثلاً: في الشّهادات: باب تعديل النّساء بعضهن بعضاً؛ وفي تفسير سورة النور: باب «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات» برقم (٤٧٥٠) وقد توسّع الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في شرحه هنا، واستوفى جميع رواياته وإشكالاته، وقد استغرق قرابة (٣٣ صفحة) انظر فتح الباري (٣٠٦/٨ ـ ٣٣٩).

وأخرجه مسلم في التّوبة برقم (٢٧٧٠) باب حديث الإفك وقبول توبة القاذف. وأحمد في المسند (١٩٤/٦ ـ ١٩٦) والتّرمذي في التفسير، من سورة النّور. انظر تحفة الأحوذيّ (٢٩/٩ ـ ٣٦) حديث رقم (٣٢٣٠) وعبد الرّزاق في المصنف (٩٧٤٨).

وانظر المصادر التّالية: الكشّاف (٦٧/٣) والدّر المنثور للسّيوطي (١٤٠/٦) وتفسير الطّبري (٨٦/١٨ ـ ٩٥) والتّفسير الكبير للرازي (١٥٠/٢٣ ـ ١٥٤) وانظر تفسير الماورديّ والقرطبيّ وابن كثير والبغويّ والخازن والقاسميّ لسورة النّور، وانظر: السّيرة النّبويّة (٢٩٧/٢ ـ ٣٠٧) وزاد المعاد (١٦١/١) وأسباب النّزول للواحدي (ص٢٦٥)

وهكذا أنزل الله عزَّ وجلَّ فَرَجه، وأزاح الهم عن قلب البيت النّبويّ، والبكريّ، وكلّ بيوت المؤمنين(1) الذين أهمهم هذا الأمر الذي ينضحُ بخبث المنافقين وفجورهم، ولؤم نحيزتهم.

= والبداية والنّهاية (٣/١٦٠ ـ ١٦٣) والفصول (ص٣٣٥) وسير أعلام النبلاء (٢/١٥٣ ـ ١٥٩) ونساء مبشّرات بالجنّة (١/١٣٨ ـ ١٤٢) و(٢/٢٣ ـ ٢٨) وأزواج النبي للصالحيّ (ص١١٠ ـ ١١٨) والسّمط الثّمين (ص٧٣ ـ ٧٨) وصفة الصّفوة (٢/٢١ ـ ٢٩) والمغازي النّبوية للزهري (ص١١٦ ـ ١١٨) وغيرها من المصادر التي لا يتسعُ المقام لذكرها واستيفائها.

(١) يحضرني في هذا الموقف، ما جرى بين سيّدنا أبي أيوب الأنصاريّ، وزوجه أمّ أيوب رضي الله عنهما، إذ دخَلَ عليها وهو في ضيقٍ من حديث الإفك فقال لها في حزن عميق: يا أمّ أيوب، ألا تَريْن ما يُقال؟ فقالت أمّ أيوب: لو كنتَ بدل صفوان بن المعطل السُّلميّ، أكنتَ تهمُّ بسوءٍ لمحرم رسول الله ﷺ؟
قال أبو أيوب في تعجّب شديد وإنكار أشدّ: لا، معاذ الله أنْ أفكر بذلك!
قالت أمّ أيوب ورحيقُ الإيمانِ يقطرُ من كلامها: ولو كنتُ أنا بدل عائشة ما خُنْتُ رسول الله ﷺ فعائشة ـ والله ـ خير مني، وصفوان خير منك.

أرأيتَ عزيزي القارىء هذا الموقف الوضيءَ المبارك الذي جرى بين هذين الزّوجين الكريمين، إنَّ هذا فضل انفرد به هذان الزّوجان الكريمان، فتفضّل الله عليهما. وللمزيدِ من سيرة وأخبار الصّحابية أمّ أيوب الأنصارية، راجع كتابنا «نساء من عصر النّبوّة» (٢/٣٧ ـ ٤٨) فسيرتها سَيْلٌ من سلسبيل مكارم الأخلاق الحميدة والمواقف اللطيفة رضي الله عنها وعن زوجها.
أقول: وقد ظلّتْ هذه المكرمة العطرة مرتبطة بأمّنا عائشة إلى ما بعد تلك الحادثة بزمن طويل، وظلت مكانتها ومكرمتها في وجدان الصّحابة الكرام تصاحبهم أينما حلّوا؛ من ذلك ما ورد في هذا المجال، بأنَّ رجلاً نال من عائشة رضي الله عنها عند سيّدنا عمار بن ياسر رضي الله عنه، فردَّ عليه عمّار بشدّةٍ وحَزْمٍ وقال له: أُغربْ مقبوحاً منبوحاً، أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ، ثمّ قال: هي زوجته في الدُّنيا والآخرة. (الترمذي في المناقب (٣٩٧٥) وابن سعد (٨/٦٥) والحلية (٢/٤٤).

ومن الخير أن تقال كلمة الخير في كل الخير، والخير هنا؛ أن نشير إلى أن براءة أمنا عائشة رضي الله عنها واضحة ومفهومة بالبَداهة لدى كلِّ منصف، يفهم أنَّ امرأة

إنَّ المتأمل في آيات سورة النُّور: [١١ ـ ٢٠] وفي ضوء ما روته أمّنا عائشة رضي الله عنها في رواية الصَّحيح، يجد أنَّها جاءتْ بأكفأ، وأجودِ الحفاوة والتَّشريف والمنافحةِ، عن حرمِ رسول اللهﷺ، وتنزيه ساحتها، وتعزية المجتمع المسلم وتسلية رسول اللهﷺ فيما أصابه من البلاء، وشدّة المحْنَة، وفيما جاء به أعداء الله، وأعداء رسوله، وأعداء أهله الذين أذهب الله عنهم الرِّجسَ وطهّرهم تطهيراً، وكذلك أعداء دِينه من المنافقين، ومرضى القلوب الحاسدين المرجفين، كلّ هذا تعظيماً لقَدْرِ الحبيب المصطفىﷺ، وصونا لساحته أنْ يكونَ متنزلاً للبُهتان المفترى، وإعزازاً لأحبِّ النَّاس إليه، أنْ يحومَ حول حمى شرفها وطهرها رشْحٌ من نزيزِ الحاقدين الفجرة الكفرة.

وسأعرضُ عليك ـ أيّها القارىء الكريم ـ نموذجاً من رشح أولئك الحاقدين كيما تكتمل الصُّورة، ويتمّ التّصور عن نظرة هؤلاء الذين أعمى الحقد قلوبهم وبصائرهم.

ففي العَصْر الحديث، شَغَل حديث الإفك المستشرقين، فصاغوه في رواياتٍ شتى نوردُ منها ـ ها هنا، وعلى سبيل المثال ـ رواية المستشرق الألماني «بروكلمان» صاحب كتاب؛ «تاريخ الشّعوب الإسلامية» وإليك نصّ تعريبه:

. . . . . . ـ وقام النَّبيُّ خلالَ سنة (٦٢٧م) أيضاً بحملات عدّة، على بعضِ القبائل البَدويّة، ولقد أَبْعَدَ في إحداها، حتى لقاربَ مكة، وكانت هذه الغَزَوات آمنة إلى حَدٍّ ساعده على أنْ يصطحبَ فيها اثنتين مِنْ أزواجه، فاتّفق مرَّة، أنْ أضاعت زوجه المفضّلة عائشة بنت أبي بكر ـ وكانت آنذاك في الرَّابعة عشرة من عمرها ـ قلادتها، فخرجتْ تبحثُ عنها مساء، ففاتتها قوافل الغُزاة، ولم تَعُدْ إلى

= كعائشة، لا تعرضُ نفسها لهذه الرّيبة أمام جيش، وفي وضح النهار، ولغير ضرورة، مع رجل من المسلمين، يتّقي ما يتقيه المسلم في هذا المقام، من غَضَب الله، وغَضَب النّبيّ، وغضب المسلمين، فتلك خلّة تترفعُ عنها مَنْ هي أقلّ من عائشة منبتاً ومنزلة وخلقاً وأنفة، فكيف بها في مكانها المعلوم؟ وقد لاحظنا موقف أمّ أيوب وزوجها، وموقف عمار بن ياسر في الدفاع عن أمّ المؤمنين عائشة الصّدّيقة بنت الصّدّيق رضي الله عنهم جميعاً.

المعسكر إلا في اليوم التّالي، وبرفقتها شابٌ كانت قد عَرَفَتْه مِنْ قبل، وتطرّق الشّك في إخلاصِ عائشة إلى نَفْسِ النّبيِّ، فردَّها إلى بيتِ أبويها، ولكنَّ الله لمْ يلبثْ أنْ برَّأها بعد شهرٍ واحدٍ في إحدى الآيات المُوحاة إلى النّبيِّ، مُضيفاً في الوقتِ نفسه أنَّ أيّ اتهام لامرأةٍ بالخيانة الزّوجيّةِ، لا يُؤيده أربعة شهود عيان، يُعتبر فِرية، أو قذفاً يستحقُّ عليه صاحبه مئة جلدة.

وكانَ عليٌّ صهر النّبيّ أَحَدَ خصوم عائشة الذين ألحُّوا عليه في طلاقها، وليس منْ شكٍّ في أنَّ جذورَ العَدَاء الذي تكشَّفَتْ عنه عائشة لعليّ بعد أنِ استُخلف على المسلمين ترجعُ إلى هذه الحِقْبَة، ومهما يكن من شيءٍ، فلم يكن لحادثة العِقْد هذه أدنى تأثير على وضع المرأة الاجتماعي في الإسلام كما يُظن: فالحجاب الذي تصطنعه النِّساء المتزوِّجات كان عادة عربيّة قديمة، وكان النّبيُّ قد فَرَضَهُ، قبل هذه الحادثة لأسباب أخرى، والواقع أن الحجابَ لم يحلْ بين النِّساء في الجاهليّة، وفي الإسلام أيضاً حتى عَهْدِ الأمويين، وبين الظّهور في النّاس في كثير منَ الحريّة والتّأثير في المجتمع العربيّ تأثيراً مذكوراً في بَعْضِ الأحيان، إنَّ مؤسسة الحريم التي وضع قواعدها العبّاسيون على غرار النّموذج المسيحيّ ـ البيزنطي، هي وحدها المسؤولة عن انحطاط المرأة في الشّرق.

لاحظ معي-عزيزي القارىء ـ رواية بروكلمان هذه، بما فيها من دسِّ السّموم ونفث الحقد، وبثّ الشّكِّ وبَذْرِهِ في النُّفوس؛ ولاحظِ الخللَ والخطأ والتّحامل الخفيّ الذي يحاول بروكلمان بخبثه إخفاءه، ويأبى إلا أنْ يظهرَ في أسلوبه، من ذلك قوله: فردَّها إلى بيتِ أبويها، وقوله: عليٌّ صِهْرُ النّبيّ أَحَد خصوم عائشة، وما شابه ذلك. ولكنَّ الله عزَ وجلَ يردُ كيد الخائنين إلى نحورهم، ويجلّلهم بالخزيِ والعَار، ويأبى الله إلا أَنْ يتمَّ نوره ولو كره المشركون . .

إنَّ تلك الرِّواية الاستشراقية وأمثالها، لا تضيرُ في رصيد أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، بل تجعل المنصف يبحث عن الحقيقة والحقائق في مكامنها حتى يصلَ إلى الغاية المنشودة.

الصِّدِّيقةُ ووقْفَةُ تَأَمّلٍ مَعَ الصَّبْرِ:

عندما يقفُ الإنسانُ يتدبّرُ معاني الآيات الكريمة التي برَّأتْ عائشة رضي الله عنها، تجولُ في خاطره تلك السَّاعات التي مرَّ بها البيتُ النّبويُّ، والبيتُ البَكْريُّ، وكيف تلقّى النَّبيُّ ﷺ هذا الخبر، وكيف صَبَر رسول الله ﷺ وآل أبي بكر تحت وطأة بلاء حديث الإفك؟!!

نعم لقد آذى رسول الله ﷺ ما بلغه عن عائشة أطهرِ الصَّادقات وأصدقِ الطّاهرات، مَنْ أحبَّها مع أبيها حبّاً يفوق تصوّر المتصوِّرين، فهو لا يعلمُ عن زوجه عائشة إلا خيراً، ولكنْ ما بال النَّاس يتقوَّلون عليها؟

لقد لبثَ رسول الله ﷺ تحت وطأة بلاء هذه المحنة القاسية صابراً صَبْراً لم يعرفْ في تاريخ النَّوازل والبلايا والخطوب لأحدٍ من قبله، ولا لأحدٍ من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد سبع وثلاثين ليلة من بداية المحنة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، بعد ظفره ببني المُصطلق، تحدَّثَ به أهل النِّفاق ومرضى القلوب، ولاكَتْه ألسنتهم وهم يعلمون أنّهم كاذبونَ مفترون، يحسبونه هيّنا وهو عند الله عظيمٌ.

وما بالك بحالِ آل أبي بكر؟!

لم يكن حالهم أقلّ حزناً من حُزْنِ رسول الله ﷺ، فإنّهم منذُ بلَغَهم الإفك، وما تحدَّث به المنافقون وأتباعهم، وهم يرزحون تحت فجيعة هذا البلاء العاصف، لا يدرون ما يقولون، ولا ما يفعلون، تلاحقهم النَّظرات المتنوِّعة من كلِّ مكان، وفي كلِّ مكان.

ولكَ أنْ تتخيلَ تلك اللّحظات الحرجة، بل السَّاعات والأيام التي قضوها، وهم يعيشون مَرَارة المحنة، ولكنّهم استسلموا لقضاءِ العزيزِ الحميدِ الذي له ملك السَّماوات والأرض، منتظرين حكمه بكشْفِ الغمَّةِ التي أحاطت أثقالها بأكنافهم، وكان أمْرُ النّبيِّ ﷺ أَهَمَّ لديهم من أمْرِ أنفسهم.

وصفتْ أمُّ المؤمنين عائشة حالَها، وحالَ أبويها في أحرج لحظات البلاء التي

أذابت فيهم عناصر الحركة النّفسيّة والفكريّة، تقولُ عائشة: والله ما أعلم أهل بيتٍ دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام.

في تلك اللّحظات الحرجة، وعند نزول الوحيّ على رسول الله ﷺ، وصفت أمُّ المؤمنين حالها وما نزل بها حين نزول الوحيّ فقالت:

فأمّا أنا حين رأيتُ من ذلك مارأيتُ، فوالله ما فزعتُ ولا بالَيْتُ، قد عرفتُ أنّي بريئةٌ، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ غيرُ ظالمي، وأمّا أبواي فوالذي نفس عائشة بيده، ما سرّيَ عن رسول الله ﷺ حتى رأيتُ لتخرجنَّ أنفسهما فَرَقاً من أنْ يأتي تحقيقُ ما قال النَّاس. . .

لكنَّ الوحيَ حسم كلّ ذلك بشهادة الطُّهر والبراءة لعائشة رضي الله عنها، وأنزل الله عزَّ وجلَّ في شَأْنِ قصَّة الإفك، وشأن المتكلّمين فيه بالباطل والكذب، وتبرئة الصِّدِّيقة عائشة رضي الله عنها والثَّناء عليها ـ وذكر ما أعدَّه الله لها من عظيم الثَّواب في الآخرة، ونقاء السِّيرة والسَّريرة في الدُّنيا، وعلو الدَّرجة في المجتمع المسلم أينما كانت أجياله وأوطانه ـ قُرآنا(1) يتلى، ويُتَعبَّد بتلاوته وتشريعاته، ويصلّى به، آيات محكمات، ملزماً لكلّ مؤمن ومؤمنة بما جاء به من هداية وأحكام إلى يومِ القيامة؛ وذلك في نحو ست عشرة آية من صدر سورة النُّور، تبدأ بقوله تعالى: ﴿**إنَّ الذينَ جاؤوا بالإفكِ عصبةٌ منكم**﴾. . وتختم بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**أولئك مبرّؤن مما يقولون لهم مغفرةٌ وَرِزقٌ كريم**﴾[النور: ١٠ـ ٢٦].

قال الزَّمخشريُّ ـ رحمه الله ـ: كلُّ آيةٍ منها مستقلة بما هو تعظيم لشَأْن رسول الله ﷺ، وتسلية له، وتنزيه لأمّ المؤمنين رضي الله عنها، وتطهيرٌ لَأهْلِ البيت، وتهويل لمن تكلّم في ذلك أو سمع به، فلم تمجّه أذناه. . .

---

(١) قال عروة بن الزّبير وهو من جلّة فقهاء العلماء وابن أخت أمّ المؤمنين عائشة وأحد سَادة التّابعين: لو لم يكن لعائشة من الفضائل إلا قصة الإفك لكفى بها فضلاً، وعلو مجد، فإنّها نزل فيها من القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة (نساء مبشّرات بالجنّة ٢/٣٢).

ومن ثمرات الصَّبر في تلك الحادثة، أنَّ الله عزَّ وجلَّ أخبر بأنَّ ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لعائشة رضي الله عنها، ولم يكن ذلك الذي قيل شراً لها، ولا خافضاً من شأنها، بل رفعها الله بذلك، وأعلى قَدْرها، وأعظم شَأْنها وكرامتها[1]، وصار لها ذكراً بالطِّيب والبراءة بين أهل الأرض والسَّماء، فيا لها من منقبة ما أجلّها وما أعظمها[2]!!

الصِّدِّيقَةُ وخَصَائِصُ مُمَيِّزَةٍ:

في حياةِ أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها خصائص كريمة تستحقُّ الوقوف، هذه الخصائص الشَّريفة مميزة في حياتها مع رسول الله ﷺ وقد تفرَّدتْ بها في عالَم النِّساء، ورقت إلى ذَروةِ المعالي في البيت النَّبويّ، ومَنْ يقتعد تلك المنزلة فحقّ له أنْ يفخر!.

وقد أبانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أبلغ بيان، بأروعِ أسلوب إذ تحدثت عن نفسها بعد أنْ برَّأها الله وأكرمها بشهادة زاكية زكية في القرآن المجيد

---

(١) إنَّ كرامة سيرة عائشة وصيانة اسمها ـ واسم كلّ مسلمة ـ فذلك ما لا نحسبُ شريعة من الشَّرائع حاطتها بمثل حياطة الإسلام لها، وحسبك أنَّ الله عزَّ وجلَّ اشتدّ في كتابه الكريم على قاذفي النِّساء في أعراضهن بأشدّ مما اشتدّ به على القَتَلةِ، وقطاع الطريق، قال عزَّ شأنه: ﴿**والذين يرمون المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين** جلده **ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون**﴾ [النور: ٤]. فجعل سبحانه للقاذف عقوبة ثمانين جلدة، ثم دعم هذه العقوبة بأخرى أشدّ وأخزى، وهي اتهامه أبد الدّهر في ذمته، واطراح شهادته، فلا تقبل له شهادة أبداً، ثم وسَمه بعد ذلك بسمة هي شرّ الثّلاثة جميعاً، وهي سمة الفسق ووصمة الفجور، لم يكن كلّ ذلك عقاب أولئك الأئمة الجناة، فقد عاود الله أمرهم بعد ذلك بما هو أشدّ وأهول من تمزيق ألسنتهم، فقال عزّ وجلّ: ﴿**إنَّ الذين يرمون المحصنات الغَافلات المؤمنات لُعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم. يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يومئذ يوفيهم الله دينهم الحقّ ويعلمون أن الله هو الحق المبين**﴾ [النور: ٢٣ ـ ٢٥] هذا وإن في حديث الإفك، وما أفاض الله في شأنه لموعظة وذكرى لقوم يعقلون.

(٢) انظر: جلاء الأفهام (ص١٨٣) بتصرف يسير جداً.

الذي أنزله الله عزَّ وجلَّ، وتكفَّل بحفظه إلى ما شاء سبحانه.

في جلسةٍ نديةٍ مباركة أفصحتْ عائشة عمّا تفردت به عن غيرها من النِّساء، قالت:

لقد أُعطيتُ تسعاً ما أعطيتهن امرأة:

لقد نزلَ جبريلُ عليه السَّلام بصورتي في راحتهِ حين أُمر رسول الله ﷺ أنْ يتزوّجني.

ولقد تزوّجني بِكْراً وما تزوج بكراً غيري.

ولقد تُوفي رسول الله ﷺ وإنَّ رأسه لفي حجري.

ولقد قُبر في بيتي.

ولقد حفَّتِ الملائكة ببيتي، وإنْ كان الوحيُ لينزل عليه وأنا معه في لحافة، فما يبينني عن جسده[1].

وإنّي لابنة خليفته وصديقه.

ولقد نزل عذري من السَّماء[2].

ولقد خلقت طيبة عند طيب.

ولقد وُعدتُ مغفرة ورزقاً كريماً[3].

---

(١) وهذا له ما يؤيده فيما ورد في الصّحيحين، من أنَّ النَّاس كانوا يتحرون بهداياهم رسول الله ﷺ يوم عائشة؛ واجتمع نساء النّبيّ ﷺ إلى أمِّ سلمة رضي الله عنها فقلن لها:

إنَّ النَّاس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنَّا نريدُ الخيرَ كما تريده عائشة، فقولي لرسول الله ﷺ يأمر النّاس أنْ يهدوا له أينما كان، فلما كانت الثالثة قال: «يا أمّ سلمة، لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل عليَّ الوحي، وأنا في لحافِ امرأةٍ منكن غيرها». متفق على صحته.

وهذا الجواب منه ﷺ دالٌّ على أنَّ فضل عائشة على سائر أمّهات المؤمنين بأمر إلهي وراء حبه لها، وأنَّ ذلك الأمْر من أسباب حبّه لها.

(٢) ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن الصّديقة عائشة كانت أول امرأة نزل عذرها من السّماء. (فضائل الصحابة ٢/٨٧٢ رقم ١٦٣٦).

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده، وانظر مجمع الزوائد (٩/٢٤١) وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى،

ولقد صدقت أمّ المؤمنين ـ عليها سحائب الرضوان ـ في كلّ ما حدّثت به عن نفسها من الفَضْل والشّرف والخصائص النّبيلة، والصِّفات الكمالية التي لم تجتمعْ في امرأة قبلها ولا بعدها رضي الله عنها.

ويبدو أنَّ كثير من العلماء والأدباء والشُّعراء قد أُغْرِموا في تلك الخصائص النّبيلة المباركة، وراحوا يقولون فيها أجود وأبدع ما تجود به قرائحهم من روائعِ القول، وبدائع البدائه التي أضفتْ إلى تراثنا العظيم زاداً طيباً يتحفُ العقول، ويغذي النّفوس، ويهذِّب الطِّباع، ويزيد الخير والنَّماء في رصيد أمِّنا عائشة رضوان الله عليها.

ويبدو أيضاً أنَّ عَدَداً من العُلماء الأدباء، والشُّعراء العلماء، قد سمعوا ما وصَفَتْ به أمّ المؤمنين عائشة نفسها من خلال حديثها، فنظموا ذلك شعراً، وكان أبو عمر بن موسى بن محمّد الأندلسيّ، ممن راقته تلك المعاني، فقال من قصيدة رقيقة رائعة يمتدح بها أمّ المؤمنين عائشة:

إنّي أقول مبيِّناً عنْ فضلها ... ومترّجماً عن قولها بلساني
يا مبغضي لا تأتِ قَبْر محمّد ... فالبيتُ بيتي والمكانُ مكاني
إنّي خصصتُ على لسان محمّد ... بصفاتِ برٍّ تحتهن معاني
وسبقتُهنَّ إلى الفضائلِ كلّها ... فالسَّبْقُ سَبْقي والعنان عناني
زوجي رسول الله لم أَرَ غيره ... الله زوّجني به وحَبَاني
وأتاهُ جبريلُ الأمينُ بصورتي ... فأحبَّني المختارُ حينَ رآني
وأنا ابنةُ الصِّدِّيق صاحب أحمد ... وحبيبه في السِّرِّ والإعلان

= وفي الصَّحيح وغيره بعضه، وفي إسناد أبي يعلى من لم أعرفهم.
وانظر: نساء مبشّرات بالجنة (٢/ ١٧) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥١) وسير أعلام النّبلاء (٢/ ١٤١) وتفسير الكشّاف للزمخشري (٣/ ٣٢٥) وأزواج النّبي للصّالحي (ص١٢٠ و١٢١) وابن سعد (٨/ ٦٣ و٦٤) وغيرها من المصادر مع الزيادة والنقصان في تعداد الخصال، ولكني اخترت أجود الروايات، والله اعلم بالصواب.

وتكلّم الله العظيم بحجتي وبراءتي في مُحْكَم القرآن
والله في القرآنِ قد لَعَن الذي بعد البراءة بالقَبيحِ رماني
والله فضّلني وعظّم حرمتي وعلى لسان نبيّه برّاني
والله وبّخ مَنْ أرادَ تنقصيّ إفكاً وسبَّحَ نَفْسَه في شاني

ومنْ فضائلِ شمائل أمِّنا عائشة رضي الله عنها ما أورده القُرطبيُّ في تفسيره قال:

قال بعضُ أهل التَّحقيق:

إنَّ يوسفَ عليه السَّلام لما رُميَ بالفاحشةِ برّأه الله على لسان صبيّ في المهد؛ وإنَّ مريم لما رُميت بالفاحشة برَّاها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه؛ وإنَّ عائشةَ لما رُميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن، فما رضي لها ببراءة صبي، ولا نَبيّ، حتّى برّأها الله بكلامهِ من القَذْف والبُهتان[1].

الصِّدِّيقَةُ وأُمَّهَاتِ المُؤمنينَ وحَديثُ الإفْكِ:

لم تكن أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها وحدها في البيت الذي أذهب الله عنه الرِّجس وطهَّره تطهيراً، وإنّما كانت هنالك شريكات لها في البيت النّبويّ من أمهات المؤمنين، مثل: أمّ سلمة، وسودة بنت زمعة، وزينب بنت جحْش وحفصة بنت عمر رضي الله عنهن.

وكان من أَجَلِّ النِّعم الإلهيّة على البيت النّبويّ، وعلى المسلمين، أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد حمى أمّهات المؤمنين الطّاهرات كلّهن عن التّكلّم في محنة هذا البُهتان الخبيث، فلم يؤثرْ عن واحدةٍ منهن في عائشة كلمةٍ واحدة، بل إشارة خفية، وهنَّ ضرائرها وشريكاتها في القُربِ الدَّاني من رسول اللهﷺ؛ وكان من الطَّبيعيّ أن يكنَّ هنَّ اللاتي يخشى عليهن من بواعث الغيرة أن تدفعهن أو بعضهن إلى التّحدث فيما يحومُ حول ذلك.

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/٢١٢).

لكنَّ الله ذو الفضل العظيم والخير العميم، قد حفظهنَّ جميعاً حفظاً مباركاً لمقام حرمِ رسولهﷺ أن تظل عروش بيوتهن في خلوتهنّ أو جلوتهنَّ معهﷺ بما يعصمهنَّ عن الانزلاقِ إلى مزالق الباطل، والتَّقول على مَنْ يعرفن أنّها أحبّ النّاس إليهﷺ، وأعزهن عنده، وأعرفهن بمطارحِ أنظاره، وأسرعهن إلى التّعلق بأسباب رضاه في كلٍّ ما تقرّ به عينهﷺ.

هذا، وقد خصَّ الله عزّ وجلّ أمّ المؤمنين السَّيِّدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، بموقفٍ نبيل كريم من عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك، وهي التي تناصيها عند رسول اللهﷺ مما كان يخاف منه العثرة، ذلك أنَّ رسول اللهﷺ خصَّها بالسُّؤال عن عائشةَ قبل أنْ ينزل الوحيُّ ببراءتها وطهارة ذيلها من رجسِ الإفك، وافتراء البُهتان، فقال لها:

«يا زينب، ماذا علمتِ أو رأيتِ»؟

فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلا خيراً[1].

قالت عائشة رضي الله عنها تثني على زينب، وتعرف لها فضلها في دِينها وأدبها وجودها ومعروفها: وهي التي تساميني من أزواج النّبيّﷺ فعصمها الله بالورعِ.

إنَّه من الصَّعب أن تنتزعَ ثناء امرأة على امرأة في مثل هذه المواقف، ولكنّ نساء النّبيّﷺ كُنَّ من نوعٍ آخر، فكانتِ الواحدةُ منهنَّ تثني على ضرّتها بما هي أهله.

رُوي عن عائشة أنَّها أثنتْ على ضرّتها زينب بنتِ جحش فقالت: كانت زينب بنتُ جحش تساميني في المنزلة عند رسول اللهﷺ؛ وما رأيتُ امرأةً خيراً في الدِّينِ من زينبَ، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرّحم، وأعظم صدقة

---

(١) قطعة من حديث البخاري رقم (٤٧٥٠) انظر فتح الباري (٣٠٩/٨) ومعنى «أحمي سمعي وبصري»: أي لا أنسب لهما ما لم أسمع وأبصر.

رضي الله عنها[1].

أمَّا المنافقونَ وزعيمُهم عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، فقد ردَّ الله كيدهم إلى نحورهم، وانكمدَ ابنُ سلول غيظاً بحقده، وخابَ سعيه، وكُتِبَ في سجلِّ الأشقياء والمحرومين، وكانت حادثة الإفك[2] شاهدة على فجوره ونفاقه إلى ما شاء الله تعالى. .

---

(١) سِيَرُ أعلام النّبلاء (٢/٢١٣ ـ ٢١٤) وللحديث أصلٌ عند مسلم (٢٤٢٢) وأحمد في المُسند (٦/١٥١).

(٢) تلك هي فتنة الإفك التي أشعل ثقابها، وأورى نارها، زعيم المنافقين ورأس النِّفاق عبد الله بن أبي ابن سلول بعد أنْ خابَ سعيه في إشعالِ نيران الفتنة الجاهلية، فخبَّ فيها وأوضع خلال صفوف المجتمع المسلم يبغيه الفتنة، وفي المسلمين سمّاعون له، ولأضرابه من أحلاس النِّفاق، وغثاء المنافقين، ومرضى القلوب، الذين كانت رواسب الوثنية الجاهلية والعصبيّة القبلية، تحتلّ من أنفسهم مكاناً فسيحاً.

وفي هذه الفتنةِ الخرساء قَاء ابنُ أبيّ كلَّ ما في جوفه من عصارة النِّفاق الكفور، وظهرت جراح حقده، عن صديد الكفر المنافق، والفجور الخبيث.

وبهذه الرّوحِ الفاجرة الخبيثة الآثمة، تولّى ابنُ أبيّ كِبْرَ هذه الفتنة المرذولة، السَّمجة، والبهتان المُفترى، والإفك المُختلق، وانضوى تحت جناحه المهيض مَنْ كان على شاكلته في النِّفاق من الذين لفّتهم عصبية الجاهلية برداء الحقد الأسود الحسود، فنفثوا دخان الغيظ الخانق، وتقوّلوا بالباطل على أطهر الطّاهرات الصّدّيقة ابنة الصّديق رضي الله عنهما، حتى أبطله الله عزَّ وجلَّ بما لمْ يبطلْ به فرية وبهتاناً قطّ، وحتى غدا شرُّ هذا الإفك الكذوب خيراً لكلّ مَنْ ناله منه رشاش؛ وباء المبطلون الأفاكون بالعار والشّنار، ولطِّخت وجوههم بالخزي والخذلان، وطحنهم وعيد الخطاب الإلهي المحفوف بكلّ سِمَات التّبجيل والتّعظيم للطّاهرة الصّديقة ﴿**أولئك مبرؤن مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم**﴾ [النور: ٢٦] تنويهاً بعظمة سيّد المرسلين، وبياناً لعلوِّ مكانته عند ربه، وإعلاء لمقام حرماته، وتطهيراً لساحته.

وأقول: طحنهم طحناً، وأذاب منهم ـ أي من المنافقين وأتباعهم ـ كلَّ ذرّة من ذرات الإنسانية في هذه الحياة، ولعذاب الآخرة أذل وأشد وأخزى وأعظم.

وللمزيد من مواقف ابن أبي ـ وأسياده ـ المخزية، راجع كتابنا «المبشّرون بالنار» في جزأيه، ففي قراءة ذلك فائدة بل فوائد كثيرة بإذن الله لمن أراد أن يميزَ الخبيثَ مِنَ الطّيب.

الصِّدِّيقَةُ ورخْصَةُ ربَّانِيَّةٌ

من نفحاتِ بركات أمِّ المؤمنينَ عائشة ويمنها أنْ نزلت بسببها آيةُ التَّيمّم، وهي تشريع الرَّحمةِ، ورفْع الإصْر عن هذه الأمّة الإسلامية.

ففي إحدى أسفارِ رسول الله ﷺ ـ وربّما في غزوة بني المصطلق ـ خرجت عائشةُ أمُّ المؤمنين رضي الله عنها في هودجها مع نساءِ المسلمين، حتى إذا كانوا في مكانٍ يُسمى: البيداء، أو ذات الجيش[1]، أو تربان[2]، انسلّتْ قلادةٌ مِنْ عُنُقِ عائشة ووقعت، فأقام رسولُ الله ﷺ على التماسه، وأقام النَّاس معه حتى طلعَ الفجر، وليس مع القومِ ماءٌ؛ فأتى النَّاسُ إلى أبي بكْر الصِّدِّيق رضي الله عنه، فقالوا له: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسولِ الله ﷺ، وبالنَّاس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء؟!.

فجاءَ أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشةَ، ورسول الله ﷺ واضعٌ رأسه الشَّريف على فخذها قد نام، فقال: حبستِ رسول الله ﷺ والنَّاس وليسوا على ماء، وليس معهم ماء؟

وغدا أبو بكر رضي الله عنه يعاتبها، وجَعَل يطعنُ بيده في خاصرتها، ولا يمنعها منَ التَّحرك إلا مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذها؛ وراح أبو بكر يزيد في عتابها، وقد وصفتِ السَّيِّدةُ عائشة ذلك فقالت: فلقيتُ من أبي ما الله به عليم من التَّعنيف والتَّأفيف وقال: في كلِّ سَفَرٍ للمسلمين منك عناء وبلاء، وقال أبي ما شاء الله أن يقول.

ونامَ رسولُ الله ﷺ حتى أصبحَ على غير ماء، وعندئذ أنزلَ الله عزَّ وجلَّ الرُّخصة في التَّيمم: ﴿. . . . . .وإنْ كنتم مرضى أو على سَفَر أو جاء أحد

---

(١) البيداء وذات الجيش: موضعان بين المدينة وخيبر، كما جزم به النووي في شرح مسلم (٤/ ٥٩) وقال ابن التّين: البيداء: هي ذو الحليفة، بالقرب من طريق مكة، وذات الجيش وراءها؛ ورجح الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٥١٥) قول ابن التين هذا.

(٢) تربان: بلد بينه وبين المدينة بريد وأميال، وهو بلد لا ماء به.

منكم من الغائطِ أو لامستم النِّساء فلم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيباً فامسحو بوجوهكم وأيديكم﴾ [النساء: ٤٣] و[المائدة: ٦] وعندئذ قام المسلمون مع رسول الله ﷺ فتيمموا، ثم وقفوا خَلْفَه يصلَون، وأشرقتْ نفوسُهم بأنوار اليقين. وقُضيتِ الصَّلاة. . . . . . فتقدَّمَ أسيد بن الحضير الأنصاريّ رضي الله عنه ـ وهو أحد النّقباء بالعقبة ـ فقال: ماهذا بأوّلِ بركتكم يا آل أبي بكر، لقد بارك الله للنّاس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركةً لهم.

وأمَّا أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقد تقدَّمَ من ابنتهِ عائشة على ما روت فقالت: يقول أبي حين جاءَ الله من الرُّخصة للمسلمين: والله ما علمتُ يا بنية إنّك لمباركة! ماذا جعل الله للمسلمين في حَبْسِك إياهم من البركة واليسر.

وأمّا عِقْدُ عائشة فكما قالت: فبعثنا البعيرَ الذي كنتُ فيه، فوجدنا العِقْدَ تحته[1].

وقد اغتبطَ المسلمونَ، وفرحوا فَرَحاً شديداً بفضلِ الله عليهم، إذ فرّج عنهم ضائقتهم ببركةِ عائشة رضي الله عنها، وجاءها أبوها الصِّدِّيق ـ كما ذكرنا ـ بعد هذا العتاب الشَّديد، وقد رأى غِبْطَة المسلمين بحفاوةِ الله تعالى بهم حفاوة عامة في كلّ زمان ومكانٍ ببركتها وإكراماً لها، وإظهاراً لفضلها، وتشريفاً لمقامها، فقال لها ووجهه يتبلّجُ بنورِ المحبّةِ الأبويّة: إنَّك لمباركة.

نعم ماكان أعظم بركة تلك القلادة!! القلادة التي قلّدتِ الأمّة المحمديّة

---

(١) للحديث أصل عند البخاري في مواضع من صحيحه؛ في التّيمم (١/ ٥١٤) برقم (٣٣٤) وفي فضائل الصّحابة (٧ / ١٣٣) برقم (٣٧٧٣) وفي النّكاح (٩/ ١٣٦) برقم (٥١٦٤) وانظر الأحاديث (٣٣٦ و٣٦٧٢ و٤٥٨٣ و٤٦٠٧ و٤٦٠٨ و٥١١٤ و٥٢٥٠ و٥٨٨٢ و٦٨٤٤ و٦٨٤٥).

وأخرجه مسلم في الحيض: باب التّيمم برقم (٣٦٧) وابن ماجه (٥٦٨) وأحمد (٦/ ٢٧٢) وانظر تفسير القرطبي للآية (٤٣) من سورة النساء. وآية (٦) من سورة المائدة، وانظر: سير أعلام النّبلاء (٢/ ١٧٠) وأزواج النّبي للصّالحيّ (ص١١٠ و١١١) ونساء مبشّرات بالجنّة (٢/ ٣٣) ومصادر أخرى حديثية وتفسير وأسباب نزول.

رخصة التَّيمم التي فرح المسلمون بنزولها من لدن حكيمٍ مجيد، وما ذاك إلا مِنْ يُمْن السَّيِّدة عائشة رضي الله عنها وبركتها، وإشراق روحها، ناهيك بمنزلتها من الله عزَّ وجلَّ في عِلْمِهَا وفقهها وعَمَلِها وورعها رضي الله عنها وأرضاها.

الصِّدِّيْقَةُ حَافظَةُ الحَديثِ الأُولى:

عندما لحقَ النَّبيُّ ﷺ بربّه، كانت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها لم تخطُ إلى التاسعة عشرة، على أنَّها ملأتْ أرجاءَ الأرض عِلْماً، فهي في رواية الحديث وحفظه نسيجُ وحدها، ولم يكن بيت أصحاب رسولُ الله ﷺ مَنْ كان أَرْوَى منها، ومن أبي هريرة رضي الله عنهما، على أنَّ عائشة كانت أدقَّ منه، وأوثق وأَضْبط.

لقد امتازت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالصِّدقِ في العِلْم، والأمانةِ في الرِّواية، وكانت مِنْ أنفذِ النَّاس رأياً في أصول الدِّين، ودقائقِ الكتاب المُبين، وكان كبارُ الصَّحابةِ إذا أشكلتْ عليهُم الفرائضَ فزعوا إلى عائشةَ، فحسرتْ حُجُبَ الإشْكَال، وكشَفتْ سُحُبَها، وأبانتْ حقيقتَها ومقاصدها.

امتازتْ عائشةُ رضي الله عنها بحافظةٍ قويّةٍ جعلتها واحداً من المراجعِ المهمّة في عالَمِ الحديث النّبويّ الشَّريف وحده، ولم يكن نفاذُ رأيها ورجاحة كفّتها وقفاً على الحديث الشَّريف وحده، وإنَّما بلغتِ السُّها في رواية الشِّعر، والأدب، والتَّاريخ، وكذلك كان نفاذها في الطِّبِّ، وعِلْم الكواكب، والأَنْواء، والأَنْساب، وما إلى كلّ ذلك، وهذا عروةُ بنُ الزُّبير فقيه المدينة المنّورة، وأحد علمائها الأفذاذ الذين يُقْصَدون من كلّ فجٍّ عميقٍ يقول: ما رأيتُ أحَداً أعلم بفِقْهٍ ولا بطبٍّ ولا بِشعْرٍ من عائشةَ.

إنَّ نظرةً واحدةً إلى مُسْنَدِ عائشةَ رضي الله عنها نعرف إلى أيّ مدى بلغت أمُّنا من الإحاطةِ بالعلم، بل بحوادثِ الأمم ومشكلات التَّاريخ، ودقائق الأحكام، ورقائق العبادات.

وكانت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تحسنُ أَنْ تقرأ، ولم يكن يعرفُ

ذلك إلا عدد محدود من أصحاب رسول اللهﷺ، ومَنْ يعرف القراءة والكتابة كان يُدعى «الكامل».

ومن الإنصاف أنْ نقولَ:

كانتْ أزواجُ النّبيِّ الطَّاهرات جميعاً رضي الله عنهن قسيمات عائشة في إذاعةِ العِلْم، وإفاضةِ الدِّين، وروايةِ الحديث على المسلمين، وعلى طلّاب العِلْمِ، وشُدَاةِ الدِّين من أَصْقَاعِ المعمورة.

هذا وقد روتْ عائشةُ رضي الله عنها عن النّبيِّ الكريمﷺ عِلْماً كثيراً طيّباً مباركاً فيه، وآمنت بكلِّ كلمةٍ قالها النّبيُّﷺ، وحفظتها حَفْظَ مَنْ يتبرّكُ بها، ولا يغفلُ عنها، وكانت مِنْ أكثرِ الصَّحابة حِفْظاً وفُتْيَا[1].

ولم تقفْ عائشة في العِلْم عند هذا فحسب، وإنّما روتْ كذلك عن أبيها الصِّدِّيق، وعن عمَر بنِ الخطاب، وسعدِ بنِ أبي وقاص، وحمزة بنِ عمرو الأسلمي، رضي الله عنهم: وقد روتْ عن النِّساء أيضاً، فروت عن سيِّدة النِّساء فاطمة الزَّهراء، وعن جُذامة بنت وهب رضي الله عنهما.

وقد روى عن عائشة طائفةٌ كبيرة من الصَّحابة الكرام رجالاً ونساء.

وروى عنها عددٌ من جِلّة التَّابعين من الرِّجال منهم: عروة بن الزّبير، وعامر الشّعبي، وعطاء بن أبي رَباح، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيّب، وغيرهم كثيرون جدّاً لا يحصون[2].

---

(١) قال ابنُ قيّم الجوزية في إعلام الموقعين:

والذين حُفظت عنهم الفتوى من الصَّحابة مئةٌ ونيف وثلاثون نفساً ما بين رَجُل وامرأة، وكان المكثرون منهم سبعة: عمر بن الخطاب، وعليّ بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أمّ المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عُمر.
وقال ابنُ حزم: ويمكن أنْ يُجمع من فتوى كلّ واحد منهم سِفْر ـ كتاب ـ ضخم.

(٢) جاء أسماء من روى عن عائشة في أعلام النّبلاء مئات. انظر السّير (٢/١٣٥ ـ ١٣٩) وتهذيب التّهذيب (١٢/٤٣٣ ـ ٤٣٦) وأسد الغابة (٦/١٢) وغيرها كثير من المصادر الحديثية والتّراجم والطبقات.

ويبدو أنَّ النِّساء اللاتي رَوَيْنَ عن أمِّ المؤمنينَ عائشة لم يكنَّ أقلَّ حظّاً منَ الرِّجال، وقد أَثْرَيْنَ عَصْرَ التَّابعين في نَقْلِ ما سمعوه عن سيِّدة النِّساء الصَّادقات، وسيِّدة البيت النَّبويّ بلا منازع، وسيِّدة العَالِمات الحافظاتِ القانتاتِ العابدات السّائحات.

أقول: تصدَّتْ نساءُ العصر النَّبويّ، وعَصْر التَّابعين[1] خاصَّةً لفنون العِلْم، وخصوصاً رواية الحديث النَّبويّ الشّريف، وأمعنَّ في ذلك إمعاناً حَلَّقْنَ فيه في مواطن؛ وكان لهنّ مظهرٌ خلقيٌّ كريمٌ في العِلْم والتَّعليم.

نستطيع الآن أنْ نوردَ أسماء بعض العالمات الفقيهات اللاتي رَوَيْنَ عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وممن تركن أنصع الآثار العلمية في تاريخها الوضيء المعطاء[2]، اذكر منهن:

---

(١) اقرأ ـ إن شئت ـ كتابنا «نساء من عصر التّابعين» بجزأيه تجد مصداق ما قلناه.

(٢) لعلَّ سائلاً يقول: ما للنّساء ورواية الحديث؟!

فنقول: لقد امتازتِ المرأةُ العالمةُ المسلمةُ بالأمانةِ في الرِّواية، والحَيدةِ عن مواقع التُّهم، ومساقط الظَّنِّ، مما لم يكنْ لكثيرٍ منَ الرِّجال، ونحن مرسلو القول في البُرهان عما نقول.

فالحافظ الذَّهبيُّ المتوفى سنة (٧٤٨ هـ) أحد ثقات رجال الإسلام، وواحد من عظماء المحدّثين، وأحد أساتذة هذا الفنّ العظيم، ألّف كتاباً سمّاه «ميزان الاعتدال» في نقدِ رجال الحديث، خرّج فيه قرابة أربعة آلاف متّهم من المحدثين، ولكنّه قال عن المحدّثات بعبارة تشهدُ لهن: وما علمتُ مِنَ النِّساء من اتُّهِمَتْ ولا مَنْ تركوها. (ميزان الاعتدال ٣٩٥/٣).

ويمكننا القول إذن: إنَّ حديثَ رسول اللهﷺ منذ عهد أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها حتى عهد القرن الثَّامن الهجري، ما حُفِظ ولا رُوي بمثل ما حُفِظ في قلوب النّساء، وروي ألسنتهن.

وهذا الحافظُ أبو القاسم ابن عساكر المتوفى سنة (٥٧١ هـ) أوثق رواة الحديث، كان من شيوخه وأساتذته بضع وثمانون مِنَ النِّساء، وإنَّ نظرة واحدة في كتابهِ الكبير «تاريخ مدينة دمشق» يتبينّ لك مصداق ما ذكرناه.

زينب بنت أبي سلمة المخزوميّة الصَّحابية المعروفة، وخيرة أمّ الحسن البَصْريّ[1]، وحفصة بنت عبد الرّحمن بن أبي بكر، وصفيّة بنت أبي عبيد[2]، وعائشة بنت طلحة التّيميّة[3]، وعمرة بنت عبد الرّحمن[4]، ومعاذة العدويّة[5]، وأمّ كلثوم بنت أبي بكر[6] ـ أخت عائشة لأبيها ـ ونُهيَّة مولاة سيّدنا أبي بكر الصِّدِّيق، وجسرة بنت دجاجة، وذِفرة بنت غالب، وزينب بنت نصْر، وزينب السّهية، وسمية البصريّة، وشُميسة العَتَكيّة، وصفيّة بنت شيبة، وغيرهن كثيرات.

ويدلُّ هذا على سعَةِ علْم عائشة رضي الله عنها التي انتزعت إعجابَ علماء التَّابعين، والفقهاء منهم لِمَا حَبَاها الله من فضله في مجال العِلْم، وقد بلغَ ما روته الصِّدِّيقة عائشة رضي الله عنها من الأحاديث الشَّريفة أَلْفين ومئتين وعشرة أحاديث، وهو أعلى وأكبر عدد ترويه امرأة عن رسول الله ﷺ، وهي معدودة من الصَّحابة السَّبْعَةِ الذين بلغت مروياتهم أكثر من ألف حديث نبويّ شريف؛ وهم: أبو هريرة، عبد الله بن عمر بن الخطّاب، أنس بن مالك، عائشة بنت أبي بكر، عبد الله بن مسعود، جابر بن عبد الله الأنصاريّ، وأبو سعيد الخدريّ واسمه سعد بن مالك رضي الله عنهم.

وقد أُغْرِم أحد الشُّعراء بهؤلاء الحفّاظ الأعلام من الصَّحابة فصاغهم شعراً ونظمهم بقوله:

سَبْعٌ مِنَ الصَّحبِ فَوقَ الأَلْفِ قد نَقَلُوا
مِنَ الحَـديثِ عن المُخْتَـارِ خَـيْرِ مُضَرْ

= وقد عَقَد محمّد بن سعد جزءاً من كتابه الشّهير «الطبقات الكبرى» لروايات الحديث من النِّساء الصّحابيات والتّابعيات وغيرهن، وأتى فيه على نيف وسبعمئة امرأة رَوَيْنَ عن رسول الله ﷺ، أو عن أصحابه نساء ورجالاً، وروى عنهن أعلام المسلمين وأئمتهم.

وقد أفرد ابن عبد البر كذلك في كتابه «الاستيعاب» جزءاً عن النّساء، وكذلك فعل ابن الأثير في «أسد الغابة» وابن حجر في «الإصابة» وغيرهم ممن خاض في هذا المجال النّفيس الكريم.

(١ و٢ و٣ و٤ و٥ و٦) اقرأ سيرة هؤلاء في كتابنا «نساء من عصر التّابعين» في جزأيه.

أَبُــو هُــرَيْــرَة سَعْــدٌ جَــابِــرٌ أَنَسٌ
صِدِّيْقَةٌ وابنُ عبَّاسٍ كذا ابنُ عُمـرْ

هذا ومرويّات السَّيِّدة عائشةُ رضي الله عنها منثورةٌ في كُتُبِ الصَّحيح، وفي السُّنن، والمسانيد، وقد اتّفق لها الشَّيخان؛ البخاري ومسلم على مئة وأربعة وسبعين حديثاً، انفرد البخاريّ بأربعة وخمسين، وانفرد مسلم بتسعةٍ وستين، وقد مَرَّ معنا نماذج من مروياتها في ثنايا سيرتها.

ومما أخرجه البخاريُّ ومسلم وأبو داود وغيرهم لأمّنا عائشة رضي الله عنها، ما رواه القاسم بن محمّد عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ في أمْرِنا هذا ما ليسَ فيه فهو رَدٌّ»[1].

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الصُّلح برقم (٢٦٩٧)؛ ومسلم في الأقضية برقم (١٧١٨) وأبو داود في السُّنَّةِ (٤٦٠٦) وابن ماجه في المقدمة (١٤) وأحمد (٦/ ٢٧٠) وابن حبّان في صحيحه. وقوله: «فهو رد» أي مردود.

قال الإمام النّوويُّ ـ رحمه الله ـ معلقاً على هذا الحديث النبوي الشّريف العظيم: وهذا الحديث قاعدة عظيمةٌ من قواعد الإسلام وهو من جوامعِ كلمِهِ ﷺ، فإنّه صريح في ردِّ كلّ البدع والمخترعات.

وقال النّوويّ أيضاً: هذا الحديث ممّا ينبغي حفظهُ واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به كذلك.

وقال الطّرقيُّ ـ رحمه الله ـ: هذا الحديث يصلح أن يُسمى نصف أدّلةِ الشَّرعِ، فكما أنَّ حديث «إنّما الأعمالُ بالنّيات» ميزان للأعمال في باطنها، فهذا الحديث ميزان في ظاهرها، وحديث: «إنّما الأعمال بالنّيات» يعني أنَّ كلَّ عملٍ لا يُرادُ به وَجْهَ الله تعالى، فليسَ لعاملهِ فيه ثواب، وهذا الحديث يعني أنَّ كلَّ عَمَلٍ لا يكون عليه أمْر الله ورسوله فهو مردود.

وفي هذا الحديث ردّ المحدثات، وأنَّ على مَنْ حَكَمَ بغير السُّنَّة، جَهْلا أو خَطأً، أنْ يرجعَ إلى حكم السُّنَّةِ وترك ما خالفها امتثالاً لأمْرِ الله تعالى بإيجاب طاعةِ رسوله، وفيه أنَّ النّهيَّ يقتضي الفساد، لأنَّ المنهيات كلّها ليست من أمْرِ الدين، فيجب ردّها، ويستفاد منه أنّ حكم الحاكم لا يغير ما في بطن الأمْر لقوله: «ليس عليه أمرنا» والمراد به أمْر الدِّين، وفيه أنَّ الصُّلح الفاسد منتقض، والمأخوذ عليه مستحقّ للردِّ.

إنَّ نظرةً واحدة في كُتُبِ الحديث، ندرك من خلالها مدى علْم ومعارف أمّ المؤمنين عائشة، ونعرف بأنَّها التّلميذة النّبويّة النّجيبة، وهي معلمة العُلماء، وسيّدة المفسّرين، وأستاذة المحدثين، وفقيهة نساء الأمّة على الإطلاق، ناهيك بمعارفها وآدابها المنثورة في ثنايا المصادر، تلك التي تشهد لها بعلّوِ مقامها، ونفاذِ رأيها، وروائع كلماتها المستمدّة من فيض نور النُّبوة.

وبالإضافةِ إلى تلكم المزايا الرَّفيعة في شخصيّة أمّنا عائشة رضي الله عنها، فقد كانت مِنَ الصَّحابة المكثرين في الفتيا، الذين يُرجع إليهم في كلٍّ ما يتعلق بأحكام الشَّريعة.

والمكثرون من الصَّحابة فيما رُوي عنهم من الفَتيا سبعة وهم: عائشة أمّ المؤمنين، عمر بن الخطّاب، ابنه عبد الله بن عمر، عليّ بن أبي طالب، عبد الله بن عبَّاس، عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم[1].

وفي كتابه الممتع «أنساب الأشراف» أخرج البلاذري ـ رحمه الله ـ بسندهِ عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال: كانت عائشة قد اشتغلتْ بالفتوى في خلافةِ أبي بكر، وعمر، وعثمان، وهلم جر إلى أنْ ماتت وكنتُ ملازماً لها[2].

الصِّدِّيقَةُ والثَّنَاءُ العَطِرُ:

خصَّ الله عزَّ وجلَّ أمّنا عائشة رضي الله عنها بفضائل ومناقب، جعلت كثيراً من أفذاذ العلماء، وكبار الزّهاد، وأصفياء العباد، يفصحون بأدق المديح، وأخصّ الثّناء للسّيّدة عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها؛ وتبارى الأعلامُ في ذلك، فأدلوا دلاءهم في مضمار الثّناء والامتداحِ، لمن خصَّها الباري عزَّ وجلَّ بشهادة الطُّهر والبَراءَةِ من فوقِ سبعة أَرْقعةٍ، وليس بعد هذا الثَّناء ثناء.

لقد تبارى العلماءُ والكُتَّاب في نَثْر ونَشْرِ فضائل عائشة رضي الله عنها في

---

(١) انظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٢/٨٩).
(٢) أنساب الأشراف (١/٤١٨).

مجالسهم، وسجّلوها في بطونِ مؤلفاتهم، لتبقى قدوة للمؤمنات إلى ما شاء الله؛ ولا أجدُ في هذا المجال أجمع وأوجزَ من ثناءِ عروة بن الزّبير ـ رحمه الله ـ قال عروة: صحبتُ عائشة، فما رأيتُ أحداً قطّ كان أعلم بآية أنزلت، ولا بفريضةٍ، ولا بسنّةٍ، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيومٍ من أيام العرب، ولا بنسبٍ، ولا بكذا، ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا طبّ، منها. فقلتُ لها: يا خالة: الطّبُّ من أين عُلِّمْتيهِ؟

فقالت: كنتُ أمرضُ، فيُنعتُ لي الشّيء، ويمرض المريضُ فيُنعتُ له، وأسمع النّاس ينعتُ بعضهم لبعض فأحفظه[1].

قال عروةُ: فلَقَدْ ذَهَبَ عامّة عِلْمها، لم أسألْ عنه.

وقال عروةُ أيضاً: لو لم يكن لعائشةَ من الفضائل إلا قصّة الإفك، لكفى بها فَضْلاً، وعلّو مجد، فإنّها نزل فيها من القرآن ما يُتلى إلى يومِ القيامة[2].

ولعلَّ الإمام مسروق بن الأجدع ـ رحمه الله ـ من أكثر الذين رووا عن أمِّ المؤمنين عائشة، ونهلوا من معين عِلْمها، ولذلك سُئِل مسروق: هل كانت عائشة تحسنُ الفرائض؟ فقال مسروق: والله، لقد رأيتُ أصحاب محمّدﷺ الأكابرَ يسألونها عن الفرائض؛ وفي رواية: رأيتُ مشيخة الصّحابة يسألونها عن الفرائض[3].

وقال أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه أبي موسى الأشعريّ قال: ما أشكلَ علينا أصحابُ محمّدﷺ حديث قطّ، فسألنا عنه عائشة، إلا وجدنا عندها منه عِلماً[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/١٨٣) وحلية الأولياء (٢/٤٩) ومجمع الزوائد (٩/٢٤٢) والفتح الرّباني (٢٢/١٢٤) ونساء مبشّرات بالجنة (٢/٤٥) والإجابة للزركشيّ في مواضع.

(٢) أسد الغابة (٦/١٩١).

(٣) أخرجه الدّارمي (٢/٣٤٢ و٣٤٣) وابن سعد في الطّبقات (٢/٣٧٥) و(٨/٦٦) والحاكم في المستدرك (٤/١١) وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/١٨٢) ونساء مبشرات بالجنة (٢/٣٩).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٩٧٠) وقال: هذا حديث صحيح غريب.

وقال الإمام الزّهريُّ ـ رحمه الله ـ لو جُمِعَ عِلْمُ عائشةَ إلى علم جميع النِّساء، لكان عِلْم عائشة أفضل[1].

وأمَّا عطاء بن أبي رباح ـ وهو ممن روى عن عائشة ـ وهو من جلّة التّابعين وأكابرهم، فقد أثنى على أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأوجز لَفْظ، وأجمَعِهِ، فقال: كانت عائشة أفقه النّاس، وأحسن النَّاس رأياً في العامة[2].

الصِّدِّيقةُ عائشة والفَضَائِلُ الكَرِيْمَةَ العَطِرَةُ:

لا يستطيعُ الباحث أنْ يحصيَ فضائل ومناقب أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بين دفتي الكتاب، ولكنّنا نوردُ زَهْراً من رياضِ حبيبة الحبيب محمّدﷺ، ونعرض بعض مناقبها التي تعلو كالأنجم في السَّماء الصَّافية.

ففي مجال الزُّهد كانت أمُّ المؤمنينَ عائشة من أشدّ الناس زهداً في الدُّنيا، وبلغت ذروة الزُّهد بإعراضها عن متاع الدُّنيا، على الرغم من السَّعة التي أوسع الله على المسلمين، ولكن كانت كما وصفها أبو نُعيم ـ رحمه الله ـ في حليته فقال: كانت للدُّنيا قالية، وعن سُرورها لاهية، وعلى فقد أليفها باكية[3].

وقَصَصُ زُهْدِ عائشة رضي الله عنها لا تملّها الأَسْماع، على الرِّغم من كثرتها، ولكنَّها توقظُ الهِمَم في النّفوس، وتأخذ بمجامعِ القلوب إلى عين الحياة الحقيقة التي ترنو إليها عائشة رضي الله عنها ألا وهي الدَّارُ الآخرة، فكانت تريدُ الآخرة، وتسعى لها سعيها كيما تلتقي رسول اللهﷺ عند مليك مقتدر.

وإذا ما طرقنا باب الجود، وخُضْنَا بَحْرَه، وجدنا عائشة لجّتها المعروف، وجودها ليس له قرار، فقد بلغت في الجودِ مبلغاً لَفَتَ إليها الأنظار. من ذلك ما

---

(١) انظر: المستدرك (٤/ ١١) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص٢٤٧) ومجمع الزوائد (٩/ ٢٤٣).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية بن أبي سفيان ص٢٤٧) وأسد الغابة (٦/ ١٩١).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ٤٤).

ذكره عروةُ بنُ الزُّبير قال: لقد رأيتُ عائشةَ رضي الله تعالى عنها تقسمُ سبعين ألفاً، وإنّها لترقعُ جَيْبَ دُرعها[1].

وذكر عروةُ أيضاً زهد وجود خالته فقال: بعثَ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه مرّة إلى عائشة بمئةِ ألف درهم، فوالله ماأمستْ حتى فرَّقَتْها، فقالت لها مولاتُها: لو اشتريتِ لنا من هذه الدَّراهم بدرهم لحماً! فقالت عائشة رضي الله عنها: ألا قلتِ لي؟ وكانت عائشةُ يومذاك صائمة. فأكرمْ بجودها وزهدها!!.

ولله درُّ الإمام الذَّهبيُّ حيث قالَ عن أمِّنا عائشةَ: كانت امُّ المؤمنين مِنْ أكرمِ أهل زمانها، ولها في السَّخاء أخبار[2].

أمَّا عبادة امُّ المؤمنينَ عائشة رضي الله عنها، فكانت شيئاً آخر، فقد نشأت في البيت النّبويّ الكريم الطَّاهر، وشهدت أعظم آيات النّبوّة، وآيات الوحي، ولذا، فقد تأثرت كثيراً بعبادة النّبيِّ ﷺ ومنهجه فيها، وراحت تقتفي أثره الشَّريف في العبادة حتى غدتِ المرجعَ الأول في هذا المضمار المبارك، ويبدو أنَّها كانت تقومُ الليل، وتصوم الدَّهر، حتى شُغِفت بالصَّلاة والصَّوم[3].

روي أنَّها كانت تصومُ الدَّهر، وتحبُّ الاعتمار، والحجَّ، ولها في ذلك أخبار

---

(١) حلية الأولياء (٢/٤٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/١٩٨).

(٣) من ذلك ما ورد أنَّ عائشة رضي الله عنها، كانت تقرأ في الصَّلاة ﴿فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السُّموم﴾ [الطور: ٢٧] فتقول وهي تدعو ربها: مُنَّ عليَّ وقِني عذاب السّموم.

وقال عروة بن الزّبير ـ رحمه الله ـ يصف صلاة خالته عائشة رضي الله عنها: كنتُ إذا غدوت أبداً ببيتِ عائشة فأسلّم عليها، فغدوت يوماً، فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ وتدعو وتبكي، فقمت حتى مللت القيام، فذهبت إلى السّوق لحاجتي، ثم رجعتُ، فإذا هي قائمة كما هي تصلّي وتبكي، وكانت تقول: لو رأيت ليلة القدر ما سألتُ الله إلا العفو والعافية.

وعن صومها، ورد أنّها كانت تصومُ وتصومً حتى يضعفها الصّوم، ولقد كانت تُرى وهي صائمة في الحرِّ الشَّديد، وكانت تصومُ بعد رسول الله ﷺ.

كثيرة، وحجّتها في ذلك قولُ رسول اللهﷺ عندما سألته: يا رسول الله هل على النِّساء جهاد؟

قال: «نعم عليهن جهاد لا قتال فيه: الحجّ والعمرة»(١).

ولعلَّ لأمِّ المؤمنينَ عائشة رضي الله عنها فضيلة باهرة، لم تلحقها بها واحدة من ضرائرها، وهي انّها تلقّتِ السَّلام من جبريل عليه السلام، فقد جاء في الصَّحيح أنَّ عائشة قالت: قال رسول اللهﷺ: «يا عائش هذا جبريل وهو يقرأ عليك السّلام» قالت: وعليه السّلام ورحمة الله ترى ما لا نرى يا رسول الله(٢).

وهذا مما حدا بأبي نعيم الأصبهانيّ لأَنْ يقول في مطلع ترجمة أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها في حليته:

الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق، العتيقةُ بنتُ العتيق، حبيبةُ الحبيب، وأليفةُ القريب، سيّد المرسلين محمّد الخطيب، المبرّأة من العيوب، المعرّاة من ارتياب القلوب، لرؤيتها جبريل رسول علام الغيوب، عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها(٣).

ولو رحنا نتتبّعُ مناقب وفضائل الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق لحصلنا على مجلداتٍ كثيرة، ولكنّه يكفيها من الفَضْل أنَّ رسول اللهﷺ قال فيها: «فَضْلُ عائشة على النِّساء كفَضْل الثَّريد على سائر الطَّعام»(٤).

---

(١) رواه ابن ماجه في السننِ.

(٢) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه منها: باب في فضل عائشة (١٣٣/٧) برقم (٣٧٦٨) وفي الأدب: باب من دعا صاحبه فنقص من اسمه حرفاً (٥٩٧/١٠) برقم (٦٢٠١) وفي بَدْءِ الخلق وفي الاستئذان وأخرجه مسلم في فضائل الصّحابة برقم (٢٤٤٧) باب فضل عائشة رضي الله عنها وأبو داود (٥٢٣٢) والتّرمذي (٣٨٧٦) والنّسائي (٦٩/٧) في عشرة النّساء، باب: حب الرجل لبعض نسائه أكثر من بعض.

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٤٣/٢).

(٤) أخرجه البخاريّ في مواضع من صحيحه، في فضائل أصحاب النّبيّﷺ، باب فضل عائشة، وفي الأطعمة: باب الثريد، وباب ذكر الطعام، ومسلم في فضائل الصَّحابة وفي الأطعمة: باب الثريد، وباب ذكر الطعام، ومسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٤٦) باب فضل عائشة رضي الله عنها وأيضاً برقم (٢٤٣١) والترمذي (٣٨٨٧).

ولعلّه من أعظم المكرمات التي حظيتْ بها عائشة أنْ أضحتْ حجرتها مثوى الحبيب الأعظم محمّدﷺ، تُزار من كلِّ فجٍّ عميق، وتقف مُسَلِّمة على النّبيّﷺ وصاحبيه، ولقد رأتْ عائشةُ ذلك الفَضْل من قبلُ، فقد قالت لأبي بكر الصّديق رضي الله عنهما: رأيتُ كأنَّ ثلاثةَ أقمارٍ سَقْطنَ في حجري، فقال لها: إنْ صدقَتْ رؤياك دُفنَ في بيتك ثلاثةٌ مِنْ خيرِ أهلِ الأرض، فلّما دُفِنَ النّبيّﷺ، قال أبو بكر هذا أَحَدُ أَقْمارِك وهو خيرها[1]، ثم دُفِنَ القُمر الثّاني فكان أبو بكر نفسه، ثم القمر الثّالث، فكان عُمر رضي الله عنه، وبهذا تم تأويل رؤيا عائشة من قبل وقد جعلها الله حقّاً.

الصِّدِّيقَةُ والأَدَبُ:

لئن حلّقتْ أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عالياً عالياً في سَماءِ العِلْمِ ورواية الحديث، وفي الزُّهد والوَرَعِ، لقد حلّقت في سماواتِ البلاغة والفَصَاحة، وبلغت ما لم تبلغهُ امرأة قطّ في عَصْرِ النّبوّة، ولا في العصور بعدها.

وقد شهد بكمالِ وجمال وتمام فصاحة أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها الإمام الذهبيّ ـ رحمه الله ـ فقال: ولها حظّ وافرٌ من الفَصَاحةِ والبلاغةِ، مع مَا لَها منَ المَناقب رضي الله عنها[2].

ولا شكَّ بأنَّ أمَّنَا عائشة عليها سحائب الرّضوان، قد أُسِّستْ على أساسٍ متين من الفَصَاحة في البيتِ البكريّ، فقد كان أبو بكر رضي الله عنه معروفاً بفصاحته ومعرفته الأنساب وأيّام النّاس؛ ثم انتقلتْ من بيتِ أبيها إلى كنفِ الرَّسولﷺ، وصُنِعَتْ على عينِه، فغدتْ تتأدَّبُ بأدبه، وتردُ مواردَ البيانِ القرآني، تنهلُ منه، وتعبُّ عَبًّاً حتى أضحت كلماتها كأنَّها فيضٌ من نُورِ النّبوَّة، فلا تكادُ تَقِفُ على كلامها إلا ويتملكك العجب، ويستولي عليك الإعجاب بروعته

---

(١) انظر بهجة المجالس للقرطبي (٢/٢٤٩).

(٢) انظر تاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص ٢٤٩).

وبيانه، ولا أدلّ على ذلك منْ رواياتها حديث الإفك الذي مرَّ معنا، فإنّه قطعة أدبية نادرة في دُنيا الأدب.

والذي يبدو، أنَّ بلاغة عائشة رضي الله عنها كانت مضربَ المثل، فهذا معاويةُ بنُ أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ وهو من بلغاء الصَّحابة ومن فصحاء البُلغاء يشهد بفصاحةِ عائشةَ فيقول: والله ما سمعتُ قطّ أبلغَ مِنْ عائشةَ، ليس رسولُ الله ﷺ[1].

وقال موسى بن طلحة ـ رحمه الله ـ: ما رأيتُ أحداً أفصح من عائشة[2].

أمَّا الأحنفُ بن قيس ـ وما أدراك ما الأحنف ـ فقد شهد لعائشةَ ـ وهو الفصيحُ الذي ضُرِب المثل بفصاحته وحِلْمه ـ بالبلاغة وحسنِ الخطاب فقال: سمعتُ خطبةَ أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ والخلفاء بعدهم، فما سمعتُ الكلام من فَمِ مخلوقٍ أفخم ولا أحسن منه من فيِّ عائشة رضي الله عنها[3].

هذا وقد عززّتْ أمُّ المؤمنينَ عائشة رضي الله عنها أدبها بحفظ الشِّعْر؛ روى ابنُ سعدٍ في طَبَقاته عن عروةَ بنِ الزبير قال: ربّما روتْ عائشةُ القصيدة ستينَ بيتاً وأكثر[4].

ولكنَّ أمَّ المؤمنين عائشة نفسها كانت تقول:

رويتُ للبِيد بن أبي ربيعةَ نحواً من ألف بيت.

ولبيدُ هذا واحدٌ من الشُّعراء المخضرمين، فكيف بغيره فطاحل الشُّعراء الذين ملؤوا الدُّنيا وشغلوا النَّاسَ؟! ولهذا كان الإمام عامر الشَّعبي ـ رحمه الله وهو تابعيٌّ جليلٌ وثِقَةٌ فَقِيْهٌ ـ يذكر أمَّ المؤمنين عائشة، ويتعجّبُ من فقهها وعلمها، ثم يقول بعد أنْ ينتهيَ من حديثه عنها: ما ظنّكم بأدبِ النّبوّةِ؟!

ولأمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها نظرة علميّة ثاقبة في تلقين الأولاد،

---

(١) سير اعلام النّبلاء (١٨٣/٢).

(٢ و٣) سير أعلام النّبلاء (١٩١/٢) نقلاً عن الحاكم في المستدرك (١١/٤).

(٤) طبقات ابن سعد (٧٢/٨ و٧٣).

وتنمية ملكاتهم في مجال العِلْم، وفَهْمِ منابع الأدب، ومنابت الشِّعْرِ، فكانت توصي دائماً بتعليم الأولاد الشِّعْرَ، لما له من صَقْلٍ للمواهب والطِّباع وحسن النّطق فكانت تقول: روّوا أولادكم الشِّعْرَ تعذبْ ألسنتهم[1].

وللشعر مكان خاص في نفس أمِّ المؤمنين عائشة رضوان الله عليها، فلا تكادُ تمرُّ حادثة إلا وأنشدتْ فيها ما يلائمها. قال عروة بن الزّبير: ما كان ينزلُ بعائشة شيءٌ إلا أنشدتْ فيه شِعْراً[2].

ولعلَّ أدبَ أمّ المؤمنين عائشة وبلاغتها له رافدٌ أيضاً من خطب وشعر وفود العرب، فقد كانت حجرتها ملاصقة للمسجدِ النّبويّ الذي تأتيه وفودُ العرب من كلِّ مكان، فتسمع ما تجودُ به قرائحهم، وتعي أحاديث رسول الله ﷺ لهم، وخطبه فيهم، فلا عجب، أنْ تحوزَ قصب السَّبْقِ في ميدان البلاغة والفَصَاحة، ولهذا لم يجدْ زياد بن أبيه حرجاً في الإفصاح عن رأيه بأفصحِ النَّاس، عندما سأله معاوية بن أبي سفيان وعزم عليه بقوله: أي النَّاس أبلغ يا زياد؟ قال زياد: أمّا إذا عزمتَ عَليَّ يا أمير المؤمنين فعائشة ابنة أبي بكر أمّ المؤمنين رضي الله عنها.

فقال معاويةُ رضي الله عنه معلِّقاً وموثقاً قول زياد:

أي والله، ما فَتَحتْ باباً تريدُ أنْ تغلِقَهُ إلاّ أغلَقَتْه، ولا أغلقتْ باباً تريدُ أنْ تفتَحه إلاّ فتحته[3].

والحقيقةُ، فهذه قمّة الإعجازِ البياني في مقدرةِ عائشة رضي الله عنها على صَوْغِ الكَلامِ والمعاني والألفاظ، فكأَنَّ مقاليدَ البلاغةِ قد ذُلّلتْ قطوفُها لعائشةَ كيما تجودُ بأنفس نفائس الكلام، وأجود أنواع المعاني، وأحلى معاني الكلام، فلم يؤثَرْ عنها أنّها لحنَتْ في شيء من كلامها قطّ، بل كانت تزجرُ بشدّةٍ مَنْ يقع في اللّحنِ والخطأ، وتأخذ بيده إلى سواء سبيلِ البلاغة، وترشده إلى هَدْي الفَصَاحة.

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه.

(٢) بهجة المجالس (١/٣٧).

(٣) عن صفة الصفوة بشيء من التصرف.

الصِّدِّيْقَةُ وَأَثَارَةٌ مِنْ قَوْلِهَا:

إِذَا تطلّعْنَا إلى الأقوالِ المأثورةِ التي حُفِظَتْ عن أُمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، لألفينا أنَّها ذات سِحْر بياني آسِرٍ لمجامع القلوب، وقد غَذَّتْ عائشةُ ملكاتها الأدبية منَ المائدةِ القرآنيّةِ، تلك المائدة التي لا تنفذُ، ولا ينضبُ معينها الصَّافي.

ولهذا، فإنّنا نجدُ أنَّ كلمات أمّ المؤمنين عائشة قد رقّتْ وراقت، من ذلك قولها: لله دَرُّ التّقوى ما تركت لذي غيظ شفاء.

ومن كلماتها المأثورة التي تشيرُ إلى حكمتها وأدبها وحسن نظرتها إلى الأمور قولها: لا سَهَرَ إلا لثلاثة: مُصَلٍّ، أو عَروس، أو مُسَافِرٍ[1].

وفي امتداحِ الأنصار لم تفُتْها الكلمات الرّقيقةُ النّدية التي تلامسُ القلوب، فتجعلها تنبضُ بالدِّفءِ والعَطاء، كقلوب الأنصار الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، اسمع ما تقوله عنهم:
ما تبالي المرأةُ إذا نزلتْ بين بيتينِ منَ الأنصارِ صالحَيْنِ إلّا تنزل مِنْ أبويها[2].

ومن رقائقها الرَّائعة التي تُصَافح الأسماع، فتزرع فيها الإمتاع قولها في طَلبِ الرِّزق: التمسوا الرِّزقَ في خَبَايا الأرض[3].

ورأتْ رضي الله عنها رجُلًا متماوتاً يظهر الزُّهد، فقالت متعجّبة: ما هذا؟
فقالوا: زاهد.
قالت: قد كان عمر بنُ الخطاب زاهداً، وكان إذا قال أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضَرب في ذاتِ الله أوجع.

وتقصد عائشة أنَّ عمر من أئمة الزُّهد، فلماذا يتظاهر هذا الرَّجل ويتماوت، إنَّ هذا لشيء عُجاب!

---

(١) عيون الخبار لابن قتيبة (١/١٤١).
(٢) انظر: الزهد للإمام أحمد (ص ٢٠٦) وعيون الأخبار (٣/٢٣) وصفة الصّفوة (٢/٣٢).
(٣) نساء مبشّرات بالجنة (٢/٤٧).

وإذا أرادت أمّ المؤمنين أنْ تعظَ النَّاس، أتتْ ببيان مشرق، وإعجاز وضيء، من ذلك قولها تنضحُ بالمحافظة على الطَّاعة وعدم اقتراف الذّنوب: إنّكم لن تلقوا الله عزّ وجلّ بشيءٍ خير لكم من قلّةِ الذُّنوب، فمن سرّهُ أنْ يسبقَ الدَّائب المجتهدَ، فليكفَّ نفسه عن كثرةِ الذُّنُوب[1].

ولعمري، فهذا القول يشيرُ إلى كمال دِينها، وورعها، ومعرفتها لحقوق الله عزَّ وجلَّ، ولذلك كانت تقولُ دائماً:
مَنْ عَملَ بما يسخطُ الله عزَّ وجلَّ عادَ حامده منَ النَّاس له ذامّاً[2].

نعم فلا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق عزَّ وجلَّ، ولذلك كانت رضيَ الله عنها تحثُّ النَّاس على الإكثارِ من الإحسانِ، والبعد عن مواطن الشَّك والتُّهم والسُّمعة والقالة. وقد سُئلتْ: متى يكون الرَّجلُ مسيئاً؟
فأجابتْ رضي الله عنها إجابة الواثق العالم: إذا ظَنَّ أنَّه مُحْسِنٌ[3].

هذا وقد حفظت لنا أمّهات المصادر، ما تركته أمّ المؤمنين من نفائس الأقوال في شتى المجالات، ونختُم هذه الفقرة ببعض تلكم النّفائس.
قالت: يا بَنِيّ، لا تطلبوا ما عند الله من غير عندِ الله، بما يسخط الله.
وقالت: خلالُ المكارم عشر، تكون في الرَّجل، ولا تكون في أبيه ولا في ابنه، وقد تكون في العبد، ولا تكون في سيّده، يقسمها الله لِمَنْ أحبَّ: صدقُ الحديثِ، ومداراةُ النَّاس، وصلةُ الرَّحم، وحفظُ الأمانةِ، والتّذممُّ للجارِ، وإعطاءُ السَّائل، والمكافأةُ بالصَّنائع، وقِرَى الضَّيفِ، والوفاءُ بالعهدِ، ورأسُهن كلُّهنَّ الحياء[4].
ومن نفيسِ قولها في معالي المكارم: رأسُ مكارمِ الأخلاقِ الحياءُ[5].

ولها في الألفة والألّاف قولها: جُبِلَتِ القُلوبُ على حبِّ مَنْ أَحْسنَ إليها، وبُغْضِ مَنْ أساءَ إليها.

(١ و٢) نساء مبشرات بالجنة (٢/٤٧).
(٣) انظر: وفيات العيان (٣/١٦) بتصرف يسير.
(٤) بهجة المجالس (١/٦٠١ و٦٠٢) و«التذمم»: حفظ الذمام للجار.
(٥) المصدر السابق (١/٥٩٢).

ومن روائعِ أقوالها: إنَّ لله خَلْقاً قلوبُهم كقلوبِ الطَّيرِ كلَّما خفقتِ الرِّيحُ خفقتْ معها، فأُفٍّ للجُبناء، فأفٍّ للجبناء.

وفي صِدْقِ الطَّاعة تقول: مَنْ أرضى الله بإسخاطِ النَّاس كفاه الله ما بينه وبين النَّاس، ومَنْ أرضى النَّاس بإسخاطِ الله، وكَّلهُ الله إلى النَّاسِ.

ومن بدائعِ أقوالها في النَّاس ومعرفةِ كنههم ما كانت تقوله: كلّ شرفٍ دونه لؤمٌ، فاللؤم أولى به، وكلّ لؤم دونه شرف، فالشّرفُ أولى به.

الصِّدِّيقةُ وبَنَاتُ حَوّاء:

للمرأةِ نصيبٌ كبيرٌ عند أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حيثُ لم تتركْ باباً من الأبوابِ المفيدةِ إلا وطرقته وأبدعتْ فيه، وفي ثنايا حياة أمِّنا عائشة نلمحُ عنايتها بالمرأة في مراحلِ حياتها، فهناك عناية بالفتيات، وعناية بالنِّساء المتزوِّجات، كما نلمحُ توجيهاتها لكلِّ فئات النِّساء في كلِّ الأعمار، وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على أنَّ أمَّ المؤمنينَ عائشة رضي الله عنها تريدُ منَ المرأةِ أن تكونَ مفتاح خيرٍ في مساراتِ الحياة، وعوناً للرَّجُل على المضي في طاعةِ الرَّحمان، كيما يَصِلان إلى الجنَّةِ التي وَعَدَ بها عباده المتّقين.

إننا نلمحُ أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تنصحُ الرِّجال ـ أولاً ـ في حُسْنِ اختيار المراة، والبحثِ عن فضائلها قبل الإقدام على الزَّواج، كما تنصحُ الآباء في البَحْثِ أيضاً عن الزَّوجِ الوفيّ الكريم الكفء، وفي هذا المجال تقول: النِّكاح رقّ فلينظر أحدكم عند مَنْ يُرقّ كريمته.

وتوصي كذلك الآباء والأمّهات بمراعاةِ شعور الفتيات الصَّغيرات فتقول: اقدُرُوا قَدْرَ الجارية الحديثة السِّنِّ التي تسمعُ اللهو.

وكانت عائشة رضي الله عنها تنصحُ النِّساء المتزوِّجات أنْ يأخذنَ شيئاً من الزِّينة لأزواجهن كيما يروقهم ذلك، وسُمعت تقول لإحداهن: إنْ كان لك زوج، فاستطعتِ أنْ تنزعي مقلتيك، فتصنعينها أحسنَ ممّا هما فافعلي[1].

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/٧٠ و٧١) وسير أعلام النبلاء (٢/١٨٨).

وكانت ترشدُ النِّساء إلى ألوانِ الطِّيْبِ، فهذه إحدى النِّسوة تدخلُ عليها وتسألها عن الحِنّاء، فتجيبها عائشة رضي الله عنها إجابة حلوة رائعة: شجرة طيبة، وماء طهور.

ولم تنطقْ عائشة رضي الله عنها بنصائحها هذهِ عن عَبَثٍ، بل كانت هي نفسها قدوة صالحة للمرأةِ المثاليّة التي عناها رسول الله ﷺ بقوله: «الدُّنيا متاعٌ وخيرُ متاعها المرأة الصَّالحة، إنْ نظرَ إليها سرّته، وإن أَمَرَها أطاعته، وإن غَابَ عنها حفظته في نفسها وماله».

ولكي تدوم المودَّةُ بين الرَّجل والمرأة، كانت عائشة تنادي بنات حواء إلى إيجاد المودة، وإلى زرعها في قَلْبِ بيوتهن، تقول في المجال: أميطي عنك الأذى، وتصنّعي لزوجِكِ كما تصنّعين للزِّيارة، وإذا أَمَركِ فلتطيعيه وإذا أقسم عليك فأبرّيه، ولا تأذني في بيته لمن يكره[1].

ويبدو أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، كانت تكره أنْ تَرى المرأة بلا عَمَلٍ، بل كانت تحضُّ النِّساء أنْ يقُمن بأعمالٍ تعودُ عليهن بالخيرِ والبركة والنَّماء، فنراها تلفتُ نظر بنات حوّاء إلى الاهتمام ببعضِ شؤون الحياة كيما تساعد زوجها في التَّغلب على مصاعبِ الحياة، وهاك قولها في هذا: المغزل بيد المراة أحسن من الرُّمح بيدِ المجاهد في سبيل الله[2].

ولعمري فهذه لفتةٌ طريفةٌ للنِّساء، كي يشغَلْنَ أنفسهن بما يعود بكبير النَّفع على أولادهن وبيوتهن، وكانت تزرعُ الحماس والأمل والرَّجاء والثَّواب في نفوس النِّساء اللاتي يعملن لأنفسهن ولأزواجهن وأولادهن، فممّا يروى عنها رضي الله عنها في هذا المضمار، أنّها رأت أَثَرَ المغزل في يد امرأة فقالت لها عائشة رضي الله عنها: أبشري بما لك عند الله عزَّ وجلَّ، لو رأيتم بعض ما أعدَّ الله لكم معاشر النِّساء لما أقررتم ليلاً ولا نهاراً، أما من امرأةٍ غزلت لزوجها ولنفسها ولصبيانها،

---

(١) المصنف (٣/١٤٦)

(٢) أعلام النساء لعمر كحالة (٣/١١٨).

إلا أعطاها الله عزَّ وجلَّ بيتاً في الجنَّةِ أوسع من المشرق إلى المغرب، ولها بكلّ ثوبٍ مئة ألف وعشرين ألف مدينة، وما على ظهر الأرضِ تسبيحٌ يعدلُ عندَ الله مِنْ صوتِ صريرٍ يخرجُ من مغزلِ النِّساء حتى ينتهي إلى العرش له دويٌّ كدويِّ النَّحل، بلِّغوا عني النِّساء ما أقول: ما من اِمرأةٍ غزلتْ حتى كسيت نفسها إلا استغفر لها سبع سماوات وما فيهن من الملائكة. . . . . . أبشروا معاشر النساء ما لكُنَّ عند الله عزَّ وجلَّ بطاعتكن لبعولتكن وخدمتكن لأولادكن أنتم المساكين في الدُّنيا، والسَّابقون إلى الجنَّة مع أزواجِ الأنبياء، يغفرُ الله لكُنَّ كلَّ ذَنْبٍ عملتن ما خَلا الكبائر.

ولقد سُئلت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن أفضل النِّساء فأجابتْ: هي التي لا تعرفُ عيبَ المقال، ولا تهتدي لمكْرِ الرِّجال، فارغة القلب إلا من الزِّينة لبعلها، والإبقاء في الصِّيانة على أهلها.

الصِّدِّيقَةُ ورحْلَةُ الخُلود إلى النَّعيْمِ المُقيْمِ:

امتدتِ الحياةُ بأمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بعد وفاة الرَّسولﷺ، قرابة نصف قَرْنٍ منَ الزَّمن، ملئت فيها الدُّنيا عِلْماً وديناً وأدباً ومعرفةً(٢)، وكانت

---

(١) انظر: أعلام النساء (١١٩/٣) بشيء من الاختصار.

(٢) قد يسألُ سائل: لماذا لم تتحدثْ عن الأحداثِ السِّياسيّة التي عاشتها عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها في عَصْرِ الخلافة الرّاشدة وخاصّة في عهد سيّدنا عثْمان وعليّ رضي الله عنهما؟

والجواب عن ذلك بأنَّ تلك الأحداث تحتاجُ إلى بحثٍ آخر في غير هذا المجال، ولقد أفاضَ أهلُ الأخبار في سَرْدِ تلكمُ الأحداثِ والوقائع، ومَنْ أراد معرفة ذلك، فليعدْ إلى كتاب «تاريخ الإسلام للذهبي عهد الخلفاء الراشدين» فقد ساق وقعةَ الجَمل ملخّصة، وتكلّم عن عليٍّ وعائشةَ رضي الله عنهما، ويُراجَعُ كذلك في هذا: تاريخ الطبريّ، والكَامِلُ لابن الأثير، والبداية والنّهاية، وعائشة والسّياسة للأفغاني وأعلام النّساء لعمر رضا كحالة، ناهيك بالمصادر الأدبيّة والحديثية والمعارف المتنوعة التي لا تحصى.

وسأسوقُ لك عزيزي القارىء سبب خروج أمنا عائشة إلى موقعةِ الجمل ملخصة =

حجرتها قبلة قصّاد العلم، وشُدَاة الفِقه والمعرفة، يقصدون نَبْع العِلْم والمعرفة عند عائشة، كيما يروون منه تعطّشهم إليه، فكانت رضي الله عنها موسوعة علمية ودينية لِمَنْ أرادَ المعارفَ، فقد احتاج إليها خاصُّ الأُمَّةِ وعامَّتُها، فكانت تهدي الحائر، وتعلِّمُ الجاهل، وترشدُ الطَّالب إلى الفضائل، وتشدُّ أَزْرَ العالم، وتغرسُ الفضائل في ذوي الفَضْل، وظلَّ النَّاس على اختلافِ طبقاتهم؛ الخلفاء، فَمنْ دونهم يقبلون ليأخذوا المعرفة عن أمِّ المؤمنين عائشة، ويزورون النَّبيّ ﷺ الذي دُفنَ في حجرتها، فأضحتْ حجرتها مقصدَ المشتاقين، وكعبة المحبِّين، وموئل العَارفين، ومعقد رجاء المؤمنين، ومَجْمع الأبرار المخلصين.

وفي شهر رمضان من السَّنَةِ الثَّامنة والخمسين للهجرةِ، ألمَّ المرض بأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانت وصيتها ان تُدفن بالبقيعِ مع صواحبها أمّهات المؤمنين وآل بيت رسول الله ﷺ.

= فأقول: إنَّ خروج أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها في موقعة الجمل بينَ أنْصارِ سيّدنا طلحة والزّبير، فلم يكن ذلك لحرب ـ كما يزعم بعضهم ـ ولكنِ اشتدتْ شكاوى النّاس إليها خاصة من عظيم الفتنةِ التي حطّتْ رحالها بين المسلمين، ورجا المسلمون بركتها، وطمعوا في الاستحياءِ منها إذا رأتها الجموعُ المتحارِبَةُ، وعسى أنْ يكفّوا عنِ النّزاع والتّخاصم، فخرجتْ إذ ذاك بقصدِ الإصلاح والمعروف بين النّاس، وآثرت ذلك على الخروج إلى الحجّ الذي كانت قد عزمتْ عليه وشعارها بذلك قول الله عزّ وجلّ **﴿لا خيرَ في كثيرٍ منْ نجواهم إلا من أمَرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين النّاس﴾** [النساء: ١١٤] وشعارها أيضاً قول الله تعالى: **﴿وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾** [آل عمران: ٩]، وقد عرفت عائشة أنَّ الأَمْر بالإصلاحِ مخاطبٌ به النّاس جيعهم ذكورهم وإناثهم، ولكنَّ أَمْرَ الله كان قَدَراً مَقْدُوراً، فلمْ يقعْ إصلاح، ودارت رحى الحرب، واشتدّ الطّعان بين النّاس، وطُعن جمل عائشة نفسها، وعَرْقَبه بعضهم، فاحتملها أخوها محمّد بن أبي بكر إلى البصرة، ثم أركبها سيّدنا علي رضي الله عنه إلى المدينة في ثلاثين امرأة، فوصلت إليها برّة تقية مجتهدة مصيبة مثابة في تأويلها، مأجورة فيما فعلت؛ إذ كلّ مجتهد في الأحكام مصيب.

هذه هي الأسباب ملخصة من المصادر وقد عرضتها بهذا التبسيط ليزول الإشكال في سبب خروجها إلى موقعة الجمل فرضي الله عنها وأرضاها.

وفي ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خَلَتْ من شهر رمضان، توفيت أمّ المؤمنين عائشة، وصعِدتْ روحها إلى ربِّها راضيةً مرضيّةً، ولما سمعت أمّ المؤمنين أمّ سلمة الصًّرخة على عائشة قالت: والله لقد كانت أحبَّ النَّاس إلى رسول اللهﷺ إلا أباها[1].

ودُفِنَتْ من ليلتها بعد صلاة الوتر وهي يومئذ ابنة ست وستين سنة[2]. وقدم أبو هريرة رضي الله عنه فصلّى عليها، فاجتمع الناس، ونزل أهلُ العوالي، وحضروا جَنَازتها، فلم تُر ليلة أكثر ناساً منها.

ومن الجديرِ بالذّكر، أنَّه نزل خمسة من محارمها في قبرها وهم: عبد الله بن محمّد بن عبد الرّحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر[3]، ولما توفي رسول اللهﷺ كان عُمْر عائشة ثمان عشرة سنة[4].

وفي البقيعِ، يثوي جثمان أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها إحدى نساء أهل البيت الذي أذهب عنه الرِّجس وطهّره تطهيراً، وإحدى نساء الدُّنيا فَضْلاً وعلماً وجوداً ومعرفة.

وقبل أنْ نقولُ وداعاً، فلا يحسبنَّ الذين يقرؤون سيرة أمّنا عائشة أنّا أَحَطْنا بسيرتها كاملة، فذلك ما لا يُقدرُ عليه، ولكنّي حاولت إبراز دورها العلمي في مجال نساء أهل البيتِ النّبويّ الطّاهر الكريم، وإبراز شخصيتها الأدبية والاجتماعية لتكون لنسائنا أسوة حَسَنَةَ يقتدين بها. وأرجو الله عزَّ وجلَّ أنْ يوفّقنا لما فيه الخير والسَّداد في أعمالنا، إنّه نعمَ المولى ونعم النَّصير.

---

(١) نساء مبشّرات بالجنّةِ (٢/٥٠).
(٢) طبقات ابن سعد (٨/٧٦).
(٣و٤) أسد الغابة (٦/١٩٢).

أُمُّ المُؤمِنين

حفصة بنت عُمر

رضي الله عنها

ـ صوَّامة، قوَّامة، تقيّة، نقيّة، من أهل الجنَّة.

ـ تلميذةٌ نجيبةٌ في مدرسة نساء أهل البيت، وقد حَفظتْ ستين حديثاً.

ـ فقيهةٌ عالمةٌ من عالمات النِّساء في عصر النّبوة.

ـ كانت من الكَاتباتِ، وكانت حارسة للقرآنِ الكريم، وكان لها أثر كريم في جْمعِ القُرآن الكريم.

ـ فضائلها كثيرة جداً، وتوفيت بالمدينةِ سنة (٤٥هـ).

أُمّ المؤمنين

حفصة بنت عمر رضي الله عنها

طِيْبُ عرْفِ العُوْدِ:

هل نستطيعُ أنْ نهمسَ في أذنِ الجوزاء لنقول: إنَّ ضيفةَ حلقتِنا اليوم تَنْتَظمُ في عِقْد أهلِ البيت الذي أذهب الله عنه الرِّجْس وطهَّره تطهيراً؟!

ومَنْ تكونُ ضيفتنا هذه التي نرصِّعُ كتابنَا بذكْرِها؟ ونمتعُ الأسماعَ بسيرتها وسيرة مَنِ انتظمْنَ في العِقْدِ الفريد... العِقْد النّبويّ تحت ظِلال بيته الشّريفﷺ؟.

قبل أنْ نُفْصِح عن هُوِيَّتِها، لا بدَّوأنْ نعرفَ أن أباها معروفٌ بطيبِ عرفِ عُودِه، ثابت الأصول في الحَسبِ والنَّسب، معروفٌ عند الخاصِّ والعام.

ومَنْ منّا لا يعرفُ الذي لا تطيبُ المجالس إلا بذكره؟ ولا تحْسُن السِّير إلا بصحبته؟.

ذلكم هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والد ضيفتنا اليوم، وإنْ شئتَ فَقُلْ: مَنْ نحنُ في ضيافتها، ومَنْ نعيش أرغد اللحظات في أفياءِ سيرة حياتها، وحياة أهل البيت النَّبويِّ الكُرماء، فما أَمْتَع اللحظاتِ التي نقضيها مع سِيَر أَعْلام النُّبلاء!!!

وهذه الكريمة ابنة الكريم، النَّبيلة ابنة النَّبيل، اختصَّتْهَا أمُّ المؤمنين عائشة

بقولها: هي التي كانت تُساميني من أزواجِ النَّبيِّ ﷺ[1].

ولم تكن أمُّ المؤمنين عائشة لتخلعَ هذا الثَّناء على ضرّتها من أجلِ الثَّناء فحسب، وإنَّما كانت ضرّتُها منَ النِّسوة اللاتي ذهب الدَّهْر بمقالاتهنّ، وعَرفَ مقاماتهنّ فَضْلاً ودِيْناً وصيانةً وورعاً.

عندما بدأ الحافظُ أبو نُعيم الأصبهانيّ ـ رحمه الله ـ في ترجمتها، قدَّم لها بقوله:

الصَّوَّامةُ القوّامَةُ، المزريةُ بنفسها اللوّامة، وارثةُ الصّحيفةِ الجامعةِ للكتاب[2].

وهل هناك منزلة أرفع في العيادة من الصَّلاةِ والقيامِ؟! وهاتان الصِّفتان مِنْ أخصِّ صفات ضيفتنا في هذه الصَّفحات.

إذن فحديثنا سيكون عن واحدةٍ ممَّنْ شملتهنّ العنايةُ الإلهيّة، فارتقين إلى سدَّةِ أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن، وهي كما ذكرها الذّهبيّ ـ رحمه الله ـ حفصة أمّ المؤمنين، السِّتْر الرّفيعُ بنت أميرِ المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطّاب رضي الله عنها وعنه[3].

---

(1) سير أعلام النّبلاء (٢/٢٢٧).

(2) حلية الأولياء (٢/٥٠).

(3) سِيَرُ أعلام النّبلاء (٢/٢٢٧ ـ ٢٣١) ونساءٌ مبشّرات بالجنّة (٢/٢١٥ ـ ٢٨٢) ومسند أحمد (٦/٣٨٣) والمعارفُ (ص١٣٥ و٥٨ و١٨٤ و٥٥٠) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/٣٣٨ ـ ٣٣٩) والمحّبر (ص٥٤ و٨٣ و٩٢ و٩٥ و٩٨ و٩٩ و١٠١ و١٠٢) ونسب قريش (ص٣٤٨ و٣٥٢) وأنساب الأشراف (١/٢١٢ و٢١٤ و٤٢٢ و٤٢٨ و٤٣١ و٤٤٨ و٤٥٧) وتاريخ الطّبري (٢/٥٨ و٢١٣ و٢٢٦) و(٣/٩٢) والكامل لابن الأثير (٢/١٤٨ و٣٠٨) و(٣/٥٣ و٩٤) وأُسْد الغابة (٦/٦٥ ـ ٦٧) ترجمة رقم (٦٨٤٥) والعبر (١/٥ و٥٠) ومجمع الزّوائد (٩/٢٤٤) وتهذيب التّهذيب (١٢/٤١١ و٤١٢) والعِقْدُ الفريد (٤/٢٨٦) وعيون الأثر (٢/٣٠٢) والإصابة (٤/٢٦٤) والسّمط الثّمين(ص٩٥ ـ ٩٩) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (عهد معاوية ص٤٢ ـ ٤٤) وحلية الأولياء (٢/٥٠) والاشتقاق (ص١٢٤) وطبقات ابن سعد (٨/٨١ ـ ٨٦) وشذرات الذّهب (١/٢٢٩) والوافي بالوفيات للصّفدي (١٣/١٠٥) وصفة الصَّفْوة (٢/٣٨) والاستيعاب (٤/٢٦٨) والبداية

لَحَظَاتٌ مَعَ السَّابِقِينْ:

الحياةُ حلوةٌ رقيقةٌ متدفِّقةٌ بعطائها مع قَصَصِ السَّابقين الأوَّلين إلى دوحةِ الإيمان الباسقة؛ هؤلاء السَّابقون هم الصَّفْوة المختارةُ من أصحابِ رسول الله ﷺ، أولئك الذين تلاشت قلوبهم في محبته واتّباعه، وعرفوا الله عزَّ وجلَّ عن طريقهِ، فاستضاءتْ نفوسُهم بهِ، واستنارتْ عقولُهم بهديِهِ، وفاءت قلوبُهم إلى ذِكْره آناء الليلِ وأطرافَ النَّهار.

مِنْ هؤلاء السَّابقين، حفصة ابنة الفاروق رضي الله عنهما، حيث نشأَتْ، ونشأَ معها حبُّها للإسلامِ، ومنذ أن عرفت الحياة رأت أن الإسلام ينبع من حولها، ويفيض بأنواره على البيت العُمَرِيِّ الذي غدا البيت الثَّاني بعد البيت البَكْرِيّ في أمِّ القَرى ومَنْ حولها.

رأت حفصةُ أباها وهو يجهر بإسلامهِ، ورأتْ أخوالها أبناء مظعون، وهم من سَاداتِ الصَّحابة، كما رأتْ عمَّها زيدَ بنَ الخطَّاب أحد فرسان مدرسة النّبوَّة، ورأت عَّمتها فاطمةَ بنتَ الخطاب وزوجها سعيد بن زيد، رأت هؤلاء جميعاً

= والنِّهاية (٨/ ٣٠) وجوامعُ السِّيرة النَّبويّة (ص٣) والسِّيرة النَّبويّة (٢/ ٦٤٥) والسِّير والمغازي (ص٢٥٧) والمستدرك (٤/ ١٤ و١٥) وطبقات خليفة (ص٣٣٤) والمعرفة والتَّاريخ (١/ ٤٤٧ و٤٥٢) و(٢/ ٥٦ و١٥٣ و١٨٨ و٦٩٨ و٧٤٠ و٤٧٨ و٧٦٥) وأزواج النَّبي لأبي عبيدة (ص٦٧ و٦٨) وجمهرة أنساب العرب (١/ ١٦٥) وأعلام النِّساء (١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٧) وأزواج النَّبي للصالحيّ (ص١٣٧ ـ ١٤٥) والفصول (ص٢٤٤) وكنز العمال (١٣/ ٦٩٧) والمجتبى من المجتبى (ص٩٣) ومروج الذَّهب (٢/ ٢٨٨) وتقريب التَّهذيب (٢/ ٥٩٤) والمغازي النَّبوية للزّهريّ (ص١٣١ و١٤٦ و١٧٠ و١٧٥) ومختصر تاريخ دمشق (٢/ ٢٧١ و٢٧٨ و٢٧٩) وجلاء الأفهام (ص١٨٥ ١٨٦) وزاد المعاد (انظر الفهارس ٦/ ٣٠٥) ودرُّ السَّحابة للشوكاني (ص٣٢٣) وغررالتبيان (ص٤٢٠ و٤٢٣ و٥١٢ و٥١٣) ومفحمات الأقران (ص١٣٣ و١٦٦ و١٦٨ و١٩٨ و١٩٩) والمواهب اللدنية (٢/ ٨٣) ومسند أبي يعلى (١٢/ ٤٦١ ـ ٤٨٦) وغيرها من المصادر الحديثية وكتب التفسير والتراجم والطبقات.

يهتدونَ بهدي نُور النّبوّةِ، فيمشونَ في نورِ الله عزَّ وجلَّ، فتهون أمامهم مصاعبُ الحياةِ، لأنّهم نظروا فرأوا أنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقى...

تفاعلتْ حفصةُ رضي الله عنها مع هذه البيئةِ النَّقية الطَّاهرة، ورأتِ الفيوضاتِ الإلهية تكتنفُ أباها الذي كان يرى في ابنتهِ حفصة سِرّاً لمْ يستطعْ أنْ يكتشفَه وهو في مكةَ، فقد كان يشعرُ نحوها بميلٍ وعطفٍ واحترامٍ.

بلغتْ حفصةُ سِنَّ الزَّواجِ، فتقدَّم لخطبتها أحد أشراف بني سَهْم، وهو خُنَيس بن حذافة السَّهميّ(1) وهو أحد أفذاذِ السَّابقين الأولين إلى الإسلامِ، أَعْلَنَ إسلامه مبكّراً قَبْلَ دخول النّبيّ الكريمﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزوميّ، وكان إسلامُه قد تمَّ على يَدِ شيخ الصَّحابة وسيّدهم؛ سيّدنا أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

تمَّ زواجُ حفصةُ بنتِ عمر من خُنيس بن حُذَافة، وفرح عمر رضي الله عنه بهذا الزَّواج الميمون، وبهذا الصِّهْرِ الكريم، وأخذ الزَّوجان المؤمنان يتابِعان حياة الإيمان تحت ظلِّ الرَّحْمَةِ المحمّديّة، ولكنَّ جموعَ فجارِ المشركينَ في مكةَ، غصَّتْ وشرقتْ لإسلامِ هذه النُّخبة الممتازة من صفوة المجتمع القرشيّ، وراحت تصبُّ غضبها على كلِّ مَنْ تقدرُ عليه، وراحت تعارضُ الدَّعوة بكلِّ سبيلِ تَقْدِرُ عليه، وإذ ذاك أخذتْ جموعُ المسلمين تنحدرُ نحو الحبشة، إلى ظلِّ عَدْلِ ملكها الذي لا يُظلمُ عنده أَحَد.

كان خُنيس بن حذافة في مقدمة المهاجرين إلى الحبشة، وكان في الثُّلة التي هاجرتْ وتركتْ أرضَ مكة لتنشر الإسلام في الحبشة، وتنجو من وطأةِ عذاب المشركين، ولكن خنيساً رضي الله عنه هزَّة الشَّوق إلى رسول اللهﷺ، وإلى مرتعِ صباه في أمِّ القرى، وتذكّر البيت العتيق، وراحتِ الذِّكْريات تراودُ ذهنه صباح مساء، فلم يقوَ على الصَّبر والبقاء في أرض الحبشة، فشدَّ رحاله وعاد إلى مكةَ، ومن ثمَّ جاء الأَمْرُ بالهجرةِ إلى عرين الأَنْصار في المدينة المنوّرة.

---

(1) الاستيعاب (٤/٢٦٠) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٣٨).

صحب خنيسٌ زوجَه المؤمنة الصَّابرة حفصة بنت عمر، وانطلقا مهاجرَيْنِ إلى المدينةِ المنوَّرة، وهنالك استقبله أحد الأنصار الأخيار، وهو رفاعة بن عبد المنذر، الذي أكرم مثواه وأَحْسَنَ نُزُلَه.

ولّما تمَّتْ هجرةُ المؤمنين، هاجر النَّبيّ ﷺ ولحقَ بأصحابهِ في المدينة، وهناك آخى بين أصحابه، وكان نصيب خُنيس في المؤاخاة، أحد فرسان الأنصار، وأحد الفدائيين الأخيار ويُدعى أبو عَبْس بن جبر الأنصاريّ.

سُرَّ خنيس وأبو عبس بهذه المؤاخاة، فكلاهما فارسٌ من فرسان الرَّسول ﷺ، ومتخرّجٌ في مدرسة النّبوّة. وهكذا يُعتبر خُنيس رضي الله عنه من أصحاب الهجرتين: إلى الحبشة، وإلى المدينة المنوَّرة.

زَوْجُ الشَّهِيْدِ.

كانت حفصةُ وخنيس رضي الله عنهما يتلقّيان تعاليم الإسلام في المدينة المنوَّرة، ويَتَنعّمان بنعيمهِ، ويَنْعمان بظلّهِ، وتابعت حفصة رضي الله عنها حياة العِلْم وحبَّ المعرفة، فأخذت تحفظُ ما يتنّزل به الرّوحُ الأمين على رسول الله ﷺ وتعيهِ، وتفكّرٍ في معاني القرآن الكريم تفكيراً رفعها إلى مصافّ العابدات.

أمّا زوجُها خُنيس بن حذافة، فقد راح يرقبُ تحرّكات المشركينَ الذين أخذوا يثيرونَ الشَّغَبَ على المسلمين، ويعدُّ نفسه ليومٍ يلتقي كبّارَهم كيما يجاهد في سبيل الله حقَّ جهاده.

وأطلتِ السَّنَةُ الثَّانيُة للهجرة على المدينة المنوَّرة، وراحت قريش تعدُّ العُدة لقتالِ المسلمين في بَدْر، وأقسم زعيم فجّار الكفّار أبو جهل بن هشام قائلاً: واللهِ لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً، فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجُزُر، ونطعم الطَّعام، ونُسقى الخمر، وتعزفُ علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها[1].

(١) رجال مبشّرون بالجنّة (١/١٦).

وانطلقَ المشركون نحو بدر، وهناك خَرجَ المسلمون بقيادة الحبيبِ المصطفى ﷺ، وكان مِنْ بين جنود الرَّحمان خُنيس بن حذافة زوج حفصة رضي الله عنها، فقد خرج ابتغاءَ مرضاة الله عزَّ وجلَّ، وليخرس صوتَ أبي جهل، وشاركه شرف الخروج ستة من أقرباء وأهل زوجه حفصة وهم: أبوها عمر بن الخطّاب، وعمّها زيد بن الخطّاب، وأخوالها: عثمان وعبد الله وقدامة بنو مظعون، وابن خالها: السَّائب بن عثمان بن مظعون، فيكون سبعة رجال من أهل حفصة شاركوا في غزاة بدر، ونُظِموا في عِقْد البدريينَ الذين قيل لهم: اعملوا ما شئتم فقد وجَبَتْ لكمُ الجنَّة(١)، وكانوا من خيار المسلمين.

وجاهد خنيس رضي الله عنه في معركة بَدْرٍ حقّ الجهاد ـ ولم يكن من بني سَهْم غيره في فريق المسلمين ـ وقاتل قتالاً شديداً أغاظَ به المشركين، إذ خاض في صفوفهم ومزّقها، وراح أبطال المسلمين وفيهم فتى بدر سيّدنا عليّ بن أبي طالب، وفتى قريش حمزة بن عبد المطلب(٢)، يفعلان بالمشركين الأفاعيل أيضاً.

كان خُنيس يرى بسالةَ فرسان المسلمين فيزداد اندفاعاً، وشاهَد وشَهِدَ أسد الله وأسد رسوله يمشي إلى الكفّار، وقد أطلَّ من حسامه المنون، فما أن يرى صناديدهم ريشةُ النّعام التي في صَدْره حتى تنخلعَ قلوبهم، فقد بدأ المعركة بقتل عدد من أسيادهم منهم: عتبة بن ربيعة(٣) العبشميّ، والأسود بن عبد الأسد المخزوميّ، وعقيل بن الأسود وغيرهم.

أمّا خُنيس بن حذافةَ رضي الله عنه فقد راح يقاتل بضراوةٍ وبسالةٍ، حتى

---

(١) قطعة من حديث طويل في صحيح البخاري برقم (٣٧٦٢).

(٢) اقرأ سيرة سيدنا حمزة بن عبد المطلب في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» (١/٧ ـ ٣١) ففي سيرته امتاع للأسماع ومواقف تهذب الطباع رضي الله عنه وأرضاه.

(٣) اقرأ حياة هذا الفاجر عتبة بن ربيعة في كتابنا «المبشّرون بالنار» الجزء الأول، فقد سجل أعماله المخزية في صفحة حياته.

أصابته سيوفُ المشركين في مواضعَ من جسمه، وانبعثتِ الدِّماءُمن جروحه، لكنَّه ظلَّ يقاتل مع المسلمين حتى ولّى المشركون الأَدْبَار، وهم لا يلوون على شيء.

هذا، وقد وضعتِ الحربُ أوزارها، ولّما تغب شمسُ ذلك اليوم، وفرحَ المؤمنون بنَصْرِ الله عزَّ وجلَّ، حيثُ تمَّ القضاء على أعمدة الشِّرك وغطارفتهم كأبي جهل بن هشام، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأميّة بن خلف، وغيرهم ممن لاقَوْا حتفهم في بدر، وغرقوا في طوفان الخزي تحتَ التُّراب والحجارة، وقُذِفوا في قُليب بدر، وتلك نهاية الظَّالمين.

بقي رسولُ الله ﷺ ثلاثة أيّام في بَدْر، ريثما استردَّ المسلمون نشاطهم، وكان خُنيس قد توقّف النَّزف من جراحه، وها هو يسيرُ في ركاب رسول الله ﷺ ومَنْ معه تخفق على رؤوسهم رايات النَّصر، وفي المدينة أخذ سهمه من الغنائم، وعاد خنيس إلى زوجه حفصة التي تلقَّتْ أنباء النَّصر الإلهيّ من قبل، وأثنت على زوجها الذي عادَ وآثار الجهاد على جسمه، تشهد له لا عليه، وربّما حدثها خنيس عمَّا لاقَوْه من العنايةِالإلهيّة في هذه الغزوة المباركة.

نزل القرآن الكريم يشرح خطوات تلك المعركة، وقرأت حفصة سورة الأنفال، ويبدو أنَّها توقَّفتْ كثيراً عند قوله تعالى: **﴿وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النَّصرُ إلا منْ عندِ الله إنَّ الله عزيز حكيم﴾** [الأنفال: ١٠] وفرحتْ حفصةُ بنصرِ الله، وراحت تعالجُ جراح زوجها، فقد أخذت تنتقضُ عليه وتؤثِّر على صحته؛ ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ كَتَبَ له الشَّهادة، فلمْ تمض أيام قلائل حتى أسلم روحه إلى بارئها، ومات خُنيس رضي الله عنه متأثراً بجراحاته وكُتِبَ في قائمةِ الشُّهداء الذين هم أحياءٌ عند ربّهم يرزقون.

ولّما عَلِمَ رسولُ الله ﷺ بوفاة خنيس[1]، صلّى عليه، وأَمَرَ أنْ يُدفَنَ في البقيع إلى جانب السَّلفِ الصَّالح عثمان بن مظعون خال حفصة رضي الله عنهم جميعاً.

---

(١) تشير بعض المصادر إلى أن خنيس رضي الله عنه قد توفي بعد غزاة أحد.

وحزنتْ حفصة حزناً شديداً على زوجها خنيس الذي قضى نَحْبَه بعد زواج لم يطُلْ كثيراً، ولكنَّ أمْرَ الله كان قدراً مقدورا.

أسلمت حفصةُ أمْرَها إلى الله، واستسلمت لقضائهِ الذي لا مردَّ له، وانصرفت لعبادتها وصِلَتها مع الله عزَّ وجلَّ، وفي بيتِ أبيها واصلتْ طاعة الليل بعبادة النّهار، ووصلتِ الصَّلاةَ بالصِّيامِ، لعل الله يجبرُ كَسْرها، فقد ترمّلت ولما ينْقَضِّ ربيعها الثَّامن عشر.

حَفْصَةُ وَسُنَّةٌ حَسَنَةٌ:

بقيتْ حفصةُ أرملةً بضعة أشهر، وكانت بوادرُ الذّكاء ظاهرةً على قَسَماتِ وجهها، وكذلك كانت بوادرُ الحزن ما تزال مرتسمةً تبدو على تصرفاتها، ولم تَخْفَ علائم الحزنِ على العبقريّ الذّكي عمر الذي كان ينظر بعينهِ اللّماحة، ويبصر بنور البصيرة ما تعانيه حفصة ابنته من ألَمٍ وضيق، ولكنّه كان يشعر بالسُّرور يغمرُ أرجاء نفسه حينما يَلْحَظُ تعلّقها بالعبادة، وصِلَتَها بالصَّلاح ومَحَامِدِ المكارم.

كان الحبيبُ المصطفىﷺ يسأل عن أحوال أصحابه، وعن شؤونهم، ولا شكَّ أنَّهُ عَرفَ ما حلَّ بزوجِ الشَّهيد خنيس، وابنةُ صَدِيقه عمر بن الخطّاب، وها هي الآن في عدّتها، وقد رثى لحالها. ويبدو أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وهو الصَّدِيقُ الصَّدُوق، قد لاحظ أنَّ رسولَ اللهﷺ يعرِّضُ بخطبةِ حفصة كيما تدخل رحاب البيت النّبويّ لتغدو إحدى أمّهاته اللاتي أذهبَ الله عنهن الرِّجس، وأكرمهن ومَنَّ عليهن بالطَّهارة، ولكنَّ سِرَّ رسول اللهﷺ، سيحفظُ في صَدْرِ الصِّدِّيق أبي بكر ولن يَطَّلِعَ عليه أحد.

أحبَّ الفاروقُ عمر أنْ يَسنَّ سنَّةً حَسَنة في المجتمع الإسلامي، فأخذ يبحثُ عن منبعِ السَّعادة لابنته حفصة بطريقةٍ لعلّها تكونُ جديدة على الصَّحابة الكرام ولكنَّها منطقيةٌ، فيها دِفء الإسلام، وصدق الحنان، وفيها كلّ معاني الخير والصَّلاحِ.

وأخذ الفاروقُ رضي الله عنه يفكِّرُ في الطَّريق الذي تثمرُ فيه فكرته التي

بَرقَتْ في ذهنه منذ فترة، فوجد أنَّ أقربَ الأساليب لتحقيقها أنْ يفاتَح أحبابه وأصحابه بما يعتملُ في صدره، وبما يجول في خاطره.

نظر عمرُ رضي الله عنه إلى صديقه عثمانَ بنِ عفان، فإذا بعثمانَ يتلوّى من الألَمِ والحزنِ على فراق زوجه رقيّة ابنة رسول الله ﷺ، وتكاد نفسه تذوبُ حزناً على فراقها، وإنَّ بين ضلوعهِ ناراً تتلظّى، وفي الحَلْقِ جفاف، وفي القلب سهام على رحيلِ ابنة الحبيب المصطفى ﷺ.

رفرفتْ على شفاه عمر فكرة؛ أيمسحُ آلامَ عثمان بن عفان بأنْ يعرضَ عليه ابنته حفصة كيما تكون زوجاً له، وهو يعلم أنَّ حفصةَليستْ كرقية بنتِ النّبيّ ﷺ، ولكنّه آثَرَ أنْ يبعدَ عنه وحشة الوحدة، ولما قويت في ذهنه هذه الفكرة، تعرّضَ لعثمانَ رضي الله عنه وعرض عليه ـ بعد أنْ واساه برقيّة ـ وقال له: إنْ شئتَ أنكحتك ابنتي حفصة!.

ويظهر أنَّ عثمانَ رضي الله عنه قد هزَّته هذه المفاجأة، ولكنَّه أجابَ عمر إجابةً شافية فقال: سأنظرُ في أمري.

ولبثَ عمر بضعة أيام، ثمَّ لقي عثمان ثانية، وذكّره بزواج ابنته حفصة، فقال عثمان: دعني يا ابن الخطّاب، فقد بدا لي أنْ لا أتزوَّجَ في يومي هذا.

وشعر عمرُ بنُ الخطاب إذ ذاك بضيقٍ يجثمُ على صدره، ووجَدَ في نفسه شيئاً من عثمان أنْ رفضَ ابنته العابدة القانتة، وربّما عَذَرَ عثمان، فحزْنُه على زوجِهِ رقيّة ما يزال يحزُّ بنفسه.

مكثَ عمرُ أيّاماً يفكّرُ بمنْ يعرضُ عليه ابنته، فإذا به يلتقي الصِّدِّيق، ومَنْ كالصِّدِّيق؟ إنَّه نِعَمَ الصَّدِيق، ونعم العون على المصاعب، وربّما يجد عنده السَّعادة لابنته حفصة، فتقدَّم منه وقال له: يا أبا بكر، إنْ شئتَ زوّجتك حفصة ابنة عمر..

وهنا صمتَ أبو بكر رضي الله عنه بعد أنِ ارتسمتْ على شفتيه ابتسامة رقيقة رفيقة بعمر، ولكنَّ عمَر وَجَدَ عليه أكثر من عثمان، وتأثّر من موقفِ هذين

الصِّدِيقَيْنِ اللذَيْن أحبَّ أنْ يكونا عوناً على ما حلَّ به وبابنته، وحَسِبَ أنَّه قد سَنَّ سنَّةً حَسَنَةً نحوهما، وأسدى إليهما معروفاً يزيد من رصيده عندهما.

إلا أنَّ عمرَ رضي الله عنه لم يتوقفْ عند ذلك الحدِّ، وأحبَّ أنْ يبثَّ حزنَه إلى حبيبِهِ محمّدﷺ، وذهب إلى الحبيبِ المصطفىﷺ، وشكى حاله، فقال له رسول اللهﷺ مواسياً مبتسماً: «يتزوّجُ حفصة مَنْ هو خير مِنْ عثمان، ويتزوّج عثمان مَنْ هي خير مِنْ حفصة»(1).

ومضتْ أيامٌ فإذا النَّبيﷺ يزِّوجُ عثمان ابنته أمّ كلثوم بعد وفاة أختها رقية؛ وبرقتْ في ذهنِ عمر فكرة ندية؛ حقاً إنَّ أمَّ كلثوم خيرٌ من حفصة!!! ولكنْ مَنْ هو خيرٌ مِنْ عثمانَ؟

وأشرقت في نفسِ عمر بارقة أَمَلٍ رفيقة، أيكون الرَّسولُﷺ خيراً مِنْ عثمان؟!

أتكون حفصة زوجاً له؟ إنَّ رسولَ اللهﷺ يتزوَّجُ بوحيٍ إلهيٍّ، وهو والله خيرٌ منْ عثمان وعمر وآل عمر.

وجاء ما بنفس عمر، فقد خطبَ رسولُ اللهﷺ ابنته حفصة، ثم تزوَّجها، وارتقتْ إلى شرفٍ لا يُدانيه شرفٌ، إذ أضحتْ من أمّهات المؤمنين وهذا ما جعل عمر رضي الله عنه يسعدُ بهذا النَّسبِ الكريم.

وفي هذه الواقعة اللطيفة يقولُ سعيد بن المسيّب ـ رحمه الله ـ وهو أحدُ كبار فقهاء التَّابعين: فَخَارَ الله لهما جميعاً؛ كان رسولُ اللهﷺ لحفصةَ خيراً من عثمانَ؛ وكانت بنتُ رسولِ اللهﷺ لعثمان خيراً من حفصة(2).

---

(1) أخرجه البخاري في النكاح (٩/٨١ ـ ٨٥) برقم (٥١٢٢) باب: عرض الإنسان بنته أو أخته على أهل الخير. وأخرجه أحمد (١/١٢) وانظر: طبقات ابن سعد (٨/٨٢) وأزواج النبي للصالحي (ص١٣٨) والاستيعاب (٤/٢٦٠ و٢٦١) وأسد الغابة (٦/٦٥) وأنساب الأشراف (١/٤٢٣) وغيرها كثير من المصادر.

(2) طبقات ابن سعد (٨/٨٣).

وبرزَ الصِّدِّيقُ أبو بكر رضي الله عنه ليعتذرَ من عمر قائلاً له: لا تجد[1] عليَّ يا عمر، فإنَّ رسول الله ﷺ قد ذكر حفصة، فلم أكن لأفشي سِرَّ رسولِ الله ﷺ، ولو تركها، لتزوجتها[2].

وهنا ظهر لعمر مقام سيِّدنا أبي بكر، وأوّليّته في مقام الصِّدق، وصون سِرِّ رسول الله ﷺ، وأدركَ الحكمةَ الإلهيّة من هذا الزَّوَاج الميمون، وحَمِدَ الله عزَّ وجلَّ، وهتفَ قائلا: ﴿هذا مِنْ فَضْلِ ربيّ ليبلوني أأشكر أمْ أكْفُر ومَنْ شكر فإنّما يشكر لنفسه ومَنْ كفر فإنَّ ربيّ غنيٌّ كريم﴾ [النمل: ٤٠].

وطفقَ عمرُ رضي الله عنه يثني على الله عزَّ وجلَّ بما هو أهله، ويكثرُ من شكره أنْ مَنَّ عليه وعلى ابنته بالنّبيِّ المصطفى ﷺ، الذي أخرجهم مِنَ الظُّلمات إلى النُّور، وجَبَر كَسْرَه وكَسْرَ حفصة، حيث أضحى ﷺ زوجاً لابنته العابدة القانتة.

كان هذا الزَّوَاج الميمون المبارك على الرَّاجح سنة ثلاث من الهجرة النّبويّة، وكانت حفصة إذ ذاك تقتربُ من عشرين سَنَةٍ رضي الله عنها.

هذا وقد سبقتها إلى البيت النّبويّ الطّاهر سَوْدَة بنت زَمْعَةَ، وعائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنهما، وكان عمرُ يوصي حفصة ألّا تزاحم ابنة الصِّدِّيق

---

(١) لا تجد: أي لا تغضب.

(٢) أخرج الخبر بطوله الإمام البخاريّ في صحيحه، في النّكاح (٨١/٩) برقم (٥١٢٢) وانظر: طبقات ابن سعد (٨٢/٨) والسّمط الثمين (ص٩٦) وسير أعلام النّبلاء (٢٢٨/٢) ونساء مبشّرات بالجنة (٢٦١/٢) والاستيعاب (٢٦١/٤) وغيرها من المصادر المتعددة.

وهنا تظهر مكانة الصِّدِّيق رضي الله عنه الذي حفظ سِرَّ رسولِ الله ﷺ، إذ القدرة على حفظ السِّرِّ للذات أو الغير، هو ضَرْبٌ من أعظم ضروبِ الاحترام للنفس، ومن هنا مكانة أبي بكر رضي الله عنه، وكيف وقف موقف الأمين ـ كما هو شأنه ـ من سِرّ رسول الله ﷺ حين علم أنَّ النّبيّ ﷺ يعزمُ على خطبة حفصة بنت عمر، وتحمل غضب عمر، حتى تزوجها النبي ﷺ، وهناك علم عمر ما سبب سكوت الصديق، فأكرم به!!

في شيءٍ، وخاصة رسول الله ﷺ الذي عُرِفَ بحبِّه لعائشة وأبيها، وربّما كان يوصيها بقوله: أين أنتِ من عائشة، وأين أبوكِ من أبيها؟!.

حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ رضي الله عنها:

عندما دخلتْ حفصة البيت النَّبويّ زوجة كريمة لرسولِ الله ﷺ، عَمِلَتْ جهدها كلّه لتكسبَ مرضاة الله عزَّ وجلَّ، ومرضاة رسوله ﷺ، وبذلت من الرَّصانة والتّقوى وحبّ المعرفة، ما أحلَّها محلاً كريماً لدى النّبيّ الكريم ﷺ، فقد كانت في عصمته ورعايته، يفيضُ عليها مِنْ عطفه ومودّته ما جعلها تخطو في العلم والتّقوى خطوات عظيمةٍ جعلت منها تلميذةً نبويّة نجيبة، وكانت حفصةُ تعمل لتصلَ إلى درجة الصِّدِّيقة عائشة في العلم واكتساب رضا النّبيّ الكريمِ ﷺ.

ظلّت وصيةُ عمرَ رضي الله عنه ماثلةً أمام عيني حفصة بألاّ تزاحم الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق في شيءٍ، وحاولت حفصة بوسعها أنْ تنفِّذ هذه الوصيّة. بحذافيرها، وكان عمر يتفقد أحوال حفصة من حينٍ لآخر، ويراقب سلوكها في البيت النّبويّ الطّاهر..

كانت حفصةُ رضوان الله عليها تدركُ أنّها ليست في درجةِ عائشة في العِلْم، لا، بل عائشة قد سبقتها إلى قَلْبِ النَّبيّ ﷺ، وسبقتها بعلمها وفطنتها وإدراكها، ولهذا كلّه لزمت حفصة الوصية العمريّة، وأحبّت أن تكونَ في صفِّ عائشة رضوان الله عليها مهما تكنِ الأحوالُ والظُّروف[1].

---

(١) لعلَّ ما يؤيد فكرتنا تلك، ما حدثَ في بيت رسول الله ﷺ، فقد كان رسول الله ﷺ مع نَفَرٍ من أصحابه الكرام رضوان الله عليهم جميعاً، وأحبّت كلّ من السَّيّدتين أمّ المؤمنين حفصة بنت عمر، وأمّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنْ تعُد كلُّ واحدة منهما طعاماً، وقد فرغت أمّ المؤمنين حفصةُ من صنع وإعداد طعامها قبل أمّ المؤمنين عائشة، وقدمتِ الطّعام لرسولِ الله ﷺ، فأمرت به عائشة، وقلبت صفحة الطّعام، فتناثر الطّعام على الأرض وكسرت قصعة حفصة، فما كان من رسول الله ﷺ إلا وأنْ جَمَعَ أصول القصعة المكسورة والطّعام من على الأرض، وأكل مع أصحابه، ثم بعد ذلك أرسل

وفي غضونِ السَّنَواتِ القليلة القادمة، وفَدتْ إلى البيت النّبويّ الطّاهر زوجات أخريات، وانضمت إلى حفصةَ وسودةَ وعائشةَ نساءٌ كُنَّ أمّهاتٍ للمؤمنين، فلمْ تبقَ الأمور على ما كانت عليه، ويبدو أنَّ الغيرة قد تسللتْ إلى نَفْس حفصة، ووجدت فيها بعض الضَّعف البشريّ، فكان رسول اللهﷺ يعالج بحكمته تلك الأمور علاجاً رفيقاً رقيقاً كمسِّ النَّدى للزَّهْر، وكالأمِّ الرّؤوم لوحيدها الرّضيع.

لا تُرَاجِعي رَسُولَ الله

قُلنا: إنَّ عمرَ رضي الله عنه كان يهتمُّ بأَمْرِ النّبيِّ الكريمﷺ، ويعملُ على مرضاته بكلِّ سبيل وكان ينقل شعوره هذا إلى ابنته حفصة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، ولكنَّ حفصة وأمّهات المؤمنين عِشْنَ في كنفِ رسول اللهﷺ الذي كان يعاملهن معاملة رفيقة رقيقة، لم تكن عند أحدٍ مِنَ الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم، وربّما استغرب أحدهم وأخذه العجب من تلك المعاملةِ النَّديةِ لأمّهات المؤمنين اللاتي يراجعنَ رسول اللهﷺ أحياناً في بعض الأمور، ويسألنه عن بعض الآيات أو الأحكام أو الأمورِ الفقهية، وما شابه ذلك، فكانﷺ يجيبهن بحكمةٍ تناسب سؤالهن على وَجْهِ الاسترشاد والتَّعليم.

وفي مثلِ هذه الأمور وردتْ في حياتهﷺ مع زوجاتِه الطّاهرات، ومع أصحابه الكرام، أو مَنْ كان يَفِدُ عليه، وقد كانت حفصة أمّ المؤمنين رضي الله عنها ممن استرشدتِ الحبيبَ الأعظمﷺ في بشارته الشَّجريين[1] بالجنة.

ففي صحيحه أخرج الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ بسنده إلى جابر بن عبدالله الأنصاريّ رضي لله عنه قال: أخبرتني أمّ مبشر[2] أنها سمعتِ النّبيّﷺ يقول عند

= بقصعة عائشة إلى حفصة وقال: «خذوا ظرفاً مكان ظرفكم وكلوا ما فيها» نساء مبشّرات بالجنّة(٢/٢٦٣) بتصرف.

(١) الشّجريون: الصحابة الذين بايعوا تحت الشّجرة في الحديبية وهم أهل بيعة الرضوان.

(٢) اقرأ سيرة الصّحابية الجليلة أمّ مبشر الأنصاريّة في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (٢/٨٧ ـ ٩٣) ففي سيرتها فوائد جليلة ولمسات رائعة رضي الله عنها.

حفصة: «لا يدخل النّار إنْ شاء الله من أصحاب الشّجرة أحد الذين بايعوا تحتها».

قالت: بلى يا رسول الله؛ فانتهرها.

فقالت حفصةُ: ﴿وإنْ منكم إلا واردها﴾ [مريم: ٧١].

فقال النّبيُّ ﷺ: قد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثمّ ننجي الذين اتقوا ونذر الظَّالمين فيها جثيا﴾ [مريم: ٧٢][1].

والذي يظهر أنَّ هذا الخبر قد انتشر بين نساء المدينة، وعلمت به نساء النبي، ونساء الصَّحابة رضوان الله عليهم جميعاً، وعرفن ما جرى بين النّبيّ ﷺ وبين حفصة، وكيف أرشدها إلى الفهم السَّليم الصَّحيح.

وفي يومٍ من الأيام، كان عُمر بن الخطاب عليه سحائب الرِّضوان يحادثُ زوجه بحديث فيما بينه وبينها، واعترضتْ عليه في أَمْرٍ من الأُمور، فكبُر عليه ذلك أنْ تعترضَ عليه زوجه، ورأى أنَّ هذا التَّصرفَ غير عادي، وكاد ينزل غضبه بها لولا أنْ أخبرته أنَّها ليستْ وحدها تراجعه، وإنَّما هناك من هي أفضل منها تراجع مَنْ هو أفضل منه؛ ابنتُه حفصة أمّ المؤمنين. . . . . ويبقى رسول الله ﷺ سائر يومه غضبان.

كان عمر يسمع كلام زوجه وهو شبْه مذهول لما يتلقّى، كأنّها تتحدَّثُ بشيء من السِّحرِ، قال عمر في نفسه: أتراجع حفصة رسول الله ﷺ؟ لا أكاد أصدِّق ما أسمع، لعلَّ في الأَمْرِ شيئاً؟!.

لم يتوقفْ عمرُ بعد أنْ سمعَ ما سمع، فوضع ملابسه على كتفه، ثم انطلقَ

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النّووي (١٦/٥٨) وانظر: دلائل النّبوة للبيهقي - ٤/١٤٣) وطبقات ابن سعد (٨/٤٥٨) والاستيعاب (٤/٤٧١) وتفسير الخازن وبهامشه البغوي (٤/٢٥٦) ونساء من عصرالنبوة (٢/٩١) وتهذيب الأسماء واللغات (١/١٥٢) ومجمع الزوائد (٩/٣٠٤) ورجال مبشرون بالجنة (٢/٢٥٨) وغير ذلك من المصادر الحديثية والتفاسير وكتب السّيرة والطبقات.

مسرعاً نحو المسجد النّبويّ الشَّريف ثم يمَّم نحو بيتِ حفصة أمّ المؤمنين، فدخل عليها والغضب يبدو في وجهه، ثم توجّه إليها بالسُّؤال مستفهماً فقال: يا بنيّة، هل صحيح أنّك تراجعينَ رسول اللهﷺ حتى يظلَّ يومه غضبان؟!

فتجيبُ حفصة إجابة طبيعية: نَعَم يا أبت، والله إنّا لنراجعه..

قال عمر: وهل تهجره إحداكن اليوم إلى الليلِ؟

قالت حفصةُ: نعم يا أبتِ.

وهنا قال عمر بلهجةٍ صارمة: تعلمين يا حفصة أنّي أحذّرك عقوبة الله عزَّ وجلَّ، وغَضَبَ رسوله الكريمﷺ، وقد خَابَ مَنْ فَعَلَ ذلك منكنَّ وخَسِرَ، أفتأمنُ إحداكنَّ أنْ يغضبَ الله عليها لغضبِ رسوله!.

ثم أضافَ عمر قائلاً وقد بيَّنَ لها مكانَتَها ومكانَها في البيت النّبويّ: يا بنية لا يغرَّنّكِ هذه ـ أي عائشة ـ التي قد أعجبها حُسنها، وحُبُّ رسول اللهﷺ إياها! لا تراجعي رسول اللهﷺ وتسأليه شيئاً، وسليني ما شئت وما بدالكِ.

ثم إنَّ سيدنا عمر رضي الله عنه أخبرها بواقعةِ حالها من البيت النّبويّ وقال لها: والله لقد علمت أنَّ رسول اللهﷺ لا يحبّك، ولولا أنا لطلقك[1].

وصمتتْ حفصةُرضي الله عنها، واستجابتْ لنصيحةِ والدها، وقد كانت سامعةً مطيعةً لرسول اللهﷺ، ولكنْ لم تكن وحدها التي تراجعُ النّبيَّﷺ، بيد أَنَّ عمر لم يُرِدْ لابنته أنْ تَسلكَ هذا السُّلوك، بل تتأدب معَ رسول اللهﷺ بأدب النّبوة، وتؤدي ما عليها تجاه ربّها وزوجها رسول اللهﷺ، وتجاه البيت النّبويّ الطّاهر الذي أذهب الله عنه الرِّجس وطهّره تطهيراً.

حَفْصَةُ وَمَارِيَةُ وَدَرْسٌ قُرآنيّ لَطِيفٌ:

لما قدمَ سيّدنا حاطب بن أبي بلتعَةَ[2] من سفارته الموفَّقة من مصرَ، جاء

---

(١) انظر: نساء مبشّرات بالجنة (٢/٢٦٦ و٢٦٧) بشيء من التصرف.

(٢) اقرأ سيرته في كتابنا «رجال مبشّرون بالجنة» (٢/٢٦٧ ـ ٢٦١) ففي سيرته مواقف وضيئة رضي الله عنه.

وبصحبته هدايا من المقوقس عظيمِ القبط، ومن بين الهدايا جاريتان لهما مكان في القبط العظيم، هاتان الجاريتان هما مارية وسيرين بنتا شمعون.

وبينما كان حاطب في طريق عودتهِ إلى المدينة المنوَّرة، عرض الإسلام على ماريةَ القبطيّة ورغّبَها فيه، ففتحَ الله على بصيرتها، ورأتْ ببصيرتها محاسنَ الإسلام، فأسلمتْ وشهدت شهادة الحقّ، وكذلك أسلمتْ أختُها سيرين.

في المدينة المنوّرة اتخذ النّبيّ ﷺ مارية سُرِّية له، وأنزلها في بيتٍ لحارثةَ بن النّعمان الأنصاريّ، فكانت مارية على قُرْبٍ من مسجدِ النّبيّ ﷺ، وقرب دور نسائه الطّاهرات رضي الله عنهن.

وأعادَ وفودُ ماريةَ القبطيّة في هدايا المقوقسِ إلى رسولِ الله ﷺ، واصطفاؤها لنفسه ذكريات بعيدة، ذكريات نديّة عبقة، ترشح برحيق القرآن الكريم، ذكريات إهداء ملك مصر في الماضي البعيد، السّيّدة هاجر[1] المصريّة إلى إبراهيمَ خليل الرّحمن وأبي الأنبياء ـ عليه السّلام ـ إذ أضحت هاجر أمّ العرب لّما أنجبتْ إسماعيل ـ عليه السّلام ـ أبا العرب.

ومَنْ يدري، فلعلَّ مارية هذه تنجبُ غلاماً زكيّاً للحبيبِ المصطفى ﷺ؟!

راحت نساءُ النّبيّ ﷺ يرقبنَ هذه الوافدة الجديدة الجميلة التي قدمت مِنْ مصرَ، وكانت مِنْ أشدِّهن مراقبة لها: عائشة وحفصة رضي الله عنهما، ولما كانت حفصةُ وعائشةُ صديقتين لا سِرَّ بينهما، فقد راحت كلُّ واحدة منهن تبثُّ للأخرى قَلقَها ومخاوفها من هذه القبطية التي أخذتْ نصيباً من وقْتِ رسول الله ﷺ.

وذات يوم كان رسولُ الله ﷺ في بيت أمِّنا حفصة رضي الله عنها، فاستأذنتْ حفصةُ في زيارة أبيها ـ أو عائشة ـ فأذنَ لها، وحَدَثَ أنْ أتت مارية، فدخلتْ بيت

---

(١) اقرأ سيرته السيّدة هاجر زوج سيدنا إبراهيم عليه السّلام في كتابنا «نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسّنة» فسيرتها جديرة بالقراءة، لما فيها من مواقف عظيمة، ولما في شخصيتها من مزايا جعلتها من أعظم نساء التّاريخ، ومن أكثرهن بركة في تاريخ حياة الأنبياء عليهم الصّلاة ةالسّلام.

حفصة، وأقامت مع النّبيّ ﷺ زمناً؛ وعادتْ حفصةُ من زيارتها فأبصرت مارية في بيتها، فلم تدخلْ، وجعلتْ تنتظرُ خروجها، فلّما خرجتْ خرجتْ مارية، دخلتْ حفصةُ على النّبيّ ﷺ وقالت له: لقد رأيتُ مَنْ كان عندك في البيت.

ثم حملتها الغيرة على البُكاء فقالت: يا رسول الله، لقد جئتَ إليّ بشيءٍ ما جئتَ به إلى أَحَدٍ من نسائك، في يومي، وفي بيتي، وعلى فراشي، والله لقد سببتني، وما كنتَ لتصنعها لولا هواني عليك.

ورأى الرَّسولُ الكريمُ ﷺ الغيرةَ ترتسمُ على وَجْهِ حَفْصَةَ، وأدرك أنَّ هذه الغيرة قد تدفعها إلى إذاعة ما رأت، والتّحدث به إلى صديقتها عائشة، أو إلى غيرها من أزواجه، فأراد إرضاءها بما يدفع غيرتها عن مارية، فقال لها: «ألا تَرْضَيْنَ أنْ أحرّمها فلا أقربها»؟

قالت حفصةُ: بلى يا رسول الله.

وحلف لها أنَّ مارية مارية عليه حرام إذا هي لم تذكرْ شيئاً ممّا رأت، وقال لها: «لا تذكري ذلك لأحدٍ» ووعدته حفصة أنْ تفعل ذلك، وألا تتحدث بحديثِ مارية.

لكنَّ الغيرةَ لم تتركْ حفصة دونَ أَنْ حرّكت مَكَامِنَ السرِّ فيها، فلمْ تستطعْ كتمانَ ما وعدتْ، بل انطلقت إلى صفيِّتها عائشة رضي الله عنهما، وقالت لها: لقد حرّمَ رسول الله ﷺ مارية على نفسهِ.

ويُعتقد أنَّ الأَمْرَ لم يقفْ عند عائشة وحفصة، بل سرعان ما ذاع الخبر بين أزواج النّبيّ ﷺ، ولعلَّهنَّ جميعاً قد رَأَيْنَ ولاحَظْنَ أنَّ ماريةَ قد اقتعدت مكانةً رفيعة عند رسول الله ﷺ، فتابَعْنَ عائشة وحفصة حين ظاهرتا على النَّبيِّ ﷺ على إثْر قصّةِ مارية المصرية.

وعَرَف رسول الله ﷺ أنَّ حفصةَ لم تكتم[1] عليه، وأنّها أنبأتْ عائشة بأَمْرِ

(١) يُلاحظ أنّه يصعُب على النِّساء كتمان السِّرّ، فقد أسرَّ النّبي ﷺ لزوجهِ حفصة تحريم مارية على نفسه، واستكتمها السِّرّ، فأباحتْ به لعائشة رضي الله عنهما.

ماريةَ القبطية، فلما أخبرها ببعض ما أسرّته لعائشة تعجَّبت وقالت: مَنْ أنبأك هذا؟

قال ﷺ: «نبّأني العليمُ الخبير»[1].

حَفْصَةُ وَدَرْسٌ نَبويٌّ:

عندما علمتْ نساء النّبيّ ﷺ خَبَرَ حفصة ومارية، رُحْنَ يخُضْنَ في الحديثِ، ولجّتْ بهنَّ الغيرة أعظمَ لجاج، فكان لا بدَّ لحفصةَ وضرائرها مِنْ درسٍ نبويّ فيه حَزْمٌ، وفيه شدّة، كيما تعودَ الأمورُ إلى نصابها، فأقسم ﷺ ألّا يجتمع بنسائِهِ شهراً كاملاً.

وصَعِدَ الحبيبُ المصطفى ﷺ إلى مشْربة[2] له يُرقى إليها بدرجٍ، وينحدر منها عليه، وغلام له يقال له «رباح» قد وقف على باب الغرفة.

وظلَّ النّبيّ الكريم ﷺ بعيداً عن نسائه شهراً كاملاً، لا يُكلّم أحداً في شأنهن، ولا يجرؤ أحد من أصحابه أنْ يفاتحَه في حديثهن، حتى سرى الهمسُ بين المسلمين؛ أنَّ النّبيَّ ﷺ مُطلِّقٌ أزواجه، بل لقد قيل: إنَّ النّبيَّ ﷺ طلّق[3] حفصة بنت عمر بعد الذي كان من إفشائها ما وعدت أنْ تكتمه.

في تلكَ الفترة، كانت أزواج النّبيِّ ﷺ مضطربات نادمات، وخصوصاً حفصة، فقد دفعتها الغيرة إلى إفشاء سِرِّ هذا الزَّوج الرَّفيق بها وبنسائه.

وفي اليوم الذي أوفى رسول الله ﷺ الشَّهر الذي نذر فيه هجر نسائه، أقام

---

(١) قد يغفلُ الإنسان غالباً على أنّ الله عزّ وجلّ عالم خبير عليم به وبأحواله، فيتصرف تصرفات الغافل غير الواعي، ولا المدرك عما يغفل، ولا يحسب الحساب اللازم لمن يراه، ويحاسبه على أعماله، وهذا ما كان من حفصة التي فاجأها النبي ﷺ بما فعلت، وأعلمها بأنَّ الله عزَّ وجلَّ أخبره بذلك.

(٢) مشربة: غرفة.

(٣) رواه أبو داود في الطلاق (٢٢٨٣) باب في المراجعة. وابن ماجه في الطلاق أيضاً (٢٠١٦) والدرامي في الطلاق (٢/١٦١) باب في الرجعة، والنسائي في الطلاق (٦/٢١٣) باب الرجعة.

المسلمون بالمسجد مطرقين، ينكتونَ الحصى ويقولون: طلّقَ رسول اللهﷺ نساءه، ويأسون لذلك أسيً يبدو على وجوههم، قام عمر بن الخطّاب من بينهم، ودخل على ابنته حفصة وهي تبكي، فقال: أطلقكن رسول اللهﷺ؟
فقالت: لا أدري، هوذا معتزلاً في المشربة.

فقام عمر وقصد إلى مقام النّبيِّﷺ في غرفته، ونادى غلامه رباحاً كيما يستأذن على رسولِ اللهﷺ.

انتظر عمرُ رضيَ الله عنه، ونَظَرَ إلى رباح يرومُ الجواب، فإذا رباح صامتٌ لا يقول شيئاً، إشارة إلى أنَّ رسول اللهﷺ لم يأذنْ، فكرَّر عمر النِّداء، ولكنَّ رباحاً لم يُجبْ مرة أخرى، وألحّ عمرُ بالأذن مِراراً، ولم يأتِ رباح بجوابٍ، وعندئذ رفَعَ عمر صوته قائلاً: يا رباح استأذن لي عندك على رسول اللهﷺ فإني أظن أن رسول اللهﷺ ظنَّ أنّي جئتُ من أجلِ حفصة، والله لئن أَمَرني رسول الله بضرب عنقها، لأضربَّن عنقها. . . .
وساعتئذ قال رباح لعمر: ادخلْ، فقد أذن لكَ.

فدخل عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه، وسلم على رسول اللهﷺ، ثم أجال عمر بصره فيما حوله، فرأى حصيراً قد أثَّرَ في جَنْبِ النَّبيِّﷺ والغرفة لا شيء فيها إلا قبضة من شعير، وجِلْدٌ معلق، فتأثّر لما رأىٰ وبكى، فقال رسول اللهﷺ: «ما يبكيك»؟.
فذكر له عمر السَّبب وقال: يا رسول الله، إنَّ كسرى وقيصر، فيما فيه النَّعيم وأنتَ رسول الله!..!..!.

ولما ذكر عمرُ ما أبكاه وأشجاه، أحبَّ الحبيبُ المصطفىﷺ أنْ يردَّه إلى طمأنينةِ الإسلام وقال: «أَمَا ترضى أنْ تكون لهمُ الدُّنيا ولنا الآخرة»؟! ثمّ علّمهﷺ حقيقة الإعراض عن الدُّنيا، وأنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى فقال: «أوَ في شكٍّ أنتَ يا ابن الخطاب؟ أولئك قومٌ قد عجّلتْ لهم طيّباتهم في الحياة الدّنيا»[1]، فقال

(١) انظر: صحيح البخاري (٦/١٩٦) وتفسير القرطبي (١٨/١٩١) والدر النثور (٨/٢٢١) مع الجمع والتصرف.

عمر: أستغفر الله يا حبيب الله.

ثم إنَّ عمرَرضي الله عنه قال لرسولِ اللهﷺ مخفّفاً ومواسياً ورحيقُ الإيمان ينضحُ من كلامه المفعم بالصِّدقِ: يا رسول الله، مايشقُّ عليك منْ أَمْرِ النِّساء، إنْ كنتَ طلّقتهنَّ فإنَّ الله معك، وملائكته، وجبريل، وميكائيل، وأنا، وأبو بكر، والمؤمنون معك.

ثم طفقَ عمر رضي الله عنه يحِّدثُ رسولَ اللهﷺ حتى زال عنه الغضب، وارتسم على وجههِ الشَّريف الابتسام وضحك. . . ولما رأى عمر رضي الله عنه سرور النبي الكريمﷺ وأنسه، ذكر له أَمْر المسلمين بالمسجد، وما يذكرون من طلاقه نساءه، فذكر النّبيّﷺ أنّه لمْ يطلقهن، ولم يحدثْ شيءٌ من هذا، وإذ ذاك طار عمر فرحاً وقال: الله أكبر، ثم استأذن رسول اللهﷺ أنْ يفضيَ بهذا الأَمْر إلى المسلمين المقيمين بالمسجد، فأذن له بذلك.

ونزل عمر رضي الله عنه من المشربة فرحاً مسروراً، ونادى بأعلى صوته: لم يطلِّق رسول اللهﷺ نساءه. وأنزل الله عزّ وجلّ في محكَمِ التَّنزيل قوله: ﴿يا أيها النّبي لِمَ تحرمُ ما أحلَّ الله لك تبتغي مرضاة أزواجِكَ والله غفورٌ رحيمٌ. قَدْ فَرضَ الله لكم تحلّةَ أيمانكم والله مولاكم وهو العليمُ الحكيمُ. وإذ أسرَّ النَّبيُّ إلى بعضِ أزواجه حديثاً فلّما نبأت به وأظهره الله عرَّف بعضه وأعرضَ عن بعض فلّما نبأها به قالت مَنْ أنبأكَ هذا قال نّبأني العليمُ الخبيرُ. إنْ تتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبكما وإن تظاهرا عليهِ فإنَّ الله هو مولاه وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير. عسى ربّه إنْ طلقكن أنْ يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً﴾[التحريم: ١ ـ ٥][1].

---

(١) صحيح البخاري، تفسير سورة التحريم. وانظر صحيح مسلم (١٤٧٤) وانظر: تفسير الماوردي والقرطبي وابن كثير والرازي والبغوي والخازن والقاسمي وغيرها لصدر سورة التحريم، انظر: كتب الحديث والطبقات والتراجم فقد أفاضت جميعها في ذكر هذه القصة إذ لا يتسع المقام لسرد المصادر.

وعند ذلك كَفَّرَ(١) رسولُ اللهﷺ عن يمينه، وثاب إلى نسائه رشادهن، وعاد إليهن وهن عابدات مؤمنات تائبات(٢) إلى الله عزَّ وجلَّ، وعادت إلى حياته البيتية السَّكينة، وخيّم الاستقرار والصَّفاء على البيتِ النّبويّ الطّاهر، وازدادتْ حفصة يقيناً بالله، وازدانت بخلعةِ الإنعام التي أكرمها الله بشرف أمومةِالمؤمنين، وراحت ترقب كل ما يرضي رسول اللهﷺ، لكي تسارع إلى تلبيته ومرضاته. وأحسبُ أنها كانت تقرأ دائماً: ﴿عسى ربّه إنْ طلقكن أنْ يبدِله أزواجاً خيراً منكن مُسلمات

---

(١) هناك سؤالّ يفرض نفسه في هذا المرقف وهو: هل كفّر النّبيُّﷺ عن يمينه هذه؟ وما هي كفارته؟

فنقول: لقد اختلف العلماء والفقهاء في هذا الموضوع، وأدلوا دلاءهم فيه؛ فقال الحسنُ البصريّ ـ رحمه الله ـ وهو أحد سادة التّابعين وأصفيائهم: إنَّ النَّبيَّﷺ لم يكفر عن يمينه، لأنهﷺ كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، بنص القرآن: ﴿ليغفر لك ما تقدم مكن ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢] وإنّما هو تعليم للمؤمنين.

وقال بعض الفقهاء: في هذا نظر، لأنَّ الأحكام الشّرعية عامة، ولم يقمْ دليل على التّخصيص.

لذا قال مقاتل ـ رحمه الله ـ: إنَّ النّبيّﷺ أعتق رقبة في تحريم مارية.

ونقل عن الإمام مالك في «المدونة» أنّه أعطى الكفارة.

(٢) إنَّ القرآنَ الكريمَ تهذيبٌ وتربية وتعليم للبشرية كافة، لذا فقد حثّ الله عزَّ وجلَّ حفصة وعائشة رضي الله عنهما على التوبة، لما كان منهما من الميلِ إلى مخالفة محبة رسول اللهﷺ، وتعظيم شأنه، وإعلاء قدره، وصون سِرّه، فقد زاغت ومالت قلوبهما عن الحق، وهو أنهما أحبتا ما كره النبيﷺ من اجتناب جاريته، أو اجتناب العسل، وكانﷺ يحب العسل والنساء محبة فيها اعتدال، وإعزاز وإكرام للنساء.

هذا وقد هدد الله عز وجل حفصة وعائشة بأنّهما إنْ تتظاهرا وتتعاونا على النَّبيِّﷺ بالمعصية والإيذاء، فهناك حملة صَوْن وحفظٍ وعصمة وحراسة له من الله عزَّ وجلَّ، والملائكة وجبريل، والمؤمنين الصَّالحين كأبي بكر وعمر أبوي عائشة وحفصة ـ كما قال بذلك جمهور من المفسرين ـ.

وقد هدّدهما الله عزّ وجلّ بتهديد آخر أشدّ ألماً ووقعاً على النّفس، وهو إنْ طلقهما وطلق زوجاته، أبدله الله عزّ وجلّ زوجات خير وأفضل منهن في الدُّنيا والآخرة، وهذا

مُؤمنات قَانتات تَائبات عَابدات سَائحات ثَيِّبات وأَبْكاراً﴾[التحريم : ٥](١) فتسارع إلى اجتذابِ رضاء النَّبيِّ ﷺ عليها بكلِّ ما تستطيعُ مِنْ سبيل.

أثارة من كريم شمائلها:

عاشت حفصةُ رضي الله عنها في البيت النَّبويِّ الطَّاهر تمارسُ واجباتها على أكملِ وجه، تصومُ النَّهار، وتقومُ من الليل، حتى جاءتها شهادة زاكية زكيَّة، حملها جبريل الأمين عليه السَّلام إلى رسولٍ الله ﷺ فيها كرامة زمكرمة لحفصة.

قال جبريلُ عليه السَّلام عن حفصة أمِّ المؤمنين: «إنَّها صوَّامة، قوَّامة، وهي زوجتُك في الجنَّة»(٢). وفي رواية: «إنَّها صؤومٌ قؤوم، وإنَّها من نسائك في

= وعد من الله لرسوله ﷺ، وإخباره عن القدرة الإلهية، وتخويف لهن، مع علمه تعالى بأنّه لا يطلقهن.

وقد وصفَ الله عزّ وجلّ أوصاف النّساء اللاتي يبدله الله بدلاً عن زوجاته الحاليات في غاية الكمال، وهي كونهن مسلمات لأمر الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ، مصدقات بما أُمرن به، ونُهين عنه، مطيعات، تائبات من ذنوبهن، كثيرات العبادة لله تعالى، أو مهاجرات، ثيبّات أو أبكاراً.

(١) لأبي بكر الرّازيّ ـ رحمه الله ـ تعليقٌ على هذه الآية مع تعليل لطيفٍ يقول:

فإنْ قيل: كيف قال تعالى: ﴿عسى ربّه إنْ طلقكن أنْ يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات. . . . . .﴾ [التحريم: ٥] إلى آخر الآية، فأثبتَ الخيريّة لُهنَّ باتصافهنَّ بهذه الصِّفات، وإنّما تثبتُ لهن الخيرية بهذه الصِّفات، لو لم تكن تلك الصِّفات ثابتة في نِساء النّبي ﷺ، وهي ثابتة فيهن؟

قلنا: المرادُ به؛ خيراً منكن في حفْظِ قلبهِ ومتابعة رضاه مع اتصافهن بهذه الصِّفات المشتركة بينكن وبينهن.

فإنْ قيل: كيف أُخليتِ الصّفاتُ كلّها عن الواو، وأثبتت بين«الثّيِّبات» و«الأبكار».

قلنا: لأنّهن صفتان متنافيتان لا تجتمعان فيهن اجتماع سائر الصّفات، فلم يكن بدٌّ من الواو، ومن جعلها واو الثمانية فقد خلط بينهما، لأنَّ واو الثّمانية لا يفسد الكلام بحذفها بخلاف هذه. (تفسير الرازي ص٥١٩).

(٢) أخرجه أبو داود في النّكاح، باب في المراجعة برقم (٢٢٨٣) وابن ماجه برقم (٢٠١٦) =

الجنَّةِ»[1]، وقد شهدَ شاهدٌ من أهلها بحسنِ صِلَتِها بالله عزَّ وجلَّ بكثرة الصِّيام، فقد قيل: إنها ماتتْ حتى ما تفطر[2].

ومنذُ نشأة حفصة في بيت أبيها عمر، عُرفتُ بين أترابها بذكائها وفطنتها، ولّما أشرق نورُ الإسلام على مكةَ، آمنت مع السَّابقات وهي في سِنّ مبكرة، مما ساعدها على تنميةِ مواهبها، حيث كانت ذكية النَّظرات، تلتهمُ كلَّ ما تجده من معرفةٍ، وكانت تحفظ كلّ ما تسمعه منْ آي الذّكْرِ الحكيم الذي كان يتنزّل ندياً على الحبيب المصطفىﷺ ولذلك فإنّها اشتاقتْ إلى معرفةِ الكتابة، فوافتها بذلك إحدى الصَّحابيات الفاضلات، وشَفَتْ ما بنفسها، وعلّمتها الكتابةَ، هذه المعلِّمةُ الكاتبةُ الفاضلةُ تُدعى: الشّفّاء بنت عبد الله العدويّة القرشيّة، إحدى فُضْليات نساء قريش الكاتبات[3]. أسلمتْ قديماً، وكانت من المهاجرات الأُوَل، وبايعتْ

= والنّسائي في الطّلاق، باب الرجعة (٦/٢١٣) وابن سعد في الطّبقات (٨/٨٤) والحاكم في المستدرك (٤/١٥) وانظر: مجمع الزوائد (٩/٢٤٥) والحلية (٢/٥٠) وصفة الصّفوة (٢/٣٩) والاستيعاب (٤/٢٦١) والإصابة (٤/٢٦٥) وأزواج النّبي للصّالحيّ (ص١٤٠ و١٤١) وسير أعلام النّبلاء (٢/٢٢٨) ونساء مبشّرات بالجنّة (٢/٢٨١) وموارد الظّمآن (١٣٢٤) والدّرامي (٢٢٦٩) والسّمط الثمين (ص٩٧) وغيرها كثير.

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٢/٣٣٨) والفتوحات الربانية للصّديقي الشّافعي (١/٣٢٣).

(٢) الإصابة (٤/٢٦٥).

(٣) كانتِ الشّفاء بنت عبد الله العدويّة كاتبةً في الجاهلية، والكاتباتُ في الجاهلية معدودات على الأصابع، وهي ميزة وفضيلة للشّفاء ولحفصة رضي الله عنهما.

أمّا في قريش فقد كان عدد غير قليل يجيدُ الكتابة، وقد دخل الإسلام سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب وهم: سيّدنا: عمر بن الخطّاب، عثمان بن عفّان، عليّ بن أبي طالب، أبو عبيدة بن الجرّاح، طلحة بن عُبيد الله، ويزيد بن أبي سفيان، أبو حذيفة بن عتبة، حاطبُ بن عمرو أخو سهيل ابن عمرو العامريّ، أبو سلمةُ بنُ عبد الأسد المخزوميّ، أبانُ بنُ سعيد بن العاص. وأخوه خالد بن سعيد، عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامريّ، حُويطب بن عبد العزى العامري، وأبو سفيان بن حرب، وابنة معاوية بن أبي سفيان، جُهيم بن الصَّلت بن مخرمة بن المطلب، والعلاء بن الحضرميّ من حلفاء

رسولَ اللهﷺ وكانت من عقلاء النِّساء وفضلائهن، وكان النَّبيُّ الكريمﷺ يزورها، ويقيل عندها، وكانت قد اتخذتْ له فراشاً وإزاراً ينام عليه.

ولما انتقلتْ حفصةُ إلى البيت النّبويّ ظلّتِ الشّفّاء[1] رضي الله عنها، تتردَّدُ على أمِّ المؤمنينَ حفصة رضي الله عنها، وذات يوم دخل النَّبيُّﷺ على حفصةَ، وكانت الشفاء عندها فقال لها: «علّميها رقية النَّملة كما علّميتها الكتابة»[2].

وفي هذا جواز تعلّم المرأة الكتابة، والالتفات إلى المعرفة، ولعلّه من نافلةِ القول أنْ نشيرَ إلى أنَّ بعض نساء النّبيﷺ يعرفنَ القراءة أو الكتابة، فقد كانت الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق عائشة رضي الله عنها تقرأ في المصحف ولا تكتبُ؛ وكانت أمّ سلمة أمّ المؤمنين تقرأ ولا تكتب.

وكان هناك بعض الصَّحابيات الفاضلات ممن كنَّ يعرفن الكتابة منهن: أمّ كلثوم بنت عقبة الأموية[3]؛ ومن نساء عصر التَّابعين كانت عائشة بنت سعد بن

= قريش؛ فهؤلاء سبعة عشر رجلاً من المسلمين رضي الله عنهم جميعاً. عن فتوح البلدان (ص٥٨٠) بتصرف يسير.

(١) اقرأ سيرة الشّفاء بنت عبد الله العدوية في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (١/ ٢٣١ - ٤٢٠) فسيرتها شفاء للنفوس، وإيناس للقلوب، وإمتاع للأسماع رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود في الطّب برقم (٣٨٨٧) باب، ماجاء في الرقى، وأحمد في المسند (٦/ ٣٧٢) وانظر: الطب النبوي للبغدادي (ص٢٣٧).

و«النّملة» قروح تخرج في الجنبين، وهو داء معروف، وسُميّ نملة، لأنَّ صاحبه يحس في مكانه، كأن نملة تدبُّ عليه وتعضه، وأصنافها ثلاثة، قال ابن قتيبة وغيره: كان المجوس يزعمون أن ولد الرجل من أخته إذا خُطَّ على النَّملة، شُفي صاحبها؛ ومنه قول الشاعر:

ولاعيبَ فينا غير عُرْفٍ لمعْشَرٍ كرامٍ وأنّا لا نخطُّ على النَّمْلِ

(٣) اقرأ سيرة الصحابية أم كلثوم بنت عقبة الأموية في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (٢/ ١٩٧ - ٢٠٨) فقد جمعت سيرتها أطراف الفضائل، فكانت من الخالدات في عصرها وكل العصور رضي الله عنها.

أبي وقّاص[1] تقول: علمني أبي الكتاب. وكذلك كريمة بنت المقداد وغيرهن كثيرات، ممن كتبنَ أَنْصَع الصَّفحات في تاريخ النِّساء الوضيء المضيء.

ولعلَّ حفصة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، كانت واحدة منْ مراجعِ الفقه في العصر الرَّاشديّ، فقد كان عمر رضي الله عنه يعود إليها ليسألها عن بعض الأحكامِ المتعلّقةِ في فقْهِ المرأة المسلمة[2].

ولئن أبدعتْ حفصةُ رضي الله عنها في مجال الفقهِ والعبادة والصلاح، فقد أبدعت في الأدب، وإنَّ الآثارَ الأدبية التي وصلَتْنا عن أمِّنا حفصةَ تدلُّ دلالةً بيِّنةً على بيانها النَّاصع، وثروتها الأدبيّة ذات الرَّوافد القرآنيّة والحديثية، وأعتقد أنَّ أسلوبَها الرَّائع ينمُّ عن ملكاتِها الأدبيّة التي جعلَتْها مِنْ ذواتِ الفصاحة، وربّات البلاغة في عصر النّبوّة، ولا أجدُ في هذا المجال أبدع منْ قولها، عندما طُعنَ عمر رضي الله عنه ولنستمع إلى هذه الفِقْراتِ النَّاصِعَةِ عن روعة بَيَان أمِّنا حفصة رضي الله عنها إذ تقول:

يا أبتاه، ما يحزنكَ وفادتكَ على ربٍّ رحيمٍ، ولا تَبَعة لأحد عندك، ومعي لكَ بشارة، لا أذيع السِّرَّ مرتين، ونِعْمَ الشَّفيعُ لك العَدْل، لم تَخْفَ على الله عزَّ وجلَّ خشنة عيشتكَ، وعفاف نهمتكَ، وأخذك بأكْظَامِ المشركين والمفسدين في الأرض.

وقد وَرَدَ أنَّ أمنَّا حفصة رضي الله عنها، خَطَبَتْ بعد استشهاد أبيها عمر خطبةً في غايةِ الرَّوعة والجمال والفصاحة نوردُ منها قولها:

الحمدُلله الذي لا نظير له، والفَرْدُ الذي لا شريكَ له، أما بعد:

فكلُّ العجبِ منْ قومٍ زيّن الشَّيطان أفعالهم، ونَصَبَ حبائله لختلهم، حتى همَّ عدو الله بإحياء البدعة، ونَبْشِ الفتنة، وتجديد الجور بعد دروسه، وإظهاره بعد دثوره، وإراقة الدِّماء، وإباحة الحمى، وانتهاك محارم الله عزَّ وجلَّ بعد تحصينها،

---

(١) اقرأ سيرة التابعية الجليلة عائشة بنت سعد في كتابنا «نساء من عصر التابعين» (٢/ ٦٧ - ٧٧) ففي سيرتها محطات وضيئة ووقفات مباركة.

(٢) نساء مبشرات بالجنة (٢/ ٢٧٣).

فأضرى وهاج، وتوغر وثار غضباً لله، ونصره لدِينْ الله، فأخسأ الشَّيطان، وكفَّفَ إرادته، وأَصْعَر خده لسبقه إلى مشايعةِ أولى النَّاس بخلافة رسول الله ﷺ، الماضي على سُنَنه، المقتدي بدينه، المقتصّ لأثره، فلم يزلْ سراجه زاهراً، وضوءه لامعاً، ونوره ساطعاً له من الأفعال الغُرر، ومن التّقدم في طاعة الله، إلى أنْ قبضه الله إليه قالياً لما خرج منه[1]. . . . . .

ولو رحنا نتتبعُ شمائل أمِّنا حفصة في جميع المجالاتِ الفاضلة الخيِّرة الكريمة لما وسعتنا هذه الصَّفحات، ولكنّا آثرنا أنْ نشيرَ إلى نُبَذٍ من فضائل شمائلها التي عطّرتِ الدُّنيا ببقائها لتكونَ أسوة وقدوة للمؤمنات.

القُرْآنُ الكَرِيْمُ وحَفْصَةُ

عندما رحْتُ أتنسَّمُ الأخبار عن أمِّنا حفصةَ رضي الله عنها، وقفتُ طويلاً عند فَضْلِها في جَمْعِ القرآن الكريم، ويبدو لي ـ والله أعلم ـ أنَّ هذه خصّيصة ربّانيّة مباركة اختصّها الله عزَّ وجلَّ بها، كيما تكون ذات فَضْل على أبنائها المؤمنين إلى يوم الدِّين.

وكم توقفتُ طويلاً متأمِّلاً الجهد الذي بُذلَ في جَمْعِ القرآن المجيد، في العَصْر الرَّاشدي، وكيف كانت أمُّنا حفصة رضي الله عنها حارسة الكتاب، الذي لا يأتيهِ الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وإنْ كنتُ لأعلم ـ كما يَعْلَم النّاس جميعاً ـ أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أنزل الذِّكْر، وتعهّد بحفْظِهِ، ولكنَّ القرآنَ الكريمَ، بقي مَسْطوراً في قلوبِ الذين آمنوا، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكانت أجزاؤُه وسوره محفوظةً في صُدور الوُعَاةِ من حَفَظَةِ الصَّحابة، ومن بعدهم، وكانت ذاكرتهم صافيةً، نقيةً، لا تشوبها شائبة، ولا يعتريها الوهن والنّسيان.

لكنَّه من المؤكدِ أنَّ القرآن الكريم، كان بالإضافةِ إلى حفْظِهِ في الصُّدور،

---

(١) للمزيد من رائعة هذه الخطبة الأدبية، انظر أعلام النساء (١/٢٧٦) حيث توجد كامل الخطبة.

كان مكتوباً في قِطَعِ الأدم، والعسب، وكسر الأكتاف، وما شابه ذلك، وعندما قُبض النبيُّ ﷺ، كان يُرجع إلى ذاكرة الصَّحابة ممن يحفظون القرآن، وهم كُثُر، وإلى كتَّابِ الوحي وهم معروفون، ومن ثمَّ يُرجع إلى النّصوص المكتوبة، إذا أشكل أَمْر في القراءة أو نحوها.

لم يبقَ الأَمْر على هذا النّحو، فقد كانت حروبُ الرِّدة قد أتتْ على كثيرٍ من المسلمين، ومن بينهم عددٌ جمٌّ من خيرة حفّاظ القُرآن الكريم، الذين قضوا نحبهم وما بدّلوا تبديلاً، وإذ ذاك ساورتِ المخاوفُ العبقري النّبيه النّبيل سيّدنا عمر بن الخطاب في أَمْرِ القرآن الكريم، وخشي أنْ يصيبَ المقدور بقيّة البررة من الصَّحابةِ، وعند ذلك يصعب جمع القرآن..

هنالك سَرَتْ بارقةُ أَمَلٍ مباركة في ذهن عمر رضي الله عنه، وتوجَّه إلى الخليفة أبي بكر الصِّدِّيق(1) عليه سحابات الرّضوان، وأفضى إليه ما يَدور في خلده فقال: أخشى أنْ يستحرَّ القَتْلُ كرّةً أخرى، بين حفّاظ القرآن في غيرِ اليمامة منَ المغازي، وأنْ يضيعَ لذلك كثير منه، والرّأي عندي أنْ تسارعَ فتأمر بجَمْعِ القرآن.

شرحَ الله عزَّ وجلَّ صَدْر سيّدنا أبي بكر رضي الله عنه لهذه الفكرةِ المباركة، ولكنْ مَنْ يقومُ بهذه المُهمّة العظيمة؟!

عند ذلك عَجَمَ أبو بكر عِيْدَانه، وتفحَّصها جيّداً، فألفى أنَّ زيد بنَ ثابت الأنصاريّ أصْلَبها عوداً في هذا المجال، وهو كبيرُ كتَّاب النَّبيّ الكريمﷺ من الأنصار، فأوعز إليه أبو بكر قائلاً: إنَّكَ رجلٌ، شابٌّ، عاقلٌ، لا نتّهِمُك، وقد

---

(1) سيّدنا أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، من كبار الصَّحابة الذين حفظوا القرآن كلّه، وهو أفضل الكتاب لرسول اللهﷺ، وأوّل الخلفاء الراشدين، وأفضلهم، وأوّل من عهد بالخلافة، وأول خليفة الإسلام، وأول أمير أرسل على الحج، فحج بالناس سنة تسع من الهجرة، ومناقب الصّديق رضي الله عنه لا يمكن استقصاؤها، ولا الإحاطة بعشر معشارها، وإنّما ذكرت هنا باقة عطرة من فضائله تبركاً لهذا الكتاب بذكره رضي الله عنه وأرضاه.

كنتَ تكتبُ الوحي لرسولِ اللهﷺ، فتتبّعِ القرآن فاجْمَعْه[1].

وقام زيدٌ رضي الله عنه بأصعبِ مهمّة في تاريخ الإسلام في هذا المضمار الضّخم، وقد تهيَّب له بادىء الأَمْرِ، ولكنَّه كَشَفَ عن ساعدِ الجدِّ والعملِ التواصل، وقد تحدث زيد عن مهمته هذه فقال:

لما أمرني أبو بكر رضي الله عنه، فجمعت القرآن، كتبته في قطع الأدم، وكسر الأكتاف والعسب، فلّما توفي أبو بكر رحمه الله ورضي عنه، كان عمُر؛ كَتَبْتُ ذلكَ في صحيفةٍ واحدة فكانت عنده[2].

استغرق عَمَل زيدٍ هذا قرابة ثلاث سنين، ولما كملت كتابة النّسخة الأولى، عهد بها عمر إلى حفصةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، لتبقى في حيازتها، وبهذا أضحتْ أمُّنَا حفصة حارسة للقرآن طيلة خلافة أبيها عمر رضي الله عنهما.

وظلتِ الحالةُ كما هي حتى حَدَثَ الاختلافُ في وجوه القراءات بين الأمصار، ولاحظَ هذا الاختلاف أحد نجباء أصحاب رسول اللهﷺ ، وصاحب السرِّ، سيّدنا حُذيفة بن اليَمان رضي الله عنه، وذلك عندما كان يجاهدُ في إرمينية وأذربيجان، ولاحظَ اختلاف القراءات عند الشّاميين والعراقيّين، فجزعَ لذلك، وطار إلى خليفةِ المسلمين ـ إذ ذاك ـ عثمان بن عفّان ـ عليه سحائب الرّضوان ـ جزعاً خائفاً من الاختلاف، وأوعزَ إليه كيما يتدخّل في الأَمْر، ليقفَ النّاس حتى لا يختلفوا على كتابهم ـ القرآن الكريم ـ كما اختلف اليهودُ والنّصارى.

لاحَظَ سيّدنا عثمان بن عفّان رضوان الله عليه شِدَّة تأثُرِ حذيفة بن اليمان لهذا الموضوع، وقد وصلتْ عثمانَ الأنباء عن هذا الاختلاف مِنْ مصادرَ أخرى، فتبلورتْ فكرةُ جَمْعِ القرآن، وكتابة المصحف في نُسَخٍ ، وبعْثِها إلى الأمصار حتى لا يكون هناك خلافٌ أو اختلاف.

وهنا برزَ ثانية، الإمام الكبيرُ، شيخ المقرئين، والفَرَضيين، مفتي المدينة

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (١٤٩/٧).

(٢) عن الإتقان للسيوطي (١٨٦/١) بتصرف يسير، وانظر: سير أعلام النبلاء (٤٣١/٢).

سيّدنا زيد بن ثابت كاتب الوحي رضي الله عنه، برز ليؤدي المهمّة التي أوكلها إليه عثمان بن عفان رضي الله عنه، وشدَّ أزره بثلاثةٍ من فصحاء قريش، كلّ واحد منهم بحرٌ في فنِّ البيان والفصاحة والخطابةِ وهم: عبد الله بن الزّبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرّحمن بن الحارث بن هشام، ثم استأذن عثمان رضي الله عنه، بأنْ يأخذَ النُّسخة الأولى من عند أمِّ المؤمنين حفصة، كيما ينسخوها في المصاحف، ثمَّ تعاد إليها.

هذا وقد كتبت مصاحف عثمان بإشرافِ حَفَظةِ، القرآن وعِلْيَةِ الصَّحابة، وولاية زيد بن ثابت الذي تلقّى العرضة الأخيرة، وعَمِلَ على جَمْعِ صحف أبي بكر، فعلى الرّغم من اعتمادهم على صُحف أبي بكر رضي الله عنه، وعلى الرّغم من حفظهم للقرآن الكريم، فقد كانوا يستوثقون فيما يختلفون فيه من الآيات، فيسألون عنها مَنْ تلقاها مِنْ رسول اللهﷺ.

وقد اختطَّ عثمانُ رضي الله عنه، وبموافقة أعلياءِ الصَّحابة رضي الله عنهم منهجاً حكيماً لكتابة المصاحف، يجعله كفيلاً بما هيِّء له من كونه إماماً يُرجَعُ إليه عند الاختلاف، ومصباحاً يُهتدى به عند النِّزاع، وذلك المنهج يتضمن النّقاط التّالية:

ألا يُكتب فيه إلا ما يُتيقّن كونه قرآنا بنقل عدد التّواتر له عن رسول اللهﷺ دون ما نَقَلَه الآحاد مهما كانوا ثقات حفاظاً.

ألا يُكتب إلا ما استمر متلواً طوالَ حياةِ رسول اللهﷺ، دون ما نسخت تلاوته، لأنَّ منسوخَ التِّلاوة ليس بقرآن وإنْ بقيَ حكمه.

أن يجرَّد منْ كلِّ ما ليس قرآناً، كالذي كان يكتبه بعض الصَّحابةِ في مصاحفَهم الخاصّةِ شرحاً لمعنى، أو بياناً لناسخ أو منسوخ، أو نحو ذلك.

أنْ يُكتبَ القرآن كلّه في ذلكَ المصحف مرتب الآيات في سورها على ما وقفهم عليه النّبيﷺ.

أن يُكتب مرتب السُّوَرِعلى ما نشاهده اليوم في المصَاحف.

أن تُكتب منه مصاحف متعدّدة ليرسلَ إلى كلِّ مِصْرٍ واحد منها للرّجوع إليه.

أن يكتبوه بلسان قريش عند اختلافهم كما قال عثمان رضي الله عنه: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ، فاكتبوه بلسان قريش، فإنّما نزلَ بلسانهم.

وهكذا تمَّ العمل المبارك على أكملِ وَجْه، وأدقّ طريقة، ثم بعث عثمان رضي الله عنه إلى كلّ مصر من الأمصار بمصحف، وردّ الصَّحيفة إلى أمِّ المؤمنين حفصة لتكون في حيازتها[1]، وليكون لها فضل هذا العمل إلى يوم القيامة، وإلى ما شاء الله.

المُحَدِّثَةُ الوَاعِيَةُ:

إذا كانت أمُّ المؤمنين حفصة رضي الله عنها قد اقتعدت مكانةً كبرى في سدّةِ حفْظِ القرآن الكريم ورعايته، لقد حلّقتْ عالياً في معرفةِ الحديث النّبويّ الشّريف، وكانت إحدى أمّهاتِ المؤمنين الواعياتِ الحافظاتٍ له، بل كانت أمُّ المؤمنين حفصة واحدةً من اللاتي أكثرن رواية الحديث الشّريف، وحفظنه في صدورهن، وكيف لا، وقد كانت حفصةُ تلميذة نجيبة في مدرسةِ النّبوّة، وفي البيت النّبويّ بعد أمّ المؤمنين عائشة وأمّ سلمة؟ ولها في مجال الحديث الشّريف أثرٌ طيِّبٌ، فقد روت عن النّبيِّ ﷺ، وعن أبيها ستين حديثاً.

اتفق لها الإمامان البخاري ومسلم على ثلاثةِ أحاديث.

---

(١) لعلَّ سائلاً يسأل: أين بقيت صحيفة أمّ المؤمنين حفصة رضي الله عنها؟.
والجواب؛ ما ورد في الحلية لأبي نعيم؛ من أنَّ أمّنا حفصةَ رضي الله عنها، كانت قد أوصت بها إلى أخيها عبد الله بن عمر المؤتسي برسول الله ﷺ، ولما توفيت حفصة، بعثَ عبدُ الله بن عمر بالصحيفة إلى ذويه من أولي البأس والنّهى والتّقى، فأعطاهم إياها، فغسلت غَسْلاً، ولم يبقَّ لها أثر، إذ إن عثمان رضي الله عنه، كان قد بعث إلى الأمصار بالمصاحف. (الحلية٢/٥١) بتصرف.

وقيل على أربعة أحاديث ـ وانفرد مسلم بستة أحاديث[1].

روى عن حفصةَ من ألرِّجال، أخوها الصَّحابي عبد الله بن عمر وهي أكبر منه بست سنين، وقد أطَابَ وأجَادَ، وغُبِطَ من قبل بعض الصَّحابة، لمكانتهِ من رسول اللهﷺ، ولكثرةِ دخوله على حفصةَ، ولهذا كان يُدعى: المؤتسي برسول اللهﷺ، فقد كان يسأل أخته حفصة عن هدي الحبيب المصطفىﷺ، كيما يقتدي به، ويهتدي بهديه.

وممن روى عن حفصة أيضاً من الرِّجال: ابن أخيها حمزة بن عبد الله بن عمر، وحارثة بن وهب، وشُتَير بن شكَل، والمطّلب بن أبي وداعة، وعبد الله بن صفوان بن أمية، والمسيَّب بن رافع، وطائفة أخرى من كبار علماء الصَّحابة والتَّابعين.

وقد تلقّت جماعة من النِّساء الحديثَ الشَّريفَ عن أمِّنا حفصةَ، وَرَوَيْنَه وحفظْنَه، منهنَّ الصَّحابية الكريمة أمّ مبشّر الأنصارية؛ وامرأة أخيها صفية بنت أبي عبيد[2]، وغيرهما[3].

ومن مرويات أمّ المؤمنين حفصة رضي الله عنها، ما أخرجه البخاري في صحيحه ـ وغيره ـ بسَندٍ عن نافعٍ عن عبد الله بن عمر قال: أخبرتني حفصة أنَّ رسول اللهﷺ كان إذا اعتكف المؤذن للصُّبح، وبدا الصُّبح، صلى ركعتين خفيفتين قبل أنْ تُقام الصَّلاة[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء(٢/ ٢٣٠) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٣٩) والمجتبى لابن الجوزي (ص٩٣) والفتوحات الربانية على الأذكار النواوية (١/ ٣٢٣).

(٢) اقرأ سيرة التّابعية الفاضلة صفية بنت أبي عبيد في كتابنا «نساء من عصر التّابعين» (١/ ٩١ ـ ١٠٣) فسيرتها تضفي صفاء للنفوس، وقصتها لمسات ندية تصافح الأسماع وتمتعها رحمها الله.

(٣) انظر: تهذيب التّهذيب لابن حجر (١٢/ ٤١٠).

(٤) فتح الباري (٢/ ١٢٠) حديث رقم (٦١٨) كتاب الأذان، باب: الأذان بعد الفجر. وأخرجه مسلم في المسافرين برقم (٧٢٣) والنّسائي (٣/ ٢٥٥) وأحمد (٦/ ٢٨٣)

ومما أخرجه الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ لأمِّ المؤمنين حفصة رضي الله عنها، ما جاء في صحيحه بسنده عن عبد الله بن صفوان يقول:
أخبرتني حفصة أنَّها سمعتِ النَّبيّ ﷺ يقول: «ليؤمَّنَّ هذا البيت جيشٌ يغزونه، حتى إذا كانوا ببيداءَ من الأرض، يُخسفُ بأوسطهم، ويُنادي أوّلهم آخرهم، ثم يُخسفُ بهم، فلا يبقى إلا الشّريدُ الذي يخبرُ عنهم»
فقال رجل: أشهد عليك أنَّك لم تكذبْ على حفصة، وأشهد على حفصة أنَّها لم تكذبْ على النّبيِّ ﷺ[1].

وفي سُنَنِ أبي داود، وسنن البيهقيّ، عن حفصة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان يجعل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه، ويجعل يساره لما سوى ذلك[2].

وتروي أمُّنا حفصة رضي الله عنها، بعضاً من شمائل رسول الله ﷺ، وهديه في العبادة، فتقول: أربعٌ؛ لم يكن يدعهنّ رسول الله ﷺ: صيام يوم عاشوراء، والعشر، وثلاثة أيام من كلّ شهر، وركعتا الفجر[3].

هذا وتُعدُّ أمُّ المؤمنين حفصة ـ عليها سحائب الرضوان ـ إحدى النِّساء اللاتي يُرجع إليهن في بعضِ الفتاوى، ويؤخذ برأيهن في ذلك.

أوردَ الإمام أبو محمّد علي بن حَزْم الظَّاهريّ، أسماء طائفة من الصَّحابة الذين رُويت عنهم مسألة، أو مسألتان أو أكثر بقليل في الفتيا، وسَرَدَ أسماء عدد من أعيان الصَّحابة، كما سَرَدَ أسماء عدد من الصَّحابيات وهنَّ:

حفصةُ أمّ المؤمنين، صفية أمَّ المؤمنين[4] أمُّ حبيبة أمُّ المؤمنين[5]، جُويريةُ أمُّ المؤمنين[6]، ميمونة أمُّ المؤمنين[7]، فاطمة[8] بنت رسول الله ﷺ ورضي عنها،

= والترمذي في الصّلاة برقم (٤٣٣) وابن ماجه في الإقامة برقم (١١٤٥) وعبد الرزاق (٣/٥٦) برقم (٤٧٧١).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٨/٥ و٦).

(٢) انظر في هذا: الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية (١/٣٢٢ و٣٢٣).

(٣) أخرجه أحمد (٦/٢٧٨) والنسائي في الصوم (٤/٢٢٠) وأبو دواد في الصوم أيضاًبرقم (١٤٣٧)وأبو يعلى في مسنده (١٢/٤٦٩ و٤٧٠) برقم (٧٠٤١).

(٤و٥و٦و٧و٨) اقرأ سير هؤلاء في هذا الكتاب.

أمُّ عطية الأنصارية[1]، ليلى بنت قائف، أسماءُ بنت أبي بكر[2]، أمُّ شريك الحولاء بنت تويت، أمُّ الدرداء الكبرى، عاتكةُ بنت زيد[3]، سَهْلَةُ بنت سُهَيل[4]، فاطمةُ بنت قيس[5]، أمُّ سُلَيم بنت ملحان[6]، زينبُ بنت أبي سلمة[7]، وأمُّ أيمن الحبشيّة[8] وغيرهن[9].

الزَّاهِدَةُ ابنَةُ الخليفَةِ الزَّاهِدِ:

قد تأتي الدُّنيا للمؤمنِ بزينتها، وتمتدُّ بين يديه، وعندئذ يستطيع أنْ يتناولَ أجملَ ما فيها، ويغتنم ما شاء من زينتها ومباهجها؛ إلا أنَّ المؤمنَ العاقلَ، يتركُ ذلك كلَّه لله، ويترفَّعُ عن الدّنيا ابتغاءَ رضوان الله ومرضاته، إذ إنَّ المؤمنَ اللبيبَ يرى الدُّنيا عدوّاً في ثياب صَدِيق، ولذلك يحذرها أشدَّ الحذر، ويرنو لما هو باقٍ وخالدٌ عند الله تعالى.

وهذا ماكان من أمِّ المؤمنين حفصة وأبيها عمر رضي الله عنهما، حيث قلى كلّ واحد منهما الدّنيا، وأبعدها عن كيانه، ولكنَّ الزَّاهدة حفصة ابنة الخليفة الزّاهدِ عمَر، كانت تسلك طريقة سديدة في الزُّهد، مستوحاة من هَدْيِ زوجها رسول اللهﷺ، بينما كان عمرُ رضي الله عنه، يفهم أنَّ الزهد هو الابتعاد عن كلّ زخْرفٍ من زخارف الدُّنيا مهما كان، ولذلك طفق عمر يذكّر حفصة بأشياء وأشياء

(١ و٢ و٣ و٤ و٥ و٦ و٧ و٨) اقرأ سير هؤلاء النسوة في كتابنا «نساء من عصر النبوة» في جزأيه.

(٩) انظر: الإحكام في أصول الأحكام (٢/٨٩ و٩٠) بشيء من التصرف.

لقد ترك لنا فقهاء الصحابة وأعلامهم، ومنْ بعدهم فقهاء التابعين، وكذلك المجتهدون من أئمة المسلمين، ثروة ضخمة من الفتاوى تساعدنا على الفهم والإدراك السليم للوصول إلى لب الحقيقة.

لقد كان هؤلاء الأعلام رجالاً ونساء علماء موسوعيين في كل فن فنون المعارف الإسلامية ولهذا استطاعوا أن يكونوا من الخالدين، وإن نظرة واحدة إلى كتب الفتاوى القديمة تؤيد مصداق ما ذكرناه.

كيما يكون سلوكه كسلوك رسول الله ﷺ، وسلوك الصِّدِّيق الأكبر أبي بكر رضي الله عنه.

وتعال ـ عزيزي القارىء ـ نشهد هذا المشهد الكريم، من الخليفة عمر، وابنته حفصة رضي الله عنهما، لنعرف مقامهما في عالم الزُّهد والزّهّاد.

ففي خلافة سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثرت الفتوح واتسعتْ رقعةُ الدَّولة الإسلامية، وأضحتِ الشخصياتُ اللامعةُ، تَفِدُ إلى المدينةِ المنّورةِ، لتقابل أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، ذلك الذي دوّخ الفرسَ، وأذلَّ الرُّوم؛ فكان يقابلهم بهدوء، ودون أنْ يَعْمَدَ إلى تغيير هيئته وشكله، مما جعل ابنته حفصة تدعوه إلى مقابلة هؤلاء بشيءٍ أَلْيَنَ من لباسِهِ الخشن.

وذات يوم، قالت له ابنته حفصة أمّ المؤمنين: يا أبت، البس لينَ الثّياب إذا وفدتْ عليك الوفود من الآفاق، ومُرْ بصنعةِ طعام تَطْعَمُه وتطعم مَنْ حضر.
فقال عمر رضي الله عنه يخاطب ابنته في هدوء، ويلفتُ نظرها إلى أشياء تعلمها:
ألستِ تعلمين أنَّ أعلمَ النَّاس بحال الرَّجل أهل بيته؟!
قالت حفصة: بلى يا أبت.
قال عمر: ناشدتك الله، هل تعلمين أنَّ رسولَ الله ﷺ لبث في النّبوة كذا وكذا سَنَة، لم يشبعْ هو، ولا أهل بيته غدوةً إلا جاعوا عشية، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة؟
قالت حفصةُ: نعم..
قال عمر: وناشدتك الله هل تعلمينَ أنَّ النّبيَّ ﷺ لبث في النّبوّة كذا وكذا سنة، لم يشبعْ من التَّمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟!

وناشدتك الله، هل تعلمين أنَّ رسولَ الله ﷺ، قرّبتم إليه يوماً طعاماً على مائدةٍ فيها ارتفاع، فشقَّ ذلك عليه، حتى تغيَّر لونهُ، ثمَّ أَمَرَ بالمائدةِ فَرُفعت، ووضِعَ الطّعام على دون ذلك، أو وضع على الأرض ؟!
فقالت حفصة: نعم..
قال عمر: ناشدتك الله، هل تعلمين أنَّ رسول الله ﷺ، كان ينامُ على عباءةٍ

مثنيةٍ، فثُنيت له ليلة أربع طاقات، فنام عليها، فلّما استيقظ قال: «منعتموني قيامَ الليل بهذه العباءة، اثنوها باثنتينِ كما كنتم تثنونها»؟!

وناشدتك الله، هل تعلمين أنَّ رسول الله ﷺ، كان يضعُ ثيابه لتُغْسَل فيأتيه بلال، فيؤذنه بالصَّلاة، فما يجدُ ثوباً يخرج به إلى الصَّلاة حتى تجفَّ ثيابه، فيخرج بها إلى الصَّلاة؟!

قالت حفصة: أَعْلَمُ ذلك يا أبت.

فقال عمر: وناشدتك الله، هل تعلمين أنَّ رسولَ الله ﷺ، صَنَعَتْ له إمرأة من بني ظفر ـ من الأنصار ـ كساءَين إزاراً ورداء، وبعثت إليه بأحدهما قبل أنْ يبلغ الآخر، فخرج إلى الصَّلاة، وهو مشتملٌ به ليس عليه غيره، قد عقد طرفيه إلى عنقه فصلّى كذلك؟!

وما زال عمر رضي الله عنه يقول حتى أبكاها، وبكى هو وانتحب، حتى كادت نفسه تخرج من شدّةِ التّأثر، وقال لها: كان لي صاحبان، سَلكا طريقاً، فإنْ سلكتُ غير طريقهما، سُلِكَ بي طريق غير طريقهما، وإنّي والله سأصبر على عيشهما الشّديد، لعلّي أدرك معهما عيشهما الرّغيد ـ يعني رسول الله وأبا بكر ـ.

ودخلَ عمرُ رضي الله عنه على ابنتهِ حفصةَ، فَقدَّمَتْ إليه مَرَقاً بارداً وخبزاً، وصبّت في المرق زيتاً، فقال عمر: أُدْمَانِ في إناءٍ واحدٍ، لا أذوقه حتى ألقى الله عزَّ وجلَّ.

بمثل هذه المشاهد، نجد أن أمنا حفصة، وسيدنا عمر قد أجاد كل واحد منهما، في معرفة طريق الزهد، وسلوكه سلوكاً صحيحاً، مهتدياً بهدي رسول الله ﷺ.

وتابعت أمَّ المؤمنينَ حفصة رضي الله عنها طريقها في التماس الهدي النّبويّ، وكان الهديّ العمريّ ينير لها الطّريق أحياناً، لتبقى في نور الهداية النّبويّة، وظلّت كذلك حتى طُعِنَ سيّدنا عمر رضي الله عنه، فجاءت حفصة والنِّساء يسترنها فولجتْ على أبيها عمر، فبكت عنده ساعة، لكنّه وفي تلك الحالة من الآلام والأوجاع، منعها من النّوح والتّعديد.

ذكر الزَّبيديّ ـ رحمه الله ـ في شرحه على الإحياء هذا فقال: دخلتْ حفصة على عمر ـ عندما طُعن ـ فقالت:

يا صاحب رسول الله، ويا صهر رسول الله، ويا أمير المؤمنين؛ فقال لابنه: اجلسني، فلا صَبْرَ لي على ما أسمع.

وقال لها: إنّي أحرج لما لي عليك من الحقِّ أنْ تندبيني بعدها، فأمّا عينيك فلا أملكهما، إنّه ليس مِنْ ميت يُندب بما ليس فيه إلا مقته الملائكة.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما طُعن عمر صرخت حفصة، فقال: يا حفصة، أَمَا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ المعول عليه يُعَذَّب»[1].

وبهذا ذكّر سيّدنا عمر ابنته حفصة بالهدي المحمديّ.

«وَجَاءَتْ سَكَرَةُ الموتِ بالحَقِّ»

في ظلِّ الخلافة الرّاشدة، ظلّتْ أمُّ المؤمنين حفصة رضي الله عنها، تعيش وهي مرعية الجانب، مَرضية المكانة من الخلفاء والصَّحابة، وكبراء العلماء، وأعلياء الفقهاء، وكلٌّ يشيرُ إليها بإصبع الاحترام والتّوقير، ويعترفُ بفضلها، ويعرف فضائلها، ويقرُّ بمكانتها من البيت النّبويّ، فهي واحدة من روافد العلم والفقه والأدب في عصر النّبوة.

وفي بداية خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، احتدمتِ الفتنةُ الأليمةُ حينذاك، وأرادت حفصة أن تخرج مع عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما إلى البصرة، ولكن أخاها عبد الله بن عمر أشار على حفصةَ أخته أنْ تلزمَ بيتها، وتلتزم عبادتها، وألا تشاركَ أحداً في الحضِّ على ثأْرٍ أو ما شابه ذلك.

قرّتْ حفصةُ رضي الله عنها في بيتها، ولزمت ماأشار به عبد الله بن عمر، وظلت تحتفظ بكبير الاحترام لأخيها وتعترف بمكانته وفضله.

وتمضي الأ يام والسّنون، ويظلُّ بيت أمِّ المؤمنين حفصة منارة علمية، وموئلاً

---

(١) انظر: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين لمرتضى الزبيدي (١٤/١٧٨).

لطلّاب العلم والحديث إلى أنْ حلّ العام الخامس بعد الأربعين[1] من الهجرة؛ وفي شهر شعبان من تلك السَّنة، شعرت أمّ المؤمنين حفصة بالوهن والضَّعف، وعرفت أنَّها سكرة الموت قد جاءت بالحقِّ فلم تمضِ بضعة أيام حتى لبّت نداء الحقّ، وصَعِدتْ روحها إلى ربّها راضيةً مرضية.

هذا وقد صلّى عليها أمير المدينة وقتذاك مروان بن الحكم وحُملتْ في نعشٍ على سرير، وحمل سريرها بعض الطَّريق ثم حَمَلَهُ أبو هريرة إلى قبرها في البقيعِ، ونزل في قبرها أخواها: عبد الله وعاصم ابنا عمر، وبنو أخيها عبد الله: سالم وعبد الرّحمن وحمزة؛ وقد بلغت من العمر ستين سنة على أغلب الرِّوايات[2] وكان ممن شيع جنازة أمّ المؤمنين حفصة إلى مثواها الأخير، الصَّحابي الجليل أبو سعيد الخدريّ ضي الله عنه.

وبعد؛ فهل أدّيناً جزءاً من حقٍّ أمّنا حفصة في هذه الصَّفحات المباركات من سيرتها المعطاء؟!

أرجو الله عزّ وجلّ أنْ يكرمنا بأهلِ البيت النّبويّ الطّاهر، وأنْ يحشرنا مع الذين أذهب عنهم الرّجس، وطهّرهم تطهيراً، إنّه عفوٌ كريم.

---

(١) وقيل: توفيت في جمادى سنة إحدى وأربعين من الهجرة. (أسد الغابة ٦/٦٧).
(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنوويّ (٢/٣٣٩) وأزواج النّبي للصّالحيّ (ص١٤٤) وطبقات ابن سعد (٨/٨٦) والمستدرك للحاكم (٤/١٥) وسير أعلام النّبلاء للذّهبيّ (٢/٢٢٩) وغيرها كثير من المصادر الوثيقة.

ومن الجدير بالذكر أنّه يُروى عن سيدنا عمر رضي الله عنه: أنَّ حفصة وُلدت إذ قريش تبني البيت. (طبقات ابن سعد ٨/٨١ والمستدرك ٤/١٤ و١٥).

أُمّ المؤمنين

زينب بنت خُزيمة

رضي الله عنها

- من النِّساء اللواتي اشتهرن بالبِّرِ والإحسان.
- كانت تُدعى «أمّ المساكين» لكثرة معروفها وإحسانها، وصَدقَاتها إلى المَساكين.
- تزوّجها النَّبيُّ ﷺ بعد غَزَاةِ أُحُد.
- رحلتْ إلى ربِّها في هدوءِ الأبرار وصَمْتِ العَابدين.
- توفيت سنة (٤هـ) وهي أوّل نساء النَّبيِّ وفاة بالمدينة ودُفنت بالبقيعِ رضي الله عنها.

أُمّ المُؤمنين
زينب بنت خزيمة رضي الله عنها

مِنْ أَبْوابِ الخَيْر:

المسلمُ الحقُّ أولى النّاسِ بحياةٍ سعيدة طيِّبة، لأنَّ المسلمَ ـ رجلاً كان أو امرأة ـ لا ينفردُ بالخيرِ لنفسه، بل يَعْتَبر مَنْ حوله شريْكَهُ في الخيراتِ، وهذه المشاركة تضفي على النَّفسِ البشريّةِ صفاءً ونقاءً تجعلها تحيا حياةً طيبة في ظلال الخيراتِ.

يقول عبّاس محمود العقّاد ـ رحمه الله ـ: إنَّ مَنْ يحيا، يجبُ أنْ يعيشَ في كلِّ صورةٍ من صُوَرِ الحياة، ويشتهي أنْ يبسطَ ظلّه على كلِّ موجود، ويمدُّ شعوره إلى كلِّ مكان، ويتخلّلُ بنفسه كلّ نفسٍ، وينفذ بسريرته إلى كلِّ زاوية مِنْ زوايا هذا الكون، ويجعل لحياتهِ مساحة، هي مساحة هذا العالم الذي لا حدَّ له، ولا نهاية لأشكاله وأزمانه، من يحيا يعزُّ عليه ألا يجد سوقاً ينفقُ فيها حياته، كما يعزّ على الغني ألا يجد متاعاً يشتريه بماله(١).

ومن ألفَ عمل المعروف والخيرات، كافأه الله عزَّ وجلَّ بإدامةِ ثوابها عليه، ومَنْ تعوّدَ على الإحسان، وعَمَلِ الخيرات، يشعر بإلحاحٍ في نفسه، لمتابعة المسير في هذا الطَّريق الكريم.

وقد أشارَ القُرآنُ الكريم، إلى كثرةِ منافذ الخير التي يجبُ أنْ يسيرَ عليها

---

(١) انظر كتاب: مطالعات في الكتب والحياة للعقاد (ص٣٩٩ و٤٠٠).

المسلم مهتدياً بمنهج ربّه عزَّ وجلَّ، حيث رغَّبه في ثواب الله عزَّ وجلَّ، إذ إنَّه سبحانه لا يهمل المكافأة على أي خير مهما قلَّ أو صغر، قال تعالى: ﴿وما تفعلوا من خيرٍ يعلمه الله﴾ [البقرة: ١٩٧] وقال أيضاً: ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يَرَه﴾ [الزلزلة: ٧][1].

وضيفةُ حلقتنا اليوم، واحدة من نساءِ أهل البيت النّبويّ الطَّاهراتِ، اللاتي أكرمهن الله عزّ وجلّ، وفضّلهنّ على غيرهن من النِّساء. وهي إحدى النِّسوة اللواتي اشتهرنَ بالأحسان، وحلَّقْنَ في سمائِهِ، فكُتِبَ لها الخلود، وكُتبت في سجلِّ الخالدين؛ لا بل، نُظمت في عِقْد أمّهات المؤمنين، ونالت شرف أمومة المؤمنين، ودخلت رحاب البيتِ النّبويّ الطّاهر.

زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلاليّة[2] أمّ المؤمنين، هي التي نتحدّث عنها في الصَّفحاتِ.

---

(١) ذكر الإمام أبو بكر الرازيّ ـ رحمه الله ـ في تفسيره قولاً لطيفاً علّقَ به علىهذه الآية، أبَانَ فيه عن براعته وحسن فهمه لدقائق القرآن الكريم ومعانيه اللطيفة فقال: فإن قيل: كيف قال ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره﴾[الزلزلة: ٧] على العموم وحسنات الكافر مُحْبَطَةٌ بالكفر، وسيئات المؤمن مَعْفُوٌّ عنها مغفورة باجتناب الكبائر، فكيف تثبت رؤية كلّ عاملٍ جزاءَ عمله؟

قلنا: معناه: فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً مِنْ فريق السُّعداء، ومَنْ يعمل مثقال ذرّة من الأشقياء لأنّه جاء بعد قوله: ﴿يصدر النّاس أشتاتا﴾[الزلزلة: ٦].

وذكر مقاتل أنّها نزلت في رجلين من أهل المدينة كان أحدهما يستقلّ أنْ يعطيَ الكسرة أو التّمرة ويقول: إنّما نؤجر على ما نعطيه ونحنُ نحبّه، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ويقول: إنّما أوعد الله تعالى النّار على الكبائر. (تفسير الرازي ص٥٧٣).

(٢) أزواج النّبيّ لأبي عبيدة (ص٧٧) والمحبر (ص٨٣) وجلاء الأفهام (ص١٩٨) وأُسْد الغابة (٦/١٢٩) ترجمة رقم (٩٦٥٣) والسِّير والمغازي (ص٢٥٨) وأزواج النّبيّ للصّالحي (ص١٩٢) والسِّيرة النّبويّة (٢/٦٤٧) وجوامع السِّيرة النّبويّة (ص٣١) وعيونُ الأثر (٢/٣٨١) وأنساب الأشراف (١/٤٢٩ و٤٤٥ و٤٤٧) وسير أعلام النّبلاء (٢/٢١٨) والمعارف (ص٨٧ و١٣٥ و١٥٨) والبداية والنّهاية (٤/٩٠) و (٥/٢٩٥) وأعلام النّساء

هذه المرأة الكريمة كانت ـ وظلّت ـ تُدعى أمّ المساكين لكثرةِ معروفتها وإحسانها إليهم، و﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ [الرحمن: ٦٠].

فهل يمكننا أنْ نلقيَ الضَّوء على سيرةِ حياةِ أمِّ المؤمنين زينب بنت خزيمة، كيما نوفيها بعض الإحسان؟ وهل نستطيع أنْ نعيشَ سُعداء في ظلالِ حياتها المعطاء في البيت النّبويّ العظيم؟! ذلك ما نرجو الله عزَّ وجلَّ أنْ يكرمنا بالحديثِ عن سيرتها.

حَيَاتُهَا قَبْلَ دخُولهَا البَيْتَ النَّبويّ:

يبدو أنَّ زينبَ بنت خزيمة قد وُلدت في أمِّ القرى بمكةَ قبل البعثة النّبويّة بثلاث عشرة سنة تقريباً، ولما أيفعتْ زينب، أشرقت مكة بنورِ الإسلام، فسارعت زينب إلى الانضمام لثلّةِ الأوّلين الذين نعموا بأفياء الإيمان بالله ورسوله.

أمّا عن زواجِ زينب بنت خزيمة، فهناك أقوال أشهرها ما قاله الزّهريّ ـ رحمه الله ـ أنّها كانت زوجاً لعبدِ الله بن جحش، وقُتلَ عنها في يوم أحد.

وقيل: كانت زوجة للطّفيل بن الحارث، ثم خلف عليها أخوه الشّهيد عُبيدة بن الحارث المطّلبي[1].

ولا نستطيع أنْ نجزمَ في هذه الأقوال شيئاً، أو أن نرجِّح أحد الأقوال، لأنّنا

= ـ ٦٥/٢) ومختصر تاريخ دمشق (٢٧٢/٢) وطبقات ابن سعد (١١٥/٨ و١١٦) والمستدرك (٣٣/٤ و٣٤) وشذرات الذّهب (١١٩/١) والإصابة (٣٠٩/٤) والاستيعاب (٣٠٥/٤ و٣٠٦) ومجمع الزوائد (٢٤٨/٩) والمجتبى من المجتنى (ص٩٤ و٩٥) وتلقيح فهوم الأثر (ص٢٢) والكامل لابن الأثير (١٧٠/٢ و٣٠٨) وتاريخ الطّبري (٨٠/٢ و٢١٤) والعبر(٥/١) والسّمط الثمين (ص١٣٠) ونور الأبصار (ص٤٧) والسّيرة الحلبية (٤٠٩/٣) والمواهب اللدنية (٨٩/٢) ودلائل النّبوة للبيهقي (٢٨٥/٧) ودرّ السّحابة (ص٣٢٨) وغيرها من المصادر المتنوعة.

(١) انظر هذه الآراء في سير أعلام النّبلاء (٢١٨/٢) والإصابة (٣٠٩/٤) وأزواج النّبي للصّالحي (ص١٩٣).

لا نمتلك السَّند الوثيق في هذا المجال؛ ويمكنني أنْ أضعَ القارىء الكريم أمام آراء المؤرخين، وكتّاب السِّيرة ، والتَّراجم حتى نقتربَ معاً من ضوء الحقيقة ـ إن استطعنا ذلك ـ.

فقد روى الطَّبرانيُّ ـ رحمه الله ـ برجالِ الصَّحيح عن محمّد بن إسحاق ـ رحمه الله ـ قال:

تزوّج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية أمّ المساكين ـ كانت قبله عند الطّفيل بن الحارث ـ بالمدينة[1].

وقريبٌ مِنْ هذا ماأورده ابن الكلبيّ قال: كانت زينبُ بنت الحارث عند الطُّفيل بن الحارث، فطلَّقها، فتزوَّجها أخوه عُبيدة بن الحارث، فقُتل يوم بدر شهيداً ثم خَلَف عليها رسول الله ﷺ في رمضانَ على رأس أحد وثلاثين شهراً من الهجرة[2]. بعد حفصة بنت عمر رضي الله عنهما.

زينبُ منْ أُمَّهات المؤمنينَ:

في السَّنَةِ الثَّالثةِ كانت غزاة أُحد، وفي هذه الغزوة استشهد رجال كرام أعزّاء من الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم، وتركوا ما تركوا لله عزَّ وجلَّ ابتغاء مرضاته، وابتغاء رضوانه وجنّته التي وعدهم.

أمّا المسلمون من الصَّحابةِ الكرام، فلمْ يتركوا أزواج الشُّهداء وذريتهم للضياع، أو لجور الأيام، وإنَّما راح كلّ قادرٍ منهم يضمُّ إليه زوجة شهيد وأبناءه، كيما يمسح عن قلوبهم ألَمَ الفِراق، وألَم اليتم.

نتذكر ـ هنا ـ حمنة بنت جحش[3] رضي الله عنها، وقد ولولت على زوجها

---

(١) قال الهيثميّ في مجمع الزّوائد: (٢٤٨/٩) رواه الطّبراني ورجاله ثقات، وأخرجه كذلك البيهقي في دلائله (١٥٩/٣) وانظر الكامل لابن الأثير (١٧٠/٢) وأنساب الأشراف (٤٢٩/١).

(٢) طبقات ابن سعد (١١٥/٨).

(٣) اقرأ سيرة الصحابية الجليلة حمنة بنت جحش في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (٦٩/١

مصعب بن عمير رضي الله عنه، وقالت: واحزناه، ويسمعها رسول الله ﷺ فقال:

«إنَّ للزوجِ منَ المرأة مكاناً ما هو لأحد» وعندئذ قال لها ﷺ: «لِمَ قلتِ هذا»؟ قالت حمنةُ رضي الله عنها: يا رسول الله، ذكرتُ يُتْم بنيه فراعني.

فدعا لها رسول الله ﷺ ولولدها، أنْ يُحسنَ الله تعالى عليهم الخلف، فتزوّجتْ طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، فكان أوصل الناس لولدها.

وممن استشهد في أُحد زوج[1] زينب بنت خزيمة الهلالية، فكانت دائمة الحزنِ عليه، ونظرتْ فرأتْ نفسَها وحيدةً حزينة في المدينة المنوّرة، وليس لها من معيلٍ، أو معين، أو عون، سوى الله عزَّ وجلَّ.

إلا أنَّ زينبَ بنت خزيمة رضي الله عنها كانت موصولة القلب بالله عزَّ وجلَّ، وتدرك أنَّ الله عزَّ وجلَّ لن يضيعَها، فأسلمتْ إليه أمْرها، واستسلمت لقضائهِ وقَدَرِه.

انقضتْ عدّةُ زينب بنت خزيمة، فلم تشعرْ إلا ورسول الله ﷺ جاء يخطبها، وحينذاك جعلت أمرها إليه[2]، فالرّسول الكريم ﷺ هو خير مَنْ يتولّى أمْرها[3]، ويرعى شأنها.

هذا وقد أصدقها النَّبيُّ الكريمُ ﷺ أربعمئة درهم، وبنى لها حجرة إلى جوار حجرةِ عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر رضي الله عنهم جميعاً، وذلك قرب المسجد النّبويّ الشّريف.

وبهذا اقتعدتْ زينب بنت خزيمة رضي الله عنها مكانة مباركة عالية، حيث

= ٧٧) فسيرتها رمز للصّابرات المحتسبات المجاهدات رضي الله عنها.

(١) في هذا تكون زينب بنت خزيمة زوج الصحابي الشهيد عبد الله بن جحش ـ والله أعلم ـ وهذا ماذهب إليه القسطلاني صاحب المواهب اللدنية.

(٢) طبقات ابن سعد (١١٥/٨) وعيون الأثر (٣٨١/٢).

(٣) هناك رواية تشير إلى أنَّ عمَّها قبيصة بن عمرو الهلالي قد زوّجها النبي ﷺ.

أضحت إحدى أمّهات المؤمنين، وإحدى اللواتي أَذْهَب الله عنهنّ الرِّجْسَ، وجعلهنّ من صَفْوة نِساء الدُّنيا كمالاً، ودِيْناً، وصيانةً، وعفّةً، وحلماً، وكرماً.

أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ وَأُمُّ المَسَاكِيْنِ:

في رحلةِ الإيمان، ورحلةِ العطاء والكرم[1]، تسّجل أمّ المؤمنين زينب رضي الله عنها فضائل جليلة، في صفحات البيت النّبويّ الكريم، إذ أُثِر عنها أنّها كانت أمّاً للمساكين بالإضافةِ إلى كونها أمّ المؤمنين رضي الله عنها.

ويبدو ـ والله أعلم ـ أنَّ كُنْيَة زينب بنت خزيمة بأمِّ المساكين، كُنْية قديمة، قد تعودُ إلى ما قبل هجرتها إلى المدينة المنوّرة، فقد كانت تُعرف بأمِّ المساكين قبل قدومها المدينة، ولعلَّ خيرَ ما يؤيد هذا ما ذكره ابنُ أبي خيثمة ـ رحمه الله ـ قال: كانت زينبُ بنتُ خزيمة الهلالية تسمى أمّ المساكين في الجاهلية.

وقال البلاذريّ ـ رحمه الله ـ: وكُنّيتْ بذلك في الجاهلية[2] ـ أي أمّ المساكين ـ.

وقال القسطلانيّ ـ رحمه الله ـ كانت تدعى في الجاهلية أمّ المساكين.

وروى الطّبرانيّ ـ رحمه الله ـ برجالٍ ثقات عن الزّهريّ ـ رحمه الله ـ قال:

---

(١) إنَّ الكرمَ هو الإعطاء بيسر وسهولة، دون عسر وتكلّف. والكريم هو الإنسان الذي يوصل النّفع بلا عوض، فالكرم إفادة لما ينبغي دون غرض. وليس من الكرم هبة المال جلباً لنفع، أو خلاصاً عن ذمّ. (تعريفات الجرجاني، الكرم: باب الكاف).

ويندرج الكرم في الإسلام، تحت قائمة البّر والتّقوى في باب المشاركة، والمعاونة والتّرابط، ويندرج تحته العمل الصّالح في مجموعه، وفي ذلك يشير الإمامَ الشّافعي ـ رحمه الله ـ إلى أنَّ أكثرَ النّاس قد غفلوا عن تدبّر سورة العصر، مع ما فيها مِنْ خيرٍ كثير، وتواصل بين النّاس: ﴿**والعصر. إنَّ الإنسان لفي خُسْر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وتواصوا بالحقِّ وتواصوا بالصّبرْ**﴾ [سورة العصر: ١ـ٣] فالتّعاون على الخير، والتّواصي به، والصّبر على تنفيذه، فضيلة من فضائل الإسلام الأخلاقية وقد كانت زينب بنت خزيمة كذلك.

(٢) انظر: أنساب الأشراف (١/٤٢٩).

تزوّجَ رسولُ اللهﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية، وهي أمّ المساكين، سمّيت بذلك لكثرة إطعامها المسَاكين[1].

وقال محمَّد بنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ في السِّيرة: تزوَّج رسولُ اللهﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية[2] ـ أمّ المساكين ـ وقال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ عنها: وهي التي يُقال لها: أمّ المساكين، ولكثرةِ صدقاتها عليهم، وبرّها لهم، وإحسانها إليهم[3].

نعم، لقد كانت أمُّنا زينب بنت خزيمة رضي الله عنها، مِنْ أرحم وأرقّ النِّساء للفقراءِ والمساكين في الجاهليّة، وفي الإسلام، وزادت من حنانها عليهم، بعد أنْ أنعمَ الله عليها بنعمةِ الإيمان ، وبعد أنْ أكرمها الله بدخولِ البيت النّبويّ الطّاهر، لكي تصبحَ منْ أمّهات المؤمنين الطّاهرات رضي الله عنهن.

إنَّ هذه الصِّفَةَ الكريمة ـ أمّ المساكين ـ تزيدُ من رصيد أمِّنا زينب بنت خزيمة في عالَم نساء أهل البيت النّبويّ الطّاهر، فالإحسان إلى المساكين، والعطف عليهم ، والرَّأْفة بهم، يشيرُ إلى خيرّيتها، وإلى كرمها الفيّاض الذي جعلها أماً

---

(١) أخرجه الطّبراني، وقال عنه الهيثمي في المجمع (٢٤٨/٩): رجاله ثقات. وانظر: أُسْد الغابة (١٢٩/٦) ترجمة رقم (٦٩٥٣) ودرُّ السّحابة للشّوكانيّ (ص٣٢٨).

وتتجلى أروع مظاهر الكرم، حين يصيرُرحمة وملاطفة لليتيم، دون قَهْر أودَعٍّ، قال الله عزّ وجلّ: ﴿فأمّا اليتيمَ فلا تقهر﴾ [الضّحى: ٩] وقال تعالى: ﴿أرأيتَ الذي يكذب بالدين. فذلك الذي يدعُّ اليتيم﴾ [الماعون: ١ـ٢]. وليس للعطف على اليتيم أو المسكين والكرم معه مِنْ جزاء إلا الجنّة التي وَعَدَ الله بها عباده، وروى البخاريُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ رسول اللهﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا» وأشار بالسّبابة والوسطى وفرج بينهما.

ولعل أمَّ المؤمنين زينب بنت خزيمة رضي الله عنها قد سمعت هذا الحديث وعرفت ثواب مَنْ يعطف على المساكين، فكانت حياتها معهم حياة المتواضع وحياة العطف والمودة، فحظيت بهذه الكنية الخالدة.

(٢) السّيرة النّبويّة (٦٤٧/٢).

(٣) البداية والنّهاية (٩٠/٤).

للمساكين[1] في المدينة المنوّرة، تحنو عليهم وترعاهم، فقد تعودوا على نوالها وكرمها، وهذا ما يجعلها في صنْفِ الخالدات وفي صفِّ الفُضْليات، وفي عالَم الكرم والكرماء.

أُمُّ المَساكِيْن وعَائشَةُ وحَفْصَة:

كانتِ السِّيِّدتان النّبيلتان عائشة بنت أبي بكر، وحفصة[2] بنت عمر رضي الله عنهم، أسبق من زينب أمِّ المساكين إلى دخول البيتِ النّبويّ الطّاهر الكريم؛ وكان لهاتَيْنِ الكريمتين: عائشة وحفصة، مكانة كبرى، ومنزلة عظمى، عند رسول اللهﷺ، ولذلك لم تستشعْر عائشة، ولا حفصة، نحو الوافدة الجديدة زينب بنت خزيمة أية غيرة، أو أي شيء من دوافع الغضب الأنثوي.

كانت كلٌّ منْ أمِّنا عائشة، وأمّنا حفصة رضي الله عنهما، تعرف وتدركُ أنَّ رسولَ اللهﷺ قد تزوّج زينب بنت خزيمة أمّ المساكين، وضمّها إلى البيت النّبويّ رحمة منه وعطفاً، وكانتا تعلمان أيضاً أنَّ رسولَ اللهﷺ ما ينطقُ عن الهوى، وربّما تزوجها بوحي منَ الله سبحانه وتعالى.

وأمَّا زينب بنت خزيمة أمّ المساكين، فلم تكن راغبة هي الأخرى في منافَسَةِ عائشة وحفصة اللتين سبقتاها إلى بيت النّبيّ الكريمﷺ.

---

(١) من اللّطائف الحلوة في حياة الصّحابة الكرام، حياة العطف والإحسان، وأودُّ أَنْ أشير إلى أنَّ سيدنا جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه، كان يلقّب بأبي المساكين، وفي هذا يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه عن أبي المساكين جعفر: كان جعفر يحبُّ المساكين، ويجلس إليهم، ويخدمهم ويخدمونه، ويحدثهم ويحدثونه، فكان رسول اللهﷺ يسميه أبا المساكين.

وروى البخاري ـ رحمه الله ـ أنَّ أبا هريرة رضي الله عنه قال: كان جعفر رضي الله عنه خير الناس للمساكين. (رجال مبشرون بالجنّة ٢/١٣٧).

(٢) قال ابنُ قتيبة ـ رحمه الله ـ في «المعارف» تزوّج رسول اللهﷺ زينب بنت خزيمة بعد حفصة بعشرين يوماً.

وقال ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ في «أُسْد الغابة» عن أمِّ المؤمنين زينب بنت خزيمة: وتزوّجها رسول اللهﷺ بعد حفصة.

كانت زينبُ بنت خزيمة عليها سحابات الرّضوان، تعيش في عالَمِ العطف والمودّة والحنان، وتعيشُ في دفْ الإسلام وعظمته، فكانت تحسّ سعادة عظيمة في رحمة المساكين، وفي رقّتها عليهم، ورِفْقها بهم، والإحسان إليهم، فجعلت وقتها كلّه في عبادة الله عزَّ وجلَّ، ثمَّ في رعاية ثلّة المساكين وإطعامهم، والتَّصدّق عليهم، ولهذا غلب عليها تسمية أمّ المساكين(1)، وناهيك بهذه التّسمية الفضلى الفوّاحة بأريجِ الحنان!

نعم لقد كانت أمّنا زينب بنت خزيمة رضي الله عنها خيِّرة من الخيِّرات، طيّبة من ذوي النّفوس الطّيّبة، وما كان يخرج من حجرتها إلا الصّدقات، وإلا الطّاعات، فأكرمْ وأَعْظِمْ بذلك!

كانت رضي الله عنها قريرة العين، مطمئنة القلب، بأنْ أصبحتْ زوج رسولِ ربّ العالمين محمّدﷺ، وهل فوق هذا من فضل أو مفخر؟! فما كانت الغيرةُ تعرف إلى نفسها سبيلاً، وما كانت الغيرة تنهش فؤادها، فهي سعيدة راضية بأنْ أصبحتْ أمّ المؤمنين، وأضحت أمّ المساكين، وقد غمرتْ أهلَ الصُّفَّة(2)،

---

(1) المعارف لابن قتيبة (ص١٣٥).

(2) من أهمّ مظاهر العطفِ والإحسان والكرم، أنْ يتواضعَ الإنسان المسلم مع الضّعفاء والفقراء، وأنْ يعطفَ عليهم، ويقضي حوائجهم، ويواسيهم مواساة رفيقة، بقدر ما يستطيع، يقول الله عزّ وجلّ في هذا: ﴿واصبرْنفسَك مع الذين يدعونَ ربّهم بالغداةِ والعشيّ يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم..﴾ [الكهف: ٢٨].

وعلى هذا فلا ينبغي للمسلم، أنْ يستهينَ بأحد من الفقراء أو الضّعفاء، لأنّ كرامتهم ومنزلتهم عند ربّهم، وقد وعت أمّنا زينب بنت خزيمة هذا، ولمست نفحات الإنعام الرّبانية من خلالِ عطفها ورحمتها بالمساكين والفقراء، وعلمت أنَّ العطفَ عليهم يعودُ بالفائدةِ الكبيرةِ على مَن فَعَلَ ذلك.

جاء في الحديث النّبويّ الشّريف الذي رواه الشّيخان في صحيحهما، أنّ الحبيبَ المصطفىَﷺ قال: «ألا أخبركم بأهل الجنّةِ؟ كلّ ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبّره. ألا أخبركم بأهل النّار؟ كلّ عتلٍّ جوّاظ مستكبر».

«العتل» هو الغليظ الجافي الذي ينفض الناس من حوله. =

أولئك الأبرار الذين انقطعوا للعبادةِ والمناجاةِ في المسجدِ النّبويِّ الطّاهرِ، وعملوا على حراسةِ الحبيبِ المصطفى ﷺ؛ غَمَرتْ هؤلاء ببرّها، وعطفها، وخيرها، وكرمها، وإحسانها، حتى لهجَ جميعهم بالدُّعاء لها، والثّناء عليها رضي الله عنها.

إلى دَارِ السَّلامِ:

لَم يَطُلْ مقام زينب بنت خزيمة أمّ المساكين في البيتِ النّبويِّ، ولم تكن حياتها طويلة مع أمّهاتِ المؤمنين الطّاهرات رضي الله عنهن، فما كادت تمضي بضعة شهور حتى علا الوجوم والحزن وجوه مَنْ كانوا في المسجد النّبويّ الشّريف، فقد خرج ذات يوم من دارِ النّبيِّ ﷺ، مَنْ أعلن للملأ أنَّ زينب بنت خزيمة أمّ المساكين قد لحقتْ بربّها.

لقد دخلت زينب بنت خزيمة رضي الله عنها بيت رسول الله ﷺ، في هدوءِ الأبرار وصَمْتِ العابدين، وخرجت في صمت الخاشعين، لتدفن في البقيع إلى جوار الأبرار الأخيار الذين سبقوها إلى دار السَّلام، ولنِعْمَ دارُ المتّقين الجنّة..

هذا وقد نَكأَ موتُ زينبَ أمِّ المساكين جرح قلب الحبيب المصطفى ﷺ، إذْ تذكّر بموتِ أمِّ المساكين زوجه الطّاهرة سيّدة نساء العالمين خديجة بنت خويلد،

= و«الجواظ» كثير جمع المال، ومع هذا فهو بخيل منوع.

وفي حديث آخر رواهُ مسلم في صحيحه تأكيدٌ على هذا المعنى، وتنبيه عل عدم الاستهانة بمن يكون مظهره غير لائق في نظر البشر: «ربّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره».

إنَّ ضَعْفَ الضّعيف قد يكون مصدر رزقٍ وخيرٍ ونصرِ الأقوياء، وهذا بفضل الله عزّ وجلّ، كما جاء في الحديث الشّريف الذي أخرجه الإمام البخاريّ في صحيحه عن النّبيّ ﷺ قال: «هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم» وقد أدركت أمّ المؤمنين زينب بنت خزيمة هذه المعاني الحميدة، فعملت لتفوزَ بالسّعادةِ الحقيقية، وعلمت أنَّ الذي يختالُ بمظهره، ويحمل بين جنبيه نفساً شحيحة باغية يكون مصيره البوار، كما روى الشّيخان في صحيحهما عن رسول الله ﷺ قال: «إنّه ليأتي الرجل السّمين يوم القيامة، لا يزِنُ عند الله جناحَ بعوضة».

التي كانت له وزير صِدْقٍ على الدَّوام، وأول أمّهات المؤمنين، وأحبّهن إلى قلبه الشّريف، حاضنة الإسلام وصدّيقة المؤمنات الأولى رضي الله عنها وأرضاها.

لقد توفيت أمُّ المساكين، ولم تَرْوِ شيئاً عن النَّبيﷺ.

قال الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ وما رَوَتْ شيئاً[1].

وقال ابن الجوزيّ ـ رحمه الله ـ : وما نعلمها أسندتْ شيئاً[2].

ولعلَّ هذا يعود إلى انشغالها بأحوالِ المساكين، وإلى قلّة مكثها في بيتِ رسول اللهﷺ.

روى الطّبرانيُّ ـ رحمه الله ـ قال: وتوفيت ـ أمّ المساكين ـ ورسول اللهﷺ حيٌّ، لم تلبثْ معه إلا يسيراً[3].

توفيتْ أمُّ المؤمنين وأمُّ المساكين في ربيع الآخر في السَّنَةِ الرَّابعةِ من الهجرة المباركةِ، وكان مثواها الأخيرُ في البقيعِ في المدينة المنورة[4]. وكانت عندما توفيت في ريعان الشَّباب، فقد ذكرتِ المصادر، أنّها ماتتْ وعمرها حول الثلاثين[5].

وفي الطَّبقاتِ، أخرج ابنُ سعدٍ ـ رحمه الله ـ ما يتوافق مع هذا عن شيخه محمّد بنِ عمرَ قال:

سألتُ عبدَ الله بن جعفر رضي الله عنهما: مَنْ نزلَ في حفرتها؟

فقال: إخوة لها ثلاثة.

قلتُ: كم كان سِنّها يوم ماتتْ؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢١٨).

(٢) المجتبى (ص٩٥).

(٣) مجمع الزوائد (٩/٢٤٨).

(٤) السّمط الثّمين (ص١٣٠) والإصابة (٤/٣٠٩) وأنساب الأشراف (١/٤٢٩) ونور الأبصار (ص٤٧) والمواهب اللدنيّة (٢/٨٩) ودلائل النّبوة للبيهقيّ (٣/١٥٩) وعيون الأثر (٢/٣٨١).

(٥) طبقات ابن سعد (٨/١١٦) والإصابة (٤/٣٠٩) وأزواج النبي للصالحي (ص١٩٥).

قال: ثلاثين سَنَةٍ أو نحوها[1].

وكانت أمُّ المساكين، أوّل نساء النّبيّ ﷺ موتاً بالمدينة، وقد توفيت أمُّ المؤمنين خديجة قبلها في مكةَ.

هذا وقد فازتْ زينبُ بنت خزيمة بوفاتها في حياةِ[2] رسولِ الله ﷺ، والصّلاة عليها[3]، والدُّعاء لها ولم يمتْ من زوجاته بالمدينة غيرها في حياته ﷺ.

رضي الله عن أمِّنا زينب بنت خزيمة، وأكْرَمَ مثواها، فهو الكريم الرَّحيمُ، وجزاها بالحسنى، فهو القائل في كتابه العزيز: ﴿**ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى**﴾[النّجم: ٣١] وجعلها في عليّين مع الأبرارِ والصّالحين، وأدخَلنَا معها ومع أهلِ البيت النّبويّ الطّاهر في رحمته، إنَّ ربيّ غنيٌّ كريمٌ. والحمدُ لله أولاً وآخراً.

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ١١٦).

(٢) قال عزّ الدّين بن الأثير ـ رحمه الله ـ: وكانت وفاتُها في حياته لا خِلافَ فيه (أسد الغابة ٦/ ١٢٩) وقال ابن سيّد النّاس ـ رحمه الله ـ: وصلى عليها رسول الله ﷺ، ودفنها بالبقيع. (عيون الأثر ٢/ ٣٨١).

(٣) قال البلاذري ـ رحمه الله ـ: دفنها رسول الله ﷺ بالبقيع وصلّى عليها (أنساب الأشراف ١/ ٤٢٩).

أمّ المؤمنين

هند بنت أبي أميّة «أمّ سلمة».

رضي الله عنها

- من سادةِ وساداتِ النِّساء، اشتهرت بحصافة الرّأي وكانت تسعى لمرضاةِ الله ورسوله دائماً.
- كان لها مكانة رفيعة عند النَّبيّ ﷺ، وكان يصلي في بيتها.
- في بيت أمّ سلمة نزل قول الله تعالى: **﴿إنّما يريدُ الله ليذهب عنكم الرجس أهْلَ البيت ويطهركم تطهيراً﴾**.
- كانت منْ فقهيات الصَّحابيات روت (٣٧٨ حديثاً) وكانت عالمة، قارئة، فصيحة، أديبة، لها كلمات مأثورة.
- عاشت أكثرَ من (٨٠ سنة) وهي آخر أمّهات المؤمنين وفاة.

أمّ المؤمنين
هند بنت أبي أميّة رضي الله عنها

«أُولئِكَ المُقَرَّبُونَ»

كان في صَدْرِ الأباةِ السَّابقينَ إلى دوحةِ الإيمان، ثلّةٌ مِنْ كبراءِ مكةَ، الذين ضربوا أروعَ الأمثلةِ، في ميادينِ الشَّجاعةِ والسَّخاءِ، والصَّبْرِ والإيمان.

من بين أولئك الأباة: أبو سلمة، عبد الله بن عبد الأسد المخزوميّ، السَّيِّد الكبيرُ أخو رسول الله ﷺ منَ الرَّضاعة، وابن عمّته برّة بنت عبد المطلب، وأحد السَّابقين الأوّلين إلى الإسلام، الذين أصابهم رذاذُ الإيمان وحبٌّ رسوله الأمين ﷺ.

كان رقمُ[1] أبي سلمة في سجلِّ الإيمان بارقاً يلمُع بين الأرقام الأولى، فقد أسلمَ بعد عشرة أنفسٍ، فكان من المقُرَّبين الذين عرفوا الحقَّ مِنْ أوَّلِ يومٍ انبلجتْ فيه نسماتُ الإيمان النّديةِ على مكةَ ـ بلِ الدُّنيا ـ فأضاءتْ تلك النّفوس الصَّافية التَّقية النَّقية.

---

(١) أسلمَ أبو سلمة رضي الله عنه في وقت مبكّر منْ بزوغِ فجر الإسلام، ويُعدُّ منَ السَّابقين الأوّلين إلى الانضواء تحت راية الإيمان، وفي ذلك يحدثنا ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ يقول: انطلقَ عثمانُ بن مظعون، وعبيدةُ بن الحارث بن المطلب، وعبدُ الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وأبو عبيدة بن الجراح، حتى أَتَوْا رسولَ الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام، وأنبأهم بشرائعه، فأسلموا جميعاً في ساعة واحدة، وذلك قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وقبل أن يدعو فيها. (طبقات ابن سعد ٣/٣٩٣).

وتبرزُ من بين أولئك السَّابقين، امرأةٌ سجّلتْ أَعْظَم الأثر في البيتِ النّبويّ الطّاهر، في مجالاتٍ خيِّرةٍ متنوِّعةِ الفضائل، هذه المرأة الفاضلة هي: السّيّدة المحجّبةُ الطّاهرةُ، هندُ بنتُ أبي أميّة بنِ المغيرة بنِ عبد الله المخزوميّة[1] ابنة عمِّ خالد بن الوليد، ومشهورة بكنيتها أمّ سلمة أمّ المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها.

قال عنها الإمامُ الذّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: مِنَ المهاجراتِ الأُوَل، كانت قبل النبيﷺ عند أخيه من الرَّضاعة: أبي سَلَمة بن عبد الأسد المخزوميّ، الرَّجل

---

(١) طبقاتُ ابن سعد (٨/٨٦ ـ ٩٦) والمعارفُ (١٢٨ و١٣٦) والمستدرك (٤/١٦ ـ ١٩) وأسُد الغابة (٦/٣٤٠ ـ ٣٤٣) ترجمة رقم (٧٤٦٤) ومجمع الزّوائد (٩/٥٤) وتهذيب التّهذيب (١٢/٤٥٥) والإصابة (٤/٤٠٧ و٤٠٨ و٤/٤٣٩ و٤٤٠) وكنزُ العمّال (١٣/٦٩٩) والاستيعاب (٤/٤٠٥ ـ ٤٠٨ و٤/٤٣٦ و٤٣٧) ومسند أحمد (٦/٢٨٨) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/٣٦١ و٣٦٢) وأزواجُ النّبيّ للصالحيّ (ص١٤٧ ـ ١٦٠) والسِّمطُ الثّمين (ص٩٩ ـ ١١١) والعِبرُ (١/٦٥) وعيونُ الأثر (٢/٣٨١ و٣٨٢) وشذراتُ الذّهب (١/٢٨٠) والكامل في التّاريخ (٢/٧٦ و٨٨ و١٧٦ و٢٠٥ و٢٤٣ و٢٥٤) و (٣/٥٤ و٣٨٣ و٥١٤) ونسبُ قريش (ص٣٢٩) وجمهرة أنساب العرب (١/١١٩ و١٣٧ و١٤٤) وتاريخ الطّبريّ (٢/١٠٠ و١٢٤) و(٣/٨،٦ و١٥٣ و٥٠٣) والسّيرة النّبويةُ (٢/٦٤٤ و٦٤٥) والعِقْدُ الفريد (انظر الفهارس ٧/١٠٠) وبلاغاتُ النّساء (ص١٠) وفتوح البلدان للبلاذريّ (ص٥٨١) ومختصر تاريخ دمشق (٢/٢٧١) وأعلام النِّساء (٥/٢٢١ ـ ٢٢٧) والمواهبُ اللدنية (٢/٨٤) وصفة الصّفوة (٢/٤٠) ومسندُ أبي يعلى (١٢/٣٠٢ ـ ٤٦٠) وتقريب التّهذيب (٢/٦١٧) وسيُر أعلام النّبلاء (٢/٢٠١ ـ ٢١٠) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي انظر الفهارس ص٨٠٥) والمحّبر (ص٨٣ و٨٤) وأزواجُ النّبي وأولاده لأبي عُبيدة (ص٦٤ ـ ٦٧) والمغازي للواقدي (انظر الفهارس ص١١٧٩) والبداية والنّهاية (٨/٢١٤) وأنسابُ الأشراف (انظر الفهارس ١/٦١٨) وجوامعُ السِّيرة النّبويّة (ص٣١) والمجتبى لابن الجوزي (ص٩٢) وحياة الصّحابة (انظر الفهارس ٤/٧١٢) والسِّير والمغازي (ص٢٦٠ و٢٦١) والفصول (ص٢٤٥) والأعلام للزِّركلي (٨/٩٧ و٩٨) وتلقيحُ فهوم الأثر (ص٢١) وشفاءُ الغرام

الصَّالح، وكانت مِنْ أجملِ النِّساء، وأشرفهن نَسَباً[1].

وتُعدُّ أمُّ سلمةَ رضي الله عنها، مِنْ أولى المؤمناتِ في الإيمان بالله عزَّ وجلَّ، وبالنَّبيِّ محمَّدﷺ، ولمْ يسبقْهَا في عَالَمِ النِّساءِ، إلا صِدِّيْقَةُ المؤمنات الأولى خديجة وبناتُها، وإلاّ أمّ أيمن الحبشيّة، وأمّ الفَضْلِ زوج العبّاس بن عبد المطلب رضي الله عنهن جميعاً، ولهذا تنتظم أمُّ سلمة في عِقْد المؤمناتِ السَّابقاتِ إلى خَيْرَي الدُّنيا والآخرة.

كَرَمُ الأَعْرَاقِ:

لو ألقينا الأضواءَ على حياة أمِّ سلمةُ قبيل الإسلام، لألفينا أنَّها امرأةٌ ذات شَرَفٍ وطهْرٍ في أهلها، وذات نَسَب مُعْرِقٍ في المعالي، ومَنْبَتٍ كريم حسيب في قومها بني مخزوم، ثم هي بعد ذلك كلّه، ابنة واحدٍ من كرماء قريش، وأنداهم كفّاً، وأجودهم عطاء، فأبوها زادُ الرّاكب[2] أحد الأجواد الذين سارت الأمثال

= (١/٣٠٧ و٣١٠) و (٢/١١٨ و١١٩ و١٣٣) والتّاج الجامعُ للأصول (٣/٣٨٣) وحجةُ الله على العالمين (٢/٤٨) وأخبارُ مكةَ (١/٢٦٢) وجلاء الأفهام (ص١٩٥ ـ ١٩٧) وغرر التّبيان (ص٤٢٠ و٤٢٣ و٤٨٧) ومفحمات الأقران (ص١٦٦ و١٦٨) والسيّرة الحلبيّة (٣/٤١٠ و٤١١) وتفسيرُ القرطبيّ (١٤/١٦٥) ونورُ الإبصار (ص٤٧) ووفاءُ الوفا (١/٣٠٠) ودرُّ السَّحابة (ص٣٢٤) والرَّوضُ الأنف (٤/٢٦٨) وزادُ المعاد (١/ ١٠٦ و١٠٨) وغيرها كثير من كتب الصَّحيح والسّنن والمسانيد والسِّيرة والطّبقات مما لا تُحصر في هذا المقام.

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢٠٢).

(٢) قال ابنُ حبيب ـ رحمه الله ـ: أزوادُ الرّكب هم: الأسودُ بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، ومسافرُ بن أبي عمرو بن أمية، وأبو أمية بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وزمعةُ بن الأسود بن المطلب بن أسد، وكانوا إذا سافروا لم يختبر معهم أحد، ولم يطبخ. (المحبر ص١٣٧) و(المنّمق ص٣٦٨ و٣٦٩).

وقال ابنُ منظور ـ رحمه الله ـ: وأزواد الركب من قريش: أبو أمية بن المغيرة، والأسودُ بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، ومسافرُ بن أبي عمرو بن أمية، كانوا إذا سافروا، فخرج معهم النّاس، فلم يتخذوا زاداً معهم، ولم يوقدوا، يكفونهم

والرَّكْبَان بالحديث عن جُودهم، فكانوا إذا سافروا، وخرج معهم النَّاس، لم يتخذوا زَاداً معهم، ولمْ يوقدوا ناراً لهم، فيكفونهم ويغنونهم.

ولا ريب أنَّ هندَ بنتَ أبي أميّة، قد تأثّرت بهذهِ البيئةِ الكريمة التي عاشتها في مَطْلَعِ فجر حياتها، ورأتْ مَا رأتْ من مكانةِ أبيها وكرامته كَرَمِهِ بين النَّاس، فلا عجب أنْ تكون هي الأخرى، ذات يَدٍ مِعْطَاء، ونفسٍ صافية، تَعْرِفُ مَكَامِنَ الرَّحمة، فتفجّر البِرّ في نفوسِ النّاس تفجيراً.

ولما بلغتْ هندُ بنت أبي أميّة مبلغَ النِّساء، تزَّوجها أبو سلمة بن عبد الأسد، أحد الأشراف من بني مخزوم، وأحد ذوي الرَّأي الجزْلِ والشَّجاعة والكرمِ[1] والمروءة فيهم، فانتقلتْ إلى دارهِ لتعيشَ معه ولتكون من الخالداتِ.

كان أبو سلمة بن عبد الأسد تِرْبَ محمّد بن عبد الله الأمين الكريم ﷺ الذي سمعتْ هند كثيراً عن شمائله في المجالس، إذ هو ريحانة النّدى في مكةَ، ومعقل كلّ رجاء، ومجمع كلّ جُود، ومناط كلّ فضيلة، ورأس الشَّرف والنَّسب، إذ لا يعلو على نسبه أحدٌ في الخافقين، فهو سليل الأسياد الأشراف، والمكارم والتُّقى والجود، ولله درُّ مَنْ قال:

نَسَبٌ كأنَّ عليهِ منْ شمسِ الضُّحى ... نُوراًومنْ فَلَقِ الصَّباحِ عَمُودا
مَا فيهِ إلا سيِّدٌ مِنْ سيِّدٍ ... حَازَ المَكارِمَ والتُّقى والجُودا

يُضاف إلى ذلك كلِّهِ، أنَّ أبا سلمةَ تربط بينه وبين محمّد بن عبد الله ﷺ

= ويغنونهم. (لسان العرب ٤/١٨١) مادة: زود. وأزودة: جمع زاد على غير القياس.

وأخبارُ الكرام والكرماء الأسخياء منثورة في كتب التّراث المتنوعة، وقد عرّف بعضهم السّخي الكريم فقال السّخيُ مَنْ كان بمالهِ متبرعاً، وعن مالِ غيره متورعاً. (محاضرات الأدباء ٢/٦٤٨).

(١) إنَّ من أجمل ما قيل في الشّجاعة والكرم والمروءة، قول أبي فِراس الحَمْدَاني مفتخراً:

لنا بيتٌ على عُنُقِ الثّريا ... رفيعُ مذاهبِ الأطنابِ سامي
تظللهُ الفوارسُ بالعوالي ... وتفرشه الولائدُ بالطّعام

(محاضرات الأدباء ٢/٦٤٩).

صِلَة القرابة، فمحمّد ابنُ خال أبي سلمة هي بّرة بنت عبد المطلب عمّة النّبيّ ﷺ.

كانت هند أمّ سلمة تعيشُ حياة النّعيمِ والرّخاءِ، والسّعةِ والدّعةِ، وخَفْضِ العيش، ينفقُ عليها زوجها ويرعاها، ويحنو عليها حُنوَّ المرضعاتِ على الفطيم، فقد عُرفتْ بين أترابها بكمالِ طلعتها، وجمالِ روحها، ورقّةِ طبعها، ناهيك بكرمِ والدها الذي غطّى رجال مكة وما حولها.

لكنّها، وفي غُضون أيام، تترك هذا النّعيم كلّه، لتنتقلَ إلى نعيمٍ رُوحي آخر، عبقت مكة كلّها بأريجهِ، إنّه عبقُ الإسلام الذي يدعو إليه محمّدﷺ، وسارعت أمُّ سلمة وزوجها إلى الإيمان بِالله، فكانا من السُّعداء.

كَبُرَ إسلامُ هذين الزَّوْجَيْنْ الكريمَيْنْ على بني مخزوم، ولعب بهم الغيظ، على محمّدٍﷺ، وعلى أصحابه، لا ؛ بل إنَّ رسولَ اللهﷺ، قد اتخذ من دار[1] الأرقم بن أبي الأرقم بن أسد المخزوميّ مَعْهَدَ تَلَقِّي رسالته، ولم يعلمْ بها بنو مخزوم.

كانت هذه الدّار مجمعَ السّابقين إلى الإيمان مِنْ أصحاب محمّدﷺ، والذي زَادَ من غيظِ المخزومين، ثمّ قريش، أنّه أقبل على الإيمان أهل الصّدق من خُلّصِ شباب قريش رجالاً ونساء، قد اتّبعوا دينه، وصدّقوا رسالته، وكثروا وتكاثروا في ظلِّ الإيمان، وفي ظلال الرِّعاية الرّبانية.

نعم لقد أسلمت أمُّ سلمة وأبو سلمة، وبنو مخزوم بقضِّها وقضيضها، تركبُ رأسها تعاند الإسلام والمسلمين، وها هو عمُّها الوليد بن المغيرة

---

(١) دار الأرقم: هي مكان على الصّفا، أقريب منه، وهي الدّار كان يصلّي فيها المسلمون سِرّاً في صَدْرِ بعثة النّبيّﷺ، وهي خارجة عن المسجد الحرام مطلع شمس، بينها وبين الصّفا درب السَّيْلِ، وبينها وبين أبي قبيس سكة سيارات منحوتة، ويذكر أحد المكيين أنّ موقعها هو: مكان مكتبة الحرم التي هُدمت في عام (١٣٩٥هـ) وجُعلت توسعةً عامة. (أخبار مكة ٢/٢٦٠) و(شفاء الغرام ١/ ١٣ و٣٣ و٤٣ و١٢٢).

المخزوميّ[1]، الملقب بالوحيد، والعَدْل، ومن ذوي الشَّرف، والعزِّ، والسّؤدد، لكنّه يؤلّبُ ويكيدُ، وابن عمّها كذلك ومَنْ معه يصبّون الأذى صباً على إخوانها في الإسلام، وعلى أخيها في الرّضاعة[2]، المؤمنُ السَّابق، مولى المخزوميين عمّار بن ياسر رضي الله عنه.

واستفاقتْ قريش وبنو مخزوم من غَفَلاتِهم، فإذا بهم يَرَوْنَ أنَّ محمّداًﷺ، قد اجتذبَ منهم زهرات شبابهم إلى رحيقِ الإيمان، فإذا هم عنده ومعه مسلمون، مؤمنون، قد هجروا آلهةَ آبائِهم وأسلافهم، وسفَّهُوا معه أحلامَهم، ومع هذا وذاك دخلوا معه بشَظفِ العيش، ويبسِ الحياة وفَقْرِها، بعد التَّرف والمُتعة في بيوتهم بين أهليهم وذويهم، وفارقوا المالَ والولد، والإخوةَ والآباء والأمّهات والزَّوجات، وتبدّلوا بهم -وهو الحقُّ- محمَّداًﷺ، وأصحابه.

وطارت عقولُ قريش مِنْ أدمغتهم، وانخلعتْ قلوبُهم من بين أَضَالعهم، لما يَرَوْنَ ويشاهدون ويسمعون، وعندئذ أقبل كفّارُ قريش على مَنْ آمَنَ مِنْ قبائلهم يعذّبونَهم، ويؤذونهم، ليردُّوهم عن دِيْنِهم، ولكنَّ المؤمنينَ كانوا يزدادون إيماناً مع إيمانهم، وتزدادُ جموع فجّار المشركين حِقْداً على حِقْدٍ وسُوءٍ في اختلافِ فنون الأذى والتَّعذيب.

وفي رحلة العذابِ والتَّعذيب، نالت أمُّ سلمة وزوجها نصيبها مِنْ أذى المشركين، وصَبَرَا صَبْر الكرام، مع إخوانهم المؤمنين، حتى جاءت نفحةُ الهجرةِ إلى الحبشة، لتتولّى أمُّ سلمةَ الحديثَ الشَّائق العِبقَ حولها، ولتكون هي رواية حديثِ الهجرة، الذي يُعْتَبَر أصحّ، وأجود، وأجمع ما عبّر عن قصّةِ الهجرة إلى أرضِ الحبشة، فأحسنتِ الحديثَ وجوَّدت، وجمعتِ الحقائقَ ونظمتها في عقْدٍ بيانيٍّ فريد، يعُدُّ واحداً من المصَادر الأساسيّة في بداية السِّيرة النَّبويّة.

---

(١) اقرأ سيرة هذه الفاجر الوليد بن المغيرة، ومواقفه المخزية في كتابنا «المبشرون بالنار في القرآن والحديث» الجزء الأول.

(٢) أرضعتهما سميّة بنت خُبَّاط عمّار بن ياسر رضي الله عنهم جميعاً.

وكانت أمُّ سلمة إحدى المهاجرات مع زوجها أبي سلمة[1]؛ فمعَ المهاجرين في الحبشة نعيشُ لحظات رغيدة، ومع المهاجرين نحيا بأرواحِنا؛ نحيا مع تلك الفئةِ الكريمةِ التي تُعتبرُ من أعزِّ بيوت العرب وقبائلها.

وسنشهدُ ونشاهد أشرافاً[2] وأعلاماً مِنْ أرومة قريش وهي تشدُّ الرِّحال إلى الحبشةِ؛ قال ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ: وكان أوّل مَنْ خرجَ مِنَ المسلمين مِنْ بني أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف: عثمان بن عفان؛ معه امرأته رقيّة بنت رسول الله ﷺ.

---

(١) نقل النوويُّ عن ابن سعدٍ ـ رحمه الله ـ قال: هاجر أبو سلمة بأمّ سلمة إلى الحبشةِ في الهجرتين جميعاً. (تهذيب الأسماء واللغات ٢/٣٦١).

ونقل الذّهبيّ عن ابن إسحاق ـ رحمهما الله ـ قوله: أبو سلمة هو أوّل مَنْ هَاجرَ إلى الحبشةِ، ثم قدم مع عثمان بن مظعون، حين قدم من الحبشة، فأجاره أبو طالب. (سير أعلام النبلاء ١/١٥١).

(٢) في السّيرة النّبوية العطرة، ذكر ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ سِجّلاً مُسهباً مفصّلاً بأسماء وأنساب جميع المهاجرين إلى الحبشة في المرّةِ الأولى والثّانية، وكانوا سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً، أو وُلدوا بها ثلاثة وثمانين رجلاً، أكثرهم قرشيون من طلائع بيوتها وأشراف بطونها، وسادات رجالها.

وأريدُ من هذا، أنّ الذين هاجروا كانوا منَ السّابقين إلى الإسلام، ومنَ الأقوياءِ الأعّزاء في البيوت والقبائل، وليسوا من الضّعفاء والمحرومين كما يشيعُ بعضهم.

ومن البدهي، أنْ تكونَ هذه الهجرة بداية دعوة لانتشارِ الإسلام في الحَبشَة، وليست فراراً فحسبْ، ولعلّ النّتائج الباهرة التي تحققتْ من الهجرةِ إلى الحبشة هي التي دعتني إلى طرح هذا الرّأي وهذه الفكرة، فقد كان في فريقُ المهاجرين مِن أعْلياء قريش، مَنْ عُرف ببلاغته وحسن خطابه وخطابته في قريش وفي مكةَ، إنّ سيّدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ذلك الذي استطاع ـ بفضل الله ـ وحسْنِ التّوفيق، وما أوتيه من بلاغة وفصاحة وكمال منطق، أنْ يجعلَ النّجاشي ، وأهل العِلْم والبطارقة والقسيسين والرّهبان تفيضُ أعينهم بدمع اليقين بأنّ ما سمعوه من جعفر، إنّما يخرج من مشكاة النّبوة المتصلة بموسى وعيسى عليهما السّلام.

أُمُّ سَلَمَةَ وَحَدِيْثُ الهِجْرَةِ:

قُلنا: إنَّ أمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، كانتْ معَ الذين هاجروا أوّل هجرة في الإسلام إلى الحبشة، وهناك وَلدتْ لزوجها أبي سلمة ابنته زينب[1]، ثم بعد ذلك، ولدت له، سلمة وعمر ودرّة[2].

ومن الجدير بالذِّكر، ما ورد بأنَّ أهل الهجرة الأولى إلى الحبشة كانوا اثني عشر رجلاً، وأربع نسوة: عثمان وامرأته، وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سَهْلة بنت سهيل[3]، وأبو سلمة وامرأته أمّ سلمة، وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي حَثَمة[4]، والزُّبير بن العوام، ومصعب بن عُمير، وعبد الرّحمن بن عوف، وعثمان ابن مظْعُون، وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم، حاطب بن عمرو، وسهيل بن وهب، وعبد الله بن مسعود.

خرجٍ هؤلاء متسللين سِرّاً، فوفّقَ الله لهم ساعة وصولهم إلى السَّاحلِ سفينتين للتّجار، فحملوهم فيها إلى أرضِ الحبشة، وكان مخرجهم في رجبَ في السَّنَةِ الخامسة من المَبْعَث، ثم خرجوا ثانية، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً، ومن النِّساء تسع عشر امرأة.

---

(١) اقرأ سيرة الصّحابية الفاضلة زينب بنت أبي سلمة في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (٢/١٧٥ ـ ١٨٢) ففي سيرتها نفحة ندية من نفحات أمّها أمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص٢٥٥) وطبقات ابن سعد (٨/٨٧) والمواهب اللّدنية (٢/٨٤) وأبو سَلَمة: أوّلُ مَنْ هاجر إلى الحبشة، ثم كان أوّل من هاجر إلى المدينة المنورة.

(٣) اقرأ سيرة الصحابية المعطاء سهلة بنت سهيل في كتابنا «نساء من عصر النبّوة» (٢/٩٥ ـ ١٠٥) فسيرتها سَهْلة العطاء، وقدوة النساء رضي الله عنها.

(٤) اقرأ سيرة الصّحابية الجليلة ليلى بنت أبي حثمة في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (١/٣٢٧ ـ ٣٣٥) فمع سيرتها نعيش سعداء ننظر إلى فراستها المنبعثة من نور الله عزّ وجلّ، فرضي الله عنها وأرضاها.

وفي إحدى الجلْسَات المباركة، راحت أمُّ المؤمنين أمُّ سَلمة تروي ذْكريات الهجرة الحبشيّة. . . . . . وحديثُ الهجرةِ إلى الحبشة ـ عزيزي القارىء ـ طويلُ الذّيول، عريضُ الأكناف، ولكنّي أحبُّ أنْ أشيرَ إلى أنَّها كانت ـ كذلك ـ هجرة تبليغ، ونَشْرٍ للدَّعوة المحمّدية، تلك التي تركت أثرها وآثارها بالحوارِ الصَّدوقِ، الذي تولّاه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه باسم سائر المسلمين المُهَاجرين، واستجاب لها النّجاشي، وأَحْبَارِه، ورهبانه الذين فاضتْ أعينُهم بالدَّمْعِ ممّا سمعوا منَ الحقِّ، وأنزل الله عزَّ وجلَّ فيهم قرآناً يُتلى إلى أنْ يرثَ الأرض ومَنْ عليها: **﴿ولتجدنَّ أقربهم موّدة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى﴾**(١) [المائدة: ٨٢].

ولنعدْ إلى مائدةِ أمِّ سلمة الإيمانية، نغذي الأرواح، ونمتع الأسماع بفقراتٍ رطبةٍ منْ شذى قصّة الهجرة، لاحِظْ معي رقَّةَ الألفاظ، ودقَّةَ التَّعبير، وحُسْنِ التأليف، وسمو القَصْد، وكمال الرُّؤية السَّليمة للأحداث.

قالت أمُّ سلمةَ عليها سحائب الرَّضوان: لما نزلنا أرضَ الحبشةِ جاورنا فيها خيرَ جار، النَّجاشي، أَمِنَّا على دِيْننا، وعَبْدنا الله تعالى، لا نُؤذى، ولا نسمع شيئاً

---

(١) ذكر الواحديُّ ـ رحمه الله ـ في أسباب النّزول للآية (٨٢) منْ سورة المائدة؛ وكذلك السيوطي في لباب النّقول قالا: بعثَ رسولُ الله ﷺ عمرو بن أميّة الضّمري، وكَتَب معه كتاباً إلى النّجاشيّ، فقدم على النّجاشي، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه، وأرسلَ إلى الرّهبان والقسيسين، ثم أَمَرَ جعفر بن أبي طالب فقرأ عليهم سورة مريم، فآمنوا بالقرآن، وفاضتْ أعينُهم من الدَّمْعِ، فهُم الذين أنزل الله فيهم: **﴿ولتجدن أقربهم مودّة﴾** إلى قوله **﴿فاكتبنا مع الشّاهدين﴾** [المائدة: ٨٢ و٨٣].

وروى ابنُ أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: بعث النّجاشي ثلاثين رجلاً من خيارِ أصحابه رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم سورة يس فبكوا، فنزلت فيهم الآية.

وأخرج النّسائي عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه **﴿وإذا سمعوا ما أنزل الله إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾**[المائدة: ٨٣]. وروى الطبراني عن ابن عباس نحوه أبسط منه.

نكرهه، فلّما بلغ قريشاً ائتمروا بينهم أنْ يبعثوا إلى النّجاشيّ فينا رجلين منهم جَلْدين، وأنْ يُهْدوا للنّجاشي وبطارقته، هدايا مما يُستطرفُ منْ متاع مكةَ. . . . . . ثمّ بعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العَاص، وقالوا لهما: ادفعا إلى كلِّ بطريقٍ هديته، قبل أنْ تُكلِّما النّجاشيّ فيهم، ثمَّ قدِّمَا إلى النّجاشيِّ هداياه، ثمّ سَلاَهُ أنْ يسلمَهم إليكما، قبل أنْ يكلِّمَهم.

فخرجا حتى قَدِمَا على النّجاشيِّ. . . . . . فلم يبقَ من بطارقته بطريقٌ إلا دفعا إليه هديته. . . ثمّ إنّهما قَدَّمَا هداياهما إلى النَّجاشيِّ. . . ثمّ كَلَّماه فقالا:

أيّها الملك، إنَّه قد ضَوَى[1] إلى بلدِكَ مِنّا غلمانٌ سفهاء، فَارقوا دِيْنَ قومهم، ولم يدخلوا في دِيْنِك. . . وقد بعثَنَا إليكَ فيهم أشرافُ مِنْ آبائهم، وأعمامهم، وعشائرهم، لتردَّهم إليهم، فهم أَعْلى بهم عينا[2]، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

فقال بطارقتُه حوله: صَدَقَا أيُّها الملك. . . فأَسْلِمْهم إليهم. . . فغضبَ النّجاشيُّ ثمَّ قال: لا ها الله. . لا أسلمهم إليهما. . . حتى أدعوهم فأسألهم عمّا يقولُ هذان في أَمْرِهم، فإنْ كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما. . . وإن كانوا على غيرِ ذلك منعتهم منهما، وأحسنتُ جوارهم ما جاروني.

ثمَّ أرسل إلى أصحابِ رسولِ اللهﷺ فدعاهم، ودعَا أساقفته، فلّما جاؤوا سألهم فقال لهم: ما هذا الدِّين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في دِيني، ولا في دِيْنِ أحدٍ منْ هذه المِلل؟!

فقال جعفرُ بنُ أبي طالب رضوان الله عليه: أيّها الملك، كُنَّا قوماً أَهْلَ جاهلية، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتي الفواحشَ، ونقطعُ الأرحام، ونسيءُ الجوار، ويأكلُ القوي منّا الضَّعيف، فكنّا على ذلك حتى بعثَ الله إلينا رسولاً

---

(١) ضوى إليك: أي أووا إليك ولاذوابك.

(٢) قال السُّهيليّ ـ رحمه الله ـ أي: أبْصَرُبهم، أي: عينهم، وإبصارهم فوق عيون غيرهم في أمرهم.

منا، نعرفُ نسبه، وصدقه، وأَمَانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّدَه، ونعبده. . . وأَمَرنا بصِدْقِ الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحِم، وحسنِ الجوار، والكفِّ عن المحارم والدِّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزّور، وأكْلِ مال اليتيم، وقَذْف المحصنات، وأَمَرنا أَنْ نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاًوأمرنا بالصَّلاة والزّكاة والصِّيام. . . . فصدّقناه، واتّبعناه على ما جاءَ به مِنْ الله. . . . . فَعَدَا علينا قومُنا، فعذّبونا وافتتنونا عن دِيننا، ليردّونا إلى عبادةِ الأوثان. . . فلّما قهرونا وظلمونا. . . خرجنا إلى بلادِك. . . . ورجونا أنْ لا نُظْلَمَ عندك أيّها الملك. . . . فقال له النّجاشيُّ: هل معك ممّا جاء به عن الله من شيء؟!

قال جعفر: نعم.

فقال له النّجاشيُ: فاقرأه عَليَّ.

فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص﴾ [مريم] فبكى ـ والله ـ النّجاشي، حتى أَخْضَلت لحيته، وبكتْ أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثمّ قال لهم النّجاشيّ: إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرجُ من مشكاةٍ واحدة. ثم قال لرسولَي قريش: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادُون.

فلّما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لأخبرنّه أنّهم يزعمون أنَّ عيسى بن مريم عَبْد. ثمَّ عدا من الغد، فقال له: أيّها الملك، إنّهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأَرسِلْ إليهم، فسلْهم عمّا يقولون فيه. فأرسلَ إليهم. . . . . فلّما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولونَ في عيسى ابن مريم؟ فقال جعفرُ بنُ أبي طالب: نقولُ فيه الذي جاءنا به نبيّناﷺ، يقول: هو عبد الله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريمَ العذراء البتول.

فضربَ النَّجاشيُّ بيده إلى الأرضِ، فأخذَ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العُود. ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شيوم ـ آمنون ـ بأرضي من سبَّكم غَرم، ما أحبّ أنَّ لي دَبْراً ـ جَبَلاً ـ من ذَهَبٍ، وأنّي

آذيتُ رجلاً منكم. . . .

فخرجَ رسولا قريش من عنده مقبوحَيْنِ، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخيرِ دار، مع خير جار[1].

هذه شذراتٌ ذهبيّة من قصّةِ المهاجرين في الحبشة، استمَعْنَا إليها من أمّ سلمة، واستَمْتَعْنَا بما فيها من دروسٍ وعبر، ولاحظْنَا كيف حفَّتِ العنايةُ الإلهيّة المهاجرين، وكيف اكتنفَتْهم في أرضِ غربتهم، فعاشوا بخيرِ دارٍ مع خير جارٍ، ولكنَّ قلوبَهم ظلَّتْ معلقة بمكة، بالبيت العتيقِ، بالأهل بالأصحاب، بالحبيبِ المصطفى ﷺ الذي أخرجهم من ظُلمات الجاهلية إلى نور الهدى ودين الحقِّ، فما كان يأتي من مكةَ خبَرٌ، بأنَّ الله أعزَّ رسولهﷺ بأنصارٍ حتى يهرع مَنْ برَّحهم الشّوقُ إلى الأحبّةِ بالعودةِ إلى أحبِّ أرضِ الله إليهم، وقد عاد عثمانُ بنُ عفان، ورقيّةُ بنت رسولِ اللهﷺ، وأبو سلمة، وأمُّ سلمة وأولادهما، وبعضُ المسلمين حنوا إلى العودة.

قدمَ أبو سلمة وأمّ سلمة من الحبشة إلى مكةَ، وهما يحسبان أنَّهما سيعيشانِ بين قومهما بأنْعمِ بال، فإذا بأشرارِ الفجّار يبطشونَ بهما، وبغيرهم ممنْ عادَ إلى مكةَ ولا يكفّون عنِ الإيذاءِ بالمؤمنين.

وأراد أبو سلمة وزوجه العودةَ إلى الحبشةِ، وقبل أنْ يتجهز للرَّحيل، بلَغَهُ إسلام مَنْ أسلم مِنَ الأنصار الذين بايعوا رسول اللهﷺ عند العقبة. وإذ ذاك عزم على أنْ يهاجرَ إلى عرينهم، كيما يأتي الله بالفرجِ، أو نَصْرٍ من عنده.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٣٤ ـ ٣٣٨) مختصراً، ودون الخروج عن صيغة أم سلمة رضي الله عنها.

وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد (١/٢٠١) و(٥/٢٩٠) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٢٤ ـ ٢٧) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وانظر البداية والنّهاية (٣/٧٢ـ ٧٥) وحلية الأولياء (١/١١٦) ورجال مبشّرون بالجنّة (٢/١٠٤ ـ ١١١) وسير أعلام النّبلاء (١/٤٣٠ـ ٤٣٢) وتاريخ الإسلام للذّهبي (المغازي ص١٢٩ ـ ١٣٢) وغيرها كثير.

والآن، دعونا نعيش ثانية رحلةَ الهجرةِ إلى المدينة المنورة مع الأسرة الصَّابرة، المؤلفة من أبي سلمة وأمّ سلمة وبينهما رضي الله عنهم؛ وتعالوا نستنشق عبير تلك الأحاديث العطرة التي تَصِلُ القلوبَ ببارئها، وتمتدُّ إلى أغوارِ النَّفْسِ فتربطها بوشائج الحبِّ مع الحبيب المصطفىﷺ، ولأصحابه الكرام، ولأهل البيت الأطهار الأخيار.

أُمُّ سَلَمَةَ الإيمَانِ وروائعُ الإيمَانِ ونُورُ اليقَينِ:

كان للبيعةِ الكبرى في العقبة فتحَ الفتوحِ، في تفريج كرب المسلمين المعذبين في أمِّ القرى، وكان لها منَ الفضلِ في توحيدِ مجتمعهم، وشدِّ سواعدهم، وصلابةِ قَنَاتِهم ما جعلهم قوة مرهوبة، يخافُها أعداء الإسلام، وكان لها من إدخال البهجةِ على قَلْبِ رسول اللهﷺ ما جعله يظهر سروره لأصحابه، ويبشّرهم بأنَّهﷺ قد أُخْبِرَ بدارِ هجرتهم، وهي يثرب ـ المدينة ـ دار الأنصار، وعرين الأبطال الذين بايعوه على أنْ يكونوا حَرباً لمن حاربه، وسِلْماً لِمَنْ سالَمه مِنَ العالمين.

صار في المدينة المنورة، وفي كلّ دارٍ من دور الأنصار ذكرٌ للحبيب المصطفىﷺ ولرسالته السَّماويّة، وهذا جعل بعض أباة الضَّيم من السَّابقين الأولين في مكة، يتطلعون إلى الهجرة حيث يأمنون على دِينهم وعبادتهم وأنفسهم، ورأوا أنَّ المدينةَ المنوّرة هيَ المكان الآمنُ الأمينُ، والحِصْنُ الحصين الذي تطمئنُّ فيه قلوبهم، لأنَّه يجمعهم إلى إخوانهم في الإيمان من أنصار الله، وأنصار رسوله ودعوته.

أعدَّ المؤمنون العدَّةَ للهجرة، وكان في مقدمتهم أبو سلمة أحد ذوي الهجرتين: هجرة الحبشة؛ وهجرة المدينة المنوّرة، ومعه زوجه أمّ سلمة أيضاً صاحبة الهجرتين. لكنَّ أبا سلمة رضي الله عنه، أَبَتْ عليه رجولته وشجاعته ورسوخ إسلامه، أنْ تكونَ هجرته إلى المدينة المنّورة سِرّاً من الأسرار، فكيف يستخفي بهجرتِهِ وهو الفارسُ المعلمُ والبطلُ المقدمُ؟!

لا ، لن يهاجرَ مستخفياً، بل سيهاجرُ مستعلناً تحت سَمْعِ وبَصَرِ قومه

بني مخزوم، أولئك الذين كانوا ينالون منه، ويؤذونه، ويستهزئون به، ويمنعه إسلامه أنْ يردَّ عليهم عداوتهم عليه، لأنَّ السَّابقين الأوَّلين كانوا مأمورين بالصَّبْرِ والعفو، والاحتمال السَّمْحِ المتكرمِ، وأبو سلمة من سَرَاةِ السَّابقين الأوَّلين رضي الله عنهم.

هذا وقد كانت هجرة أبي سلمة إلى المدينة المنّورة، قبل بيعة العقبة الكبرى بنحو سنة، ومن هنا كانت قصة هجرة أبي سلمة، وهجرة زوجه السَّيِّدة النّبيلة أمّ سلمة ـ التي شرّفها الله بعد استشهاد أبي سلمة فصارت أمّاً للمؤمنين إذ تزوّجها رسول الله ﷺ ـ مثلاً مَضْروباً، ونموذجاً يُحتذى، وأسوة تؤتسى في مواقفِ الشّجاعة، وقوّة العقيدة، والوفاء، واحتمال الصَّبْرِ، وما هنالك من معالي المكارم.

والآن، دعونا نجلس في بيت أمِّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها، نستمع ثانية إلى حديث الهجرة ـ ولكن هذه المرّة إلى المدينة المنوّرة ـ نستمع إلى أمنّا وهي تكشفُ عن روائعِ الإيمان، وقوة نورِ اليقين، في هجرتها، وهجرة زوجها أبي سلمة رضي الله عنهما.

تقول أمُّ سلمة في معرض حديثها عن المهاجرين والهجرة إلى رحاب المدينة المنوّرة:

لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحّلَ لي بعيره، ثم حَمَلَني عليه، وحَمَل معي ابني سَلمةَ بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقودُ بي بعيره، فلّما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قاموا إليه فقالوا: هذه نفسُك غَلَبْتَنا عليها، أرأيتك صاحبتك هذه، عَلامَ نتركك تسيرُ في البلاد؟

فنزعوا خطام البعير من يدهِ، فأخذوني معه، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رَهْط أبي سلمة، فقالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ انتزعتموها من صاحبنا..

فتجاذبوا ابني سلمة بينهم، حتى خَلعُوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحَبَسَني بنو المغيرة عندهم.

وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينةِ، ففرّقُوا بيني وبين زوجي، وبين ابني، فكنتُ أخرجُ كلَّ غداةٍ، فأجلسُ بالأبطحِ، فما أزال أبكي حتى أمسي، سَنَةً أو قريباً منها، حتى مَرَّ بي رجلٌ من بني عمّي، أحد بني المغيرة، فرأى حالي، فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تُخرِجون هذه المسكينة، فَرَّقْتُم بينها وبين ولدها؟! فقالوا لي: الحقي بزوجكِ إنْ شئتِ، وردَّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني، فارتحلتُ بعيري، ثم أخذتُ ابني فوضعتُه في حجري، ثم خرجتُ أريدُ زوجي بالمدينة، ومامعي أحد من خَلْقِ الله، فقلتُ: أتبلّغ بمَنْ لقيتُ حتى أقدم على زوجي.

ذَرْوَةُ وَفَاءِ المُروَءَةِ:

إنَّ الأحداثَ الكبيرة التي مرَّت بها أمُّ سلمَة رضي الله عنها لدليلٌ على همّتها، وصدقِ إيمانها، وقد صدقت رضي الله عنها في محنِتها، فما قاسته في التَّفْريقِ بينها وبين زوجها، وما رأتْه في نَزْعِ ابنها من حجرها حتى خُلِعَتْ يده، وما لزمته من خروجها إلى الأبطح نهارها تبكي سنَة أو قريباً منها، أمورٌ عظيمة، لا يتعاظمها إلا احتمالها بالصَّبْرِ عليها، وقد احتملت وصبرت صَبْراً جميلاً، حتى قيّضَ الله عزَّ وجلَّ لها فَرَجًا[1].

ولنكمل رحلةَ الهجرة مَعَ أمِّ سلمَة، وكيف لاقتْ ولقيَتْ مِنْ ذروةِ الوفاءِ، وقمَّة النَّخوةِ الرُّجولية، وكرم النَّفس من أَحَدَ الذين امتَنَّ الله عليهم بالإسلام فيما بعد؛ وهو عثمانُ بنُ طلحة العَبْدريّ الذي أثنتْ عليه أمُّ سلمةَ ثناءً سطَّرتْهُ أمّهات المصَادر، هذا الثَّناء يشهدُ له بِحُسْنِ ونُبْلِ الكرمِ والوفاء. . . فلنتابعْ حديثَ أمّ سلمة عنِ الهجرةِ. . . تقولُ بعد أنْ غادرتْ مكةَ تلقاءَ المدينةِ:

(١) يحضرنيَ في هذا المقام، قول بعضَ الأدباء الألبّاء في الصَّبر قال:

صبراً جميلاً على ما فات من حَـدَثٍ ... فالصَّبرُ ينفع أقواماً إذا صبروا
والصبر أفضل شيء يُستعان بهِ ... على الزّمان إذا ما مسَّك الضرر

حتى إذا كنتُ بالتَّنعيم[1]، لقيتُ عثمانَ بنَ طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدَّار، فقال لي: إلى أينَ يا بنت أبي أمية؟

فقلتُ: أريدُ زوجي بالمدينةِ.

قالَ: أوَ ما معك أَحَد؟

فقلتَ: لا والله، إلا الله، وبنيَّ هذا.

قالَ: والله مالكِ مِنَ مَتْرك.

فأخذ بخطامِ البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صبحتُ رجلاً من العرب قطّ أرى أنَّه كانَ أكرم منه، كان إذا بلغَ المنزل، أناخَ بي، ثمَّ استأخرَ عنّي، حتى إذا نزلتُ استأخرَ ببعيري، فحطَّ عنه، ثم قَيَّده في الشَّجرةِ، ثمَّ تنحّى إلى شجرةٍ، فاضطجّع تحتها، فإذا دَنَا الرَّواحُ، قام إلى بعيري، فقدَّمه فرحَّله، ثمَّ استأخر عنّي، وقال: اركبي؛ فإذا ركبتُ، واستويتُ على بعيري، أتى فأخذَ بخطامِهِ، فقاده حتى ينزل بي، فلمْ يزلْ يصنعُ ذلك بي، حتى أقدمني المدينة، فلّما نظر إلى قريةِ بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجُك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فادخليها على بركةِ الله، ثم انصرفَ راجعاً إلى مكةَ[2].

فكانت أمُّ سلمة رضوان الله عليها تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلامِ أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة.

وتثني أمُّ سلمةَ رضي الله عنها على ذلك الرَّجل الشَّهم الكريم الذي أَحْسَن صحبتها فتقول: وما رأيتُ صاحباً قطّ كان أكرمَ من عثمان بنِ طلحة[3].

---

(١) التنعيم: مكان على بعد ثلاثة أميال من مكة المكرمة.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية (١/ ٤٦٩ و٤٧٠) وأسُد الغابة (٦/٣٤٢) ترجمة رقم (٧٤٦٤) وزاد المعاد (٣/٤٩ و٥٠) والإصابة (٤/٣٣٩ و٤٤٠) وغيرها من المصادر.

(٣) إنَّ ما رأت أمّ سلمة رضي الله عنها من عثمانَ بنِ طلحة العبدريّ، وهو مشركٌ، من كرم النَّفس، ونخوةِ الرّجولية، وتحمّل المشقّةِ البالغةِ في سبيل النّجدة، وفتوّةِ المروءة، أخلاقٌ لا تجتمعُ إلا في الرَّجلِ بعد الرّجلِ وفضائل لا تُوجد إلا في الأكرمين أحساباً، الأكرمين أنساباً، وقد مَنَّ الله عزّ وجلّ على عثمانَ بنِ طلحةَ العبدريّ بنعمةِ الإسلام، فأسلمَ

وكان يُقال: إنَّ أمَّ سلمَة، أوّل ظعينةٍ دخلتْ إلى المدينةِ المنوّرة مهاجرة[1].

وفي ربوعِ المدينة المنّورة هبطتْ أمُّ سلمة تعيشُ إلى جانبِ أبي سلمة، يعبدان الله تعالى، ويتزوَّدان بزادِ التّقوى مِنْ رسول اللهﷺ.

هذا، وفي تلك الأثناء عكفت أمُّ سلمةَ على رعايةِ أولادها وتربيتهم وتغذيتهم بحبِّ الله عزَّ وجلَّ، وحبِّ النّبيِّﷺ، فأولادُها صحابيون حازوا شرف الصُّحبة النّبوية. وهم: زينب، عمر، سلمة، درّة.

ولما كانت غزاةُ بَدْر، خرج زوجها أبو سلمة ليكون في البدريّين الذين مَنَّ الله عليهم بجنّتهِ، وكانوا إذ ذاك خير أهلِ الأرض.

ومضى عامٌ، فإذا المشركون يتجهّزون لقتالِ المسلمين وخرجَ المسلمون إلى أُحُدٍ، وهناك التقوا المشركينَ، وكان أبو سلمةَ رضي الله عنه من الجنودِ الأوفياء في الجيش المحمّدي، وفي أُحُدٍ رماة أبو أسامة الجشميّ بسَهْمٍ في عضدهِ، ولما عاد المسلمونَ إلى المدينةِ مكثَ أبو سلمة شهراً يداوي جرحه ويعالجه، وبجانبه زوجه الوفية أمّ سلمة، تقوم على رعايتهِ وخدمتهِ إلى أنْ برأَ جرحه[2]..

وكان شمّاسُ بنُ عثمان المخزوميّ رضي الله عنه، وقد حُمِلَ من أَحُدٍ إلى المدينةِ المنّورة، وبه رمقٌ، فأُدخِلَ على عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، ورأتْ ذلك أمُّ سلمة، فقالت: ابن عمّي يدخلُ إلى غيري؟!

= إسلاماً كريماً في هدنة الحديبية، وكان ثالث ثلاثة من الأبطال الذين اتفقوا على الهجرة إلى رسول اللهﷺ وهم: خالدُ بنُ الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بنُ طلحة رضي الله عنهم، فلمّا رآهم رسول اللهﷺ قادمين عليه مسلمين قال: «رمتكم مكة بأفلاذِ أكبادها» وإلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبة بن أبي عثمان بن أبي طلحة، دفَعَ رسولُ اللهﷺ مفاتيح الكعبة وقال: «خذوها تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم». وهي إلى اليوم لا تزال في أيدي بني شيبة.

(١) الصّحيح أنَّ أوّل ظعينةٍ دخلتِ المدينةَ المنّورة في الهجرةِ هي: ليلى بنت أبي حثمة زوج الصّحابي عامر بن ربيعة رضي الله عنها.

(٢) عن تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٦١ و٣٦٢) بشيء من التصرف.

فقالَ رسول الله ﷺ: «احملوه إلى أمِّ سلمة فحملوه إليها، فماتَ عندها، فأمرَ رسولُ الله ﷺ أنْ يُرَدّ إلى أُحُدٍ، فيُدفن هناك، كما هو في ثيابهِ التي ماتَ فيها، وكان قد مكثَ يوماً وليلة، ولم يذقْ شيئاً، فلمْ يُصَلِّ عليه رسولُ الله ﷺ ولا غسَّلَهُ.

دَعْوَةٌ مُستَجَابَةٌ و عُقْبى صَالِحَةٌ:

انقضى شهرانِ على غزاةِ أُحُدٍ، وبلغَ رسولُ الله ﷺ أنَّ بني أسدٍ، يدعونَ إلى مهاجمتهِ ومحاربته في داره بالمدينة، فأحبَّ النَّبيُّ ﷺ أنْ يباغتَهم في ديارِهم، واختارَ لهذه المهمّة أحد أفذاذِ فرسان المسلمين، تُرى مَنْ يكون هذا الفَارس؟

لقد وقعَ اختيارُ النَّبيِّ ﷺ على ابن عمّته أبي سلمة المخزوميّ، فَدَعا إليه أبا سلمةَ، وعَقَدَ له لواءَ سريةٍ قوامها مئة وخمسون رجلاً من المهاجرين والأنْصَار، منهم أبو عبيدة بن الجَرّاح، وسَعْدُ بن أبي وقّاص، وأَمَرهُ ﷺ بالانطلاقِ إلى بني أسدٍ، وأوصاه قائلاً: «سِرْ حتى تنزلَ أرضَ بني أسد، فأَغِرْ عليهم قَبْل أَنْ تلاقى عليك جموعُهم».

كان أبو سلمة قد أُصِيب بجرحٍ بالغٍ في غزوة أحد ـ كما أسلفنا ـ وقد ضمَّده فالتأمَ، وكان التئامُه من السَّطحِ، فلم يعبأْ بجرحهِ، وخرج لينفِّذَ أَمْرَ رسولِ الله ﷺ، وسار بسريته، وأغذَّ السَّيْرَ حتى انتهى إلى مكانِ العدو، فأخذهم على غرّة، وأحاط بأعداءِ الله، وأعداءِ رسوله في عمايةِ الصُّبح، وراحتِ السُّيوفُ المؤمنة تضربُ منهم كلَّ بنانٍ، وتطايرتِ السِّهامُ منَ الأيدي المؤمنةِ، لتسقرَّ في أفئدةِ القوم الظَّالمين، واستماتَ المسلمونَ في القتالِ، وأبلوا بلاءً حسناً، فقد كانوا يشعرون أنَّ هذه المعركةَ التي يخوضونها معركة ذات أهمية كبيرة، فالنَّصرُ فيها يغسلُ عنهم هزيمة أُحُد، ويُعيد ما ضيَّعتْ أحُدٍ من هيبةِ المسلمينَ في القبائل المحيطة بالمدينة، وغيرها من القبائلِ التي سوّلت لها أنفسها أنْ تعتديَ على حَرمِ المدينة.

ارتفعتْ صيحاتُ المسلمين تهتفُ: الله أكبر الله أكبر، وراحَ أبو سلمة يصولُ ويجولُ حتى أجهده النِّضال، فَنَغَر جرحه، وهو لا يأْبَهْ بهِ حتى تمَّ النَّصرُ

المبينُ لأفرادِ سريته، وساقوا الغنائم والإبل والشِّياه، إلى المدينة المنوّرة، وكانت فترةُ غيابهم تسعاً وعشرين ليلة(١).

وعادَ المسلمونَ المجاهدونَ لثمانٍ خَلَوْنَ من صفَر من السَّنَةِ الرَّابعةِ للهجرة، وفي ركابهم النَّصر، ولكنَّ الوجوهَ كانت حزينة، فأبو سلمة قائد السَّرية مريضٌ قد ذَبلَ، وأنهكه جرحه، ودخل على أهلهِ، وهو ينوءُ بحَمْلِ الآلام، فاستقبلته أمّ سلمة رضي الله عنها خافقةَ القلب، وكادت تندُّ منها صرختَ يأس حينما رأت حال أبي سلمة.

وسُجّيَ أبو سلمة في فراشِ الموت، فجاءَ رسولُ اللهﷺ ليعوده، فألفاهُ يجودُ بآخرِ الأنفاس، فبقي إلى جواره يدعو له بخيرٍ حتى عَبَرَ إلى الله عزّ وجلّ وهو يدعو: اللهم اخلفني في أهلي بخيرٍ.

وأغمضَﷺ بيدهِ الشَّريفةَ عَيْنَي أبي سلمةَ، ثمَّ دعا له، وكبَّر عليه تسْع تكبيرات، فقيل له: يا رسول الله، أَسَهوتَ أمْ نَسِيْتَ؟

فقال: «لم أَسْهُ، ولَمْ أَنْسَ، ولو كبّرتُ على أبي سلمةَ ألفاً، كان أهلاً لذاك».

والحقيقةُ، فقد كان أبو سلمة رضي الله عنه واحداً من أفذاذِ الرِّجال الفُضلاء الذين يدركون معنى الحياة الكريمة فقد أوصى زوجه أمّ سلمة وصيّةً كريمةً جعلتها من سادةِ وسادات النِّساء، بل أمّ المؤمنين، وعندما أضحت أمّ المؤمنين اغتبطتْ أيّما اغتباط.

ذكرتِ المصادر الوثيقةُ أنَّ أمَّ سلمة قالتْ لأبي سلمةَ رضي الله عنهما: بلغني أنّه ليسَ امرأة يموتُ زوجها، وهو من أهل الجنَّة، ثم لم تزوّج، إلا جَمَعَ الله بينهما في الجنّةِ، فتعال أعاهدك ألا تزوّج بعدي، ولا أتزوّج بعدك.

قال أبو سلمة: أتطيعينني؟

قالت أمُّ سلمةَ: نعم.

فقال: إذا متُّ تزوجي.

---

(١) عن السّيرة الحلبية (٣/١٥٠) بشيء من التّصرف.

ثم رفعَ يديهِ داعياً الله عزَّ وجلَّ: اللهم ارزقْ أمَّ سلمةَ بعدي رجلاً خيراً مني لا يحزنها ولا يؤذيها.

وقضى أبو سلمة رضي الله عنه نَحْبَه، فلّما ماتَ قالت أمُّ سلمة رضي الله عنها: مَنْ خيرٌ مِنْ أبي سلمةَ؟

ولم تلبث أمّ سلمة رضي الله عنها حتى جاء خيرٌ من أبي سلمةَ، جاء رسول الله ﷺ، فقام على الباب، وذكر الخطبة إلى ابنها، فقالت: أردّ على رسول الله ﷺ! أو أتقدّم إليه بعيالي[1]؟!

لكنَّ الله عزَّ وجلَّ قَدَّرَ أنْ تكونَ أمُّ سلمة إحدى أمّهات المؤمنين، تنتظمُ في عِقْدهن لتغدو من البيتِ الطّاهر الكريم، وقد استجيبت دعوتها، ودعوة زوجها أبي سلمة، وقد تحققت دعوةُ أمّ سلمة عن قريب.

فعن أمِّ سلمةَ رضي الله عنها قالت:

لما توفي أبو سلمة، أتيتُ النّبيّ ﷺ فقلتُ: كيف أقول؟

قال: «قولي: اللهمّ اغفرْ لنا وَلَهُ، وأعقبني منه عقبى صالحة»

فقلتُها، فأعقبني الله محمّداً ﷺ[2].

إلى رحَابِ أُمّهَاتِ المؤْمِنينَ:

مضى أبو سلمة إلى ربّهِ، وخلَّفَ زوجه أمَّ سلمة، وقد استجابَ الله عزَّ

(١) عن سير أعلام النبلاء (٢/٢٠٣) وطبقات ابن سعد (٨/٨٨) وأزواج النبي للصالحي (ص١٤٩ و١٥٠) مع الجمع والتصرف.

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز برقم (٩١٩) باب ما يقال عند المريض. وأحمد في المسند (٦/٢٩١ و٣٠٦).

وأبو داود في الجنائز برقم (٣١١٥) باب: ما يُستحبّ أنْ يُقال عند الميت من الكلام.

والتّرمذي في الجنائز برقم (٩٧٧) باب: ما جاء في تلقين المريض عند الموت والدعاء له عنده.

والنّسائي (٤/٤ و٥) في الجنائز، باب كثرة الموت.

وابن ماجه في الجنائز أيضاً برقم (١٤٤٧) باب: ما جاء فيما يقال عند المريض إذا حُضر.

وجلَّ دعاءهما، واعتدَّتْ أمُّ سلمة عدّتها، فلّما انتهت عدّتها، تمَّ أمْرُ الله عزَّ وجلَّ، وأضحتْ أمُّ سلمة في رحاب البيت النّبويّ الشّريف.

تروي المصادر الحديثيّة، وكتُب السّيرة، والطّبقات، خبر الزّواج الميمون، فتقول:

لما انقضتْ عدّةُ أمّ سلمة رضي الله عنها، تقدَّم إليها أبو بكر الصِّدِّيق وخطبها، فلم تتزوجْه، وردّته في رفْقٍ، ثم تقدّم إليها عمر الفاروق يخطبها فردّته بحُجةِ أنَّها مسنّة، وأنَّ معها أولاداً صِغاراً.

وبعثَ إليها رسولُ اللهﷺ يخطبها، فإذا بالنَّشْوَة تملؤها من الرّأس إلى القدمِ ، فهو شرفٌ عظيم كريم أنْ تصبحَ زوج رسول اللهﷺ وتغدو أمّ المؤمنين، ولكنْ، مرّتْ بخيالها عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وهما شَابّتَانِ عند رسول اللهﷺ، فتحّركتْ إذ ذاك غيرتها، وبعثتْ إلى رسول اللهﷺ بقولها: إنّي امرأةٌ غَيْرى[١]، ومُسنّة[٢]، وإنّي مصْبِية[٣]، وليس أحدٌ من أوليائي شاهداً[٤].

وبعثَ إليها رسول اللهﷺ بأنّه سيدعو الله عزّ وجلّ أنْ يُذْهبَ غيرتها[٥]، وأنَّ سنّه أكبرُ مِنْ سنّها، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ سيكفيها صبيانها، وهم على الله ورسوله، وأمّا أولياؤها؛ فليس أحد منهم إلا سيرضى رسول اللهﷺ.

وعند ذلك قالت لابنها: قُمْ فزوّجْ رسولَ اللهﷺ فزوّجها، وكان هذا الزّواج الميمون المبارك في شهرِ شوالَ من السَّنَةِ الرَّابعةِ من الهجرة النّبويّة الشّريفة[٦].

---

(١) غيرى: كثيرة الغيرة.

(٢) مسنّة: كبيرةُ السّنِّ.

(٣) مصبية: ذات صبيان وأولاد صغار.

(٤) أي ليس أحد من محارمي شاهداً.

(٥) من الجدير بالذّكر أنّه: كان أزواج النّبيّﷺ يتحاكمنَ إلى أمّ سلمةَ لعلمهن ببراءتها من الغيرة. (شذرات الذّهب ١/ ٢٨٠).

(٦) للحديثِ أصلٌ عند الإمام أحمد في المسند (٦/ ٣١٣ و٣١٤ و٣١٧) وعند النّسائي (٦/ ٨١

وعرفتْ عائشةُ رضي الله عنها، أنَّ النَّبيَّ ﷺ تزوج أمّ سلمة رضي الله عنها، فحزنتْ حزناً شديداً، لِمَا ذُكر لها من جمالها، فتلطفَتْ حتى رأَتْها، فرأتْ أضعافَ ما وُصِفَتْ به، فذهبتْ إلى حفصةَ بنتِ عمر ـ وكانت عُرى الصَّداقة موثقة بينهما ـ وأخذت تتحدَّثُ عن أمِّ سلمة، وعن جمالها، فقالت حفصة: لا والله، إنْ هذه إلا الغيرة ما هي كما تقولين، وإنَّها لجميلة.

وراحت حفصةُ تتحدثُ عن تقدمِ أمّ سلمةَ في السِّنِّ، وأنَّ جمالها بقايا من بقايا، وإذ ذاك عادتِ الثِّقةُ إلى نَفْسِ عائشة، فرأتها بعد ذلك، فكانت كما قالت حفصة، ولكنَّها كما قالت عائشةُ نفسها عن نفسِها بأنّها امرأةَ غَيْرى[1].

أُمُّ سَلَمَةَ في البَيْتِ النَّبَوِيِّ الطَّاهِرِ:

ما رأيكم أنْ نشهَد السَّاعات الأولى لأمِّ سلمةَ في البيتِ النّبويِّ الطّاهرِ؟!

لقد طفقتْ منذُ اللحظات الأولى تقومُ بشؤونِ البيت النّبويّ، اسمعْ ما يقولُه عنها المطلب بن عبد الله بن حنطب: دَخَلتْ أيِّمُ العرب ـ أمّ سلمة ـ على سيِّد المسلمين أوّل العشاء عروساً، وقامت آخر الليل تطحن[2].

هذه البداياتِ الأولى لأمِّ سلمة، في البيت الذي أَذْهَب الله عنه الرِّجس، وطهّره تطهيراً. وماذا بعد منْ إشراقاتِ لأمِّنا أمّ سلمةَ؟!

هناك الكثير منَ المواقفِ الكريمة اللطيفة التي تشيرُ إلى حُسْنِ رأيها، وفهمها

= و٨٢) في النّكاح: باب انكاح الابن لأمّه.

وانظر: أزواج النّبيّ للصّالحي (ص١٥٠ و١٥١) وسير أعلام النّبلاء (٢/٢٠٤ و٢٠٥) والإصابة (٤/٤٤٠) والسّيرة الحلبية (٣/٤١٠) والمواهب اللدنية (٢/٨٤) وأُسُد الغابة (٦/٣٤٢) ترجمة رقم (٧٤٦٤) والكامل لابن الأثير (٢/١٧٦) وغيرها كثير من المصادر المتنوعة.

(١) عن سير أعلام النبلاء (٢/٢٠٩) بشيء من التصرف، وانظر: أنساب الأشراف (١/٤٢٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/٩٢) وسير أعلام النبلاء (٢/٢٠٥).

للأمور فهماً سليماً، مراعية بذلك أمْرَ الرسولﷺ.

ففي الموطأ، ذكر الإمامُ مالك ـ رحمه الله ـ ما يشيرُ إلى حَصَافة رأي أمِّ المؤمنين أمِّ سلمة قال: لما بنى رسول اللهﷺ بأمِّ سلمة قال: «ليس بكِ على أهلك هوان، إنْ شِئْتِ سَبّعتُ لكِ، وسبّعتُ عندهن ـ يعني نساءه ـ وإنْ شئتِ ثلاثاً، ودرتُ»؟

قالت: ثلاثاً[1].

هذا، وقد لَقِيَتْ أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ كلَّ رعايةٍ في رحاب العطف المحمديّ، كما لقي أودلاها كلّ حبٍّ وحُنو من الحبيبِ المصطفىﷺ، فقد جاءت أمّ سلمة بطفلتها زينب إلى بيتِ النّبيّﷺ، فكان يأتي أمّ سلمة ويقول: «أين زناب»؟

وكان الحبيبُ المصطفىﷺ يداعبُ الطِّفلة زينب ويغمرها بعطفهِ وحنانهِ، إلا أنَّ عمّار بن ياسر ـ وكان أخو أمّ سلمة من الرّضاعة ـ جاء يوماً فانتزعَ زينب من حجر أمّها وهو يقول: دعيها فقد آذيتِ بها رسولَ اللهﷺ فأخذها عند ذلك والتمسَ لها مرضعاً[2].

هذا وقد شغلت أمّ سلمة بيت زينب أمّ المساكين رضي الله عنهما، وأخذت تسعى لمرضاة الله عزّ وجلّ، ومرضاة رسولهﷺ[3] وذلك تمتّعتْ بمكانةٍ رفيعةٍ[4]

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٢/٥٢٩) في النكاح، باب المنام عند البكر، وأخرجه مسلم برقم (١٤٦٠) وأبو داود (٢١٢٢) موصولاً بذكر أم سلمة.

(٢) عن طبقات ابن سعد (٨/٩٣) بتصرف يسير.

(٣) كانت أمُّ سلمة عليها سحائب الرضوان، تسعى جاهدة لكسبِ مرضاةِ رسول اللهﷺ فكان لها خادمٌ يُدعى سفينة، فأعتقه، وشرطتْ عليه خِدمة رسول اللهﷺ حياته، فقبل سفينة، وظل كذلك رضي الله عنه.

(٤) اسمع ما ذكره ابنُ سعد عن مكانة أمّنا أمّ سلمة عند رسول اللهﷺ؛ فقد حدَّثَ الزّهريّ ـ رحمه الله ـ عن هند بنت الحارث الفراسيّة قالت: رسولُ اللهﷺ: «إنّ لعائشة مني شعبة ما نزلها مني أحد».

عند النّبيّ الكريمﷺ، وذلك لما كان يرى منها من شدّةِ العناية به، وملاحظة رضاه في كلِّ شيء، ولم يؤثرْ عنها، أنّها خالطتْ أمّهاتُ المؤمنين بالغيرةِ منهنَّ، مع أنَّها ـ كما أسلفنا ـ كانت تخشى الغيرة على نفسها، إلا أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أذْهَبَ غيرتَها ببركة دعاء النّبيّﷺ، فلم تعدْ تغار منَ الضّرائـر[1] وشفى نفسها، وأقرَّ عينها أنَّ ابنتها زينب ربيبة النّبيّﷺ، قد أضحتْ أفْقَه نساءِ أهلِ زمانها، ببركة النّبيّﷺ، فكان إذا ذُكرتْ امرأةٌ بالمدينةِ فقيهة، ذُكرت زينب بنت أبي سلمة ربيبة المصطفىﷺ[2].

وقد شهد ابن عبد البَرِّ ـ رحمه الله ـ لزينبَ بالفِقْهِ فقال: كانت زينبُ مِنْ أَفْقَهِ نساء زمانها[3].

أُمُّ سَلَمَةَ منْ أَهْلِ البَيْتِ:

إنَّ نساءَ أهلِ البيتِ النّبويِّ رضوان الله عليهن، لَسْنَ كأحدٍ منَ النِّساء في الفضيلةِ والفَضْل والشَّرف والتَّقوى، لما منحهنَّ الله عزَّ وجلَّ مِنْ صحبةِ النّبيِّ الكريمﷺ، وعظيم المحلّ منه، ونزولِ القرآن الكريم، والذّكْرِ الحكيم في حقِّهنَّ، قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿إنّما يريدُ الله ليذهبَ عنكم الرِّجسَ أَهْلَ البيتِ ويطهِّركم تطهيراً﴾[الأحزاب: ٣٣].

قال الزَّجّاجُ ـ رحمه الله ـ: يُراد به نساء النّبيِّﷺ.

وقيل: يُراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته.

= فلما تزوّج أمّ سلمة رضي الله عنها سُئل رسول اللهﷺ فقيل: يا رسول الله، ما فعلت الشّعبة؟ فسكتَ اللهﷺ، فعرف أنّ أم سلمة قد نزلت عنده. (طبقات ابن سعد ٨/٩٤).

(١) قال الإمام النّسائي ـ رحمه الله ـ دخل رسول اللهﷺ على أهله، فكانت أمُّ سلمة في النّساء، كأنّها ليست منهن، لا تجدُ من الغيرة شيئاً (سنن النّسائي٦/٨١ و٨٢).

(٢) عن نساء من عصر النبوة (٢/١٨٠) بتصرف يسير.

(٣) المصدر السابق.

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ: الذي يظهرُ من الآية أنّها عامّة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم، وإنّما قال: «ويطهّركم» لأنَّ رسولَ الله ﷺ وعليّاً وحَسَناً وحُسَيناً كان فيهم، وإذا اجتمع المذكّرُ والمؤنّثُ غُلِّبَ المذكّر، فاقتضتِ الآيةُ أنَّ الزَّوجاتِ من أهل البيتِ، لأنَّ الآية فيهن، والمخاطبة لهنَّ، يدلُّ عليه سِيَاق الكلام[1].

وقالَ الإمامُ فخر الدِّين الرَّازي ـ رحمه الله ـ: إنَّ الله بقوله: ﴿لِيُذْهِب عنكم الرِّجس﴾ ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم، واختلفتِ الأقوالُ في أهل البيت، والأَوْلى أنْ يُقال: هم أولاده، وأزواجه، والحسَن والحُسين منهم، وعليٌّ منهم، لأنَّه من أهل بيته، بسببِ معاشرته ببنت النَّبيِّ ﷺ، وملازمته للنَّبيِّ ﷺ[2].

وأمُّ سلمة رضي الله عنها واحدة من أمّهات المؤمنين اللاتي سمّاهن الله عزّ وجلّ: أمّهات المؤمنين فقال سبحانه: ﴿النَّبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتُهم﴾ [الأحزاب: ٦]، ولهذه الأمومة الكريمة تكاليفها، وللمرتبةِ السَّامية الباسقة التي استحققن بها هذه الصِّفة تكاليفها، ولمكانتهن مِنْ رسول الله ﷺ تكاليفها، ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ في فضلهن: ﴿يا نساء النَّبيِّ لستُن كأحدٍ من النِّساء إن اتقيتن﴾[3] إلى قوله ﴿وأقمنَ الصَّلاة وآتين الزّكاة وأطعنَ الله ورسوله

---

(١) تفسير القرطبيّ (٤/١٨٣).
(٢) التّفسير الكبير للفخر الرازي (٢٥/١٨١).
(٣) في الآية توجيهٌ لطيف لنساءِ النّبيّ ﷺ، كيما ينظرنَ نظرةً حقيقية إلى الأمور، فالخطابُ واضح بقول: ﴿لستن كأحدٍ من النّساء إن اتقين﴾ فأنتن في مكانةٍ سامقةٍ باسقةٍ لا يشارككن فيها أحد، ولا يشاركن فيه أحداً، وأوضح الله عزّ وجلّ أنّ ذلك إنّما يكون بالتّقوى، إذ إنّ المسألة ليستْ مجّرد قرابة من النّبيّ ﷺ، بل لا بدَّ من القيام بحقّ هذه القرابة في ذات أنفسكن.

وهذا هو الحقّ الواضحُ الأبلجُ الصّارمُ الحاسمُ، الذي يقررّهُ رسولُ الله ﷺ وهو ينادي أَهْلَه ألاّ يغرنّهم مكانهم من قرابتِهِ، إذ لا يغني أحدٌ عن أَحَدَ شيئاً، لذا فالحبيبُ المصطفى ﷺ لا يملك لهم منَ الله شيئاً. =

إنّما يريدُ الله ليذهبَ عنكم الرجس أَهْلَ البيتِ ويطهركم تطهيراً. واذكرن ما يُتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة. . . . ﴾ [الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٤] فهذه آيات شريفة في زوجات نبيّناﷺ[1].

وذكر عكرمةُ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إنّما يريدُ الله ليذهب عنكم الرِّجْسَ أهل البيت. . ﴾ قال: نزلت في نساء النّبيّﷺ. ثم قال عكرمة: مَنْ شاء باهلته[2] أنّها نزلت في نساء النّبيﷺ خاصة[3].

وبهذا نجد أنَّ البيتِ النَّبويَّ الطَّاهر، هو المقصودُ بالطهارة، وهذا يتولّى تكريمٌ منَ الله عزَّ وجلَّ، وتشريفٌ واختصاصٌ عظيم، حيث يتولّى الله سبحانه بذاته العليّة تطهيرهم، وإذهاب الرِّجس عنهم، وهي رعاية علوية مباشرة بأهل البيت العظيم، الذي اختصَّه الباري بالخير العميم، وفضَّلَهُ على بيوت الدُّنيا تفضيلاً.

وفي بيت أمِّ سلمة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها نزلت هذه الآية الكريمة[4]:

= اسمعْ إلى ذلك مِنْ رسول اللهﷺ وهو يقررُ ذلك أمامَ الملأ: «يا فاطمة ابنة محمّد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم مِنَ الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم» رواه مسلم.

إذن فلتعلقْ كلّ واحدة منكنَّ بحبلِ التّقوى، ولتتزود بخيرِ الزّاد، فإنَّ خيرَ الزّاد التقوى، وهو زاد المعاد الحقيقي، لكلّ واحدة منْ أهلِ البيت؛ وهذا ما كان ـ ولله الحمد ـ من نساء أهلِ البيت إذ كنَّ القدوة في الفضائل، وفي الخيرات، وفي التَقْوى، فحزنَ بذلك عزّ وجلّ مرضاة الله عزّ وجلّ، ومرضاةِ الحبيب الأعظم محمّدﷺ.

(١) انظر: سير أعلام النّبلاء للذّهبيّ (٢/٢٠٧ و٢٠٨).

(٢) المباهلة: أنْ يجتمعَ القوم إذا اختلفوا في شيءٍ، فيقولوا: لعنة الله على الظّالم منّا. قال عزَّ وجلَّ: ﴿فمن حاجّكَ فيه مِنْ بعدِ ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءَنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ [آل عمران: ٦١].

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٢٠٨).

(٤) انظر: مجمع الزّوائد للهيثمي (٩/١٦٨).

﴿إنّما يريدُ الله ليذهب عنكم الرِّجْسَ أَهْلَ البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قال الحافظُ ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره: وهذا نصٌّ في دخول أزواجِ النّبيِّ ﷺ في أهْلِ البيت ههنا، لأنّهن سبب نزولِ هذه الآية[1].

ونُقِلَ عن ابن عَبّاسٍ رضي الله عنهما قوله أنَّها نزلتْ في نساءِ النّبيِّ ﷺ خاصّة[2].

وعلّقَ ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ على هذا القول تعليقاً كريماً مجوداً يشيرُ إلى سَعَه أُفُقِهِ وفَهْمِه فقال: فإنْ كان المراد أنّهنّ كُنَّ سبب النُّزول دون غيرهن فصحيح، وإنْ أُريدَ أنّهن المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر[3].

ويدلُّ ابن كثير ـ رحمه الله ـ على أنَّ أهلَ البيتِ النّبويّ، معرفون كالشَّمْسِ في رابعةِ النَّهار، فأزواجه الطّاهرات رضي الله عنهن هم من آله الطَّاهرين، ويشيرُ ابن كثير ـ رحمه الله ـ إلى التَّدبر في الذِّكر الحكيم لمعرفةِ ذلك فيقول: ثم الذي لا شكَّ أنَّه مَنْ تَدبَّر القرآن، وأنَّ نساء النّبيِّ ﷺ داخلات في قوله تعالى: ﴿إنّما يريُد الله ليذهب عنكم الرجسَ أَهْلَ البيت ويطهّركم تطهيراً﴾[الأحزاب: ٣٣] فإنَّ سياقَ الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كلّه: ﴿واذكرن ما يُتلى في بيوتكن من آياتِ الله والحكمة..﴾ [الأحزاب: ٣٤] أي: واعملن بما ينزِّلُ الله تبارك وتعالى على رسولهﷺ، في بيوتكن من الكتابِ والسُّنّةِ؛ واذكرن هذه النِّعمة التي خصصّتنَّ بها من بين النَّاس؛ أنَّ الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر النّاس.

ويتابعُ ابن كثير قوله:

وعائشة[4] الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنها، أولادهنِ بهذه النِّعمة،

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٤٥١).

(٢و٣) المرجع السّابق نفسه.

(٤) لا يفوتنك ـ عزيزي القارىء ـ الإبحار في بحار أنوار سيرة الصّديقة بنت الصّديق من هذا الكتاب، ففي الإبحار مع سيرتها صيد ثمين، ورصيد مبارك بإذن الله تعالى.

وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصّهن من هذه الرّحمة العميمة، فإنّه لم ينزلْ على رسول الله ﷺ الوحي في فراشِ امرأةٍ سواها كما نصَّ على ذلك صلوات الله وسلامه عليه[1].

هذا، وقد بلَغتْ أَزْوَاجُ النّبيِّ ﷺ، هذه المنزلة السّامية[2] بلطفِ الله عزّ وجلّ بهنَّ، وبخبرته بهنَّ، حيثُ إنّهنَّ أَهْلٌ لذلكَ الفَضْل منَ الله عزَّ وجلَّ، فقد جعلهُنَّ في بيوتٍ تُتلى فيها آيات الله والحكمة، وكان جلَّ شَأنُهُ بهنَّ خبيراً، إذِ اختارهنَّ لرسولِهِ أزواجاً، وكرّمهنَّ في البيتِ النَّبويِّ، فصرنَ يُعرفْنَ ﴿أَهْلَ البيت﴾ وأهل البيت هنا في سياق الآية: نَصْبٌ على النِّداء أو على المدح.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٤٥٤).

(٢) إنَّ هذه المنزلة الرَّفيعة التي اختصّت بها نساء رسول الله ﷺ تقودنا إلى سؤالٍ مفاده: هل أمّهات المؤمنين من أهل الجنّة؟ وهل يَقطعُ لهنَّ بدخولِ الجنّة؟

فالجوابُ عن هذا السؤال يحتاج إلى دليلٍ، وهو أنَّ العُلماء على اختلافِ طبقاتهم، اتّفقوا على أنَّ العَشَرةَ المبشّرين بالجنّةِ الذين أخبرَ عنهم رسولُ الله ﷺ في الأحاديثِ الصّحيحة، يُقطع لهم بدخول الجنّة، لأنَّ خبرَ الحبيب المصطفى ﷺ حقٌّ، وهو بوحي من الله عزّ وجلّ.

هذا، وقد ألحق بعض العلماء أمّهات المؤمنين الطّاهرات بالعشرة المبّشرين بالجنّة، بإنّه يُقطع لهنَّ بدخولِ الجنّة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿لهم مغفرةٌ ورزق كريم﴾ بناء على أنَّ الآياتِ الكريمةِ نزلت في أزواجِ النبيّ ﷺ عامة، وفي شأْنِ الصّديقة ابنة الصّديق عائشةِ خاصة، والرّزق الكريم الذي أشارت إليه الآية، يُرادُ منه الجنّة، بدليلِ قوله تعالى في مكان آخر ﴿ومَنْ يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريما﴾ [الأحزاب: ٣١] وهو استدلالٌ حسن مقبول تميلُ إليه النّفس.

قال الإمامُ فخر الدين الرّازيّ ـ رحمه الله ـ في تفسيره الكبير:

بيّنَ الله تعالى، أنَّ الطّيبّاتِ منَ النّساء للطّيبين من الرِّجال، ولا أحد أطيب ولا أطهر من الرّسول ﷺ، فأزواجه إذن لا يجوز أنْ يكنَّ إلا طيبات؛ ثم بيّن تعالى أنَّ: ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ ويحتمل أن يكون ذلك خبراً مقطوعاً به، فيُعلم بذلك أنَّ أزواج الرسول عليه الصّلاة والسّلام معه في الجنّة.

قال القاسميُّ ـ رحمه الله ـ في تفسيرهِ النَّفيس: والمرادُ بهم مَنْ حواهم بيت النَّبيِّ ﷺ[1].

وذكر أبو السُّعود ـ رحمه الله ـ في تفسيره معلقاً على أهل البيت، ومَنْ هم فقال: وهذه كما ترى آية بيّنة، وحجّة نيّرة، على كون نساء النَّبيِّ ﷺ من أهلِ بيته.

وقد تساءل القاسميُّ ـ رحمه الله ـ في تفسيره بقوله: قد تنازع النَّاسُ في آلِ محمّد مَنْ هم؟!

وأورد أقوالاً عديدة خَلص منها إلى القولِ الآتي: بأنَّ الصَّحيح أَنَّ أزواجَه من آله، فإنَّه قد ثبت في الصحيحَيْن[2]، عنِ النَّبيِّ ﷺ أنه علّمهم الصَّلاة عليه: اللهمَّ صلِّ على محمّد وأزواجه وذريّته؛ ولأنَّ امرأةَ إبراهيم[3] من آله وأهل بيته، وامرأة لوط[4] من آله وأهل بيته، بدلالة القرآن، فكيف لا يكون أزواج محمّد من آله وأهل بيته؟! ولأن هذه الآية تدلّ على أنهن من أهل بيته، وإلا لم يكن لذكر ذلك في الكلام معنى[5].

إذن، فزوجات النَّبيِّ الطَّاهرات كلّهن من أَهْلِ البيت الذي أذهب الله عنه الرِّجْسَ وطهّره تطهيراً، ويبدو أنَّ أمَّنا أمَّ سلمةَ رضي الله عنها كانت تفخر على ضرائرها بشرفِ نزول هذه الآية الكريمة في بيتها، وبذلك تكون قد شاركتِ الصِّدّيقة ابنة الصِّدِّيق عائشة بهذه الميزة الكريمة، حيث كان الوحيُ ينزل على الحبيبِ المصطفى ﷺ في بيتها.

---

(١) انظر: تفسير القاسمي المسمى: محاسن التأويل (٣/٢٥٠).
(٢) صحيح البخاري: في كتاب الأنبياء، وصحيح مسلم: في كتاب الصَّلاة.
(٣) اقرأ سيرة امرأتي إبراهيم ـ سارة وهاجر ـ في كتابنا: «نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسّنة» ففي سيرة هاتين المرأتين مواقف جليلة لا تنسى، ومكارم عطرة لا تمحى.
(٤) اقرأ سيرة امرأة لوط في كتابنا «نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسّنة» ففي ذلك فوائد كثيرة ـ بإذن الله ـ وتوضيح لبعض المفاهيم في القرآن الكريم والحديث الشّريف.
(٥) انظر: تفسير القاسميّ (١٣/٢٥٤).

ومن مكارم أمِّ سلمةَ رضوان الله عليها، أنَّ النَّبيَّ الكريمَ ﷺ كان يؤدّي الصَّلاة في بيتها، وقد شهد شاهدٌ من أهلها بهذا، وهو ابنُها عمر بن أبي سلمة حيث قال: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ يصلّي في بيتِ أمِّ سلمةَ في ثوبٍ واحد، متوشحاً به، واضعاً طرفيه على عاتقه[1].

أُمُّ سَلمَةَ تَحْمِلَ بشَارةً ربَّانيّةً ونَبِويّةً:

لأمِّ سلمةَ أمّ المؤمنين رضي الله عنها، مكارم لم تكن إلا لها، وكأنَّ هذه المكارم قد اختصّتْ بها من لدُنْ حكيمٍ خبير، فقد حملتْ بشارة التّوبة لأكثرَ منْ صحابي كريم، إذ كان يتنزل القرآن الكريم على النّبيِّ الكريم ﷺ وهو عند أمّ سلمة رضي الله عنها يحمل توبة الله تبارك وتعالى على عبادهِ المؤمنين، وتنقلُ أمّنا هذه البِشَارة إلى أصحابها. ونحنُ مرسلو القول في هذا بمشيئةِ الله..

ففي غزوة بني قُريظة، أبى رسولُ الله ﷺ إلا أنْ ينزلَ يهود قريظة على حكمه - بعد خيانتهم الله ورسوله - فأرسلوا إليه أنِ ابعثْ إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر الأنصاريّ لنستشيره في أمرِنا، وكانوا حُلفاءَ أبي لبابة.

فذهب إليهم أبو لبابة، فلّما رَأَوْهُ، قام إليه الرِّجال، وجهشَ إليه النِّساءُ والصِّبيان يبكون في وجهه، فرقَّ لهم، وقالوا له: ما ترى، أننزلُ على حُكْم محمّد؟ فقال أبو لبابة: نعم فانزلوا، وأومأَ إلى حَلْقه بالذَّبحِ.

وفي اللحظةِ ذاتها شعر أبو لبابة، أنَّه قد خان الله ورسوله، فندم وقال في خوفٍ شديد: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. وسربله النَّدم، وعلاهُ القهر، وساورته الهموم، وجعل ضميره يؤنّبه، ويَخِزهُ وَخْزاً شديداً أليماً، فقال له أَحَد أحبار اليهود: مالك يا أبا لبابة؟

فقال في صوتٍ متهدجٍ وقد غلّفَه النَّدمُ: خُنْتُ الله ورسوله.

وملأتِ الدَّموعُ عينيه، ثمَّ انطلقَ راجعاً على وجهه، فلمْ يأتِ رسولَ

---

(١) انظر: أنساب الأشراف (١/٤٣٠).

اللهﷺ، بل ذهبَ إلى المسجد النّبويّ الشّريفِ، وكان الحرُّ شَديداً يومذاك، ولكنَّ النَّار التي تتلظّى في جوفهِ كانت أشدّ حَرّاً، وأعظم أثراً، فَفِكْرةُ أنّه خَانَ الله ورسوله كانت تلسعه لسعاً يعذِّبهُ ولا يطيقُ نفسه.

ارتبط أبو لبابة بالمسجدِ إلى عمودٍ من عُمُدِهِ بسلسلة ثقيلة، وكان العمود عند باب أمّ المؤمنين أمّ سلمة زوج النّبيّﷺ، وكان أكثر تنقّلِ رسول اللهﷺ عند ذلك العمود، وكان ما فعله أبو لبابة غير مألوف، فحفَّ إليه أناسٌ منَ المسلمين يسألونه الخبر، فقال في تأثّر وانفعال: والله لا أذوقُ طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله عليَّ مما صنعتُ.

ظلَّ أبو لبابة مرتبطاً في العمودِ تأتيه امرأته ـ أو ابنته ـ فتحلّه للصَّلاةِ، ثم يعودَ فيرتبطُ، وأقام على ذلك بضع ليال، وجعل أبو لبابة يرهفُ سَمْعَه لعلّه يسمع أنْ قد تابَ الله عليه، فقد كان على يقينٍ من أنَّ الله يغفرُ الذُّنوبَ جميعاً، وأنَّه هو الغفورُ الرَّحيم.

ونزلت توبة أبي لبابة من فوقِ سبعة أرقعة. . . . بسم الله الرَّحمن الرَّحيم: **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عَمَلاً صالحاً وآخر سيئاً[1] عسى الله أن يتوبَ عليهم إنَّ الله غفورٌ رحيم﴾** [التوبة: ١٠٢]. وقد نزلتْ توبةُ أبي لبابة على رسول اللهﷺ، وهو في بيت أمّ سلمة؛ فقالت أم سلمة رضي الله عنها: فسمعت رسول

---

(١) تفتَق ذهن أبي بكر الرّازيّ ـ رحمه الله ـ عن معانٍ لطيفة لهذه الآية فقال: فإنْ قيلَ: قولهُ تعالى: ﴿خَلطوا عَمَلاً صالحاً وآخر سَيئاً﴾ قد جعل كلّ واحد منهما مخلوطاً، فأين المخلوط به؟

قلنا: كلّ واحد منهما مخلوط ومخلوط به، لأنَّ معناه: خلطوا كلّ واحدٍ بالآخر، كقولك خلطتُ الماءَ واللبنَ، تريدُ خلط كلّ واحد منهما بصاحبه، وفيه من المبالغة ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن، لأنّك بالباء جعلت الماء مخلوطاً به، والواو جعلت الماء واللبن مخلوطين، ومخلوطاً بهما، كأنّك قلت: خلطت الماء باللبن، واللبن بالماء.

ويجوز أنْ تكونَ الواو بمعنى الباء في قولهم: بعت الشّاتين بدرهمين، يعنون كلّ شاة بدرهم. (تفسير أبي بكر الرازي ص١٩٠).

اللهﷺ من السَّحَر وهو يضحك؛

فقالت له: ممَّ تضحكُ يا رسول الله أَضْحكَ الله سِنَّك؟

قالﷺ: «تِيْبَ على أبي لبابة».

قالت أمَّ سلمة: أفلا أبشِّره يا رسول الله؟

قالﷺ: «إنْ شِئْتِ».

فقامت أمُّ سلمة على بابِ حجرتها ـ وذلك قبل أنْ يُضربَ عليهن الحجاب ـ فقالت: يا أبا لبابة، أبشِرْ فقد تاب الله عليك.

قالتْ أمَّ سلمة: فثار النَّاسُ، وأسرعوا إليه ليطلقوه، ولكنَّ أبا لبابة أبى وقال: لا والله حتى يكون رسول اللهﷺ هو الذي يُطْلقني بيدهِ الشَّريفة.

وبلغَ ذلك رسول اللهﷺ، فلَّما مرَّ عليه خارجاً إلى صلاة الصَّبح أطلقه، وغمر السُّرور أبا لبابة بأنْ تجاوز الله عمّا أسرف.

وراح المسلمونَ، والموحِّدون يتلون في بيوتِ الله ما أنزل الله فيه: ﴿وآخرون اعترفوا بذبونهم خَلَطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أنْ يتوبَ عليهم إنْ الله غفورٌ رحيم﴾ [التَّوبة: ١٠٢][1].

وفي غزاةِ تبوك، تخلَّفَ ثلاثةٌ مِنَ الصَّحابة الكرام عنها، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أميّة، ومرارة بن الرَّبيع، وكان رسولُ اللهﷺ، عند أمِّ المؤمنين أمَّ سلمة، لما نزلَ في شَأْنِ هؤلاء الثَّلاثة قوله تعالى: ﴿وعلى الثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهمُ الأرضُ بما رحُبتْ وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا أنْ لا ملجأً من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إنَّ الله هو التَّواب الرَّحيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وقد صوَّرَ القرآنُ الكريم حالة هؤلاء النَّفر، وما هم فيه بسبب تخلّفهم عن رسولِ اللهﷺ، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنَّ الأرض على سعتها، ضاقت عليهم؛ وهو مَثَلٌ للحيرة كأنّهم لا يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه بسبب القَلَقِ والجزع الذي

---

(١) عن تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٣١٢ و٣١٣) بشيء من التصرف.

يملأ نفوسهم، كما ضاقت عليهم قلوبهم، فأصبح لا يسعها أنسٌ ولا سرور لأنَّها خرجت من فرط الوحشة والغم[1].

هذا وقد تحدَّث أحد أولئك النَّفر الثّلاثة، وهو كعب بن مالك عَنْ خبرِ تخلّفه وصاحبَيْهِ، عن رسول الله ﷺ، وعن إحْسَان أمّ سلمة إليه، واعتنائها بأمره، وعن نزول الوحي عندها، فقال من حديثٍ طويل وَرَدَ في الصِّحاح، فلنستمع إلى فِقْرات كاشفةٍ من هذا الحديث:

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال: سمعتُ أبي كعب بن مالك، وهو أحد الثَّلاثة الذين تِيْبَ عليهم:
أنَّه لم يتخلَّفْ عن رسول الله ﷺ، في غزوة غزاها قطّ غير غزوتين: غزوة العُسْرة[2]، وغزوة بدر، قال: فأجمعتُ صِدْقَ رسول الله ﷺ ضحى، وكان قلّما يقدم من سَفَرٍ سافَرَ إلا ضحى، وكان يبدأ بالمسجد فيركع ركعتين.

ونهى النَّبيُّ ﷺ عن كلامي وكلام صاحَبيَّ، ولم يَنْهَ عَن كلامِ أحدٍ من المتخلِّفين غيرنا، فاجتنبَ النَّاسُ كلامَنَا، فلبثتُ كذلك حتى طال عليَّ الأَمْرُ، وما من شيء أهمّ إليَّ من أنْ أموتَ فلا يصلّي عليَّ النّبيّ ﷺ، أو يموت رسولُ الله ﷺ، فأكون مِنَ النَّاس بتلكَ المنزلةِ، فلا يكلّمني أحد منهم، ولا يصلّي عليّ، فأنزل الله توبتنا على نبيّه ﷺ حين بقي الثّلثُ الآخر من الليل، ورسول الله ﷺ عند أمّ سلمة، وكانت أمُّ سلمة مُحْسِنَة في شأني، مَعْنية في أَمْري، فقال رسول الله ﷺ «يا أمّ سلمة تِيْبَ على كعب».
قالت: أفلا أرسل إليه فأبشّره؟
قال: «إذاً يحطمكم[3] النَّاس فيمنعونكم النّوم سائر الليلة، حتى إذا صلى رسول

(١) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري (٢/٢١٨).
(٢) اسم غزوة تبوك: غزوة العسرة.
(٣) يحطمكم الناس: أي يدوسونكم ويزدحمون عليكم، ويتبادر إلى ذهني تلك الدّرع التي أعطاها النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب، وتسمى الحطمية، فقيل في معناها: كانت تحطم السّيوف؛ وقيل: نسبة إلى حطم بن محارب بن عبد القيس، اشتهروا بصنع الدروع.

الله ﷺ صلاة الفجر، آذن بتوبةِ الله علينا. . . . . . الحديث[1].
هذا وقد كسبتْ أمُّ سلمةَ هذه الفضيلة الأخرى.

وكان لأمِّ سلمة رضي الله عنها فضيلة أخرى في هذا المجال من قبل، أيام فتح مكة المكرمة، إذ كلّمت رسول الله ﷺ في اثنين مِنَ الذين كانوا يُؤذون رسولَ الله ﷺ، وهُما: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب، وعبد الله بن أبي أميّة بن

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاريّ ـ رحمه الله ـ بهذا اللفظ في كتاب التّفسير حديث رقم (٤٦٧٧).
وأخرجه في كتاب الوصايا برقم (٢٧٥٧).
وأخرجه في كتاب الجهاد أحاديث رقم (٢٩٤٧ و٢٩٤٨ و٢٩٤٩ و٢٩٥٠).
وأخرجه في باب الصّلاة برقم (٣٠٨٨).
وأخرجه في كتاب المناقب برقم (٣٥٥٦).
وأخرجه في كتاب مناقب الأنصار برقم (٣٨٨٩).
وأخرجه في كتاب المغازي برقم (٣٩٥١) وفي باب حديث كعب بن مالك برقم (٤٤١٨).
وأخرجه أيضاً في كتاب التّفسير برقم (٤٦٧٣) وأيضاً برقم (٤٦٧٨) وأيضاً برقم (٤٦٦٧٨).
وأخرجه في كتاب الاستئذان برقم (٦٢٥٥).
وأخرجه في كتاب الأيمان والنذور برقم (٦٦٩٠).
وأخرجه في كتاب الأحكام برقم (٧٢٢٥).
وأخرجه الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ في التّوبة برقم (٢٧٦٩).
وأخرجه أبو داود برقم (٤٦٠٠).
وأخرجه الترمذي في كتاب التّفسير برقم (٣١٠١).
وأخرجه النسائي في كتاب المساجد (٢/٥٣) وفي كتاب الطلاق (٦/١٥٢).
وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/٤٥٤ و٤٥٦ و٤٦٠ و٤٥٩) و(٦/٣٨٧ و٣٩٠) وعبد الرّزاق في المصنف (٩٧٤٤).

وانظر: تاريخ الإسلام للذهبيّ (المغازي ص ٦٥٣ ـ ٦٥٨) والسّيرة النّبوية (٤/١٨٠ ـ ١٨٢) تحقيق عمر تدمري والمغازي النّبوية للزّهريّ (ص ١٠٦ ـ ١١١) وانظر ترجمة كعب بن مالك في تهذيب الأسماء واللغات (٢/٦٩).

المغيرة، فقد لَقِيا رسول الله ﷺ، بموضعٍ بين مكةَ والمدينة، فالتمسا الدُّخولَ عليه، فكلّمته أمّ سلمة رضي الله عنها فيهما، ورجَتْ أنْ يصفحَ عن زلّتِهما فيما مضى، فقالت: يا رسول الله لا يَكُنْ ابن عمّك، وابن عمّتك وصهرك أشقى النَّاس بك.

قال: «لا حاجة لي بهما، أمّا ابن عمّي فَهَتَكَ عِرضي، وأمّا ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكةَ ما قال[1]».

فلّما بلغها قوله، قال أبو سفيان بن الحارث: والله لتأذنن لي، أو لآخذنَّ بيد بُنيّ هذا، ثمّ لنذهبنَّ في الأرضِ حتى نموتَ عَطَشاً وجوعاً.

وعندما بلغ ذلك الحبيبُ المصطفى ﷺ رقَّ لهما، وأذنَ لهما، فدخلا وأسْلَما، وإذ ذاك سُرّتْ أمُّ سلمة بانضمامِ هذين الرَّجلين إلى دوحةِ الإسلام[2].

وممّا يشبه هذا في شفاعتها وبشارتها للنّاس، ما وردَ أنّها ترضّتْ رسولَ الله ﷺ على أخيها؛ المهاجر بن أبي أميّة، الذي استعمله الرَّسول ﷺ على كِندة، وكان قد تخلَّفَ بتبوك، فرجعَ رسولُ الله ﷺ، وهو عاتبٌ عليه، فبينما أمّ سلمة

---

(١) أوّد التبيه إلى قولِ أمّنا أمّ سلمة: ابن عمّك، وابن عمّتك.

فتعني بابن عمّه أبا سفيانَ بن الحارث بن عبد المطلب، وقد توسعتُ سيرتهِ بكتابي «رجال مبشّرون بالجنة» (٢/١٨٩ ـ ٢٢٥) فلتراجع هناك ففيها امتاع للنفوس.

وابن عمته: عبد الله بن أبي أميّة، وهو أخو أمّ سلمة لأبيها، وكانت أمّه عاتكة بنت عبد المطلب.

وقوله ﷺ: «قال في مكةَ ما قال» فإنّه قال بمكة: لن نؤمنَ لك حتى ترقى في السَّماء، ولن نؤمنَ لرقيك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه. وقد ذكر الله ذلك في سورة الإسراء مفصّلاً، فلتراجعِ التَّفاسيرُ بذلك.

وقد غلط هنا بعض المشتغلين في هذا فقال: معنى قول أمِّ سلمة: ابن عمتك؛ أنَّ جدةَ النّبيّ ﷺ أمّ عبد الله كانت مخزوميّة، وعبد الله بن أمية مخزوميّ، فعلى هذا يكون ابن خالته، لا ابن عمته، والصَّواب ما ذكرناه.

(٢) عن زاد المعاد (٣/٤٠٠) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٥٣٦) مع الجمع والتصرف. وانظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٤٣).

رضي الله عنها تغسل رأْسَ النَّبيِّ ﷺ قالت: كيف ينفعني عيشٌ وأنتَ عاتبٌ على أخي؟ فرأتْ منَ النَّبيِّ ﷺ رِقَّةً، فأومأتْ إلى خادمها، فدعتْ أخاها، فلم يزلْ بالنَّبيِّ ﷺ، يذكر عذره حتى رضي الله عنه، واستعمله على كندة، فتوفي النَّبيّ ﷺ، ولم يَسِرْ إلى عَمَله، ثم سارَ بعده(1).

وهكذا كانت أمُّ المؤمنين أمّ سلمة سبَّاقةً في هذا الضمار النَّفيس، الذي يُشير إلى علو همّتها، وإلى صفاء نفسها وكرامتها رضي الله عنها.

أمُّ سَلَمَةَ وَالجِهَاد:

مِنْ يُسْرِ الإسلام، التَّخفيفُ عن غير القادرين على القيام ببعض التّكاليف الشَّرعية، ومن ذلك خفَّفَ عنِ المرأة، فلم يكلِّفها بأعباءِ القتال، لضعف بنيتها الجسدية، ولذلك سَمَحَ لها بأعمالٍ توافق حالها كالسَّقي، وتجهيزالطَّعام، ومداواةِ الجرحى، ونحو ذلك من خدمات.

وقد كُتِبَ لأمِّ سلمةَ رضي الله عنها شرف الجهاد، وشرف صحبة النّبيّ ﷺ في مغازيهِ، فقد حضرت معه عدداً من غزواته، فكانت في غزوة المُريسيع، وفي غزاة خيبر(2)، وفي فتح مكة، وفي حصار الطّائف، وفي غزوة هوازن وثقيف، وصَحِبَتْه كذلك في حجّةِ الوداع.

وكان لأمِّ سلمةَ رضي الله عنها بعض الآثار المحمودة، والمواقف المأثورة في غزواتها، ولعلَّ موقفها وجزالة رأيها في قصَّة الحديبية، يشيرُ إلى كرامتها، ويُمْنِ رأيها، وسعة أفقها، ونظرتها إلى الأمور بميزانِ الشَّريعة.

ففي المدينة المنوّرة، رأى النَّبيُّ ﷺ في النَّوم، أنَّه دخل مكةَ، هو وأصحابه

---

(1) عن الكامل لابن الأثير (٢/٣٧٨) بتصرف يسير جداً.

(2) ورد أنَّ أمَّ سلمة رضي الله عنها، شهدت فتح خيبر، وقالت مع نسوة: ليت الله كتبَ علينا الجهاد، كما كتب على الرِّجال، فيكون لنا مِنَ الأجْرِمثل ما لهم، فنزلتِ الآية، ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ انظر (أعلام النساء ٥/٢٢٤).

آمنين محلِّقين رؤوسهم ومقصِّرين، وأنَّه دخل البيت، وأخذ مفتاحه، وطاف هو وأصحابه مع الطَّائفين.

ولما قُضِيَتْ صلاة صُبْح اليوم التَّالي، وكان رسول اللهﷺ بادي البشر، وجعل يقصُّ على أصحابه رؤياه، وقد ألقوا إليهم سمعهم مستبشرين فرحينَ بما آتاهم الله عزَّ وجلَّ، فقد صاروا جميعاً موقنينَ أنَّ الفَتْحَ قريبٌ، فرؤيا الأنبياء وَحْيٌ وحقٌّ، وما رأى الرَّسول الكريمﷺ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح.

وخرجَ رسولُ اللهﷺ لأداءِ العمرة،وخرجت معه زوجه أمّ سلمة أمّ المؤمنين، وأمّ عمارة المازنية، وأمّ منيع الأنصارية، وأمّ عامر الأشهلية وغيرهن، وخرج معه المهاجرون والأنصار، وأحرموا بالعمرة، وأنساب المسلمون في الصَّحراء، وقد ارتفعتِ التّلبيةُ من أعماقِ القلوب: لبيك اللهمّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إنَّ الحمدَ والنِّعمة لكَ، والملك لا شريك لك. . . . . .

ولكنَّ قريشاً ركبتْ رأْسَها، ومَنَعوا المسلمين من أداءِ عمرتهم، ثم جرى الصُّلح بين المسلمينَ والمشركين، وكانتِ الهدنة المعروفة.

وكان أصحابُ رسولِ اللهﷺ قد خرجوا وهم لا يشكّون في الفَتْح بعد أنْ قصَّ عليهم رؤياه، فلّما انتهى الأَمْرُ بالهدنة، دخل النَّاس أَمْرٌ عظيم، حتى إنَّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال فيما وَرَدَ في الصَّحيحِ: والله، وما شككتُ منذ أسلمتُ إلا يومئذ، فأتيتُ النَّبيَّﷺ، فقلتُ: يا رسول الله، ألستَ نبيَّ الله؟

قال: «بلى».

قلتُ: ألسنا على الحقِّ وعدّونا على الباطلِ؟

قال: «بلى».

قلتُ: فلمَ نعطي الدَّنيةَ في دِيننا إذاً؟

قال: «إنّي رسولُ الله؛ ولستُ أعصيه؛ وهو ناصري».

قلت: أولستَ كنتَ تحدثنا أنّا سنأتي البيتَ فنطوف حقّاً؟

قال: «بلى أفأخبرتك أنَّك تأتيهِ العام»؟

قلتُ: لا.

قال: «فإنّك آتيه ومطوفٌ به».

قال: فأتيتُ أبا بكر. .

فقلتُ: يا أبا بكر، أليس هذا نبيّ حقّاً؟

قال: بلى.

قلتُ: فِلمَ نعطي الدّنية في دِيننا إذاً؟

قال: أيها الرّجل، إنّه رسولُ الله، وليس يعصي الله، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه[1] حتى تموت، فوالله إنّه لعلى الحقّ قلتُ: أو ليس كان يحدثنا أنّا سنأتي البيت، ونطوفُ به؟

قال: بلى، فأخبرك أنّك تأتيه العام؟

قلتُ: لا.

قال: فإنّك آتيهِ ومطوّفٌ به[2]. . . . . .

ولم يكنِ الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم في ذلك اليوم على شَكٍّ من شيءٍ، وإنّما ظنّوا أنّهم قد بُخسوا حقّهم مع المشركين، وهم المنتصرونَ الغالبون المتمسكون بحبلِ الله عزَّ وجلَّ، ولذلك توجَّه إليهم رسولُ الله ﷺ وقال لهم: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». . .

إنّهم يسمعونه ويرَوْنَه، ولكنّهم سمعوه ثانية يقول: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» ثم كرَّر ذلك ثلاث مراتٍ، فلمْ يقمْ منهم أحدٌ.

فلّما لمْ يقمْ منهم أحدٌ، دَخَل النّبيُّ ﷺ على أمِّ سلمة، فاضطجع فقالت: مالكَ يا رسول الله؟

فذكر لها أنّه أَمَرَ النّاس بالأَمْرِ، فلم يفعلوه، وأمرهم بالحلْقِ والنّحر مراراً فلم يجيبوه، وهم يسمعون كلامه، وينظرونَ إلى وجههِ الشّريف.

---

(١) «الغرز»: الركاب. «واستمسك بغرزه» أي تعلّق به واتبعه ولا تخالفه.

(٢) انظر تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٣٧١ و٣٧٢) والحديث رواه البخاري في صحيحه

فقالت أمُّ سلمةَ رضي الله عنها: أتحبُّ ذلك؟ - أي أنْ يطيعَك أصحابك فيما تأمرهم به - فأشارَﷺ أنْ نَعم.

قالت: اخرج، ثم لا تكلّم أحداً حتى تنحر بُدْنَكَ، ثم تدعو بحالقك، فيحلقك.

فقامﷺ، وأخذ الحربةَ، وقَصَدَ هَدْيَه، وأهوى بالحربةِ إلى البدن رافعاً صوته: «بسم الله والله أكبر» ثم دخلَﷺ قبّة له مِنْ أَدَم أحمر، ودعا بخراش بن أميّة بن الفضل الخزاعيّ فَحلَقَ رأسه.

فلما رأى النَّاس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلقُ بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً[1].

وبهذا نجا الصَّحابة الكرام من مخالفة الحبيبِ المصطفىﷺ، وذلك ببركة رأي أمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها التي تذكرنا بمواقفِ أمّ المؤمنين خديجة عليها سحابات الرضوان. وإنْ نسيَ التَّاريخ، فلا ينسى مواقف أمّ سلمة رضي الله عنها، وخصوصاً ذلك اليوم الذي يُقْرَنُ باسمها كلّما ذكر يوم الحديبية[2].

ومن المكارم التي اختصَّتْ بها أمّنا أمّ سلمة رضي الله عنها، أنَّها رأتْ جبريل عليه السَّلام في صورة دحية الكَلْبيّ[3] رضي الله عنه. من ذلك ما ورد عن سيّدنا سلمان الفارسيّ رضي الله عنه قال: أنبئتُ أنَّ جبريل عليه السَّلام، أتى نبيَّ اللهﷺ وعنده أمّ سلمة، فجعل يتحدَّث، ثم قام، فقال نبيُّ الله لأمِّ سلمةَ: «من هذا»؟ أو كما قال.

---

(١) عن البداية والنهاية (٤/١٧٦) بتصرف. والحديث طويل أخرجه الإمام أحمد (٤/٣٢٣ - ٣٢٦) والبخاري في الشّروط برقم (٢٧٣١ و٢٧٣٢) وانظر السيرة النبوية في قصة الحديبية، وزاد المعاد (٣/٢٩٥) والكامل (٢/٢٠٥).

(٢) أود أن أنبّه إلى حقيقة هامة، وهي أنَّ رؤيا الأنبياء وحي كما ورد في الصّحيح، وسيدخل النبيﷺ المسجد الحرام كما رأى في الرؤيا، فالرسول ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى، ولكن لا مانع من الاستئناس برأي المرأة، ورأيّ أمّ سلمة هنا، يشيرُ إلى جزالة رأيها وجودة عقلها.

(٣) شذرات الذهب (١/٢٨٠).

قالت: هذا دحية الكلبيّ[1].

قالت: والله، ما حسبتُه إلا إياه، حتى سمعتُ خطبة نبيّ الله يخبر خبرنا، أو كما قال[2].

ومن مكارم أمّ سلمة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، أنّها كانت تحتفظُ بعددٍ من شعره الشّريفﷺ مخضوباً بالحناء.

فَصَاحَتُهَا وَأَدَبُهَا:

أمُّنا أمّ سلمة رضي الله عنها واحدة من النِّساء اللاتي حفظ الدَّهر مقامهن، واحتفظ بأثارةٍ من أقوالهن التي تجري مجرى الحكمة، وهي واحدةٌ من النِّساء اللائي كنَّ يقرأن ولا يكتبن، وهذا ممّا زاد في رصيدها البياني.

وتعودُ مصادر الفصاحة عند أمّ المؤمنين أمّ سلمة إلى ثقافتها الكبيرة منَ القرآن الكريم، إذ إنّه منبع الفَصَاحة وسلسبيل البيان، ثم رفدت فصاحتها بكلام النّبوة، والأدب النّبويّ الذي غُذّيتْ به.

هذا، وقد كانت أمُّ سلمة رضي الله عنها، إحدى نساء قريش المعدودات فَصَاحةً وبياناً، وقد أُثِرَ عنها أنّها كانت تقرضُ الشّعرَ أحياناً، وممّا رُوي عنها، أنّها رَثت ابن عمها الوليد بن المغيرة رضي الله عنه فقالت:

يا عينُ فابكي للولـ ... ـيدِ بنِ الوليدِ بنِ المغيرة
قد كان غيثاً في السّنيـ ... ـن ورحمةً فينا وميرة[3]
ضخمَ الدّسيعة ماجداً ... يسمو إلى طلب الوتيرة[4]

(١) يُفهمَ من هذا أنَّ أمنا أمّ سلمة رضي الله عنها رأت جبريل عليه السّلام يتحدثُ مع النّبيّ الكريمﷺ، فلمّا سألها: «مَنْ هذا»؟ ما فهمتْ إلا أنّه دحية الكلبيّ، لأنّه كان يأتي في صورته أحياناً، ففيه فَضْلٌ لأمّ سلمة لرؤيتها جبريل، ولحضوره في مجلسها، وهذا يشير أيضاً إلى سمو منزلتها رضي الله عنها.

(٢) التاج الجامع للأصول (٣/٣٨٣) والحديث رواه مسلم.

(٣) «الميرة» الطّعام، وفي القرآن: ﴿ونميرُ أهلنا﴾ [يوسف: ٦٥] يعني: نأتي لهم بالطعام.

(٤) «الدّسيعة» اسم للعطية الجزيلة، ويقال للعطية الجزيلة، يقال للجواد: هو ضخم

مثل الوليد بن الوليد أبي الوليد كفى العشيرة

فسمع النَّبيُّ ﷺ قولها، فقال: «ما اتخذتم الوليد إلا حناناً[1]»، فسمّوه عبد الله».

ومما يشيرُ إلى فصاحةِ أمّ سلمةَ رضي الله عنها، وامتلاكها ناصية البيان، ما كتبته إلى عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنهما، حينما عزمتْ على الخروجِ إلى وقعةِ الجملِ قالت:

من أمّ سلمة زوج النّبيّ ﷺ إلى عائشةَ أمّ المؤمنين، فإنّي أحمدُ الله إليك الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد: . . . لو علمَ رسول الله ﷺ أنّ النّساءَ يحتملنَ الجهادَ، عَهدَ إليك، أمَا علمتِ أنّه نهاك عن الفراطةِ في الدِّين، فإنّ عمودَ الدِّين لا يثبتُ بالنِّساء إنْ مَالَ، ولا يُرأب بهن إنِ انصدع. . . جهاد النّساء غضّ الأطراف، وضمّ الذّيول، وقصر الموادّة.

ما كنتِ قائلة لرسولِ الله ﷺ، لو عارضك ببعض هذه الفلواتِ ناصّة قعوداً[2] مِنْ مَنْهلٍ إلى مَنْهلٍ، وغداً تَرِدينَ على رسول الله ﷺ، وأقسمُ لو قيل لي: يا أمّ سلمة، ادخلي الجنّةِ، لاستحييتُ أنْ ألقى رسولَ الله ﷺ هاتكةً حجاباً ضَرَبَهُ عليَّ، فاجعليه سترك، وقاعة البيت حصنك، فإنّك أنصح ما تكونين لهذه الأمّة، ما قَعَدْتِ عن نصرتهم[3].

ولعلكَ قرأتَ حديث الهجرة الذي مرَّ معنا، ولاحظتَ فصاحة أمّ سلمة رضي الله عنها، ومرّتْ معك جُمَلٌ من روائع قولها، وبدائع لفظها حينما قالت عن النّجاشي: أقمنا عنده بخير دار، مع خير جار.

وقولها: أَمِنّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه.

= الدسيعة: أي كثير العطية. «الوتيرة» الثأر.

(١) أي تتعطفون على اسمه فتحبونه، وفي رواية أنه من أسماء الفراعنة، فَكَرِهَ أن يسمى به.

(٢) «القعود» ـ بالفتح ـ من الإبل يقتعده الراعي في كل حاجة.

و«ناصّة» اسم فاعل من النص، وهو أن تستخرج من الناقة أقصى سيرها.

(٣) انظر الرسالة بطولها في أعلام النساء (٥/٣٢٥) وانظر: بلاغات النساء (ص١١).

ولأمِّ سلمةَ رضي الله عنها كلامٌ يفيضُ فِقْهاً وعلْماً، كأنَّه خرج من نَبْع النّبوّة، اسمع قولها:

مَنْ خرج في طاعة الله فقال: اللهم إنّي لم أخرجْ أشراً ولا بطراً، ولا رياء، ولا سمعة، ولكنّي خرجت ابتغاء مرضاتك واتقاء سخطك، فأسالك بحقّك على جميع خلقك أنْ ترزقني من الخير أكثر مما أرجو، وتصرف عني من الشّر أكثر مما أخاف، استجيبتْ له بإذن الله[1].

ولما توفيت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حضرت أمّ سلمة وفاتها، وجعلت تقولُ: رحمك الله وغفر لك، وعرّفنيك في الجنة[2].

والأمثلة كثيرة على فصاحة أمّنا أمّ سلمة، وقد مرَّ بنا بعضها خلال غضون سيرتها المعطاء.

رَاويَةُ الحَدِيثِ:

أمُّ سلمة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها، إحدى النِّساء اللاتي أكثرن الرِّواية عن رسولِ الله ﷺ، ولم يتقدمها في الرّواية من نساء النّبيّ ﷺ سوى أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وأمُّ سلمة رضي الله عنها، قد وعتِ الحديثَ الشَّريف، وتفقّهت بأمورِ الدِّين والشَّريعة الغرّاء، حتى كانت تُعَدُّ من فقهاء الصَّحابيات[3]، وممن يُرجعُ إليها في بعض الأمور والأحكام والفتاوى[4]، وخصوصاً فيما يخصُّ فقْه المرأة

---

(١) العِقْد الفريد (٣/٢٢٤).

(٢) أنساب الأشراف (١/٤٢٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/٢٠٣).

(٤) سأوردُ لك عزيزي القارىء نموذجاً عن فتاوى أمّنا أمّ سلمةَ رضي الله عنها كيما تتضح الصّورة.. سُئلت أمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها: ما يُحرِّمُ من الرَّضاع؟ فقالت: ما كان في الثّدي قبل الفطام، وقد اعتمدتْ على الحديث الشّريف الذي روته عن النبيﷺ «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتقَ الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام» رواه

المسلمة وفيها يتعلّق ببعضِ أحكام الرّضاع، أو الطّلاق، أو ما شابه ذلك، وقد ورد أنَّ سيدنا عبد الله بن عبّاس كان يرسل فيسألها عن بعض الأحكام[1].

وتعتبرُ أمُّ سلمة رضي الله عنها واحدة ممن يُرجع إليها بالفتيا في عهد الصَّحابة، وهي منَ المتوسطين فيما روي عنهم من الفتيا، وهم ثلاثة عشر فقط، هي أولهم وهم:
أمُّ سلمة أمُّ المؤمنين، أنسُ بن مالك، أبو سعيد الخدريّ، أبو هريرة، عثمانُ بنُ عفان، عبد الله بنُ عمرو العاص ، عبد الله بن الزّبير، أبو موسى الأشعريّ، سعدُ بن أبي وقاص، سلمانُ الفارسي، جابرُ بنُ عبد الله، معاذُ بن جبل، وأبو بكر الصِّديق[2].

قال ابنُ حَزْمٍ : ويُضاف إليهم؛ طلحة بن عبيد الله، الزّبير بن العوام، عبد الرحمن بن عوف، عمران بن الحصين، أبو بكرة، عبادة ابن الصَّامت، ومعاوية بن أبي سفيان[3].

وأمّا الثَّروة الحديثيّة التي أُثرتْ عن أُمّ المؤمنين أمّ سلمة فتبلغ ثلاثمئة وثمانية وسبعين حديثاً، حفظتها عن رسول الله ﷺ.

وقد أخرج لها منها في الصحيحين (٢٩ حديثاً) والمتّفق عليه (١٣ حديثاً)

= الترمذي برقم (١١٥٢) وعلى ضوء هذا الحديث النّبوي الشريف أفتت أمّ سلمة بموجبه.
وكانت أمّ سلمة رضي الله عنها كثيراً ما يحتكم إليها الصّحابة الكرام في أمور الدِّين فتحكم بينهم.

وقد ثبت أنَّ أبا هريرة وابن عبّاس احتكما إليها في مسألة عدّة المرأة.

وقد صحَّ عن أمّ سلمة رضي الله عنها أنَّ المعتدة لا تلبس من الثّياب المصبغة شيئاًولا تكتحل، ولا تلبس حُلياً، ولا تختضب، ولا تتطيب.
ورأيها هذا يتوافق مع رأي كبار الصحابة كابن عبّاس وعائشة وابن عمر رضي الله عنهم.

(١) انظر زاد المعاد (٢/٧٨).
(٢) الإحكام في أصول الأحكام (٢/٨٩).
(٣) الأحكام في أصول الأحكام (٢/٨٩).

انفرد البخاريّ بثلاثة أحاديث، ومسلم بثلاثة عشر[1].

وأحاديثها منثورة أيضاً عند أصحاب السُّنَن الأربعة وفي المسانيد.

هذا وقد روت أمّ سلمة عن النّبيّ ﷺ، وعن أبي سلمة، وعن فاطمة الزّهراء[2] رضي الله عنهم جميعاً.

أمّا الذين رووا عن أمِّ المؤمنين أمّ سلمةَ فكُثُر؛ فممن روى عنها من رجال الصّحابة: عبدَ الله بن عبّاس، وأبو سعيد الخدريّ، وابنها عمر رضي الله عنهم.

وأمّا مَنْ روى عنها من نساء الصّحابة؛ فعائشة أمّ المؤمنين، وابنتها زينب رضي الله عنهما.

وروى عنها عدد غفير من كبار التّابعين مِنَ الرِّجال منهم: سعيدُ بن المسيّب، والشّعبي، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وسليمان بن يسار، وعروة بن الزّبير، وآخرون.

وأمّا مَنْ روى عنها من نساء عصر الصّحابةوالتّابعين، فكثيرات أيضاً منهن: خيرة أمّ الحسن البصري[2]، وهند بنت الحارث الفِراسية، وصفية بنت شيبة، وصفية بنت محصن وغيرهن[3].

ومن مرويات أمّ سلمة رضي الله عنها ما ورد في الصّحيح عن هند بنت الحارث الفِراسيّة؛ عن أمّ سلمة زوج النّبيّ ﷺ ـ وكانت من صواحباتها ـ قالت: كان يُسلِّم فينصرف النِّساء فيدخلن بيوتهن من قبل أنْ ينصرفَ رسول الله ﷺ[4].

وممّا رواه الشّيخان عن أمّ سلمة قالت:

قلتُ يا رسول الله، هل لي أَجْر في بني أبي سلمة أنفق عليهم ولست بتاركتهم

---

(١) المجتبى من المجتنى لابن الجوزي (ص٩٣).

(٢) تهذيب التهذيب (٤٥٦/١٢).

(٣) اقرأ سيرة خيرة أمّ الحسن البصري في كتابنا «نساء من عصر التّابعين» (١٥٩/١ ـ ١٦٧) ودورها في عصر التابعين.

(٤) فتح الباري (٣٨٩/٢) حديث رقم (٨٥٠).

هكذا وهكذا، إنّما هم بنيّ؟

قالﷺ: «نعم لكِ أجر ما أنفقت عليهم»[1].

ومن مرويات أمّنا أمّ سلمة ما أخرجه لها أصحاب الصّحيح والسُّنن والمسانيد وغيرهم، بسندٍ إلى زينبَ بنتِ أبي سلمة، عن أمّ سلمةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول اللهﷺ يقول: «إنّما أنا بشرٌ، وأنتم تختصمون إليَّ، ولعلَّ أحدكم أنْ يكونَ أَلْحنَ بحجته من بعض، فأقضي نحو ماأسمع منه، فمن قضيتُ له بشيءٍ من حقّ أخيه منه شيئاً، فإنّما أقطعُ له قطعةً من النّار»[2].

---

(١) البخاري برقم (١٤٦٧ و٥٣٦٩) ومسلم برقم (١٠٠١) وأحمد (٦/٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاريّ في مواضعَ من صحيحه، في الحِيَل برقم (٦٩٦٧) والمظالم برقم (٢٤٥٨) والأحكام برقم (٧١٨١ و٧١٨٥) وانظر فتح الباري (١٣/١٦٨) حديث رقم (٧١٦٩). وأخرجه مسلم في الأقضية برقم (١٧١٣) والتّرمذي في الأحكام (١٣٣٩) وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٧) والنّسائي في القضاء (٨/٢٣٣) وأبو داود في الأقضية (٣٥٨٣) وأحمد (٦/٣٠٧) ومالك في الموطأ في الأقضية، والشّافعي في الأم (٦/١٩٩) وأبو يعلى (١٢/٣٠٥) برقم (٦٨٨٠ و٦٨٨١ و٦٨٩٧ و٦٩٩٤) وغيرهم.

وفي شرح قولهﷺ: «إنّما أنا بشرٌ» يقول الإمام النّوويُّ ـ رحمه الله ـ: معناه: التّنبيه على حالة البشرية، وأنَّ البشر لا يعلمون من الغيب، وبواطن الأمور شيئاً، إلا أنْ يطلعهم الله تعالى على شيء من ذلك، وأنّه يجوزُ عليه في أمور الأحكام ما يجوز عليهم، وأنّه إنّما يحكم بين النّاس بالظّاهر والله يتولى السّرائر، ولو شاء الله لأطلعه على باطنِ الخصمين، فحكم بيقين نفسه من غير حاجة إلى شهادة أو يمين. لكنه لما أمَرَ الله تعالى أمّته باتباعه والاقتداء بأقواله، وأفعاله، وأحكامه، أجرى له حكمهم في عدم الإطلاع على باطن الأمر ليكون حكم الأمّة في ذلك حكمه، فأجرى الله تعالى أحكامه على الظاهر الذي يستوي فيه هو وغيره، ليصحَّ الاقتداء به، وتطيب نفوس العباد للانقياد للأحكام الظاهرة من غير نظر إلى باطن.

وعلّقَ الحافظُ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح بما فتح الله عليه من الفتوحات الرّبانية فقال: وفي هذا الحديث من الفوائد:

إثم مَن خاصم في باطل حتى استحقّ به ـ في الظاهر ـ شيئاً هو في الباطن حرام عليه.

وقد نقلت لنا أمّ سلمة رضي الله عنها صورة عن دعاء رسول الله ﷺ، فيما أخرجه الحافظ أبو يعلى ـ رحمه الله ـ بسندهِ عن شهر بن حوشب قال:

سألتُ أمَّ سلمة، قلتُ: يا أمّ المؤمنين، ما أكثر دعاء رسول الله ﷺ، إذا كان عندك؟

قالت: كان أكثر دعائه: «يا مقلّب القلوب ثبِّتْ قلبي على دينك».

قالت: فقلتُ له: يا رسول الله، ما أكثر دعاءك «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دِينك!».

قال: «يا أمّ سلمة، إنَّه ليس منْ آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، ما شاء الله أقام وما شاء أزاغ»[1].

ونقلت كذلك إلينا أم سلمة دعاء الحبيب المصطفى ﷺ في السَّفرِ، قالت: كان النَّبيَّ ﷺ إذا خرج في سَفَرٍ يقول:

= وفيه أنّ مَنْ ادعى مالاً ـ ولم يكن له بينة ـ فحلف المدعي عليه وحكم الحاكم ببراءة الحالف أنّه لا يبرأُ في الباطن، وأنَّ المدعي لو أقام بيّنة بعد ذلك تنافي دعواه سمعت وبطل الحكم.

وفيه أنّ مَن احتال لأمْرٍ باطل بوجه من وجوه الحيل حتى يصير حقاً في الظاهر ويحكم له به لا يحل له تناوله في الباطن، ولا يرتفع عنه الإثم بالحكم.

وفيه أنّ المجتهد قد يخطىء.

وفيه أنّه ﷺ كان يقضي بالاجتهاد فيما لم ينزل عليه فيه شيء ـ وخالف في ذلك قوم ـ وهذا الحديث من أصرح ما يحتج به عليهم.

وفيه أنّه ربّما أدّاه اجتهاده إلى أمْر فيحكم به، ويكون في الباطن بخلاف ذلك، ولكن مثل ذلك لو وقع لم يقرّ ﷺ لثبوت عصمته.

وفيه موعظة الإمام الخصوم ليعتمدوا الحق والعمل بالنظر الراجح وبناء الحكم عليه؛ والله أعلم.

(١) مسند أبي يعلى (١٢/٤١٩ و٤٢٠) حديث رقم (٦٩٨٦) وانظر التّرمذي برقم (٣١٥٧) والقعد الفريد (٣/٢٢٢).

«اللهم إنّي أعوذُ بك أنْ أذلّ، أو أضلّ، أو أظْلِم، أو أظْلَم، أو أجهل، أو يُجْهل عليّ»[1].

ومن مروياتها في آل البيت النّبويّ، ما رواه الإمام أحمد من حديث أمّ سلمة قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أهلّوا يا آل محمّد بعمرةٍ في حجٍّ»[2].

والأحاديث التي روتها أمّ سلمة رضي الله عنها كثيرة منثورة في دواوين الحديث الشّريف، ولا يمكن استقصاؤها في بحثنا هذا، وبحسبنا في المجال ما يدلُّ على فضلها وفضل عائشة رضي الله عنهما، ما ذكره البلاذريّ بسنده عن محمود بن لبيد قال: كان أزواجُ النّبيِّ ﷺ يحفظن منْ حديث النّبيّ ﷺ كثيراً، ولا بمثل عائشة وأم سلمة[3].

وَفَاةُ أمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها:

بلغتْ أمُّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها من الكِبَرِ عتيا، وتجاوزت الثّمانين، وعاشتِ الخلافة الرّاشدة، وامتدت بها الحياة إلى عَهْدِ يزيد بن معاوية.

كانت حياةُ أمّ سلمة مفعمةً بالأحداثِ الكثيرة، ولكنَّ حياةَ العلمِ، وروايةُ الحديثِ هي الغالبة على حياتها، إذ كانت إحدى المراجع الفقهيّة في صدر الإسلام، وكان يُؤخذ برأيها.

هذا وقد كانت أمّ سلمة رضوان الله عليها آخر مَنْ ماتَ مِنْ أمهّات المؤمنين الطّاهرات، وهي إحدى الصّحابيات المعمَّرات اللاتي تخطينَ الثّمانين، وقد تُوفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنها، وعن بنيْهَا، وكان بيتُها أحد مراكز الإشعاع العلمّي والفقهي للصّحابة والتّابعين والعُلماء من شتّى الأمصار.

قال ابنُ أبي خيثمة والذّهبيّ ـ رحمها الله ـ : عمّرت أم سلمة رضي الله

---

(١) العقد الفريد (٢/٢٢٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦/٢٩٧ و٢٩٨).

(٣) أنساب الأشراف (١/٤١٥).

عنها حتى بلَغَها مقتل الحُسين الشَّهيد، فوجمتْ لذلك وغشي عليها، وحزنت عليه كثيراً، ثمّ لم تلبثْ بعده إلا يسيراً، وانتقلتْ إلى الله تعالى، وذلك في ولاية يزيد بن معاوية، وكان ذلك سنة إحدى وستين على الصَّحيح، وقد عاشت نحواً من تسعينَ سنة رضي الله عنها[1].

وقيل ماتت وعمرها ٨٤ سنة رضي الله عنها[2].

ولما توفيت أمّ سلمة أوصتْ أَنْ يصلي عليها أبو هريرة رضي الله عنهما، ودخل قبرها ابناها عمر وسلمة وعبد الله بن عبد الله بن أبي أميّة، وعبد الله بن وهب بن زمعة، ودُفنت بالبقيع[3] إلى جانب أمّهات المؤمنين وأهل البيتِ النّبويّ الأطهار.

ومن الجدير بالذكر أنّه أوّل مَنْ ماتَ مِنْ أزواج النّبيِّ ﷺ زينب بنت جحش، توفيت في خلافة عمر رضي الله عنه، وآخر مَنْ مات أمّ سلمة زمن يزيد بن معاوية سنة ثنتين وستين[4].

رضي الله عن أمّ المؤمنين أمّ سلمة، وجعلها في عباده المتقين، مع آل البيتِ المحمّدي الطّاهر.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢٠٢) وأزواج النبي للصالحي (ص١٥٨) والمحبر (ص٩٩) وشذرات الذهب (١/٢٨٠) وتلقيح فهوم الأثر (ص٤٤٥).

(٢) المواهب اللدنية (٢/٨٥) وتلقيح فهوم الأثر (ص٢١) وزاد المعاد (١/١١٤).

(٣) السِّمط الثمين (ص١١٠).

(٤) مجمع الزوائد (٩/٢٤٥ و٢٤٦).

أُمّ المؤمنين

زينب بنت جحش

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

- وردتْ قصّتها في القرآنِ الكريم، وسمّاها الله مؤمنةً بنصِّ القُرآن، وبسببها نزلتْ آيةُ الحجاب.
- كانت من عِلْيَةِ نساء قريش، وكانت ذات يَدٍ طُولى في المعروفِ، تعمل بيدها وتتصدق.
- اختصّها الله بمكرمة فريدة بأنْ زوَّجها رسوله من فوقِ سبع سماوات.
- كانت خاشعةً متضرعةً عابدةً راضية، صوّامة، قوّامة، كثيرة الخير والصَّدقات.
- من راوياتِ الحديث النّبوي، عاشت (٥٣سنة) وتوفيت سنة (٢٠هـ) ودُفنت بالبقيع.

أُمّ المؤمنين

زينب بنت جحش رضي الله عنها

أنْوارُ الهِدَايَةِ

جاءت رسالةُ الإسلام، لتنقِذَ الإنسانيّة مِنْ ضلالها، وتخرجَها من منحدرِها الذي هوتْ إليه، لتقفَ بها في مصابِّ أنوارِ الهداية، وهي تنكسبُ من أشعَّةِ شمس الرِّسالة الخاتمة، منطلقة إلى أرجاءِ الحياةِ، وفي يدها مصباح الكلمة الإلهيّة مُشرقاً، تنادي البشريّة أنِ اعبدوا ربَّكم الله الذي لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم.

ويومَ قام رسولُ الله ﷺ ممتثلاً أَمْرَ ربّه حينما أوحى إليه: ﴿وأنذرْ عشيرتَك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤] أخذَ الحبيبُ المصطفى ﷺ يدعو أقاربه إلى نورِ الهدايةِ الرَّبانية، ويأخذ بأيديهم إلى نورِ الفتوحات الرَّحمانية، فاستجاب ثلّةٌ منَ الأقربين، ممن فَتَحَ الله بصرهم وبصائرهم، وآمنتْ وصدَّقَتْ بما أنزل الله عزَّ وجلَّ على النَّبيِّ ﷺ.

تبرزُ مِنْ بين هؤلاء الأعلامِ الأقربين، امرأةٌ سبَّاقةٌ إلى الخيراتِ، سابقةٌ إلى المبرَّات، لتأخذَ مكانتها في عِقْدِ السَّابقاتِ، وفي العِقْد الفريد الذي يمثِلُ أمّهات المؤمنين الطَّاهرات اللاتي يمثِّلْنَ البيت النَّبويّ الذي أذهب الله عنه الرِّجسَ وطهَّره تطهيراً، وجعله أشرفَ بيوتَ الدُّنيا وأعلاها.

وقبل أنْ نتعرَّفَ ضيفةَ البيتِ النَّبويّ الكريم، لا بدّ وأنْ نعرفَ أنَّها ممن ذَكَرَ القرآن قصّتها، ووردتْ سيرتها في الحديث النَّبويّ الشَّريف، لتزدادَ شَرَفاً

وتشريفاً، كما عُطِّرتْ بقصّتها كُتُب السِّيرة، والطّبقات، والتّأْريخ وغيرها؛ بينما أكثر المفسِّرون والعلماء الثّناء عليها في ثَنايا تفاسيرهم ومصنّفاتهم.

والآن ما رأيكم أنْ نبحر في بحارِ أنوار سيرة هذه الكريمة المعطار؟ إنّها زينب ـ أمّ المؤمنين ـ بنت جحش بن رياب الأسديّة(١)، ابنة عمّة رسولِ الله ﷺ؛ أمُّها: أميمةُ بنتُ عبد المطلب بن هاشم، وهي أختُ حَمْنَة، وأبي أحمد، وعبد الله رضي الله عنهم.

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/١٠١ ـ ١١٥) والمسندُ (٦/٣٢٤) والمعارفُ (ص٢١٥ و٤٥٧ و٥٥٥) والمستدرك (٤/٢٣ ـ ٢٥) والمعرفة والتّاريخ (٢/٧٢٢) و(٣/٢٣٣) وأُسْدُ الغابة (٦/١٢٥ ـ ١٢٧) ترجمة رقم (٦٩٤٧) والاستيعاب (٤/٣٠٦ ـ ٣١٠) والإصابة (٤/٣٠٧ ـ ٣٠٨) والعبر (١/٥ و٢٤) ومجمع الزّوائد (٩/٢٤٦ ـ ٢٤٨) وتهذيب التّهذيب (١٢/٤٢٠ و٤٢١) وشذرات الذّهب (١/١٧١ و١٧٢) وكنز العمّال (١٣/٧٠٠) والمجتبى (ص٩٤) وصفة الصّفوة (٢/٤٦ ـ ٤٩) وتلقيحُ فهوم الأثر (ص٢٢) وسير أعلام النّبلاء (٢/٢١١ ـ ٢١٨) ونساء مبشّرات بالجنة (١/٢٤٣ ـ ٢٧٦) وتفسير القُرطبي (١٤/١٨٧) وعيونُ الأثر (٢/٣٨٢ و٣٨٣) والسِّيرةُ الحلبيّة (٣/٤١١ ـ ٤١٣) والمحبّر (ص٨٥ و٨٨) وزاد المعاد (١/١٠٨ و١١٤) وحلية الأولياء (٢/٥١) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/٣٤٤ ـ ٣٤٦) والبداية والنّهاية (٧/١٠٤) ودرّ السّحابة (ص٣٢٦، ٣٢٧) وفتوح البلدان (ص٥٥٥) وتاريخ الطّبري (٢/٨٩ و١١٣ و٢١٣ و٢٢٦ و٥١٧) والكامل لابن الأثير (٢/١٧٧٧ و١٩٧ و٣٠٩ و٣١٧ و٥٦٩) والشّفا (١/٥٦٦) و(٢/٤٢٦) والفصول (ص١٨٣ و٢٣٤ و٢٤٦) وجوامع السّيرة النّبويّة (ص٣٢) وتاريخ الإسلام للذهبيّ (عهد الخلفاء الرّاشدين ص٢١١ ـ ٢١٤) وتقريب التّهذيب (٢/٦٠٠) والتّاج الجامع للأصول (٣/٣٨٤) والسِّير والمغازي (ص٢٦٢) ونهاية الأرب للنويريّ (١٨/١٨٠ و١٨١) وأعلام النّساء لكحالة (٢/٥٩ ـ ٦٣) وأنساب الأشراف للبلاذري (انظر الفهارس ص٦٤٣) ومختصر تاريخ دمشق (٢/٢٧٢ و٢٨١) ونور الأبصار (ص٤٧) وجلاءُ الأفهام (ص١٩٧ و١٩٨) ومفحماتُ الأقران (ص١٦٦ و١٦٧ و١٦٨) وغرر التّبيان (ص٤٢٠ و٤٤١و٤٢٢ و٤٢٤ و٥١٢) ودلائل النّبوة للبيهقي (٣/٤٦٥ ـ ٤٦٧) و(٧/٢٨٥) وغير ذلك من كتب الحديث والتّفسير والسِّيرة والطّبقات وكتب الأدب والتّراث.

قال الإمام البيهقيُّ في دلائله: زينبُ بنت جحش بن رياب الأسديّة تكنى أمّ الحكم[1].

السَّيِّدَةُ الشَّرِيْفَةُ وشَرَفُ السِّيَادَة:

كان مولدُ زينب بنت جحش في مكةَ المكرمةِ، ويبدو أنَّها وُلدت قبل الهجرة بأكثر من ثلاثين سنة.

ترعرعت زينبُ بين شرفِ السِّيَادة، وسيادة الشَّرف، وأنعم الله عليها بالجمالِ، والحسبِ الرَّفيع، والنَّسب الأصيلِ، فكانت من عِلْيَةِ نساء قريش، ومن فضْلَيَات النِّساء في مكةَ ومَنْ حولها.

فمِن أخوالها: الحمزةُ، والعبَّاسُ، وما أدراك ما الحمزة والعبّاس رضي الله عنهما.

فالحمزةُ: أَسَدُ الله، وأَسَدُ الرّحمن، وأسد النّبيﷺ والعبّاس: مَنْ يمنعُ الجار، ويبذلُ المال، ويُعطي في النّوائب.

ومن خالاتها: صفيّة بنت عبد المطلب الهاشميّة[2]، شقيقة حمزة، وأمّ حواري النبيﷺ الزّبير بن العوام الأسديّ من المهاجرات الأُوَل، وإحدى فضليات نساء الإسلام.

وأخوالها: عبد الله بن جحش الأسَديّ، وأبو أحمد بن جحش. فأمّا عبدُ الله، فأحد فرسان مدرسة النّبوّة الأطهار، وأحد الشّهداء الأبرار الأخيار[3]. وأمّا أبو أحمد، واسمه عَبْد بن جحش الأعمى، فهو أحد السّابقين الأوّلين من المؤمنين، ومن المهاجرين إلى المدينة المنوّرة، ومن شُعراء الإسلام المجيدين، وممن

---

(١) دلائل النّبوة للبيهقيّ (٣/٤٦٥) وانظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٤٤).

(٢) اقرأ سيرة الصّحابية الجليلة صفية بنت عبد المطلب في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (٢/٢٤٧ ـ ٢٥٨) فسيرتها صفاء للنفوس وجلاء للأفهام رضي الله عنها وأرضاها.

(٣) اقرأ سيرة الصّحابي الجليل عبد الله بن جحش في كتابنا «رجال مبشّرون بالجنة» (١/٣٣ ـ ٦٠) ففي سيرته رموز للعطاء والفداء والكرم رضي الله عنه.

شهد بدراً والمشاهد كلها، مع الرَّسول الكريمﷺ[1].

وأختُها: حمنة بنت جحش من طليعةِ السَّابقات المبكّرات، في الانضمام إلى ثلّة الأوّلين السَّابقين الذين امتدحهم الله بقوله: ﴿والسَّابقون السَّابقون. أولئك المقرّبون. في جنَّات النّعيم. ثلّةٌ من الأوّلين﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٤].

ويتوِّجُ هذه السِّيادة ويشرِّفها ويضمخها بأطيب الطِّيب، قرابتها من رسول اللهﷺ، فهو ابن خالها محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب، وجدّهما واحد هو: عبد المطلب سيّد قريش في زمانه. إذن، فزينب من أوْسَط العرب داراً ونسباً وحسباً وكرماً.

وتدلُّ الأخبار التي وصلتنا عن زينبَ بنتِ جحش أنَّها قد تأثرت في الاعتزازِ والتَّمسُّكِ بنسبها وشرف أسرتها، وجعلها تشعرُ بشيءٍ من الفخر، حتى لقد صرّحتْ بهذا مرَّةً عندما قالت: أنا سيّدة أبناء عبد شمس[2]، ولكنّا سنلحظ وسنُلاحظ كيف تلاشى فخرها، عندما أضحت سيّدة نساء عبد شمس أمّاً للمؤمنين الموحِّدين باقترانها مِنْ رسول اللهﷺ، ودخولها رحاب البيت النّبويّ الكريم، ذلك البيت الذي فجّر فيها مَكامِنَ الفضْل تفجيراً، فأثْرتِ الدُّنيا بفضلها وجودها ومكارم أخلاقها رضي الله عنها.

المُهَاجِرَةُ المُؤْمِنَةُ إلى الله:

منذ أنْ أعلنَ النّبيّﷺ دعوته، وأَنْذَرَ أقرباءه، كانت زينب رضي الله عنها من اللاتي لامستْ دعوة الإيمان أنفسهن، فاستضاءت بنورِها، ونعمت بنعيمها، وعاشتْ في أفياء الإيمان سعيدة النَّفس، رضية القلب. بينما جُرِم مشركو مكة الخير كلّه، مذ جحدوا الرِّسالة المحمديّة، وقعدوا بكلِّ صراط يوعدون، ويصدّون عن سبيلِ الله مَنْ آمنَ به، يبغونها عوجاً.

أخذ فجّار الكفّار، يصبّون ألوانَ العذابِ على مَنْ آمنَ رجلاً كان أو امرأة،

---

(١) انظر ترجمته في الاستيعاب (١٢/٤ و١٣) والإصابة (٣/٤ و٤).
(٢) السّمْطُ الثّمين (ص١٢٩).

وأرهقوا المسلمين إرهاقاً شديداً حتى شغلوهم بأنفسهم، فناموا نومةَ المجرمِ الذي اغترفَ الإثم، ولكنّه أَمِنَ القصاص، وظنَّ أن لا تناله يَدَ العدالة.

وصَبَرَ المسلمونَ جميعاً صَبْرَ الكرام، وتحمّلوا إجرامَ المجرمين، وسقطتْ سُميّة بنت خُبَّاط ـ أمّ عمّار بن ياسر ـ شهيدة بيد فاجر المجرمين، وفرعون الأمّة عمرو بن هشام أبي جهل، وأُوذي غيرها من النساء والرِّجال في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ.

هذا وقد تحمّلت زينبُ بنت جحش، ونساءُ قومها نصيباً من أذى قريش، حتى هاجرَ بعضهم إلى الحبشةِ، ثم عادوا إلى مكةَ، إلى أنْ جاء الإذنُ بالهجرةِ إلى المدينةِ؛ وعندئذٍ هرعوا وارتحلوا إلى المدينةِ ترفعُ رؤوسهم الثِّقة بالله عزَّ وجلَّ، ويحدوهم نُور اليقين.

هكذا جعلَ المسلمونَ يهجرونَ مَكَّةَ أم القرى، حتى خلتْ منهم ديارها، وحتى هجرت دُور بأسرها، وغُلّقتْ أبوابها، وغدتْ تصفرُ فيها الرِّياح، وكانَ مِنْ هذه الدُّور دار بني جحش، ودار بني مظعون، ودار بني البُكير، هجرها سكانها رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً.

كان عددُ النِّساء اللاتي هاجرن من بني جحش وبني مظعون وبني البكير عدداً كبيراً، وقد أوردَ ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ أسماء طائفة منهن فقال: ومنْ نسائهم: زينب بنت جحش، وأمّ حبيب بنت جحش، وأمّ قيس بنت مِحْصَن[1] وجذامة بنتُ جندل، وأمُّ حبيب بنت ثمامة، وآمنةُ بنتُ رُقيش، وسخبرة بنتُ تميم، وحمنةُ بنتُ جحش[2].

وكان من المهاجرين أبو أحمد بن جحش الذي رسَمَ الهجرة، بأشعارٍ جميلة،

---

(١) اقرأ سيرة الصحابية الجليلة أم قيس بنت محصن في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (١/ ١٣٩ ـ ١٤٧) ففي سيرتها أسوة حسنة للنساء في مجالات الخير والفضائل والعطاء رضي الله عنها.

(٢) السِّيرة النّبويّة (٢/ ١١٣) تحقيق: د. عمر تدمري.

مِنْ ذلك قوله يذكر هجرة قومه إلى الله ورسوله:

ولو حَلَفَتْ بين الصَّفا أمُّ أحمدٍ ومـروتهـا بـالله بـرّتْ يمينُهـا
إلى الله تغدو بين مثنى وواحـد ودِيْنُ رسـولِ الله بـالحقِّ دينهـا

ويقولُ في قصيدة أخرى يصفُ هجرتهم الجماعية، نقتطف منها بعض الأبيات المعبرة:

لَّمـا رأتْـني أمّ أحمـدَ غـاديـاً بِـذمّـةِ مَنْ أَخْشَى بغيبٍ وأَرهبُ
تَقـولُ فإمّـا كُنتَ لا بُدَّ فـاعلاً فيمِّمْ بنـا البُلدان وَلْتَنْـأَ يثـربُ
فقلتُ لها بل يثرب اليوم وجهُنا ومـا يشأِ الـرّحمنُ فالعبـدُ يركبُ
إلى الله وجهي والرَّسُول ومَنْ يقمْ إلى الله يـومـاً وجهـه لا يخيّبُ
دعـوتُ بني غَنْم لحقْنِ دمـائهم وللحقّ لما لاحَ للنَّاس مَلْحَب[1]
أجـابوا بمحمـدِ الله لمـا دعـاهم إلى الحقِّ داعٍ والنَّجاح فأوعبـوا
وَرِعْنَـا إلى قـولِ النَّبيّ محمّـد فـطاب ولاةُ الحقِّ منّا وطيَّبوا[2]
نمتُّ بـأرحـامٍ إليهم قـريبـة ولا قرب بالأرحامِ إذ لا نُقرِّبُ
ستعلمُ يـومـاً أيّنـا إذ تـزايلوا وزيّل أمْر النَّاسِ للحقِّ أصوبُ

في المَدِيْنَةِ في رِحَابِ الأَنْصَارِ:

في المدينةِ المنوَّرةِ وَجَدَ المهاجرون إخوانَهم الأنصار وهم يؤثرونَهم على أنفسهم فطابتْ نفوسُهم، حيثُ أكرمهم الأنصار، وآووهم وآسوْهم، وقاسموهم أموالَهم وديارهم، وأنزلوهم من نفوسهم منزلةَ الأهلِ والعشيرة.

إنَّ هذهِ الهجرة الجماعيّة، أثارتِ المشركينَ، ولكنَّ ملأ الفجّار لم يعترفوا بأنّهم السَّبب في ذلك، فهم يجرمون، ويرمون الوِزْرَ على أكتاف غيرهم، ويقهرون المستضعفين، ومع ذلك يتّهِمُون الحبيب المصطفىﷺ، بأنَّه سبب الشّتات والشّقاق.

---

(١) مَلْحب: الطّريق الواضح.
(٢) رعنا: رجعنا.

روى ابنُ إسحاق - رحمه الله - أنَّ عتبةَ بنَ ربيعةَ، والعبَّاسَ بنَ عبدِ المطلب، وأبا جهل بن هشام، مرّوا وهم مصعدونَ إلى أعلى مكةَ، فنظرَ إليها عتبة بنُ ربيعة تخفقُ أبوابها يباباً[1]، ليس فيها ساكن، فلمّا رآها كذلك تنفَّس الصُّعَداء، ثم قال:

وكلّ دارٍ وإنْ طالت سلامتُها يوماً ستدركها النّكباء والحوب[2]

ثم قال: أصبحتْ دارُ بني جحش خلاء من أهلها. . . فقال أبو جهل وهو يشير إلى العبّاس: هذا عملُ ابن أخي هذا، فَرَّقَ جماعتَنا، وشتَّتَ أمرنَا، وقَطَعَ بيننا.

إنَّ أبا جهل بهذا الكلام تبرزُ فيه طبيعته العدوانية، وتبرز نفسه الحاقدة، على رسول اللهﷺ، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ متمُّ نوره ولو كره المشركون.

وفي المدينة المنوّرة أخذت زينبُ بنت جحش مكانتها بين المؤمنات، وفي سجلِّ الأوائل كانت زينبُ رضي الله عنها من المهاجرات الأُوَل[3].

هذه الأوليّةُ المباركةُ في الهجرة جعلتْ لها ذكراً حَسَناً في نسَاءِ الأنبياء، ونساءِ الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم.

نَفَحَاتٌ إيْمَانيّةٌ زَيْنَبِيّةٌ:

حينما تملَّكَ الإيمانُ قُلوبَ المؤمنينَ، ومنهم زينبُ بنت جحش، راحتْ قلوبُهم التي استودعت بذور الإيمان تنبتُ بالخيراتِ، كما ينزلُ الوابلُ الصَّيِّب على التُّربة البِكْرِ الخصبة، ﴿فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزّتْ ورَبَتْ وأنبتتْ منْ كلِّ زوجٍ بهيجٍ﴾ [الحج: ٥]. .

---

(١) اليباب: الفقر، والقفر والخراب، قال أحمد شوقي من قصيدة:

أيّها العمّال أفنوا العُمْرَ كَدّاً واكتسابا
واعمروا الأرضَ فلولا سعيكم أمستْ يبابا

(٢) الحوب: التوجع.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/٢١).

فالإيمان بالله عزَّ وجلَّ قوةٌ ساحرة، إذا استمكنتْ شعاب القَلْب، وتغلغَلَتْ في أعماقِهِ، تكاد تجعل المستحيل ممكناً.

وزينب ابنة جحش رضي الله تعالى عنها، واحدة من علية النِّساء، ممن لامستْ قلوبهن نفحات الإيمان، فجعلت منهن فرائد ودرر لا تتكرر في الدُّنيا، وقد صَقَلَ رحيق الإيمان ورذاذ الإخلاص نفس زينب بنت جحش، فجعلها ذلك من سادة نساء الدُّنيا في الدِّيْنِ، والوَرَعِ، والجود، والمعروف؛ وناهيك بالورع عند المرأة لتكون من الفُضْلَيات!.

وقد رشّحتها هذه الصِّفَات الكريمة، لتُنْظَمَ في سِلْكِ الدُّرر، وتغدو واحدة من أمّهات المؤمنين، وإحدى نساء أهل البيت التَّقي النَّقي الذي أذهبَ الله عنه الرِّجس وطهره تطهيراً، بل جعلها واختصَّها بمكرمةٍ متفرِّدة بها، حيث أنكحها رسوله في السماء، فهل بعد ذلك من مفخر؟!

إنَّ الإيمان الذي أضاء نفس زينب، رفعها مكاناً علياً في مقام الصلاح، وفي محراب العبادة، فكانت صوامة تقوم الليل، تناجي ربها تبكي خوفاً وطمعاً؛ ولم تتوقفْ عندَ هذا الحد فحسبْ، وإنَّما كانت بارَّة بمَنْ حولها منَ النَّاس، ومنَ الذين يطلبون المعروف عند أهله، فكانت زينب رضي الله عنها، كهفاً وملاذاً للمحتاجين، تفيضُ عليهم من جُودها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، حتى غدتْ مَثَلاً في الكرم الزَّينبي المرفود بالكرمِ النَّبويّ.

زَيْنَبُ في القُرْآنِ:

في الكتابِ العزيزِ الذي لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بين يديه ولا مِنْ خَلْفِه، شهد الله عزَّ وجلَّ لزينبَ بنتِ جحش بالإيمان، ودعاها «مؤمنة» بقوله: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمْراً أنْ يكونَ لهمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرهم ومَن يَعْصِ الله ورسوله فقد ضَلَّ ضَّلالاً مُبيناً**﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فالمؤمنةُ هنا زينب بنت جحش رضي الله عنها، المرأة الحسيبة الشَّريفة التي اختيرت من بين نساء الصَّحابة، كيما تكون المثل العملي لتحطيمِ الموروثاتِ

الجاهلية التي صحَّحَ الإسلام الحنيف مفاهيمها.

ولكنْ، ما شعورُ زينبُ؟ وما الإحساس الذي ساورها يوم أنْ عرضَ عليها رسول اللهﷺ الزَّواج من حِبِّه ومولاه زيد بن حارثة؟

هلمّوا، فلنقفْ وِقْفَة إكبار أمام هذه المؤمنة التي استكانتْ لأمْرِ الله وقضائه وقَدَرِه، وغذاؤها بذلك رحيق الإيمان الذي قامتْ عليه نفسها، فأضحت لا ترى إلا مِنْ خلاله، وتزنُ أمورها بميزان التّقوى، ذلك الميزان الذي لا يخسرُ معه أحد.

تقول المصادر الوثيقة المتعدّدة: إنَّ سيّدنا وحبيبنا محمّداًﷺ، قد خَطَبَ زينب بنت جحش ابنة عمته، على زيد بنِ حارثة مولاه، وسمعت زينب حديث الخطبة هذه لزيدٍ مولى رسولُ اللهﷺ، فدُهِشَتْ ولم تتوقعْ ذلك أبداً؛ وأخذتها الأفكارُ المتصارعةُ ذاتَ اليمين وذات الشِّمال، وراحتْ بها إلى الماضي. . . . . ولكنَّ نَسَبَها الرَّفيع هَمَسَ في وجدانها قائلاً: إنَّ زيد بنَ حارثة هذا من الموالي، وهل يكون المولى من الأكْفاءِ لذاتِ الحسبِ والشَّرف والنَّسبِ؟!

وندتْ منها كلمة، فقالت للرسولﷺ: لا أتزوج أبداً، وأنا سيّدة عبد شمس.

وفي رواية ابن سعد ـ رحمه الله ـ قالت: يا رسول الله، لا أرضاه لنفسي، وأنا أَيِّمُ قريش[1].

وشاركها في هذا الرَّأي أخوها عبد الله بن جحش، ورفض أنْ تكون أختَه زينب، وهي قرشيّة حسيبة أصيلة وابنة عمّة النّبيّﷺ، وزينة نساء قريش، رفض أنْ تكونَ تحتَ مولىً من الموالي، اشترته خديجة بنت خويلد، ثم وهبته لرسول اللهﷺ، الذي أعتقه، ومَنَّ عليه بشرفِ الانتسابِ إليه، فكان يُدعى: زيد بن محمّد، إلى أَنْ أَمَرَ الله أَنْ يُدعى كلّ واحد لأبيه.

فكّرَ عبدُ الله بن جحش في هذا كلِّهِ، وفكّرَ بأختِهِ زينب فرأى في ذلك عَاراً

(١) طبقات ابن سعد (١٠١/٨).

كبيراً عليها، فقد كانتِ الأعرافُ عند العربِ لا تسمحُ بهذا أبداً، إذْ لم تكن بناتُ الأشراف الشَّريفاتِ ليتزوّجنَ منَ الموالي، وإنْ أُعتِقوا وأضحوا أحراراً.

لكنَّ الإسلامَ الحنيفَ، أرادَ أَنْ تزولَ مثل هذه الاعتبارات القائمة على سُوقٍ هزيلة في نفوسٍ تَغَلْغَلَتْ فيها العصبيّة وَحْدَها، وأَعْمَتْها مقاليدُ التَّقاليدِ الموروثة عن الآباءِ والأجداد. . .

أراد الإسلامُ أنْ يدركَ النَّاس جميعاً أنَّ لباسَ التّقوى ذلك خيرٌ، وأنْ لا فَضْل لعربي على أعجمي إلا بالتّقوى، فالله عزَّ وجلَّ يقول: **﴿إنَّ أكرمَكم عندَ الله أتقاكم﴾** [الحجرات: ١٣].

أمّا الحبيبُ المصطفىﷺ فقد كان يرى أنَّ زينب ابنة عمّته هي التي تحتمل هذا الخروج عنْ تقاليدِ العرب، والقضاء على عاداتها، وكان رسولُ اللهﷺ يعلم أنَّ تقاليدَ الجاهلية لم تكنْ قدِ انمحتْ مِنْ نفوسِ المسلمين بعد، إذن، فليكن مولاه وحِبّه زيد بن حارثة هو الذي يتزوجها؛ وأحبَّ رسولُ اللهﷺ أنْ تَقْبَلَ زينبُ وأخوها عبد الله أنْ يكونَ زيد بن حارثة زوجاً لها، وقال لها: «بلْ فانكحيه، فإنّي قد رضيته[1] لك».

---

(١) قال ابنُ قيّم الجوزيّة ـ رحمه الله ـ في الزّاد موضّحاً مفهوم مرضاة رسول اللهﷺ: فالذي يقتضيه حكمهﷺ اعتبار الدِّين في الكفاءة أَصْلاً وكمالاً، فلا تتزوج مسلمة بكافر، ولا عفيفة بفاجر، ولم يعبر القرآن والسُّنّة في الكفاءة أمراً وراء ذلك، فإنّه حرّم على المسلمة نكاح الزّاني الخبيث، ولم يعتبر نسباً ولا صناعة، ولا غنىً ولا حرية، فجوّز للعبد القِنّ نكاح الحرّة النّسيبة الغنية إذا كان عفيفاً مسلماً، وجوّزَ لغير القرشيين نكاح القرشيّات، ولغير الهاشميين نكاح الهاشميّات، وللفقراءِ نكاح الموسرات. (زاد المعاد ١٥٩/٥ و١٦٠).

هذا وقد نفّذ الحبيبُ المصطفى سيّدنا رسولُ اللهﷺ هذه القاعدة عملياً، فقال لبني بيّاضة: «أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه» وكان حجّاماً، وزوّج زينب بنت جحش القرشيّة من مولاه زيد بن حارثة، وزوّج فاطمة بنت قيس الفِهريّة القرشيّة من أسامة بن زيد، وتزوّج بلال بن رباح من أخت عبد الرحمن بن عوف القرشية، وقد قال تعالى: **﴿الطَّيبات للطَّيبين والطَّيبون للطَّيّبات﴾** [النور: ٢٦].

وقَبْلَ أنْ تتردَّدَ زينبُ في هذا نزل قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أَمْراً أنْ يكونَ لهم الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهم**﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وهنا لمْ يبقَ أمامَ زينب وأخيها عبد الله، بعد نزول هذه الآية، إلا الامتثال والإذعان لأمْرِ الله وقضائه وإلا: ﴿**ومَنْ يَعْصِ الله ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً**﴾ [الأحزاب: ٣٦] وهنا قالا: رضينا يا رسول الله، وانفردتْ زينب بقولها: قد رضيتُه يا رسول الله منكحاً؛ فأجاب الحبيبُ المصطفىﷺ «قد رضيتُه لكِ» قالت زينبُ رضي الله عنها ورشحات الإيمان والتّسليم تقطرُ من كلامها: إذن لا أعصي رسولَ اللهﷺ، وقد أنكحتُه نفسي.

وساقَ زيدُ بنُ حارثةَ رضي الله عنه إلى بني جحش عشرة دنانير وستين درهماً، ودرعاً، وخماراً، وملحفة وإزراراً، وخمسين مُدّاً من الطَّعَام، وعشرة أمداد من التَّمْرِ، أعطاه ذلك كلّه الحبيب المصطفىﷺ.

وبنى زيدُ بنُ حارثةَ مولى رسول اللهﷺ بزينب بنت جحش سليلة أشرف بيت في قريش، زينب التي كانت تعتزُّ بنسبها، وذلك لتقريرِ حقيقة المساواة بين البشر، وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنْ ليس لحرٍّ على عَبْدٍ مِنْ فَضْل إلا بالتّقوى.

رضيتْ زينبُ بنتُ جحش رضي الله عنها قضاءَ الله عزَّ وجلَّ، وقضاء رسوله الكريم الذي ما ينطقُ عن الهوى إنْ هو إلا وحي يُوحى علّمه شديد القوى؛ رضيتْ وقبلتْ أنْ تتزوَّجَ وهي الشَّريفةُ سليلة المطّلبيين عَبْداً، فقد كانت مؤمنة عميقة الإيمان، شهد الله لها بالإيمان، وهذا أعلى ما تطمحُ وتطمعُ به: مرضاة الله عزَّ وجلَّ، ومرضاة الرّسولﷺ.

لقد استكانتْ زينبُ للأوامرِ الإلهيّة الصّادرة مِنْ لدن حكيم خبير، فغدتْ بطاعتها سيّدة من ساداتِ النِّساء في عَصْرِ النّبوّة، وفي كلِّ العصور رضي الله عنها.

«حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ»

بنى زيدٌ بزينبَ رضي الله عنها، وأكَّدَ الإسلامُ أنَّ النَّاس سواسية كأسنان المشط، يتفاضلون بميزانِ التَّقوى، فالنّاس جميعهم لآدمَ، وآدم مِنْ تراب، ومِنْ أرادَ أنْ يتفاخر، فليتفاخر بالتُّراب.

كان زيدُ بن حارثة رضي الله عنه أَفْطَسَ الأَنْف، ولم يكن جميلَ الصُّورة، فلم ينشرحْ له قلب زينب رضي الله عنها، ولم يُكْتَبْ للبيتِ الجديد الوِفاق، ولم ترفرفْ عليه أجنحةُ السَّعادة، بل وَهَتِ العلاقةُ بين زيد وزينب، فبعد أنْ صارتْ زينبُ إلى زيدٍ، لم يَسْلَسْ له قيادُها، ولم تنسَ إباءها، بل شمختْ عليه وتعالت، وتعمّدت إيلام قلب زيد بالتَّعالي عليه في النَّسبِ والحرية.

آلَمَ زيدٌ هذا النُّفور من زينبَ، ولمّا كان ربيب النّبيّ ﷺ، فقد غُذِّيَ ونَشَأَ على الكرامة، ولذا فإنَّه أبى أَنْ يرتبطَ بهذهِ التي زهدتْ فيه، واشتكى زيدٌ ذلك إلى النَّبيِّ ﷺ المرّة بعد المرّة يقول له: يا رسول الله؛ إنَّ زينبَ تتعظّمُ عَليَّ لشرفها، وإنَّ فيها كِبْراً، وهي تؤذيني بلسانها.

وكان الحبيبُ المصطفى صلوات ربيّ وسلامه عليه في خلقِهِ السَّمح، وسجاياه الطّاهرة المطهّرة، يهدهدُ مِنْ آلام زيد ويقول له: ﴿**أَمْسِكْ عليك زوجك واتقِ الله**﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ويرجعُ زيد إلى زينبَ، وتكون الحالة هيَ هيَ، أو قريبةٌ مِنْ هيَ، فيذهبُ إلى رسولِ الله ﷺ يعرضُ عليه أنْ يطلقَها، ولكنَّ رسولَ الله ﷺ يقول: ﴿**أمسك عليك زوجك**﴾ كان في ذلك حكمة بالغة من الله عزّ وجلّ، الذي أراد أنْ تتلاشى تقاليد الجاهلية، ويسود شرع الإسلام.

لقد حطّمَ زواجُ زيد بن حارثة من زينب بنتِ جحش رضي الله عنها حلقةً متينةً من تقاليدِ الجاهلية: تَرَفُّعُ السَّادة عن الزَّواجِ من العبدِ، وإنْ كانوا أتقياء، وكانوا أكْفَاء.

وكان هناك حلقة أخرى، كُتِبَ على الرَّسولِ الكريم ﷺ أنْ يحطِّمَها، فقد

كان العربُ قبل الإسلام، لا يتزوّجون أزواجَ أدعيائهم إذا قَضَوْا منهنَّ وَطَراً.

كانت زينبُ رضي الله عنها كارهةً للبقاءِ مع زيد، وكان زيدٌ يأتي رسول الله ﷺ يلتمس منه أنْ يوافقَ على طلاقِ زينب، وكانتِ الحكمةُ تقضي أنْ يقبلَ ﷺ ذلك الفِراق، وأنْ يخطبَ ابنة عمّته لنفسهِ، لتتمَّ شريعةُ الإسلام، وتتحطَّم حلقات الجاهلية الواهية، وليعوضها عن تضحيتها الغالية: إطاعة الله ورسوله، ولكنّه ﷺ كان يخشى النَّاس، فقال لزيد: ﴿أَمْسك عليك زوجك﴾.

أصبحتِ الحياةُ بين زينب وزيد لا تُطاق، وكان لا بُدَّ مِنَ الطَّلاق، إلى أنْ أتى أَمْر الله عزَّ وجلّ، وغلب على ذلك كلّه، فسمح لزيد بطلاقها، بعد أنِ استحالَ جوّ البيتِ جحيماً كما قال تعالى: ﴿لكي لا يكون على المؤمنين حَرَجٌ في أزواجِ أدعيائهم إذا قَضَوْا منهنَّ وَطَراً وكان أَمْرُ الله مفعولاً﴾[الحزاب: ٣٧].

هذا وقد نزّلَ الله عزّ وجلّ على الحبيبِ المصطفى محمّد ﷺ في الكتاب العظيم مفخرة المفاخر التي زكّاهُ بها فيما زكّى إخوانَه المرسلين، وهو ﷺ صاحب المقام المحمود في هذه التّزكية المنيفة، فقال له متلطِّفاً به في أشدِّ مضايقِ مواقِفِهِ في رسالته: ﴿ما كان على النّبيّ مِنْ حَرَجٍ فيما فرضَ الله له سُنَّةَ الله في الذين خَلَوا من قبلُ وكان أَمْرُ الله قَدَراً مَقْدوراً. الذين يبلّغونَ رسالاتِ الله ويخشَوْنَه ولا يخشَوْنَ أَحداً إلّا الله وكفى بالله حسيباً﴾[الأحزاب: ٣٨ و٣٩].

تمَّ الأَمْرُ الإلهيُّ المقدر، ونفَّذَ رسولُ الله ﷺ ما أَمَرهُ ربّه في غير حرج، فلمّا انقضتْ عدّة زينب، قال النَّبيُّ ﷺ لزيد: «اذهب فاذكرها عليَّ».

فانطلقَ حتى أتاها وهي تخمر عجينها، أبشري أرسلني رسولُ الله ﷺ يذكرك.

قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربيّ عزّ وجلّ[1]. ثم قامت إلى

---

(١) إنَّ زينبَ رضي الله عنها لما وَكَلَتْ أمرها إلى الله عزَّ وجلَّ، وصحَّ تفويضها إليه، تولّى الله سبحانه إنكاحها، ولذلك قال: ﴿فلمّا قضى زيدٌ منها وَطَراً زوجناكها﴾ [الأحزاب: ٣٧] ولمّا أعلَمَه الله عزَّ وجلَّ بذلك، دخلَ رسول الله ﷺ على زينب بنتِ جحش بغير إذْنٍ،

مسجدها، ونزل القرآن الكريم، وجاء رسولُ الله ﷺ فدخلَ عليها بغيرِ إذن[1].

وبهذا زوّج الله عزَّ وجلَّ هذه المؤمنة بنصِّ كتابه بلا وليّ، ولا شاهد، وكانت زينبُ رضي الله عنها تقول مفتخرةً بذلك على أمّهات المؤمنين: زوّجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سَبْعِ سماوات[2].

= ولا تجديدِ عَقْدٍ ولا تقرير صَدَاق، ولا شيء مما يكون شرطاً في حقوقنا ومشروعاً لنا.

وهذا مِنْ خصوصياته ﷺ، التي لا يشاركه فيها أَحَدٌ بإجماعٍ من المسلمين، ولهذا كانت زينبُ رضي الله عنها تفاخر نساء النّبيّ ﷺ بهذه الخصوصية التي اختصّتْ بها من دونهن، بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد زوجها فنعم المولى ونعم النَّصير.

هذا وقد ظهرت زينب بنتُ جحش هنا على أتقى التّقى، وأفضل الصلة الصّحيحة بالله عزّ وجلّ، فعندما جاء زيدُ يخطبها للنبي ﷺ، فرحت واستبشرتْ وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربيّ، ثم قامت إلى مسجدها، واستخارتِ الله، فأكرمها الله بزواجها من رسوله ﷺ.

(١) للحديث أصلٌ في صحيح الإمام مسلم، في كتاب النّكاح برقم (١٤٢٨) وانظر المصادر التّالية مع الجمع بينها: المسند للإمام أحمد (١٩٥/٣) والنّسائي (٧٩/٦ و٨٠) وطبقات ابن سعد (١٠٣/٨) والاستيعاب (٣٠٧/٤) والتّرمذي في التّفسير برقم (٢٦٦/٤ و٢٦٧). وانظر التّفاسير الآتية للآية (٣٧) من سورة الأحزاب: تفسير الماورديّ، والقرطبيّ، والفخر الرازيّ، وابن كثير، والبحر المحيط، والبغوي، والخازن، والكشّاف، والصّاوي على الجلالين، وانظر كذلك: أسباب النّزول للواحدي ولباب النقول للسيوطي وغيرها كثير من المصادر التي لا تحصى، ولا تحصر هنا.

(٢) قطعةٌ من حديثٍ رواه الإمام البخاريّ عن أنس بنِ مالك رضي الله عنه، في صحيحه، كتاب التّوحيد، حديث رقم (٧٤٢٠).

وقال محمّد بن عبد الله بن جحش ـ ابن أخي زينب ـ: تفاخرت زينبُ وعائشةُ رضي الله عنهما

فقالت زينبُ رضي الله عنها: أنا التي نزل تزويجي مِنَ السَّماء.

وقالت عائشة رضي الله عنها: أنا التي نزل عذري مِنَ السَّماء.

فاعترفتْ زينبُ لها رضي الله عنهما.

ومن الجدير بالذكر، فإنَّ زواجَ النّبيّ ﷺ من زينب لم يكن لقضاء شهوةٍ، بل لبيان

والآن، فلا بدَّ لنا من وقفات شافيةٍ مع هذه القصّة العظيمة، كيما نعرف كيف طهَّر الله عزّ وجلّ، المجتمعَ المسلمَ منْ رجْسِ مفسدةٍ اجتماعية، لا تتحقّقُ إلا بعزيمةِ الرَّسولِ الكريمﷺ.

مَنْهَجٌ قَوِيْمٌ:

شرفتِ السَّيِّدةُ النَّبيلة زينب بنت جحش رضي الله عنها بأشرفِ مقاماتِ القُرْبِ مِنْ رسولِ اللهﷺ، فكانت أُمّاً للمؤمنين بزواجهﷺ مِنَ السَّيِّدة الحسيبة النَّبيلة زينب رضوان الله عليها وَضْعاً للأمورِ في مواضعها.

فقد كان العُرفُ الجاهليُّ، بأباطيله وشرورهِ ومفاسدهِ، يجعلُ من الدَّعيّ ابنا، ويعطيه خصائص البنوّة الحقيقية في أمور تجرُّ على المجتمع، من الشَّرور والأسْوَاءِ والويلات، مالم تؤمنْ مغبّاتُه وعواقبُه، على حياةِ الأمّةِ في حاضرها، وفي مستقبلها.

وقد كان منْ أَظْهر مفاسد هذا العُرف الباطل، التَّعاير بتزويج الرّجل الحسيب النَّسيب زوجة دَعِيَّةُ إذا طلقها الدَّعي[1] باعتقادٍ وَاهٍ، أنَّ الدَّعي هو ابنٌ حقيقيٌّ مِنَ الصُّلْب، فإذا أراد الله عزّ وجلّ أنْ يبطلَ هذا العُرف الفاسدَ المفسد[2]، وهذا الموروث السَّرطاني الذي يُبدّدُ أواصرَ المجتمعِ، لم يكن ثمة مَنْ

= الشّريعة بفعل النبيﷺ، فإنَّ الفعل أَوْكَد، وقد أُرِيْدَ بهذا الزّواج نفي الحرج عن المؤمنين في إجراء أزواج المتبنين مجرى أزواج البنين في تحريمهن عليهم بعد انتهاء رابطة الزّوجية بينهم وبينهن.

(١) الدّعي: هو مَنْ يُدعى لغير أبيه، وجمع دعي: أدعياء.

(٢) كان الله عزّ وجلّ يريد أنْ يَغسلَ ضمائرَ المؤمنينَ ممّا وَقَرَ فيها من عاداتِ الجاهليةِ، وأنْ يُعيدَ للبشرية كرامتها، وأنْ يكافىءَ زينب بنت جحش على طاعتها لأوامرِ الله ورسوله، فجعلها من أمّهات المؤمنين.

هذا وقد جاء الإسلامُ الحنيفُ ليمحوَ آثار شَطَطِ الجاهلية منَ النُّفوس، ثم يساير فطرةَ الله التي فَطَرَ النَّاس عليها، لا تبديلَ لخلقِ الله، وما كان الإسلامُ ليلقي بالاً لمنطق البيئة، إذا ما كان المنطق يتعارضُ مع الفطرة، بل كان يجتثُّ مِنْ نفوسِ المؤمنين كلَّ

يتحمَّل ثقْلَ هذا الإبطال، سوى رسول اللهﷺ، فهو أقوى إرادة، وأمضى عَزْماً، وأعظم نَفْساً، وأطْهَر ذيلاً؛ وهوﷺ الأسوة المتأسّى به في امتثالِ تطبيق الأحكام الشَّرعية، وهو القُدوة التي تجري على سننها أمّته، وهو مهبط الخطاب الإلهيِّ في جميع الأحكامِ الرَّبانيّة.

مِنْ هذا المنطلق، كان الرَّسول الحبيبُﷺ، هو المختار لتصحيح أباطيل الجاهلية، ومفاسدها في واقعِ الحياة فقيل له: ﴿**وإذ تقولُ للذي أَنْعَم الله عليه**﴾[1] بنعمةِ الإيمان والإسلام، وكفالتك إياه، وتحبيبه إليك. ﴿**وأنعمتَ عليه**﴾[2] بالعِتْقِ والحرية والرِّعاية، وإحسان التَّربية والاختصاص بكَ، فكان حِبَّك ومولاك، ولم يكنْ ابناً لكَ وَلَدَتْهُ مِنْ صُلْبِكَ.

ثم إنَّ زيداً وهو يعرضُ عليك ثقل الحياة الزَّوجيةِ في بيته مع زوجه، وما يلقى من مرارةٍ في عشرته معها، ويشاورك مستأذناً في مفارقتها بعدَ يأْسٍ منه في حُسْن الموافقةِ، فتقول له متلطِّفاً: ﴿**أمْسِكْ عليك زوجك واتقِ الله**﴾[3] لأنَّك منبعُ التَّلطُّفِ والإحسان، تأبى عليك نفسك الزّاكية، وتأبى عليك مكارم أخلاقك أنْ تشيرَ على زيدٍ، بفصْمِ عُرى ما عَقَدَ الله بينه وبين زوجه منْ وشائجَ كان من حَقِّها أنْ يظلِّلها الودُّ والسّكونُ، وهما منك في القُربِ الودود، بمكانها الذي لهما

= عُرْفٍ، أو عادة، أو تقليد يحطُّ من شَأْنِ البشرية بأَمْرٍ سماوي، فلم يعدْ لأحدٍ في الإسلام منْ أمْرٍ، بل لله الأَمْرُ جميعاً، له مقاليد السّماوات والأرض، إليه يرجع الأمْرُ كلُّه، وهو بكلِّ شيء عليم.

وكان زواجُ رسول اللهﷺ من زينب بنتِ جحش مطلّقة مولاه زيد بن حارثة، أمْراً خَرَقَ مألوفَ العرب، بل مزَّقَ تقاليدهم، وغيّر وجهةَ أحوالهم، كما غيّر وجهة معتقداتهم الموروثة، فقد ادعوا للدعي ما للابن الحقيقي من الحقوق؛ من إرثٍ ونسبٍ، وقد تسلّطَ ذلك الاعتقاد السَّرطاني على نفوسهم فأفسدها، ورسخ في آذهانهم فأصابها الشّلل، وعسر عليهم أنْ يخلعوا عنهم ربقته، أو أن يزيلوا عن أفكارهم وطأته، وإذ ذاك تقدم رسول اللهﷺ بآية واضحة، وحجة قاطعة، ونزل القرآن الحكيم واضعاً الأمور في مواضعها السّليمة الصّحيحة.

(١ و٢ و٣) سورة الأحزاب الآية (٣٧).

عندك، ولهذا كنتَ تقولُ له بلطفٍ ﴿أَمْسِكْ عليك زوجَك واتق الله﴾[1] [الأحزاب: ٣٧].

إنَّه لم يكنْ هنالك قطّ أمْر مِنَ الله لكَ بتطليقها من زيد، وإنْ تكن قد سبقتْ إليك لوائحُ إشارتنا، إذ قطعنا وشائجَ الجاهلية المزوّرة بين الدَّعي ومُتَبَنّيه بقولنا: ﴿وما جَعَلَ أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم﴾[الأحزاب: ٤].

ولقد أوضحنا الحقَّ الذي جعلناه نهجاً في واقع الحياة بتصحيح وضع هؤلاء الذين شذّتْ بهم الحياة نهجها القويم، رفعاً لخسيسة ألصِقَتْ بهم إلصاقاً، فنَفَتْهُم عن آبائهم ونفت آباءهم عنهم، وباعدت بينهم، ثمّ وصلنا ما قطعه الجهل في الجاهلية بأعرافها الفاسدة المفسدة، وقُلنا لكَ كيما تُعَلِّمَ أمّتك ﴿ادعوهم لآبائهم﴾[2]

---

(١) رُوي عن عليّ بنِ الحسين: أنَّ النّبيَّ ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أنّ زيداً يطلّق زينب، وأنّه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكّى زيد للنّبي ﷺ خُلُقَ زينب وأنّها لا تطيعه، وأعلمه أنّه يريدُ طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية «اتقِ الله في قولك وأمسكْ عليك زوجك» وهو يعلم أنّه سيفارقها ويتزوجها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يردْ أنْ يأمرَه بالطّلاقِ، لما علم أنّه سيتزوجها، وخشيَ رسول الله ﷺ أنْ يلحقَه قولٌ من النّاس في أنْ يتزوّجَ زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أنْ خشي النَّاس في شيء قد أباحه الله له، بأنْ قال: «أمسك» مع علمه بأنّه يطلق، وأعلمه أنَّ الله أحقّ بالخشية، أي في كلّ حال.
(تفسير القرطبي ١٤/١٩٠)

قال القرطبيُّ: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التّحقيق من المفسّرين والعلماء الراسخين، كالزّهري، والقاضي بكر بن العلاء القشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم.
(تفسير القرطبي ١٤/١٩٠ و١٩١).

(٢) قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السُّهيلي ـ رحمه الله ـ كان يُقال: زيد بن محمّد حتى نزل: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ فقال: أنا زيد بن حارثة، وحرم عليه أنْ يقولَ: أنا زيد بن محمّد؛ فلما نُزِعَ عنه هذا الشّرف وهذا الفخر، وعلم الله عزّ وجلّ وحشته من ذلك، شرّفه بخصيصة لم يكنْ يخصُّ بها أحداً من أصحاب النّبيّ ﷺ، وهي أنّه سمّاه في القرآن، فقال تعالى: ﴿فلما قضى زَيْدٌ منها وطراً﴾ يعني من زينب، ومَنْ ذكره الله تعالى باسمه في الذّكرِ

هو أَقْسَط عند الله﴾ [الأحزاب: ٥] لأنَّه الحقُّ، ولأنّه سبيلُ الخير الذي يهدي إليه الله في شريعته المنزلة لإقامةِ مَنار العَدْل: ﴿فإنْ لم تعلموا آباءهم﴾ [الأحزاب: ٥] فلا ضيعة لهم عند الله، ولا ضيعة لهم في مجتمع الإسلام، لأنّهم إخوانكم في الدِّيْنِ الذي جمعت وشيجة الإيمان بين سلائله من جميع الأجناس والأوضاع ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: ١٠] وهم بهذا الإخاء الإيماني مواليكم، وأقرب الموالين لكم، يناصرونكم وتناصروهم على البرِّ والتّقوى، فهم أحقّ بالإكرام والإحسان.

ولكنّك في هذا التّلطف مع حِبَّكَ ومولاكَ، أخفيتَ في نفسك لوامح الإشارة فيما أنزلناه عليك منْ قَطْعِ وشائج الجاهلية الكاذبة التي عقدوها بأهوائهم وشهواتهم بين المتبنّى ومتبنيه، وما يترتّبُ على قَطْعِ تلك الوشائج الجاهلية المخترقة من إصلاح اجتماعي في مجتمع رسالتك، لتكون أنت مصدره ومَنْبَعه، والمُتَأسّى به فيه؛ في التّطبيق الواقعيّ الذي يقوِّم أوَدَ الحياة. وعوج مناهجها.

«وَلَكِنْ رَسُولَ الله»:

في رحلةِ تحطيم التّقاليد الجاهلية، جاء الخطابُ الإلهي صريحاً للنّاس كافة

= الحكيم، حتى صار اسمه قرآناً يُتلى في المحاريب، نوّه به غاية التّنويه، فكان في هذا تأنيس له، وعوض من الفخر، بأبوّةِ محمّدﷺ له.

ألا ترى إلى قول أُبيّ بن كعب رضي الله عنه حين قال له النّبيّﷺ: «إنَّ الله أمرني أنْ أقرأ عليك سورة كذا» فبكى وقال: أوذكرتُ هنالك؟ وكان بكاؤه من الفرحِ، حين أخبر أنَّ الله تعالى ذكَرَه، فكيف بمَنْ صار اسمُه قُرآنا يُتلى مخلداً لا يبيدُ، يتلوه أهل الدّنيا إذا قرؤوا القرآن، وأهل الجنّة كذلك أبداً، لا يزال على ألسنةِ المؤمنين، كما لم يزلْ مذكوراً على الخصوص عند ربّ العالمين، إذ القرآن كلام القديم، وهو باق لا يبيد، فاسم زيد هذا في الصُّحف المكرمة المرفوعة المطهّرة، تذكره في التّلاوة السَّفَرة الكرامُ البررة. وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبي من الأنبياء، ولزيدِ بنِ حارثة تعويضاً من الله تعالى له مما نزع منه، وزاد في الآية أنْ قال: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ أي بالإيمان، فدل على أنّه من أهل الجنّة، علم ذلك قبل أنْ يموت، وهذه فضيلة أخرى.

بأنَّ محمّداً رسول الله، وكلّ ما يتقوّله المتقوِّلونَ والمنافقون والذين في قلوبهم مَرَضٌ[1]، مِنْ أنَّ محمّداًﷺ ينهى عن زوجاتِ الأبناء، ويتزوج هو زوجة ابنه زيد، كلّ هذا ليس له قيمة في ميزان العَدْل الإلهي، بل ليس له مكانة في المجتمع الإسلامي، ولا يؤثِّرُ على سير الرِّسالةِ، وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ما كان محمّد أبا أَحَدٍ مِنْ رجالكم[2] ولكن رسولَ الله وخاتم النّبيين[3] وكان الله بكلّ شيءٍ عليماً﴾ [الأحزاب: ٤٠].

---

(١) يتعمّد المستشرقون، وأعداء الحقيقة في كلّ مكان عند البحث في كلّ ما يختصُّ بالحبيبِ المصطفىﷺ أنْ يتشبثوا ببعض النصوص الواردةِ في بعض كتب التّفسير، أو التّاريخ أو الطّبقات، ومنْ ثمّ يفترضوها صحيحة رغم سقْمِها وبطلانها، ويستغلوها في ترويجِ مفترياتهم على الحبيبِ المصطفىﷺ.

فهؤلاء المغرضون من المستشرقين ونحوهم، لا يكتبون عن سيرةِ رسول اللهﷺ إلا ليتحدثون عمّا زينَ لهم الشّيطان من أساطيرمنها: أسطورة الغرانيق، وزواج رسول اللهﷺ بزينب عن حبٍّ وعشقٍ، وتعدد زوجات النّبيﷺ، وغزوة بني قريظة، وما شابه ذلك.

وما اتفق هؤلاء الخصوم عن سوء نيّة على شيء، كما اتفقوا في موضوع زواج رسول الله من زينب، وقصة زواج النبيﷺ بزينب هي مستندهم الواهي في الطّعن على الرِّسولِﷺ، والاستدلال بذلك على عدم صحة نبوته، وقد استقوا سمومهم هذه من روايات إسرائيلية دسّها مغرضون من قبل، ومنهم يوحنا الدمشقي الذي دسَّ هذه الفرية في العهد الأموي. ولكن الله عز وجل موهن كيد الكافرين، ومتمّ نوره ولو كره المشركون.

(٢) دلتِ الآيةُ الكريمة ﴿ما كان محمّد أبا أَحَدٍ من رجالكم﴾ على أنَّ محمّداًﷺ ليس بأبٍ شرعي لزيدِ بنِ حارثة، وليس زيداً ابناً له، حتى تحرم عليه حليلته، ولكنّه أبو أمّته في التّبجيل والتّعظيم، وأنّ نساءه عليهم حرام. فأذهب الله عزّ وجلّ بهذه الآية ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم، واعتراضهم بقولهم: تزوج النّبيّ امرأة ابنه؛ وأَعْلمَ أنّ محمداً لم يكن أبا أَحَدٍ من الرّجال المعاصرين له في الحقيقة.

ولم يقصد بهذه الآية أنّ النّبيّﷺ لم يكن له وَلَدٌ، فقد وُلِدَ له ذكور وهم: القاسم، وعبد الله، وإبراهيم، ولكنْ لم يعشْ له ابن حتى يصير رجلًا، وماتوا صبياناً صغاراً.

(٣) إنّ محمداً رسول الله وخاتم النّبيين، وقد خُتم به الأنبياء، وقوله عزّ وجل ﴿خاتم النبيين﴾ دليلٌ قاطعٌ على أنّه لا نبيّ ولا رسول بعدهﷺ، وفيه وردتِ الأحاديثُ المتواترة عنهﷺ منها

وأوضحَ الله عزَّ وجلَّ أنَّ الأدعياءَ ليسوا أبناء، فالكلام وإنْ تعارفَ عليه أهلُ الجاهلية لا يغيِّرُ واقعاً، بل لا يخلق علاقةً غير علاقة الدّم، ولذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفوهكم**﴾[الأحزاب: ٤].

هذا وقد أَجْمَع أهلُ التَّفسير على أنَّ قوله تعالى: ﴿**وما جعل أدعياءكم أبناءكم**﴾ أنزل في سيِّدنا زيد بن حارثة وغيره لأن زيداً سبِيَ صغيراً، فابتاعه حكيم بن حزام بن خُويلد رضي الله عنه، فوهبه لعمَّتِهِ أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فوهبته أمّنا خديجة للنّبيّ ﷺ، فأعتقه، ثم تبنّاه، فأقام زيد عند النّبيّ ﷺ مُدّةً، ثمَّ جاء أبوه وعمّه في فدائه، فقال لهما الحبيبُ المصطفى ﷺ «خيّراه فإن اختراكما فهو لكما دونَ فِداء».

فاختار زيدٌ الرِّقَ مع رسولِ الله ﷺ على حريّته، فقال النَّبيُّ ﷺ عند ذلك: «يا معشر قريش اشهدوا أنَّ زيداً ابني أرثه ويرثني». ولما تزوّج النَّبيُّ ﷺ زينب بنت جحش التي كانت امرأة زيد بن حارثة الذي تبنّاه النّبيّ قالوا: تزوّج محمّدٌ امرأةَ ابنهِ، فكذّبهم الله عزَّ وجلَّ في ذلك، وردَّ علاقةَ النَّسبِ إلى أسبابها الأصلية الحقيقيّة، وهي علاقة الدّم، والأبوّة، والبُنُوّة الواقعية، وقال: ﴿**والله يقول الحقّ وهو يهدي السَّبيل**﴾ [الأحزاب: ٤].

وهكذا قُضيَ على تلك العادة الذَّميمة المذمومة التي لا تستندُ إلى حقيقةٍ أو شريعة، وكانت زينبُ بنت جحش رضي الله عنها هي المرأة العظيمة التي أكرمها الله عزّ وجلّ بهذا، وحكى قصَّتها في كتابه العزيز منبِّهاً إلى فَضْلِها، ولذلك كانت تقول: إنَّ الله أنكحني في السَّماء[1].

= ما أخرجه الصّحيحان عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ لي أسماء: أنا محمّد، وأنا أحمد ،وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس علي قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي».

(١) من حديث رواه البخاري في صحيحه. . . . . ويبدو أن زواج أم المؤمنين زينب كان سنة خمس من الهجرة في ذي القعدة، كما ذكر صاحب الطبقات الكبرى.

زَيْنَبُ وَآيَةُ الحِجَابِ:

روى الشَّيخان البخاريُّ ومسلم والإمام أحمد والتّرمذي، عن أنس بنِ مالك رضي الله عنه، قصة نزول الحجاب صبيحة عرس أمّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، وسنعتمد رواية البخاريّ في صحيحه حيثُ أخرج بسنده عن سيّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

بُنِيَ على النّبيِّ ﷺ بزينبَ بنتِ جحش بخبزٍ ولحم، فأُرسِلْتُ على الطّعام داعياً، فيجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، ثمّ يجيء قومٌ فيأكلونَ ويخرجونَ، فدعوتُ حتى ما أجدُ أحداً أدعو.

فقلت: يا نبي الله ما أجدُ أحداً أدعوه، قال: «فارفعوا طعامكم» وبقي ثلاثةُ رهْطٍ يتحدّثُون في البيتِ، فخرجَ النّبيُّ ﷺ فانطلقَ إلى حجرةِ عائشة فقال: «السّلام عليكم أهل البيت ورحمة الله».

فقالت: وعليك السّلام ورحمة الله، كيف وَجَدْتَ أهلك بارك الله لك؟ فتقرّى حُجَرَ نسائه كلّهن، يقول لهنّ كما يقولُ لعائشة ويقُلْنَ له كما قالت عائشة.

ثمَّ رجعَ النّبيُّ ﷺ، فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدّثون، وكانَ النّبيُّ ﷺ شديدَ الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرةِ عائشة، فما أدري آخبرته أو أُخْبِرَ أنَّ القومَ خرجوا، فرجعَ حتى إذا وضع رجله في أسْكُفّةِ[1] الباب داخلةً وأخرى خارجة، أرخى السِّتْرَ بيني وبينه وأُنزلتْ آية الحجاب[2].

---

(١) أسكفّة الباب: عتبة الباب السُّفلى التي يُوطأ عليها.

(٢) رواه البخاري في التّفسير برقم (٤٧٩١) ورواه كذلك في مواضعَ من صحيحه برقم (٤٧٩٢ و٤٧٩٣ و٤٧٩٤ و٥١٥٤ و٥١٦٣ و٥١٦٦ و٥١٦٨ و٥١٧٠ و٥١٧١ و٥٤٦٦ و٦٢٣٨ و٦٢٣٩ و٦٢٧١ و٧٤٢١).

وأخرجه مسلم في النّكاح برقم (١٤٢٨) والتّرمذي في التّفسير، انظر تحفة الأحوذيّ (٧٨/٩ ـ ٨٤) الأحاديث رقم (٣٢٧٠ و٣٢٧١ و٣٢٧٢) وانظر: تفسير الطّبريّ (٣٧/٢٢) وتفسير القرطبيّ (٢٢٤/١٤) والسّمط الثمين (ص١٢٥ و١٢٦) وانظر التفاسير الآتية للآية (٥٣) من سورة الأحزاب: تفسير الماورديّ، والرازيّ، وابن كثير، والبغويّ، والخازن، والصاويّ على الجلالين وغيرها من المصادر الوثيقة بأنواعها.

والآن ما رأيكم أنْ نقرأ معاً آية الحجاب التي نزلتْ يوم تزوّج رسول الله ﷺ أمّ المؤمنين زينب؟!

﴿يا أيّها الذينَ آمنوا لا تدخلوا بيوت[1] النّبيّ إلا أنْ يُؤذنَ لكم إلى طعامٍ غير ناظرينَ إناه ولكنْ إذا دُعيتم فادخلوا فإذا طعِمْتُم فانتشروا ولا مُسْتَأْنسِينَ[2] لحديثٍ إنَّ ذلكم كان يؤذي النّبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحقِّ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراءِ حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أنْ تؤذوا رسول الله ولا أنْ تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إنَّ ذلكم كان عندَ الله عظيماً﴾ [الأحزاب: ٥٣].

---

(١) إنَّ قوله سبحانه وتعالى ﴿بيوت النّبي﴾ وذلك بإضافةِ البيوتِ إلى النّبيِّ ﷺ إنّما هو إضافة تشريف من مثل قوله تعالى: ﴿ناقة الله﴾ و ﴿بيت الله﴾ فالإضافة فيها للتكريم والتّشريف، فلبيوت الحبيب المصطفى ﷺ من الحرمة ما ليس لغيرها من البيوت، وهذه الأحكام المذكورة هنا خاصة ببيوت رسول الله ﷺ، تكريماً له وتشريفاً ﷺ.

(٢) مما تودُّ الإشارة إليه في هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ إذ فيه إشارة لطيفة إلى أنَّ المكثَ بعد دعوة الطّعام غير مرغوب فيه على الإطلاق، حيث إنَّ الأمْرَ أمْرُ وليمةٍ وقد انتهتْ مراسم هذه الوليمة، ولم يبقَ إلا أنْ يفرغَ أهل البيت لبعضِ شأنهم، فالبقاء بعد ذلك فيه نوع من الإثقال غير المحمود.

ويذكر القرطبيّ وأبو حيّان في تفسيريْهما بأنَّ بعضَ العُلماء قال: هذه الآية نزلت في الثُقلاء، وقرأها بعضهم فقال: هذا أدبٌ من الله تعالى أدَّبَ به الثقلاء، ويُروى عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم: حسبك في الثّقلاء أنَّ الشّرعَ لم يحتملْهُم.

أقول: وقد استهوت هذه المعاني اللطيفة الكريمة كثيراً من الأدباء العلماء وعلماء الأدباء، ففتحوا لها فصولاً في كتبهم، بل إنَّ ابن المزربان صنَّف كتاباً كاملاً عنوانه «ذمّ الثّقلاء» أتى فيه على ذكر سماجة الثّقلاء، وتطور هذا الفن إلى ذمّ ومدحِ الطّفيليين، وقد مُلئت كُتُب الأدب بنوادر راقصةٍ مِغناج، وقَصَصٍ يتفكّه بها الأدباء في مجالسهم، والعلماء في ندواتهم يذمّون فيها الثّقلاء، ومَنْ سَارَ على دربهم، ومِنْ أمتع الأقوال في هذا ما أنشده بعض الفضلاء:

وثقيـل أشدّ من ثقـل المو … تِ ومـن شـدّة العـذابِ الأليـم
لـو عصتْ ربَّها الجحيمُ لمـا كـا … ن سـواه عـقـوبـة للجـحيـم

وأودُّ أن أشيرَ إلى أنَّ هذه الآية الكريمة تفيدُ أنَّ كلمةَ حجاب تعني: الشَّيء يحجزُ بين طرفين، فلا يرى أحدُهما الآخر، أي تنعدم معه الرّؤيا تماماً، ولا يمكن أنْ يغنيَ أنَّ لباساً يلبسه إنسان، لأنَّ اللباس أياً كان قدرهُ ونوعه ـ ولو سَتَر جميع بدن المرأة حتى وجهها ـ فلن يمنعَ هذه المرأة أنْ ترى النَّاسَ مِنْ حولها، ولن يمنعَ النّاس أنْ يَرَوْا شَخْصَ المرأة وإنْ تسربلتْ بالسَّواد من قمّة رأسها ـ مع وجهها ـ حتى أخمص قدميها، والحجاب الوارد في قوله عزّ وجلّ ﴿فاسألوهن منْ وراء حجاب﴾ [الأحزاب: ٥٣][1] هو السّتر الذي يكونُ في البيت، ويُرخى ليفْصلَ بين مجلس الرّجال، ومجلس النّساء.

ولعلَّ حديث الفاروق عمر رضي الله عنه يوضح المفهوم الذي أردتُهُ من كلمةِ الحجاب. فقد أخرج الإمام البخاريّ بسنده عن أنس قال: قال عمر رضي الله عنه: قُلتُ: يا رسول الله، يدخلُ عليك البرّ والفاجر، فلو أَمَرتَ أمّهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب[2].

(١) إنَّ السّؤال مِنْ وراء الحجاب أطهر لقلوبكم وذلك بألاّ ترونهن، وهو أطهر لقلوبهن بألا يرونكم، وهذا لا يكون بغير حجْبِ الأشخاص، أمّا ستر الأبدان فإنَّ منع الرجال من رؤية النّساء لا يمنعُ النّساء من رؤية الرجال، وفي تقرير هذا المعنى يقول إمام المفسّرين محمّد بن جرير الطّبريّ ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآيةِ:
سؤالكم إياهن المتاع إذا سألتموهن ذلك من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن من عوارض العين فيها التي تعرض في صدور الرجال من أمْر النّساء، وفي صدور النّساء من أمْرِ الرّجالِ، وأحرى منْ أن يكونَ للشّيطان عليكم وعليهن سبيل. (تفسير الطبري ٣٩/٢٢).

(٢) رواه البخاريّ في التّفسير، انظر فتح الباريّ (٣٨٧/٨) حديث رقم (٤٧٩٠) باب: لا تدخلوا بيوت النبي إلا أنْ يُؤذن لكم.

أقول: إنَّ نساءَ الحبيبِ المصطفىﷺ هن الأسوة الحسَنَة والقدوة الرفيعة لسائرِ النِّساء، ولذا فينبغي في مخاطبتهن من وراء حجاب، وهذا منْ حرمة الرّسولﷺ والتّأدب معه في جميع الأحوال والأوقات. قال الإمام القرطبيّ ـ رحمه الله ـ في تفسيره: شرّف الله تعالى أزواج نبيهﷺ، بأن جعلهن أمهات للمؤمنين، أي في وجوب التعظيم، والمبرة، والإجلال، وحرمة النّكاح على الرجال، فكان ذلك تكريماً لرسوله، وتشريفاً لهن.

ويبدو أنَّ سيّدنا عمر رضي الله عنه كان يرغبُ في فرض الحجاب كيما تُحفظ المرأة حِفْظاً سَليماً، ويظهر إخلاصه في هذا برغبته في أشياءَ تنفعُ المسلمين عامّة، وأشياء تتعلّق بنصيحته لزوجات النبيﷺ، وإحداهن ابنته حفصة أمّ المؤمنين، إذ كان يودُّ لو نزلَ ما يشفي غليله في الحجاب، وقد أكرمه الله عزّ وجلّ في هذا لإخلاصه، وعن هذا الإكرام يتحدّثُ سيّدنا عمر فيما أخرجه الإمام البخاريّ ـ رحمه الله ـ بسنده عن حُميد عن أنس قال:

قال عمر: وافقتُ الله في ثلاث ـ أو وافقني ربيّ في ثلاث ـ

قلتُ: يا رسول الله، لو اتخذتَ مقام إبراهيم مصلى.

وقلتُ: يا رسول الله، يدخلُ عليك البرّ والفاجر، فلو أمرتَ أمّهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب.

قال: وبلغني معاتبة النّبيّﷺ بعض نسائه، فدخلتُ عليهن قلتُ: إنِ انتهيتنَّ أو ليبدلنّ الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيتُ إحدى نسائه قالت: يا عمر، أمَا في رسولِ اللهﷺ ما يعظُ نساءه حتى تعظهن أنتَ؟ فأنزل الله: **﴿عسى ربّه إنْ طلقكن أنْ يبدله أزواجاً خيراً منكن مُسْلمات. . .﴾** الآية[1]

مِنْ رَقَائِقِ الفَضَائِلِ الزَّيْنَبِيّةِ:

لا زالتْ نسماتُ البركاتِ تلاحقنا، ولا زالتْ بركةُ أمّ المؤمنين زينب بنت جحش تسيلُ على المؤمنين منْ فيضها منذ دخولها يومها الأوّل في رحاب البيت النّبوي الطّاهر.

فعندما تزوّجَ النّبيُّﷺ زينب بنت جحش أولَم عليها، وأشبعَ المسلمين خبزاً ولحماً، ثمّ ذهبوا ولم يرجعوا، ثم أهدت له أمّ سُليم بنت ملحان الأنصاريّة طعاماً ليلة دخوله بزينبَ فأطْعَم منه خَلْقاً كثيراً، وبُورِك في هذا الطعام.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، انظر فتح الباري (١٨/٨) حديث رقم (٤٤٨٣) باب قوله تعالى: **﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾**. وانظر: الأسماء المبهمة للبغدادي (ص ٩٦).

فهلم ـ عزيزي القارىء ـ إلى مائدةِ الحديث الشّريف نغترفُ منها بعض مكارم تلك الليلة المباركة.

روى الأئمة: البخاريّ ومسلم والتّرمذي والنّسائي ـ رحمهم الله ـ عن أبي عثمان ـ واسمه الجعد ـ عن أنس بنِ مالك رضي الله عنه قال:

كان النّبيُّ ﷺ عروساً بزينبَ، فقالت لي أمّ سُليم ـ أمّي ـ: لو أهدَينا لرسولِ الله ﷺ هدية[1]، فقلتُ لها: افعلي.

فعمدتْ إلى تَمْر وسَمْنٍ وأَقِط، فاتخذت حيسة في بِرْمة، فأرسلتْ بها معي إليه، فانطلقتُ بها إليه. فقال لي: «ضَعْهَا».

ثم أمرني فقال: «ادعُ لي رجالاً سمّاهم وادعُ لي مَنْ لقيتَ» قال: ففعلتُ الذي أمرني، فرجعتُ فإذا البيت غاصّ بأهله، فرأيت النّبيّ ﷺ وضع يده على تلك الحيسة، وتكلّم بها ما شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة، يأكلون منه، ويقول لهم: «اذكروا اسمَ الله، وليأكل كلّ رجل ممّا يليه»

قال: فأكلوا حتى شبعوا.

قال: فخرجتْ طائفةٌ، ودخلتْ طائفةٌ، حتى أكلوا كلّهم.

فقال لي: «يا أنس ارفعْ»

قال: فرفعتُ، فما أدري حين وضعتُ كان أكثر، أمْ حين رفعت[2].

---

(١) قال الإمام النّووي ـ رحمه الله ـ: وفي هذا الحديث، أنّه يستحب لأصدقاء المتزوّج أنْ يبعثوا إليه بطعام يساعدونه به على وليمته.

ومن الأحكام الشّرعية في هذا، ندب وليمة الزّواج، قال أنسُ بن مالك رضي الله عنه: ما رأيتُ رسول الله ﷺ أولمَ على امرأة من نسائه ما أولم على زينب، فإنّه ذبح شاة. رواه مسلم.

(٢) الحديث أخرجه البخاريّ، انظر فتح الباري (٩/٣٤) حديث رقم (٥١٦٣)؛ ومسلم في النّكاح برقم (١٤٢٨) باب: زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس؛ وأخرجه الترمذي، انظر تحفة الأحوذي (٩/٨٢ و٨٣) حديث رقم (٣٢٧٢) والنسائي في النكاح (٦/١٣٦ و١٣٧) وابن سعد في الطبقات (٨/١٠٤ و١٠٥) وانظر: =

وسأل الجَعْدُ أنساً فقال: عَدَدَ كَمْ كانوا؟!

فقال أنس: زُهَاء ثلاثمائة[1].

وتكثير الطّعام صبيحة عرس زينب يشير إلى بركتها، كما أنَّ ذلك مَعْلَماً واضحاً من علامات النّبوّةِ.

القُرْآنُ وَزَيْنَبُ وَعَائِشَةُ وَحَفْصَةُ:

دخلتْ زينبُ بنتُ جحش رضي الله عنها البيتَ النّبويَّ الطّاهر، وقد سبقتها إليه عائشة بنت الصِّدِّيق وحفصة بنت عمر رضي الله عنهم جميعاً، ويبدو أنَّ عائشةَ قد أَخَذَهَا ما أخذها من زينب، وتسللتِ الغيرةُ إلى نفسها، فزينب هذه ابنة عمّه النّبيِّ ﷺ، وهي وضيئة النّفس جميلة الطّلعة، ثم نَزَلَ القرآن في شأْنها، ولذلك أوجست عائشة خيفةً أنْ تهتزَ مكانتها عند النّبيِّ ﷺ، ولكنّ زينبَ نفسها، بشهادةِ عائشة، كانت وَرِعةً همُّها مِنْ دنياها مرضاة الله عزّ وجلّ ومرضاة، رسوله ﷺ.

أمّا نصّ شهادة السّيّدة عائشة رضي الله عنها، فكما وَرَدَ في الصَّحيح: قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني[2] من أزواجِ النّبيِّ ﷺ[3].

وروى أبو بكر بن أبي خيثمة ـ رحمه الله ـ من طُرُقٍ عن عائشةَ رضي الله

= نساء مبشّرات بالجنة (٢/١٧٣ و١٧٤) وحياة الصحابة (٢/٦٦١) وأزواج النّبي للصّالحي (ص١٨٥)٠ والسمط الثمين (ص١٢٦ و١٢٧) وغيرها كثير.

(١) انظر تحفة الأحوذي (٨٢/٩). وزُهَاء: بضم الزاي وفتح الهاء: أي قدر ثلاثمئة، من زهوت القوم: أي حزرتهم.

(٢) تساميني: أي تعاليني من السّمو، وهو العلو والارتفاع، أي تطلبُ من العلوّ والرّفعة والحظوة عند النّبي ﷺ ما أطلب، أو تعتقد أنَّ الذي لها عنده، مثل الذي لي عنده، أو تعادلني وتضاهيني في الحظوة والمنزلة الرفيعة.
وقال أبو ذر الخشنيّ ـ رحمه الله ـ تناصيني: أي تنازعني الرتبة. (السّيرة النبوية بشرح الخشني ٤١٥/٣).

(٣) من حديث أخرجه البخاريّ برقم (٤٧٥٠) ومسلم برقم (٢٧٧٠) والتّرمذي (٣١٧٩).

عنها قالت: لم يكن أحد منْ نسائهِ ﷺ يساميني في حُسْنِ المنزلة عنده غيرها. ـ تعني زينب بنت جحش[1] ـ.

وكان الحبيبُ المصطفى ﷺ يمكثُ عند زينب، فقد كانت تعجبه صفاتها الخيِّرة، وشمائلها الكريمة، وربّما أطال الجلوسَ عندها إذ كانت تكرمه وتسقيه العَسَلَ، لذا فقد كانت زينبُ رضي الله عنها، تحبّ أنْ تسقيه العسل، ويبدو أنَّ عائشةَ وحفصةَ رضي الله عنهما قد طرقتِ الغيرةُ أبوابهما، وتسللتْ إلى نفسيهما، وأسرَّت كلّ واحدةٍ إلى الأخرى ما بنفسها من الغيرة تجاه الوافدة الجديدة زينب أمّ المؤمنين، فتواصَتْ عائشة وحفصة أنْ تحتالا كيما يخففَ النّبيّ ﷺ منْ زيارتِهِ للضرّةِ الجديدة، فماذا كان؟

نزل القرآنُ الكريم كيما ينصف زينب رضي الله عنها، وها هي أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تروي خبر ذلك.

أخرج الإمامُ البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحهِ بسنده عن عطاءَ، عن عُبيد بنِ عمير، عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشربُ عَسَلاً عند زينب ابنة جحش، ويمكثُ عندها، فواطأتُ أنا وحفصة عن أيّتنا دخل عليها فلتقلْ له: أكلتَ مغافير[2]؟ إنّي أجدُ منك ريحَ مغافير.
قال: «لا، ولكنّي كنتُ أسربُ عَسَلاً عند زينب ابنة جحش فلن أعودَ له، وقد حلفتُ، لا تخبري بذلك أحداً»[1].

---

(١) انظر: الاستيعاب وأسد الغابة ترجمة زينب.

(٢) المغافير: بقلة، أو صمغة متغيرة الرائحة، فيها حلاوة، وكان عليه الصلاة والسّلام يشتدّ عليه أن يوجد منه الريح، ويعجبه أن توجد منه الريح الطيبة أو يجدها، ويكره الريح الخبيثة، لمناجاة المَلَك.

(٣) انظر فتح الباري (٨/٥٢٤) حديث رقم (٤٩١٢) وقد أخرجه البخاري في مواضع أُخَر من صحيحه بالأرقام التالية: (٥٢١٦ و٥٢٦٧ و٥٢٦٨ و٥٤٣١ و٥٥٩٩ و٥٦١٤ و٥٦٨٢ و٦٦٩١ و٦٩٧٢).
وأخرجه مسلم كذلك برقم (٢٤٧٤). وانظر: تفسير القرطبي (١٨/١٧٧ و١٨٤) والدر المنثور للسيوطي (٦/٢١٣) وسير أعلام النبلاء (٢/٢١٤) وانظر تفسير الماوردي وابن

وعند ذلك نزل قوله عزّ وجلّ: ﴿يا أيّها النّبي لم تحرمُ ما أحلَّ الله لك﴾إلى قوله تعالى: ﴿إن تتوبا﴾ [التحريم: ١ ـ ٣] لعائشةَ وحفصة، ﴿وإذ أسرَّ النّبيُّ إلى بَعْضِ أزواجه حديثاً﴾ [التحريم: ٢] لقوله: «بل شربتُ عَسَلاً ولنْ أعودَ له، وقد حلفتُ فلا تخبري بذلك أحداً» يبتغي مرضاة أزواجه، فيعني بقوله: «ولن أعودَ له» على جهةِ التّحريم.

وبقولهﷺ: «حلفتُ» أي بالله، بدليل أنَّ الله تعالى، أنزلَ عليه عند ذلك معاتبته على ذلك، وحوالته على كفارة اليمين بقوله تعالى: ﴿يا أيّها النّبيُّ لِمَ تحرم ما أحلَّ الله لك﴾ يعني العَسَل المحرم بقوله: «لن أعود له». و﴿تبتغي مرضاة أزواجك﴾أي تفعل ذلك طلباً لرضاهن. ﴿والله غفورٌ رحيم﴾ غفور لما أوجب المعاتبة، رحيم برفعِ المؤاخذة[1].

وبعد هذا الدّرس القرآنيّ من العليمِ الخبير، ذلك الذي حثَّ عائشة وحفصة على التّوبةِ على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبَّةِ رسول اللهﷺ، تابت كلّ واحدة منهما، وعرفتْ مكانة زينب رضي الله عنها.

زَيْنَبُ مَعَ رَسُولِ اللهﷺ:

حلّقتْ أمّ المؤمنينَ زينب بنت جحش رضي الله عنها عالياً في سماء المجد، ونالت أعلى مقامات القُرْب والشّرف منذ دخولها البيت الطّاهر، وحظيتْ بالمكانةِ العظمى عند النّبيّ الكريمﷺ، فقد حَبَاها الله عزَّ وجلَّ مِنْ كريمِ الصِّفاتِ، وجميل المآثر ما جعلها فريدة بين النِّساء.

واقتبستْ زينبُ أمّ المؤمنين رضي الله عنها كثيراً من أخلاقِ رسول اللهﷺ، فكانت تحذو حذوه في طُرُقِ الخير وخصوصاً الزّهد في زخرف الدّنيا، فالآخرةُ خيرٌ

= كثير والكشاف والبغوي والخازن والرازي والصاوي على الجلالين وغيرها لأول سورة التحريم وانظر كذلك: أسباب النزول للواحدي ولباب النقول للسيوطي لأول سورة التحريم.

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٧٧ و١٨٤).

وأبقى، لذلك كانت كريمة اليد، سخيّة النّفس، لها أخبارٌ عطرةٌ في الجود وفي الزُّهد.

وكان رسولُ الله ﷺ يدركُ هذه الخصلة الحميدة في زوجِهِ زينب، فكان يجلّها مِنْ نفسه مكاناً عظيماً، وقد أثنى عليها بأنّها من أصحاب المعروفِ، فكان ﷺ يقول لأزواجه؛ بأنّها أطولهن يداً في المعروف.

أخرج الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ بسنده عن عائشة بنت طلحة[1] عن عائشة أمّ المؤمنين قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً».
قالت: فكنَّ يتطاولن أيّتهنَّ أطول يداً.
قالت: فكانتْ أطولنا يداً زينب لأنّها كانت تعملُ بيدها وتتصدق[2].

وفي حياةِ زينبَ معَ الرّسولِ ﷺ وِقْفَاتٌ رائعةٌ، فقد أثنى عليها النّبيّ ﷺ بحسن الخشوع والعبادةِ.

عن عبد الله بن شداد أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنَّ زينبَ بنتَ جحشٍ أوّاهة» قيل: يا رسول الله، ما الأوّاهة؟ قال ﷺ: «الخاشعة المتضرّعة» و﴿إنَّ إبراهيمَ لحليمٌ أواهٌ منيب[3]﴾[هود: ٧٥].

كانت زينبُ بنتَ جحش أمّ المؤمنين رضي الله عنها كثيرةَ الصَّلاة، خاشعةَ القَلْبِ، موصولة دائماً بالله عزَّ وجلَّ، وكان رسولُ الله ﷺ يحبُّ هذه الصِّفات العالية فيها، وتعجبه صلاتها وصِلَتها بربّها عزّ وجلّ.

---

(١) اقرأ سيرة التّابعية عائشة بنت طلحة في كتابنا «نساء من عصر التابعين» (١/١٣ ـ ٣٠) فسيرتها رمز للمرأة العالمة الفقيهة الأدبية.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل زينب أم المؤمنين برقم (٢٤٥٣). وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/٢١٣) وأزواج النبي للصالحي (ص١٨٧) ونساء مبشرات بالجنة (١/٢٧٤) والسّمط الثّمين (ص١٢٨).

(٣) انظر: حلية الأولياء (٢/٥٣ و٥٤) والسمط الثمين (ص١٢٨ و١٢٩) والاستيعاب (٤/٣٠٩) وعيون الأثر (٢/٣٨٣) وسير أعلام النبلاء (٢/٢١٧) وأزواج النبي للصالحي (ص١٨٨).

روى الطّبرانيّ ـ رحمه الله ـ عن راشدِ بنِ سعد الحبراني قال: دخل رسولُ اللهﷺ منزله ومعه عمر بن الخطاب، فإذا هو بزينب بنت جحش تصليّ، وهي تدعو في صلاتها، فقال النّبيُّﷺ: «إنّها لأوّاهة»(١).

وكثيراً ما كانَ الرَّسولُ الكريمُﷺ يكثرُ من الثَّناءِ عليها بقوله: «إنّها أوّاهة» وكفى بشهادةِ رسول اللهﷺ لتضعَ زينب في مكانة سامية.

ولله درُّ أبي نُعيم الأصبهاني إذ أصاب بقوله في مفتتح ترجمته لزينب رضي الله عنها فقال: الخاشعةُ الراضيةُ، الأوّاهة الدّاعية(٢).

وكانت زينبُ رضي الله عنها تعرفُ مدى ارتباطها بالرَّسولﷺ، وتدركُ قيمة الوشيجة التي أحلَّتها حظوة ومكانة عنده، فكانت تقولُ للنَّبيُّﷺ:
يارسول؛ إنّي لأدلُّ عليك بثلاثٍ مَا مِنْ نسائك امرأة تدلُّ بهن:
إنَّ جدّي وجدُّك واحدٌ،
وإنّي أنكحنيك الله عزَّ وجلَّ من السَّماء،
وإنَّ السَّفير جبريل عليه السَّلام(٣).

وأعتقدُ أنَّ أمَّنا زينب رضواب الله عليها، كانت تفاخر أمّهات المؤمنين الأخريات، بما اختصّتْ به من عزَّةِ الشَّرف، وشرف العزّةِ، وفي كرم المكانة، وفي زواجها الميمون فتقول: أنا أكرمكنَّ وليّاً، وأكرمكنَّ سفيراً؛ زوّجكُنّ أهلكنَّ، وزوّجني الله من فوقِ سَبْع سماوات(٤).

وخلال رحلة حياة أمّ المؤمنين زينب مع رسول اللهﷺ، كانت ترافقه في رحلات الجهاد، فقد كانت معه في حصارِ الطّائف، وفي غزاةِ خيبر، وذكر الذّهبي ـ رحمه الله ـ أنَّ رسول اللهﷺ أطعم زينب بنت جحش بخيبر مئة وسق(٥).

---

(١) قال الهيثمي ـ رحمه الله ـ في مجمع الزوائد (٢٤٧/٩ و٢٤٨) رواه الطبراني.
(٢) حلية الأولياء (٥١/٢).
(٣) أنساب الأشراف (٤٣٥/١) والبداية والنهاية (١٤٦/٤).
(٤) نساء مبشّرات بالجنة (٢٦٧/١).
(٥) طبقات ابن سعد (١٠٧/٨) وسير أعلام النبلاء (٢١٥/٢).

ورافقته زينب رضي الله عنها في رحلة العبادة، فلمّا كانت حجّة الوداع كانت مِنْ نسائه الطّاهرات، وقالﷺ لهنَّ يوم إذ: «هذه ثمّ ظهور الحصر»[1] فكانت نساء النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام يحججن سوى أمّ المؤمنين سَوْدَة بنت زمعة وزينب بنت جحش قالتا: لا تحرِّكنا دابّة بعد رسولِ اللهﷺ[2]. وفي رواية الإمام أحمد؛ فكانتا تقولان: والله لا تحركنا دابة بعد أنْ سمعنا ذلك من رسول اللهﷺ[3].

وهكذا قرّت زينبُ أمّ المؤمنين في بيتها ملتزمةً حرفيّة ما قالﷺ؛ أخرج محمّد بن سعد ـ رحمه الله ـ في طبقاته قال:

لم تحجَّ زينبُ بنتُ جحش بعد حجّةِ رسول اللهﷺ التي حجتها معه حتى توفيتْ، في خلافةِ عمرَ سنة عشرين، وكانت زينبُ قد عملتْ بوصيةِ رسول اللهﷺ حينما قال لأزواجه: «أيكن اتقتِ الله، ولم تأتِ بفاحشةٍ مبينة، ولزمتْ ظَهْرَ حصيرها، فهي زوجتي في الآخرة»[4].

ثَنَاءُ أُمَّهَاتِ المؤمنينَ عَلَيْهَا:

لا شكَّ أنَّ ثناءَ المرأةِ على المرأة ليس بالشّيء الهيِّن، ولا يمكنك أنْ تنتزعَ الثّناء من واحدةٍ لأخرى إلا بشقِّ الأنفس؛ ويبدو أنَّ طبيعةَ المرأة وأثرتها لا تسمح لها أنْ تجودَ بالثّناء على بناتِ جنسها، أو أنْ تمتدحَ صفات طيّبة فيها، ولقد أصابَ الشّاعر قديماً حينما قال:

كضرائرِ الحسناء قُلْن لوجهها   حَسَداً وبغياً إنّه لذميمُ

ولكنَّ أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن كُنَّ يعرفْنَ لكلّ ذي حقٍّ حقّه، فقد

(١) ظهور الحصر: يريدﷺ أن يلزمن بيوتهن ولا يخرجن منها، والحصر: جمع حصير، وهو ما يفرش في البيوت.

(٢) المغازي (١١١٥/٣) وطبقات ابن سعد (٢٠٨/٨).

(٣) المسند (٣٢٤/٦) وانظر: مجمع الزوائد (٢١٤/٣).

(٤) طبقات ابن سعد (٢٠٨/٨).

شربنَ منْ معينِ الأدب النّبويّ، وتغذينَ بأدبِ القرآن، فكُنَّ يَقُلْنَ الحقَّ، وكنَّ يثنينَ على بعضهن بما فيه مرضاة الله عزَّ وجلَّ وبما هو موجود، وذلك دون مجاملة أو محاباة، فليس هناك منْ أَمْرٍ يدعو لذلك، ولقد كانت أمّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها تكِنُّ كلَّ الحبّ والاحترام لأمّهات المؤمنين، وتثني عليهن خيراً، في الوقت الذي تستطيع أنْ تقولَ ما تشاء.

ففي حديث الإفكِ الطّويل الذي روته أمّنا عائشة رضي الله عنها، يشهد لزينبَ بطيبِ عنصر الأصل، كما يشهد بدِيْنها وصيانتها وورعها وترفّعها عنِ اللغو، قالت أمّنا عائشة: وكان رسولُ اللهﷺ يسألُ زينبَ ابنةَ جحش عن أمْري، فقال: «يا زينب ماذا علمتِ أو رأيتِ»؟

فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، ما علمتُ إلا خيراً.

قالت ـ عائشة ـ: وهي التي كانت تُسَاميني من أزواجِ النّبي رسول اللهﷺ، فعصمَها الله بالورعِ . . . الحديث[1].

وظلّتْ كلماتُ زينب الطّيِّبة رصيداً غالياً لعائشةَ رضي الله عنهما، ولذلك أثنتْ عليها عائشة خيرَ ثناء، بل بخيرِ ما يُثنى منْ كَريمِ الصّفات، وفضائل المكرمات، ومحاسن الشّمائل.

وَرَدَ في الصّحيح ثناء لأمّ المؤمنين عائشة على أمِّ المؤمنين زينب رضوان الله عليهما، من حديث طويل قالت فيه عائشة: فأرسل أزواجُ النّبيّﷺ زينب بنت جحش زوج النّبيّﷺ، وهي التي كانت تُسَاميني منهن في المنزلة عند رسول اللهﷺ، ولم أرَ امرأة قطّ خيراً في الدِّيْن من زينبَ، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشدّ ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدّق به،

---

(١) قطعة من حديث البخاري؛ انظر فتح الباري ٩٨/٣٠٩ حديث رقم (٤٧٥٠) و«أحمي سمعي وبصري» أي من الحماية فلا أنسب إليهما مالم أسمع وأبصر. و«عصمها الله» أي حفظها ومنعها «بالورع» أي بالمحافظة على دينها، ومجانبة ما تخشى سوء عاقبته.

وتقرّب به على الله تعالى. . الحديث[1].

وفي المُسند، أخرج الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن عروة بنِ الزُّبير عن عائشة بلفظ: ولم أرَ امرأة خيراً منها، وأكثر صدقة، وأوصل للرحم، وأبذل لنفسها في كلّ شيء يتقرب به إلى الله عز وجل من زينبَ[2].

وقد أثنت عائشةُ على زينب في مجال البرّ والصَّدقات، واصطناعها المعروف فقالت: وكانت أطولنا يداً زينب، لأنَّها كانت تعمل بيدها وتصدق[3].

ولما توفيت أمُّ المؤمنين زينب رضي الله عنها طفقت عائشة تعدّدُ فضائلها، وتجودُ بالثَّناء عليها، وتذكر مناقبها، فقد كانت تحدّث النَّاس عن شمائلها الحِسّان.

يُروى عن عمرةَ بنتِ عبد الرحمن الأنصاريّة[4] ـ رحمها الله ـ عن عائشةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، أنّها أثنتْ على زينبَ بنتِ جحش فقالت: يرحمُ الله زينب، لقد نالت في الدّنيا الشّرف الذي لا يبلغه شرف: إنَّ الله زوّجها[5]؛ ونطقَ به القرآن؛ وإنَّ رسول الله قال لنا: «أسرعكن بي لحوقاً أطولكن باعاً» فبشّرها بسرعةِ لحوقها به، وهي زوجتُه بالجنّةِ.

وإنّه ممّا يزيدُ من مكانةِ زينب بين أمّهات المؤمنين، أنّها كانت تعمل بيدها وتتصدَّق، وهذا يشيرُ إلى مدى برّها وجودها، فالمرأةُ إذا جادت بمالها الخاص، دليل على طِيْبِ نفسها وكريم أصلها، وقد شهدت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في فضائل الصحابة برقم (٢٤٢٢) وانظر: حلية الأولياء (٢/٥٣) والاستيعاب (٢/٣٠٨).

(٢) المسند (٦/١٥١) وصفة الصفوة (٢/٤٨) وحلية الأولياء (٢/٥٣).

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة برقم (٢٤٥٣).

(٤) اقرأ سيرة التابعية العالمة عمرة بنت عبد الرحمن في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (١/١٠٥ ـ ١١٥) حيث شهد لها عظماء العلماء بالفقه والعلم والفضل والعدل.

(٥) ظل هذا الفخر مناط الشّرف لبني أسد، فقد ورد أنَّ رجلاً من بني أسد، فَاخَر رجلاً، فقال الأسدي: هل منكم امرأة زوجها الله من فوق سبع سماوات؟! ـ زينب بنت جحش ـ.

عنها لزينبَ بهذه الخاصية المباركة: كثرة الصَّدقة والإيثار فقالت: كانت - زينب - صَنَاع اليدِ، فكانت تدبغُ، وتخرزُ، وتصدّق[1].

ولو رحنا نعدد ما أثنتْ به عائشة على زينبَ رضي الله عنهما لعرفنا مقدار محبّة عائشة لها، وعرفنا مكانة زينب في العِقْد الفريد الذي نُظِمَتْ فيه، فكانت من أمّهات المؤمنين الطّاهرات رضي الله عنهن.

وإذا كان الثَّناء على الأحياءِ فضيلة، فإنَّ الثَّناء على الأموات من أمَّهات الفضائل، ولذلك فإنَّ زينبَ رضي الله عنها لما توفيتْ قالت عائشةُ: لقد ذهبتْ حميدة، متعبدة، مفزع اليتامى والأرامل[2].

وإذا ما ذُكرتْ أمُّ المؤمنين زينب أمامَ عائشة أمّ المؤمنين أكثرتِ الثَّناء عليها، وأكثرت منْ ذكْرِ ونَشْرِ محاسنها، ففي تهذيبه ذكر الإمام النَّوويُّ - رحمه الله - أنّ عائشة قالت: يرحمُ الله زينب بنت جحش، لقد نالتْ في هذه الدنيا الشَّرف الذي لا يبلغه شرف، إنَّ الله عزَّ وجلَّ زوّجها نبيّهﷺ في الدّنيا ونطقَ به القُرآن[3].

وسأل عروةُ بنُ الزبير - رحمه الله - خالته أمَّ المؤمنين رضي الله عنها قال: يا خالة أي نساء رسول اللهﷺ كانت آثر عنده؟

فقالت: ما كنتُ أستكثره، ولقد كانت زينب بنت جحش وأمّ سلمة لهما عنده مكان، وكانتا أحبَّ نسائه إليه فيما أَحْسَبُ بعدي[4].

وفي مَعْرِضِ الثَّناء الفيّاض بالخير، الفيّاض بالبركات تشارك أمّ أخرى من أمّهات المؤمنين بنشر طيِّب أعمال وصفات زينب بنت جحش رضي الله عنها، وتشيرً إلى صلاحها وصلاتها، تقول أمُّ المؤمنين أمّ سلمةَ رضي الله عنها: كانتِ امرأةً صالحةً صوّامةً قوّامةً[5].

---

(١) طبقات ابن سعد (١٠٨/٨) وتهذيب الأسماء واللغات (٣٤٥/٢).
(٢) نساء مبشرات بالجنة (٢٦٨/١).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٣٤٥/٢).
(٤) طبقات ابن سعد (١١٤/١).
(٥) تهذيب الأسماء واللغات (٣٤٥/٢).

وهذه الشّهادةُ ترفع أمَّ المؤمنين زينب عالياً عالياً، وتجعلها تقتعد مكانة سامقة في العبادة والصَّلاح، وكفاك بهذه المنزلة شرفاً.

وكما كانت عائشة تثني على زينب، كانت أمُّ سلمة أيضاً، تمتدحُ زينب إذا ما ذكرتها بعد وفاتها، ذكرت زينب بنت أمّ سلمة قالت: سمعتُ أمّي أمّ سلمة تقول: ـ وذكرتْ زينب بنت جحش، فترحّمت عليها وذكرت بعضَ ما كان يكون بينها وبين عائشة ـ فقالت زينب:

إنّي والله ما أنا كأحدٍ من نساءِ رسول اللهﷺ إنّهن زُوّجنَ بالمهور، وزوّجهن الأولياء، وزوّجني الله رسوله، وأنزلَ فيَّ الكتاب يَقْرأ به المسلمون لا يبدّل ولا يغيّر: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه..﴾ الآية. قالت أمّ سلمة: وكانتْ لرسولِ الله معجبة، وكان يستكثر منها، وكانت امرأة صالحةً صوّامةَ قوّامةً صَنعاً تتصدّقُ بذلك كلّه على المساكين[1].

ويبدو أنَّ فقهاءَ العلماءِ، وعلماء الأمْصَار، قد اقتبسوا مدائحهم لأمّ المؤمنين زينب من ثناء أمّهات المؤمنين عليها، فهذا الحافظُ ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ في معرِضِ ترجمته لأمّ المؤمنين زينب يقول: كانت زينبُ بنت جحش من المهاجراتِ الأُوَل، وكانت كثيرة الخير والصَّدقة[2].

أمّا الذّهبي ـ رحمه الله ـ ففي كلّ مكانٍ كَتَبَ فيه عن أمّ المؤمنين زينب يذكر منْ نفحاتها الإيمانية ما تلذُّ له الأسماع والأبصار. ففي سِيَر أعلام نبلائه ذكرها بقوله: كانت من سادة النِّساء دِيْناً وَوَرعاً وجُوداً ومعروفاً رضي الله عنها[3].

وإذا ما تحدَّث في تاريخهِ، ووفيات المشَّاهير والأعيان، أوجز صفاتها بقوله: كانت كثيرة البرِّ والصَّدَقة[4].

---

(١) طبقات ابن سعد (١٠٣/١) والإصابة (٣٠٧/٤).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٤٨/٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢١٢/٢).

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين (ص٢١٢).

وجمعَ الواقديُّ ـ رحمه الله ـ صفات أمِّ المؤمنين، والثَّناء عليها في عبارة واحدة قال: كانت امرأة صالحة، صوامّة، قوامة، صَناعاً، تتصدق بذلك كلّه على المساكين.

زَيْنَبُ في ظِلِّ الخُلَفَاءِ:

أدركتْ أمّنا زينب رضي الله عنها خلافة الصِّدِّيق، وكانت خلاله مرعيةَ الجانب، يَعرِفُ مكانتَها في البيتِ النّبويّ الطَّاهر، فهي تناصي ابنته عائشة في المنزلة الكريمة لدى النبيﷺ، وكلتاهما جوهرتان في عقْدٍ فريد من نساء أهل البيت الطَّاهر المطهّر.

أمّا في عَهْدِ الفاروق عمر، فكانت زينب تناصي ابنته حفصة أمّ المؤمنين رضي الله عنهما، وكان عمرُ رضي الله عنه يعرف مقدار قَدْرِها، ويشهد بورعها، وبزهدها، وإعراضها الشَّديد عن الدُّنيا التي جعلتها في يدها، ولم تجعلْ لها من سبيل إلى قلبها.

كان سيّدنا عمرُ رضي الله عنه يقسم لأمّهاتِ المؤمنين في العامِ اثني عشر ألف لكلّ واحدة، وكانت زينبُ بنت جحش رضي الله عنها لا تستبقي منه درهماً واحداً، بل تنفقُ ذلك المال كلّه على ذوي أرحامها، وعلى أيتام قريش، وهي تشعرُ بسعادةٍ تغمرها، فكانتِ الدَّراهمُ وسيلتها لإدخال السُّرور إلى قلوبِ ذوي الحاجات وتفريج كروبهم.

ولنشهد سوياً هذا الموقف العطر الكريم لأمِّنا زينب رضوان الله عليها.

ففي السَّنة التي توفيت فيها، أرسل عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه إلى زينبَ بعطائها الذي لها، فقالت: غَفَرَ الله لعمر، غيري منْ أخواتي أمّهات المؤمنين كان أقوى على قسم هذا المال.

قالوا لها: هذا المال كلّه لك يا أمّ المؤمنين.

قالت رضي الله عنها: سبحان الله العظيم! واستترتْ منه بثوب، وقالت: صبّوه، واطرحوا عليه ثوباً.

ثم أمرتْ إحدى النِّساء واسمها برزة بنت رافع ـ وهي التي روت هذا الخبر ـ وقالت لها: يا برزة، ادخلي يدَكِ فاقبضي منه قبضةً، فاذهبي بها إلى بني فلان، ثمّ بني فلان، وذكرت جماعة من رَحِمِها وأيتامها. وبقيتْ بقيّة تحت الثَّوب، فقالت لها برزة بنت رافع: غفر الله لك يا أمّ المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذه الدَّراهم حقّ!!

فقالت زينب رضي الله عنها: لكم ما تحتَ الثَّوب.

قالت برزةَ بنتُ رافع: فعددنا المال فوجدناه خمسة وثمانين درهماً...

ثمّ إنَّ أمَّ المؤمنين زينب رضي الله عنها رفعت يدها إلى السَّماء ودعت ربّها فقالت: اللهم لا يدركني عطاءُ لعمر بعد عامي هذا.. فاستجاب الله فماتتْ عام إذ[1].

قال ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ: ما تركتْ زينبُ بنت جحش رضي الله عنها درهماً ولا ديناراً، كانت تتصدق بكلّ ما قدرت عليه، وكانت مأوى المساكين.

ويذكر ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ عن محمّد بن كعب أنَّه قال: كان عطاء زينب بنت جحش اثني عشر ألف درهم، ولم تأخذْهُ إلا عاماً واحداً، حُمِلَ إليها اثنا عشر ألف درهم، فجعلت تقول: اللهم لا يدركني قابل هذا المال فإنَّه فتنة: ثم قسمته في أهل رحمها، وفي أهل الحاجة حتى أتتْ عليه؛ فبلغ عمر فقال: هذه امرأة يُراد بها خير؛ فوقفَ على بابها وأرسل بالسَّلام، وقال: قد بلغني ما فرقت؛ فأرسل إليها بألف درهم يستنفقها، فسلكتْ بها طريق ذلك المال[2].

رِوَايتُهَا لأَحَادِيْثِ المُصْطَفَى:

أمُّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، إحدى أمّهات المؤمنين

---

(١) عن سير أعلام النبلاء (٢/٢١٢) ونساء مبشرات بالجنة (١/٢٧٠) مع الجمع والتصرف. وانظر المصادر التالية: طبقات ابن سعد (٨/١٠٩ و١١٠) وفتوح البلدان (ص٥٥٥) وصفة الصفوة (٢/٤٨ و٤٩) وحلية الأولياء (٢/٥٤) وأزواج النبي للصالحي (ص١٨٩) والإصابة (٤/٣٤٧). قال ابن حجر عن اسم رواية الخبر بأن اسمها برة وليس برزة.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/١١٠).

الطّاهرات اللاتي رَوَيْنَ الحديث النّبويَّ الشّريفَ عن رسولِ اللهِﷺ، فقد كانت ممن وعينَ الحديثَ النّبويَّ وحفظته، وروينه عن رسولِ اللهِﷺ.

ولم تكنْ أمُّ المؤمنين رضي الله عنها منَ المكثرات في الرِّواية، وإنّما أحصى لها أصحابُ الأحاديث؛ أحَدَ عشَر حَديثاً روتْها عن النّبيﷺ، اتفق لها الإمامان البخاري ومسلم على حديثين[1].

وبالإضافة إلى وجود أحاديث أمّنا زينب في الصَّحيحين، فإنَّ أحاديثها منثورة في بقية الكُتُب الحديثيّة الأربعة وهي، سنن التّرمذي، والنّسائي، وأبي داود، وابن ماجه، إذن فحديثها في الكُتُب السّتة يُضاف إليها المسانيد، كأحمد وأبي يعلى.

روى عن أمّ المؤمنين زينب رضي الله عنها من الرِّجال: ابن أخيها محمّد بن عبد الله بن جحش، وأرسل عنها القاسم بن محمّد ابن أبي بكر، ومذكور مولاها.

وروى عنها من أمّهاتِ المؤمنين: أمّ المؤمنين رملة بنت أبي سُفْيانَ المشهور بكنيتها أمّ حبيبة رضي الله عنها.

ومن الصَّحابيات: زينب بنت أبي سَلمةَ وأمّها أمّ المؤمنين أمّ سلمة، كما روتْ عنها: كلثوم بنت المصطلق[2].

ومن الأحاديث الشَّهيرة المعروفة التي رُويت عن أمِّنا زينب بنت جحش رضوان الله عليها، ماوردَ الصَّحيحين وغيرهما بسندٍ عن حُميد بن نافع، عن زينبَ بنتِ أبي سلمة، أنَّها أخبرته قالت:

دخلتُ على زينبَ بنتِ جحش حين توفي أخوها، فدعتْ بِطيْبٍ فمسّتْ

---

(١) انظر: صحيح البخاري في الجنائز، وفي الفتن.
وصحيح مسلم في الطلاق برقم (١٤٨٧) وفي الفتن برقم (٢٨٨٠).

(٢) الإصابة (٣٠٧/٤) وسير أعلام النبلاء (٢١٢/٢) والمجتبى (ص٩٤) وتلقيح فهوم الأثر (ص٣٦٩ و٤٠٤) وتهذيب الأسماء واللغات (٣٤٦/٢) وتهذيب التهذيب (٤٢٠/١٢ و٤٢١) ونساء من عصر النبوة (١٨١/٢).

منه، ثم قالت: والله ما لي بالطِّيْبِ من حاجة، غير أنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحلُّ لامرأة تؤمنُ بالله واليوم تحدُّ على الميتِ فوقَ ثلاث ليال، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»(1).

ومِمّا أخرجه لها البخاري في صحيحه، وغيره من أئمة الحديث، ما رَوَوْه بسندٍ عن أمِّ حبيبة بنت أبي سفيان، عن زينب ابنة جحش: أنَّ رسول الله ﷺ دخلَ عليها يوماً فزعاً يقول:

«لا إله إلا الله، ويلٌ للعربِ، من شرٍّ قد اقترب، فُتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه ـ وحَلّق بإصبعيه الإبهام والتي تليها ـ قالت زينب ابنة جحش: فقلتُ: يا رسول الله، أفنهلك وفينا الصَّالحون؟ قال: «نعم إذا كَثُرَ الخبث»(2).

---

(1) أخرجه البخاري في الطلاق برقم (٥٣٣٥) ومسلم في الطلاق أيضاً (١٤٨٧) وأبو داود في الطلاق (٢٢٩٩) والتّرمذي في الطّلاق (١١٩٦) والنّسائي في الطلاق (٦/٢٠١) وأحمد (٦/٣٢٤) والشافعي في الأم (٥/٢٣٠ و٢٣١) ومالك في الطلاق (١٠٢).

(2) انظر: فتح الباري (١٣/١١٣) حديث رقم (٧١٣٥) وأخرجه أيضاً في مواضع أخر من صحيحه: في الأنبياء والمناقب والفتن. ومسلم في الفتن برقم (٢٨٨٠) وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٣) والترمذي في الفتن (٢١٨٨) وعبد الرزاق (١١/٣٦٣) برقم (٢٠٧٤٩) وأحمد (٦/٤٢٨ و٤٢٩) وانظر دلائل النّبوة للبيهقيّ (٦/٤٠٦) وغيرها كثير جداً. و«حلّق بأصبعيه» أي جعلهما مثل الحلقة.

ومعنى قوله «الخبث» قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح: فسروه بالزنى، وبأولاد الزنى، وبالفسوق والفجور، وهو أولى لأنَّه قابله الصَّلاح.

وقال الحافظُ ابنُ حجر أيضاً في الفتح: خُصَّ العرب بذلك لأنَّهم كانوا حينئذ معظم منْ أَسْلَم، والمراد «بالشَّرِّ» ما وقع بعده مِنْ قَتْل عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ ثم توالتِ الفتنُ حتى صارتِ العربُ بين الأمم كالقصعة بين الأكلة.

وقال الإمام القرطبيّ ـ رحمه الله ـ ويحتمل أنْ يكونَ المراد بالشَّرِّ ما أَشارَ إليه في حديث أمّ سلمة «ماذا أنزل الله من الفتن؟ وماذا أنزل من الخزائن»؟ فأشار بذلك إلى الفتوح التي فتحت بعده، فكثرت الأموال في أيديهم، فوقع التّنافس الذي جرَّ الفتن، وكذلك التنافس على الإمرة، فإنَّ معظم ما أنكروه على عثمان تولية أقاربه من بني أمية

وَفَاتُهَا وَوَصِيَّتُهَا

عاشت أمُّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها شَطْراً من الخلافة الرَّاشدة، وفي سَنَة عشرين من الهجرة المباركة شعرت أمُّ المؤمنين زينب بدنوِ الرَّحيل إلى المليك المقتدر، لتلقى محمّداً ﷺ، وثقل عليها المرض، فمرضها أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن.

ولما حضرتْ زينبُ بنت جحش الوفاة قالت: إنّي قد أعددتُ كفني، فإنْ بَعَثَ لي عمر بكفن، فتصدّقوا بأحدهما، وإنِ استطعتم إذ أدليتموني أن تصدّقُوا بحقوقيَ فافعلوا[1].

وفي سنةِ عشرين للهجرة توفيت أمّ المؤمنين زينب، وصَعِدَتْ روحها إلى بارئها راضية مرضيّة، وذلك في خلافةِ عمرَ بنِ الخطاب، ولها من العُمر ثلاثاً وخمسين سنة، وكانت أوّل نساء رسول الله ﷺ لحوقاً به، وبذلك تحققت نبوءة رسولِ الله ﷺ حيث ذكر ذلك.

أخرج ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ بسنده عن الزّهري عن سالم عن أبيه قال: قال رسولُ الله ﷺ يوماً، وهو جالس مع نسائه: «أطولكنَّ باعاً أسرعكنّ لحوقاً بي»

= وغيرهم، حتى أفضى ذلك إلى قتله، وترتب على قتله بين المسلمين ما اشتهر واستمر.

وقال القرطبيّ ايضاً: أخبر بما يكون بعده بين العرب، وقد وجد ذلك بما استوثر عليهم من الملك والدولة، وصار ذلك في غيرهم من الترك والعجم، وتشتتوا في البوادي بعد أنْ كانَ العزّ والمُلْك والدّنيا لهم ببركته ﷺ، وما جاءهم به من الإسلام، فلمّا كفروا النّعمة، فقَتَلَ بعضُهم بعضاً، وسَلَبَ بعضهم أموالَ بعض، سلبها الله منهم، ونقلها لغيرهم: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد: ٣٨].

وقال ابنُ العربي ـ رحمه الله ـ في الحديث البيان بأنّ الخيِّرَ يهلك بهلاك الشّرير إذا لم يغير عليه خبثه، وكذلك إذا غير عليه، لكن حيث لا يجدي ذلك، ويصرُّ الشرير على عمله السيء ويفشو ذلك ويكثر حتى يعم الفساد، فيهلك حينئذ القليل والكثير ثم يحشر كل أحد على نيته.

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢١٧).

فكُنَّ يتطاولْنَ إلى الشَّيءِ، وإنّما عَنَى رسولُ الله بذلك الصَّنْعَة. وكانت زينبُ امرأة صَنَعاً، فكانت تتصدقُ به، فكانت أسرع نسائه لحوقاً به[1].

هذا وقد أوصتْ أمّ المؤمنين زينب ابنة جحش رضي الله عنها أنْ تُحْمَل على سرير رسول اللهﷺ، ويُجعلَ عليه نعش، وأوصت كذلك أنْ لا تتبع بنار[2].

ولما ماتت، أَمَر عمر منادياً فنادى: ألا لا يخرج على زينب إلاّ ذو رحم[3] منْ أهلها.

فقالتْ أسماءُ بنت عميس[4] رضي الله عنها: يا أمير المؤمنين، ألا أُريك شيئاً رأيتُ الحبشةَ تصنعه لنسائِهم؟ فجعلتْ نعشاً، وغَشَّتْه ثوباً، فلمّا نظر إليه قال: ما أحسن هذا! ما أستر هذا!؛ ثم قال: نِعْمَ الخباء الظعينة.

وقيل: إنَّ زينب هي أوّل امرأة جُعلَ عليها النَّعش. وبعد ذلك أَمَر عمر منادياً فنادى أنِ اخرجوا على أمِّكم.

ولمّا حُمِلت زينبُ إلى قبرها بالبقيع، قام عمر إلى قبرها فحمد الله، وأثنى عليه، ثمّ قال:

إنّي أرسلتُ إلى نساءِ النّبيّﷺ حين مرضت هذه المرأة، أن مَن يمرضها ويقوم عليها، فأرسلن: نحن، فرأيتُ أنْ قد صدقن.

ثمّ أرسلتُ إليهن حين قُبِضت: مَنْ يغسّلها ويحنّطها ويكفنها؟

فأرسلن: نحنُ، فرأيتُ أَنْ قد صدقن.

ثم أرسلتُ إليهن: من يُدخلها في قبرها؟

---

(١) طبقات ابن سعد (١٠٨/٨).

(٢) طبقات ابن سعد (١٠٩/٨).

(٣) قال القرطبيّ ـ رحمه الله ـ قال عمر ذلك مراعاةً للحجاب الذي نزل بسببها. (تفسير القرطبي ٢٣٠/١٤).

(٤) اقرأ سيرة الصّحابية الجليلة أسماء بنت عُميس في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (١٨٣/٢ ـ ١٩٥) فسيرتها قدوة لمن أرادت الحق، وسلوك سبيل الرشاد.

فأرسلن، مَن كان يحلُّ له الولوج عليها في حياتها، فرأيتُ أنْ قد صدقن. فاعتزلوا أيّها النّاس، فنحّاهم عن قبرها، ثمّ أدخلها رجلان من أهل بيتها[1].

وعن عبد الرحمن بن أبزى قال: صلّى عمر على زينبَ بنتِ جحش، فكبّر عليها أربع تكبيرات، فأراد أنْ يدخل القبر، فأرسل إلى أزواج النّبيِّ ﷺ فقُلن: إنّه لا يحلُّ لكَ أنْ تدخلَ القَبْرَ، وإنّما يدخُل مَنْ كان يحلُّ أَنْ ينظرَ إليها وهي حيّة، بنو أخيها، وبنو أختها.

وأَمَر عمر رضي الله عنه أنْ يُضرَبَ فسطاط بالبقيع على قبرها لشدّةِ الحرِّ يومئذ، فكان أول فسطاط ضُرب على قبر بالبقيع، وكان عمرُ رضي الله عنه والأكابر مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ قيامٌ على أرجلهم، فأَمَرَ عمر محمّد بن عبد الله بن جحش، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن أبي أحمد بن جحش، ومحمّد بن طلحة بن عُبيد الله ابن أختها حمنة، فنزلوا في قَبْر زينب بنت جحش أمِّ المؤمنين، وهؤلاء محارمها.

وبعد، فهذه نفحات ندية من سيرةِ أمِّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، وإنّي أرجو الله عزَّ وجلَّ أنْ أكون قد وُفّقْتُ في نَظْمِ سيرتها في عِقْد نساء أهل البيت الطّاهر الذي أذهب عنه الرّجس، وطهّره تطهيراً.

رضي الله عن أمِّنا زينب وأرضاها، وجعل الجنَّة مأواها، ونسأل الله عزَّ وجلَّ أنْ يكرمنَا بآلِ البيت، ويحشرنا مع الذين أنعم عليهم، ويدخلنا في رحمته، إنَّه سميعٌ مجيب.

---

(١) طبقات ابن سعد (١١١/١).

أُمّ المؤمنين

جُويرية بنت الحارث

رضي الله عنها

- من فُضْليات النِّساء وساداتهن.
- كانت أعظم النَّاس بركةً على قومها.
- كانت ذات عَقْل حصيف، ورأي موفَّق، وكانت قانتة ذاكرة شاكرة، تقيَّة نقية السَّريرة.
- عالمة ناقلة للحديث الشَّريف، روى أحاديثها أصحابُ الكُتُب السِّتَة.
- توفيت سنةَ (٥٠هـ) عن عمر يناهزُ السَّبعين، ودفنت بالبقيعِ في المدينة المنوَّرة.

أُمّ المُؤمنين

جُويرية بنت الحارث رضي الله عنها

شَخْصِيَّةٌ فَرِيْدَةٌ:

كانتِ السَّيِّدةُ بنتُ الحارث بن أبي ضرار المصطلقية[1] تعتزُّ بأبيها الحارث

---

(١) المسند (٦/٣٢٤ و٤٤٩) والمعارف (١٣٨ و١٣٩) وطبقات ابن سعد (٨/١١٦ ـ ١٢٠) والاستيعاب (٤/٢٥١ ـ ٢٥٤) والإصابة (٤/٢٥٧ و٢٥٨) وأُسْد الغابة (٦/٥٦ ـ ٥٨) ترجمة رقم (٦٨٢٢) والمعرفة والتّاريخ (٣/٣٢٢) والمستدرك (٤/٢٥ ـ ٢٨) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (عهد معاوية ص١٨٩ ـ ١٩١) والعبر (١/٧ و٦١) ومجمع الزّوائد (٩/٢٥٠) وتهذيب التّهذيب (١٢/٤٠٧) وشذرات الذّهب (١/٢٥٧) ومُسند أبي يعلى (١٣/٣٣ ـ ٤١) وسير أعلام النّبلاء (٢/٢٦١ ـ ٢٦٥) وكنز العمّال (١٣/٧٠٦) وصفة الصّفوة (٢/٤٩) وتلقيح فهوم الأثر (ص٢٢) والمجتبى (ص٩٥) والسّيرة النّبوية (٢/٦٤٥ و٦٤٦) والسمط الثمين (ص١٣٤ ـ ١٣٧) وأزواج النبي للصالحي (ص٢٠٧ ـ ٢١١) وعيون الأثر (٢/٣٨٣ و٣٨٤) وجوامع السّيرة النّبوية (ص٣٢) وزاد المعاد (١/١٠٩ و١١٤ و٤١٨) والفصول (ص١٨٠ و١٤٧) ومختصر تاريخ دمشق (٢/٢٧١ و٢٨٢ و٢٨٣) ودلائل النّبوة للبيهقيّ (٤/٤٧ و٤٨ و٥٠ و٥١) و(٧/٢٧٣ و٢٨٦ و٢٨٩) وأعلام النّساء (١/٢٢٧) وجمهرة أنساب العرب (١/٢٣٩) وتاريخ الطّبريّ (٢/١٠٩ و١١١ و٢١٣) والكامل لابن الأثير (٢/١٩٢ و٣٠٨) و(٣/٥١٣) والسّيرة الحلبية (٣/٤١٣) والرّوض الأنف (٤/٢٦٨) وفتوح البلدان (ص٥٥١ و٥٥٦ و٥٥٧) وجلاء الأفهام (ص١٩٨) وأنساب الأشراف (١/٣٤١ و٤٤١ و٤٤٢ و٤٤٤ و٤٤٨ و٤٦٧) وغرر التّبيان (ص٤٢٠ و٤٢٢ و٤٢٣) ومفحمات الأقران (ص١٦٦ و١٦٨) وأزواج النّبي وأولاده لأبي عُبيدة (ص٧١ و٧٢) والسِّير والمغازي (ص٢٦٣ و٢٦٤) والمحبّر (٨٩ و٩٠ =

سيّد قومه، وكانت قد نشأَتْ في ظلِّ سيادةِ أبيها لقومه في عزٍّ وسؤدد وكما نعلم فإنَّ للبيوتِ العريقة أعظمَ الأثرِ وأبقاه في تَنْشِئة ناشئيها، وتربية بناتها وبنيها.

تزوجتْ جُويريةُ بنتُ الحارث في حَداثةِ سنِّها مسافع بن صفوان، أَحَدَ فتيان خزاعة، وأصل بني المُصْطَلق، اقترنتْ به في وقتٍ مبكْرٍ، قبل أنْ تتمَّ العَقْد الثَّاني مِنْ عمرها.

وقد زَيَّنَ الله عزَّ وجلَّ السَّيِّدة جُويرية ـ على حَدَاثَةِ سنِّها ـ بكريمِ الصِّفاتِ، وجميلِ الأخلاقِ، وحُسْنِ الأدب، وغيرها منْ مكارم الفَضَائل، وفَضَائل المكارم، ما جعلها من فضليات النِّساء وساداتهن.

لهذه الصِّفات الكريمة، اعتلت السَّيِّدةُ جُويرية بنت الحارث سدّة أمّهاتِ المؤمنين، وأضحتْ واحدةً مِنْ نساء أهل البيت الذي أَذْهب الله عنه الرِّجْسَ وطهّره تطيراً. . . . . .

ولكنْ كيفَ دخلتِ السَّيِّدة جُويرية في سِلْكِ الدُّرَرِ النّبويّ، وغدت إحدى حبّاتِ العِقْدِ الفريد، فصارت من أمّهات المؤمنين الطّاهرات؟

هذا ما سنعرفه ـ إنْ شاء الله ـ في الصَّفحات التّالية.

بِدَاياتُ النُّورِ ونَفَحَاتُ الهُدَى:

عمَّ نورُ الإسلامِ الدُّنيا، وتساقطَ رذاذُه على الجزيرةِ العربية، إلا أنَّ

= و٩٢ و٩٨ و٩٩) وتاريخ الخميس (١/٢٦٧) والمغازي للواقدي (١/٤٠٦ و٤٠٨ و٤١٠ و٤١٢) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/٣٣٦ و٣٣٧) والبداية والنّهاية (٨/٤٩) والوافي بالوفيات (١١/٢٢٦ و٢٢٧) والأعلام للزّركلي (٢/١٤٨) ونور الأبصار (٤٧ و٤٨) والسّيرة النّبوية لدحلان (٢/١٠٣) ووفاء الوفا (١/٣١٤) وديوان حسان بن ثابت (ص٧٧) والمواهب اللدنية (٢/٩٠ و٩١) والاشتقاق لابن دريد (ص٤٤٧) وسنن أبي داود (٣٩٣١) وصحيح مسلم (٢٧٢٦) وفتح الباري (٤/٢٧٣) وحياة الصّحابة (٢/٤١٥ و٤١٨) و(٣/١١٩ و٣٢٤ و٣٢٥) وغيرها كثير من التفاسير وكتب الحديث والتراجم والسّيرة والطبقات والتأريخ والأدب.

بني المصطلق كانوا لا يزالون يغطّون في نومِ الرّواسبِ الجاهلية، بزعامةِ رئيسهم الحارث بن أبي ضرار، وكانت تصكُّ آذانهم أخبار الحروب التي نشبتْ بين المسلمين، وبين الأعداء الذين أقضَّ مضاجعهم صدى انتصاراتهم المدوّية هنا وهناك، فتثير في نفوسهم السّقيمة نَعْرَةَ الطّيش المتهوِّر.

وكان بنو المصطلق من بقايا الغُثَاءِ المتخلّفِ في الجزيرةِ العربيةِ، وقد استولى عليهم الرُّعب، وخافوا إنْ هم ظلّوا في موقفهم الاعتزالي المتردّد المتحيّر، أنْ تدورَ عليهم الدّائرة، وتقضي عليهم كتائبُ المجاهدين الموحِّدين، وهم في غفلتهم يترددون، أو هم ساهون أو نائمون.

بدأ الشّيطان يتسللُّ إلى نفوسِهم. ويلعبُ بهم، ويزيّنُ لهم أنَّهم أقوياء، وإذ ذاك تحرّكوا ليهاجموا المجتمعَ المسلم بقيادةِ قائدهِ الأعظم الحبيب المصطفىﷺ، وأخذوا يعدُّون العدّةَ لذلك، ويتأهّبون بكلٍّ ما قدروا؛ وما يقدرون عليه منَ الرِّجال، والعدّة، والسِّلاح، والمُؤَنِ، كيما يهاجموا قوّةَ هذا المجتمع المنتصر.

ومشى زعيمُهم ورجالهم الذين أخذتهم العزّة بالإثم، مشوا في أحياءِ بقايا غسالات القبائل، ونفايات العشائر، يجمعونها معهم لتَجْرِبة حظِّهم في ردِّ السَّيْلِ الجارفِ الذي اكتسح امامه كلَّ قوى الجاهلية(1) الوثنية المعتمدة، وأزال كلَّ العقبات من طريقِ دعوته، وأضاء الدُّنيا بتبليغِ رسالته، رسالة الحقّ والعَدْل، والنُّور والهدى.

---

(1) إنَّ معرفةَ أخلاقِ الجاهلية، يفيدنا ويزيدنا يقينا بمحاسنِ الإسلام، فالضِدّ يظهر حسنه الضّد، وبضدها تتميز الأشياء، وهذا يؤيد ويؤكد نظرة عمر بن الخطاب الثّاقبة إذ يقول: لا يعرف الإسلام مَنْ لم يعرفِ الجاهلية.

وعندما يعلم المرء محاسن الإسلام وهدايته يدرك أنَّ الجاهليةَ تعني الطّيشَ والخروجَ عن مَنْهجِ الله عزَّ وجلَّ القويم، وهذا الخروج يؤدي إلى الانحرافِ والجرائم والمظالم والفساد وتدمير المجتمعات.

حِكْمَةٌ نَبَوِيَّةٌ

في المدينةِ المنوَّرةِ، كانتِ الأخبارُ تَرِدُ رسولَ الله، عمّا يدور في الجزيرةِ العربية، وبلغ خبر تجمّع بني المصطلق وتحفزّهم رسولَ ﷺ، فنظر بعينِ الحكمةِ إلى هذا الخبر، وأراد جَرْياً على مَنْهَجِهِ، وحكمته النّبويّة أن يتحرّى ويتأكّد ما بلغه عن بني المصطلق، فبعثَ رسول الله ﷺ بُريدة بن الحُصَيْب بنِ عبد الله الأسلمي[1]، ليعلمَ له عِلْمَ أولئك القوم، ويأتيه منْ صفوفهم، واجتمع برئيسهم ورأسهم الحارث بن أبي ضرار، وتحدَّثَ إليه، واختبر أَمْره وسرَّه، فوجدهم على عزيمةِ مهاجمة رسولِ الله ﷺ وأصحابه ليستأصلوهم من أرضهم وديارهم.

ورجع بُريدة بنُ الحصيب بما حَصَده واستخلصه من أخبارِ القوم، وبما عَلِمَ من نيَّتهم، وبما سوّلتْ لهم أنفسهم، فأخبر رسولَ الله ﷺ خبرهم، وبثَّ إليه حديثهم، وألقى بين يديه سِرَّهم وجهرهم، فندبَ رسولُ الله ﷺ أصحابه، وكانوا سبعمئة مقاتل، وخرج بهم مسرعاً إلى بني المصطلق، وخرجتْ معه في هذه الغزاة أمّ المؤمنين الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق عائشة رضوان الله عليها.

وبلغَ رئيسُ بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار، ومَنْ معه مِنَ الجموعِ، مسير الحبيب المصطفى ﷺ إليه، وإلى جموعه التي تجمعُها رابطة الطَّمَع، وهي أوهن مِنْ خيطِ العنكبوتِ، فتملَّكَ الخوفُ الحارث بن أبي ضرار، ورُعِبَ رُعباً شديداً، ارتعدت فرائصُه، واستولى عليه الذُّعر والهَلَع، واستحوذ على جموعه الفزع، فتفرّقوا عنه وتركوه مع لفائفِ قومه، وهم لا يقلّون عنه خوفاً وهلعاً.

أمّا رسولُ الله، فقد بلغَ بأصحابهِ إلى المُريسيع[2]، فضرب عليه قبَّةً، وتهيّأ الجمعان للقتالِ، وقبل أنْ ينشبَ قتالٌ أو نزال، أَمَرَ الحبيبُ الأعظم ﷺ عمر بن

---

(١) انظر ترجمة بريدة بن الحصيب في كتابنا «فرسان حول الرسول» الجزء الأول.

(٢) المريسيع: اسم ماء لبني المصطلق من ناحية قُديد، مما يلي السّاحل في الطّريق من المدينة إلى مكة، وكانت غزوة المريسيع في شعبان سنة خمس من الهجرة النّبويّة المباركة على الصّحيح ـ والله أعلم ـ.

الخطاب رضي الله عنه، أنْ ينادي بني المصطلق أنْ يقولوا: لا إله إلا الله، كيما يمنعوا بها أنفسهم وأموالهم(1).

لكنَّ بني المصطلق ركبوا شيطانَ الغرور، وركبهم غرورُ الشَّيطان، فأبوا أن يستجيبوا لدعوة الحقِّ، ونور الحقيقة، وسماحة الإسلام، وبدأوا الحرب؛ فرمى رجلٌ منهم المسلمينَ بنبله وسهامه، وأشعلوا فتيل الحرب، وأوروا زنادها، ولحْظ إذ أَمَر رسولُ اللهﷺ أحبابه وأصحابه أنْ يحملوا على هؤلاء الأعداء حملةَ رجل واحد، فاستجابوا وصدقوا الله عزَّ وجلَّ في حملتهم حتى أخذوا أعداءهم أخذاً، فلم يفلتْ منهم أَحَدٌ، وقتلوا منهم عشرة.

كان مسافعُ بن صفوان زوج جويرية بنت الحارث من العشرة الذين جندلتهم السُّيوف المسلمة، وأسروا سائرهم، وكانوا سبعمئة رجل، وغنموا أموالهم، وسبوا نساءهم وذراريهم، واستاقوا نعمهم وشاءهم(2)، ونصر الله عزَّ وجلَّ رسوله نصراً عزيـزاً(3).

---

(1) انظر: أنساب الأشراف (1/341).

(2) انظر في هذا: صحيح البخاريّ، كتاب المغازي، باب: غزوة بني المصطلق، وكتاب النّكاح، باب العزل، وكتاب القدر؛ باب: وكان أمر الله قدراً مقدوراً. وانظر: صحيح مسلم كتاب النكاح، باب حكم العزل. وانظر دلائل النبوة (4/48) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص258 ـ 260) والسِّيرة الحلبية (2/584 و585).

(3) أودّ أن أذكّر القارىء الكريم، بأنه في هذه الغزوة المباركة، نزلت آية التّيمم، وهي منْ تشريع الرحمة، ورفع الإصْرِ عن هذه الأمّة الإسلامية، وإلى يُمْنِ عائشة وبركتها في نزول تشريع التّيمم.

كما أحبُّ أنْ أشيرَ إشارةً ذات أهمية كبرى، وهي كشف مقابح النِّفاق، وفجور المنافقين، وخبث مكرهم وكيدهم للمسلمين، ففي بعضِ أحداث هذه الغزوة المباركة ـ غزوة المريسيع ـ نزلت سورة «المنافقون» كاشفة عن أبشع سوءات النِّفاق، وفجور المنافقين، وسوء كيدهم ومكرهم، وإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين، لتفريق كلمتهم، وتمزيق وحدتهم، كما أراد خبيث ورأسُ المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول أنْ يحدثه في أوهى الأسباب التي لا يخلو منها مجتمع عربي في تزاحم الجموع على الماء للسقيا،

جُوَيْرِيَّةَ ونَصرُ المُتَنَصِرِيْنَ:

بعد أن انتهى أمْر غزوة بني المُصطلق بذلك النَّصر المبارك السَّريع، عاد الرَّسولُ ﷺ إلى المدينة المنوّرةِ منصوراً مظفراً، تُساق الأسرى والغنائم والسَّبي من النِّساء والذَّراري بين يديه، وكان ذلك شيئاً كثيراً أنعشَ المسلمين، وأغناهم؛ والرِّوايات متّفقة على أنَّ عدد الأسرى كان أكثر من سبعمئة، وكانت غنائم الإبل ألفي بعير، وغنائم الشّاء خمسة آلاف شاة، وكان السَّبيُ من النِّساء والذَّراري أهل مائتي بيت.

هذا وقد قُسمتْ هذه الغنائم، ووزّعتِ الأسرى والسَّبايا والذَّراري بين المجاهدين، وكانت من بين السَّبايا السَّيِّدة العاقلةُ جُويرية بنت الحارث سيّد بني المصطلق؛ وكانت فتاة ما تزال في زهرات العمرِ الأولى، ووقعت في سَهْمِ ثابت بن قيس بن شمّاس الأنصاريّ رضي الله عنه فكاتبها على تسع أواق مِنَ الذَّهب.

= والطّهور، حيث ازدحم جهجاه الغفاري ـ وكان أجيراً لعمر بن الخطاب، وسنان بن وَبْر الجهني حليف الأنصار ـ على الماء فاقتتلا، وتناديا بدعوى الجاهلية، فصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين؛ وصرخ سنان: يا معشر الأنصار، فلمّا سمع ابن سلول المنافق تلك الدّعوى النتنة قال: أوَ قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل. . . . . . وهي قصّة طويلة ذكرناها في كتابنا «المبشّرون بالنّار» واستطاع الحبيبُ المصطفى ﷺ بحكمته أن يخمدَ أوارَ هاتيك الفتنة، وتنزلت إذ ذاك سورة «المنافقون» تكشف أعداء الله، وأعداء دِيْنِهِ، وأعداء رسوله الكريم ﷺ، وتفضح أولئك المنافقين الذين ينسجون خيوط الفجور، والتآمر بالمجتمع المسلم الطّاهر في ظلمات التّدسس والنِّفاق وفجور الكفر، وتحذِّر المسلمين كذلك من تلكَ الفتنة المنافقة التي تقذف بالفتن الجامحة لتفريق كلمة المسلمين.

وأودُّ أنْ أذكّرَ القارىء الكريم كذلك بحادثة الإفك التي تمثِّلُ أخبث وأخطر مكايد النِّفاق، ولؤم المنافقين، وقد بسطتُ ذل مفصلاً في سيرة أمِّ المؤمنين الصِّديقة بنت الصِّديق عائشة من هذا الكتاب فلتراجع.

كانتِ السَّيِّدةُ الحسيبة جُويرية بنت الحارث على حداثةِ سنِّها حين سُبِيت، قد زيّنها الله عزَّ وجلَّ بعقلٍ رصين، وخلق كريمٍ، وتفكيرٍ حصيف، وحسْنِ بصر بالأمور، وفصاحة، تعرف مواقع الكلام، وتدرك تأثيره في النُّفوس الكريمة، وتعزُّزٍ لا يصبرُ على الضَّيم، وسؤدد سما بها عنِ الرِّضا بمذلّة الرِّق، والتَّطلّعِ إلى الحرية الكريمة، إذ عاشت في ظلالِ العزِّ والسُّؤدد، وفي بيتٍ من أعزِّ البيوتِ العربيةِ المنيفة، الذي تخفق فيه رفرفات الشّرف والمجد والرِّفعة، ولذلك رضيتْ جُويرية بما كاتبت عليه ثابت بن قيس على الرّغم من كثرتها، لأنَّها كانت تتطلعُ بذكاء إلى معالي الأمور، تخوضُ لها لجج المكارم، لتقتعدَ على ذروتها، وتتسنّم قمّتها، فقد كانت ذات نفس كبيرة، استطاعت من خلالها أن تكسبَ الخلود على مدى الأيام، وتغدو حسيبة النَّسب بالاتصال بسيِّد الكائنات محمّدﷺ، ثمّ لتكون أمّاً للمؤمنين، وهل هناك مرتبة أرفع وأعظم وأكرم من هذه المرتبة؟! أمّا كيف غَدَتْ جُويرية درّة من دُرر العقد النَّظيم في نساء آل البيت النّبوي، فهذا ما ستكشفه لنا السُّطور التّاليات..

سُؤْددُ جُوَيْرِيَّةَ وطُمُوحُهَا:

أنعم الله عزَّ وجلَّ على السَّيِّدة جُويرية رضي الله عنها بنعمةٍ كريمة لفتت نظر أمّنا عائشة رضي الله عنها، فقالت تصفها: وكانت حلوة ملّاحة(١).

ويبدو أنَّ هذه الملاحة جعلتها متميزة بين النِّساء، فقد كانت تنظر إلى عليا الآمال، ومعالي العلا نظرة تدلُّ على طموحها الكريم، وفراستها المستلهمة من تربيتها الكريمة السَّامية.

فقد كان من سموِّ نفسها، ورفعةِ تصوراتها، وطموحِ آمالها، أنَّها بعد أنْ كاتبتْ على نفسها بذلك القَدْرِ الباهظ من المال، أنْ جاءت وآمالُ الفِراسة الصَّحيحة تقودها إلى سيِّدِ المكارم والمكرمات، وأكرم البشر، وأعلمهم بمنازل

---

(١) أي ذات بهجة وحسن منظر.

النَّاس ومقاماتهم، وأحقّهم أنْ تُمدَّ إليه يد العرفان، لانتشالها من وَهْدةِ ألقتها فيها أعاصير التَّخلف الجاهلية فباعدت بينها وبين حياتها التي كانت كلّها نسائم رقيقة من الصِّبا، ورشحات عبقة من ندى رغد العيش الرّفيف.

جاءت جُويرية رسول اللهﷺ النّبي الكريم، هذا الذي هزم[1] قومها، وأسر رجالهم، وسبى نساءهم، وذَراريهم بالأمس القريب، فكانت هي إحدى سَبَايا قومها، وهي ابنة سيّدهم ورئيسهم، ووقعتْ في سَهْمِ رجلٍ من عِلْيَةِ المسلمين، وفُصَحاء الأنصار؛ ثابت بن قيس خطيب الحبيب المصطفىﷺ في محافلِ المُنافرات، إلاّ أنَّ جويريةَ لم تصبرْ نفسُها الكبيرة على بلاءِ الرِّقِّ وهوانه.

وقفت جويريةَ أمام الرَّسول الكريمﷺ تستعينه على الخروجِ من سجن حريتها لتتنفَّس عبيرَ الكرامة، وتستشعر العزَّة التي كانت تتقلَّبُ بين أزاهرها، وطلبتْ منهﷺ أنْ يعينَها، وقصَّت عليه القَصَصَ فقالت:
يا رسول الله إنّي امرأةٌ مسلمةٌ، أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنّك رسولُ الله، أنا جويريةُ بنت الحارث سيِّد قومه، وكان من أمري ما لا يخفى عليك.

وفي رواية أنّها قالت: قد أصابني منَ البلاءِ ما لم يخفَ عليك، ووقعتُ في سَهْم ثابت بن قيس بن شمّاس، فكاتبني على ما لا طاقةَ لي به، ولا يدان لي، ولا قدرة عليه، وهو تسع أَوَاقٍ من الذَّهب، وما أكرهني على ذلك إلاّ أنّي رجوتُك

---

(١) جاء عن جويرية رضي الله عنها أنّها قالت: لما أتانا رسول اللهﷺ ونحن على المريسيع، سمعت أبي يقول: أتانا ما لا قِبَل لنا به.
فلبثت أرى من النَّاس والخيل والسِّلاح ما لا أصف من الكثرة.
فلّما أسلمتُ وتزوجني رسول اللهﷺ ورجعنا، جعلت أنظر إلى المسلمين فليسوا كما كنت أرى، فعلمتُ أنّه رُعْبٌ مِنَ الله يلقيه في قلوب المشركين.
(السِّيرة النبوية لأحمد زيني دحلان ١٠٣/٢)
وذكر الواقدي ـ رحمه الله ـ قال: كان رجلٌ من بني المصطلق قد أسلم فحسن إسلامه يقول: لقد كنا نرى رجالاً بيضاً على خيل بلْقٍ، ما كنّا نراهم قبل ولا بعد.
(المغازي ٤٠٩/١).

صلى الله عليك، وجئتك أسألك في كِتَابتي[1].

ولكَ عزيزي القارىء أن تتصور في تلك اللّحظات موقف جويرية أمام رسولِ اللهﷺ وهي ترجو مِنْ مكارمه الفيّاضة ما يحقّقُ حُرّيتها.

ولكنْ مَنْ كان يدري أنَّ جويريةَ رضي الله عنها، وَضَعَتْ رَحْلَ رجائِهَا بين يدي النَّبيِّﷺ، لتكون معه في أعلى علّيين، أَمّاً للمؤمنين، وحليلةَ سيّد المرسلين، وسيّد الأولين والآخرين. مَنْ كان يعلمُ ذلك؟.

كان ذلك في عِلْمِ العليم الخبير، قبل أنْ يخلقَ الله الأرضَ ومَنْ عليها؛ إذن، فليأخذِ الرَّسولُ الكريمﷺ بِيَدِ هذه المسلمة المؤمنة، وليلّحق بها في الفراديس، إلى أرفعِ منزلةٍ في الجنَّات ليخرجها منْ ضيقِ الرِّقِّ وسجنِ العبودية لغير الله عزَّ وجلَّ، إلى آفاق العزَّةِ، وإلى آمال السُّؤدد، وإلى أكرم المكارم، ولتكن زوجاً لأكرمِ البشر، ولتكن أمّاً لصفوة البشر، أمّاً للمؤمنين، أمّاً لثابت بنِ قيس، ومَنْ فوقه، ومَنْ دونَه من المسلمين، ولتكن سيّدة نبيلة من سيّدات نساء العالَمين، ولتنظم في السِّلْكِ الكريم، وتدخل البيت النّبويّ الطّاهر الذي طهّره الله عزّ وجلّ تطهيراً.

في ذلك الموقف النّبيل، أضحت جويريةُ بكلمةٍ واحدة أمّاً للمؤمنين، عندما قال لها سيِّدُ الأوّلين والآخرين حبيبنا محمّدﷺ وهي تسأله كتابتها: «هل لكِ في خيرٍ منْ ذلك»؟

فقالت ونور يقينِ الآمال تضيءُ نفسها: وما هو يا رسول الله؟ فقال الحبيبُ المصطفىﷺ: «أؤدي عنكِ كتابتك وأتزوَّجك»[2].

الله أكبر . . !! . .

---

(١) عن الإصابة (٤/٢٥٧) والسّمط الثمين (ص١٣٤ و١٣٥) بتصرف يسير، وانظر: تاريخ الطبري (٢/١١١) والكامل (٢/١٩٢) والمغازي (١/٤١٠).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام (المغازي ص٢٦٣) وأنساب الأشراف (١/٤٤١) ومغازي الواقدي (١/٤١٠).

اللهُ أكبر، أي غيثٍ هطّالٍ هذا الذي فاضتْ بهِ سماواتُ الغيب، لتروي بنميره العذب قلباً كان قبل لحظات يتحرّقُ طلباً لاستنشاقِ عبير الحرية؟!!.

الله أكبر، أي شعورٍ استأثر بمشاعر جويرية، وأي سموّ أجلّ وأسمى وأعظم من هذا الذي تسمعه من رسولِ اللهﷺ، وهو يقول: «أؤدي عنكِ كتابتك وأتزوّجك».

لقد كانت ترجوه أمْرٍ بسيطٍ، فإذا بهﷺ يُرجى للعظائم، نَعَمْ أعظم العظائم.

كانت جويريةُ حين تكلّمَ النَّبيُّﷺ، وتسمع كلامه، مليئةَ الفؤادِ بالأملِ المرجى، تتكلمُ وتسمعُ وهي رابطة القلب، ثابتة الجأش، ساكنة الفؤاد، مضيئة الرّوح، تنظرُ بعينِ البصيرة إلى المستقبلِ القريبِ، فأجابت رسولَ اللهﷺ إجابةً نورانية، فلم تتلعثمْ، ولم تتردَّدْ، ولكنّها أسرعتْ بكلِّ مشاعرِها وهي تقول: نعم، يا رسول الله، قد فعلت.

بَرَكَةُ جُوَيْرِيّةَ أمّ المُؤْمنينَ:

دخلتِ السَّيِّدةُ النبيلةُ جويرية ابنة الحارثِ إلى خدرها أمّاً للمؤمنين وزوجاً لسيِّدِ الأولين والآخرينﷺ، وحين ذاك سرى النّبأُ العظيم هَمْساً ندياً يصافحُ أسماعَ المسلمين، ويلامسُ نفوسهم، فتسامعوه بينهم، وتعالَمُوه في محافلهم، وأضاء ذاك الحدَثُ والحديثُ الآفاق، كما يضيء لمع البرقِ في السَّماء الصَّافيةِ.

قال المسلمون وقد صقلتهم التّربية المحمّدية، وهذّبتهم الآياتُ القرآنية النّدية: إنَّ رسولَ اللهﷺ قد تزوَّج السَّيِّدة جويرية بنت الحارث المصطلقية، فأرسَلُوا كلّهم ما في أيديهم من السَّبي وقالوا متعاظمين: هم أصهار رسول اللهﷺ(1).

---

(1) انظر المصادر التالية مع الجمع بينها:

طبقات ابن سعد (٨/١١٦) والبداية والنّهاية لابن كثير (٤/١٥٩) وزاد المعاد لابن قيم =

عن هذا الموقفِ النَّبيل، تتحدثُ السَّيِّدةُ عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، وتصوِّر تلك الرَّشحات النَّديةِ في جميعِ جوانبها، بأبرعِ أسلوب، وأوجز كلام فتقول: فما رأينا امرأة أعظم بَرَكَةً[1] على قومها منها، فلقد أعتقَ الله تعالى بها مئة أهل بيت من بني المصطلق[2].

وكان اسمُ جويرية رضي الله عنها برّة، فغيَّره رسول الله ﷺ، وسمّاها جويرية، كَرِهَ أنْ يُقال: خرج من عند برّة[3].

ومن الجدير بالذِّكْرِ ما أورده أبو عمر القُرطبيّ في «الاستيعاب» نقلاً عن أبي عُبيدة قال: تزوّج رسولُ الله ﷺ جويرية في سنةِ خمسٍ منَ التَّاريخ.

وقال أبو عمر القرطبيُّ في «الاستيعاب»: كان اسمُها برّة فغيّر رسولُ الله ﷺ اسمها وسمّاها جويرية[4]. وكذلك فعل ﷺ مع زينبَ بنتِ جحش أمّ المؤمنين، وميمونة أمّ المؤمنين، وزينب بنت أبي سلمة رضي الله عنه، كان اسم كلّ واحدة

= الجوزية (١١٣/٣) وشرح المواهب اللّدنية (٩٥/٢ و١٠٢) وغيرها من كتب السّيرة والتّراجم.

(١) كان هذا الزّواجُ النّبويّ الميمون رحمةً ببني المصطلق، حيث أسلم كثيرٌ منهم، بما فيهم الحارث والد جويرية التي أضحت أمّاً للمؤمنين باقترانها برسولِ الله ﷺ، وكان الزّواج النّبويّ أيضاً فتحاً للإسلام، وقد كان إلْباً عليه، ويذودُ عن حياضه بعد أن كان نقمة وعدواً لدوداً من أعدائه.

(٢) للحديث أصل في مسند الإمام أحمد (٢٧٧/٦) وعند أبي داود في العتق (٣٩٣١) وذكره البيهقيّ في دلائله (٤٩/٤ و٥٠) والحاكم في مستدركه (٢٦/٤ و٢٧) وابن سعد في طبقاته (١١٦/٨ و١١٧) والمغازي للواقدي (٤١١/١) والسّيرة النبوية لابن هشام بشرح أبي ذر الخشني (ص١٣٥) والكامل (١٩٢/٢) والمواهب اللدنية (٩١/٢).

(٣) الحديث أخرجه مسلم في الآداب، باب: استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن وتغيير اسم برة إلى زينب ونحوها برقم (٢١٤٠) وانظر المسند (٤٢٩/٦ و٤٣٠) وطبقات ابن سعد (١١٨/٨) وأزواج النبي للصالحي (ص٢٠٧) والمجتبى (ص٩٥) والسمط الثمين (ص١٣٦) والسيرة الحلبية (٥٨٦/٢) وغيرها من المصادر المتنوعة.

(٤) الاستيعاب (٢٥٣/٤) والمغازي (٤١٢/١).

منهن برّة، فحوّلهﷺ إلى هذه الأسماء[1].

جُوَيْرِيَّةُ ونَفْحَةُ إنْعَامٍ رَبَّانيَّة:

روى الإمام البيهقيُّ ـ رحمه الله ـ عن أمِّ المؤمنين جُويرية رضي الله عنها قالت: رأيتُ قَبْلَ قدوم النَّبيِّﷺ بثلاثِ ليال، كأنَّ القمر يسيرُ من يثْرَب حتى وقعَ في حجري، فكرهتُ أنْ أُخْبِر أحداً، فلمّا سُبينا، رجوتُ الرؤيا، فأعْتقني وتزوّجني[2].

وكانت أمُّ المؤمنين جويرية عندما تزوَّجتْ رسولَ اللهﷺ في ميعةِ الصِّبا، وقد ذكرت عمرها، وقتذاك فقالت: تزوّجني رسولُ اللهﷺ وأنا بنتُ عشرين سنة[3].

وكانت جويريةُ رضي الله عنها من أجمل النِّساء كما ذكر الإمام الذّهبيّ ـ رحمه الله ـ في سِيَرِهِ[4].

وأعتقدُ أنَّ نفحةً منْ نَفَحاتِ الإنعام الإلهيّ، جعل جُويرية رضي الله عنها بهذه المنزلة العظيمة، منزلة أمّهات المؤمنين الطّاهرات، فقد أكرمها الله عزّ وجلّ بالعقلِ الحصيف، والرّأي الموفّق الرَّصين؛ وتغلغل الإيمانُ ورسخ في نفسها فجعلها رزينةً هادئة مطمئنةَ الضَّمير، وراحت بفكرها المتسامي عن رغائبِ الأرض، ودنايا الأمور تنظرُ إلى العلياء، وإلى معالي المعالي في السِّيادة الحقيقية.

تركتْ وتناستْ ترفَ البيت الذي كانت سيّدة ومتسيِّدة فيه بمواريثِ الجاهلية الجهلاء التي لا تعرفُ إلا فُرُشاً وثيرة، وسُرراً مرفوعةً، وطعاماً شهياً، وشراباً سائغاً هنياً، وذَوَاقاً مَرِيّاً طرياً، وذلك بين أترابٍ تعلو وجوههن ابتسامات

---

(١) السمط الثمين (ص١٣٦).

(٢) دلائل النبوة (٤/٥٠) وانظر: المستدرك (٤/٢٧) ومغازي الواقدي (١/٤١١ و٤١٢) والبداية والنهاية (٤/١٥٩) وحياة الصحابة (٣/٣٢٥) والسيرة الحلبية (٢/٥٩٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/٢٦٣) وانظر المواهب اللدنية (٢/٩١).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/٢٦١).

وضحكات، ينعّمن في حياة معطّلة بترفٍ عن الحركة النّفسيّةِ أو الفكرية، وحتى الحركة البدنيّة التي شلَّها الفراغُ الملول.

في لحظةٍ مرَّتْ كَمَرِّ السَّحاب، تركتْ جويرية هذا كلّه، ورغبت في النَّعيم المقيم الذي رأته بآفاقِ بصيرتها الممتدة إلى ما وراء الأشياء، ورأته كذلك ببصيرة عقلها الذي جعلته الدليل على الحكم بين الأشياء، ناهيك بالنَّفحة الرَّبانية الإلهية التي اكتنفت أمّنا جُويرية كيما تحظى بأشرفِ مقامات الشَّرف، وأعلى مقامات السُّمو بأمومةِ المؤمنين.

وإلا فما الذي جعل امرأة سيّدة مثل جويرية ابنة سيد قومها على سرعة رضاها والمسارعة بالإيجاب، وهي في عمر الزُّهرةِ التي تطلُّ مِنْ برعمها متنفِّسة أنفاسَ الحياة مع ندى الصَّباح في ظلال الرَّبيع السَّاحر الآسر ذي النَّسائم المُسْتَحلاة، والأوقات المُسْتَجلاة؟

أجل، إنَّ النَّفحة الإلهيّة، والمقادير الغيبية هي التي ألقتْ بآمالِ جويرية ورجاواتها بين يدي أكمل البشر، وأكرم الكرماء سيّدنا وحبيبنا محمّدﷺ، وجاءته على استحياء تسأله في كتابتها وهو في بيت أمّ المؤمنين الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق عائشة رضي الله عنها.

في رحلةِ الإنصاف الممزوج بالغيرةِ، تقول أمُّنا عائشة تصفُ جويرية فأنصفتِ القولَ، وأنْصَفَتْ جويرية:

وكانت امرأة حلوة ملّاحة، لا يراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه.

لكنَّ هذه الملاحة[1] والحلاوة، فَعَلتْ ما فعلت في نَفْس عائشة رضي الله

---

(١) الملّاحة: وصف مبالغة في الملاحة، وهي استواء مواطن الحسن والحلاوة.
وهي من قولهم: طعام مليح، إذا كان فيه ملح بقدر ما يصلحه، فيطيب طعمه.
قال الإمام أبو القاسم السُّهيليُّ ـ رحمه الله ـ في الرَّوض: ولذلك إذا بالغوا في المدح قالوا: مليح قزيح، فمليح من ملحت القدر، وقزيح من قزحتها، أي طُيِّبَتْ نكهتها بالأفاويه، وهي الأقزاح.

عنها، فهل استطاعت عائشةُ وهي الحبيبة النَّبوية أنْ تصنعَ شيئاً؟!

إنَّ العنايةَ الإلهيّةَ، والنَّفحات النَّدية المجللة بإنعام الإنعام، جعلت من هذهِ الوافدة أمّاً أخرى لجماعةِ المؤمنين، وشاركت في هذا العِقْد بقية الأخريات اللواتي سبقنها إلى دوحة البيت العظيم الطَّاهر.

ولكنَّ أمَّنا عائشة مع هذا كلِّه، تنفحنا برحيقِ أحاديثها الفوّاحة بالصّدق، الممزوجة بحبِّ الإخلاص، ورسوخ الإيمان، وكيف لا؟ وقد صُنِعتْ عائشة على عيني الصِّدِّيق، وأحاطت بها العناية والرِّعاية المحمّدية؟!

إذن دعنا نستمعْ إلى عائشةَ وهي تتحدث عن مشاعرِها وشعورها في تلك السَّاعة التي رأت فيها جويرية على باب حجرتها. قالت عائشة رضي الله عنها: فوالله، ما هو إلاّ أنْ رأيتُها على باب حجرتي، فكرهتها، وعرفتُ أنَّه سيرى منهاﷺ ما رأيتُ[1] ـ أي من ملاحتها ـ

ولكنَّ نفحاتَ الإنعامِ جادت بكفِّها على جُويرية رضي الله عنها، وخلعت النَّفحات الرَّحمانية جلابيب السِّيادة الحقيقية، فكانت أمّاً للمؤمنين توقيراً وتعظيماً، وإسعاداً لها بكنفِ رسول اللهﷺ، وإدخالاً للبهجةِ على رسولِ اللهﷺ بما وهبها الله عزَّ وجلَّ مِنْ كمال إنساني كانت به من صفة الصَّفوة من نساء العالَمين.

---

(١) هذا القول من أمّنا عائشة رضي الله عنها، إنّما هو رشحة من رشحات الغَيرة على رسول اللهﷺ لشدّة حبّها له، وغيرتها عليه، وكان لهذه الغيرة عند أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها مظاهر أكثر مما كان عند غيرها من الزّوجات الكريمات الطّاهرات، وفي حياتهن معهﷺ أكثر من دليل على أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت تعيشُ معه في ذروة هذه الغيرة التي استحوذت على مشاعرها، ونلاحظ هذا من خلال سيرة أمّ سلمة أمّ المؤمنين، وزينب بنت جحش أمّ المؤمنين، وجُويرية أمّ المؤمنين، وصفية بنت حييّ أمّ المؤمنين وغيرهن رضي الله عنهن؛ ويبدو أنَّ بعضَ أمّهات المؤمنين كن يُذكِّرنَ جويرية بالسَّبي، فقالت جُويرية لرسول اللهﷺ: إنَّ أزواجَك يفخرن عليَّ ويقُلن: لم يتزوجك رسول اللهﷺ؛ قال: «أولَمْ أعظمْ صداقك؟ أولم أعتق أربعين رقبة من قومك»؟!

القَانِتَةُ الذَّاكِرَةُ:

لقيَتْ أمُّ المؤمنين جُويرية رضي الله عنها في بيتِ الرَّسولﷺ، ما تشتهيه الأنْفس، وتلذُّ الأعين في العبادةِ والتُّقى وحُسْنِ الصِّلة بالله عزَّ وجلَّ على أساسٍ صحيحٍ، فراحتْ تحذو حَذْوَ أمّهاتِ المؤمنين في الصَّلاح والعبادة وتقتبسُ منَ الرَّسولِ ﷺ ومنْ أخلاقِهِ، ومن شمائلِهِ الحميدة ما استطاعتْ إلى ذلك سبيلاً، حتى غَدَتْ مثلاً شَروداً في الفَضْل والفضيلة.

كانت جويرية أمُّ المؤمنين عليها سحائب الرّضوان منَ الذَّاكرين الله كثيراً والذَّاكرات، ومنَ العابداتِ القانتاتِ، ومنَ الصَّابرات في مجال مناجاة الله عزَّ وجلَّ، وتحميده، وتقديسه، وتسبيحه، وذِكْرِه بالغدوِّ والآصالِ، وحين تصبحُ، وحين تظْهِر، وحين تُمسي.

أخرج الإمام التّرمذيّ ـ رحمه الله ـ بسندٍ صحيحٍ عن عبد الله بنِ عبّاس رضي الله عنهما عن جُويرية رضي الله عنها:

أنَّ النَّبيﷺ مَرَّ عليها، وهي في مسجدها[1] أوّل النَّهار؛ ثمَّ مرَّ عليها قريباً من نصف النَّهار، فقال لها: «ما زلتِ على حالك»؟

قالت: نعم

قالﷺ: «ألا أعلّمك كَلِمَات تقوليهن؟

سبحان الله عَدَدَ خلقه، ثلاث مرات،

سبحان الله رضا نفسه، ثلاث مرات،

سبحان الله زِنَةَ عرشه، ثلاث مرات،

سبحان الله مِدَاد كلماته، ثلاث مرات»[2]

---

(١) في مسجدها: أي في موضعها المعد للصّلاة من بيتها.
قال ابن حجر: مصلّاها: وغلب السّجود، لأنه أشرف الأركان مطلقاً.

(٢) أخرجه التّرمذي.

وروى مسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه عن جُويرية رضي الله عنها قالت: أتى عليٌّ رسولُ الله ﷺ فقال: «لقد قلتُ بعدك أربعَ كلمات ثلاث مرات، لو وُزِنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن[1]: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»[2].

أيّ فَضْل أفْضل وأرفع، وأي شرف أشرف وأعلى، من فضل وشرف جَمَعَا بين فضائل العلم والتّسبيح؟! وأيّ مكرمة أعظم من هذا الذي حَدَثَ لجويرية رضي الله عنها؟

لقد انتهتْ بما انتهتْ إليه من النُّور، والهدى، والرحمة، والسَّعادة في زواجها من رسولِ الله ﷺ، وشَرُفَ بنو المصطلق رئيسهم الحارث بهذه المصاهرة التي رفعتهم عليّاً، حيث أضحتْ ابنة سيّدهم زوجاً وأمّاً للمؤمنين، وكانت ميمونة السَّنا والنَّقيبةِ على قومها إذ أعتقهم الله تعالى بها وببركتها من رِقِّ العبودية، وأقبل بهم أبو جويرية الحارث بن أبي ضرار على الإسلام، ودخلوا في دِيْنِ الله أفواجاً، وحَسُنَ إسلامهم، وشرفوا به، وكانوا من كتائبِ المجاهدين، ومن فرسان مدرسة النّبوّة الميامين، الذين اختصّهم الله عزَّ وجلَّ لنصرةِ دِيْنِهِ، ونشر رسالته، وإعلاء كلمته.

ويتبادر لي أنَّ بركةَ أمِّ المؤمنين جويرية تَخَطَّتْ قومها، لتعمَّ المسلمين، فلقد كانت غزاةُ قومها غزاةً جمعتْ من معالم منهج الرِّسالة أحداثاً تشريعيّة، وحوادث اجتماعية، وأحكاماً فقهية، وآداباً سياسية قيادية كتمت أنفاسَ النِّفاق، وفضحت كيد المنافقين، وشدَّدَتْ من قوّة تماسكِ هذا المجتمع الذي أشجاهم حتى ماتوا بغيظهم لم ينالوا خيراً.

---

(١) لوزنتهن: أي عادلنهن، أو غلبتهن وزادت عليهن في الوزن؛ كما يقال: حاججته: أي غلبته في الحجة، ويؤيده أنه ورد عن الطبراني ـ رحمه الله ـ أنه ﷺ قال: «لقد قلتُ بعدك كلمات ثلاث مرات هن أكثر وأرجح مما قلت».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٧٢٦) وأبو داود في سننه، وأخرجه كذلك الإمام أحمد في مسنده (٦/٤٢٤ و٣٢٧ و٤٢٩ و٤٣٠) وابن سعد في طبقاته (١/١١٩).

العَالِمَةُ نَاقِلَةُ الحَدِيْثِ:

إذا أراد الله عزَّ وجلَّ بامرىءٍ خيراً، أكرمه بالإقبالِ على العِلْم يقتبسُ مِنْ نورهِ ما شاء، ليكملَ طريق الهداية والحقِّ في هذه الحياة الدُّنيا، كيما يكون مِنَ المقبولينَ، ومنَ الفائزين، ومن السُّعداء.

وأمُّنا جويرية رضي الله عنها ممن أرادَ الله بها خيراً، فقد زاد الله عزَّ وجلَّ هذه السَّيِّدة العظيمة زوج النَّبيِّ ﷺ كمالاً فوقَ كمالها، ونُبلاً فوق سيادتها، ومكانة فوق سؤددها، حيث جَعَلَتْ حصافةَ عقلها، وزكانة تفكيرها، وإشراقَ روحها، وصفاءَ قلبها، ونقاءَ سريرتها بين يدي رسول الله ﷺ، وهي ترقُبُه في عبادته الخاصّة يوم يكون في بيتها، وتشهده في تسبيحه لخالقه، وتقديسه لبارئه، وتصغي إليه وهو يوحّد الله عزَّ وجلَّ، وتصيخُ إليه وهي تسمع أحاديثه العِذاب في أدبِ وآدابِ الإسلام الاجتماعي، وأحكامه العباديّة، وشرائعه النِّظامية، وتلحظُ بعين الحقيقة تلطّفه ﷺ في عشرته الزّوجية، وتقرأُ الرَّحمة في معاملته الدَّاخلية والخارجية، فتعي ذلك كلّه وَعْياً ضابطاً محكماً يرويه عنها مِنْ أصحابه الذين وهبوا حياتهم للعِلْم، فوهبهم العلم تاجه ونوره، إذ يأخذونه عن رسولِ الله ﷺ مشافهة، أو رواية أقرب ما تكون للمشافهة، إمّا لأنّه سماعٌ عن أقرانهم، أو شهودٌ لمجالسِ سماعه، أو تلقياً لأسراره من أمّهات المؤمنين زوجاتهِ الطّاهراتِ، وأخذاً لحقائقهِ العلمية ممن كان أهلاً لحملِ هذه الحقائق والأسرار التَّشريعية، والآداب السُّلوكية في تربية البيت ومَنْ يضمّه بين جنباته.

هذا وقد كانت امُّ المؤمنين جُويرية زوج النّبيِّ ﷺ واعيةً عالمةً بما تسمعُ، عاملةً بما تعلم، تقيّةً، نقيّةً، وَرِعةً، فقيهةً، عابدةً، مضيئةَ القلبِ والعقل، مشرقةَ الرُّوح، تحبُّ الله عزَّ وجلَّ، وتحبُّ رسولَه الكريمَ ﷺ، وتحبُّ الخيرَ للنَّاس[1] أجمعين.

---

(١) من نماذج حبها الخير للنّاس، ما كانت تتعلمه من رسول الله ﷺ. فقد أخرج البزّار ـ رحمه الله ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنّ جويرية رضي الله عنها قالت للنّبيِّ ﷺ: إنّي =

وكانت جُويرية رضي الله عنها تروي مِنْ حديث رسول الله ﷺ، يرويه عنها سَدَنَةُ العِلْم من علماء الصَّحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ لينشروه في المجتمع المسلم عِلماً وعملاً، ودعوة وهدياً وهداية.

روى عن أمّنا جويرية من الصَّحابة: حَبْرُ الأمّة عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم.

وروى عنها من الأجلاء: كريب مولى ابن عباس، والطُّفيل ابن أخيها، وعُبيد بن السَّبَّاق، ومجاهد، وأبو أيوب يحيى بن مالك الأزديّ، وآخرون[1].

هذا وقد جاء لأمّ المؤمنين جويرية رضي الله عنها سبعة أحاديث، منها حديث عند الإمام البخاريّ، وعند الإمام مسلم حديثان[2].

وقد روى عنها أصحاب السُّنن الأربعة أيضاً في كتبهم.

ومن مروياتها الحديث الذي أخرجه الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه بسندهِ عن قتادة عن أبي أيوبَ عن جويرية بنتِ الحارث رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ دخل عليها يوم الجمعة، وهي صائمة فقال:

«أصُمْتِ أمس»؟

قالت: لا

قال: «تريدين انْ تصومي غداً»؟

قال: لا

قال: «فأفطري»[3]

= أريد أنْ أعتق هذا الغلام. قال: «أَعْطِهِ خالك الذي في الأعراب يرعى عليه فإنّه أعظم لأجرك» (مجمع الزوائد ١٥٣/٨).

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢٦١/٢) والفتوحات الرّبانية على الأذكار النّواوية للصديقي (١٩٣/١) والإصابة لابن حجر (٢٥٧/٤).

(٢) انظر الأحاديث في صحيح مسلم رقم (١٠٧٣ و٢٧٢٦).

(٣) أخرجه الإمام البخاريّ في الصّوم، باب: صوم يوم الجمعة؛ انظر فتح الباري (٢٧٣/٤) حديث رقم (١٩٨٦) وأخرجه كذلك أبو داود في الصوم برقم (٢٤٢٢) وأحمد في المسند

فقد كان من هَدْيِهِ ﷺ كراهة تخصيص يوم الجمعة بالصَّوم فِعْلاً منه وقَوْلاً، وصحَّ النَّهيُ عن إفرادِهِ بالصَّوم، ولذلك أدلّةٌ في الصِّحاح والسُّنَن من حديثِ جابر بن عبد الله، وأبي هريرة، وحديث جويرية الآنف الذِّكر، وعبد الله بن عمرو، وجُنادة الأزدي[1]، ـ رضي الله عنهم ـ وغيرهم.

وثبت أنَّه ﷺ شربَ يوم الجمعة وهو على المنبر، يريهم أنَّه لا يصوم يوم الجمعة، وعلل المَنْعَ من صومه بأنّه يومُ عيدٍ، فقد روى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يومُ الجمعة يوم عيد، فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلا أنْ تصوموا قبله أو بعده»[2].

وقد أخرج السُّتة إلا البخاري، حديث التَّسبيح والذِّكر الذي مَرَّ معنا في ثنايا سيرة أمّنا جُويرية، ولا مانع من إعادةِ الخبر هنا، فقد أخرج السُّتة إلا البخاري عن جويرية أمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ خرج مِنْ عندها، ثمَّ رجع بعد أنْ أضحى، وهي جالسة، فقال: «ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها»؟

قالت: نعم.

قال النَّبيُّ ﷺ: «لقد قلتُ بعدكِ أربعَ كلمات ثلاث مرّات لو وُزنت بما قلتِ منذ

= (٦/ ٤٣٠) وابن سعد في الطَّبقات (٨/ ١١٩) وانظر الإصابة (٤/ ٢٥٧) وزاد المعاد (١/ ٤١٨).

(١) حديث جابر أخرجه البخاري؛ انظر فتح الباري (٤/ ٢٧٣) برقم (١٩٨٤) ومسلم (١١٤٣) وحديث أبي هريرة أخرجه البخاري: انظر فتح الباري (٤/ ٢٧٣) برقم (١٩٨٥) ومسلم (١١٤٤) وأبو داود (٢٤٢٠) والتِّرمذي (٧٤٣)
وحديث جويرية مرّ آنفاً برقم (١٩٨٦) وعند أبي داود برقم (٢٤٢٢).
وحديث عبد الله بن عمرو أخرجه ابن خزيمة برقم (٢١٦٤) وابن حبان (٩٥٧).
وحديث جنادة أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والنسائي في السنن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ في المسند (٢/ ٣٠٣ و٥٣٢) وابن خزيمة (٢١٦١) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٩٩) ونسبه إلى البزار وقال: إسناده حسن.

اليوم لوزنتهن:
سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزِنَةَ عرشه، ومداد كلماته».
وفي رواية لمسلم: «سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضاء نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته».
زاد النّسائي في آخره: «والحمدُ لله كذلك»
وفي رواية له: «سبحان الله وبحمده، ولا إله إلا الله، والله أكبر عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، وعدد كلماته»[1]

ومن الجدير بالذِّكر أنَّ أمّنا جويرية قد كُتِبَ لها شرف الجهاد، وشرف الصُّحبة مَعَ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ إلى ساحاتِ إعلاء كلمةِ الله؛ أخرج ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ عن عبد الله بن أبي فروة قال: سمعتُ عبدَ الرحمن الأعرج يحدِّثُ في مجلسِهِ بالمدينة يقول: أطعمَ رسولُ الله ﷺ جويرية بنت الحارث بخيبرَ ثمانين وسقاً تمراً، وعشرين وسقاً شعيراً[2].

مَعَ الصِّدِّيقِ والفَاروقِ رضي الله عنهم:

عاشت أمُّ المؤمنينَ جُويرية رضي الله عنها عيشةً كريمةً في ظلالِ الخلافة الرَّاشدة، فقد كان سيّدنا أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه يعرفُ مكانة أمّهات المؤمنين الطّاهرات رضي الله عنهن، وكان يقسم المال بينهن بالسَّوية.

فلّما ماتَ أبو بكر رضي الله عنه، واستخلفَ عمر رضي الله عنه، فتحَ الله عليه الفتوح، فجاءه المال أكثر من ذي قبل فقال: قد كان لأبي بكْرٍ في هذا المال رأْي، ولي رأي. . . ثمّ فرضَ لأزواجِ رسول الله ﷺ اثني عشر ألفاً لكلِّ امرأة، إلا صفية ابنة حُيي، وجُويرية ابنة الحارث رضي الله عنهما، ففرض لكلِّ واحدة ستةُ آلاف درهم، فأبين أنْ يأخذنها، فقال: إنّما فرضتُ لهنّ[3] بالهجرة، فقلن

(١) انظر: حياة الصحابة (٤/٤٦).
(٢) طبقات ابن سعد (٨/١١٩ و١٢٠).
(٣) أي لبقية نساء رسول الله ﷺ.

لعمر: ما فرضتَ لهنَّ بالهجرةِ، إنَّما فرضتَ لهنَّ لمكانتهن مِنْ رسول اللهﷺ، ولنا مثل مكانهن.

فقالت عائشة رضي الله عنها: إنَّ رسولَ اللهﷺ كان يعدلُ بيننا؛ فأبصر عمر ذلك فجعلهن سواء، وعَدَلَ بينهن.

وظلّتْ مكانةُ جُويرية نفسها في الخلافة الرَّاشدة، وفي بدايةِ العهد الأمويّ، تحظى بالاحترامِ والتّوقير من النّاس جميعهم.

«ارجِعي إلى رَبِّكِ»:

توفي الحبيبُ المصطفىﷺ وهو راضٍ عن أزواجهِ الطَّاهرات، ومنهن جويرية بنت الحارث رضوان الله عليها.

وعاشت أمُّنا جويرية بَعْدَ رسولِ اللهﷺ راضيةً مرضيةً، قضتْ شَطْر حياتها في أفياءِ عدل خلفاء النّبيّﷺ ومع أزواج النّبي الطّاهرات، وكانت حياتُها منعمةً بالعِلْم والذِّكْر والدُّعاء والتّسبيح، وتلقين العِلْم لأهل العِلْم الذين ينشدون مآربهم العلميّة في المدينة المنوّرة، ويقصدون مناراتِ العِلْم، وشوامخ الرّواة، ومنْ هؤلاء زوجات النّبيِّ الطّاهراتِ رضي الله عنهن.

وكانت جويرية أمُّ المؤمنين بما حفظته عن رسولِ اللهﷺ، تحكي بعضَ الذكريات عن حياتها مع الرّسولِﷺ، أو تتحدث عن قصّةِ زواجها من رسولِ اللهﷺ.

وامتدتْ حياة أمِّ المؤمنين جويرية رضي الله عنها إلى خلافةِ سيّدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وقد بلغت سبعين سنة.

ففي سنةِ خمسين[1] من الهجرة النّبوية الشّريفة، شعرتْ أمُّ المؤمنين جويرية رضي الله عنها بقربِ لقاء الله عزَّ وجلَّ، وشعرت بالمرضِ يدبُّ في جسمها، وفي

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/١٢٠) وسير أعلم النبلاء (٢/٢٦٣) والمواهب اللدنية (٢/٩١) وأزواج النبي للصالحي (ص٢١١).

شهر ربيعٍ الأول من السَّنَةِ نفسها توفيت أمّ المؤمنين جويرية رضي الله عنها، وشُيّع جثمانها إلى البقيع لترقد في مثواها الأخير، إلى جانب أمّهات المؤمنين، وبنات الحبيب الأعظمﷺ، وصلى عليها مروان بن الحكم، وكان إذ ذاك أمير المدينة المنوّرة.

هذه قطوفٌ دانيةٌ مباركةٌ من سيرةِ أمّنا جويرية إحدى نساء أهلِ البيت النّبويّ الذي خصّه الله عزّ وجلّ بالطّهارة فما أعظم بركة جويرية علينا! وما أجملَ سيرتها التي تشرح الصدور! رضي الله عنها وأرضاها.

أُمّ المؤمنين
صفيّة بنت حُيَي
رضي الله عنها

ـ كانت صفيةُ منْ عُقَلاء النِّساء، ومن ذوات التُّقى والصَّفاء، والشَّرف والحلم، والوقار والفَضْل، والعبادة والورع والزُّهد.

ـ قال لها النَّبيُّ ﷺ: «إنَّكِ لابنةِ نبيّ، وإنَّ عمَّك لنبي، وإنَّك لتحت نبيّ».

ـ شهدَ لها النَّبيُّ ﷺ بالوفاء والصِّدق فقال: «والله إنّها لصَادقة».

ـ كانت مُحِبّةً للعلم والمعرفة، وهي منْ رَاويات الحديث النّبويّ.

ـ لحقتْ بالرَّفيقِ الأعلى سَنة (٥٠هـ) ودُفنتْ بالبقيع مع أمّهات المؤمنين.

أُمّ المؤمنين
صفيّة بنت حُيَي رضي الله عنها

حَدِيْثٌ مِنَ السِّيْرَةِ:

كان اليهودُ في المدينةِ المنوَّرةِ ـ وغيرها ـ ينظرونَ إلى الإسلامِ بعينِ الحِقْد والكراهية والحَسَد، فالحبيبُ المصطفى ﷺ لم يكنْ منْ جنسهم، كيما يسكنَ جأش غضبتهم الجنسيّة التي كانت متغلِّبة على نفسيّاتهم وعقليتهم.

من ناحيةٍ أخرى، كانت دعوةُ الإسلام دعوةً صالحةً تؤلّف بين أشتاتِ القُلوب، وتطفىءُ نارَ العَدَاوة والبغضاء، وتدعو إلى التزامِ الأمانةِ في الأمور كلِّها، وإلى الالتزامِ والتّقيد بأكلِ الحلال منْ طيِّبِ الأموالِ.

وهذا يعني أنَّ قبائلَ المدينة العربية ستتألَّفُ فيما بينهما، وحينئذٍ لا بدَّ مِنْ أنْ تفلتَ مِنْ براثنِ اليهود، فيفشل نشاطهم التّجاري، ويحرموا أموال الرّبا الذي كانت تدورُ عليه رحى ثروتهم، وتَقْوى به شوكتُهم وممتلكاتهم.

كان اليهودُ بخبثهم ومراوغتهم ونفسياتهم الضَّبابية، يُدْخلونَ ذلك كلَّه في حسابهم منذ عرفوا أنَّ دعوةَ الإسلام ستستقرُّ في المدينةِ، ولذلك كانوا يبطنُونَ أشدَّ العداوة للإسلام، وللرَّسول الكريم ﷺ منذ أنْ دخلَ المدينة ،وإنْ كانوا لم يتجاسروا على إظهارها علانية، إلا بعد حينٍ منَ الدَّهْرِ.

(٢) إنَّ ذلك يظهر جلياً واضحاً أشدَّ الوضوح بما ذكرته ضيفة اليوم التي نعطّرُ الأسماعَ والأفواه بسيرتها، وهي واحدة مِنْ نساء أهل البيت الطَّاهر، إنَّها السَّيِّدة

صفية بنتُ حيي بنِ أخطب الهارونية[1] رضي الله عنها.

ففي سيرته المعطار، روى ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ عن أمِّ المؤمنين صفية رضي الله عنها قال: حُدِّثْتُ عن صفية بنتِ حيي بن أخطب أنَّها قالت:

كنتُ أحبَّ وَلَدَ أبي إليه، وإلى عمّي أبي ياسر، لم ألقها قطّ مع وَلَدٍ لهما إلا أخذاني دونه، فلّما قدمَ رسولُ اللهﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف،

---

(١) المسند للإمام أحمد (٦/٣٣٦) وطبقات ابن سعد (٨/١٢٠ ـ ١٢٩) والمعارف (ص١٣٨ و٢١٥) والمستدرك (٤/٢٨ و٢٩) والاستيعاب (٤/٣٣٧ ـ ٣٣٩) وجامع الأصول (٩/١٤٣) وأسُد الغابة (٦/١٦٩ ـ ١٧١) ترجمة رقم (٧٠٥٥) والعِبَر (١/٨ و٥٦) وسير أعلام النّبلاء (٢/٢٣١ ـ ٢٣٨) ومجمع الزّوائد (٩/٢٥٠) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/٣٤٨) وتهذيب التّهذيب (١٢/٤٢٩) والإصابة (٤/٣٣٧ ـ ٣٣٩) وكنز العمال (١٣/٦٣٧ و٧٠٤) وشذرات الذّهب (١/٢٤٥) والسّمط الثّمين (ص١٣٧ ـ ١٤٢) والمجتبى (ص٩٥ و٩٦) وصفة الصّفوة (٢/٥١) وتلقيح فهوم الأثر (ص٢٣) وتاريخ الطّبري (٢/١٣٥ و١٣٧ و١٤٠ و٢١٣) وتاريخ الإسلام للذّهبي (عهد معاوية ص٦٧ ـ ٧٠) والكامل لابن الأثير (٢/٢١٧ و٢٢٠ و٢٢٣ و٣٠٩) و(٣/٤٧١) وجلاء الأفهام (ص١٩٨ و١٩٩) وجوامع السّيرة النّبوية (ص٣٣) والفُصول (ص١٨٩ و١٤٧ و٢٥١ و٣٣١) ودلائل النّبوة للبيهقيّ (٤/٢٢٧ و٢٢٦ و٢٦٧) وأعلام النّساء (٢/٣٣٣ ـ ٣٣٦) وأزواج النّبي وأولاده لأبي عُبيدة (ص٧٤ و٧٥) وحلية الأولياء (٢/٥٤) وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الرّاشدين ص٤٢١ ـ ٤٢٥) ورجال مبشّرون بالجنة (٢/٢٧٣) وعيون الأثر (٢/٣٨٥ ـ ٣٨٧) والمحبّر (ص٩٠ ـ ٩٢ ـ ٩٨) والأسماء المبهمة (ص١٤٦ و١٤٧) ومسند أبي يعلى (١٢/٤٩٣) و(١٣/٣٣ ـ ٤١) والمغازي للواقدي (ص٣٧٤ و٦٦٨ و٦٦٩ و٦٧٣ و٦٧٤ و٧٠٤ و٧٠٦ و٧٠٧ و١١١٤) والسّير والمغازي (ص٢٦٤ ـ ٢٦٦) والمعرفة والتّاريخ (١/٤٦٣ و٥٠٨ و٥٠٩) و(٢/٢٠١ و٢٤٧ و٦٥٣) والعقد الفريد (٦/١٢٨) وأنساب الأشراف (١/٤٤٢ و٤٤٤ و٤٤٦ و٤٤٨ و٤٦٧ و٥٤٦) والوافي بالوفيات (١٦/٣٢٤) وتقريب التّهذيب (٢/٦٠٣) ومفحمات الأقران (ص١٦٦ و١٦٨) وغرر التّبيان (ص٤٢٠) وفتح الباري (٧/٥٣٦) حديث رقم (٤٢٠١) وتفسير القرطبيّ (١٤/١٦٦) وتحفة الأحوذي (١٠/٣٩١) وزاد المعاد (١/١٠٦ و١٠٩ و١١٢) ودلائل النّبوة للأصبهاني (١/٨٩) ونور الأبصار (ص٤٨) وغير ذلك من كتب الحديث والسّيرة والطّبقات والتّاريخ.

غدا عليه أبي حُيي بن أخطب، فلمْ يرجعَا حتى كانا مع غروبِ الشَّمس، فأتيا كالَّيْن، كسلانَيْن، ساقطَيْن، يمشيان الهوينى، فهششتُ إليهما كما كنتُ أصنعُ، فوالله ما التفتُ إليَّ واحدٌ منهما، مع ما بهما منَ الغمِّ، وسمعتُ عمّي أبا ياسر وهو يقول لأبي حُيي بن أخطب: أَهُوَ، هُوَ؟!

قال: نعم والله.

قال: أتعرفهُ وتثبتهُ؟

قال: نعم

قال: فما في نفسك منه؟

قال: عداوتُه - والله - ما بقيتُ[1].

هذه هي النّفسيّة الرّهيبةُ التي عاشها هذا الحاقد حُيي بن أخطب، وقُتِلَ عليها بعد أنْ بَذَرَ مِنْ بذورِ الفتنِ في الجزيرة العربية، وفعلَ ما فعل من الأفاعيل التي أودتْ به وببني قريظة.

كانت صفيةُ بنتُ حيي تصغي إلى حديثِ أبيها الذي يقطر خبثاً وحقداً وضغينة على الرّجل الذي جاء يدعو إلى المحبَّة والسَّلام والفضيلة، إنَّها تحسُّ عَطْفاً على رسالتِهِ، بل حماسة إلى دعوته، وإنَّ هَمْسَاً غربياً يهجسُ في أغوارِ أغوارها أنْ سيكون لها شَأْن في حياة النَّبيِّ ﷺ، ولو رُفِعَتْ عن بصيرتها حُجُبُ الغيبِ لرأتْ نفسها زوجةً للرّسول ﷺ، ولخفقَ قلبُها سروراً، وتهللت بالفرحِ أنْ مَنَّ الله عليها بأنْ تصبح أمّ المؤمنينَ.

ويعتبر هذا الخبر الذي قرأناه آنفاً، شهادة من صفية على شدّة كفْرِ حيي بن أخطب، ومَنْ شايعه مِنْ صحبه مِنَ اليهودِ الذين أكَلَ الحقد قلوبهم، وتسرَّبَ الغدرُ إلى نفوسهم فكَمَنَ فيها، فباتوا يحيكون العداوة والمؤامرة لكل مُوَحِّدٍ.

---

(١) السّيرة النبوية (١/٥١٨ و٥١٩) ودلائل النبوة للبيهقيّ (٢/٥٣٣) ودلائل النّبوة للأصبهاني (١/٨٩ و٩٠).

وهذا يعني أن صفية كانت مع أبيها وقومها بالمدينة المنورة.

من الجدير بالذّكْر أنَّ صفية أمّ المؤمنين هذه، من سِبْطِ اللاوي بن نبيّ الله إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام، ثمّ منْ ذريّةِ رسولِ الله هارون أخي موسى عليهما السَّلام.

كانت صفيةُ من عقلاء النِّساء، ومن ذوات التُّقى والزُّهد والصَّفاء، وممن عُرفن بالكرم والتّجاوز والصَّفح عن النّاس، ففي حليته التي تتحلى بها الأفواه والأسماع، ذكرها الحافظ أبو نعيم الأصبهاني ـ رحمه الله ـ بقوله:
ومنهن التّقية الزّاكية، ذات العين الباكية، صفية الصَّافية زوجة النّبيّ ﷺ[1].

إذن فلنشهد ساعاتٍ منَ الصَّفاء مع أمِّنا صفية رضوان الله عليها، ولنشهد معاً غزاة خيبر مع الحبيبِ المصطفى ﷺ، تلك الغزاة التي سُبيتْ فيها صفية، ومن ثمَّ دخلتِ خِدْرَ أمّهات المؤمنين، فكانت منَ البيت الذي أذهب عنه الرِّجس وطهره تطهيراً.

مَعَ الرَّسُولِ إلى خَيْبَرَ:

عرفنا أَنَّ اليهودَ يبطنون العداوة لرسولِ الله ﷺ وللإسلام، ومنْ هؤلاء يهود خيبر، إذ كانوا ـ وهم في خيبر[2] ـ يطوون أفئدتهم على البغضاء للرَّسولِ ﷺ، وكانوا يتحيَّنُون الفُرَص، وأحياناً يختلقونَها ليطعنوا الإسلام طعنةً في الصَّميم. وكانت خيبرُ إذ ذاك وكرة الدَّسِّ والتّآمر، ونواة التّحرشات، وإثارة الحروب، وسبب كلّ بلاء وبلية.

ولما أنْ عادَ المسلمون بعد صلح الحديبية إلى المدينةِ، دون أنْ تسمحَ لهم قريش بِدخول مكةَ، والطَّواف حول البيت ظنَّ اليهود أنَّ نبيَّ الإسلامِ محمّدً ﷺ، لم يقبل شروط الصّلح المجحفة بالمسلمين إلا لوهْنٍ وضَعْفٍ تسلّلَ إلى أصحابه، فأرادوا أنْ يستغلّوا ذلك الوهن، وحسبوا أنَّهم سيصيبونَ من المسلمين مَقْتَلاً،

---

(١) حلية الأولياء (٢/٥٤).
(٢) كانت خيبر ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة المنورة في جهة الشمال، وهي اليوم قرية في مناخها شيء من الوخامة.

فبعثوا إلى غطفانَ وأعرابِ البادية، ليؤلّبوهم على حَرْبِ رسولِ اللهﷺ.

ترامتِ الأنباءُ التي تحمل غدرهم إلى رسولِ اللهﷺ أنَّ خيبرَ تتأهّبُ للوقيعةِ به وبِمَنْ حوله، ولم ينتظرْ رسولُ اللهﷺ حتى يفجأه اليهود وحلفاؤهم بهجومهم وغدرهم، فاستنفَرَﷺ مَنْ حوله كيما يغزون معه، وجاء المخلّفُون عنه في الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة، وكانوا منَ المنافقين وضَعَفَةِ الإيمان، فأَمَر الله عزَّ وجلَّ الحبيب الأعظمﷺ فيهم فقال سبحانه: ﴿**سيقولُ المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانمَ لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أنْ يبدّلوا كلامَ الله قُلْ لن تتبعونا كذلكم قال الله مِنْ قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا**﴾[الفتح: ١٥].

وحدَّدَ رسولُ اللهﷺ مَنْ يخرج معه إلى خيبر، لكي يقطعَ الطَّريق أمام المنافقين وأذيالهم، فأعلنَ ألاّ يخرج معه إلا راغبٌ في الجهاد، وأمّا الغنيمة فلا، فلم يخرجْ إلا أصحاب الشَّجرة الذين رضي الله عنهم، وهم ألف وأربعمئة موحّد ممن بايعوا الله ورسوله تحتَ الشَّجرة في الحديبيةِ، وخرج رسول اللهﷺ بأصحابه في المحرم افتتاح سنة سَبْع.

قال محمّد بنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ: أقام رسول اللهﷺ بالمدينة حين رجع منَ الحديبية ذا الحجة، وبعض المحرم، ثم خرج بقية المحرم إلى خيبر.

وذكر المفسّرون وأهلُ العلم فقالوا: إنَّ خيبر كانت وَعْداً وعدها الله تعالى بقوله: ﴿**وعدكم الله مغانمَ كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه**﴾ [الفتح: ٢٠] يعني صلح الحديبية، والمغانم الكثيرة خيبر[1].

ومنَ العجيبِ أنَّ المنافقين كانوا على اتصالٍ دائم بأسيادهم اليهود، فقد قام المنافقون يعملون لليهود، وأرسل رأسُ المنافقين وزعيمهم الخاسر عبد الله بن

---

(١) انظر في هذا: تفسير القرطبي والرازي والماوردي وابن كثير وغيرها للآية (٢٠) من سورة الفتح. وانظر فتح الباري (٧/٥٣٠) كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

أبي ابن سلول[1] إلى يهود خيبر: أنّ محمّداً قصد قَصَدَكم، وتوجّه إليكم، فخذوا حِذْركم، ولا تخافوا منه، فإنّ عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمّد شِرذمةٌ قليلون، عُزّل لا سلاح معهم إلا قليل.

ولكنَّ رسولَ الله ﷺ وأصحابه، كانوا في طريقهم إلى خيبر، وهم مجهّزون تجهيزاً حَسَناً، وقد خرج مع الجيش الموحّد نساءُ المقاتلين، ليعتنين بالجرحى، وقد كانت نساء غيرهم يصاحبن الجيوش في الحروبِ للترفيه، أو لتحريض الرِّجال على القتال.

كان الجيشُ الإسلاميُّ يحملُ الرَّاية السَّوْداء العظيمة المعروفة بالعقاب[2]، وكانت من بُرُدٍ لعائشة ابنة الصِّدِّيق رضي الله عنهما، ولمّا أشرفَ الحبيبُ المصطفى ﷺ على خيبرَ وناحيتها قال لأصحابه الكرام: «قِفُوا» فوقف الجيش: فقال: «اللهم ربّ السماوات وما أظللن، وربّ الأرضين وما أقللن، وربّ الشَّياطين وما أضللن، وربّ الرِّياح وما أذرين، نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، ونعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها، أقدموا باسم الله»[3] وكان ﷺ يقول ذلك لكلّ قرية قدمها.

أشرف المسلمون على خيبرَ، وباتوا تلك الليلة، ولا تشعُر بهم اليهود، وكان رسولُ الله ﷺ إذا غزا قوماً بليلٍ لم يقربهم حتى يصبحَ.

فلمّا أصبح رسول الله ﷺ صلى الفجر بغلس، وركبَ المسلمون، فخرج أهلُ خيبر بمساحيهم ومكاتلهم، ولا يشعرون، بل خرجوا لأرضهم، فلمّا رأوا الجيش قالوا: محمّد والله، محمّد والخميس؛ ثمّ رجعوا هاربين إلى مدينتهم وأفئدتهم تخفقُ، وأنفاسهم تضطربُ، فقال النّبيّ ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر،

---

(١) اقرأ سيرة هذا الفاجر في كتابنا «المبشرون بالنار» الجزء الثاني، وانظر كيف كان رسول الله ﷺ يعامل هذه الفئة المجرمة في المجتمع الإسلامي.

العقاب: النسر الأسود، وهو سيد الطيور.

(٣) الكامل لابن الأثير (٢/٢١٧) وانظر السيرة النبوية (٢/٣٢٩).

إنا إذا نزلنا بساحةِ قوم فساء صباح المنذَرِيْن»[1]

ونصر الله عزّ وجلّ رسوله على أهل خيبر[2]، وفَتَحَ رسولُ اللهﷺ حصونها، وسبيت صفية بنت حيي، وابنة عمّ لها، وجاء سيّدنا بلال بن رباح بهما، فمرَّ على قتلى اليهود، فلمّا رأتهم بنت عمّ صفية صاحت وصكّتْ وجهها وحثت التُّرابَ على رأسها، فلمّا رآها النّبيّﷺ قال: «اعزبوا عني هذه الشَّيطانة». والتفتَ إلى بلال وقال له: «أَنُزِعَتْ منك الرَّحمة يا بلال حتى تمرّ بامرأتين على قتلاهما»[3] وكان كنانة بن أبي الحُقيق، زوج صفية قد قُتل لغدره.

السَّيِّدَةُ صَفِيَّةُ وَإِسْلامُهَا

جاء الصَّحابيُّ الكريمُ دِحْيَةُ بنُ خليفة الكلبي عندما جُمع السَّبْي فقال: يا نبيّ الله، أعطني جارية من السَّبي.

فقال: «اذهب فخذ جارية»

فأخذ صفية بنت حيي. فجاء رجلٌ إلى النّبيِّﷺ فقال: يا نبيّ الله أعطيتَ دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة، وبني النّضير، لا تصلح إلا لك.

قال: «ادعوه بها»

فجاء بها، فلمّا نظر إليها النّبيّﷺ قال: «خذْ جاريةً منَ السَّبي غيرها» وذهب دحية إلى حيث جُمع السّبي، وأخذ جارية أخرى هي أخت كنانة بن الرَّبيع بن أبي الحقيق زوج صفية.

وكان لرسولِ اللهﷺ سَهْمٌ مِنْ الغنيمةِ يُدعى الصَّفيّ، إنْ شاءَ عبداً، وإنْ شاءَ أَمَةً، وإنْ شاءَ فَرَسَاً يختاره قبل الخمْسِ[4].

---

(١) انظر فتح الباري (٧/٥٣٤) حديث رقم (٤١٩٧ و٤١٩٨) والخميس: يعني الجيش.

(٢) تراجع مراحل هذه الغزوة في تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) وغيرها من كتب السيرة.

(٣) انظر: أسد الغابة (٦/١٧٠) ترجمة رقم (٧٠٥٥) ودلائل النبوة للبيهقي (٤/٢٣٢) والكامل (٢/٢٢٠ و٢٢١) والمغازي للواقدي (٢/٦٧٤) وتاريخ الطبري (٢/١٣٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٩٩١) وأيضاً (٢٩٩٤).

قالت أمُّ المؤمنين عائشة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما: وكانت صفيةُ مِنَ الصَّفي . فاختارهاﷺ.

ونقل أحمد زيني دحلان ـ رحمه الله ـ في سيرته عن الحافظ ابن حجر في شأْنِ صفية قال:

وَلَدَ صفية مئة نبيّ، ومئة مَلِك، ثم صيّرها إلى نبيّه ﷺ، وليس ممَّنْ تُوهب لدحية لكثرة مَنْ في الصَّحابة مثل دحية وفوقه، وقلَّة مَنْ كان في السَّبيّ مثل صفية في نفاستها نسباً وجمالاً، فلو خصَّه بها لأمكن تغيير خاطر بعضهم، فكان منَ المصلحة العامّة ارتجاعها منه، واختصاصهﷺ بها، فإنَّ في ذلك رضا الجميع[1].

وبعد أنْ تمَّ الفتحْ المبينُ لخيبر، ركبَ المسلمون وانطلقوا، وكلّ خالجة وجارحة فيهم تشكرُ الله عزَّ وجلَّ على ما أتاهم منْ نَصْرٍ، ورزقهم منْ غنائمَ.

وقطعَ رسولُ اللهﷺ ستة أميال من خيبر، وأراد أنْ يعرسَ بصفية ابنة حيي، فأَبَتْ ورفضت لشيءٍ كان في نفسها، فَوَجَدَ النَّبيُّﷺ في نفسه، فلمّا سار ووصل إلى مكان يُسمى الصَّهباء، مال إلى هناك، ودخل على صفية[2]، وما منَ

(١) انظر السّيرة النبوية أحمد زيني دحلان (٢١٨/٢).

(٢) عندما نزل رسول اللهﷺ هنالك، قال لأمِّ سُليم الأنصارية رضوان الله عليها «عليكن صاحبتكن فامشطنها».

وأرادَ رسولُ اللهﷺ أنْ يعرسَ بها هنالك. قالت أمُّ سليم: وليس معنا فسطاط ولا سرادقات، فأخذت كساءين، أو عباءتين فسترتُ بينهما وإلى شجرةٍ فمشطتها وعطرتها.

قالت أمُّ سنان الأسلمية: وكنتُ فيمن حَضرَ عرس رسول اللهﷺ بصفية، مشطناها وعطرناها، وكانت جارية تأخذ الزّينة من أَوْضأ ما يكون من النّساء، وما وجدت رائحة طيب كان أطيب من ليلتئذ.

وأقبل رسول اللهﷺ فمشى إليها، فقامت إليه، وبذلك أمرناها، فخرجنا من عندهما، وأعرس بها رسول اللهﷺ هناك، وبات عندها.

وقد سُرَّ بها رسول اللهﷺ، ولم ينم تلك الليلة، لم يزل يتحدث معها.
(عن طبقات ابن سعد ١٢١/٨ و١٢٢) مختصراً.

النّاسِ أحد أكْره إليها منه، قَتَل أباها في قريظة، وزوجها وقومها في خيبر، واخبرهاﷺ بأنَّ قومها صنعوا ما صنعوا، وغدروا حتى حَاقَ بهم سوءُ أعمالهم، فما زال كذلك حتى أذهب الله الكُرْهَ من نفسها.

روتْ صفيةُ رضي الله عنها تلك اللحظات التي التقتْ رسولَ اللهﷺ وذهبَ ما بنفسها فقالت:
انتهيتُ إلى رسولِ اللهﷺ، وما من النَّاس أحدٌ أكرهُ إليَّ منه، فقال: «إنَّ قومَك صنعوا كذا وكذا» قالت: فما قمتُ من مقعدي، وما من النَّاس أحدٌ أحبَّ إليَّ منه[1].

وخَيَّرَ النَّبيُّﷺ صفية بين أنْ يعتقها، فترجعَ إلى مَنْ بقي مِنْ أهلها في خيبر، أو أنْ تشهدَ شهادة الحقّ فتسلم، وحينذاك يتّخذها لنفسه؛ فقالت: أختارُ الله ورسوله، فأعتقها.

قال ابنُ قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ ومن خصائص صفية:
أنَّ رسول اللهﷺ أعتقها وجعل عتقها صداقها[2].
قال أنس بنُ مالك رضي الله عنه: أمهرها نفسها، وصار ذلك سنّة للأمة إلى يومِ القيامة، يجوز للرجل أنْ يجعلَ عِتْقَ جاريته صداقها، وتصير زوجته، على منصوص الإمام أحمد[3].

لقد اختارتْ صفيةُ الله ورسوله، وعلّلت ذلك بقولها: يا رسول الله، لقد هويتُ الإسلام، وصدّقتُ بك قبل أنْ تدعوني، حيثُ صرتُ إلى رحلك، وما لي في اليهودية أَرَبٌ، وما لي فيها والدٌ ولا أخٌ مِنَ العتق، وأنْ أرجعَ إلى قومي.

وهذه الإجابةُ من صفية تشيرُ إلى حكمتها ونظرتها نظرة سليمةً إلى الأمور، قال عنها الإمام الذّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: وكانت شريفةً عاقلةً، ذاتَ حَسَبٍ وجمالٍ

---

(١) انظر: مسند أبي يعلى (١٣/٣٣) حديث رقم (٧١١٤) وانظر: مجمع الزوائد (٩/٢٥٢).
(٢) انظر: البخاري برقم (٤٢٠٠) ومسلم برقم (١٣٦٥).
(٣) جلاء الأفهام (ص١٩٨ و١٩٩).

ودِيْنٍ رضي الله عنها[1].
وكانت ذات حلْم وَوَقَار[2].

ووصفها أبو عمر القُرطبيّ ـ رحمه الله ـ بقوله: كانت صفيةُ عاقلةً حليمةً فاضلةً.

وبعد ذلك أعرس بها رسول الله ﷺ بعد أنْ حلَّتْ، فمشطتها أمّ سُليم الأنصاريّة وعطّرتها، وكانت أضوأ ما يكون من النِّساء.

ولما أصبحَ رسولُ الله ﷺ، سأل صفية: «ما حملكِ على الامتناعِ من النُّزول أوّلاً»؟

فقالت: خشيتُ عليك من قرب اليهود.
فزادها ذلك منزلةً ومكانةً عند النَّبيِّ ﷺ[3]، وما قامت من مقعدها، ومن النَّاس أحدٌ أحبُّ إليها من النّبيّ ﷺ، وأولَمَ وأطعمَ أصحابه.

ولنترك سيّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه يروي لنا وقائع ذلك الحَدَث السَّعيد، حسب ما ورد في الصَّحيح.

أخرج الإمامُ البخاريُّ ـ رحمه الله ـ بسندهِ عن أنسٍ بن مالك رضي الله عنه قال:

قدمنا خيبر، فلمّا فتحَ الله عليه الحِصْن، ذُكِرَ له جمال صفية بنت حيي بن أخطب، وقد قتلَ زوجها، وكانت عروساً، فاصطفاها النَّبيُّ ﷺ لنفسه، فخرج بها، حتى بلغنا سدَّ الصَّهباء حلّتْ، فبنى بها رسول الله ﷺ، ثم صَنَعَ حيساً في نِطْعٍ صغير، ثم قال لي: «آذن مَنْ حولك».

فكانت تلك وليمته على صفية، ثم خرجنا إلى المدينة، فرأيتُ النّبيّ ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته[4]، وتضع صفية رجلها على

(١ و٢) سير أعلام النبلاء (٢/٢٣٢) و(٢/٢٣٥).
(٣) عن الإصابة (٤/٣٣٨) بتصرف يسير.
(٤) قال ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ في الطّبقات ما يشير إلى أدبِ صفية رضي الله عنها: لما قُرِّبَ

ركبته حتى تركب[1].

ورأى رسولُ اللهﷺ بأعلى عين صفية خضرة منْ أَثَرٍ ضربة فسألها: «ما هذه الخُضْرة»؟

فقالت: قلتُ لزوجي: إنّي رأيتُ فيما يرى النّائم كأنَّ قَمراً وقَعَ في حجري، فلطمني وقال: أتريدينَ مَلِك[2] يثرب، أو قال: والله ما تتمنين إلا ملك العرب[3].

وكان عُمْرُ صفية عندما دخلتْ رحابَ البيت النّبويّ الطّاهر سبعة عشر عاماً على أصحِّ الأقوال، وكانت تُكنى أمّ يحيى[4].

صَفَيّةُ في بَيْتِ النَّبيِّﷺ:

قدمتْ صفيةُ بصحبةِ النّبيّﷺ منْ خيبرَ إلى المدينة، وكان يعاملُها في غاية الرِّفق، ووجدت صفية منه رقّة وكياسة ولطفاً، فقالت: ما رأيتُ قطّ أحسن خُلُقاً مِنْ رسول اللهﷺ[5].

= البعير لرسول الله ليخرج، وضع رسول الله رجله لصفية لتضع قدمها على فخذه، فأبت ووضعت ركبتها على فخذه وسترها رسول الله وحملها وراءه، وجعل رداءه على ظهرها، ووجهها، ثم شدّه من تحت رجلها، وتحمّل بها، وجعلها بمنزلة نسائه. (طبقات ابن سعد ٨/١٢١).

(١) فتح الباري (٧/٥٤٧) حديث رقم (٤٢١١) وانظر: تارخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص٤٢٣)..

(٢) يؤيد هذا ما ورد عن أمّنا صفية رضي الله عنها بروايةٍ عن حُميد بن هلال قال: قالت صفية: رأيت كأنّي وهذا الذي يزعم أنَّ الله أرسله، ومَلَكٌ يسترنا بجناحيه قال: فردوا عليها رؤياها، وقالوا لها في ذلك قولاً شديداً. (سير أعلام النبلاء ٢/٢٣٥).

(٣)عن أزواج النبي للصالحي (ص٢٢٠) والإصابة (٤/٣٣٨) مع الجمع والتصرف، وانظر: البداية والنهاية (٨/٤٦) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص٤٢٥) ودلائل النبوة للبيهقي (٤/٢٣٢) وطبقات ابن سعد (٨/١٢٩) والمستدرك (٤/٢٩) وتاريخ الطبري (٢/١٣٧) وأسد الغابة (٦/١٧٠) والكامل (٢/٢٢١).

(٤) فتح الباري (٤/٣٢٦).

(٥) مسند أبي يعلى (١٣/ ١٣٨).

وجاء البشيرُ إلى أهلِ المدينة يعلمهم بقدومِ رسول الله ﷺ، فخرجتِ المدينةُ تستقبل رسول الله ﷺ عند عودته من هذه الغزاة. . . . . كانت وجوه الرِّجال تتهلّل بالبِشْرِ، والولدان يغمرهم الفرحُ، بينما كانتِ النّساءُ على أسطحِ المنازل، وقد عمّرت أفئدتهن بالسُّرور.

أمّا المنافقون، فقد كانوا في كمدٍ رهيب، يظهرون غير ما تخفي الصُّدور، غَصَّتْ حلاقيمهم بنَصْرِ رسول الله ﷺ، وفضحهم الله عزّ وجلّ، وجعل كلمةَ الذين كفروا السُّفلى، وكلمة الله هي العليا.

وكانتِ النّسوة في دُور النّبيّ ﷺ يتأهَّبْنَ لاستقبالِ نبيّ الإسلام، وحبيبِ المسلمين الذي نصره الله عزّ وجلّ بقلوبٍ سليمة، وعزائمَ صادقةٍ، ونفوس صافية.

ويبدو أنَّ أمَّنا عائشة الصِّدِّيقة بنت الصِّديق رضي الله عنهما قد أخذتِ الغيرةُ من نفسها مكاناً واسعاً، بعد أنْ جاءها نبأ زواجُ رسول الله ﷺ من صفيةَ بنتِ حيي ملك اليهود، تلك الشَّابة الجميلة، ذات السَّبعة عشر عاماً[1].

بلغ الركبُ الميمون المدينة المنوّرة، وآثر رسولُ الله ﷺ ألاّ يدخل على نسائه الطّاهرات بصفية الصّافية، وأحبَّ أنْ ينزلها في بيت الصَّحابي النّجيب حارثة بن النّعمان[2] الأنصاريّ رضي الله عنه.

وتسامعتْ نساءُ الأنصار بصفية زوج النّبيّ ﷺ، وأمّ المؤمنين، تلك التي دخلتْ في عداد أمّهات المؤمنين الطّاهرات، وجئن زرافاتٍ ووحدانا ينظرن إلى جمالها وكمالها.

وراحَ النّبيُّ الكريم ﷺ يزورُ أَهْلَ بيته، فبدأ كعادته بابنته فاطمة الزَّهراء

---

(١) قالت صفية رضي الله عنها: ما بلغت سبع عشرة سنة يوم دخلت على رسول الله ﷺ. (طبقات ابن سعد ٨/١٢٩).

(٢) اقرأ سيرة حارثة بن النعمان الأنصاري في كتابنا «رجال مبشّرون بالجنة» (٢/٢٩٩ ـ ٣٢٩) فسيرته تهذيب للنفوس، وإيناس للقلوب.

رضي الله عنها، وأخذ يقبّلُ سبطيه الحسن والحسين رضي الله عنهما، ثمّ دار على نسائهِ فأخذن يرحّبن بمقدمه ويهنئنه بما فَتَحَ الله عليه، وقد لمحﷺ الغيرة في عيني عائشة فراح يرقبها.

لقد خرجت أمّنا عائشة رضي الله عنها متنقّبة على حَذَرٍ، تقودها غيرتها إلى رؤيةِ الضّرة الجديدة التي اقتعدت مكانة فسيحة في نفوسِ نسوة المسلمين، لا، بل أثنوا على جمالها، ووصفوها بكلّ وسائل ومحاسن الجمال والحلاوة.

وها هي السَّيِّدة عائشة الصّدّيقة ابنة الصّدّيق رضي الله عنهما تسيرُ على حَذَرٍ إلى بيتِ حارثةَ بنِ النُّعمان الأنصاريّ، حيث تقيمُ هناك صفية بنت حيي أمّ المؤمنين، تلك الضّرة الجديدة الجميلة ذات الرّبيع السّابع عشر، ودخلت عائشةُ متنقّبة[1] في وسطِ النِّساء، وهي تظنُّ أنْ لن يعرفها أحدٌ، ولكنَّ الحبيبَ المصطفىﷺ عَرَفَها، وانتظر حتى خرجتْ، فأدركها، وأخذَ بثوبها فقال باسماً: «يا شُقيراء كيف رأيتِ»؟

وحاولت عائشة رضوان الله عليها أنْ تجاهدَ عواطفها ونفسها لِتَئِدَ غيرتها المتدفّقة، إلا أنَّ غيرتها ظلّت متأججةً في نفسها وقالت: رأيتُ يهوديةً بين يهوديات. فقال الحبيبُ الأعظمﷺ يصحِّحُ مفهوم عائشة ويرشدها إلى جادّةِ

---

(١) روت أمّ سنَان الأسلميّة قالت: لما نزلنا المدينة لم ندخل منازلنا حتى دخلنا مع صفية منزلها، وسمع بها نساء المهاجرين والأنصار، فدخلن عليها متنكّرات، فرأيت أربعاً من أزواج النبيﷺ متنقبات:

زينب بنت جحش

وحفصة بنت عمر

وعائشة بنت أبي بكر

وجويرية بنت الحارث

فأسمع زينبَ تقول لجويرية: يا بنت الحارث، ما أرى هذه الجارية إلا ستغلبنا على عهد رسول اللهﷺ.

فقالت جويرية: كلّا، إنّها من نساء قلّ ما يحظين عند الأزواج.

الصَّواب، ويعلمها بإيمانِ صفية: «لا تقولي ذلك فإنّها أسلمتْ وحِسُن إسلامها»[1].

وعادت عائشة إلى حفصةَ بنتِ عمر رضي الله عنهم جميعاً لتبثها نجواها، فقد كانتا متصافيتَيْن، وكانت حفصة موضع سِرّ عائشة، وكانت عائشة رضي الله عنها أكثر نساء النبي الكريم غيرة عليه، حتى إنّها كانت تغارُ من أمِّنا خديجة إذا مدحها رسولُ اللهﷺ أو أثنى عليها، وقد قالت له ذات يوم لما ذكر صِدِّيقة الإسلام الأولى وحاصنته خديجة وأثنى عليها بخير: قد بدّلك الله خيراً منها. فغضبَ رسولُ اللهﷺ وقال: «والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنتْ بي حين كذبني النّاس، وواستني بمالها حين حرمني النّاس، ورزقتُ منها الولد وحرمته من غيرها».

هذه عائشة كانت تغار من أمِّ المؤمنين خديجة، وكانت قد ماتت بمكةَ، فكيف بمن هي تضارعها في الحُسْنِ، وهي تناصيها في السِّنِّ والمكانة؟

صَفَيَّةُ ونسَاءُ النَّبيّ:

انتقلت صفيّة أمّ المؤمنين إلى دور النّبيّﷺ، ويبدو أنّها أخذتْ على نفسها عهداً أن تصافي جميع أهل البيت، وتكون لهن صديقة وفيّة، فبدأتْ في استجلابِ واستمالة القلوب، بتقديم الهدية التي تعجب جماعة النّساء.

وبدأت صفيةُ بدرَّةِ البيتِ النّبويّ الطّاهر فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها التي أَلِفَتْها، وأحبّتها حبّاً شديداً، فوهبت لها حلْيةً منْ ذَهَبٍ كانت في أذنيها اعترافاً بحبّها وولائها للرّسول الكريمﷺ، ووهبت كذلك بعض ضرائرها بعض حلي منْ ذهب، كان معها لما قدمت من خيبر[2].

---

(١) عن سيرة أعلام النبلاء (٢/٢٣٦ و٢٣٧) والإصابة (٤/٣٣٨) مع الجمع والتصرف. وانظر: طبقات ابن سعد (٨/١٢٥ و١٢٦) وأنساب الأشراف (١/٤٤٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/١٢٨) بتصرف يسير.

كانت صفيةُ رضي الله عنها عاقلة فاضلة، تتودَّدُ إلى ضرائرها وخاصّة عائشة وحفصة، ولكنّها ظلتْ تشعرُ أنّها غريبة في بيوتِ النَّبيِّ ﷺ، فأزواجه الطَّاهرات، لا يستطعن أنْ يَنْسَيْنَ أَصْلَها[1]، فهذه حفصة تعيرها بأنَّها ابنة يهودي، ولكنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ يعلّمها كيف تردّ وتنتصف لنفسها.

أخرج أبو عيسى التِّرمذي ـ رحمه الله ـ في جامعهِ بسنده عن معمر عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه قال:

بَلَغَ صفية أنَّ حفصةَ قالت بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النَّبيُّ ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك»؟ قالت: قالت لي حفصة، إنّي ابنةُ يهودي. فقال النَّبيُّ ﷺ: «وإنّك لابنة نبيّ، وإنَّ عمّك لنبي، وإنّك لتحت نبيّ، ففيم تفخر عليك» ثم قال: «اتقي الله يا حفصة»[2].

ويبدو أنَّ عائشةَ وحفصةَ كانتا تلوّحان لصفيةَ ببعض الكلام الذي تفوحُ منه رائحة الفَخْر والانتساب إلى العرب، والاعتزاز بالنّسب والقرابة منَ النّبيّ ﷺ، وفي هذه المرّة أيضاً، يُفْصِحُ الرَّسول ﷺ عن مكانة صفية، ويرشدها إلى الانتصار لنفسها، وكيما يطيب قلبها، وتشعر بمكانتها ومكانها في البيت النّبويّ.

ولعلَّ أمَّ المؤمنين صفية رضوان الله عليها كانت تَجِدُ فيما يقوله لها ﷺ بَلْسَماً شافياً لما يعتلجُ في صدرها مِنْ تلميحٍ وتلويحٍ ضرائرها لها، وتفخر هي الأخرى بما يفخرن به عليها.

فدعونا نستمع إلى أمِّنا صفية، وهي تحدثنا عن ذلك فتقول: دخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ، وقد بلغني عن حفصةَ وعائشةَ كلامٌ، فذكرت ذلك له. فقال: «ألا قلتِ: وكيف تكونان خيراً مني؟ وزوجي محمّد، وأبي هارون، وعمّي موسى»؟!

---

(١) انظر: العقد الفريد (١٢٨/٦).

(٢) تحفة الأحوذي (٢٩٢/١٠) حديث رقم (٣٩٨٤).

وكان الذي بلغها أنهم[1] قالوا: نحنُ أكرم على رسولِ الله ﷺ منها، وقالوا: نحن أزواج النَّبيِّ ﷺ وبنات عمِّه[2].

ويظهر أنَّ عائشةَ رضي الله عنها قدِ انتقصتْ صفيّة أمام رسول الله ﷺ، وعيَّرتها بأنّها قصيرة، ولكنَّ رسولَ الله ﷺ لم يَرْضَ بهذا، ولم يقرّه؛ فقد أخرج أبو داود والتِّرمذي والبيهقي عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قلتُ للنّبيِّ ﷺ: حَسْبُك من صفيّة كذا وكذا - قال بعض الرّواة: تعني قصيرة - فقال: «لقد قلتِ كلمةً لو مزجتْ بماء البحر لمزجته»[3].

أحسبُ أنَّ أمَّ المؤمنين صفية رضي الله عنها كانت مثار غيرة أيضاً لابنةِ عمته ﷺ وزوجه أمّ المؤمنين زينب بنت جحش، وعلى الرَّغم من زُهْدِ زينب وجودها ومعروفها، إلا أنّها قد ندتْ منها كلمة في حقِّ ضرّتها صفية، ويبدو أنَّ رسولَ ﷺ قد غضب إذ ذاك، وعتبَ على زينبَ حيناً منَ الدهر.

ورد عنْ أمِّنا صفيّة رضي الله عنها هذا الخبر، فذكرتْ أنَّ النَّبيَّ ﷺ حجَّ بنسائهِ، فبركَ بصفية جَمَلُها، فبكتْ، وجاء رسولُ الله ﷺ لما أخبروه، فجعل يمسحُ

---

(١) «أنّهم قالوا» الظّاهر أنْ يكون: أنّهن قلن، أو: قالتا. فتذكير الضمير هنا باعتبار أنهن أهل بيت النبي ﷺ. وهذا الأسلوب يرد كثيراً في كلام العرب.

(٢) انظر: تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٩١ و٢٩٢) حديث رقم (٣٩٨٤) والحاكم (٤/ ٢٩) والمسند (٦/ ١٣٥) والإصابة، وأسد الغابة (٦/ ١٧٠) ترجمة رقم (٧٠٥٥).

أورد أبو العلاء المباركفوري في تحفة الأحوذي تعليقاً نفيساً لطيفاً على هذا الحديث جاء فيه قوله:

فإنْ قلتَ: أليستْ حفصةُ ابنة نبيّ، وهو إسماعيل عليه السَّلام، لأنَّها قرشية، وعمّها نبي وهو إسحاق عليه السَّلام، وتحت نبي وهو النّبيّ - محمّد - ﷺ؟

قلت: هذه الصفات مشتركة بين نسائه ﷺ اللاتي من قريش، وصفية أيضاً مشاركة لهن، لأن موسى وهارون من أولاد يعقوب بن إسحاق عليهم السَّلام، والمقصود دفع المنقصة بأنها تجمع صفات الفضل والكرم.

(٣) عن حياة الصحابة (٢/ ٧٢٠) طبعة أولى.

دموعها بيده، وهي تبكي، وهو ينهاها، فنزلَ رسولُ اللهﷺ بالنَّاسِ ، فلمّا كان عند الرَّوَاح، قال لزينبَ بنتِ جحش: «أفقري[1] أختَكِ جملاً» ـ وكانت مِنْ أكثرهن ظهراً ـ

فقالت: أنا أفقرُ يهوديتك!

فغضبﷺ فلمْ يكلمْهَا، حين رجع إلى المدينة، ومحرّم، وصفر، فلم يأتها، ولم يقسمْ لها، ويئستْ منه.

فلمّا كان ربيعُ الأول دخل عليها؛ فلمّا رأته، قالت: يا رسول الله، ما أصنع؟ قال: وكانت لها جارية تخبؤها منْ رسول اللهﷺ، فقالت: هي لك. قال: فمشى النّبيّﷺ إلى سريرِها، وكان قد رُفِعَ، فوضعه بيدِه، ورضي عنِ أهلِهِ[2].

ولعلَّ هذا الدَّرس النَّبويَّ الحكيمَ لزينبَ رضوانُ الله عليها، خفَّفَ عن صفيَّةَ رضي الله عنها ما كانت تجدهُ منَ الغربة، ونعمت بنعيمِ العشْرة النّبويّة التي أبدلتها كلَّ خير عنْ أهلها وعشيرتها، وفازت بنعيمٍ أبدي اختصتْ به من لدن عليم خبير.

ولكنَّ نساء النَّبيَّﷺ كنّ يقتبسنَ مِنْ أخلاقِ الرسولﷺ، ومِنْ شمائله، وخصائله الحميدة شيئاً كثيراً، فكانتِ الواحدةُ منهن تراعي الأخرى في بعض الشّؤون، فهذه عائشةُ رضي الله عنها، مع شدَّةِ غيرتها من صفيّة، كانت ترعاها، وتحسنْ إليها لتأخذ حظّها من رسول اللهﷺ.

أخرجَ ابنُ ماجه ـ رحمه الله ـ في السُّنَنِ، بسندهِ عن عائشة رضي الله عنها؛

---

(١) أفقري أختك: أي أعيريها إياه للركوب.

(٢) انظر: سير أعلام النّبلاء (٢/٢٣٤) وأسد الغابة (٦/١٧٠ و١٧١) ترجمة رقم (٧٠٥٥) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص٦٩) ومجمع الزوائد (٤/٣٢١) والحديث أخرجه أحمد في المسند (٦/٣٣٧ و٣٣٨) وابن سعد في الطبقات (٨/١٢٦ و١٢٧) وأبو داود في السّنة (٤٦٠٢).

أنَّ رسول اللهﷺ وَجَدَ ـ غضب ـ على صفيّة بنتِ حيي في شيء؛
فقالت صفيةُ: يا عائشة هل لكِ أنْ تُرضي رسولَ اللهﷺ عنّي ولكِ يومي؟
قالت: نعم.
فأخذتْ خماراً لها مصبوغاً بزعفران، فرشّتْهِ بالماء ليفوحَ ريحه، ثمّ قعدتْ إلى جنبِ رسولِ اللهﷺ، فقال النّبيّﷺ:
«يا عائشة! إليكِ عنّي، إنّه ليس يومك».
فقالت: ذلك فَضْل الله يؤتيه مِنْ يشاء، فأخبرته بالأمْرِ فرضي عنها[1].

«وَالله إنّهَا لصَادِقَة»

إذا كان الإنسان سليمَ الفطرة، نقيَّ السَّريرة، فإنَّه يتكلم بلهجة صادقةٍ لا تَعرفُ إلى المكْرِ سبيلا، ولا يعرف المكر لها طريقا، ولذا فإنَّ هذه الصِّفات تكسبُ صاحبها احترام النَّاس جميعاً.

ومن هنا كانت أمُّ المؤمنين صفيّة ـ رضي الله عنها ـ ذات سريرة صافية، وعلانية نقيّة، فقد أحبَّتْ رسولَ اللهﷺ، وصدقت في حبِّها لله عزّ وجلّ، فجاءت تصرّفاتها نابعة من معين الصِّدق، ومعين الوفاء، مما جعلها متفرّدة في بَعْضِ المواقف العطرة التي تنفحُ سيرتها بعطر مِعطار، وشهد رسولُ اللهﷺ لأمِّنا صفيّة بالصِّدق بعد أنْ أقسمَ على ذلك.

روى زيدُ بنُ أسلمَ ـ رحمه الله ـ قال:
اجتمع نساءَ النّبيّﷺ في مَرَضِهِ الذي توفي فيه، فقالت صفيةُ بنت حيي: والله يا نبيّ الله لوددتُ أنَّ الذي بك بي. فغمزنها أزواجه، فأَبْصَرَهُنَّﷺ فقال:
«مَضْمِضْنَ»
قلنَ: من أيِّ شيءٍ يا نبيّ الله؟

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩٧٣) في النكاح، باب المرأة تهب يومها لصاحبتها.

قال: «مَنْ تغامزكن بها، والله إنَّها لصَادقة»(١).

فأكرِمْ بهذه الشَّهادة النَّبويّة العظيمة لأمِّنا صفيّة رضي الله عنها! وهل هناك شهادة أعظم من الصِّدق؟ ومِنْ مَنْ؟ مِنَ الصَّادق المصدوق رسول الله ﷺ.

«إنَّمَا هيَ صَفِيَّة»

كانتْ أمُّنا صفية رضوان الله عليها تحتلُّ مكانةً عُليا بين نساءِ رسول الله ﷺ في مقام الصِّدق، وكان رسولُ الله ﷺ يعرفُ قَدْرها ويكرمها، وهو ﷺ مِنْ أعرفِ النَّاسِ، فكان ـ وهو في معتكفِه ـ يخرجُ مِنَ المسجد تكرمةً لها.

أخرج الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحهِ، في الاعتكاف عن الزّهريّ قال: أخبرني عليّ بن الحسين رضي الله عنهما، أنَّ صفية زوج النّبيّ ﷺ أخبرته أنَّها جاءت إلى رسولِ الله ﷺ، تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثَتْ عنده ساعة ثُمَّ قامتْ تنقلبَ، فقام النَّبيُّ ﷺ يَقْلِبُها، حتى إذا بلغتْ بابَ المسجد عند باب أمّ سلمة، مَرَّ رجلان مِنَ الأنصار، فسَلَّما على رسولِ الله ﷺ، فقال لهما النّبيُّ ﷺ: «على رسلكما، إنّما هي صفيّة بنت حيي» فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكَبُرَ عليهما.

فقال النّبيّ ﷺ: «إنَّ الشّيطان يبلغُ من ابن آدمَ مَبْلَغ الدم، وإنّي خشيتُ أنْ يُقذفَ في قلوبكما شيئاً»(٢).

---

(١) عن سيرة أعلام النّبلاء (٢/٢٣٥) وأزواج النبي للصّالحي (ص٢٢٦) مع الجمع والتصرف. وانظر: طبقات ابن سعد (٨/١٢٨) والإصابة (٤/٣٣٩).

(٢) انظر: فتح الباري (٤/٣٢٦) حديث رقم (٢٠٣٥) وأخرجه البخاري أيضاً في ستة مواضع أخر برقم (٢٠٣٨ و٢٠٣٩ و٣١٠١ و٣٢٨١ و٦٢١٩ و٧١٧١) وأخرجه مسلم في السلام، باب: بيان أنه يُستحب لمن رُؤي خالياً بامرأة برقم (٢١٧٥) وأبو داود في الصوم، باب: المعتكف يدخل البيت لحاجته برقم (٢٤٧٠) وابن ماجة (١٧٧٩) وأحمد (٦/٣٣٧) وانظر: الأسماء المبهمة (ص١٤٦ و١٤٧).

وقوله: «خشيتُ أنْ يُقذفَ في قلوبكما شيئاً» إنَّ النَّبيَّ ﷺ لم ينسبْهما إلى أنّهما يظّنان به =

مَعْرِفَتُهَا قَدْرَ الله عَزَّ وَجَلَّ:

عُرِفتْ أمُّ المؤمنين صفية رضي الله عنها بتبصُّرها في الأمورِ على ضَوْءِ القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويّة المطهرة، ولذلك كانت تحاكمُ الأمور من هذهِ النّافذة المضيئة الوضيئة، ولا تكاد تخرج عن مفهوم القرآن الكريم.

وأعتقد أنَّ أمَّ المؤمنين صفية رضي الله عنها كانت تدرك معاني القرآن الكريم، وتعرف بعضَ أسراره، ومدى أثره وتأثيره في النُّفوس الصَّافية التي تعيش في آفاق الذّكْر الحكيم، وتنعمُ في تلاوته آناء الليل، وأطراف النَّهار.

فالمؤمنون حقّاً همُ الذين إذا ذُكِرَ الله وجلتْ قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وارتبطوا على أساس صحيح سليم متين بالله عزَّ وجلَّ.

لكنَّ الذين يخالفونَ هذه القاعدة، هم مقصّرون، ويحتاجون إلى تبصير وإرشادٍ إلى الطَّريق السَّليمة.

وهذا ما كانت تفعله أمّنا صفية، إذ كانت تأخذ بأيدي هذه الفئة التي تودُّ العبادة على أساسٍ صحيح.

روى أبو نُعيم الأصبهانيّ ـ رحمه الله ـ عن عبد الله بنِ عبيدة، أنَّ نَفَراً اجتمعوا في حجرة صفية بنت حيي زوجِ رسول الله ﷺ، فذكروا الله، وتلوا القرآن، وسجدوا، فنادتهم صفية رضي الله عنها: هذا السُّجود، وتلاوة القرآن، فأينَ البُكاء[1]؟

= سوءًا، لما تقرّر عنده من صِدق إيمانهما، ولكنْ خشيَ عليهما أنْ يوسوس الشيطان لهما ذلك لأنّهما غير معصومَيْن، فقد يفضي بهما ذلك إلى الهلاك، فبادر إلى إعلامهما حَسْماً للمادة، أو تعليماً لمن بعدهما إذا وقع له مثل ذلك. وزعم بعض شرّاح الحديث أنَّ الرجلين هما: أُسَيد بن الحضير، وعبّاد بن بشر الأنصاريَيْن رضي الله عنهما. قال الإمام الشّافعي ـ رحمه الله ـ: إنّما قال لهما ذلك لأنّه خاف عليهما الكفر إنْ ظنّا به التُّهمَة، فبادر إلى إعلامهما نصيحة لهما، قبل أن يقذِفَ الشَّيطان في نفوسهما شيئاً يهلكان به.

(١) حلية الأولياء (٢/ ٥٥).

لقد أرادتْ أمّنا صفية أنْ تدلّهم وترشدهم إلى رُوحِ العبادة؛ الخشوع والخوف منَ الله عزَّ وجلَّ، فإذا ما تحقّقَ الخشوعُ، وصَحِبَهُ الخوف من الله، فاضتِ الدُّموع منَ العيون، ودلَّتْ على الخشوع، وهذا يشير إلى معرفة أمّنا صفية بقَدْرِ الله عزَّ وجلَّ.

حِلْمُها وَكَرَمُهَا وَصِدْقَتُهَا:

كانت أمُّ المؤمنينَ صفيّة رضي الله عنها تتخلّقُ بالآدابِ المحمّدية التي تلقَّتْها في بيتِ رسول اللهﷺ، ولذلك اكتسبت حلماً فوقَ حلمها، وآداباً فوق أدبها، فغدت قدوة النّساء في الحلم والتَّقوى والوَرَعِ والفَضْلِ، وفي مِعْرِض حديثه عنها، قال أبو عمر القُرطبيّ ـ رحمه الله ـ في : «الاستيعاب»: كانت صفيةُ حليمةً عاقلةً فاضلةً[1].

ولعمري، فهذه منْ صفات الكمال عند الرِّجال، فكيف إذا اجتمعتْ في امرأةٍ مثل أمّ المؤمنين صفية رضي الله عنها؟!!

لا شكَّ أنَّ أمّنا صفية قد ضَرَبَتْ مثلاً شَروداً في فضائل الأعمال، وأعلاها الصِّدق والحلْم، ولهذا عندما تحدَّثَ عنها الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ وصفها بأنَّها من ذَوَاتِ العَقْلِ والدِّيْنِ، واستدل على ذلك بما نقله عن أبي عمر بن عبد البرّ ـ رحمه الله ـ قال:

روينا أنَّ جاريةً لصفية، زعمت أنَّ صفية تحبُّ السَّبْتَ، وتَصِلُ اليهود، فبعثَ عمرُ يسألها، فقالت:

أمّا السَّبْتُ، فلم أحبّه منذُ أبدلني الله به الجُمعة.

وأمّا اليهود، فإنَّ لي فيهم رحماً، فأنا أَصِلُها.

ثم قالت للجارية: ما حَمَلَكِ على ما صَنَعْتِ؟

قالتِ الجارية: الشَّيطان.

---

(١) الاستيعاب (٣٣٩/٤).

فقالت صفية رضي الله عنها في أَنَاةٍ: فاذهبي، فأنتِ حرّة[1].

إنَّ هذا التَّصرفَ الكريم هو ذروة الحلم[2] الذي تحلّتْ به أمّنا صفية رضي الله عنها، في حينِ كانت صفية تقدر على القَصَاص، ولكنّها آثرت مرضاة الله عزَّ وجلَّ الذي تهتدي بنورِ هدايته، والذي أثنى على عباده المتقين بقوله: ﴿والكاظمينَ الغيظ والعافينَ عنِ النَّاس والله يُحبُّ المحسنين﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وقال تعالى أيضاً: ﴿نصيبُ برحمتنا مَنْ نشاء ولا نضيعُ أَجْرَ المحسنين﴾[يوسف: ٥٦].

إنَّ صفية أمَّ المؤمنين في رحمتها للجارية وعفوها عنها، أوتيتْ أجرها مرتين: صِلَةُ رحمها، وعتق الجارية.

ولذلك كانت صفية أمّ المؤمنين تتصرّفُ في أمورها منْ مشكاة الأنوار المقتبسةِ منَ القرآن الكريم، والحديث الشَّريف، وهذا ما جعلها ذات حلم ووقار، ومكان احترام في نفوس مَنْ حولها مِنْ نساء أهْلِ البيت، ومن صحابةِ رسول اللهﷺ وغيرهم من النَّاس.

وفي حياة الخليفةِ عثمان بن عفان ـ عليه سحائب الرّضوان ـ كان لأمَّنا صفية رضي الله عنها، موقفٌ وضيءٌ يشيرُ إلى فضلها ومعرفتها مكانة عثمان رضي الله عنه.

وَرَدَ ما يؤيد هذا، عن كنانةَ مولى أمّنا صفية أنَّه قال: كنتُ أقودُ بصفية لتردَّ

---

(١) عن سير أعلام النّبلاء (٢/٢٣٢ و٢٣٣) بتصرف يسير جداً. وانظر: السّمط الثمين (ص١٤٢) والإصابة (٤/٣٣٨ و٣٣٩) وشذرات الذهب (١/٢٤٥)..

(٢) لا ريب أنَّ أمّنا صفية كانت تسمع قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فاصفحِ الصَّفح الجميل﴾ [الحجر: ٨٥] وقوله تعالى: ﴿خذْ العفو وأمرْ بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف: ١٩٩] فكانت تنطلقُ من هذه القاعدة الحكيمة، ولذا فإنها جاءت بالعفو في ساعة حرجة جداً، ولكن الإيمان الذي استقر في أغوار نفسها جعلها تتصرف بحكمة وروية لتحظى بمرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسولهﷺ الذي أخرجها من الظلمات إلى النور.

عن عثمان، فلقيها الأشتر[1]، فضرب وجه بغلتها حتى مالت: فقالت: ردّني لا يفضحني هذا. قال: ثمّ وضعت خشباً بين منزلها، ومنزل عثمان تنقل عليه الماء والطّعام[2].

وبهذا التّصرّف الكريم، عبّرت أمّ المؤمنين صفية عن عَدَمِ رضاها عنِ الذين ظلموا سيّدنا عثمان، وضيّقوا عليه، ومنعوا عنه الطّعام والماء، فرأت من واجبها أنْ تكونَ خير معوان لذي النّورين عثمان، كما عبّرت عن سَعَةِ أفقها، وكمال عقلها الذي كانت تَزِنُ به الأمور، ولذلك وصفها ابنُ الأثير، والنّوويُّ ـ رحمهما الله ـ بقولهما: كانت عاقلة من عقلاء النِّساء[3]. وأثنى عليها الحافظُ ابن كثير ـ رحمه الله ـ فقال: كانت من سيّدات النِّساء عبادة، وَوَرعاً، وزهادة، وبرّاً، وصدقةً، رضي الله عنها وأرضاها[4].

وفي مجالِ الصَّدقة والجود، عُرفت أمّ المؤمنين صفية رضي الله عنها، بأنَّ الدَّراهم والأموال لا تستقرّ على كفِّها إلا عابرات سبيل إلى أماكنها، وعُرفت بأنّها لا تُقيمُ لعرضِ الدّنيا من قيمة، وهي تعرف أنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، وكانت تدركُ ما للصّدقة من عظيمِ الأثر في النّفوس، وما لها من ثوابٍ عظيم عند الله عزَّ وجلَّ، ولذا فإنَّه قد كانت لها دارٌ فتصدقَتْ بها في حياتها[5]، طلباً لرضوان ومرضاة الله سبحانه، واقتداءً بالنّبيِّ ﷺ، وما أجمل قول ابن العماد فيها: وكانت جميلة فاضلة، كفاها فضلاً ونُبْلاً زواج النّبي ﷺ[6]!.

---

(١) الأشتر: هو مالك بن الحارث النخعي، كان على رأس أهل الكوفة الذين تولوا الفتنة أيام سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) عن الإصابة (٤/٣٣٩) بتصرف يسير. وانظر: طبقات ابن سعد (٨/١٢٨) وسير أعلام النبلاء (٢/٢٣٧).

(٣) أسد الغابة (٦/١٦٩) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٤٩).

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٨/٤٦)..

(٥) طبقات ابن سعد (٨/١٢٨) بتصرف يسير.

(٦) شذرات الذهب (١/٢٤٥).

حُبُّهَا لِلْعِلْمِ وَرِوَايَةِ الحَدِيْثِ:

لما اتصلتْ صفيةُ بنتُ حيي رضي الله تعالى عنها برسول اللهﷺ، ودخلت في عِقْد أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن، أخذت تنهلُ منَ العلْمِ والمعرفة في شَغَفٍ شديد، وراحت تحفظُ مِنَ القرآن الكريم ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، فقد أُثِرَ عنها بأنَّها ذات دِيْن وحبٌّ للكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا منْ خلفه. وقد لاحظنا من خلال نفحاتِ سيرتها المِعْطَار، مقدار حبّها للقرآن الكريم، والعمل بما جاء فيه.

أمّا حياتها مع الحديث النّبويّ الشّريف، فكانت ممن نقل أقوال رسول اللهﷺ عَمَلاً بقول الله عزّ وجلّ: ﴿واذكرن ما يُتلى في بيوتكن مِنْ آيات الله والحكمة﴾[الأحزاب: ٣٤].

هذا وقد وَرَدَ لها منْ حِفْظِها عشرة أحاديث روتْها عنِ النّبيِّ الكريمﷺ، منها حديثُ واحدٌ متَّفَقٌ عليه في الصَّحيحين عند البخاري ومسلم[١].

حدَّثَ عن صفيةَ أمِّ المؤمنين ثلّةٌ منْ أكابرِ التّابعين، منهم: عليّ بن الحسين، وإسحاق بن عبد الله بن الحارث، وكنانة مولاها، وابن أخيها، وآخرون[٢].

ومن مرويات أمّنا صفية ما أخرجه الحافظ أبو يعلى في مسنده، بسندهِ عن مسلم بنِ صفوان، عن صفية أمّ المؤمنين قالت: قال رسول اللهﷺ:

«لا ينتهي النّاس عن غزوِ هذا البيت حتى يغزوه جيش، حتى إذا كانوا ببيداءَ منَ الأرض، خسفَ بأولهم وآخرهم، ولم ينجُ أوسطهم»

قالت: قلتُ: يا رسول الله، أرأيتَ المُكْرَهَ منهم؟

قال: «يبعثهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على ما في أنفسهم»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف برقم (٢٠٣٥) ومر معنا، ومسلم في السلام برقم (٢١٧٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٢٣٢) والإصابة (٤/٣٣٩) وتهذيب التهذيب (١٢/٤٢٩).

(٣) مسند أبي يعلى (١٣/٣٤) حديث رقم (٧١١٦) وأخرجه أحمد (٦/٣٣٦ و٣٣٧) والترمذي (٢١٨٥) وابن ماجه (٤٠٦٤).

ومن مروياتها، ما رواهُ إسحاق بن عبد الله بن الحارث الهاشميّ قال: حدثتنا صفية قالت:

دخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ، فقرّبتُ إليه كتفاً بارداً، فكنتُ أسحاها، فأكَلَها، ثمَّ قام فصلى[1].

إلى الرَّفِيْقِ الأَعْلَى مَعَ الخَالداتِ:

مكثتْ صفيَّةُ أمّ المؤمنين رضي الله عنها قرابة أربعين سنة بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ، وكانت تقضي حياتها في الطّاعات والقُرُبات بين صَلاةٍ وصيام، ونسْكٍ وصدقة، وعلْم وفقْهٍ، وقد شهدنا جانباً من فضائلها في الصَّفحات السَّابقة.

وعاشت أمّنا صفية عَصْرَ الخلفاء الرَّاشدين كلّه، وشهدت أحداثه، وفتوحات الإسلام العظيمة شرقاً وغرباً، وشاركت في بعضِ الأحداث المهمّة في تاريخ الإسلام والمسلمين.

وفي سَنَة خمسين[2] من الهجرة، ودَّعت صفية أمّ المؤمنين صفية هذه الدنيا، لتصيرَ إلى الرّفيقِ الأعلى، وهي راضية مرضية، بعد أنْ تركتْ في نساءِ أهل البيت الطّاهر أثراً كريماً معطاراً، سيظلُّ باقياً ـ بإذن الله ـ إلى ما شاء الله تعالى.

وفي اليوم الذي توفيت فيه صفية، أتى مَنْ أبْلغَ ابن عباس خَبَرَ وفاتها، فَسَجَدَ؛ وقد ذكر هذا الحديث الإمام التّرمذي في جامعه بسنده عن الحكم بن أبان عن عكرمة قال:

قيل لابنِ عباس بعد صلاة الصّبح: ماتتْ فلانة ـ لبعض أزواج النّبي ﷺ ـ فسجد.

قيل له: أتسجد هذه السَّاعة؟

---

(١) مسند أبي يعلى (١٣/٣٣ و٣٤) حديث رقم (٧١١٥) وانظر: مجمع الزوائد للهيثمي (١/٢٥٣) «وأسحاها»: أقشرها وأكشط اللحم عنها.

(٢) طبقات ابن سعد (١٢٨/٨) وأنساب الأشراف (١/٤٤٤) والبداية والنهاية (٨/٤٦) وتهذيب التهذيب (١٢/٤٢٩).

فقال: أليس قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم آيةً فاسجدوا»؟ فأي آية أعظم مِنْ ذهاب أزواج النّبي ﷺ[١]؟!

وفي المدينة المنوّرة دُفِنَتْ أمّنا صفية إلى جوارِ أمّهات المؤمنين الطّاهرات، وبنات النّبيّ ﷺ، هذا وقد شيّع جثمانها عددٌ من كبار الصّحابة حيث دُفنت في البقيع.

كانت صفية رضي الله عنها قد ورثتْ مئة ألف درهم، أوصت بثلثها لأخٍ لها يهودي - أو لابن أختها - وكان ثلاثين ألفاً.

وعن قضية هذا الميراث، أخرج ابن سعد - رحمه الله - في الطّبقات بسنده عن أبي سلمةَ بنِ عبد الرحمن قال: ورثت صفية مئة ألف درهم بقيمة أرض وعرض، فأوصت لابنِ أختها - وهو يهودي - بثلثها.

قال أبو سلمة: فأبوا يعطونه حتى كلّمت عائشة زوج النّبيّ ﷺ، فأرسلتْ إليهم: اتقوا الله وأعطوه وصيّته، فأخذ ثلثها وهو ثلاثة وثلاثون ألف درهم ونيف[٢].

---

(١) تحفة الأحوذي (١٠/٣٩٠ و٣٩١) حديث رقم (٣٩٨٢).

وقوله: ماتت فلانة: أي صفية. وقوله: إذا رأيتم: المراد بها العلامات المنذرة بنزول البلايا والمحن التي يخوف بها الله، ووفاة أزواج النّبيّ ﷺ من تلك الآيات لأنّهن ضممن إلى شرف الزّوجية شرف الصّحبة، وقد قال ﷺ:
«أنا أمَنَةُ أصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمَنَة أهل الأرض» فهن أحقّ بهذا المعنى من غيرهن، فكانت وفاتهن سالبةً للأمنة، وزوال الأمنة، موجب للخوف.

وقوله: فأي آية أعظم من ذهاب أزواج النّبيّ ﷺ: أنّهن ذوات البركة، فبحياتهن يُدفع العذاب عن النّاس، ويُخاف العذاب بذهابهن، فينبغي الالتجاء إلى ذكْرِ الله والسّجود عند انقطاع بركتهن ليندفع العذاب ببركة الذكْر والصّلاة. (عن تحفة الأحوذي ١٠/٣٩٠ و٣٩١) ملخصاً.

(٢) طبقات ابن سعد (٨/١٢٨).

وتبقى أمُّ المؤمنين صفية مع الخالدات، وتظلُّ سيرتها العطرة تؤنسُ القلوب، وتبقى صفيّة قُدوة للنِّساء، فهل تقتدي النِّساء بها، وهل يَسِرْنَ على دَرْبِهَا؟!

رضي الله عن أمّنا صفية، وعن نساءِ أهل البيت النّبويِّ الطَّاهر، وجعلنا منَ الذين يستمعونَ القول فيتبعون أَحْسَنَه.

أمّ المؤمنين

رملة بنت أبي سفيان «أم حبيبة»

رضي الله عنها

- مؤمنةٌ قويةُ الإرادةِ، ذات عَقْل راجح، ويقين متين بالله عزَّ وجلَّ، نزل بحقّها قرآن يُتلى.
- من مهاجرةِ الحبشة، ثبتت في وَجْهِ الكُفْر والكَفْرة، ولم يستطع أحدٌ أنْ يؤثّر على إسلامها.
- نُظِمَتْ في عدادِ أمّهات المؤمنين وهي ماتزالُ في أرضِ الحبشة، وهي أكثر زوجات النّبيّ ﷺ صداقاً.
- لها موقفٌ مشهور مع أبيها لما قدمَ المدينة، ينمُّ عن إيمانها الصَّحيح، ومعرفتها قَدْرَ النَّبيّ ﷺ.
- ولدتْ قَبْل البعثة بـ (١٧سنة) وتوفيت بالمدينةِ سنة (٤٤هـ) وروت (٦٥حديثاً).

أُمّ المؤمنين

رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها

البَحْثُ عَنِ الحَقِيْقَةِ:

سجى الليلُ، ونامَ الكونُ، وما كان يعكّرُ الصَّمت الذي رانَ على مكةَ، إلا أصوات نَفَرٍ، كانوا يتناجَوْنَ فيما بينهم، ويتحدثون عن الأصنامِ وتعظيمها، وتقديم النُّذور لها، وعن مكانتها عند العربِ، وعند قريش خاصة.

كان هؤلاء النَّفر أربعة هم: ورقةُ بنُ نَوْفل، عثمان بن الحُويرث بن أسد، زيدُ بن عمرو بن نفيل، وعُبيد الله بن جحش. وكانت أمُّ عبيد الله أميمة بنتُ عبد المطلب عمّة النَّبيِّ الكريمﷺ.

راقَ الحديثُ لهؤلاءِ في سكونِ الليل من خلال نسماته الرَّقيقة اللّطيفة، وطاب لهم السَّمَر، فقال بعضُهم لبعضٍ: تصادقوا، وقولوا الحقيقية، ولْيَكْتُم بعضكم على بعضٍ، فلا تعلم قريش بذلك.

فقالوا: نعم.

فقال أحدهم: إنّكم تعلمونَ ـ والله ـ ما قومكم على شيءٍ! لقد أخطأوا دِيْنَ أبيهم إبراهيم وملّتِه!

ثم قال ساخراً متعجّباً: ويلكم، ما حَجَرٌ نُطيفُ به، لا يسمعُ ولا يبصر، ولا يضرُّ ولا ينفع، ولا يغني شيئاً!

ويحكم قوموا فالتمِسُوا لأنفسكم دِيْناً، فإنّكم ـ وايم الله ـ ما أنتم على شيء..

وأقبل بعضهم على بعضٍ يتساءلون، ويتلاومون، ويقولون: أفرأيتم اللات

والعزّى؟ ومَنَاة الثّالثة الأخرى؟ وهل رأيتم هُبَل وإسَاف ونَائلة؟ وغيرها من الأصنام؟ إنّها مهزلةُ المهازلِ، تستولي على عقولنا، وعقول آبائنا وأجدادنا، بل وعقول العرب والأعراب، ولا تغني مِنَ الحقِّ شيئاً، ويحكم تعالوا نبحث عنِ الطّريقِ التي توصلنا إلى الحقيقة(١) لعلّنا نصيب خيراً.

في صباحِ تِلكَ الليلةَ، انبسطتْ أشعّةُ الشّمْس كأنّها تِبْرٌ في الأفقِ الشّرقي، وعند ذلك نَهَضَ الأربعة، فتفرقوا في البلدان يلتمسونَ الحنيفيّة دِيْن إبراهيم - عليه السّلام -.

---

(١) كان الطّابَعُ العام لهؤلاء وأمثالهم البحث عن الدّيْنِ المستقيم، والتّطلع إلى الهداية السّماوية ولكنّ ميدانَ التّفكير الواضح في أرجاءِ الجزيرة العربية كان أوسع من أنْ يكونَ مقصوراً على هؤلاء. وكان في العرب بعضُ الحكماء الذين كان يُرجعُ إليهم فيما يعرض منْ مشاكلَ، وقد أُثرت عنهم الحِكَم القصيرة التي تركّزتْ فيها التجرِبَةُ والحنكة من مثل قولهم: مَقْتَلُ الرَّجل بين فكيه.

هذا وقد رُويَ عن بعضِ هؤلاء العرب بعض الآراء التي تدلُّ على تفكيرهم وحكمتهم ونظرتهم إلى الكونِ والخالقِ والمخلوقات. فمن هؤلاء: عامِرُ بنُ الظّرِبِ الذي عُرِفَ بالذّكاء، ومِن كلامه في استدلالهِ على وجود الله عزّ وجلّ وتصريفه للكون قوله: إنّي ما رأيتُ شيئاً قطّ خُلِقَ بنفسه، ولا رأيتُ موضوعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً، ولو كان يميت النّاس الدّاء لأحياهم الدّواء.

ومنَ الذين اشتهروا بالحكمةِ والتّفكير في الدِّيْنِ: قسٌّ بنُ ساعدة الذي يقول فيه رسولُ الله ﷺ: «كأنّي أنظرُ إليهِ بسوقِ عكاظ على جَمَل له أوْرَق، وهو يتكلم على جملٍ له أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة، ما أجدني أحفظه..» وخطبته بسوق عكاظ مشهورة: أيّها الناس اسمعو وعوا......

ودليله على وجودِ الله أيضاً مشهور، يقول: إنّه يُستَدلُّ بالأثرِ على المؤثر. وهو يصفُ الإله فيقول: كلا بل هو الله إلهٌ واحد، ليس ولود ولا والد، أعاد وأبدى، وإليه المآب.

ثم ينشد:

ياباكي الموتى والأمواتُ في جَدَثٍ ... عليهم ومِنْ بقايا بَزِّهم خِرَقُ
دعهم فإنّ لهم يوماً يُصاحُ بهم ... كما يُنَبَّهُ مِنْ نوماتِهِ الصَّعِقُ

فأمّا ورقةُ بنُ نوفل، فاستحكم في النَّصرانيةِ، واتّبع الكُتُبَ من أهلها حتى عَلِمَ عِلْماً مِنْ أهلِ الكتاب، ومات قبل الجهرِ بالدَّعوة؛ وكان ورقةُ عربيّاً أصيل النَّسب مِنْ ذروة بيوتاتِ قريش، وهو ـ كما روى الأصبهانيُّ في الأغانيُّ ـ: أحد مَنِ اعتزلَ عبادة الأوثان في الجاهلية، وطلبَ الدِّيْنَ، وقرأَ الكُتُبَ، وامتنع مِنْ أكْلِ ذبائح الأوثان.

وأمَّا عثمانُ بنُ الحويرث، فقدم على قيصر ملك الرُّوم، وتنصَّر وحَسُنت منزلته، فكان يُقال له: البطريق، ومات بالشَّام مسموماً.

وأمّا زيد بن عمرو بن نفيل، فلم يدخلْ في نصرانيّة ولا يهودية، بلِ اعتزلَ الأوثان، وحرَّم على نفسه الميتة والدَّم والذَّبائح التي تُذبحُ على الأوثان، ونهى عن قَتْلِ الموؤدة وقال: أعبدُ ربَّ إبراهيم، ومات قبل البعثة.

ويبدو أنَّ زيد بنَ عمرو قد عاب ورقة بن نوفل على اعتناقه النَّصرانية، وأراد منه التَّخلي عنها فقال: أنا أستمرُّ على نصرانيتي إلى أنْ يأتي الذي تُبشّرنا به الأحبار.

وحينما اطمأن زيدٌ على التَّوحيد، وأعلنَ ذلك قال له ورقة:

رشدتَ وأنعمتَ ابن عمرو وإنَّما ... تجَنَّبْتَ تَنُّوراً منَ النَّارِ حَـامِيَـا

بِـدِيْنِـكَ ربّـاً ليسَ ربٌّ كمثلِهِ ... وتـركك جِنّـان[1] الجبال كـما هيا

وأمّا عُبيد الله بنُ جحش، فأقَامَ على ما هو عليه من الالتباس والاضطراب، لم يثبتْ على أَمْرٍ منَ الأمور، ولم تستقر بفكره ديانة أو عقيدة.

وكان عُبيد الله بن جحش قد تزوّج إحدى عقيلات قريش حَسَباً ونسباً ـ وهي ضيفة حلقتنا في هذا اليوم ـ رملة بنت أبي سفيان[2] زعيم مكة وسيّد بني أمية.

---

(١) جِنّان الجبال: الذين يأمرون بالفَسَاد من شياطين الجن.

(٢) المُسند (٦/٣٢٥ و٤٢٥) وطبقاتُ ابن سعد (٨/٩٦ ـ ١٠٠) والمعارفُ (ص١٣٦ و٣٤٤) والمعرفة والتّاريخ (٣/٣١٨) والمستدرك (٤/٢٠ ـ ٢٣) والاستيعاب (٤/٢٩٦ ـ ٢٩٩)

ولم تمضِ مدّة من الزّمن، حتى ذاعَ في مكةَ ذلك النّبأ العظيم، نبأ محمّدﷺ، ونزول الوحي عليه، فطغى هذا الحدث العظيم، وغطّى كلَّ الأنباء والأحداث.

رَمْلَةُ وإيمَانٌ مُبكّرٌ:

أخذتْ أفياءُ الإيمانِ تتساقطُ على بيوتِ مكةَ، فانقسمت مكةُ إلى فريقين:

= وأسد الغابة (٦/١١٥ ـ ١١٧) ترجمة رقم (٦٩٢٤) ومجمع الزّوائد (٩/٢٤٩) وتهذيب التّهذيب (١٢/٤١٩) والإصابة (٤/٢٩٨ ـ ٣٠٠) وشذرات الذّهب (١/٢٣٦) وسير أعلام النّبلاء (٢/٢١٨ ـ ٢٢٣) وأزواج النّبي للصّالحيّ (ص١٦١ ـ ١٧١) وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النّساء ص٧٠ ـ ٩٣) والمجتبى (ص٩٤) وأعلامُ النّساء (١/٤٦٤ ـ ٤٦٦) وتلقيحُ فهومِ الأثر (ص٢١) والسِّمْط الثّمين (ص١١١ ـ ١١٧) وتاريخ الإسلام للذّهبي (عهد معاوية ص١٣٢ ـ ١٣٤) ومغازي الواقدي (٢/٧٤٢ و٧٩٢) وتاريخ اليعقوبي (٢/٨٤ و١٥٣ و١٦٩ و٢٣٠) والعِقْد الفريد (٥/١٢) والمحبّر (ص٧٦ و٨٨ و٨٩ و٩٨ و٩٩ و١٠٤ و١٠٥ و٤٠٨) وأزواج النّبيّ وأولاده لأبي عُبيدة (ص٧٢ ـ ٧٤) وتفسير القرطبيّ (١٤/١٦٥) والسِّير والمغازي) (ص٢٥٩ و٢٦٠ و٢٦٩ و٢٧٠) والأعلام للزّركليّ (٣/٣٣) والوافي بالوفيات للصّفدي (١٤/١٤٥ و١٤٦) وتقريب التّهذيب (٢/٥٩٨) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٥٨ و٣٥٩) وجمهرة أنساب العرب (١/١١١ و١٩١) ومختصر تاريخ دمشق (٢/٢٧١ و٢٨٤) وشفاء الغرام (٢/١٧٦) ومفحمات الأقران (ص١٦٦ و١٦٨) والسّيرة النبوية (٢/٦٤٥) وعيون الأثر (٢/٣٨٤ و٢٨٥) والسّيرة الحلبية (٣/٤١٤) وجوامع السّيرة النّبويّة (ص٣٢ و٣٣) والبداية والنّهاية (٨/٢٨) وجلاء الأفهام (ص١٨٦ ـ ١٩٥) ودلائل النبوّة للبيهقيّ (٣/٤٥٩ ـ ٤٦٣) والفصول (ص١٩٧ و٢٤٧ و٢٤٨ و٢٤٩ و٢٥١ و٣٠٧) ونور الأبصار (ص٤٨) وصفة الصّفوة (٢/٤٢ ـ ٤٦) والمواهب اللدنية (٢/٨٥ ـ ٨٧) ومسند أبي يعلى (١٣/٤٢ ـ ٦٨) وأنساب الأشراف (١/٩٦ و٢٠٠ و٢٢٩ و٤٣٨ و٤٤١ و٤٤٨ و٤٦٢ و٤٦٥ و٤٦٧ و٤٩٣ و٥٣٢) ونسب قريش (ص١٢٣) وتاريخ الطّبريّ (٢/١٣٢ و١٥٤ و٢١٣ و٦٧٢ و٦٧٣) و(٣/١٠٤) و(٥/٦٢٣) والكامل لابن الأثير (٢/٢١٣ و٢٤١ و٣٠٨) و(٣/١٧٣ و١٧٤ و٣١٢ و٣٣١ و٤٤٥ و٤٤٦) وزاد المعاد (١/١٠٩ و١١٠ و١١١ و١١٢ و١١٤ و٣١٠) وغير ذلك من المصادر الحديثيّة والتّاريخية والتّراجم والطّبقات.

فريقٌ آمَنَ بالله عزَّ وجلَّ، وبرسولِهِ الأمين محمّدﷺ.
وفريقٌ كَفَرَ بما جاء به محمّد بن عبد الله، وكان زعيمُ هذا الفريق «أبو سفيان بن حرب».

لكنَّ أبا سُفيان بصلفهِ وقسوتهِ وحَزْمِهِ، لم يستطِعْ أنْ يحجبَ نورَ الهدايةِ عن قَلْبِ ابنته رملة، ـ زوج عُبيد الله بن جحش ـ التي شرحَ الله صدرها للإيمان، وألقى في قلبها أنوار اليقين، فآمنتْ مع المبكّرين، وسخِرتْ منَ الأصنام والأوثان، ومِمّا يعبد هؤلاء وهؤلاء من دونِ الواحد القهار.

ودخل زوجُها عُبيد الله بن جحش في دِيْنِ الله باديء الأَمْر، كما أسلم أخواه: عبد الله، وأبو أحمد، وأسلمت كذلك أختاه: زينب وحمنة، وكُتِبَتْ هذه الثُّلة مع السَّابقين الأوَّلين.

كانت رملةُ بنتُ أبي سفيان على جانبٍ كبيرٍ من رجاحة العقلِ، وجَزَالة الرَّأي، وقوّة الإرادة، وكان أبو سفيان يعلمُ هذه الخصائص المتميزة في ابنتهِ رملةَ، لكنّه لم يكنْ يتوقع أنَّ رملةَ ستغدو يوماً واحدة ممّن يطرح تقاليد الجاهلية بعيداً، وتترك ما نشأت عليهِ من تعظيمٍ للأصنام، ثم تكون منَ المُسارعات إلى الإيمان بالله ورسوله!!!..

كادَ أبو سفيان ـ وهو الجَلْد الصَّبُور ـ أنْ يصعقَ، وأنْ يفقدَ صوابه لما تسلّلتِ الأنباءُ إليه تشير إلى أنَّ ابنته رملة قد صَبَأت ـ بزعمه ـ عن دِيْنِ قريش، وعَزَفَتْ عن اللاّت والعُزّى ومناةَ وهُبَل وغيرها من الأصنام، ودخلت في دِيْنِ محمّدﷺ.

ودلف إلى دارها في بني جحش ليحاول أنْ يثنيَها عن عزمها، ويمحوَ إيمانها مِنْ قلبها، ليمحو عن نفسه ما لحقه مِنْ خزيٍ بإسلامها ـ كما زعم ـ ولكنَّ رملةَ رضي الله عنها أجابته بهدوءٍ ويقين: أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً رسول الله؛ ولم تزدْ على ذلك.

وأخذ أبو سفيان يتحدَّث إلى رملةَ بهدوءٍ مُصْطَنَع، ويحدّثها عن مجدِهِ ومجدِها، ويقدِّم ويؤخر، ويراوغ معها، لكنَّه عجز أنْ يفتنَها، أو يُدخلَ إلى قلبها حرفاً واحداً ممّا يقول، فقد غلّفَ الإيمانُ قلبها، وأضحتْ إرادتها صلبة لا تحرّكها

العواطفُ المبتورة، ولا الأحاديث عن الأمجادِ، ولا عن الأجداد.

وقام أبو سفيان بعد تلك الجلسة لم ينلْ خيراً، ورجعَ إلى بيته كاسفَ البال، حزينَ الفؤاد أنْ خرجت ابنته العاقلة عن إرادتِهِ، ولم تطاوعه في شيء، وبددتْ آماله العِراض، وأحلامه العِذاب بإيمانها بالله عزَّ وجلَّ، وكفرها بآلهة أبيها وقومها.

كانت رملةُ رضي الله عنها تسمع آيات الله عزَّ وجلَّ، فتزداد إيماناً مع إيمانها، وراحت تحفظُ ما ينزلُ من آيات الذِّكْرِ الحكيم على محمّدﷺ، وتتذوق حلاوتها وتشعر بجمالِ روعتها، فقد عُرِفَت رملةُ بأنّها كانت من العاقلات الفصيحات، وكانت من سَادة وسيّدات النِّساء.

هِجْرَةٌ وَصَبْرٌ جَمِيْلٌ:

مَنْ كان يظنُّ مِنَ الملأ الوثني أنَّ أبا سفيان سيسخَطُ على أقرب النَّاس إليه؟! ابنته رملة! ومَنْ كان يظنُّ أنَّ أبا سفيان يرى ابنته تُعَذَّبُ في الله ويسكت راضياً؟!

هذا ما كان قولاً وفعلاً، فقد وَثَبتِ القبائلُ على مَنْ أسلم منها، تكيلُ لهم ألوان العذاب، فاحتمل المسلمون البلاء، وذاقوا مرارة الاضطهاد، حتى إذا ما طفح الكيلُ، وبلغ السَّيْل الزُّبى، وتجاوز المشركون مقدار الإنسانية، أشارَ الحبيبُ المصطفىﷺ على أحبابه وأصحابه بالهجرة إلى الحبشة.

وهاجر بعضُ المسلمين إلى أرضِ الحبشة، ولما كانتِ الهجرةُ الثَّانيةُ إلى الحبشة، هاجر عبيد الله بن جحش فيمن هاجر، واصطحبَ معه زوجه رملة، وكانت حاملاً[1]، حتى إذا ما استقرُّوا في الحبشةِ عند مليكها النّجاشي، وضعت رملةُ ما في بطنها فكانت أنثى، فسمتها حبيبة، فكنيت بها، وأصبحت مشهورة بكنيتها تُدعى أمّ حبيبة.

صَعُبَ على أبي سفيان ومَنْ معه مِنْ جماعة المشركين، أنْ يفلتَ مِنْ أيديهم أولئك المؤمنون، الذين تركوا بيوتهم وديارهم، وخرجوا بعيداً بعيداً عن مراتعِ

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٧٧).

صباهم، ليذوقوا طعمَ الرَّاحةِ التي فقدوها في مكةَ، ومنهم ابنته رملة أمّ حبيبة.

أمّا المسلمونَ المهاجرون، فكانوا هنالك في خيرِ دار، وشعروا بأفياء الرَّاحة تظلّلهم عند خيرِ جار، وعبدوا الله عزَّ وجلَّ وهم بعيدون عن سفهاءِ قومهم الذين أذاقوهم أقسى أنواع وألوان العذاب.

وفي أرضِ الحبشة، كان المسلمون يتبادلون الزّيارات، فكانت ثلّة المؤمناتِ المهاجرات كأمِّ حبيبة، وأمِّ سلمة، ورقيّة بنت رسول الله ﷺ، وأسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب، وليلى بنت أبي حَثْمة وغيرهن، يجتمعن ويتذاكرن أيام مكةَ، ويَذْكرن البيتَ العتيق، وفي قلوبهن حنينٌ إلى هاتيك الدِّيار الحلوة، وما كان يخفّفُ عنهن ذلك إلا إيمانهنَّ العميق بأنَّهنَّ ومَنْ كان هناك معهم بأنّهم جميعاً على صراطِ العزيز الحميد، وأنَّهنَّ يتحمَّلْنَ ما يتحمّلْنَ مِنْ مصاعبَ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، وفي سبيل رضوانه ومرضاته.

عِنْدَمَا تَتَحَقَّقُ الأَحْلامُ

ظلّتْ أمُّ حبيبة رضي الله عنها ملازمة للعبادة، وحسن الصِّلَةِ بالله عزَّ وجلَّ، ترعى ابنتها وتغذّيها على طاعةِ الله عزَّ وجلَّ، ومحبّة رسولِ الله ﷺ، بينما راح زوجُها عبيد الله بن جحش يختلفُ إلى الرُّهبان والقساوسة، ويطيلُ المكث معهم، والجلوس إليهم، فكانت نفسُه تميلُ أحياناً لِمَا يقولون، إلى أنْ أُعجبَ بهم على مَرِّ الأيام.

وفي ليلةٍ منْ ليالي الحبشة، دخلت أمُّ حبيبة غرفتها، وأوتْ إلى فراشها، وراحت تذكر الله عزَّ وجلَّ، وتسبِّحُ بحمده، ثم نامتْ، وحلمت حُلماً آثار مخاوفها، فقامت مذعورة مفزوعة، مبهورة الأنفاس، ولم يسكنْ روعها أبداً، فقد حُفِرَ الحلم المروِّعُ في وجدانها حتى صار أصدق من الحقيقة، وأعمق أثراً منَ الواقعِ الذي كانت تعيش فيه.

ولكنْ ما قصّةُ هذا الحلم؟! أمُّ حبيبة نفسها تروي حلمها فتقول:

رأيتُ في النَّوم كأنَّ عُبيدَ الله بن جحش زوجي بأسوأ صورة وأشوهها،

ففزعتُ وقلتُ: تغيرتْ والله حاله! فإذا هو يقول حيثُ أصبح: يا أمَّ حبيبة، إنِّي نظرتُ في الدِّين، فلم أرَ دِيْناً خيراً مِنَ النَّصرانيَّة، وكنتُ قد دِنْتُ بها، ثمَّ دخلتُ في دِيْنِ محمَّد، ثمَّ قد رجعتُ إلى النَّصرانية فقلتُ: والله ما خير لك. وأخبرته بالرُّؤيا التي رأيتها له، فلمْ يحفلْ بها[1].

وهكذا ارتدَّ عُبيد الله بن جحش عن الإسلام، واعتنق المسيحية، وغلبتْ عليه الشِّقوة والشَّقَاوة، وحاول أنْ يردَّ أمّ حبيبة عن الإسلام، ورغّبها فيما أضحى يدين به، ولكنَّ محاولاته أخذت تذروها الرِّياح، وأَبَتْ أمُّ حبيبة أنْ تجيبَه إلى ما يريد[2]، وصبرت صَبْر الكرام، وأخذ إيمانها الصَّحيح السَّليم يعملُ عَمَلَه، فأضاء جوانبَ نفسها، وزاد من ثقتها بالله عزَّ وجلَّ، وأنَّ الله معَ الصَّابرين، وأنَّه لبالمرصاد لِمَنْ ضلَّ وخرج عن جادة الصِّراط السَّويِّ.

ولم تقبلْ أمُّ حبيبة رضي الله عنها أنْ تبقى مع إنسان مشرك كافر، أو أنْ تجالِسَه أو تحادثه أو تحدّثه، فكان لا بدَّ مِنَ الفراق والانفصال عن هذا الزَّوج العاقِّ، الذي عقَّ دِيْنَه، وعقَّ أهلَه، وخانَ العهد الذي فارق عليه رسول الله ﷺ.

إذن، فليكنِ الفراق؛ واتخذتْ أمُّ حبيبة هذا القرار الحاسم، فاعتكفتْ في دارها لا تَزور ولا تُزار، تمضي سحابة نهارها تمضغُ أساها، وتقومُ الليل تناجي ربَّها عزَّ وجلَّ، وتبثّه همومها، وتشكو إليه حالها، فهو عليمٌ بها، وبِمَا أصابها في غربتها، وفي وحدتها.

إنَّ الظُّروفَ التي أحاطتْ بأمِّ حبيبة كانت قاسية ومضنية، فهي لا تستطيعُ أنْ تعودَ إلى مكةَ، فأبوها أبو سفيان عدوّ الإسلام اللدود ـ الآن ـ ولنْ يقرَّ له قرار

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٨٢ و٨٣) وانظر: الإصابة (٤/ ٢٩٩) وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٤٢) و(٢/ ٢٢١) وطبقات ابن سعد (٨/ ٩٧) والمستدرك (٢/ ٢٠ و٢٢) والسمط الثمين (ص١١١) والسيرة الحلبية (٢/ ٧٥٨).

(٢) كان عبيد الله بن جحش لما تنصّر يقول: فقحنا وصأصأتم: أي أبصرنا ولم تبصروا، وهذا مَثَلٌ: لأن الجرو إذا فتح عينيه قيل: فقح، وإذا فتح ثم غمّض من الضعف والصغر، قيل: صأصأ.

حتى يفتنها عن دِينها، كيما تعودَ مكانتهُ وهيبته بين صفوفِ فجّار قريش الذين أخذوا يعيّرونه بإسلامِ ابنته أمّ حبيبة وبهجرتها، وفرارها إلى الحبشة[1]، وهي لا تستطيعُ أنْ تهاجرَ إلى المدينة المنوّرة لا تريدُ أنْ تكونَ كَلًّا على زينبَ بنتِ جحش أخت زوجها عُبيد الله، فاستسلمتْ لله عزَّ وجلَّ، وسلَّمَتْ إليه أمْرها فهو علّام الغيوب.

أمّا زوجها عبيد الله بن جحش، فقد استهوته خمورُ الحبشة، وراح يعبُّ من دِنَانِها ما جعله صريع أقداحها، يَصِلُ ليله بنهاره وهو يعاقرُ الخمرة، وأكبّ على احتساء الخمر حتى مات كافراً طريداً خَسِرِ الدُّنيا والآخرة.

قال الطّبريّ ـ رحمه الله ـ فتنصَّر زوجها، وحاولها أنْ تتابعه، فأبتْ وصبرتْ على دِيْنِها، ومات زوجها على النّصرانية.

يَا أُمَّ المُؤْمِنِيْنَ:

مكَثَتْ أمُّ حبيبة بنتُ أبي سفيان وَحْدَها في ديار الغربة، فقد ماتَ زوجها وهو مكبٌّ على الخمر[2]، وراحت أمُّ حبيبة تدعو الله عزَّ وجلَّ أنْ يلهمَها

---

(١) في هجرةِ رملة بنت أبي سفيان رضوان الله عليها إلى أرضِ الحبشة، تؤكد أنَّ حبّها لله عزّ وجلّ، ولرسوله محمّدﷺ يفوقُ حبّها أهلها، ويفوق حبّ عشيرتها الأقربين، بل ويفوقُ مكانة والدها زعيم قريش، إنّها تركتِ الأهلَ والأوطانَ، والدَّار والدِّيار، فِراراً بدينها خشية الفتنة، وأعلنتْ على الملأ أنَّ ما جاء به محمّد بن عبد اللهﷺ يهون في سبيله الآباء والأبناء، وكلّ شيء، فلتفعل قريش ما تشاء أنْ تفعلَ، فالله سبحانه متمُّ نوره، ولو كره الكافرون، وكان امتحان أمّ حبيبة رضي الله عنها قاسياً تضلُّ فيه عقول الرّجال ذوي الأحلام، ولكنَّ الله أكرمها وجازت ذلك الامتحان بنجاح موفّق مبارك وظفرت بذروة النّجاح.

(٢) في ظلماتِ اليأسِ الرَّهيبِ، لَمَعَ بصيصٌ ضعيفٌ مِنْ أملٍ عند أبي سفيان، عندما ارتدَّ عُبيد الله بن جحش زوج ابنته أمّ حبيبة عن الإسلام ودِيْن محمّدﷺ، واعتنق النّصرانية دِيْنَ الأحباش، وصارت الآمال العابثة تلعبُ بأبي سفيان، وتعبثُ بشعوره المضطرب، فكأنّما كانت تخاطبُ أبا سفيان قائلة:

إنْ هيَ إلا أيام حتى تعود أمّ حبيبةإلى دارِك باكيةً نادمةً مستغفرةً، وستكون عودتها طعنة =

الصَّواب، وأنْ يرحمَ غربتها، ويرحمها لما تعرَّضتْ منْ هزّات عنيفة، آخرها دعوة زوجها إلى ترك الإسلام والتّنصّر، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ أبى لأمِّ حبيبة أنْ تتنصَّر، وأتمَّ الله عزَّ وجلَّ لها الإسلام والهجرة[1].

بلغَ الحبيبُ المصطفىﷺ وهو بالمدينة المنوّرة أنَّ أمَّ حبيبةَ بنتَ أبي سفيان المؤمنة المسلمة السَّبَّاقة إلى ارتشافِ رحيق الإيمان منذ قطراته الأولى بمكةَ، ثمَّ هاجرت إلى الله ورسوله، وفي سبيل الله إلى الحبشة، بلغه أَمْرها.

وبلغهﷺ أنَّ زوجَها عُبيد الله بن جحش ارتدَّ عنِ الإسلام ماتَ نَصْرانياً، وها هي تعيشُ وَحْدَهَا معها طفلتها الصَّغيرة حبيبة، فرأىﷺ أنْ يكرمها، وأنْ يجزيَها خيرَ الجزاء عن صَبْرِها، وعن تمسّكها بدينها، وبلغه ما بلغه عن صيانتها وعبادتها وعفّتها وصبرها، فعزمَﷺ أنْ يتزوَّجها، وانْ يشرِّفها بأشرفِ مقامات القُرب، بأنْ تكون أمّاً للمؤمنين وأن تكون من نساء أهل البيت النّبويّ الطّاهر ذي الأصل الثّابت، والفرع المتطاولِ في السّماء.

كانت أمُّ حبيبة رضي الله عنها قد اقتربت من الأربعين، ولم يؤثرْ بأنَّها كانت رائعة الجمال، أو منْ ذوات الوسامة، وإنّما أُثِر عنها ورعها ودِيْنها وصلاتها، ولذلك

= نجلاء للدعوة المحمّدية الجديدة.

لكنَّ الأيامَ مرَّتْ، والسِّنين كرَّتْ، وأمّ حبيبة هناك صابرة في الحبشة، راضية بما ارتضاه الله عزّ وجلَّ مِنْ دِيْنٍ حنيف، قد آثرتِ العزلةَ، وقطعت عن قلبها جواذب الدّنيا لتنجذب إلى السَّماء بعبادتها وصلاتها وصلتها بخالقها، ولتظلّ الأماني والأحلام تعبثُ بأبيها، وتروح به إلى متاهاتِ الرّدى، ولتشرّق بهِ وتغرّب، وليقضي الله أمْراً كان مفعولا.

وأعتقدُ أنَّه لما أسلمتْ ابنته أمّ حبيبة، استشعر مرارة الخِزي والعار والغمز واللمز من أكابر المجرمين بمكة، فدعوة رسول اللهﷺ قد دخلت عَقْر داره رغماً عنه، ووجدت استجابة من إحدى فلذات كبده، وبذلك تزعزع كيانه، ولما كانت الحروب بينه وبين رسول اللهﷺ لم يشأ أنْ يخدعَ ذاته، وإنّما اعترفَ في عين ذاته لذاته ونفسه أنّه يقاتل محمّد بن عبد الله رسول الله حمية وعصبية، كراهة أنْ يذهبَ شرفه وتذهبَ مكانته.

(١) انظر: المستدرك (٤/ ٢٠) وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٨٦).

وصفها الإمام الذّهبيّ ـ رحمه الله ـ بقوله: السَّيِّدة المحجّبة رملة بنت أبي سفيان[1].

لكنَّ رسول الله ﷺ قد عَزَم على أنْ يرفعها فوق مكانتها، وذلك بالزَّواج منها، وأنّه بذلك الزَّواج سيحقّق إحدى الحسنيين:
جَدْع أَنْف أبي سفيان والد رملة القاسي؛ أوْ أنْ يلينَ طبعه الغليظ، ويخشع قلبه لِمَا نزل منَ الحقِّ، فينشرحَ صدره للإسلام.

كلُّ هذا كان في المدينةِ المنوَّرةِ، وكانت هذه الأحداث تدورُ في بيتِ رسول الله ﷺ، أمَّا السَّيِّدة أمُّ حبيبة بنت أبي سفيان، فقد كانت في الحبشةِ تنتظرُ انقضاءَ عدّتها كيما يأتيَ الله بالفرجِ، أوْ أَمْرٍ مِنْ عنده.

وذات عشية، أَوَتْ أمُّ حبيبة إلى مخدعها لتنام، فرأتْ في نومها كأنَّ قائلاً يقول: يا أمَّ لمؤمنين، فاستيقظت فزعةً، ولكنْ سرعانَ ما سَرَتْ سكينةُ الهدوءِ إلى نفسها، فأَوَّلَتْ أنَّ رسولَ الله ﷺ يتزوّجها؛ وها هي الأيام تمضي يوماً بعد يوم، ولم يبقَ على انقضاءِ عدّتها سوى بضعة أيام معدودات[2].

كانَ الرَّسولُ الكريمُ ﷺ قد جهَّز في المدينة المنوّرة عمرو بن أميّة الضّمريّ، ليقومَ بمهمةٍ كريمةٍ، وينقل أعظم البِشَارات للسَّيِّدة المحجّبة رملة بنت أبي سفيان؛ وبعثَ رسولُ الله ﷺ عمرو بن أمية إلى النّجاشيّ كيما يزوّجه أمّ حبيبة ابنة أبي سفيان.

في الحبشة، كانت أمُّ حبيبة رضي الله عنها، تفكّرُ في وحدتها، وتتفكّر في الحلمِ الذي رأتْه منذ أيام، فلم يرعْهَا إلا ورسول النّجاشي ـ وكانت جارية يُقال لها أَبْرَهَة، كانت تقومُ على ثيابه ودهنه ـ فدخلتْ على أمِّ حبيبةَ وقالت: إنَّ الملِكَ يقولُ لك: إنَّ رسولَ الله ﷺ كَتَبَ إليَّ أنْ أزوِّجَكه.

شعرت أمُّ حبيبة رضي الله عنها بهالات السُّرورِ تجلّلها، وأحسَّتْ بأنَّ فَيْضاً

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢١٨).

عن تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٨٣) والإصابة (٤/٢٩٩) مع الجمع والتصرف.

مباركاً قد غَمَرها، وغمَر أحاسيسها، ولم تستطعْ أنْ تكتمَ عواطفها، بل قالت للجاريةِ وهي مبتسمة ضاحكة من قولها: بشرك الله بخير. . . . .

فقالت الجارية: يقولُ لك الملك: وكّلي مَنْ يزوّجك.

فأرسلت أمّ حبيبة إلى أَحَدِ أقاربها وهو خالد بن سعيد بن العاص الأمويّ رضي الله عنه، فوكّلته.

ثمَّ إنَّ حبيبة رضي الله عنها أعطتِ الجارية أبرهة سِوَارَيْن مِنْ فضة، وحَلَّتْها بها، وخلخالين وخواتيم من فضّة أيضاً كانت في أصابعها بما بشّرتها. وهل هناك أمْنِية أو بشارة أعظم من هذه البشْرى التي نَظَمَتْ أمّ حبيبة في ذلك العِقْد الثّمين؛ عقْد أمّهات المؤمنين الطّاهرات اللاتي أكرمهن الله عزّ وجلَّ برسولهِ محمّدﷺ؟!!

خطْبَةُ الزَّوَاج وَالَمْهْرُ النَّفِيْس:

في ترجمته النَّفيسة لأمِّ حبيبة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، ذكر الإمام الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ بعض المعارف النَّفيسة اللّطيفة، في شَأْنِ مَهْرِ وزواج هذه المرأة الكريمة أمّ حبيبة فقال: وهي مِنْ بنات عمِّ الرَّسولﷺ، ليس في أزواجه مَنْ هي أقرب نَسَباً إليه منها، ولا في نسائه مَنْ هي أكثر صَدَاقاً منها، ولا مَنْ تزوَّج بها وهي نائية الدَّار أبعد منها. عُقِدَ لهﷺ عليها بالحبشة، وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربعمئة دينار، وجهّزها بأشياء[1].

وهذا القول يَتَوافَقُ ويوافق ما جاء في الصَّحيحين[2] مِنْ قرابتها مِنْ رسولِ اللهﷺ.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢١٨).

(٢) أخرج الإمامُ البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه بسنده عن أمِّ حبيبة رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسول الله، انكح أختي بنت أبي سفيان، قال: «وتحبين»؟ قلتُ: نعم لستُ لك بمخْلِية، وأحبّ مَنْ شاركني في خيرِ أختي، فقال النّبيّﷺ: «إنَّ ذلك لا يحلُّ لي» قلتُ: يا رسول الله، فوالله إنا لنتحدثُ أنّك تريد أنْ تنكحَ درّة بنت أبي سلمة. قال: «بنت أمّ سلمة»؟ فقلتُ: نعم، قال: «فوالله لو لم تكن في حجري ما حلّتْ لي، إنّها لابنة أخي من الرّضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضنّ عليّ بناتكن ولا أخواتكن». =

إنَّ هذا الإنعامَ الرَّباني كلّه مِنْ فَضْل الله تعالى أمّ حبيبة، ومن رحمته العظيمة بها وبأمّهات المؤمنين الطّاهرات اللاتي ذكرهن الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿النَّبيُّ أَوْلى بالمؤمنينَ مِنْ أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم﴾[1] [الأحزاب: ٦].

أمّا كيف كانت الخطبة المباركة، والمهْر الكريم، فنحنُ مرسلو القول في ذلك إنْ شاءَ الله.

ففي مساءِ ذلك اليوم الذي زُفَّتِ البشرى لأمّ حبيبة بالزَّواجِ مِنْ رسول الله ﷺ، أَمَرَ النّجاشيُّ ـ ملك الحبشة ـ جعفر بن أبي طالب ومَنْ هناك منَ المسلمين كيما يحضروا: فحضروا، وإذ ذاك قام النّجاشي خطيباً في ذلك الحفْلِ البهيج فقال:

الحمدُ لله الملك القدوس، السَّلام المؤمن، المهيمن العزيز الجبّار، وأشهد أنْ

= انظر: فتح الباري (٦/٦٤) حديث رقم (٥١٠٧) وانظر البخاري أيضاً الأحاديث (٥٣٣٨ و٥٣٣٩ و٥٣٤٠) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٢٨) وفي الحج (١٢٩٢) وفي الطلاق (١٤٨٦) وفي الرضاع (١٩٤٩) وأبو داود في النكاح (٢٠٥٦) وابن ماجه في النكاح أيضاً (١٩٣٩).

(١) في تفسيرِهِ اللطيف الممتع ذكر أبو بكر الرّازيّ ـ رحمه الله ـ تعليقاً نفيساً على معاني هذه الآية فتساءل قائلاً: فإنْ قيل، كيف قال تعالى: ﴿وأزواجه أمّهاتهم﴾ فجعل أزواج النّبيّ ﷺ بمنزلة أمّهات المؤمنين حكماً، وما جعل النّبي بمنزلةِ أبيهم حكماً، كما قال تعالى: ﴿ما كان محمّد أبا أحدٍ منْ رجالكم﴾[الأحزاب: ٤٠]؟
قلنا: أرادَ الله تعالى بقوله: ﴿وأزواجه أمّهاتهم﴾ أنّ أمته يَدْعون أزواجه بأشرفِ الأسماء، وأشرف أسماء النّساء «الأم» وأشرف أسماء النّبيّ ﷺ رسول الله لا الأب.
الثّاني: أنّه تعالى جعلهن أمّهات المؤمنين تحريماً لهنّ عليهم، إجلالاً وتعظيماً له عليه الصّلاة والسّلام، كيلا يطمع أَحَدٌ في نكاحهن، فلو جعل النّبيّ ﷺ أبا للمؤمنين لكان أباً للمؤمنات أيضاً، فلم يحلّ له نكاح امرأة منَ المؤمنات، وذلك ينافي إجلاله وتعظيمه.
وقد جعله أعظم من الأب في القرب والحرمة بقوله تعالى: ﴿النّبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [الأحزاب: ٦] فجعله أقرب إليهم من أنفسهم وأحب، وكثير من الآباء يتبرأ من ابنه، ويتبرأ منه ابنه، وليس أحد يبرأ من نفسه. (تفسير أبي بكر الرازي ص٤٠٩ و٤١٠).

لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّه الذي بشَّر به عيسى بن مريم.

أمّا بعد: فإنَّ رسولَ الله ﷺ، كَتَبَ إليَّ أنْ أزوِّجَه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبتُ إلى ما دعا إليهِ رسولَ الله ﷺ، وقد أصدقتُها أربعمئة دينار.

ثم إنَّ النّجاشيَّ سَكَبَ الدّنانير(١) بين يدي القوم المسلمين وجلس في مكانه، فقام وكيل أمّ حبيبة خالد بن سعيد ابن العاص رضي الله عنه يخطبُ فقال:

الحمدُ لله أحمده، وأستعينه وأستنصره، وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبده ورسولُه، أرسله بالهدى ودين الحقِّ، ليظهره على الدِّيْنِ كلّه ولو كره المشركون.

أمّا بعد: فقد أجبتُ إلى ما دعا إليه رسولُ الله ﷺ، وزوّجته أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسولِ الله ﷺ(٢).

ودفعَ النّجاشيُّ الدَّنانيرَ إلى خالد بنِ سعيد فقبضها، ثم أرادَ المسلمون أنْ يقوموا، وإذ ذاك قال لهم النّجاشي: اجلسوا فإنَّ سُنَّة الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ إذا تزوّجوا أنْ يُؤكلَ طعامٌ على التّزويج، فدعا بطعام فأكلوا ثمّ تفرّقُوا(٣).

«وَعَلَيْهَا السَّلاَم»:

إنَّ الأقدارَ التي تجري في أعنّتها، رفعتْ مِنْ قَدْرِ أمِّ حبيبةَ، وجعلتها في مكانة مباركة، هي نفسها الأقدار التي رفعتْ قَدْرَ تلك الجارية «أبرهة» التي بشّرتْ

---

(١) قال الإمام الذّهبيّ ـ رحمه الله ـ في ترجمة النّجاشي: فلمّا وفّت أم حبيبة ـ العدّة، بعثَ رسولُ الله ﷺ يخطبها، فأجابت، فنهض في ذلك النّجاشي، وشهد زواجها بالنبي ﷺ، وأعطاها الصداق عن النبي ﷺ من عنده أربعمئة دينار، فحصل لها شيء لم يحصل لغيرها من أمهات المؤمنين، ثم جهزها النجاشي. (سير أعلام النّبلاء ١/٤٤١).

(٢) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٨٣) بتصرف يسير جداً، وانظر طبقات ابن سعد (٨/٩٧ و٩٨) والمستدرك (٤/٢٠ ـ ٢٢) والسيرة الحلبية (٢/٧٥٨ و٧٥٩) والإصابة (٤/٢٩٩) والاستيعاب (٤/٢٩٧) وتفسير القرطبي (١٨/٥٨).

(٣) للحديث أصل عند أبي داود (٢٠٨٦) و(٢١٠٧) وعند النسائي (٦/١١٩).

أمّ حبيبة بِأَمْرِ الزَّواج المبارك، وجعلت رسولَ اللهﷺ يهديها السَّلام، وهنيئاً لِمَنْ سَلَّمَ عليه رسولُ اللهﷺ.

وإنّي لأكْبِر تلك الجارية التي عملَ الإيمانُ عَمَلَه في قلبها، فزهدت فيما يحبُّه النِّساء منْ حليٍّ وذهبٍ وفضّة، ورغبت في سلامها على رسول اللهﷺ ـ وهي لم تره ـ هذه أمنيتها التي عرضتها على أمّ حبيبة رضي الله عنها.

لنستمع إلى أمّنا أمِّ حبيبة تروي خبر ذلك السَّلام قالت أمُّ حبيبة: لما وَصَلَ المالُ وهو مهري مِنَ النّجاشيّ، أرسلتُ إلى الجارية أبرهة التي بشّرتني، فأتتْ، فقلتُ لها: يا أبرهة، إنّي كنتُ قد أعطيتُك ما أعطيتُك بالأمسِ، ولا مال بيدي، فهذه الخمسون مثقالاً، فخذيها فاستعيني واستغني بها؛ ولكنَّ الجارية أبتْ ذلك، وأخرجت حُقّاً(١)فيه كلّ ما كنتُ أعطيتُها، فردّته عليَّ وقالت: عَزَمَ عليَّ الملكُ ألاّ أزرأكِ شيئاً، وأنا التي أقومُ على ثيابه ودهنه، وقد اتَّبَعْتُ دِيْنَ محمّدٍ رسول اللهﷺ، وأسلمتُ لله عزَّ وجلَّ، وقد أَمَرَ الملكُ نساءه أنْ يبعثنَ إليك بكلِّ ما عندهن من العطر. قالت أمُّ حبيبة: فلمّا كان مِنَ الغد، جاءتني بعود(٢) وورس(٣) وعنبر، فقدمتُ بذلك كلِّه على رسول اللهﷺ، فكان يراه عليَّ فلا ينكره، ثم قالتِ الجاريةُ أبرهة: يا أمّ حبيبة إنَّ حاجتي إليك أنْ تُقْرئي رسول اللهﷺ مني السَّلام، وتعليمه أنّي قد اتَّبَعْتُ دِيْنَه.

قالت أمُّ حبيبة: ثمّ لطفَتِ الجاريةُ أبرهة بي، وكانت هي التي جهّزتني، وكانت كلّما دخلتْ عليَّ تقولُ: يا أمّ حبيبة لا تَنْسَيَ حاجتي إليك.

فلمّا قدمتُ على رسولِ اللهﷺ أخبرتُه كيف كانت الخطبة، وما فعلتْ بي أبرهة، فتبسّم رسول اللهﷺ، وأقرأته منها السَّلام، فقالﷺ: «وعليها السَّلام ورحمة الله وبركاته»(٤).

---

(١) الحقُّ: بضم الحاء؛ وعاء يُجعل فيه الطيب أو الحلي ونحوها.

(٢) العود: نوع من الطيب يتبخر به.

(٣) الورس: نبات أصفر يتخذ من الزعفران.

(٤) عن تاريخ مدينة دمشق (تراجم النّساء ص٨٤) والسيرة الحلبية (٢/٧٥٩) مع الجمع =

أُمُّ حَبِيْبَة في البَيْتِ الطَّاهِر:

بعد أنْ مكثَ المسلمون في الحبشةِ زَمَناً طويلاً، أخذوا يتأهبون للهجرة إلى المدينة بعد أنِ استقرَّ فيها الإسلام والسَّلام، وبعد أنْ فَصَلَتِ المعاركُ بين المسلمين والمشركين، فقد كانت معركة بَدْر أُحُد والخندق وغيرها، وفي هذه المعارك كان أبو سفيان من قادتها ضد المسلمين.

كان آخر المعارك التي قادها أبو سفيان معركة الأحزاب التي هَزَمَ الله فيها الأحزاب وحده، بعد أنْ زاغتْ أبصار المؤمنين، وبلغتِ القلوبُ الحناجر، ونادى أبو سفيان بالرَّحيل ليلحقَ بمكةَ، وقد انهارتْ آمالُ الأحزاب ورئيسها أبو سفيان في استئصالِ المسلمين.

وقد عبَّر أبو سفيان في كتابٍ أرسله إلى رسول الله ﷺ عنْ مشاعره عقب الانسحاب جاء فيه:

باسمك اللهم، فإنِّي أحلفُ باللات والعزّى وإساف ونائلة وهُبَل، لقد سِرْتُ إليك في جَمْعٍ، وأنا أريدُ أنْ لا أعود إليك أبداً حتى استأصلكم، فرأيتُك قد كرهتَ لقاءنا، واعتصمتَ بمكيدةٍ ما كانتِ العربُ تعرفها، وإنَّما كانت تعرفُ ظِلَّ رماحها، وشَبَا سيوفها، وما فعلتَ هذا إلا فراراً من سيوفنا، ولقائنا، ولك مني يوم كيوم أُحُد.

فأرسل إليه ﷺ جواباً جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. منْ محمَّد رسول الله إلى صخر بن حرب؛ أمَّا بعد: فقد أتاني كتابك، وقديماً غرَّك بالله الغَرور، أمَّا ما ذكرتَ أنَّك سِرْتَ إلينا وأنتَ لا تريدُ أنْ تعودَ حتى تستأصلنا، فذلك أمْرٌ يحولُ الله بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يومٌ أكسر فيه اللاّت والعزّى وإسافاً ونائلة وهُبل حتى أذكّرك ذلك يا سفيه بني غالب».

= والتّصرف اليسير. وانظر سير أعلام النبلاء (١/٤٤٣) والسمط الثمين (ص١١٣) وغيرها.

كان المسلمون في الحبشةِ في شوَقٍ شديد إلى لقاءِ رسولِ اللهﷺ، وإلى لقاء الأحبّة والأصحاب، وكانت أمُّ حبيبة رضي الله عنها أكثرهم شوقاً ولهفةً، فما إن تدخل دورَ النّبيِّﷺ، حتى تصبحَ أمّ حبيبة أمّ المؤمنين، وإنّها لأمْنيةٌ غاليةٌ، قد نالتها بإيمانها وصَبْرها، وإنّه لشرفٌ عظيمٌ يتقاصرُ دونه كلّ شرف، ويتضاءل أمامه كلّ شيء، فليس بالقليلِ لقب أمّ المؤمنين، إنّه لتاجٌ مبارك ألبسها إياه ربّ العالمين.

أمّا أبو سفيان، فكان في مكةَ، تهبُّ عليه الذِّكْريات، وتطوفُ بذهنه ما كان بينه وبين محمّدﷺ والمسلمين يوم بدر. ويوم الخندق، وتذكّر تلك الرّيح التي قَلَبَتْ قدورهم، واقتلعت خيامهم في يومِ الخندق.

وجاشتِ الذّكرياتُ في وجدانه، وكانت جميعها تَخزُ نفسه وَخْزاً أليماً، فقد أثارتها ابنته أمّ حبيبة بعد أنْ جاء مِنَ الحبشة مَنْ يخبره أنَّ محمّداًﷺ قد كتب إلى النّجاشي أنْ يزوّجه أمّ حبيبة، وأنّها قد وكلت خالد بن سعيد كيما يزوجها من نبيِّ الإسلام هذا الذي يحاربه منذ اليوم لانبثاقِ فجر الرِّسالة المحمّدية.

وتأجّجت في جوفه نارُ الغيظ، وزاد في حنقه أنَّ الخبر الذي أتاه منَ الحبشة يقول: إنَّ ابنته أمَّ حبيبة كادت تطيرُ منَ الفرحِ لمّا علمت أنَّ رسولَ اللهﷺ قد بَعَثَ يخطبها، وأنّها أعطتِ الجارية التي بشّرتها سوارين ثمّ قالت لها بعد أنْ قبضت الصَّداق: كنتُ أعطيتك السّوارين بالأمس، وليس بيدي شيءٌ من المال، وقد جاءني الله عزّ وجلّ بهذا. . .

أمُّ المؤمنين، أمُّ حبيبة ابنة زعيم قريش تصبحُ أمّاً لأعدائه الذين يحاربهم منذ زَمَنٍ بعيد!!! لقد دارت به الأرضُ لما بلغه ذلك النّبأ، ولكن كلمةَ الحقيقة فرّتْ من شفتيه لترتسم في سجلِ التّاريخ معبرةً عن صَدْقِ وجدانه، شاء أمْ أبى، لقد قال: ذلك الفحل لا يقرع أنفه[1].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥٨/١٨) وأسباب النزول للواحدي (ص٣٤٩) وأنساب الأشراف (٤٣٩/١) وأسد الغابة (١١٦/٦).

وعادت أمُّ حبيبة مهاجرةً إلى المدينة سنة سبع من الهجرة عقب فتح خيبر، عادت مع ركْبِ المهاجرين وفيهم جعفر بن أبي طالب ومَنْ معه، وقد سُرَّ النّبيّ ﷺ لقدوم هؤلاء الأحبّة بعد غياب دام طويلاً، ومعهم الصّابرة الطّاهرة السّيِّدة المحجّبة أمّ حبيبة التي غدت زوجه وأمّ المؤمنين.

دخلت أمّ حبيبة البيتَ النّبويَّ الطّاهرَ في المدينةِ، وغدت أمّ المؤمنين رغماً عن آنافِ المشركين، ورغم أنف أبي سفيان. . . . وتزوّجَ النّبيُّ ﷺ أمّ حبيبة سَنَةَ سَبْعٍ من الهجرة بعد زواجه من صفيّة بنت حيي أمّ المؤمنين.

أمّا عن كيفية قدومها من الحبشة ودخولها البيت النّبويّ الطّاهر، فعند أبي القاسم بن عساكر الخبر اليقين حيث قال: لما قدمت أمّ حبيبة رضي الله عنها، أمَرَ رسولُ الله ﷺ بِلالاً فأخذ بخطام بعيرها، فأنزلها المنزل، أَمَرهُ النّبيّ ﷺ، فإذا فيه كناسة، فقالت لمولاة لها:

إن شئتِ كفيتني السَّقي وكنستُ، وإن شئتِ استقيتُ وكنستِ.

قال: فكنستُ البيتَ، ثم بسطتُ فيه بساط شَعْر، ثمّ بسطتُ عليه شيئاً، ثمّ أسرت، ثمّ أذن رسول الله ﷺ بالدّخولِ على أهله، فلمّا دخلَ عليها وَجَدَ ريح الطِّيْب، وقال: «إنّهنّ قرشيات بطاحيات قرويات، لَسْنَ بـأعرابيـات ولا بدويات»[1].

ومنذ أنْ دخلت أمّ حبيبة البيت النّبويّ غَدَتْ من نساء آلِ البيت الطّاهر، وراحت تنهلُ من معين القرآن الكريم، والحديث الشّريف الذي فاتها في هجرتها بالحبشة حتى غدتْ واحدة من فقيهات نساء الأمّة.

ومن الجدير بالذّكر أنَّ رسولَ الله ﷺ قد أَشْرَكَ المهاجرينَ في الحبشة مِنْ مغانم خيبر، ولم يقسمْ لأحدٍ غيرهم معهم، وقال في حقّهم: «لكم أنتم ـ أهل السَّفينة ـ هجرتان[2] ـ».

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٨٧).

(٢) انظر البخاري في مناقب الأنصار، ومسلم في فضائل الصحابة.

إخْلاصُ اليَقين عنْد أمّ حَبيبَة:

كانت هدنةُ الحُديبية بين المسلمين والمشركين أعظم الفتوح، فإنَّ النّاس أَمِنَ بعضُهم بعضاً، واختلطَ المسلمونَ بالكفار ونادوهم بالدّعوة، وأسمعوهم القرآن الكريم، ورشحات الحديث النّبويّ، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين مطمئنين، وظهر مَنْ كان مختفياً بالإسلام، ودخل فيه في مدّة الهدنة مَنْ شاء الله أنْ يدخلَ، ولهذا سمّاه الله عزّ وجلّ: ﴿فتحاً مبيناً﴾.

كان مِنْ شروط المعاهدة شَرْط تضمّنَ حرية الاختيار للقبائلِ في الانضمام إلى أَحَدِ الفريقين المتصالحَيْن، فقد تواثبتْ خزاعةُ وقالوا: نحنُ في عقْدِ محمّدﷺ، وتواثبت بنو بكر وقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

هذا وقد كان بين الحيينِ خزاعة وبَكْر إحَنٌ وضغائن جاهليّة، خلّفتْ بينهم تِراتٍ ودماءً، وكانوا يتحيَّنُون الفرص لإثارتها، فلمّا جاء الإسلام حَجَزَ بينهم، وظلّوا على ما بينهم من الإِحَنِ والبغضاء حتى تمّ عقد صلح هدنة الحُديبية، فانتهزها البكريون غَدْراً وخيانة، وعَدَوا على خزاعةَ حلفاء رسول اللهﷺ، وبيّتوهم في ديارهم وعلى مياههم وهم غارّون آمنون، ورفدتْ قريش حلفاءها بني بكر بالسِّلاح والرِّجال مستخفين، وظاهروهم على حلفاءِ رسولِ اللهﷺ الدَّاخلين في عقده وعهده، فنقضت بذلك قريشٌ عَهْدَها مع رسول اللهﷺ.

وخرج عمرو بن سالم الخزاعيُّ في أربعينَ مِنْ قومه، إلى المدينة المنوّرة يستنصرُ رسول اللهﷺ، وأخبره غَدْرِ قريش، وأنشده أبياتاً من الشِّعْرِ يستصرخه بها، فقالَ رسول اللهﷺ: «نُصرتَ يا عمرو بن سالم».

وتسامعتْ قريش برحلةِ الخزاعيين إلى المدينة يستصرخون رسولَ اللهﷺ، فرعبتْ رعباً شديداً، وأخَذَهَا ما أخذها من الخوفِ، وندمتْ على ما فعلت، وما قدّمَتْ يداها، وسقط في يدها، فأرسلتْ زعيمَها أبا سفيان بن حرب ليشدَّ عقْد الهدنة ويستزيد مدّتها.

وقدم أبو سفيان المدينة المنوّرة، فلمّا وصلَها دخل على ابنته أمِّ المؤمنين أمِّ حبيبة رضي الله عنها، فذهبَ ليجلسَ على فراشِ رسولِ اللهﷺ فطوتْهُ عنه،

فقال لها: يا بُنية، ما أدري أرغبتِ بي عَنْ هذا الفراش، أمْ رغبت به عني؟
قالت: بل هو فراشُ رسول اللهﷺ وأنتَ مشركٌ نجسٌ.
قال: والله لقد أصابك بعدي شرٌّ[1].
قالت: هداني الله للإسلام، وأنتَ يا أبتِ سيِّدُ قريش وكبيرها، كيف يسقطُ عنك دخولٌ في الإسلام، وأنتَ تعبدُ حجراً لا يسمعُ ولا يبصر؟
قال: يا عجباه، وهذا منك أيضاً؟! أأتركُ ما كان يَعْبُد آبائي وأتبع دِيْنَ محمّد؟! ثم قامَ مِنْ عندها[2].

ودعني عزيزي القارىء أتحدَّثُ عن موقفِ أمِّ المؤمنين أمّ حبيبةَ مِنْ أبيها، فهنا تُوجد إشراقة مباركة مِنْ لونٍ عجيب جداً مِنْ هذه المرأة العظيمة الكريمة التي طهرتْ بأرفعِ وأخلص الإخلاص في عقيدتها، وفي حبِّها لله عزَّ وجلَّ، ولرسولهِﷺ.

فالسَّيِّدة الجليلة أمّنا أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وبنت زعيم قريش، وسيِّد بطحاء مكةَ، يدخل عليها أبوها بعد طول عَهْدٍ بفراقها، ويجيءُ ليجلسَ على فراشٍ في بيتها فتطويه عنه، فيتساءل بعنجهيّة الكبرياء المتغطرس وغطرسة الكبرياء: هل طُوي عنه الفراش لأنَّه لا يليقُ بكبرياء سيِّدِ البطحاء وزعيم قريش؟ أو طُوي هذا الفراش تعظّماً به أنْ يدنّسه رجس الشِّرْك في زعامةِ البطحاء؟

وفي هدوءِ نورِ اليقين، وأنوار الإيمان المستقرِّ في الأعماق، تجيبه ابنته الوفيّة لديْنها، ولنبيِّها ورسالته، ولزوجها وعظمته مبيِّنة له بصراحةٍ كاملة ودون مواربة: أنَّه فراشُ رسولِ اللهﷺ الطَّاهر المطهّر، وأنتَ رجلٌ مشركٌ نجسٌ، لا تصلح للجلوس عليه خشية أنْ تدنسَه.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٨/٩٩ و١٠٠) وسير أعلام النبلاء (٢/٢٢٣) والسمط الثمين (ص١١٥) والبداية والنهاية (٤/٢٨٠) و(٨/٢٨) وشفاء الغرام (٢/١٦٧) وأسد الغابة (٦/١١٦).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٩١).

لقد تقاصرتْ نفسُ شيخ قريش، فما دار في خلده أنْ يأتيَ يومٌ يُطوى عنه فراش، وهو الذي قُدِّمَتْ إليه النَّمارق في قَصْرِ كسرى وقيصر، وكانتِ الأبوابُ تُفْتَحُ له في قصور الشَّام، ومَنْ ذا الذي طوى عنه الفراش؟ إنها أم حبيبة ابنته التي كانت أطوع له مِنْ بَنَانِهِ قبل أنْ يفرّقَ محمّدﷺ بتعاليمه بينه وبينها.

الله أكبر، إنَّه إخلاصُ الإيمانِ، إنَّه الإيمان المنير، الإيمان الذي إذا خالطتْ بشاشته شغافَ القلوب، وامتزجت حلاوته بالأرواحِ والجوارح والعقول، صَنَعَ الأعاجيب.

لم يقنعْ أبو سفيان بن حرب بهذا الدَّرسِ الذي تلقّاه مِنْ أقربِ النَّاس إليه لحماً ودماً من ابنتهِ في بيت رسولِ اللهﷺ، ولكنَّه ذهبَ إلى رسول اللهﷺ، وفي جعبته حصيلة من الخداع والكذب، فكَلَّمَه فيما هو قادم مِنْ أجله، فلم يردَّ عليه شيئاً؛ فاستشعر مذلّةً وراودته فكرة أنْ يعودَ مِنْ حيثُ جاء، لكنَّه عزمَ أنْ يسيرَ إلى نهايةِ الشَّوط.

فقام يجرُّ رجليه جرّاً، وذهبَ إلى الصِّدِّيق أبي بكْرٍ رضي الله عنه، فكلَّمه ليكلِّم له رسول اللهﷺ، فأبى عليه أبو بكر؛ ثم أتى أبو سفيان عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه، وكلَّمه ليشفعَ لهم عند رسول اللهﷺ، فكان عمرُ أشدَّ النَّاسِ وطأةً على كبرياء زعيم البطحاء ابن حرب.

وانطلق أبو سفيان وأتى عثمانَ بنَ عفان رضي الله عنه، فكان جواب عثمان كجوابِ سابقَيْه: هُوَ هُوَ أو قريبٌ مِنْ هُوَ، فحار أبو سفيان، ثم أتى عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه وعنده زوجه فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها، وابنها الحسن غلام يَدُبُّ على الأرضِ بين يديها، فاستعطف عليّاً وسأله بالرحم أنْ يشفعَ له إلى رسول اللهﷺ، فأبى عليه، ولكنَّه لا يَنَهُ، ورفَقَ به، فالتفت زعيمُ البطحاء في ذِلّةٍ إلى السَّيِّدة النَّبيلةِ أطهر الطَّاهرات، فاطمة البتول رضوان الله عليها وقال لها: يا بنت محمّد، هل لك أنْ تأمري بُنَيّك هذا فيجير بين النّاس فيكون سيّد العرب إلى آخر الدَّهر؟!

فقالت أمُّ الحسنين سيّدة نساء العَالمين رضي الله عنها: والله ما يبلغ بني هذا أنْ

يجيرَ بين النَّاس، وما يجيرُ أحدٌ على رسولِ اللهﷺ.

وخرجَ أبو سفيان من عند هؤلاء حائراً، يجرِّرُ أذيالَ الخيبة والفَشَل وقد أظلمتِ الدنيا عليه، ولم يَدْرِ أيشرِّقُ أمْ يغرِّب، حتى ألقته الحيرةُ إلى أشراف الأنصار، فأتى سعدَ بنَ عبادة سيِّد الخزرج، فقال له: يا أبا ثابت، إنَّك سيِّدُ هذه البُحَيرة، فأَجِرْ بين النَّاس، وزِدْ في المدَّةِ.

فقال له سعد رضي الله عنه: جواري في جوار رسول اللهﷺ، ما يجير أحدٌ عليه.

ثمَّ عاد أبو سفيان يجرّهُ الشَّيطان من خياشيم اليأس والطُّغيان إلى أشرافِ قريش من المسلمين والأنصار، يتهافتُ ويتهافت، ويستجير ويستصرخ، ويتملَّقُ، وكلُّهم يقول له: جواري في جوارِ رسولِ اللهﷺ، ما يجير أحدٌ عليه.

أرأيتَ ـ عزيزي القارىء ـ أبا بكر وعمر وعثمان وعليّ بن أبي طالب والزّهراء كيف تكلّمَ هؤلاء من مشكاة واحدة، وكيف جابهوا أبا سفيان بحقيقةِ حاله؟!

إنَّه الإيمانُ العظيم، وإنَّه الأدبُ الكريم الذي استقَوْهُ منْ رسول اللهﷺ، فنطقَ جميعُهم بالحكمة وفَصْلَ الخطاب.

عاد أبو سفيان زعيم قريش بعد غيبةٍ طويلةٍ[1] إلى قريش خائباً مرذولاً مُثْقلاً

---

(١) قال الواقديُّ ـ رحمه الله ـ وطالت غيبةُ أبي سفيان ـ بالمدينة ـ واتهمته قريشُ أشدّ التُّهَمَة، وقالوا: قد صَبَأَ، واتّبع محمّداً سِرّاً، وكتَمَ إسلامه، فلمّا دخلَ على هند امرأته ليلاً، قالت: لقد غبتَ حتى اتهمك قومك، فإنْ كنتَ مع طولِ الإقامةِ جئتهم بنُجْحٍ فأنت الرَّجل، ثم جلس منها مجلس الرّجل منِ امرأته، فقالت: ماذا صنعتَ؟ فأخبرها الخبر، وقال: لم أجدْ إلا ما قال لي عليّ بن أبي طالب ـ وكان عليّ قد سخر منه ـ فضربت برجلها صدره، وقالت: قبّحك الله من رسولِ قوم فما جئت بخير. (المغازي ٢/٧٩٥) بتصرف يسير جداً.

وأعتقد أنَّ أبا سفيان قال في نفسهِ عند ذلك الموقف: واخزياه، حتى هند بنت عتبة أنال منها ما نالني؟ واذلاّه، هذه هند وقد لقيتُ منها ما لقيتُ، فماذا عن قومي الذين أرسلوني لآتيهم بكل ما أوتيت من دهاء بما يرفع عنهم الفزع والرعب؟! =

بالخيبةِ في سفارته التي كان يرجو منها الخيرَ وخصوصاً مِنْ بيتِ ابنته أمّ حبيبة رضي الله عنها التي قابلته بما يستحق أنْ تُقَابِل به كلّ مشْرِك ظلوم كفَّار، وتحققتْ بذلك نبّوة رسول الله ﷺ، حينما قال لأصحابه: «كأنّكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدّدِ العهدَ، وزِدْ في المدّة؛ وهو راجعٌ بسخطه».

أمَّا رسولُ الله ﷺ فقد تجهَّز، وأَمَر المسلمين أنْ يتجهّزوا، وسار إلى مكةَ في حشودِ جند الله وكتائب الإيمان، وأنصار الإسلام، وفي الطّريقِ التقطت عنايةُ الله أبا سفيان، ورحمَهُ الله برحمتِهِ، فدخلَ في الإسلام، بعد أنْ رأى عظمته وعظمة نبيّه ﷺ، وفَتَحَ الله على رسوله ﷺ مكةَ المشرَّفة، ودخلتْ قريشُ في الإسلام، وأطلقَهُم رسولُ الله ﷺ، وعفا عنهم، فكانوا بفَضْلِ الوفاء بالعهد، وببركةِ هدنةِ الحديبية، هم كتائب الجولة الأولى لفتوحِ الإسلام كلّها، وكانت مكةُ قلعةً وحصناً من قلاع وحصون الدَّعوة إلى الله، بالعِلْمِ والحجة النَّيِّرة، ثمَّ بالجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

نُزُوْلُ القُرآنِ بهَا وبِشَارتهَا بالحَدِيْثِ:

كانت أمُّ حبيبة راضيةَ النَّفسِ، مطمئنة الفؤاد لا تفتأُ تذكر الله وتشكره على أنْ هدى أبا سفيان وأهلَ بيته إلى الإسلام، وتحمد الله عزَّ وجلَّ أنِ اجتذبَ الإسلام أفئدة أقربائها وذويها كيما يكونوا منْ جنودٍ وفرسان مدرسة النّبوّة، وكانت قبل فتح مكةَ ترتجفُ فَرَقاً أنْ يموتَ شيخ بني أميّة على الكفرِ، ويُحرم من النَّعيم المُقيم في ظلِّ الإيمان، ويموت على الكفر طريداً مطروداً منْ رحمةِ الله، كما مات شيوخٌ من بني مخزوم كأبي جهل[1] والوليد بن المغيرة[2]، ومات شيوخ من بني سهم كالعاص بن وائل[3]، ومن بني عبد شمس كعتبةَ بن ربيعة[4] وأخيه شيبة وغيرهم.

= لكن الله عز وجل الرحيم، منَّ على أهل مكة بالإسلام وزين الإيمان في قلوبهم فكانوا أنصاره.

(١ و٢ و٣ و٤) اقرأ أخبار هؤلاء الفجرة الكفرة في كتابنا «المبشرون بالنار» بجزأيه الأول والثاني.

كانت أمّنا أمّ حبيبة رضوان الله عليها دائبة الثّناء على الله، دائمة الشّكر له، فقد منَّ عليها وأكرمها بنزولِ قرآن بها يُتلى في المحاريب إلى ما شاء الله.

فقد ذكر المفسّرونَ والمؤرخون وبعض كتّاب السِّيرة والتّراجم بأسانيدهم عن ابنِ عباس أنّه قال:

في هذه الآية: **﴿عسى الله أنْ يجعلَ بينكم وبين الذين عاديتم منهم موّدة والله قديرٌ والله غفورٌ رحيم﴾** [الممتحنة: ٧].

قال: فكانتِ المودة التي جعلَ الله عزَّ وجلَّ بينهم تزويج[1] النّبيّ ﷺ أمّ حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، فصارت أمّ المؤمنين، وصار معاويةُ خال[2] المؤمنين.

وقال الطّبريُّ ـ رحمه الله ـ في التّفسير: عسى الله أيها المؤمنون أنْ يجعلَ بينكم وبين الذين عاديتم منْ أعدائي من مشركي قريش مودّة، ففعل الله ذلك بهم، بأنْ أسلمَ كثيرٌ منهم، فصاروا لهم أولياء وأحزابا[3].

قال الإمام فخر الدِّين الرّازيّ ـ رحمه الله ـ: الله تعالى قادر على تقليبِ القلوب، وتغييرِ الأحوال، وتسهيلِ أسباب المودّة. قال بعضُهم: لا تهجروا كلَّ الهجر، فإنَّ اللهَ مطّلعٌ على الخفيّات والسَّرائر. ويُروى: أحببْ حبيبَك هوناً ما، عسى أنْ يكونَ بغيضك يوماً ما[4].

---

(١) قال القرطبي ـ رحمه الله ـ وهذا بأن يسلمَ الكافر، وقد أسلمَ قومٌ منهم بعد فتح مكة، وخالطهم المسلمون، كأبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام. وقيل: المودة تزويج النبيﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلانت عند ذلك عريكته، واسترخت شكيمته في العداوة.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٩٩) ودلائل النبوة للبهقي (٣/ ٤٥٩) والدر المنثور للسيوطي (٨/ ١٣٠) وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٨٩) وأزواج النبي للصالحي (ص١٦٥) وتفسير القرطبي (١٨/ ٥٨) وأسباب النزول للواحدي (ص٨٩) والاصابة (٤/ ٢٩٩) والسمط الثمين (ص١١٦) وتفسير الفخر الرازي (٢٩/ ٢٦٢) ومختصر تاريخ دمشق (٢/ ٢٨٤) وغيرها.

(٣) تفسير الطبري (٢٨/ ٦٥).

(٤) التفسير الكبير للرازي (٢٩/ ٢٦٢).

وقد خصَّها رسولُ اللهِ ﷺ بحديثه، وبشَّرها بالجنَّةِ مع أخيها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

فقد أخرج أبو القاسم بن عَسَاكر ـ رحمه الله ـ بسنده عن الحسنِ قال: دَخَلَ معاويةُ على النَّبيِّ ﷺ، وعنده أمّ حبيبة، وكانت إلى جانبِ النَّبيِّ ﷺ، فلمّا رآها رَجَعَ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «يا معاوية ارجع» فرجعَ، فقعد معهم، فقال لها النَّبيُّ ﷺ: «والله إنّي لأرجو أنْ أكونَ أنا وأنتَ وهذهِ في الجنَّةِ نديرُ الكأسَ بيننا»[1].

وفي حديثٍ نبوي آخر، يدلُّ على مكانة أمِّ حبيبة، ومكانة نساء النَّبيِّ ﷺ، ما أخرجه ابنُ عساكر أيضاً قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ الله أبى لي أنْ أتزوَّجَ إلا أهل الجنّة»[2].

أُمُّ حَبِيْبَة وَذِكْرَيَاتُ الحَبَشَةِ وَمَوْتُ النَّجَاشِيِّ:

النَّجاشيّ الذي أَحْسَنَ نُزُلَ المهاجرين في الحبشة، اسمه «أَصْحَمَةُ» وتعني كلمة أصحمة بالعربي «عطيّة» وملك الحبشة هذا معدودٌ في الصَّحابة رضي الله عنهم، وكان ممَّنْ حَسُنَ إسلامه، ولم يهاجرْ، ولا له رؤية، فهو تابعيٌّ من وَجْهٍ صَاحِبٌ مِنْ وَجْهٍ[3].

وفي يومٍ جاءَ جبريل عليه السَّلام، وقال للحبيبِ المصطفى ﷺ: إنَّ النَّجاشيَّ الرَّجل الصَّالح قد ماتَ، فصلّى عليه بالنَّاسِ صلاة الغائب[4].

---

(1) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٩٠).

(2) المصدر السّابق (ص٨٩). ومما يضاف إلى سيرة أمّ المؤمنين أمّ حبيبة رضي الله عنها أنَّ السَّريرَ الذي حُمِلَ عليه رسول الله ﷺ كان في بيتها، وبقي في المدينة عند مولى لها.

(3) سير أعلام النبلاء (٤٢٨/١) بتصرف يسير.

(4) أخرجه البخاري في الجنائز، باب التكبير على الجنائز أربعاً برقم (٣٣٤) وأخرجه في المناقب، باب موت النجاشي برقم (٣٨٧٨ و٣٨٧٩).

والنّسائي في الجنائز (٦٩/٤) باب الصفوف على الجنازة، عن سيدنا جابر قال: قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلّوا على =

هذا ولم يثبتْ عنِ النّبيِّ ﷺ أنَّه قد صلى على غائب سواه، وسبب ذلك أنَّه ماتَ بين قوم نصارى، ولم يكن عنده مَنْ يُصلي عليه، لأنَّ الصَّحابةَ الذين كانوا مهاجرين عنده خرجوا مِنْ عنده مهاجرين ثانية إلى المدينة المنوّرة عام خيبر.

وذاع في دُورِ النّبيّ ﷺ أنَّ النّجاشيَّ قد ماتَ فثارت في نفوس أهل البيت النّبويّ الذّكريات، فشردت أمُّ المؤمنين سلمة، وتذكرتْ أيامَها بالحبشة وإكرام النّجاشي للمهاجرين.

كانت أمُّ حبيبة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها قد عادت بها الذّكْريات إلى أيام الحبشة، وتذكّرت ارتداد زوجها عُبيد الله بن جحش عنِ الإسلام، وثبتتْ هيَ على دِيْنها، تذكّرتْ تلك الرُّؤيا التي هتفتْ بها: يا أمّ المؤمنين فطار خيالُها إلى المدينةِ حيثُ كان رسول الله ﷺ، إنّها بشارةٌ وبشرى بأنّها ستصبحُ ذات يوم مِنْ أمّهات المؤمنين.

وأطرقت أمُّ حبيبة تصيخُ السَّمع إلى الماضي القريب البعيد، إنّها تسمعُ أو تستحضرُ صوت الجارية أبرهة جارية النّجاشيّ، وهي تزفُّ إليها البُشْرى العظيمة، تلك التي أدخلتها إلى عقْد أمّهات المؤمنين.

رِوَايَتُهَا وَحِفْظُهَا:

أمُّ المؤمنين أمُّ حبيبة رضي الله عنها إحدى نساء أهل البيت النّبويّ اللاتي أكرمهن الله عزَّ وجلَّ بالعِلْم ورواية الحديث، وقد كانت أمّنا أمّ حبيبة رضي الله عنها واحدة من حافظاتِ النِّساء، وواحدة منَ اللاتي شَغَلْنَ أنفسهن بحبِّ كتاب الله عزَّ وجلَّ، وسُنَّةِ الحبيبِ الأعظم محمّدﷺ، فراحتْ بعد عودتها منَ الحبشة تنهلُ من معين الآيات القرآنيّة، وتحفظُ مِنَ الأحاديث الشَّريفة ما جعلها إحدى المكثرات منَ الرّواية، فلمْ يسبقها في الحفظِ والرّوايةِ من أمّهات المؤمنين إلاّ أمّنا

= أخيكم أصحمة» هذا لفظ البخاري في المناقب (٣٨٧٧) ورواه مسلم برقم (٩٥١) وأبو داود (٣٢٠٤) وابن ماجه (١٥٣٤) والترمذي (١٠٢٢) وأحمد (٤/٦٤) وانظر الأسماء المبهمة (ص٢١ و٢٢).

عائشة وإلا أمّنا أمّ سلمة رضي الله عنها، ثمّ تأتي أمّنا أمّ حبيبة في المرتبة الثّالثةِ بين أمّهات المؤمنين وفي نساءِ أَهْل البيت الطّاهر الكريم.

ولعلَّ مَرَدَّ هذا إلى أنَّ أمّ حبيبة رضي الله عنها تُعَدُّ إحدى فصيحات نساء قريش، وإحدى النِّسوة اللواتي عُرِفْنَ بالبلاغة، وحُسْن الخطاب، كما كانت من ذوات الرّأي الجزْلِ والمكانة والحَصَافة والذّكاء الذي صَقَل موهبتها، وجعلها من سَادَةِ نساء آل البيت النّبويّ.

كانت أمُّ حبيبة رضي الله عنها شديدة التّمسّك بالسُّنَّةِ وبهدي الرّسول الكريمﷺ، ولعلّها في حياتها بعد الرّسولﷺ كانت لا تريمُ قَيْدَ أنملة عمّا حكاه المصطفىﷺ، فكانت تروي الحديث الشّريف، وتعملُ به، وتوصي بالعمل بما جاء فيه، وتَفْقَه حكمه وهذا يشير إلى فضلها وفضائلها رضي الله عنها. بلغ مسند أمّنا أم حبيبة رضي الله عنها خمسة وستين حديثاً اتفق لها الشّيخان البخاري ومسلم على حديثين[1]، وتفرّد مسلم بحديث[2].

وروى لأمّ حبيبة أصحاب السُّنَنِ والمسانيد، وروى عنها كبار الصّحابة والصّحابيات، وكذلك كبار التّابعين.

حدّث عن أمّ حبيبة أخواها: الخليفة معاوية، وعنْبَسة، وابن أخيها عبد الله بن عتبة بن أبي سفيان، وابن أختها أبو سفيان بن سعيد بن المغيرة، وعروة بن الزّبير، ومولياها سالم بن شوال المكّي، وأبو الجراح القرشيّ وآخرون.

وحدّث عنها منَ النِّساء الصّحابيات: زينب بنت أبي سلمة المخزوميّة،

---

(١) انظر: فتح الباري (٩/٦٤) برقم (٥١٠٧) في النكاح، باب: «وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف».
وفتح الباري (٩/٤٠٠) برقم (٥٣٣٩) في الطلاق، باب الكحل للحادة.
وانظر: صحيح مسلم (١٩٤٩) في الرضاع: باب تحريم الربة وأخت المرأة.
ومسلم أيضاً (١٤٨٦) في الطلاق، باب وجوب الإحداد.
(٢) الذي تفرد به مسلم برقم (٧٢٨) و(١٢٩٢).

وصفية بنت شيبة العبدرية رضي الله عنهما.

ومما رواه لها الإمام البخاريّ ـ رحمه الله ـ في صحيحهِ، ما أخرجه بسنده عن حُميد بن نافع عن زينبَ ابنةِ أمّ سلمة، عن أم حبيبة ابنة أبي سفيان: لما جاءها نعي أبيها، دعتْ بطيبٍ، فمسحتْ ذراعيها وقالت: مالي بالطِّيْبِ من حاجة، لولا أنّي سمعتُ النبيﷺ يقول:

«لا يحلُّ لامرأةٍ يؤمنُ بالله واليوم الآخر تحدُّ على ميتٍ فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»[1].

وفي مسنده أخرج أبو يعلى الموصلي ـ رحمه الله ـ بسنده عن أبي الجراح مولى أمّ حبيبة، عن أمّ حبيبة قالت: سمعتُ رسول اللهﷺ يقول:

«لولا أنْ أشقَّ على أمتي لأمرتُهم بالسِّواكِ عند كل صلاة، كما يتوضؤون»[2].

وعن فضائلِ الصَّلاة وفضلها رَوَتْ أمُّ المؤمنين أمّ حبيبة رضي الله عنها، قالت: قالَ رسولُ اللهﷺ: «مَنْ صلى أربعاً قَبْل الظُّهر، وأربعاً بعدها، حرَّمه الله على النَّار»[3].

كانت أمُّ المؤمنين أمُّ حبيبة رضي الله عنها من الذَّاكرين الله كثيراً، وكانت موصولة القَلْب بالله عزَّ وجلَّ، وصَلَتْ نهارها بليلها، وليلها بنهارها في الطَّاعاتِ، وفي الصَّلاة، تسيرُ بذلك مقتفية نَهْجَ رسولِ اللهﷺ بذلك، وكانت تحثُّ أهلها وإخواتها على التَّمسّك بالهديِ النَّبويّ في الصَّلاة، حيثُ إنَّها لم تتركْ صلاةَ

(١) انظر: فتح الباري (٤٠٣/٩) برقم (٥٣٤٥) وهذا الحديث أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه. وأخرجه مسلم برقم (١٤٨٦) وعزاه ابن الأثير إلى باقي الستة، انظر جامع الأصول (١٤٩/٨).

(٢) مسند أبي يعلى (٤٨/١٣) حديث رقم (٧١٢٧) ورواه أحمد (٣٢٥/٦) وأورده الهيثمي في المجمع (٩٧/٢) باب: ما جاء في السواك، وقال: رواه أحمد، وأبو يعلى، ورجاله ثقات.

(٣) مسند أبي يعلى (٥٣/١٣) حديث رقم (٧١٣٠) وأخرجه أحمد (٤٢٦/٦) وأخرجه أصحاب السنن، أبو داود (١٢٦٩) والنسائي (٢٦٦/٣) والترمذي (٤٢٧) وابن ماجه (١١٦٠).

التّطوعِ مذ سمعتْ ذلك من فَمِ رسول اللهﷺ.

أخرج أبو يعلى ـ رحمه الله ـ في مسنده عنِ النّعمان بنِ سالم عن عمرو بنِ أوس قال:

قال لي عنبسة بن أبي سفيان: ألا أحدّثك حديثاً حدَّثَتْنَاه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان؟

قال: بلى.

قال: وما رئيتَه؟

قال: وما ذاك إلا كبشارة إليك.

قال: حدثتنا أنَّ رسولَ اللهﷺ قال: «مَنْ صلى في يومٍ ثنتي عشرة سجدة تطوعاً بني له بهنّ بيت في الجنَّةِ»

فقالت أمّ حبيبة: فما تركتهن منذ سمعتُهن.

قال النّعمان: ما تركتهن منذ سمعتُهن من عمرو.

قال داود: أمّا نحنُ، فقد نصلي ونترك[1].

ومن مرويات أمّ حبيبة ما أخرجه ابنُ ماجه بسنده عن صفية بنت شيبة عنْ أمِّ حبيبة زوج النّبيّﷺ عن النّبيّﷺ قال:

«كلامُ ابنُ آدمَ عليه، لا لَهُ، إلا الأَمْر بالمعروفِ، والنّهي عن المنكر، وذكر الله عزّ وجلّ»[2].

وَدَاعَاً أُمَّنَا الحَبِيْبَة أمّ حَبِيبَة:

عاشتْ أمُّنا أمّ حبيبة رضي الله عنها حياةَ العِلْم والزُّهد بعد وفاةِ رسول اللهﷺ، فلم تكنْ تفارق مصلّاها، أو تترك أَثَراً مِنَ الآثار النّبويّة إلا واقْتَفَتْه.

قال عنها الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ كانت ـ أمّ حبيبة ـ من سيّدات أمّهات

(١) مسند أبي يعلى (١٣/٤٣ و٤٤) حديث رقم (٧١٢٤) وأخرجه مسلم برقم (٧٢٨) وأبو داود (١٢٥٠) والنسائي (٣/٢٦١) والترمذي (٤١٥) وابن ماجه (١١٤١) وأحمد (٦/٣٢٧) وصححه ابن حبان (٦١٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٢/١٣١٥) حديث رقم (٣٩٧٤) وأخرجه الترمذي (٢٤١٤).

المؤمنين، ومنَ العابداتِ الوَرِعات رضي الله عنها[1].

وكانت أمُّنا حبيبة مكانَ احترام وتقديرٍ من الخلفاء الرّاشدين، فكان سيّدنا أبو بكر يكرمُ أمّهات المؤمنين، ويرعى شؤونهن، وكذلك كان عمر يتفقّد أحوال أمّهاتِ المؤمنين، وفي عَهْدِ عثمان رضي الله عنه كان يقومُ على رعايتها وقضاء حوائجها، ولمّا حُصِرَ عثمان ـ عليه سحائب الرّضوان ـ أتته أمّنا أمّ حبيبة، فجاءَ رجلٌ فاطّلع في خِدْرِها، فجعل ينعتُها للنّاس، فقالت: مَا لَهُ قَطَعَ الله يده، وأبدى عَوْرَتَه؟! فدخل عليه داخلٌ فضربه بالسَّيْفِ فاتقى بيمينه فقطعها، وانطلقَ هارباً، آخذاً إزراره بفيه، أو بشماله بادياً عورته[2]. وهكذا استجابَ الله عزَّ وجلَّ دعاء أمّ المؤمنين أمّ حبيبة فتحققتْ دعوتها.

وعاشت أمُّ حبيبة رضي الله عنها حتى أدركتْ خلافةَ أخيها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وقدمتْ دمشقَ زائرة له، ثم عادتْ إلى المدينةِ المنوّرة، تتابعُ حياةَ العلم وحياة الزّهد.

وفي خلافةِ أخيها سيّدنا معاوية توفيت أمّنا أمّ حبيبة رضي الله عنها، ولم تتركْ في البيت النّبويّ، وعند نساء النّبيّ ﷺ إلا كلّ أثرٍ طيّبٍ كريمٍ مباركٍ.

تروي أمّنا الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما هذا الخبر الكريم عن محاسنِ أمّ حبيبة رضي الله عنها فتقول:

دعتني أمّ حبيبة زوج النّبيّ ﷺ عند موتها، فقالت: قد كانَ بيننا ما يكون بين الضّرائرِ، فَغَفَرَ الله لي ولكِ ما كان مِنْ ذلك.

فقلتُ: غَفَرَ الله لكِ ذلك كلّه، وتجاوزه، وحللتكِ منْ ذلك كلّه.

فقالت: سررتني سَرَّكِ الله.

وأرسلتْ إلى أمّ سلمةَ فقالت لها مثل ذلك[3].

---

(1) البداية والنهاية (٨/٢٨).

(2) تاريخ دمشق (تراجم النساء ص٩١).

(3) انظر: طبقات ابن سعد (٨/١٠) والمستدرك للحاكم (٤/٢٢ و٢٣) وتاريخ مدينة دمشق ـ

ثم توفيت رضي الله عنها وقد أحبَّتْ أنْ تلحقَ بالرَّفيقِ الأعلى نظيفة القلب، نقية السَّريرة، لا تحمل ذرَّةَ مشاحنة لأحدٍ، وكانت وفاتها سنة أربعٍ وأربعين من الهجرة الشَّريفة[1]......

وكانت ولادتها قبل البعثة بسبعة عشر عاماً رضي الله عنها.

كانت وفاةُ أمّ المؤمنين أمّ حبيبةَ بالمدينة المنوّرة، في الدَّار التي كانت لعليّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه.

روى عليُّ بن الحُسين قال: قدمتُ منزلي في دارِ عليّ بن أبي طالب، فحفرنا في ناحيةٍ منه، فأخرجنا حجراً، فإذا فيه مكتوب: هذا قبر رَمْلة بنت صخر، فأعدناه في مكانه[2].

تلكم، قطوف مباركة منْ حياةِ أمّنا الحبيبة رملة أمّ المؤمنين، إحدى نساء أهل البيت الطّاهر، نسأل الله عز وجل أنْ يكرمَنا بِسِيَرِ هؤلاء النُّبلاء الكرماء، وأنْ يجعلَنا معهم في النَّعيم المقيم، إنَّه نِعْمَ المولى، ونعم النَّصير، والحمد لله ربِّ العالمين.

= (تراجم النساء ص٩٢) وأزواج النبي للصالحي (ص١٧٠) وسير أعلام النبلاء (٢٢٣/٢) وأعلام النساء (٤٦٥/١) والإصابة (٣٠٠/٤) والسمط الثمين (ص١١٦) والبداية والنهاية (٢٨/٨) وأنساب الأشراف (٤٤٠/١).

(١) انظر المصادر التالية مع الجمع بينها في تحقيق وفاة أم حبيبة: شذرات الذهب (١٣٦/١) ونور الأبصار (ص٤٨) وتهذيب التهذيب (٤١٩/١٢) وجوامع السيرة النبوية (ص٣٣) والمواهب اللدنية (٨٧/٢) وأنساب الأشراف (٤٤٠/١) وأسد الغابة (١١٦/٦) وغيرها كثير.

(٢) عن الاستيعاب (٣٩٩/٤) وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص٩٣) مع الجمع والتصرف.

أُمّ المؤمنين
ميمونة بنت الحارث
رضي الله عنها

- شهد لها النَّبيُّ ﷺ ولأخواتها بالإيمان فقال: «إنَّ الأخواتِ لمؤمنات».
- أُمُّ ميمونة أكرم عجوزٍ في الأرض أصهاراً.
- وهبت ميمونةُ نفسها للنَّبيِّ ﷺ، ونزل القُرآن يحكي قصَّتها.
- هي آخر امرأةٍ تزوجها رسولُ الله ﷺ. وكانت تقية تَصِلُ الرَّحِم.
- من حافظاتِ الحديث النَّبويِّ، ماتتْ بِسَرِف قُربَ مكة سنة (٥١ هـ).

أُمّ المُؤمِنين

ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها

مَرْأَةُ الكَرِيْمَةُ السَّيِّدَةُ:

ميمونةُ بنتُ الحارث الهلاليّة[1] أمّ المؤمنين، واحدة مِنْ نساءٍ سادةٍ، ومنْ سادات النّساءِ، دخلتِ العِقْدَ النَّظيم، فأضحت درَّةً في البيتِ النّبويِّ الطّاهرِ الكريم.

---

(١) المسند (٦/٣٢٩) وطبقات ابن سعد (٨/١٣٢ ـ ١٤٠) والمعارف (ص١٣٧ و٣٤٤) والمستدرك (٤/٣٠ ـ ٣٣) والاستيعاب (٤/٣٩١ ـ ٣٩٥) وأسد الغابة (٦/٢٧٢ ـ ٢٧٤) ترجمة رقم (٧٢٩٧) والعبر (١/٨ و٤٥ و٥٧) ومجمع الزوائد (٦/٢٤٩) وتهذيب التّهذيب (١٢/٤٥٣) والإصابة (٤/٣٩٧ ـ ٣٩٩) وكنز العمال (١٣/٧٠٨) وشذرات الذّهب (١/٢١٩) والأسماء المبهمة (ص٤١٢) وأعلام النّساء (٥/١٣٨ ـ ١٤٠) وأزواج النّبيﷺ للصالحي (ص١٩٧ ـ ٢٠٥) وتفسير القرطبيّ (١٤/١٦٧) وجلاء الأفهام (ص١٩٩) والمجتبى (ص٩٦) وتلقيح فهوم الأثر (ص٢٣) والسّمط الثمين (ص١٣١ ـ ١٣٤) والفتوحات الرّبانية (٢/٣٥) والكامل لابن الأثير (٢/٢٢٧ و ٣٠٩ و٣١٧) والسّيرة الحلبية (٣/٤١٦) وتاريخ الطّبري (٢/١٤٣ و٢١٤ و٢٢٩ و٢٣٠) والسّيرة النّبوية (٢/٦٤٦) وزاد المعاد (انظر الفهارس ٦/٣٩٣) وشفاء الغرام (١/١٢١ و٢٥٢ و٤٥٩) وجوامع السّيرة النّبوية (ص٣٣) والفصول (ص٢١ و٢٤ و١٩٢ و٢٤٩ و٢٥٠) ومختصر تاريخ دمشق (٢/٢٧٢ و ٢٨٦) وأخبار مكة (٢/٢١٣) وجمهرة أنساب العرب (١/٢٧٤) وأنساب الأشراف (انظر الفهارس ١/٦٩٣) ونور الأبصار (ص٤٨) وغرر التّبيان (ص٤٢٠ و٤٢٢ و٤٢٣) ومفحمات الأقران (ص١٦٦ و ١٨) ودر السّحابة (ص٣٢٩ =

وفي رحابِ الكرمِ، والأصل الحسيبِ، والنَّسب الرَّفيعِ، كانت نشأةُ ميمونة[1] آخر نساءِ رسول اللهﷺ، ولعلَّ يُمْنَها جَعَلَها في هذا المقام الرَّفيعِ الذي اقتعدته، وحظيت بأمومَةِ المؤمنين لتغدو منَ اللاتي ذكرهن الله عزَّ وجلَّ في كتابهِ الكريم حيث قال: ﴿يا نساءَ النَّبيِّ لَسْتُنَّ كأحدٍ من النِّساء إنِ اتقيتن..﴾ [الأحزاب: ٣٢].

إنَّ أَمَّنَا ميمونة رضي الله عنها، وإخواتها من ساداتِ النِّساء، وممَّنْ شهد لهنَّ الرَّسول الكريمﷺ بالإيمان، وهل تعدل بشهادةِ رسول الله أحداً؟!

فأختها أمُّ الفضلِ بنتُ الحارث[2] زوج العبّاس الحرّة الجليلة، وأمُّ أولاده السِّتة النُّجباء، كانت أوّل امرأةٍ آمنت برسول اللهﷺ بعد أمّنا خديجة بنت خويلد ولطالما حدَّثَتْ أمُّ الفضل ميمونةَ عن الإيمان، وعن رسولِ اللهﷺ، فهفا إليه فؤادها، وكانت من الثُّلة الأولى من المؤمناتِ المسارعاتِ إلى الاستجابة لدعوة الإيمانِ، والتّلذذ برحيقها.

لم تكن أمُّ الفضلِ وحْدَها التي ارتبطتْ بالإسلام من أهلها، فأختُها من أمِّها أسماء بنت عميس[3]،كانت زوج الشّهيد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد تزوّجت من بعده بشيخِ الصَّحابة والمهاجرين سيّدنا أبي بكر الصِّدِّيق عليه سحابات الرّضوان، ثمّ تزوّجت بعده من فارسِ الصَّحابة والمهاجرين سيّدنا

= و٣٣٠) وعيون الأثر (٢/٣٨٧) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/٣٥٥ و٣٥٦) والمواهب اللدنية (٢/٨٩ و٩٠) والاشتقاق لابن دريد (ص٥٢٢) وأزواج النّبي لأبي عبيدة (ص٧٥ و٧٦) ومسند أبي يعلى (١٢/ ٥٠٦ ـ ٥٢٥) و(١٣/٥ ـ ٣٢) وغير ذلك من المصادر المتعددة المتنوعة.

(١) ميمونة: مشتقة من اليمن، وهي البركة.
والميمون: المبارك.

(٢) اقرأ سيرة هذه الصحابية النجيبة في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (٢/٢٨٧ ـ ٢٩٦) ففي سيرتها فيوضات كريمة، ومآثر فاضلة، ومواقف عطرة، وصور حسان رضي الله عنها.

(٣) اقرأ سيرة الصحابية الفاضلة أسماء بنت عميس في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (٢/١٨٣ ـ ١٩٥) فسيرتها تسمو في سماء المعالي رضي الله عنها.

عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأختُها الأخرى سلمى بنت عُميس[1] زوج أسد الله حمزة ابن عبد المطلب عمّ رسول اللهﷺ، ومن اللاتي شهدن مشرقَ الإسلام منذ أن أضاءَ أمَّ القُرى في ساعاته الأولى.

وهؤلاء السِّيِّدات السَّادات منَ النِّساء كانت أمُّهن[2] جميعاً: هند بنت عوف بن زهير، إنّها أكرم عجوز في مكة.

ولما شاءتِ المقاديرُ الإلهية أنْ ترتبطَ إحدى بناتها برسول اللهﷺ، أضحت هند بنت عوف أكرم عجوز في الأرض أصهاراً.

فمنْ أصهارها الحبيب المصطفىﷺ

---

(١) اقرأ سيرة الصَّحابية سلمى بنت عميس في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (١/٣٠٧ - ٣١٥) فحياتها رمز للمرأة الصابرة، ورمز من رموز الإيمان رضي الله عنها.

(٢) إنَّ أخوات أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث لأبيها وأمّها هنَّ:

أمّ الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث زوج العبّاس بن عبد المطلب.

ولبابة الصّغرى بنت الحارث زوج الوليد بن المغيرة المخزوميّ وهي أمّ خالد بن الوليد.

وعصماء بنت الحارث كانت تحت أُبيّ بن خلف الجمحيّ فولدت له أبان وغيره.

وعزّة بنت الحارث كانت تحت زياد بن عبد الله بن مالك الهلاليّ.

وأمّا أخوات ميمونة لأمّها فهن:

أسماءُ بنت عُميس زوج جعفر أبي طالب، فولدت له عبد الله وعوناً ومحمداً، ثم خَلفَ عليها أبو بكر الصّديق فولدت له محمداً. ثم خَلفَ عليها علي بن أبي طالب فولدت له يحيى.

وسلمى بنت عميس الخثعمية أخت أسماء كانت تحت حمزة بن عبد المطلب، فولدت له أمة الله بنت حمزة ثم خلف عليها بعده شداد بن أسامة بن الهاد الليثي، فولدت له عبد الله وعبد الرحمن وسلامة بنت عميس أخت أسماء.

وسلمى كانت تحت عبد الله بن كعب الخثعمي.

وزينب بنت خزيمة أخت ميمونة لأمّها.

وأبو بكر الصّديق عليه سحائب الرّضوان.

وحمزةُ بن عبد المطلب عمّ النّبيّ ﷺ وأسُد الرّحمن وفارسُ الميدان، وفتى قريش رضي الله عنه.

والعبّاسُ بن عبد المطلب عمّ النّبي ﷺ وصنو أبيه.

وجعفرُ بن أبي طالب، الشّهيد الكريم وابن عمّ النّبيّ ﷺ.

ومن أحفادها عبد الله بن عبّاس أحد العبادلة الأربعة(١)، حَبْرُ الأمّة وفقيهُ

---

(١) العبادلة: اعلم أنَّ في الصَّحابةِ الكرام رضي الله عنهم أجمعين، ممن يُسمى عبد الله؛ مئتين وعشرين رجلاً، لكن اشتهر إطلاق اسم العبادلة على أربعة منهم؛ وهم:

عبد الله بنُ عمرَ بن الخطّاب.

وعبدُ الله بنُ عباس بنِ عبد المطلب.

وعبدُ الله بنُ الزّبير بنِ العوّام.

وعبدُ الله بنُ عمرو بنِ العَاص.

هكذا ذكرهم أهلُ الحديث، وغيرهم منَ العَلماء في كُتُبهم وتصانيفهم، كابن عبد البّر في «الاستيعاب» وابن الأثير في «أسُد الغابة» وكذلك في «الكامل في التّاريخ» وابن حجر في «الإصابة» وابن سعد في «الطّبقات» وغير ذلك من الكتُب الأخرى.

وقد قيل للإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ فأين عبد الله بن مسعود؟ قال: ليس هو من العبادلة.

قال الإمام البيهقيّ ـ رحمه الله ـ سببه أنَّ ابنَ مسعود رضي الله عنه، تقدَّمَتْ وفاته، وهؤلاء عاشوا حتى احتيج إلى علمهم، فإذا اتفقوا على شيءٍ قيل: هذا قول العبادلة، أو فعلهم، أو مذهبهم.

وأودُّ ـ عزيزي القارىء ـ إلى التّنويه والإشارة إلى أنَّ بَعْضَ الكُتّاب قد أخذ بقول مَنْ قال: إنَّ عبد الله بن مسعود من العبادلة، وحذف عبد الله بن عمرو العاص، فليس هذا برأيٍ سليم، ولا مقبول، لأنّه يتعارض مع المتُعَارف عليه من أهل العلم، ويعارض ويخالف قول الإمام أحمد بن حنبل وغيره من فقهاء العلماء وعلماء الفقهاء رحمهم الله. والله تعالى أعلم بالحقيقة.

الفقهاء، وابن عمّ المصطفى ﷺ. وخالد بن الوليد، فارس الإسلام، وسيفُ الرّحمن، ومذلّ المشركين رضي الله عنه.

إذن فأمُّنا ميمونة رضي الله عنها، ميمونة النَّقية، إذ زَوْجُها رسول الله ﷺ، وهي كذلك خالة عبد الله بن عبّاس، وخالد بن الوليد، وأمّ المؤمنين الموحِّدِيْنَ، وتلك فضائل حسان، فهل فوق ذلك من مفخر؟!

هَمْسُ القُلُوبِ:

كان اسمُ ميمونة أمّ المؤمنين برّة بنت الحارث، فسمّاها رسول الله ﷺ ميمونة(1)، وكانت زوجاً لأبي رُهْم بن عبد العزّى العامريّ القُرشيّ، فأضحت أرملة وهي ماتزالُ في ريعان الشّباب، إلا أنَّ نور يقينِ الإيمان، هو الذي يضيءُجوانبَ نفسها، وتغذي برحيقهِ روحها، فغدت صافية السَّريرة، عظيمة الإيمان بالله عزّ وجلّ، حتى شهد الله لها بالإيمان، وحظيت بشرفِ الزَّواج منْ رسول الله ﷺ وفي وقتِ فراغه من عمرة القضاء سنة سبْعٍ من الهجرة في ذي القعدة.

ففي السَّنَةِ السَّابعة من الهجرة النَّبويةِ الشَّريفةِ، دخل الحبيبُ المصطفى ﷺ وأصحابه مكةَ معتمرينَ، وطافَ رسولُ الله ﷺ والمسلمون بالبيت العتيقِ، بيت الحرام، وكان الصَّحابي الجليلُ سيّدنا عبد الله بن رواحة(2) الأنصاريّ رضي الله عنه، بين يدي حبيبنا رسول الله ﷺ يرتجزُ متوشحاً بالسَّيف وهو يقول:

خَلُّوا بني الكفَّار عنْ سبيله   خلُّوا فكلُّ الخيرِ في رسوله
قد أنزلَ الرَّحمنُ في تنزيله   في صُحُفٍ تُتلى على رسوله
يا ربّ إنّي مؤمنٌ بقيْله   كما قتلناكم على تَنْزيله

---

(1) الاستيعاب (٣٩٢/٤).

(2) اقرأ سيرةَ سيدنا عبد الله بن رواحة في كتابنا «رجال مبشّرون بالجنة» (١٦٣/١ ـ ٢٣٣) فسيرته رمز للوفاء والعطاء، والتضحية والصفاء، وكمال الإيمان رضي الله عنه.

ضرباً يزيل الهامَ عن مَقِيْله ويذهلُ الخليلَ عن خليله[1]

وكانت ميمونةُ رضي الله عنها في مكةَ، وما إن سمعتْ واستَمَعَتْ واستَمْتَعَتْ بحداءِ وَرَجَزِ عبد الله بن رواحة، وما أن ملأتْ عينيها منَ النّبيّ ﷺ حتى استولتْ عليها فكرة أنْ تنالَ شرف الزَّواج من رسول الله ﷺ، وأنْ تصبحَ أمّاً للمؤمنين، وما يمنعها من أنْ تحقِّقَ حلمها الذي طالما راودها في يقظتها وفي منامها، وهي من الثُّلَّةِ الأولى في سجلِّ الإيمان وقائمة المؤمنين، وأخواتها: أمُّ الفضل، وأسماء بنت عميس وسلمى بنت عميس الأخوات المؤمنات؟!

وفي تلك اللحظات التي سَرَتْ فيها نسماتُ الإيمان تخفقُ على مكةَ، همستْ ميمونةُ بما في قلبها إلى أختها أمّ الفضل زوج العبّاس، فهل تحققتْ أمانيها؟ وهل أكرمها الله بما في نفسها؟ لقد سجَّل القرآن الكريم تلك الخَطَرات الهامسة في وجدانِ ميمونة، فهلمّ نستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكي قصة ميمونة.

مَيْمُونَةُ فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ:

قُلنا: إنَّ ميمونةَ رضي الله عنها، كانت قد أفضتْ بأمنيتها إلى أختها أمّ الفضل بنت الحارث رضي الله عنها، وحدثتها عمّا تحلم به مِنْ أنْ تكونَ زوجاً للرّسول الأعظم ﷺ، كيما يكون لبني هلال شرف مصاهرته، كما نال هذا الشَّرف قبلها: بنو تَيْمٍ، وبنو عَدِيٍّ، وبنو أميّةَ، وبنو مخزومٍ، وبنو أَسَدٍ، وبنو المُصطلق وغيرهم.

ويبدو أنَّ أمَّ الفضل لم تكتم هذا الخبر عن زوجها العبّاس ابن عبد المطلب عمّ النّبيّ ﷺ، وصنو أبيه ويبدو أيضاً أنَّ العبّاس قد أفضى إلى ابنِ أخيه بأمنية ميمونة بنت الحارث الهلاليّة، فبعثَ رسولُ الله ﷺ ابن عمّه جعفر بن أبي طالب ليخطبها[2]، فما أن خرجَ جعفر من عندها، حتى استخفَّ بها طرب ذلك الخبر

(١) وردت هذه الأشعار برواياتٍ متعددة في المصادر، بَيْدَ أنا آلفنا بينها كيما يستقيم معناها ومبناها.

(٢) هنالك روايةَ وثيقة تقول: إنَّ ميمونة قد جعلت أمرها إلى العبَّاس بن عبد المطلب، فزوجها رسول الله ﷺ. (أزواج النبي للصالحي ص٢٠٠).

الميمون الكريم، فركبتْ بعيرها ثمَّ انطلقت إلى حيثُ كان الرَّسولُ الحبيبُ ﷺ في قبّتِهِ بالأبطح، فما أن وقعتْ عيناها عليه ﷺ حتى قالت: البعيرُ وما عليه لله ورسوله.

وتحدَّثَ النَّاسُ عمّا فعلتْ ميمونة؛ إنَّها لم تستطعِ الانتظارَ، فجاءت تَهَبُ نفسها لله ورسوله، وقد سمّاها رسولُ الله ﷺ ميمونة بعد أنْ كان برّة.

سَرَى الهمسُ بين مرضى القلوب استخفافاً بالشَّابّة التي استجابتْ استجابةً صادقةً لعواطفها دون رِياء، ووَجَدَ المنافقون فرصةً للغمزِ واللمزِ، ومحاولة ذَرِّ الرّماد في العيونِ، وبذر بذور الاستياء في قلوب المسلمين، وإذ ذاك أنزلَ الله عزَّ وجلَّ قرآناً يُتلى ويحسم أقوال أولئك الذين في قلوبهم مرضٌ قال الله: **﴿يا أيّها النّبيّ إنّا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهنَ وما ملكت يمينُك مما أفاء الله عليك وبنات عمّكِ وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرنَ معك وامرأة مؤمنة إنْ وهبتْ[1] نفسها للنّبي إنْ أرادَ النّبيّ أنْ يستنكحها خالصةً لك منْ دون المؤمنين قد عَلِمْنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾**[2] [الأحزاب: ٥٠].

مَيْمُونَةُ وَزَوَاجٌ مَيْمُونٌ:

في عمرةِ القَضَاء، انسابَ المهاجرون في دروبِ مكةَ يستنشقون عبير أرضِ الذّكْريات الحلوةِ، ويتملّوْنَ مراتع الصِّبا والشَّباب فرحين مسرورين، وكانت بعضُ بيوتهم خاويةً لا حركة فيها، قد خيَّمَ عليها السُّكون، فتبعثُ الأسى في النُّفوس، ولكنّهم ألقوا عليها نظرات عابرة دون أنْ تتركَ أثراً في قلوبهم التي عمّرها الإيمان بحبِّ الله ورسوله.

---

(١) قال ابنُ شهاب الزهري وقتادة ـ رحمهما الله ـ ميمونة هي التي وهبتْ نفسها للنبي ﷺ. وقال ابن عبد البر: قول ابن شهاب الصّواب.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٤/٢٠٥ ـ ٢١٤) وسير أعلام النبلاء (٢/٢٤٢ و٢٤٣) وطبقات ابن سعد (٨/١٣٧) والاستيعاب (٤/٣٩٣) والسيرة النبوية (٤/٦٤٦) وغير ذلك من المصادر.

كان المسلمونَ المهاجرون وهم في المدينة المنوّرة، يستشعرون شوقاً عنيفاً إلى مكةَ أمِّ القرى، وكانت أعزّ أمانيهم أنْ يعودوا إليها، وأنْ يَروا أقرباءهم، وأنْ يرووا ظمأَهم من ماءِ زمزمَ، وأنْ يطّوَفوا بالبيتِ العتيق، فإذا بآمالهم كلّها تتحقق، وها هم اليوم يطوفون بالبيت العتيق وهم بصحبة الحبيبِ المصطفىﷺ.

وأقام رسولُ اللهﷺ بمكةَ ثلاثاً، فلّما أصبح منَ اليوم الرّابعِ، أتى حُويطب بن عبد العزّى ـ وقد أسلم فيما بعد ـ ونفر مشركي قريش، فقالوا لرسولِ اللهﷺ، قد انقضى الأجل، فاخرج عنّا فقد مضتْ الثّلاث. ـ وكانﷺ قد أتمَّ عمرة القضاء[١] ـ فقالﷺ: «وما عليكم لو تركتموني فأعرستُ بينَ أظهركم، فصنعتُ لكم طعاماً فحضرتموه»؟

فقالوا: لا حاجة لنا بطعامك، فاخرج عنّا، فخرج النّبيُّﷺ، ونَزَل في سَرِف[٢] فاقام بها.

ولّما خرج رسول اللهﷺ من مكةَ، خَلَّفَ مولاه أبا رافع[٣] ليحمل ميمونة

(١) سمّيت هذه العمرة، بعمرة القضاء، لأنّها كانت عن عمرةِ الحديبية، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة، أي المصالحة التي وقعت في الحديبية.

والوجه الثّاني الذي رجحه المحققون كابن قيّم الجوزية في «زاد المعاد» وابن حجر في «فتح الباري» وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء ـ كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ـ: القضاء، والقضية، والقصاص، والصّلح.

(٢) سَرِف: على وزن كَتِف، وهو مكان يبعدُ عن مكةَ عشرة أميال، وهناك أعرس رسول اللهﷺ بميمونة مرجعه من مكةَ، حين قضى نسكه، وهناك ماتت ميمونة لأنّها اعتلّتْ بمكةَ، فقالت: أخرجوني من مكةَ، لأنَّ رسول اللهﷺ أخبرني أنيّ لا أموتُ بها، فحملوها حتى أتوا بها سَرِفاً إلى الشّجرة التي بنى رسول اللهﷺ تحتها، في موضع القبّة (معجم ما استعجم ٣/ ٧٣٥ و٧٣٦).

(٣) أخرج الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ من حديث أبي رافع رضي الله عنه قال: كنتُ في بَعْثٍ مرة، فقال رسول اللهﷺ: «اذهب فائتني بميمونة» فقلت: يا رسول الله إني في البعث فقال رسول اللهﷺ: «ألستَ تحبُّ ماأحبُّ»؟

قلت: بلى يا رسول الله! =

أمّ المؤمنين إليه حين يمسي، ثم خرج أبو رافع بميمونة ليلحقَ رسولَ اللهﷺ والمسلمين في سَرِف.

وفي ذلك الموضع، ضُرِبَتْ قبّتها، وبنى رسول اللهﷺ في هذه البقعةِ المباركة، ويؤمئذ سمّاها رسول اللهﷺ ميمونة؛ فقد كان زواجه بها في هذه المناسبة الميمونة التي دخل فيها مكة للمرّة الأولى، منذ أنْ خرجَ منها مهاجراً في سبيل الله منذ سبعة أعوام كوامل.

وأعرس رسولُ اللهﷺ، بعد أنْ أحلَّ من العمرة، وفرح المسلمون والصَّحابة بهذه المناسبة الميمونة المباركة..

روى بعض أصحابِ السُّنن وغيرهم عن أبي رافع رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهﷺ تزوّج ميمونة حلالاً، وكنتُ الرَّسول بينهما[1].

وروى أبو داود بسندهِ عن ميمونة رضي الله عنها قالت: تزوّجني رسول اللهﷺ ونحن حلالانِ بسَرِف[2].

قال ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ هي آخره امرأة تزوجها رسول اللهﷺ، يعني ممَن دَخَلَ بهنّ[3].

دخلتْ ميمونةُ أمُّ المؤمنين البيتَ النَّبويَّ ولّما تتجاوزِ السَّادسة والعشرين، وإنَّه لشرفٌ ما بعده شرف لميمونة، التي أحسَّت وكأنّها ارتفعتْ حتى كادت تلمسُ نجومَ السَّماء، عندما نُظمت في عداد أمّهات المؤمنين الطّاهرات رضي الله عنهن وأرضاهن.

= قال: «اذهب فأتني بميمونة».
فذهبتُ فجئته بميمونة (عن درّ السّحابة ص٣٢٩).

(١) المسند (٦/٣٩٣) والترمذي (٨٤١) والدارمي (٢/٣٨) وابن سعد (٨/١٣٤).

(٢) أخرجه أبو داود في المناسك (١٨٤٣) والترمذي في الحج (٨٤٥) وابن ماجه في النكاح (١٩٦٤) وأخرجه كذلك مسلم (١٤١١) وأبو يعلى في مسنده (١٣/٢٤) برقم (٧١٠٦).

(٣) طبقات ابن سعد (٨/١٣٢) وانظر: تفسير القرطبي (١٤/١٦٧).

وفي المدينةِ المنوّرة، دخلت ميمونة أمّ المؤمنين الحجرة التي أعدّها رسولُ الله ﷺ، لتكونَ بيتاً لها، واستقبلتْ نساءُ النَّبيِّ ﷺ ميمونة استقبالاً حَسَناً، وأكرمْنَ مثواها، إكراماً لرسول الله ﷺ، وطلباً لمرضاة الله عزَّ وجلَّ.

وأخذتْ ميمونةُ رضي الله عنها تستمعُ إلى الأحاديثِ النّبويةِ منَ الرّسول الكريم ﷺ، وتهتدي بما يقوله ﷺ، فكانت تكثرُ مِنَ الصَّلاةِ في المسجد النّبويّ، لأنّها سمعتِ النَّبيَّ ﷺ يقول: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضل منْ ألفِ صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»[1].

وظلّت أمّنا ميمونة رضوان الله عليها في البيتِ النّبوي، وظلّت مكانتُها رفيعةً عند رسول الله ﷺ، ولما اشتدّ المرضُ بالنّبيّ ﷺ نزل في بيتها، ثم انتقلَ إلى بيت عائشة رضي الله عنها ليُمَرّضَ هنالك، فرحَّبَتْ أمُّ المؤمنين ميمونة بذلك ونُقلَ ﷺ إلى بيتِ عائشة.

روتْ أمُّ المؤمنين عائشة هذا فقالت: أوّل ما اشتكى رسولُ الله ﷺ في بيتِ ميمونة، فاستأذن أزواجه أنْ يمرَّضَ في بيتي، فأذنَّ له[2].

وانتقلَ الرّسولُ الكريمُ ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعلى، وهو راضٍ عن زوجاته الطّاهرات، وكُنَّ تسعاً. وقد نَظَم بعضُ العلماء زوجات النّبيّ ﷺ اللاتي مات عنهن فقال:

تُوفي رسولُ الله عن تسْعِ نسْوَةٍ ... إليهنَّ تُعزى المكرمـات وتُنْسب
فـعـائشـة ومـيمـونـة وصـفيّـة ... وجُـويرية مـع سَوْدة ثم زينب
كذا رَمْلة[3] مع هند[4] أيضاً وحفصة ... ثـلاثٌ وستٌ نـظمهنَّ مهـذَّب

ويبدو أنَّ كبار شعراء العلماء قد أغرموا في هذا الفنِّ العظيم، فتباروا فيما

---

(١) مسند أبي يعلى (١٣/ ٣٠ و٣١) برقم (٧١١٣).
(٢) المغازي للزهري (ص١٣٠).
(٣) رملة: اسم أم حبيبة أم المؤمنين رضي الله عنها.
(٤) هند: اسم أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها.

بينهم في نَظْم أسماء النّبيِّ ﷺ، وأسماء زوجاته، وبناته، وأولاده، وصَحْبِه المبشّرين بالجنّة، وكذلك أسماء مَنْ كان يشبهه ﷺ، أو أسماء الخلفاء وغير ذلك. فقال أحَدهم وقد أدلى دلوه في هذا المجال، فَنَظَم أسماء نساء النّبيّ ﷺ اللواتي بَقِيْنَ بعده ومات عنهن فقال:

توفي رسولُ الله عن تسعِ نسوة ... وهنَّ ابنة الصِّدِّيق رمْلة حفصة
جويرةُ هند وزينب سَوْدة ... وميمونة والمُصْطَفاة صفيَّة

وهذا الباب طويل يحتاج إلى كتاب وحده.

مَيْمُونَةُ وابنُ أخْتِهَا:

لما كان عام الوفود، قدمَ وفدُ بني هلال بن عامر، رهط أمّ المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، وقدمَ في وفدهم عبد عوف بن أصْرمَ، فأسلم وسمّاه رسول الله ﷺ عبد الله، وقُبيصة بن مخارق الذي له حديث في الصدقات.

وذُكر في وَفْدِ بني هلال زياد بن عبد الله بن مالك العامريّ، فلّما دخل المدينة المنوّرة، قَصَدَ منزلَ خالته ميمونة بنت الحارث، فدخل عليها، فلّما دخل رسول الله ﷺ منزِله، رآهُ فغضبَ ورجعَ.

فقالت له ميمونةُ: يا رسول الله، إنّه ابنُ أختي، فدخلَ ﷺ، ثمَّ خرج إلى المسجدِ، ومعه زياد فصلّى الظُّهرَ، ثمَّ أدنى زياداً، فدعا له، ووضع يده على رأسه ثم حدرها على طرف أنفه، فكانت بنو هلال تقول:

ما زلنا نتعّرفُ البركةَ في وَجْهِ زياد مُذْ مَسَحَ رسولُ الله ﷺ على وجههِ. وفي هذه البركة قال أحد الشّعراء لعليٍّ بنِ عبد الله هذا:

إنَّ الذي مَسَحَ الرُّسولُ برأسهِ ... ودَعَا له بالخيرِ عند المسجدِ
أعني زياداً لا أريدُ سواءَه ... منِ عابرٍ أو متهمٍ أو منجدِ
ما زال ذاكَ النُّور في عِرْنينهِ ... حتى تبوأَ بيته في ملحدِ[1]

---

(١) عن البداية والنهاية (٩٢/٥) بشيء من التصرف.

مَيْمُونَةُ وشَهَادَةُ الإِيْمَانِ والتَّقْوَى:

عكفتْ أمُّ المؤمنينَ ميمونة رضي الله عنها على العبادةِ والصَّلاة في البيتِ النّبويِّ، وراحتْ تهتدي بهدي رسول الله ﷺ، فكانت تكثرُ منَ الصَّلاةِ والوقوفِ بين يدي الله عزَّ وجلَّ آناء الليلِ وأطرافَ النَّهار.

وفي البيتِ النَّبويِّ الطّاهرِ، راحتْ أمُّنا ميمونة تقتبسُ أخلاقَ النّبيّ ﷺ، وتسيرُ على الطَّريقِ الذي أَمَرَ به، وكانت شديدةً غاية الشِّدَّةِ فيما يتعارض مع حدودِ الله عزَّ وجلَّ، ولعلَّ تطبيقَ الحدودِ الإلهيّة مِنْ أَجَلِّ ما كانت تحاولُ أمّ المؤمنين ميمونة تطبيقه والحضّ عليه.

ذكر ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ أنَّ ذا قَرَابَةٍ لميمونة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، قد دَخَلَ عليها ذات يوم، فوجدتْ منه ريحَ شَرَاب، فقالت وقد أخذها الغضبُ لله: والله، لئن لم تخرجْ إلى المسلمين، فيُقام عليك الحدُّ بالجلْدِ، لا تدخل عليَّ أبداً بعد هذا اليوم، وأمرته بالخروج فخرج[1].

وهذا الموقف يشير إلى تمسّك أمنا ميمونة بأوامر الله سبحانه وتعالى، وتطبيق السُّنّة المطهَّرة، فلا يمكن لها أنْ تُحَابي قرابتها في تعطيلِ حدٍّ من حدودِ الله تعالى.

وقد زكّى رسولُ الله ﷺ إيمانَ ميمونة وشهد لها ولأخواتها بالإيمان، وحُسْنِ الثّقة بالله سبحانه، فقد أوردتِ المصادرُ الوثيقة بإسنادها إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النّبيُّ ﷺ: «إنَّ الأخواتِ لمؤمناتٌ» وفي لفظٍ: «الأخواتُ مؤمناتُ» ميمونةُ ـ زوج النّبيّ ﷺ، وأمّ الفضل، وسلمى ـ امرأة حمزة ـ وأسماء بنت عُميس أختهن لأمّهن[2].

وشهدتْ أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها لميمونة بصفاتٍ كريمة، منها التّقوى، وصِلَة الرَّحم، فقد قالت في حقّها بعد وفاتها: ذهبتْ والله ميمونةُ، أَمَا

---

(١) عن طبقات ابن سعد (١٣٩/٨) بشيء من التصرف.

(٢) أخرجه النسائي في فضائل الصحابة (٢٨١) والحاكم (٣٢/٤و٣٣) وطبقات ابن سعد (١٣٨/٨) و(٢٧٧/٨) والاستيعاب (٣٢٠/٤) ودر السحابة (ص٥٤٥).

إنّها كانت مِنْ أتقانا لله، وأوصلنا للرحم[1].

مِنْ حَافِظَاتِ وَرَاوِيَاتِ الحَدِيْثِ:

نستطيع أن نقول: إنَّ أمَّنا ميمونة بنت الحارث واحدة منْ أمّهات المؤمنين اللاتي نَقَلْنَ لنا حديث رسول اللهﷺ.

هذا وقد كانت أمُّ المؤمنين ميمونة ممّنْ وَعَيْنَ الحديث الشَّريف، وتلقينَه عنْ رسولِ اللهﷺ، وكانت حافظةً متقِنَةً، وتشيرُ أخبارها التي وصلتنا بأنّها شديدة التّمسّك بالهدي النّبويّ، وبالآثار والشّمائل المحمّديّة، ومنها حفْظ الحديث النّبويّ الشّريف، وروايته، ونقلِهِ إلى أئمّةِ العلماء الذين كانوا يقصدون المدينة المنّورة، ليأخذوا الحديث عن أمّهاتِ المؤمنين، وعن كبار الصَّحابة الذين عُنوا براويةِ الحديث.

هذا وقد كانت أمُّ المؤمنين ميمونة منَ الحافظاتِ المكثرات لرواية الحديث النّبويّ الشّريف من أمّهات المؤمنين الطّاهرات، ولم يسبقْها في هذا سوى أمّ المؤمنين عائشة التي روتْ (٢٢١٠) أحاديث، وأمّ سلمة أمّ المؤمنين التي روت (٣٧٨) حديثاً، ثم تأتي ميمونةُ التي روت عنْ رسولِ اللهﷺ (٧٦ حديثاً)[2].

وقد أخرجَ لها منها في الصَّحيحين ثلاثة عشر حديثاً، المتّفقُ عليه منها سبعة، وانفرد لها البخاري بحديث واحد، بينما انفرد مسلم بخمسةِ أحاديث[3].

هذا، ولم يحدّدِ الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ أحاديث أمّنا ميمونة، وإنّما قال: روت عدّة أحاديث[4].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٢/٤) وابن سعد في الطبقات (١٣٨/٨) وانظر الإصابة (٣٩٩/٤) وسير أعلام النبلاء (٢٤٤/٢) وأزواج النبي للصالحي (ص٢٠٥).

(٢) المجتبى (ص٩٦) وأعلام النساء (١٣٩/٥).

(٣) انظر: تلقيح فهوم الأثر (ص٣٦٥ و٤٠٣) وسير أعلام النبلاء (٢٤٥/٢) والمجتبى (ص٩٦) قال النووي ـ رحمه الله ـ في تهذيبه: روت ستة وأربعين حديثاً.

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٣٩/٢).

روى عن ميمونةَ رضي الله عنها أولاد أختها الأربعة وهم: عبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن شداد بن الهَاد، وعبيد بن السَّبَّاق، ويزيد بن الأصمّ.

كما روى عنها عبد الرّحمن بن السَّائب الهلاليّ، وكُريب مولى ابن عباس، وربيبها عُبيد الله الخولانيّ، ومولاها: سُليمان بن يسار[1]، وأخوه، عَطاء بن يسار، ومولاتها: ندبة، والعالية بنت سبيع وغيرهم[2].

وممّا رواه لها الإمام البخاريُ وغيره، بسندٍ عن عبد الله بن شداد عن ميمونةَ، قالت:

كان النَّبيُّ ﷺ يصلّي على الخُمرة[3].

وأخرج لها البخاري أيضاً في صحيحه بسنده عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما عن ميمونةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئِلَ عن فَأْرةٍ سقطت في سَمْنٍ فقال: «ألقوها، وما حولها فاطرحوه، وكُلُوا سَمْنَكم»[4].

ومما أخرجه أبو يعلى وغيره بسندٍ عن ابن عباس، عن ميمونة زوج النَّبيّ ﷺ قالت:

أصبحَ النَّبيُّ ﷺ خَاثِراً[5]، ثمّ أمسى وهو كذلك، ثم أصبح وهو كذلك.

قالت: فقلتُ: يا رسول الله، ما لي أراكَ خَاثراً؟

قال: «إنَّ جبريلَ ـ عليه السَّلام ـ واعدني أنْ يأتيَني، وما أخلفني».

قال: فنظروا فإذا جرو كلب تحتَ نَضَدٍ[6] لهم، فأَمَر النَّبيُّ ﷺ بذلك المكان فغُسِل

---

(١) قال ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ كان يسار مولى ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها وولده: عطاء، وسليمان، ومسلم، وعبد الملك، كلهم فقهاء. (المعارف ص١٣٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٢٣٩) وتهذيب التهذيب (١٢/٤٥٣).

(٣) فتح الباري (١/٥٨٦) حديث رقم (٣٨١) وأحمد (٦/٣٣٥) والنسائي (٢/٥٧) والدرامي (١/٣١٩) ومسلم (٥١٣) وأبو داود (٦٥٦) وابن ماجه (١٠٢٨).

(٤) فتح الباري (١/٤٠٩) حديث رقم (٢٣٥) وانظر الأحاديث في البخاري أيضاً (٢٣٦ و٥٥٣٨ و٥٥٣٩ و٥٥٤٠).

(٥) خاثر: ثقيل النفس، غير طيب ولا نشيط.

(٦) نَضَد: السرير الذي تنضد عليه الثياب.

بالماء، قال: وجاءه جبريل ـ عليه السَّلام ـ فقال له النَّبيُّ ﷺ: «واعدتني أنْ تأتيني ومَا أخلفتني»!

فقال له جبريل ـ عليه السَّلام ـ: «أو ما علمتَ أنا لا ندخلُ بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة»[1].

ومما أخرجه ابن ماجه في سننه بسندهِ عن عمران بنِ حذيفة عن أمّ المؤمنين ميمونة قال:

كانت تدّان دَيْناً، فقال لها بعضُ أهلها: لا تفعلي، وأنكَرَ ذلك عليها.

قالت: بلى، إنّي سمعتُ نبيّي وخليلي ﷺ يقول: «مَا مِنْ مسلم يدّان دَيناً يعلمُ الله منه أنّه يريدُ أداءه، إلا أداه الله عنه في الدُّنيا»[2].

تلكم صورة مِنْ صُوَرِ روايات الحديث الشَّريف التي دونتها كتب الحديث لأمّنا ميمونة رضوان الله عليها، ولا يمكن لنا أن نستقصيَ مروياتها لضيقِ المجال.

الأَيَّامُ الأَخِيْرَةُ وَذِكْرَيَاتٌ عَزِيْزَةٌ:

كانت أمُّ المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، قد عاشتِ الخلافة الرَّاشدة، وهي تحظى باحترامِ الخلفاء والعلماء، وامتدتْ بها الحياةُ إلى خلافةِ معاوية رضي الله عنه.

قال الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: توفيتْ سنةَ إحدى وخمسين رضي الله عنها[3].

(1) مسند أبي يعلى (7/13 و8) حديث رقم (7093) وأخرجه مسلم (2105) وأبو داود (4157) والنسائي (7/186)

(2) انظر: سنن ابن ماجه (2/508) حديث رقم (2408) والحديث أخرجه الـ مائي أيضاً في البيوع (7/315) وابن حبان في الموارد (1157) والحاكم في المستدرك (2/22 و23) وأحمد (6/332). و«تدان» من أدان واستدان، أي إذا أخذ الدّين واقترض واستقرض.

(3) سير أعلام النبلاء (2/245) وانظر المواهب اللدنية (2/90) ومختصر تاريخ دمشق (2/286) قال ابن عساكر ـ رحمه الله ـ: وكان لها يوم توفيت ثمانون أو إحدى وثمانون سنة وكانت امرأة جلدة. (مختصر تاريخ دمشق 2/286).

كانت أمُّ المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، وفي زيارةٍ لمكةَ المكرَّمَةِ في سَنَةِ وفاتها، ولكنَّ رسولَ اللهﷺ كان قد أخبرها أنَّها لا تموتُ بمكةَ.

روى هذا الأثر ابنُ أخيها يزيد الأصم قال:

ثَقُلَتْ ميمونة زوج النَّبيِّﷺ بمكةَ، وليس عندها مِنْ بني أخيها، فقالت: أخرجوني مِنْ مكةَ، فإنِّي لا أموتُ بها، إنَّ رسولَ اللهﷺ أخبرني أنّي لا أموتُ بمكةَ.

قال: فحملوها حتى أتَوْا بها سَرِف إلى الشَّجرة التي بنى بها رسولُ اللهﷺ تحتها في موضعِ القُبَّة.

قال: فماتتْ؛ فلمّا وضعناها في لحدها أخذتُ ردائي فوضعته تحت خَدِّها في اللّحدِ، فأخذهُ ابن عباس فرمى به(1).

وعن عطاءٍ ـ رحمه الله ـ قال: توفيت ميمونة بسَرِف، فخرجتُ مع ابنِ عبّاس إليها، فقال: إذا رفعتم نعشها، فلا تُزَلْزِلُوها ولا تزعزعوها(2). وفي رواية: ارفقوا بها، ولا تزعزعوا فإنّها أمّكم، وموضعُها مِنْ رسول اللهﷺ موضعها.

وهكذا جعل الله عزَّ وجلَّ المكان الذي تزوّجت به ميمونة هو مثواها الأخير. قال يزيدُ بنُ الأصم: دفنًا ميمونة بِسَرِف في الظُّلةِ التي بنى فيها رسول اللهﷺ(3).

هذا وقد صلّى على جنازتها سيّدنا عبد الله بن عبّاس، ودخل قبرها(4) هو

---

(١) مسند أبي يعلى (١٣/٢٧ و٢٨) حديث رقم (٧١١٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٢٤٥) وأخرجه ابن سعد (٨/١٤٠) والحاكم (٤/٣٣) وانظر: أنساب الأشراف (١/٤٤٦) وأخبار مكة (٢/٢١٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٤٥).

(٤) قال الإمامُ الفاسيُّ ـ رحمه الله ـ في شفاءِ غَرامِهِ: ومنَ القبور التي ينبغي زيارتها قبر أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلاليّة رضي الله عنها. وهو معروفٌ بطريقِ وادي مرّ، ولا أعلمُ بمكةَ ولا فيما قَرُبَ منها قبور أحدٍ ممن صَحِبَ رسول اللهﷺ سوى هذا القبر، لأنَّ الخلفَ يأثرُ ذلك عن السَّلفِ، والموضع الذي فيه قبر ميمونة يقال له: سَرِف، وهو الموضع الذي بنىَ بها النبيﷺ حين تزوّجها. (شفاء الغرام ١/٤٥٩) ملخصاً.

ويزيد بن الأصم وعبد الله بن شداد بن الهاد، وهم أولاد أخواتها، ونَزَل معهم عُبيد الله الخولانيّ، وكان يتيماً في حجرها[1].

تلكم هي أمُّنا ميمونة بنتُ الحارث الهلاليّة، آخر حبّات العِقْدِ الفريد، العِقْد النّبويّ الطّاهر المطهّر، وإحدى أمّهات المؤمنين اللواتي ينْضَويْنَ تحت قول الله تعالى: ﴿إنّما يريدُ الله ليذهبَ عنكم الرجس أهْل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] صدق الله العظيم.

---

(١) انظر: أسد الغابة لابن الأثير (٦/٢٧٤) ترجمة رقم (٧٢٩٧) وانظر كذلك تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٢/٣٥٦).

سرية النبي

مارية بنت شمعون

رضي الله عنها

- مارية سُرّية النبيّ ﷺ وأمُّ ولده إبراهيم.
- كان لها منزلة كريمة عند النبيّ ﷺ وكانت طاهرة تقيّة.
- نَعِمَتْ ماريةُ بنعيمِ الإسلام، وعاشت في كَنَفِ رسول الله ﷺ مرعية الجانب، وعُدَّت من أهلِ البيت.
- ضَربتْ مثلاً شروداً في الصَّبر والتَّسليم لقضاء الله عزَّ وجلَّ.
- أوصى النَّبيُّ ﷺ بالأقباط خيراً إكراماً لمارية، وتوفيت مارية سنة (١٦هـ) بالمدينة المنوّرة.

سُرِّيَّة النَّبي
مارية بنت شمعون رضي الله عنها

مِنْ صَانِعَاتِ التَّارِيخِ

تأتي هذهِ المرأةُ ـ اليوم ـ من مِصْرَ، لتكونَ في المدينةِ المنوَّرةِ، ولتدخلِ البيتَ النَّبويَّ الطَّاهر، ولتنجبْ طفْلاً لرسولِ اللهﷺ، ولتجددْ ذِكْرى هاجر[1] المصرية أمّ العرب التي كانت زوج نبيّ الله إبراهيم، وأمّ نبيّ الله إسماعيل عليهما السّلام.

فَمَنْ تكونُ هذه المرأة؟ ومتى وكيفَ دخلتِ البيتَ النَّبويَّ؟

ذكر المفسِّرون والمؤرِّخون وكُتَّاب السِّيرة والطَّبقات أنَّ اسمَها ماريةَ بنت شمعون[2]

---

(١) اقرأ سيرة هاجر زوج إبراهيم عليه السَّلام في كتابنا «نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسّنة». (ص٣٠٢ـ ٣٤٤)

(٢) الاستيعاب (٣٩٦/٤ ـ ٣٩٨) والإصابة (٣٩١/٤) ودلائل النّبوة للبيهقيّ (٤٢٩/٥، و٤٢٢/٦) وتهذيب الأسماء واللّغات (٣٥٤/٢) والمستدرك (٣٨/٤) وأُسْد الغابة (٢٦١/٦) ترجمة رقم (٧٢٦٨) وزاد المعاد (١١٣/١ و١١٤ و١١٦ و١٢٢) و(٣٩٢/٣ و١٦/٥ و١٧ و١٧٨) وأزواج النّبي للصّالحي (ص٢٢٩ ـ ٢٣١) والدر المنثور للسّيوطي (٢١٤/٨) والسّمط الثّمين (ص١٦٢ ـ ١٦٧) والمواهب اللدنية (١٠٠/٢) والكامل لابن الأثير (١٩٩/٢ و٢١١ و٢١٥ و٢٧٢ و٣١١ و٣١٣ و٥٢٦) وأزواج النّبيّ لأبي عُبيدة (ص٨٢) وتاريخ الطّبري (١٧٧/٢ و٢١٤ و٢١٦ و٢١٨ و٤٧٥) وغرر التّبيان (ص٤٢٢ و٥١٢ و٥١٣) والسّيرة الحلبيّة (٤١٩/٣) والفصول (ص٢٤١ و٢٤٤ و٢٥٢ و٢٥٣ و٢٥٤) وجوامع السِّيرة النّبوية (ص٣٤) وطبقات ابن سعد (٢١٢/٨ ـ ٢١٦) وأنساب الأشراف (٤٤٨/١ و٤٤٩ و٤٥٠ و٤٥٢) وأعلامُ النّساء (١٠/٥ و١١) وتاريخُ الإسلام =

القبطيّة، إحدى نساء البيت النّبويّ اللاتي كُتِبَ لَهُنَّ الخلود في دُنْيا الخلود.

فكيف قدمتْ هذه المرأة المِصْريّة لتحلَّ دُرّةً في العِقْد الفريد، وتستظلّ في ظلال البيتِ النّبويّ الطّاهر، وتغدو واحدة ممّنْ صَنَعْنَ التّاريخ؟

السُّطور التّالية تُفْصِحُ عن ذلك..

قدمت ماريةُ بنتُ شمعون المدينة المنوَّرة بعد صلح الحديبية، وذلك في سَنَةِ سَبْعٍ من الهجرة على أرجحِ الأقوال.

لما تمَّ صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين المشركين في مكةَ، سرى الهدوء على الجزيرة العربية عقب هذا الصّلح، وإذ ذاك وجدتِ الدَّعوة الإسلامية متنفّساً ومجالاً كيما تعمُّ نفحاتها الكرة الأرضية، وكيما يتمّ إبلاغ نور الإيمان إلى النّاس كافّة.

بدأ الحبيبُ المصطفى ﷺ هذه الخطوة المباركة في الدَّعوة الحكيمة، وأراد أنْ يكتبَ إلى ملوكِ العالم، وأمراء العرب، فقيل له: إنّهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتَم، فصاغ رسولُ الله ﷺ خاتماً من فضة، نَقشَه: محمّد رسولُ الله، وكان هذا النَّقْش ثلاثة أسطر: سطر محمّد، رسول سطر، الله سطر وكان على النحو التالي:

الله

رسول

محمد[1]

وكتب رسولُ الله ﷺ كُتُباً يدعوهم فيها إلى الإسلام، وإلى سبيلِ ربّه بالحكمة والموعظة الحَسَنة، واهتمَّ بذلك اهتماماً كبيراً، فاختار من أصحابهِ الكرام

= للذّهبيّ (السّيرة النبوية ص٥٩٧) و(عهد الخلفاء الرّاشدين ص١٦٣) وعيونُ الأثر (٢/ ٣٩٠) وتلقيحُ فهوم الأثر (ص٢٨) والمحبر (ص٧٦ و٩٨ و١١٠) والشّفا (١/ ٤٥٧ و٧٢١) والمعرفة والتّاريخ (٣/ ٢٦٩ و٣٠٥) والبداية والنّهاية (٥/ ٣٠٣ و٣٠٥) والسّير والمغازي (ص٢٧١) ونور الأبصار (ص٤٩) وحياة الصّحابة (١/ ١٥٥) وأسباب النزول للواحدي (ص٣٥٧) وغير ذلك كثير من المصادر المتنوعة في مختلف المعارف.

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب: دعوة اليهود والنصارى وعلى ما يقاتلون...

رسلاً لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوكِ، ومن هؤلاء الملوك: هرقل مَلِك الروم وامبراطورهم، وكسرى أبرويز ملك فارس، والمقوقس ملك مصر، والنَّجاشي ملك الحبشة وغيرهم.

ويتبادر إلى الذِّهن الآن سؤال وهو: كيف تلقّى هؤلاء الملوك هذه الرَّسائل الكريمة؟!

أقول: إنَّ هرقلَ والنَّجاشي والمقوقس تلقَّوْا رسائلهم، فتأدّبوا وردّوا ردّاً جميلاً رقيقاً رفيقاً. وتحدثنا كُتُب السِّيرة أنَّ النَّجاشي أكرم مثوى رسول رسول اللهﷺ، وأمّا المقوقس فقد أرسلَ هدايا منها ضيفة حلقتنا مارية القبطية أمّ إبراهيم ابن رسول اللهﷺ.

وأمّا كسرى أبرويز، فقد مزَّق الكتاب لما قُرِىءَ عليه، وقال في استكبار وصلف: يكتبُ إليّ هذا وهو عبدي؟ فبلغَ ذلك رسول اللهﷺ فقال: «مزّق الله ملكه»[1]. وتحقَّقَتْ دعوةُ المصطفىﷺ وتمزّقَ مُلْك كسرى وتلاشى إلى الأبدِ. قبل أنْ ينقضيَ عقْدٌ منَ الزَّمن، وبذلك تحققت نبوءةٌ أخرى للرسول الكريمﷺ عندما قال: «إذا هلكَ كسرى فلا كسرى بعده»[2].

مَارِيَةُ هَدِيَّةُ المُقَوْقِس:

قبل أنْ نتحدَّثَ عن هديةِ المقوقس إلى النَّبيِّ الكريمﷺ، دعونا نلقي الضَّوء على المقوقسِ ذاته حتى تتوضَّح الصّورة بشكلٍ أَجْوَد.

فالمقوقسُ هو حاكمُ الإسكندرية، والنّائب العام للدّولة البيزنطية في مصرَ، واسم المقوقس جُريج بن مينا ـ أو جريج بن متى ـ.

هذا وقد كانت مصر عصر ذاك منْ أَغْنى ولايات الدّولة البيزنطية، وأكثرها خصوبة، وإنتاجاً وعمراناً، فقد ذكر ابن تغري بردي في كتابه «النُّجوم الزَّهراء»

---

(١) صحيح البخاري، باب: كتاب النبيﷺ إلى كسرى وقيصر.
(٢) رواه مسلم.

أنَّ عمرو بنَ العاص قد وصفها بقوله: مصرُ تربة غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها شهر.

ولمّا أرادﷺ أنْ يرسلَ كتاباً للمقوقس اختار من أصحابه حاطب بن أبي بلتعة[1]، وكانَ حاطبُ معروفاً بحكمتِهِ، وحُسْن مَنْطِقِه وبلاغته وفصاحته.

كَتَبَ رسولُ اللهﷺ إلى المقوقسِ مَلِكِ مِصْرَ والإسكندرية ما نصّه:

«بسمِ الله الرّحمنِ الرحيمِ. من محمّد عبد الله ورسولِهِ إلى المقوقسِ عظيم القُبْط، سلامٌ على مَنِ اتّبع الهدى، أمّا بعد: فإنّي أدعوكَ بدعايةِ الإسلام، أسلمْ تَسْلَمْ، وأسلمْ يؤتك الله أجرَكَ مرتين، فإنْ توليتَ، فإنَّ عليك إثْمَ القبط **﴿يا أهلَ الكتابِ تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم أنْ لا نعبدَ إلا الله ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دونِ الله فإنْ تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾** [آل عمران: ٦٤]».

وأخذَ حاطبُ كتابَ رسولِ اللهﷺ، وسار حتى وَصَلَ مِصْرَ، ودخل على المقوقسِ، فرحّب به، وأحْسَنَ نُزُلَه، فخاطبَه حاطب بحكمةٍ ولُطْفٍ وقال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الربُّ الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به، ثمّ انتقم منه، فاعتبرْ بغيرك، ولا يعتبر غيرُك بكَ.

كان المقوقسُ يستمعُ إلى كلماتِ حاطب، واستبانَ صدق ما يقوله، فقال له: يا هذا، إنَّ لنا دِيْناً لَنْ ندعَه إلاّ لما هو خيرٌ منه.

فقال حاطب وقد لَمح مِنَ المقوقسِ حكمته: ندعوكَ إلى دِيْنِ الإسلام الكافي به الله فَقْدَ ما سواه، إنَّ هذا النّبيَّ دعا النّاس فكان أشدّهم عليه قريش، وأَعْداهم له اليهود، وأقربهم منه النّصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارةِ عيسى بمحمّد، وما دعاؤنا إيّاك إلى القرآن، إلا كدعائك أهل التّوراة إلى الإنجيل، فكلُّ نبيٍّ أدرك قوماً فهم أمّته، فالحقُّ عليهم أنْ يطيعوه، وأنتَ ممَنْ أدركه هذا النّبيّ،

(١) اقرأ سيرة الصحابي الكريم حاطب بن أبي بلتعة في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» (٢/ ٢٢٧ ـ ٢٦١) ففي سيرته مواقف وعظات ولمسات ربانية، رضي الله عنه.

ولسنا ننهاك عن دِيْنِ المسيح، ولكنّا نأمرك به.

وكأنَّ المقوقس قد أُعجب بمقالةِ حاطب، ووافَقَ كلامه موقعاً في قلبهِ فقال لحاطب: إنّي قد نظرتُ في أَمْرِ هذا النّبيّ فوجدته لا يأمرُ بمزهودٍ فيه، ولا ينهى عن مرغوبٍ فيه، ولم أجدْهُ بالسَّاحر الضَّالّ، ولا الكاهن الكاذب، ووجدتُ معه آيةَ النّبوّةِ بإخراجِ الخبء والإخبار بالنّجوى وسأنظر[1].

ثم إنَّ المقوقسَ أخذ كتابَ النَّبيِّ ﷺ، فجعله في حقٍّ منْ عاج، وختم عليه، ودفع به إلى جارية له، ومن ثمَّ دَعَا كاتباً له يكتبُ بالعربيّة، فكتب إلى النّبيِّ ﷺ:

بسم الله الرحمنِ الرحيمِ، لمحمّد بن عبد الله، منَ المقوقسِ عظيم القبط، سلام عليك، أمّا بعد:

فقد قرأتُ كتابَكَ، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه، وما تدعو إليهِ، وقد علمتُ أنَّ نبيّاً بقيَ، وكنتُ أظنُّ أنّه سيخرج بالشَّام، وقد أكرمتُ رسولَكَ، وبعثتُ إليكَ بجاريتين لهما مكان في القُبْطِ عظيم، وبكسوةٍ، وأهديتُ إليك بغلةً لتركبها والسَّلام عليك[2].

ولم يزدِ المقوقسُ على هذا شيئاً، ولم يسلم[3]، وإنّما قال لحاطب: أنتَ حكيمٌ جاءَ مِنْ عندِ حكيم، وهذه هدايا أبعثُ بها معك إلى محمّدٍ، وأرسل معك مَنْ يبلّغك إلى مأمنك.

وكانتِ الهديةُ ثمينةً لطيفةً، وكان منَ الهدية جاريتان هما: مارية بنت شمعون، وأختها سِيْرين، وبغلة بيضاء اسمها دُلدل ـ بقيتْ إلى زَمَنِ سيّدنا معاوية ـ وأثواب من قباطي مصر، وكان مع الهدية أيضاً خصي يُسمى مابور، وغير ذلك.

---

(١) انظر السيرة الحلبية (٣/٢٩٦) بشيء من التصرف. وانظر عيون الأثر (٢/٣٣٧).

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٦٠) ورجال مبشرون بالجنة (٢/٢٤٣ و٢٤٤) وزاد المعاد (٣/٦٩٢) وعيون الأثر (٢/٣٣٨) والمواهب اللدنية (٣/٣٤٨ و٣٥٠).

(٣) وفيه قالﷺ: «ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه» (طبقات ابن سعد ١/٢٦٠ و٢٦١).

وسار حاطب عائداً إلى المدينةِ، ناجحاً بسفارته، وفي طريقِ عودته عَرَضَ على ماريةَ الإسلام، ورغّبها فيه، فأسلمتْ وأسلمتْ أختُها، وهُدوا إلى الطَّيِّب منَ القول، وهدوا إلى صراط الحميدِ، وأكرمها الله عزَّ وجلَّ بالإسلام[1].

المَنْزِلُ الكَرِيْمُ:

وصلتْ ماريةُ وهدايا المقوقس المدينة المنوّرة، وكانت ماريةُ قد شهدت شهادة الحق وهي في طريقها إلى عرين الأنصار.

في المدينة المنوَّرة، نَعِمَتْ ماريةُ برعايةِ رسول اللهﷺ الذي اختارها لنفسه، أمّا أختها سيرين، فقد وهبها لشاعرِه الكبير، شاعر الدعوة المحمّدية، وأمير شعراء الأنصار حسَّان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه.

أنزلَ رسولُ اللهﷺ مارية منزلاً كريماً في المدينةِ عند حارثة بن النّعمان الأنصاري[2]، ثمّ حولها إلى مكانٍ يَحْمِل اسمها فكان يُقال له: مشربة[3] أمّ إبراهيم في العالية.

كانت ماريةُ رضي الله عنها بيضاء جميلة الطَّلعة، ولم تكن زوجةً لرسول اللهﷺ، بل كانت ملك يمينه، وحلّتْ له بهذِهِ الملكية، وأنزلها منزلاً خاصّاً بها.

---

(١) رجال مبشّرون بالجنة (٢/٢٤٤) بتصرف.

(٢) اقرأ سيرة الصحابي الكريم حارثة بن النّعمان الأنصاريّ في كتابنا «رجال مبشرون بالجنّة» (٢/٢٩٩ ـ ٣٢٩) فسيرته تثلج الصدور لما فيها من مكارم المعالي في الشجاعة والكرم والطاعة.

(٣) المَشْرَبة: الغرفة والعِلّيّة والصّفّة والأرض اللينة دائمة النبات، وأورد السمهودي ـ رحمه الله ـ في كتابه وفاء الوفاء (٣/٨٢٥) نقلاً عن ابن شبّة في تاريخ المدينة المنوّرة: إنّما سُميّت مشربة أمّ إبراهيم، لأنَّ أمَّ إبراهيم ابن النّبيّﷺ ولدته فيها، وتعلّقتْ حين ضربها المخاض بخشبة من خشب تلك المشربة، فتلك الخشبة اليوم معروفة.
وقال ابنُ النجّار ـ رحمه الله ـ: وهذا الموضع بالعوالي من المدينة بين النخيل، وهو أكمة قد حُوّط عليها. والمشربة: البستان، وأظنه قد كان بستاناً لمارية القبطية أمّ إبراهيم ابن النّبيّﷺ.

أثار قدوم مارية الغيرة في نَفْس الصِّديقة عائشة رضي الله عنها، فقد شغلت هذه الجارية المصريةُ الشّابّة مساحة كبيرة من بيوتِ أزواج النّبيّ ﷺ وراحت أمُّ المؤمنينَ عائشة رضي الله عنها ترقبُ باهتمام مظاهر اهتمامِ رسول الله ﷺ بهذه المرأةِ التي أكثر من التّردد عليها، وزادَ من غيرتها، أنّه كان يمكثُ عندها طويلاً عند فراغه.

وتفصحُ أمّنا عائشة رضي الله عنها عن إحساسها بصراحةٍ تامة فتقول: ما غرتُ على امرأةٍ إلا دون ما غرتُ على ماريَة، وذلك أنّها كانت جميلة جَعْدة ـ أو دعجة ـ فأُعجبَ بها رسول الله ﷺ، وكان أنزلها أوّل ما قدم بها في بيتٍ لحارثةَ بنِ النّعمان، فكانت جارتنا، فكان عامّة الليل والنّهار عندها، حتى فرغنا لها، فجزعت فحوَّلها إلى العاليةِ، وكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشدّ علينا[1].

يَا بشْرَايَ هَذَا غُلام:

مضى عام على وجودِ مارية في المدينة المنوّرة، كانت خلالها تلقى كلَّ رعاية مِنْ رسولِ الله ﷺ.

وفي يومٍ منَ الأيّام العطرة في المدينةِ المنوّرة، زفَّتْ ماريةُ إلى الحبيب الأعظم ﷺ نبأً جَميلاً ملأ قلبه سروراً. قالت له بأنّها حامل، وسَتَلِدُ بعد حين.

كان رسولُ الله ﷺ قد قاربَ السِّتين من عمرهِ الشّريف، وَفَقَدَ أولاده خلا فاطمة الزّهراء رضوان الله عليها، ولعلَّ هذه البشرى العظيمة قد أعادته إلى الماضي البعيد، القريب، إلى أبيه إبراهيم عليه السَّلام، وزوجه هاجر المصرية التي قصَّ الله خبرها ووليدها إسماعيل في كتابه العزيز[2].

مضت شهورُ الحَمْلِ، ومارية سعيدة بما في بطنها، وسعيدة بأنَّ رسول

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٢١٢/٨ و٢١٣) والسمط الثمين (ص١٦٣) والإصابة (٣٩١/٤) مع الجمع والتّصرف اليسير.

(٢) يراجع ذلك بتوسع في كتابنا «نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسُّنة» ترجمة سارة وهاجر. (ص٢٧١ـ ٣٤٤)

اللهﷺ قد فرض عليها الحجاب، ولما جاءها المخاض، أولدتها أمّ رافع[1] سلمى مولاة رسول اللهﷺ، وكانت أمُّ رافع قابلة البيت النّبويّ الطّاهر، وخبيرة بشؤون وشأن النِّساء في مثلِ هذا المجال.

ولدت مارية طفلاً جميلاً شديد الشَّبه بأبيهِ سيّدنا وحبيبنا رسول اللهﷺ، وخرجت أمُّ رافع إلى زوجها أبي رافع وأخبرته بولادةِ مارية، وبسرعةِ الرِّياح، انطلقَ أبو رافع إلى الحبيبِ المصطفىﷺ وبشّره بأنَّ ماريةَ قد ولدتْ غلاماً سوياً، فوهب لهﷺ عبداً[2] لهذه البُشْرى ولهذه البشارة التي ألقتِ الطّمأنينة والسُّرور في نَفْس رسول اللهﷺ، ثمّ إنَّ رسول اللهﷺ سمّاه يوم سابعهِ إبراهيم، تيمناً بأبيه إبراهيم خليل الرّحمن عليه السَّلام.

كان هذا الحَدَث السَّعيد، ميلاد إبراهيم ابن رسول اللهﷺ، في شَهْر ذي الحجة من السَّنَةِ الثَّامنة للهجرة النّبويّة الشَّريفة[3]، وبهذه الولادة أصبحت مارية حرّة.

قال ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: لما ولدت أمّ إبراهيم، قال رسول اللهﷺ: «أعتقها ولدها»[4].

وعن ابنِ عبّاس أيضاً عن النَّبيّﷺ قال: «أيّما أمَة وَلَدتْ من سيّدها فإنّها حرّة إذا مات، إلا أنْ يعتقها قَبْلَ موته»[5].

وسرى خبر هذه البشارة في المدينة المنوّرة أَنْ قَدْ وُلِدَ لرسولِ اللهﷺ غلامٌ منْ ماريةَ القبطية، فأفعمت قلوبُ المؤمنين بفرحٍ شديد، وخصوصاً الأنصار الذين عرفوا حبَّ رسول اللهﷺ لمارية، وعلموا هواه فيها، وبوليدها إبراهيم،

---

(١) اقرأ سيرة الصحابية الجليلة سلمى مولاة رسول الله في كتابنا: «نساء من عصر النبوة» (٢/٢٦٧ ـ ٢٧٦) فسيرتها المعطار تؤنس القلوب وتصقل النفوس رضي الله عنها.

(٢) عيون الأثر (٢/٣٦٧).

(٣) الفصول (ص٢٤١) والإصابة (٤/٣٩١).

(٤ و٥) السمط الثمين (ص١٦٦) وطبقات ابن سعد (٨/٢١٥).

فتنافسوا في رعايةِ الوليد المبارك، وأحبُّوا بكلِّ معاني الحبّ أنْ يقوموا برعاية الوليد[1].

أمَّا رسول اللهﷺ فقد فرحَ بولده إبراهيم الذي رزقه الله عزَّ وجلَّ بعد انقطاعِ الولدِ منْ زوجه الطَّاهرة خديجة رضي الله عنها، وكأنَّ ماريةَ رضي الله عنها قد جدّدت بهذه الولادة ذكرى أمّنا خديجة، فأثنى عليها رسول اللهﷺ بكل خير، وبكل ما هي أهله.

مَارِيَةُ أُمُّ إِبْرَاهِيْمَ:

حظيت ماريةُ رضي الله عنها بالمكانةِ الكبيرة بين نساء البيتِ النّبويّ الطَّاهر، وبين نساءِ الأَنْصار اللاتي تنافَسْنَ فيمَنْ يرعاه، وفيمَنْ يحظى بمرضاةِ رسول اللهﷺ.

واختارَ الحبيبُ المصطفىﷺ مرضعاً من نساءِ الأنصار تُسمى أمّ سيف كما في الصَّحيحين. فعن أنس بنِ مالك رضي الله عنه قال: قال النّبيُّﷺ: «وُلِدَ لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم ودفعته إلى أمِّ سيف امرأة في المدينة»[2].

وأكرمَ رسولُ اللهﷺ أمّ سيف مرضعة ولده إبراهيم، وجَعَل عندها سبعة أرؤس من الماعزِ كيما ترضع ولده إبراهيم إذا ما لزم الأَمْرَ، ولتقرَّ عينُ ماريةَ بوليدِها حتى يشتدّ عوده.

وتصدَّق الحبيبُ المصطفىﷺ على مساكين المدينة تعبّداً وفرحاً بميلادِ إبراهيم. . . ففي اليوم السَّابع لمولده الكريم عقَّ له بكبش، وحَلَقَ رأسَه أبو هند[3] الأنصاريّ رضي الله عنه، وتصدَّقﷺ بوزنِ شعر ابنه فِضّة على المساكين

---

(١) عن طبقات ابن سعد (١١٢/٨) بشيء من التصرف.

(٢) الإصابة (٩٩/٤) وقيل: إن كنيتها: أم بردة. وللحديث أصل في البخاري ومسلم وأبي داود.

(٣) أبو هند الحجّام يُقال: اسمه عبد الله، شهد المشاهد كلّها عَدَا بدراً، وكان يحجمُ رسول اللهﷺ وفيه قال رسول اللهﷺ: «إنّما أبو هند امرؤ من الأنصار فأنكحوه وأنكحوا إليه ـ

الذين فرحوا أيضاً بمولده، ثمّ أخذوا شعره، ودفنوه في الأرض، وسمّاه إبراهيم، وكان الحبيبُ المصطفى ﷺ قد سمّاه إبراهيم منذ ولادته.

عن سيّدنا أنس بنِ مالك رضي الله عنه قال: ولدتْ ماريةُ إبراهيم، فجاء جبريلُ عليه السَّلام إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: السَّلام عليكَ يا أبا إبراهيم، فاطمأنَّ رسولُ الله ﷺ إلى ذلك[1].

وسُرَّ الرَّسولُ الكريمُ ﷺ بولده إبراهيم، وصَحِبَهُ مرَّةً إلى عائشةَ وقال لها: «انظري إلى شبهه» ولكنَّ الغيرةَ هي التي نطقتْ على لسان الصِّدِّيقة عائشة رضي الله عنها، فقالت: ما أرى شيئاً.

وتقبّلَ رسولُ الله ﷺ ذلك من عائشة، وليغفر الله لابنةِ الصِّدِّيق غيرتها، فعائشة نفسها أوضحت بلسانِ الصِّدْقِ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد رَزَقَ النَّبيَّ ﷺ منْ ماريةَ الولدَ، وحُرمت هي وأمّهات المؤمنين الأخريات ذلك.

كانت ماريةُ رضوان الله عليها تحرصُ كلَّ الحرصِ على اكتسابِ مرضاة رسول الله ﷺ، وتعمل كلَّ ما يُدخل السُّرور إلى قلبه، وكلَّ ما يبهج نفسه، فقد كانت مارية تَعْلَمُ مقدار حبِّ الحبيبِ المصطفى ﷺ لابنه إبراهيمَ، فكانت تحرصُ على أنْ يكونَ عندها كلّما جاءَ ﷺ لزيارتها في مشربتها، فصغيرُهَا إبراهيم قرّة عينه، ومصدر سعادته، وإنّه لَما يبهجها أنْ ترى رسول الله ﷺ سعيداً مسروراً.

وكما أسلفنا، فلم تَعُدْ مارية القبطية جارية ينطبقُ عليها أحكام الجواري، فقد حررها ولدها، إذِ الإسلامُ دِيْنٌ كريمٌ يلتمسُ الأسبابَ الكريمة لتحرير الرِّقِّ، وفكِّ الرِّقاب.

= يا بني بيّاضة» وهذا يشيرُ إلى مكانة هذا الصّحابي في عالم الإيمان والإخلاص والتوحيد رضي الله عنه (الاستيعاب ٢٠٨/٤) بشيء من التصرف.

(١) طبقات ابن سعد (٢١٤/٨) والسّمط الثمين (ص١٦٥) والحديث أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٨٩/٢).

هذا وقد نَعِمَتْ ماريةُ بنعيمِ الإسلام، وعاشت في كَنَفِ رسول اللهﷺ مرعية الجانب، عزيزة المكانة، تكسب احترام الجميع رضي الله عنها.

الطَّاهِرَةُ التَّقِيَّةُ:

أخذتْ ماريةُ رضي الله عنها تسلكُ سبيلَ الهدى، وتنعمُ بنعيمِ الإسلام، وأحبَّتْ هذا الدِّيْن الذي رفَعَهَا عالياً، وجعل منها امرأة لها نصيب في تاريخِ الدّنيا في الفضائل والمكارم.

وقد كانت ماريةُ رضي الله عنها، وضيئةَ النّفس، طيِّبَةَ القلب، نقيّة السَّريرة، خالطت روحها طهارةُ الإسلام، وغُرِسَتْ في قلبها محبَّةُ التَّقوى، فغدت تنطقُ وتتحدَّثُ بنورِ الله عزَّ وجلَّ، لذلك أكرمها رسولُ اللهﷺ لهذه الصِّفات الكريمة، ولأدبها الرَّفيع معهﷺ، مما جعل بعض أصحاب القُلوب المريضة التي ران عليها الوهنُ والحَسَدُ أنْ يتكلموا في حقّ مارية بما لا يليق.

وكما تحدَّثَ المنافقونَ والمرجفون بالإفك عن عائشةَ رضي الله عنها، تحدَّثوا عن ماريةَ بما يشبه ذلك، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يتركْ هذه الألسنة تسهبُ في الحديث، وإنّما قطعها بالحجّة الدامغة، وردَّ الله هؤلاء بغيظهم لم ينالوا خيراً، وأكرمَ الله ماريةَ، وأحسن سيرتها في البيتِ النّبويّ الطّاهر الكريم.

رُويَ عن سيّدنا أنس بنِ مالك رضي الله عنه قوله: كانت أمُّ إبراهيم سُرّية النّبيّﷺ في مشربتها، وكان قبطيٌّ يأوي إليها، ويأتيها بالماءِ والحطبِ. فقال النّاسُ: عِلْجٌ يدخلُ على عِلْجةَ.

فبلغَ ذلك رسولُ اللهﷺ، فأرسلَ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فوجده على نخلة، ونظر عليّ إلى النَّخلة، فرأى القبطي مجبوباً، فرجعَ دون أنْ يقتلَه إلى النّبيّﷺ، وقال: يا رسول الله، أرأيتَ إذا أمرتَ أحدنا بالأمْرِ، ثمّ رأى في غير ذلك أيراجعك؟

قالﷺ: «نعم»

وأخبر عليّ رضي الله عنه رسولَ اللهﷺ الخبر، فقال رسول الله: «أصبتَ، إنَّ

الشَّاهد يرى ما لا يرى الغائب». ثمّ قال: «الحمد لله الذي يصرف عنّا أهل البيت»[1].

وهكذا لم تنجحْ هذه الشَّائعة، بل كُبِتَ المرجفون بما جاءهم به عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه منَ الحقائق التي دمَغَتْهُم، وكَشَفَتْ عن سوءِ طويّتهم، ورَفَعَتْ مِنْ مكانةِ مارية عند رسول اللهﷺ، وعند المسلمين، وشهد جميعهم بالتّقوى والطُّهر. . .. وحسبنا قول الرّسول الكريمﷺ، «الحمدُ لله الذي يصرفُ عنّا أهل البيت»[2].

مَارِيَةُ وَمَوْتُ إِبْرَاهِيْمَ:

كانتْ سعادةُ مارية رضي الله عنها بوليدها إبراهيم سعادةً عظيمةً، فقد أصبحت تشعرُ بأنْسٍ وأُلْفَةٍ بما أكرمها الله منَ الذُّرية، وزادَ الولدُ العزيزُ إبراهيم من حبِّ رسولِ اللهﷺ لماريةَ، وتردّده عليها، ورعايته لها، واهتمامه بأمْرِها، وأمْرِ قومها.

وعاشَ إبراهيمُ ابن رسول اللهﷺ سَنَةً وبعض السَّنَة، وهو يحظى برعايةِ رسول اللهﷺ ولكنه مرض قبل أنْ ينتصف عامَهُ الثَّاني، فجزعتْ ماريةُ لذلك

---

(١) عن السمط الثمين (ص١٦٥) وأزواج النبي للصالحي (ص١٣١) مع الجمع والتصرف. للحديث أصل عند الإمام مسلم في التوبة برقم (٢٧٧١) وأحمد (٣/٢٨١) وانظر: كشف الأستار للبزار (٢/١٨٨ و١٨٩) وحلية الأولياء (٣/١٧٧ و١٧٨) ومجمع الزوائد (٤/٤٢٩) وطبقات ابن سعد (٨/٢١٤) والاستيعاب (٤/٣٩٧ و٣٩٨).

(٢) لقد أحبَّ الحبيبُ المصطفىﷺ وهو سيّد الحكماء، وسيّد الأصفياء، أنْ يعرِفَ الصَّحابة الكرام براءته، وبراءة مارية أمّ ولده إبراهيم، فبعثَ عليّاً لهذهِ المهمّة، لكشْفِ الحال الحقيقية، لأنَّه عَلِمَ إذا عاين القبطيُّ السَّيف، كشَفَ عن حقيقةِ حاله، فجاء الأَمْرُ كما قَدّرَه النّبيّ الكريمﷺ.

إنَّ هذا يزيد منْ رصيدِ مارية في عالم الطّهر والطّهارة والنّقاء والصَّفاء، ويزيّنُ البيتَ النّبويّ أيضاً بالتّقوى والعفّة، ويرشدُ النّاس إلى سلوكِ الطريقِ السَّليمة لفهم الأمور فهماً سليماً في ضوءِ مرضاة الله عزّ وجلّ، ومرضاة رسول اللهﷺ.

جزعاً شديداً، ولكنَّها لا تملك شيئاً تدفعُ بهِ المرضَ عن وحيدها وحبيبها إبراهيم.

وذات يوم اشتدَّ المرضُ بالصَّغير إبراهيم، وإذ ذاك ذهبَ البراء بنُ أنس زوج مرضعته إلى مسجدِ رسولِ اللهﷺ باسِرَ الوجه، ثقيلَ الخطوات، تكادُ نفسه أنْ تذهبَ شعاعاً، وكان يتلفَّتُ دون أنْ تستقرَّ عيناه على شيءٍ، يحسُّ كأنَّما يحملُ أثقالَ الدُّنيا بأَسْرِها، يتراقصُ على لسانه خبرٌ أليمٌ مفجِعٌ، خبرٌ يَوَدُّ لو يستطيع أنْ يفديَه بنفسِهِ، أو بولده لفعل دون أنْ يتردَّد، أو يتأخر.

ورأى بعينين زائغتين الحبيبَ المصطفىﷺ جالساً في المسجد عند المحرابِ، وعنده سيّدنا عبد الرّحمن بن عَوْف رضي الله عنه، فاشتدّ وجيب قلبه، واضطربت أنفاسه، وشحب لونه، للخبرِ الأليم الذي يحمله، وتقدَّم وهو يترنَّحُ منَ الاضطرابِ حتى إذا ما بلغ رسول اللهﷺ استمسك حتى لا ينهار، ثم قال في صوتٍ تخنقهُ العبرات: يا رسول الله، إنَّ إبراهيم ابن مارية يموت.

وسبقتِ الدموعُ إلى وجنتيه، وأجهش بالبكاء، وأحسَّ رسولُ اللهﷺ أنَّ قلبَه يكادُ أنْ ينصدعَ أسىً على ابنِهِ الحبيب إبراهيم، ونزل بصدرهِ حزنٌ عميق، فلم يستطعْ أنْ يقومَ، فاعتمدَ على يدِ عبدِ الرحمن بنِ عوف حتى نهضَ، ثمّ انطلقَ نحو مشربة أمّ إبراهيم معتمداً على يدِ صديقه منْ شدَّةِ ما بهِ مِنَ الألمِ والحزن.

وطار هذا الخبرُ إلى سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها، خَبَر احتضار أخيها إبراهيم، وأنَّ أباهاﷺ قد ذهبَ إلى بني مازن، فسرى الحزنُ إلى نفسها، وشعرت بغصّة في حلقها، فإبراهيم كان سلوى الحبيب المصطفىﷺ عن إخوته الذين ماتوا: زينب، ورقية، وأمّ كلثوم، والقاسم، وعبد الله؛ إنّها فاجعة تمزّق نياط القلب، وتؤجج في النّفس نيران الأحزان.

ورأت عن كَثَب سيّدنا أنس بن مالك خادم الرَّسول فنادته، وأخبرته الخبر،

والتمست منه أنْ يبلغَ صحابة أبيها، فإذا أسامة بن زيد يعدو إلى مشربة أمّ إبراهيم، وإذا بأبي بكر وعمر وكبار الصّحابة يشتدّون إلى العاليةِ، ومعهم الفضل بن العباس، وقد لاذوا بالصَّمت، وارتسم الأسى على وجوههم، واعتمل الحزنُ في صدورهم، يودُّ كلّ واحد منهم لو يفتدي ابن رسول الله ﷺ بأعزّ أولاده، إنْ لم يكن يفتديهِ بنفسه وماله وأهله.

وبلغ سِيْرِيْن ابنة شمعون أخت مارية وزوج حسّان بن ثابت أنَّ إبراهيمَ ابنِ أختها يجودُ بأنفاسه، فهَرعتْ إلى دارِ أختها، وبين حناياها نارٌ تتأجج في الضُّلوع.

ودخل رسولُ الله ﷺ على مرضعة ابنه إبراهيم، فإذا بها وضعتْ إبراهيم في حجرها، فمالَ رسولُ الله ﷺ على فلذة كبدهِ، ونظر في وجهه الصَّغير، فألفاهُ ذابلاً ذبولَ الموت، فنزلَ به حزنٌ لو نزل على جَبَلٍ لتصدَّع، ثم قَبَّله قبلةً عنوانها: الامتثال لأمْرِ الله عزَّ وجلَّ والرِّضا بقضائِهِ.

وخرجتْ مرضعةُ إبراهيم تحمله بصحبةِ رسول الله ﷺ ومَنْ معه، إلى مشربةِ مارية أمّ إبراهيم، ودخلتِ المرضعةُ على ماريةَ فهَرعت مارية إليها ملهوفة، وأخذت ابنها منها، وقلبها يخفقُ بنيرانِ الحزن، ونظرت مارية في وَجْهِ إبراهيم، فإذا بها تنوء بآلامها، تكاد أنْ تموتَ كَمَداً، فابنها بين ذراعيها يجود بأنفاسه، ولا يقوى عن التَّعبير عما به من الآلام.

وجلست ماريةُ ووضعت إبراهيم في حجرها، وسفحتِ الدَّمْعَ الحزين، وأحسَّ رسولُ الله ﷺ ما تعاني مارية من آلام. فما بها، بعض مَا بِهِ، فأخذه ﷺ ووضعه في حجره الشّريف، وهو ممتثل أشدَّ الامتثال لأوامِرِ العزيزِ الحميدِ.

ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يُرِدْ لإبراهيمَ الحياة، وقدَّر الله ـ وكان أمْره قَدَراً مقدوراً ـ أنْ لا يكونَ رسولُ الله ﷺ أبا أَحَدٍ منَ الرِّجال، كما نصَّ في كتابهِ العزيزِ: ﴿ما كان محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكنْ رسولَ الله وخاتم النّبيين وكان الله بكلّ شيء عليماً﴾ [الأحزاب: ٤٠] فالله عزَّ وجلَّ وحده هو العليم بذلك، وهو الحكيم فلا رادَّ لقضائه وقدره.

وماتَ إبراهيمُ ابن مارية في شهره الثّامن عشر[1]، ـ على رِواية ـ وكانت وفاته يوم الثّلاثاء لعشر ليال خلت من ربيعِ الأول سَنَة عشر من الهجرة النّبويّة المباركة.

مات الزّكي الطّاهر إبراهيم ابن النّبي المصطفىﷺ، نعم، لقد مات؛ . . . يا لها من كلمةٍ موحشة، تقوّض الأماني، وتَعْبَثُ بالآمال، وتَبْعَثُ الآلامَ في النُّفوس.

وأجهشتْ ماريةُ بالبكاءِ، وحزنت حزناً شديداً، وكادت نفسُها تذوبُ، لولا عنايةُ الله عزَّ وجلَّ بها، ولولا ما رأتْ مِنْ رسولِ اللهﷺ منَ الصَّبر والتَّسليم لقضاءِ الخالق البارىء المصّور، إذ شعار المؤمن في هذا الموقف: إنّا لله وإنا إليه راجعون .

يروي جابرُ بنُ عبد الله رضوان الله عليه قصّة تلك اللحظات الحزينة فيقول: ـ كما جاء في «الاستيعاب» ـ:

أخذَ النَّبيُّﷺ بيدِ عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ فأتى النَّخل، فإذا ابنه إبراهيم في حجر أمّه وهو يجودُ بنفسه، فأخذه رسولُ اللهﷺ، فوضعه في حجرهِ، ثم قال: «يا إبراهيم إنّا لا نغني عنكَ منَ الله شيئاً» ثم ذرفتْ عيناه وقال: «يا إبراهيم، لولا أنّه أمْرٌ حقٌّ، ووعد صدقٌ، وأنَّ آخرنا سيلحقُ أوَّلنا لحزنّا عليكَ حُزْناً هو أشدّ مِنْ هذا، وإنّا بكَ يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرَّبّ».

وفي روايةِ الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ عن أنس قال:

لقد رأيتُه ـ أي إبراهيم ـ وهو يكيد[2] بنفسه بين يدي رسول اللهﷺ، فدمعتْ عينا رسولِ اللهﷺ فقال: «تدمعُ العينُ ويحزن القلب ولا نقولُ إلا ما يرضي ربّنا، والله يا إبراهيم إنّا بك لمحزونون»[3].

---

(١) أنساب الأشراف (١/٤٥١).

(٢) يكيد بنفسه: أي يجود بها وهو في النّزع.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفضائل.

وكانت وفاةُ إبراهيم في بني مازن بنِ النَّجار حيث كان يرضع، وتوفي لدى أمّ بردة[1] ابنة المنذر النّجارية. وغسلته[2] الصّحابية أمّ بردة الأنصارية وحُمِلَ من بيتها على سرير صغير، وسارتِ الجنَازةُ إلى البقيع، ورسول اللهﷺ بين العُمَرَيْنِ ـ أبي بكر وعمر ـ والنّاس يذرفون الدّمع حزناً على حُزْن نبيِّ اللهﷺ، الذي قَطَعَ هذا الطَّريق مرّات ومرّات، فإنَّ جنازات بناته الطّاهرات لتعود إلى ذاكرته، وربّما طافت بذهنه ذكرى الطّاهرة خديجة في مكةَ المكرمةِ.

وبلغَ الجثمانُ الطَّاهر البقيع، فصلّى عليه أبوه رسول اللهﷺ، وكبَّر عليه أربعاً وقال: «ندفنه عند فرطنا عثمان بن مظعون» أو قال: «الحقْ بسلفنا الصَّالح وعثمان بن مظعون»[3].

ونزل في قبرهِ الفضل بن العبّاس، وأسامة بن زيد رضي الله عنهم، ورسول اللهﷺ جالس على شفير القبر، ثمَّ رشَّه بماءٍ، وأَعْلَمَ عليهِ علامة.

وقيل: إنَّ رسولَ اللهﷺ أضجعه بيدهِ الشَّريفة في قبره ثمّ سوّى عليه التُّراب ونَدَّاه بالماء[4]. فسلامٌ على إبراهيم، وصلاة وسلام على أَبي إبراهيم محمّد رسول اللهﷺ إمام الصّابرين، وإمام المتّقين.

الصَّابِرَةَ وَوَصِيَّةٌ نَبَوِيَّةٌ:

ماريةُ القبطيةُ واحدةٌ مِنَ النِّساءِ الخالداتِ اللواتي ضربْنَ مَثَلاً شروداً في الصَّبرِ، والتَّسْليم، حيثُ كان فَقْد ابنها إبراهيم أليماً على قلبِها، وتركَ فيه منَ الحزنِ والأسى ما جعلها تشعرُ بألمِ الفراق، ولكنَّ رسولَ اللهﷺ ـ وهو الذي وصفه ربّه بأنّه: ﴿بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ﴾ [التّوبة: ١٢٨] ـ هوَّنَ على ماريةَ فقال

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٥/٤٢٩).

(٢) وقيل: إنّ الذي تولّى غسل إبراهيم ابن رسول اللهﷺ هو الفضل بن العباس رضي الله عنهما.

(٣) عيون الأثر (٢/٣٦٧).

(٤) عيون الأثر (٢/٣٦٧) وأنساب الأشراف (١/٤٥١).

لها مواسياً: «إنَّ له مرضعاً يتمُّ رضَاعه في الجنَّةِ»[1].

وأخرجَ مسلم ـ رحمه الله ـ في الصَّحيح أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ إبراهيمَ ابني، وإنَّه ماتَ في الثَّدي، وإنَّ له لظئرين تكملان رضاعَه في الجنَّةِ»[2].

ومنَ المُصَادفات العجيبة التي حَصَلَتْ يوم موتِ إبراهيم أنْ كُسِفَتِ الشَّمْسُ، فَظَنَّ قومٌ مِنَ المسلمين أنَّ كسوفَها إنَّما كان لموتِ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وقالوا: كُسِفَتِ الشَّمسُ لموتِ إبراهيم.

ولما بلغَ رسولُ الله ﷺ ما قاله النَّاس، نَهَضَ فيهم خطيباً، وصحَّحَ مفهومَهُم الخاطىء، وقال كلمته المشهورة: «إنَّ الشَّمس والقمر آيتان مِنْ آيات الله، لا تخسفان لموت أَحَد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكْرِ الله والصَّلاة»[3].

وفي رواية البخاريِّ: «إنَّ الشَّمسَ والقمرَ لا ينكسفان لموتِ أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلّوا وادعوا الله»[4].

وترامى إلى مَسْمعِ مارية ما ذكره رسول الله ﷺ عن موتِ إبراهيم فصبرتْ واحتسبتْ ذلك عند خالِقها.

وفي مجالِ الوصايا، أكرمَ الحبيبُ المصطفى ﷺ القُبْطَ في حديثه، وأَمَرَ أصحابه أنْ يحسنوا إليهم، وأمرهم أنْ يستوصوا بهم، وذلك كرامةً لمارية، وإكراماً لإبراهيم.

ففي مَعْرِضِ وصاياه ﷺ يقول: «لو عاشَ إبراهيمُ لأعتقتُ أخوالَه، ولوضعتُ الجزية عن كلِّ قبطي».

وأخرج مسلم في صحيحه بسندهِ عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «إذا دخلتم

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٦١٩٥).

(٢) رواه مسلم في الفضائل، وابن ماجه في الجنائز، وانظر عيون الأثر (٢/٣٦٧).

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

(٤) أخرجه البخاري في الكسوف.

مِصْرَ، فاستوصوا بالقبط خيراً، فإنَّ لهم ذمَّةً ورحماً»[1].

وفي رواية أبي ذَرٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّكم ستفتحون مصْرَ، وهي أرضٌ يُسمى فيها القيراط، فإذا فتحتوها فأحسنوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمّة ورحماً»[2].

وهذا الحديث النّبويّ الشّريف علامة من علاماتِ النّبوّة ودلائلها، فقد تنبّأ رسولُ الله ﷺ بفتحِ مصْرَ، قبل أنْ يتمَّ بسنواتٍ، ولما فُتِحَتْ مصرُ على يَدِ عمرو بن العاص[3] رضي الله عنه، حَافَظَ على وصيّةِ رسولِ الله ﷺ، وعاملَ الأقباط في سماحةٍ ومروءة، وبهذا أثمرتْ وصيةُ الرَّسول ﷺ في أهل مِصْرَ.

ومما أورده ياقوت الحمويّ - رحمه الله - في معجم بلدانه، بأنَّ الإمامَ الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما، طلبَ إلى معاويةَ في مفاوضاتِ الصُّلح بينهما، أنْ يرفعَ الخراجَ عنْ أهلِ قرية «حَفن» المصريّة التي يعودُ أصل مارية القبطيّة إليها، وفيها أخوالُ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ[4].

ومما وردَ في الأخبارِ، أنَّ سيّدنا عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه، قَدِمَ مصر بعد فتحها، وسألَ عن قرية حفن، وسأل عن مَوضعِ بيت مارية، ومن ثَمَّ بنى به مسجداً، وفاء لذكراها، وإحياء لسُنّةِ المُصْطَفى ﷺ.

إشَارَةُ القُرآنِ إلى مَارِيَةَ:

لمارية أمّ إبراهيم رضي الله عنها شأنٌ كبيرٌ في أحداثِ السِّيرة النّبويّة، كما لها شَأْنٌ عظيمٌ في الآيات المباركات التي تُتلى في المحاريبِ إلى ما شاء الله.

(١و٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، ومسند أحمد (١٧٤/٥) وطبقات ابن سعد (٢١٤/٨) وغيرها. والرّحم التي قصدها ﷺ، أنَّ هاجر أمّ اسماعيل كانت منهم أيضاً.

(٣) إنَّ سيّدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه لما مَلَكَ مصرَ، أخبرهم بوصيةِ النّبيِّ ﷺ بهم، فقالوا: هذا نسبٌ لا يحفظ حقّه إلا نبيّ، لأنّه نسبٌ بعيد، وذكروا له: إنَّ هاجر كانتِ امرأةً لملكٍ مِنْ ملوكنا، ووقعتْ بيننا وبين أهل عين شمس حروب كانت لهم في بعضها دولة، فقتلوا الملك وسبوها، ومن هناك تسيرتْ إلى أبيكم إبراهيم عليه السّلام.

(٤) انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٣٠٢/٣) مادة حفن.

فقد أنزل الله عزَّ وجلَّ صَدْرَ سورة التّحريم بسببِ مارية القبطيّة هذه، وقد أوردها العُلماء والفُقهاء والمحدثون والمفسِّرون في أحاديثهم وتَصانيفهم.

ففي تفسيره الجامع نَقَل الإمامُ الطّبريُّ ـ رحمه الله ـ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿يا أيها النّبيّ لِمَ تحرِّمُ ما أحلَّ الله لكَ. . . .﴾ إلى قوله: ﴿. . . .وهو العليمُ الخبير﴾ [التّحريم: ١ ـ ٣].

عن ابن عبّاس قال:

كانت حفصةُ وعائشةُ متحابتَيْن، وكانتا زوجتي النّبيّ ﷺ، فذهبتْ حفصةُ إلى بيتِ أبيها، فتحدثتْ عنده، فأرسلَ النّبيُّ ﷺ إلى جاريتهِ ـ مارية ـ فظلَّتْ معه في بيتِ حفصةَ، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة، فرجعتْ حفصةُ، فوجدتْهُما في بيتها، فجعلتْ تنتظرُ خروجَها، وغارت غيرةً شديدة، فأخرجَ رسولُ الله ﷺ جاريته، ودخلتْ حفصةُ فقالت: قد رأيتُ مَنْ كانَ عندك، والله لقد سؤتَني.

فقال النّبيُّ ﷺ: «لأرضينَّك، فإنّي مُسِرٌّ إليك سِرّاً فاحفظيه».

قالت: ما هو؟

قال: «إنّي أشهدُك أنَّ سُرّيتي هذه عليَّ حرامٌ رِضاً لكِ».

وكانتْ حفصةُ وعائشةُ تظاهران على نساءِ النّبيِّ ﷺ، فانطلقتْ حفصةُ إلى عائشة فأسرَّتْ إليها: أنْ أَبْشِري أنَّ النّبيَّ ﷺ قد حرَّم عليه فتاته.

فلما أخبرتْ بِسِرِّ النّبيِّ ﷺ أَظْهَرَ الله عزَّ وجلَّ النّبيَّ ﷺ، فأنزلَ الله على رسولِهِ لما تظاهرتا عليه: ﴿يا أيّها النّبيُّ لِمَ تحرمُ ما أحلَّ الله لك تبتغي مرضاةَ أزواجك﴾ إلى قوله: ﴿وهو العليمُ الحكيم﴾(١) [التحريم: ١ و٢].

وفي هذا إشارة كريمةٌ إلى مكانةِ ماريةَ التي بسببها أنزلَ الله عزَّ وجلَّ آيات

(١) تفسير الطّبريّ (٢٨/١٥٥ ـ ١٥٩) وانظر: تفسير القرطبيّ (١٨/١٧٧ ـ ١٨٦) والتّفسير الكبير للرازيّ (٣٠/٣٧ و٣٨) ومختصر تفسير ابن كثير (٣/٥١٩ ـ ٥٢٢) والدر المنثور للسيوطي (٨/٢١٤ و٢١٥) وأسباب النّزول للواحدي (ص٣٥٧ و٣٥٨) وطبقات ابن سعد (٨/٢١٣ و٢١٤) وانظر: تفسير الماوردي والخازن والبغوي وأبو حيان وأبو السعود والصاوي على الجلالين والكشاف وغيرها لصدر سورة التحريم.

مبيّنات، وفي هذه الآياتِ الباهرة، أحكامٌ عديدة بَسَطَها أهلُ العِلْمِ والمعرفة في كتُبِهم، ذاكرين خلالها فَضْل مارية أمّ إبراهيم رضوان الله عليها، ونزول الذِّكْرِ الحكيم كرامةً لها، وإكراماً للحبيبِ الأعظمﷺ.

هذا وقد توفي رسولُ اللهﷺ وهو راضٍ عن ماريةَ، التي تَشَرَّفَتْ بالبيتِ النّبويِّ الطَّاهرِ، وعُدَّتْ مِنْ أهلِهِ الذين أذهبَ الله عنهم الرِّجس، وطهّرهم تطهيراً، ولقد رأينا مَعَالِمِ تلكَ الطّهارة في حياتها المعطاء رضي الله عنها.

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْت»:

الصِّدِّيق الأكبرُ سيّدنا أبو بكر رضي الله عنه، السَّبَّاق والسَّابقُ إلى كلِّ فضيلة، كان ينفقُ في خلافتهِ على السَّيِّدةِ ماريةَ القبطيّة أمّ إبراهيم بِرّاً بها، وتنفيذاً لوصيّةِ حبيبهِ المصطفىﷺ؛ فكان ينزلها منزلاً كريماً منْ نفسه، ويعرفُ حقَّها، ويحسنُ إليها غايةَ الإحسان، إذ عُرِفَتْ بدينِها وَوَرَعِهَا وصيانتها وعبادتها، فكانت بَعْدَ الرَّسول الكريم تؤنسُ وحدتها بالصَّلاة والذِّكْرِ، وكانت تجدُ في الذِّكْرِ سَلْواها وراحتها، وكذلك المؤمنونالذينوصفهم الله بقوله: ﴿الذين آمنوا وتطمئنُ قلوبهم بذكْرِ الله ألَا بذكرِ الله تطمئنُ القلوب﴾ [الرَّعد: ٢٨].

وظلَّتْ عنايةُ الصِّدِّيق ورعايته تحفُّ ماريةَ حتى توفي رضي الله عنه، وجاء عمرُ الفاروق، فَسَلَكَ السُّلوكَ نَفْسَه الذي سلكه سيّدنا أبو بكر الصِّدِّيق، وكان ينفقُ عليها، ويرعى شؤونها.

وظلَّتْ ماريةُ رضي الله عنها تعيشُ في ظلالِ الخلافة الرَّاشدة قرابةَ خمس سنين، ولما كان المحرّمُ مِنَ السَّنَةِ السَّادسة عشرة(١) من الهجرةِ الميمونةِ، شَعَرتْ ماريةُ بالمرضِ، وأحسَّتْ بقربِ اللقاء مَعَ الله، ودنوِّ الأجل، ولم تمضِ أيامٌ قلائل حتى صَعدَتْ روحها إلى بارئها راضيةً مرضية، وهي تشهدُ أَن لا إله إلا الله محمّد رسول الله.

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/٢١٦) والمعرفة والتاريخ (٣/٣٠٥) والمواهب اللدنية (٢/١٠١).

ونادى منادٍ في المدينةِ المنوَّرة، أنْ توفيتْ ماريةُ أمّ إبراهم، ورُؤي سيّدنا عمر بنُ الخطّاب عليه سحابات الرضوان وهو يدعو النّاسَ ويجمعهم لشهودِ الصَّلاة عليها[1].

وفي البقيعِ اجتمعَ عدد كبيرٌ منَ الصَّحابةِ الكرام منَ المهاجرين والأنصار، كي يشهدوا جنازة مارية القبطية، وصلّى عليها سيّدنا عمر رضي الله عنها، ودفنها بالبقيعِ[2] في المدينة المنوّرة إلى جانبِ نساء أهلِ البيتِ النّبويِّ، وإلى جانبِ ابنها إبراهيم ابن رسول الله ﷺ.

وتركت ماريةُ بنتُ شمعونُ وراءها ذِكْراً عَطِراً، وسيرة حَسَنَةً تشهدُ بمحاسنِ فضائلها وفضائل محاسنها، نعم لقد تركت مارية سيرةً كريمةً تصلح أنْ تكونَ بهجةَ المجالسِ وأُنْسَ المُجَالِسِ، تُعَطّرُ بها الأسماعُ، وتقتدي بها النِّساء، كلّ النساء، في كلِّ العصور والأزمان.

وقبل أنْ نقولُ وداعاً أمّ إبراهيم، تعالوا نتلو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿. . . . . . وبشّرِ المُخْبِتِينَ. الذين إذا ذُكِرَ الله وجَلتْ قلوبُهم والصَّابرين على ما أصابهم والمقيمي الصَّلاة وممّا رزقناهم ينفقون﴾ [الحج: ٣٤ و٣٥].

وبعد: رضي الله عن ماريةَ أمّ إبراهيم، وأكرمها برحمتِهِ، وجعلها مع الذين أنْعمَ عليهم، إنَّه نِعْمَ المولى ونعْمَ النَّصير. . .

---

(١) أسد الغابة (٦/٢٦١) وطبقات ابن سعد (٨/٢١٦) والفصول (ص٢٥٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/٢١٦) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص١٦٣).

سرية النبي

ريحانة بنت زيد

رضي الله عنها

- دخلت البيتَ النَّبويَّ سنة ستٍ من الهجرة، فاتخذها النَّبيّ ﷺ سُرِّية له.
- كانت ذات مكانةٍ في قومها، وعُرِفَتْ بكمالِ عقلها، وسلامة رأيها.
- قال النَّبيُّ ﷺ لريحانة: «إن اخترتِ الله ورسوله اختارك رسولُ الله لنفسه» فقالت: إنّي أختارُ الله ورسوله.
- كان شعارها قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾.
- توفيت بعد رجوعِ النَّبيّ ﷺ من حجّة الوداع ودُفِنَت بالبقيعِ في المدينة.

سرّية النبي

ريحانة بنت زيد رضي الله عنها

إلى رِحَابِ البَيْتِ النَّبوِيّ:

هَزَمَ الله عزَّ وجلَّ الأحزابَ وَحْدَه بعد أنْ زاغتْ أبصارُ المؤمنين، وبلغتِ القلوبُ الحناجِرَ، وظنّوا بالله الظُّنون، وانهارتْ آمالُ الأحزابِ في استئصالِ المسلمين، ورجعَ الرَّسولُ الكريمﷺ منَ الخندقِ بعد حصارٍ شديد دامَ خمس عشرة ليلة، ابتليَ فيه المؤمنون الصَّابرون، وزُلزلوا زِلزالاً شديداً.

وبلغَ رسولُ اللهﷺ المدينة وقْتَ الظُّهر، فصلى بالنَّاس صلاة الظُّهْر، ثمَّ دخل بيت عائشة، ودعا بماءٍ فاغتسل، وقد وَضَعَ السِّلاح، فإذا جبريلُ ـ عليه السَّلام ـ يقول له:

أوقد وضعتَ السِّلاح يا رسول الله؟!

قالﷺ: «نعم».

قال جبريل: ما وضعتُ السِّلاح..

وكيف يضعُ جبريل السِّلاح، وهناك بنو قريظة الذين خانوا الله ورسوله، ونقضوا العَهْدَ أثناء المعركة ولولا فضلُ الله عزَّ وجلَّ ورحمته لقُضيَ على الإسلام وعلى المسلمين؟! ثمّ إنَّ جبريل ـ عليه السَّلام ـ قال: إنَّ الله يأمرك يا محمّد بالمسيرِ إلى بني قريظة، فإنِّي عامدٌ إليهم فمزلزل بهم الحصون.

وأَمَرَﷺ بلالاً أنْ يؤذِّنَ في النَّاس: «مَنْ كانَ سامعاً مطيعاً فلا يُصَلِّينَّ العَصْرَ إلا في بني قُريظة» وأرادَ الرَّسولُ الكريمُ بهذا الحثّ على الإسراعِ للمسير إلى يهود بني قريظة.

وانطلق المسلمون حتى حاصروا بني قريظة، ومرتِ الأيام، ويهودُ بني قريظة في الحصونِ؛ واستمرَّ المسلمون في حصارِ القرظيين الذين ألقى الله في قلوبهم الرُّعب، وقد ملأتْ جريمتَهم نفوسَهم، لأنَّهم خانوا رسولَ اللهﷺ والذين معه، وظاهروا عليهم الأحزاب، والمشركين.

لم يبقَ لبني قريظةَ أمام حصارِ المسلمين لهم إلا أنْ يشهدوا شَهادة الإسلام، ويؤمنوا بالرِّسالة النّبويّة، أو يموتوا جُوعاً أو كمداً.

وطلب بنو قريظة بعد ذلك أنْ ينزلوا على حكْمِ رسول اللهﷺ، فنزلوا على حكمه، فأَمَرَ بهم فكتِّفُوا، وجعلوا ناحية، وكانوا سبعمئة وخمسين مقاتلاً، وأخرج النِّساء والذَّراري مِنَ الحُصُونِ، وجعلوا ناحية وكانوا ألفاً.

أحبَّ بنو قريظة أنْ ينزلوا على حكْمِ حليفهم سعد بن معاذ[1] الأشهليّ ـ وكان سعد قد أُصِيْبَ يوم الخندق بسهم ـ فقالﷺ: «اجعلوه في خيمةِ رُفَيْدة حتى أعودَه عن قُرب».

وجاء الوقتُ الذي حُدِّدَ للاستماعِ إلى حكْم سعد ابن معاذ، ذلك الرَّجل لا تأخذه في الله لومةَ لائم، وأخذ العهد على بني قريظة أنَّ الحُكْمَ ما حَكَمَ به، فأجابوه: نعم.

فقال سعدُ: فإنّي أحكمُ فيهم أنْ تُقْتَلَ الرِّجالُ، وتغنم الأموال، وتُسبى الذَّراري والنِّساء، وتكون الدِّيار للمهاجرين دون الأنصار.

فقال رسولُ اللهﷺ لسعد: «لقد حكمتَ فيهم بحكمِ الله مِنْ فوقِ سَبْعِ سماوات»[2]

وأَمَرَ النَّبيُّﷺ أنْ يُجمعَ ما وُجِدَ في حصونهم من السِّلاح، وغير ذلك، ثم عاد إلى المدينةِ، وانطلق أسرى بني قريظة والأغلال في أعناقهم والسَّلاسل

---

(١) اقرأ سيرة الصحابي الجليل سعد بن معاذ في كتابنا «رجال مبشّرون بالجنة» (١/ ٩١ ـ ١٣٤) فسيرته فضائل في فضائل في فضائل.

(٢) رجال مبشرون بالجنة (١/ ١٢٤ و١٢٥) بشيء من التصرف.

يسحبون، وقد نكسوا رؤوسهم خزياً، وحُبِسَ الأسارى في دارِ أسامة بن زيد، ووضع النِّساء والذُّرية في دارِ بنت الحارث.

نُفِّذَ الحكمُ ببني قريظة، وقُضي الأمْر، ثم أَمَرَ رسولُ اللهﷺ بالغنائم، فجُمِعَت، وكان مِنْ نصيبه امرأة دخلت إلى البيت النّبويّ، لتكون واحدة من نسائه اللاتي صَنَعْنَ التَّاريخ، وصاغتهن عنايةُ البيت النّبويّ، فكُنَّ القدوة في الفضيلةِ، وفي كلِّ مكرمة.

ريحانة(1) بنت زيد بن عمرو من بني النّضير، هي التي حظيتْ بدخولِ البيت النّبويّ، فانتظمتْ في عداده، ولكن كيف تخلّت عن يهوديتها، وانضوت تحت نور دعوةِ الإسلام؟!

هذا ما ستكشفه الصَّفحات التَّالية إنْ شاء الله.

البُشْرى بإسْلامِ رَيْحَانَةَ:

ذكر البلاذريُّ ـ رحمه الله ـ في كتابهِ «أَنْساب الأشْراف» بسندهِ عن عبد الله بن أبي بكْرٍ قال:

---

(1) طبقات ابن سعد (٨/١٢٩ ـ ١٣١) والاستيعاب (٤/٣٠٢ و٣٠٣) والإصابة (٤/٣٠٢ و٣٠٣) وأسد الغابة (٦/١٢٠ و١٢١) ترجمة رقم (٦٩٣٤) والسّمط الثمين (ص١٦٨ ـ ١٧١) وأزواج النّبي للصّالحي (ص٢٣١ ـ ٢٣٣) وزاد المعاد (١/١١٣) وأنساب الأشراف (١/٤٤٣ و٤٥٣ و٤٥٤ و٥١٥) والمحبر (ص٩٣ و٩٤) والمجتبى (ص٤٣) والكامل (٢/٣١١) وتاريخ الطبري (٢/٢١٤ و٢١٦) والسيرة النّبويّة (٢/٢٤٥) وعيونُ الاثر (٢/٣٨٤) ودلائل النّبوة للبيهقيّ (٤/٢٤ و٢٥) ومختصر تاريخ دمشق (٢/٢٧٣ و٢٩١) وتلقيح فهوم الأثر (ص٢٣ و٢٨) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٣١٨) والفصول لابن كثير (ص٥٣) والبداية والنّهاية (٤/١٢٦) و(٥/٣٠٨) والسّيرة الحلبية (٣/٣١٣ و٤١٤) والمغازي للواقدي (٢/٥٢٠ و٥٢١) وأزواج النّبي لأبي عُبيدة (ص٨٢) والسِّير والمغازي (ص٢٧٠) وأعلام النِّساء (١/٤٧٤) ونور الأبصار (ص٤٩) وتاريخ الإسلام (السّيرة النّبوية ص٥٩٧ و٥٩٨) والمواهب اللدنية (٢/١٠١) والمعرفة والتّاريخ للبسويّ (٣/٢٦٩) وتفسير القُرطبي (١٤/١١٦) وغير ذلك من كتُب المصادر المتنوعة..

كان لرسولِ اللهﷺ صَفِيٌّ منَ المغنم، حضر رسولُ اللهﷺ أو غابَ، قبل الخمْسِ، عَبْد أو أَمَة، أو سَيْف أو درْع، فأخذ يومَ بَدْر ذا الفقار، ويوم بني قينقاع درعاً، وفي غزاة ذات الرّقاع جارية، وفي غزاة المُريسيع عبداً أسود يُقال له رَبَاح، ويوم بني قُريظة ريحانة بنت زيد، ويوم خيبر صفيّة بنت حيي، وفي يوم حُنين فرساً أشقرَ[1].

كانت ريحانةُ متزوِّجة رجلاً من بني قريظة يُقال له: الحَكَم[2]، وذكر أهل العِلْم أنَّ ريحانَة كانت تعيشُ حياةً هنية مع زوجها، وكان زوجُها مُحبّاً لها يكرمها ويحسنُ إليها.

والذي يبدو من أخبارِ ريحانة أنّها كانتِ امرأة قد رُزقتْ حظّاً مِنَ الجمال، وكانت تحظى بمكانةٍ رفيعةٍ في قومها، كما كانت معروفة بكمالِ عقلها، وحسن تدبرها للأمور، فلمّا وقعَ السَّبي على بني قريظة سَبَاها رسولُ اللهﷺ، ولكنَّ ريحانةَ - بعد السَّبي[3] - أبتِ الإسلامِ، فعزلها رسولُ اللهﷺ، وَوَجَدَ في نفسه لذلك، وبينما هو في مجلسِ أصحابه، إذ سمع وَقْعَ نعلين خَلْفَه، فأخبر أصحابه أنْ قد جاء مَنْ يبشّره بإسلام ريحانة.

---

(١) أنساب الأشراف (١/٤٤٣) و(١/٥١٥).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/١٢٩) وأنساب الأشراف (١/٤٥٣).

(٣) من أحكامِ الإسلام في السَّبي: إباحة المسبيّات المملوكات بسبب السَّبي في الجهاد، أو بسبب الشّراء، لأنَّ الشّراءَ يؤدي إلى فسخ زواجهن السّابق، ما دام أزواجهن كفاراً في ديار الحرب.

ولا بدّ من استبراء المسبية بوضعِ الحمل إن كانت حاملاً، وبحيضة إنْ كانت حائلاً غير حامل؛ قال الحسنُ البصريّ - رحمه الله -: كان أصحابُ رسول اللهﷺ يستبرئون المسبية بحيضة.

روى أبو داود وصححه الحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه حديثاً في سبايا أوطاس: «لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة».

هذا وإنّ العلماء كافة قد رأوا استبراء المسبية بحيضة واحدة، سواء أكانت ذات زوج أم لا زوج لها».

فقد جاء عند ابن سعد ـ رحمه الله ـ في طبقاته أنَّه لما سبى رسول الله ﷺ ريحانة، عَرَض عليها الإسلام، فأبتْ وقالت: أنا على دِين قومي.

فقال رسولُ الله ﷺ «إنْ أسلمتِ اختارك رسولُ الله لنفسه». فأبتْ، فشقَّ ذلك على رسولِ الله ﷺ، فبينا رسولُ الله جالس في أصحابه إذ سمع خَفْق نعلين فقال: «هذا ابنُ سعية يبشّرني بإسلام ريحانة» فجاءه فأخبره أنّها قد أسلمت[1].

وسُرَّ رسولُ الله ﷺ لإسلامِ ريحانة[2]، كما سُرَّ أيضاً لخروجها منْ ظلماتِ الكفْرِ إلى نورِ الإيمان.

إنّي أَخْتَارُ الله وَرَسُولَه:

هذهِ المرأةُ واحدة منْ نساءٍ كُتبت لهن أسباب السَّعادة، فكانت منَ الخالدات، ومن المتوقَّع أنَّ ريحانةَ قبل أنْ تَقعَ في السَّبيِّ، كانت قد سمعتْ كثيراً عن نبيِّ الإسلام، وسمعت كثيراً عن أصحابهِ الكرام، وعرفت وفاءَ رسول الله ﷺ، ولمست غَدْرَ قومها أكثر منْ مرّة، كما لَمستْ غدر[3] يهود المدينة منذ قدوم

(١) طبقات ابن سعد (١٣١/٨) وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٢٩١/٢) والبداية والنهاية (٣٠٥/٥) ودلائل النبوة للبيهقي (٢٤/٤ و٢٥) وأسد الغابة (١٢١/٦) وغير ذلك من المصادر المتعددة في مختلف فنون العلم.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٣١٨).

(٣) لعلَّ أسوأ الخصال المذمومة الغدر والبغي والخيانة، ولقد كان هؤلاء اليهود الذين طُويت نفوسهم على أقبح الغدر، يَسْعَوْن جاهدين ليطفئوا نورَ الله بأفواههم وأعمالهم وبكلّ ما استطاعوا إليه سبيلا، ولكنّ عنايةَ الله بالمؤمنين كانت تحفظهم من كيدهم وغدرهم.

وكم أوقع القدر في المهالك مَنْ غَدَرَ وفَجَرَ وخانَ، وطوَّقه غدره، وأحاطَ به خزيه، فهو على فَكّهِ غير قادر، كما وقع لهؤلاء الأخابث؛ يهود قريظة الذين أوقعهم غدرهم في ورطة لاقوا خلالها حتفهم، حتى إنَّ حليفَهم سيدنا سَعْد بن معاذ حكمَ عليهم بذلك الحكم الكريم الذي ارتضاه رسول الله ﷺ والمسلمون.

وما ذمّ رسول الله ﷺ شيئاً كما ذمّ الكذب والغدر والبغي، فقد قال ﷺ: «أعجل الأشياء عقوبة البغي» وقال: «المكر والخديعة والخيانة في النار» ومن أقوال الصِّديق أبي بكر: ثلاث مَنْ كنّ فيه كن عليه: البغي، والنكث، والمكر.

النَّبيِّ ﷺ مهاجراً إليها، ولاحظتْ الحقْدَ الدَّفين الذي توضَّع في نفوسهم المريضة، والذي حَمَلَهم على نكْثِ العهود، ونَقْضِ المواثيق، وغدر نبيِّ الاسلام، وغدر أصحابه الكرام.

لهذا كلّه، فقد وَقَرَ في نَفْسِ ريحانة أنَّ الإسلام دِينُ حقٍّ، ودِيْنُ وفاءٍ وعَدْل، وأنَّ محمّد بن عبد الله رسولُ الله، وهُوَ هُوَ النَّبيّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في كُتُبهم، ولكنّها لم تفكرْ في يومٍ من الأيام، أنّها ستغدو في عداد المسلماتِ المؤمنات.

أورد أصحابُ الأخبار أنَّ ريحانةَ بنتَ زيدٍ كانت ممّا أفاء الله على رسوله، وكانتِ امرأةَ جميلةً وسيمةً، وفي غزاةِ قريظة قُتِل زوجُها مع مَنْ قُتِلَ مِنْ يهودِ قريظة، ووقعتْ ريحانةُ في السَّبيِّ، فكانت صَفِيّ رسولِ الله ﷺ يومذاك، فأَمَر بها فعُزِلت حتى انتهى مِنْ تقسيمِ الغنائم.

ولما عُزلت ريحانة شعرتْ بطمأنينة تتوضع وتستقرُّ في أعماقِ قلبها، وكان الله عزَّ وجلَّ قد خَارَ لها الخير كلّه، ثم إنَّ رسولَ الله ﷺ أرسلَ بها إلى منزل الصَّحابية الجليلة أمِّ المنذر سلمى بنت قيس الأنصارية[1]، ومكثت ريحانة في بيت أمِّ المنذر أيّاماً حتى انتهى رسولُ الله ﷺ من بني قريظة، وفرّق السَّبي، ثم جاء أمَّ المنذر، ودخل على ريحانةَ، فتوارت حياءً منه ﷺ، واستحيتْ حياءً شديداً، ولكنَّ رسولَ الله ﷺ دعاها، فأتتْ على استحياءٍ، وجلستْ بين يديه، وكلّمها كلاماً لطيفاً، وبيَّنَ لها محاسن الإسلام، ومن ثمَّ قال: «إن اخترتِ الله ورسوله، اختاركِ رسولُ الله لنفسهِ»؟!

وأيّ سعادة أعظم لريحانةَ من هذا؟ إنّها لا تكاد تصدِّقُ نفسها ما تسمعه ـ الآن ـ منْ رسول الله ﷺ، ولكنَّ سعادتَها كانت تصاحِبُها منذ أنْ سُبيت، وإذ ذاك قالت ـ بعد أنْ كُشِفَتْ لها أنوارُ اليقين وحقيقة الخلود ـ: إنِّي أختار الله ورسوله.

---

(١) اقرأ سيرة الصَّحابية الجليلة أمّ المنذر بنت قيس الأنصارية في كتابنا: «نساء مبشّرات بالجنة» (٢/١١٣ ـ ١٣٢) فسيرتها مختومة برحيق الإيمان رضي الله عنها.

ثم نطقت ريحانة بالشّهادتين، وأسلمتْ، وبعد ذلك أعرسَ بها رسولُ الله ﷺ في بيت أمِّ المنذر في المحرم سنة ستٍ من الهجرة النّبوية، وحظيت بالمكانةِ النّبيلة عندَ رسولِ الله ﷺ، وكان معجباً بها، لا تسأله شيئاً إلا أعطاها[1].

ومنذ ذلك اليوم البهيج الذي دخلتْ فيه ريحانةُ في الإسلام، نَظمت في عدادِ نساء أهل البيت الطّاهر.

رَيْحَانَةُ وَخِيَارٌ مُوَفَّقٌ:

عندما رحتُ أبحثُ في سيرةِ ريحانة بنت زيد رضي الله عنها، وقفت طويلاً أمام مسألة مفادُها:

هل كانت ريحانةُ منْ أمّهات المؤمنين، وهل انتظمت في عِقْدهن، أمْ هي سُرِّية منْ سَرَاري رسولِ الله ﷺ؟!

والحقيقةُ، فقد وجدتُني أمامَ فريقين منَ العلماء:

فريق يزعمُ أنّها مِنْ نساء[2] النّبي ﷺ.

وفريق يزعم أنَّها سرّية[3] منْ سراري النّبيّ ﷺ.

والذي تميلُ إليه النَّفس أنَّها سرّيةُ الرَّسول ﷺ، ويبدو أنَّ ريحانةَ نفسها قد طلبت أنْ تكونَ ذلك، فقد ورد أنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ خَيَّرَها في هذا، وسألها عمّا تحبُّه وقال: «إنْ أحببتِ أنْ أعتقَكِ وأتزوَّجك فعلتُ، وإنْ أحببتِ أنْ تكوني في ملْكي فَعَلْتُ».

---

(١) عن طبقات ابن سعد (١٢٩/٨ و١٣٠) والإصابة (٣٠٢/٤ و٣٠٣) مع الجمع والتصرف. وانظر: مختصرنا تاريخ دمشق (٢٩٢/٢).

(٢) انظر: مثلاً: طبقات ابن سعد (١٢٩/٨ و١٣٠) والمغازي (٥٢١/٢) والإصابة (٤٠٢/٤) والسيرة الحلبية (٤١٣/٣ و٤١٤) وعيون الأثر (٢٨٤/٢).

(٣) انظر: السّيرة النّبوية (٣٠٨/٢ و٣٠٩) وأزواج النّبي للصّالحي (ص٢٣٢) والمحبر (ص٩٤) والاستيعاب (٣٠٢/٤) وغيرها من المصادر.

فقالت: يا رسول الله أكونُ في مِلْكِكَ أخفّ عليّ وعليك؛ فكانت في مِلْكِ رسولِ الله ﷺ[1].

ومّما يزيدُ النّفس طمأنينة ما أوردهُ البلاذريُّ ـ رحمه الله ـ في أنسابه، بسندٍ عن ابنِ سيرين ـ رحمه الله ـ أنَّ رجلاً لقي ريحانة بالموسم ـ بالحجّ ـ فقال لها: إنَّ الله لم يرْضَكِ للمؤمنين أُمّاً.

فقالت: وأنتَ فلمْ يرضك الله لي ابناً[2].

وهذه الإجابة منْ ريحانةَ رضوان الله عليها تُعْتَبرُ منْ بدائعِ البدائه، ومن الأجوبةِ المسكتة التي تشيرُ إلى عقلها الكبير، وإلى حَصَافة رأيّها وتفكيرها؛ ويشيرُ من ناحية أخرى إلى أنَّ ريحانةَ ظلَّتْ مِلْكَ اليمين، ويعزّزُ هذا ما أورده البلاذريُّ أيضاً بسنده عن الإمام الزّهريّ ـ رحمه الله ـ أنّه كان للنّبيّ ﷺ سُرِّيتان: مارية القبطيّة، وريحانة[3].

ومما يزيدنا ثقة بأنَّ ريحانةَ منْ سَراري رسول الله ﷺ، ما نظمه العلماء في أزواج النّبيّ ﷺ اللواتي توفيَ عنهن ـ أو توفين في حياته ـ ولم يذكروا ريحانةَ أو مارية رضي الله عنهن جميعاً فقال أحدهم:

توفي رسولُ الله عن تسْعِ نسوةٍ ... إليهنّ تُعزى المكرماتُ وتنسبُ
فعائشة ميمونة وصفيّة ... وحفصةُ تتلوهُنَّ هندٌ وزينبُ
جويريةٌ مع رمْلة ثم سَوْدة ... ثلاثٌ وستَ ذِكْرهنَّ مهذَّبُ

«رَوحٌ وَرَيْحَانٌ»

نَعِمَتْ ريحانةُ رضي الله عنها بضْع سنين في ظلالِ البيت النّبويّ الطّاهر، ورأت في خلالِ حياتها مع رسولِ الله ﷺ الشّرف والكرامة والرفعة والنّمو

---

(١) انظر: السمط الثمين (ص١٧٠) ومختصر تاريخ دمشق (٢/٢٩٢) والبداية والنهاية (٥/٣٠٥).

(٢) أنساب الأشراف (١/٤٥٣).

(٣) المصدر السابق (١/٤٥٤).

الرّوحي، ونورَ الله الذي أضاء نفسها، فأحالها إلى امرأةٍ سعيدة بما أفاء الله عليها منْ نِعَمٍ كثيرةٍ ظاهرة وباطنة، ورأس هذه النِّعم الإيمان بالله، والحياة مع الرَّسول محمّدﷺ، وأدركتْ ضَلال اليهود وإضلالهم، وما كانوا يعيشونَ في جحيم الباطل.

في بيتِ الحبيبِ الأعظم محمّدﷺ، أضحتْ ريحانةُ تشعرُ بلذّةِ الهدى والهداية، وأضحت ذات جوهر فريد، يتألق بأنوارِ اليقين، بعد أنِ اعتنقتِ الإسلامَ، ومن ثمَّ أضحى شعارها: الحمد لله ربِّ العالمين.

لم تكن حياةُ ريحانة طويلة في رحاب البيتِ النّبويِّ الطّاهرِ، وإنّما لقيتْ وَجْهَ ربِّها في حياةِ النّبيِّﷺ، وماتت عندما رجعَ من حجّةِ الوَدَاع في السَّنَةِ العاشرة من الهجرة[1]، ودفنهاﷺ في البقيع[2] إلى جوار السَّلف الصَّالح، وإلى جوار نساءِ أهل البيت الطّاهر.

وبهذا تنتهي حياة هذه المرأة التي سَعِدت ونعمت بالإسلامِ، وسعدتْ بالدُّخول إلى رحاب البيت النّبويّ، فكانت من الخالدات، ومنَ النِّساء اللاتي لهنَّ في تاريخ الإسلام نصيب.

رضي الله عنْ ريحانةَ، وأكرمها بالرّوح والريحان، ورضي الله عن أهلِ البيت النّبويّ جميعاً، وأكرمنا بحبِّهم وحشرنا معهم، وجعلنا منْ رفقائهم، وحُسَنَ أولئك رفيقا.

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ١٣٠) وأزواج النبي للصالحي (ص٢٣٢) والاستيعاب (٤/ ٣٠٣) ومختصر تاريخ الإسلام للذهبي (السيرة النبوية ص٥٩٨) وأسد الغابة (٦/ ١٢٠).

(٢) تلقيح فهوم الأثر (ص٢٣) والمواهب اللدنية (٢/ ١٠١).

زينب بنت رسول الله

رضي الله عنها

- كُبْرى بنات خديجة، وأُولى حبَّات العِقْد النَّفيس في البيت النّبويّ الطَّاهر.
- عاشت زينبُ بين أكرمِ أبوَيْن في الدُّنيا.
- تزوجها أبو العَاص بن الربيع وقد أثنى عليه النَّبيّ ﷺ خيراً.
- كان لزينب قلادة، وكان لها كبير الأَثَر في حياتها، وفي حياة النَّبيِّ ﷺ.
- توفيت زينب في السَّنَة الثَّامنة من الهجرة ودُفنت بالبقيع.

زينب بنت رسول الله رضي الله عنها

أُوْلَى حَبَّاتِ العِقْدِ الفَرِيْدِ:

كان البيتُ النَّبويُّ غارقاً في الصَّمتِ، فمحمّدٌ ﷺ في غرفتِهِ موصولُ القَلْبِ بخالقِ الكونِ، يناجي ربَّه؛ يذكُرُهُ ويوحِّدُه، بينما كانت زوجه الطّاهرة خديجة بنت خويلد في سرور روحيٍّ فيّاض، فهي ترى بعينِ بصيرتها، أنَّ أَنْوَاراً تفيضُ مِنْ دَارِها ـ قرب البيت العتيق ـ كأنّما تنسكبُ مِنَ الأفقِ العُلْويّ؛ ترى أنواراً تتألَّقُ في الليلِ، وفي النَّهار، وصارت تشمُّ روائح زكية يفوقُ أريجها العَطِر، كلَّ طِيْبٍ وعطر معطار، تلك الرَّوائح عبير تنعش الرّوح، وتنزل بالنَّفْس نشوةً صافية سرمديّة تشرح الصُّدور، وتملأ الجوانحَ بالرّحمة والدِّفء.

كانت خديجةُ تحسُّ أنَّ شيئاً نورانياً مثيراً ينفثُ في روعها، بأنَّها مقبلةٌ على أيّام مباركة، وأنَّ أنوارَ اليقينِ تشرقُ في نفسها، فتبدِّدُ كلَّ ما يربطها بالدُّنيا، حتى لتكاد ترى أنَّ حقائقَ ميمونة تنكشفُ لها.

كانت تنعم بمشاعرَ نبيلةٍ كلّها روحانية، فتلهجُ بالثَّناء على الله تعالى، أنْ خصَّها برحمةٍ منه ولطفٍ خفي تشعر به هي وحدها، إذ مَنَّ عليها بزوجٍ كريم هو محمّد بن عبد الله ﷺ.

كان رسولُ الله ﷺ في ريعان الشَّباب، وقد خصَّه سبحانه بكلِّ مكرمة، واختصَّه برحمته وفضله، فكان يغرسُ في نَفْسِ زوجه خديجة حبَّ الفضائل[1]،

(١) وقد امتدحه ﷺ أحد الفضلاء بقوله:

رؤوف عطوف أوسع الناس رحمة ... وجادت عليهم بالنوال غمائمه =

وعلَّمها أنْ تكونَ حركاتُها وسَكَناتُها لله عزَّ وجلَّ، لا تريدُ بذلك إلا وَجْهَه الكريم، فقادها بذلك إلى ينبوعِ السَّعادة الحقيقية، وإلى نَبْعِ الصَّفَاء، بالقربِ من الله عزَّ وجلَّ، وتعريضِ قلبها لنفحاتِ رحمته.

لقد مضت بضعة شهور وخديجة في كَنَفِ محمّدﷺ، تبدَّلتْ فيها نظرتُها إلى الحياة، وإلى الكونِ، وذاقت حلاوةَ رفرفةِ الرُّوح في ملكوتِ الله عزَّ وجلَّ، وأشرقتْ في نفسها أنوارُ المعرفةِ الحقَّةِ، فتذوَّقَتْ نعيمَ المعارفِ، وغَدَتْ تنظرُ بنورِ الله عزَّ وجلَّ.

وها هي الأيامُ تمضي، فإذا بِحَدَثٍ سعيد يجدِّدُ السُّرور في نَفْسِ خديجة، فانبسطت أساريرُهَا، فأفضتْ إلى زوجها بِسِرِّها. إنَّها حاملٌ، وإنْ هيَ إلا أيّامٌ وشهورٌ حتى تضع ما في بطنِها.

كانت خديجةُ رضي الله عنها تهتزُّ طرباً لهذا الحدثِ السَّعيد، فمحمّدﷺ رجلٌ فريد لا كالرِّجال، وأبٌ فريد لا كالآباء، وأخلصتْ في دعائها إلى ربِّها أنْ يرزقَها الذُّريّة الصَّالحة، كيما تتحقَّق سعادتها كاملة بأمومةٍ منْ أبي القاسم الأمين في قريش، وهل هناك سعادة تفوقُ هذه السَّعادة؟!

أمَّا الحبيبُ محمّدﷺ، فقد عَرَفَ السُّرور طريقه إلى قلبه الشَّريف، فقد نشأَ وحيداً يتيماً، لم يذقْ حلاوةَ حنان الأُبوةِ، ولا طَعْمَ قرابة الأخوة، لكنَّهﷺ ذاقَ وتذوَّقَ طَعْمَ الاستبشار بالأُنْسِ بخالقه ومولاه.

إنَّ سيّدنا وحبيبنا محمّداًﷺ بَشَرٌ مثلنا يتأثّر بما يتأثّر به النّاس، وهل هناك فرحة أعظم لرجلٍ مثله مِنْ أنْ يكونَ له ذريّة؟ لقد كان سرورُه عظيماً بالنّبأ السَّعيد الذي زفَّته زوجه الطّاهرة خديجة، سيكون أباً في الأيام المقبلة.

وتمضي الأيامُ، والحبيبُ المصطفىﷺ يغمرُ زوجه الطَّاهرة بعطفه، ويرعى سيّدة نساء قريش، ـ بل سيّدة الدُّنيا بأسرها ـ رعاية الزَّوجِ والأخِ والأبِ، إلى أنْ

له الحسن والإحسان في كل مذهب	فـآثـاره محبـوبـة. . . ومعـالمـه
بـه ختـم الله النـبيـين كـلهـم	وكـل فعـال صـالـح فهـو خـاتمـه

وضَعَتْ خديجةُ طفلةً جميلةً، أَضْفَتْ على البيتِ جمالاً وأُنْسَاً وَطِيْباً، فشكرَ الزَّوْجَان الله على ما آتاهما، وسمّاها رسولُ الله ﷺ زينب، وستكون زينب جوهرة فريدة منْ جواهر العِقْد الفَريد في نساء أهل البيت الأطهّار الأَخْيار.

قال أبو عمر القُرطبيّ ـ رحمه الله ـ: كانت زينبُ أكبرَ بناته ﷺ..

ومع زينبَ بنتِ سيّد ولد آدم محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشيّة الهاشميّة(١)، ستكونُ رحلتنا مِعْطَاءَ مِعْطَارَ ـ بإذن الله ـ في هذه الصَّفحات.

الصِّهْرُ الكَرِيْمُ:

كانتِ الأيّامُ تمضي وزينبُ بنت رسول الله ﷺ تكبرُ، وكانت تَجِدُ الرِّعاية

---

(١) طبقاتُ ابن سعد (٨/ ٣٠ ـ ٣٦) والمعارفُ (ص٧٢ و١٢٧ و١٤٠ و١٤١ و١٤٢) والمعرفةُ والتّاريخ (٣/ ٢٧٠) والمستدرك (٤/ ٤٢ ـ ٤٦) والاستيعابُ (٤/ ٣٠٤ و٣٠٥) وأُسُدُ الغابة (٦/ ١٣٠ و١٣١) ترجمة رقم (٦٩٥٦) والعبر (١/ ١٠) ومجمع الزّوائد (٩/ ٢١٢ ـ ٢١٦) والإصابة (٤/ ٣٠٦) والعقْد الثّمين (٨/ ٢٢٢) وتهذيبُ الأسماء اللّغات (٢/ ٣٤٤) ونسبُ قريش (ص٢٢ و١٥٧ و١٥٨ و٢١٩ و٢٣١) والسّمط الثمين (ص١٨٣ ـ ١٨٧) وتاريخ الطّبري (٢/ ٤٢ و٤٣ و٤٤ و١٢٦ و١٤١ و١٤٤ و٢١١) والمُجتبى (ص٩٧) وأعلام النّساء (٢/ ١٠٧ ـ ١١٠) وتلقيح فهوم الأثر (ص٣٢) والكامل لابن الأثير (٢/ ٤٠ و١١٠ و١٣٤ و١٣٥ و٢٠٧ و٢٢٥ و٢٢٩ و٣٠٧ و٤٠١). ومختصر تاريخ دمشق (٢/ ٢٦٢ و٢٦٣ و٢٦٤ و٢٦٧) والفصول (ص٢٤١ و٢٤٤) والمواهب اللدنيّة (٢/ ٦٠ و٦١) والبداية والنّهاية (٥/ ٣٠٨) وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٢٤٦ ـ ٢٥٠) والسّيرة الحلبيّة (٣/ ٣٩٣) والأسماء المُبهمة (ص٩١ و٩٢) وزادُ المعاد (١/ ١٠٣) و(٣/ ٦١ و٢٨٢ و٢٨٣ و٤١١) و(٥/ ٨٩ و١٣٣ و١٣٦ و٢٦٤) وأنسابُ الأشراف (انظر الفهارس ١/ ٦٤٣) وتاريخُ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص٦٨ و٩٦ و٧٠ و١٢١ و٣٥٤ و٣٥٨ و٣٥٩ و٣٦٠ و٣٦١ و٤٠١ و٥٢٠ و٦٢١) وشفاءُ الغرام (٢/ ٢٢٨ و٢٢٩ و٢٣٢) والمغازي النّبويّة للزّهريّ (ص٤٣) وتفسيرُ القرطبيّ (١٤/ ٢٤٢) والاشتقاقُ لابن دريد (ص٨٢ و٩٥) والمغازي (ص١٣٠ و١٣١ و٥٥٣ و٥٥٤ و٧٩٣ و٧٥٨) ومنحُ المدح (ص٢١٢ و٢٨٤ و٣٣٥) وفتحُ الباري (٧/ ١٠٧) ودرُّ السّحابة (ص٢٨٠ ـ ٢٨٢) وأبو داود في الطّلاق، والتّرمذي في النّكاح، وابن ماجه في النّكاح أيضاً، وغير ذلك من المصادر المتعددة.

الكريمة بين أكرم أبوين في دنيا الكرم، ودنيا الفضائل، ومَنْ أكرمُ مِنَ الحبيب المصطفىﷺ ومِنْ زوجهِ الطَّاهرة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها؟!

بلغت زينبُ رضي الله عنها مبلغَ النِّساء، فإذا بخالتها هالة بنت خويلد، تُقْبِلُ على دارِ أختها خديجة، وأفضتْ هالةُ لخديجةَ بأنَّها ترغبُ في خطبةِ زينبُ لابنها أبي العاص[1] ابن الرَّبيع القُرشيّ العَبْشَمِيّ.

كانَ أبو العاص بن الربيع أحدَ فتيان قريش الذين عُرِفَتْ عنهم محاسنُ الشَّمائلِ، وشمائلُ المحاسنِ، فقد أُثِرَتْ عنه عُليا الفضائل، وعُرِفَ بالأمانةِ والمروءة والنَّجدة، وكانَ ذا مال كثيرٍ، وتجارةٍ واسعةٍ.

قال الحافظُ ابنُ عساكرَ ـ رحمه الله ـ: وكانَ أبو العاص بن الرَّبيع أخاً لرسولِ اللهﷺ مُصَافِياً له، وكانَ يُقالُ لأبي العاص: الأمين، وكان رسولُ اللهﷺ يكثر غشيان أبي العاص في منزل أُمِّه هالة بنت خويلد[2].

رحَّبَتْ خديجةُ بأختها هالة، وأقبلتْ عليها مسرورة، فابنُ أختها أبو العاص كان يغشى بيتها كلَّما سَنَحَتْ له الفُرْصَة، أو قَدِمَ من تجارةٍ له، إنَّها لأُمْنِيَة حلوةٌ أنْ تكونَ زينب في رعايةِ خالتها هالة، بَيْدَ أنَّ خديجةَ رضي الله عنها، التمست أنْ تنتظرها حتى تستأذنَ زوجها أبا القاسمﷺ.

أخبرت خديجةُ رضي الله عنها رسول اللهﷺ بما جاءتْ به أختها هالة، فأثنى رسولُ الله على أبي العاص، وأعلنَ موافقتَه على الخطبة.

وسعدتْ زينبُ ابنة رسول اللهﷺ برضا أبويها، وزُفتْ إلى أبي العاص وقد أهدتها أمّها خديجة قِلادة كانتْ أثيرةً لديها.

عاشت زينبُ رضي الله عنها في بيتِ أبي العاص، وولدت له؛ أمامة[3] التي

---

(١) قيل: إنَّ اسمه: مهْشم، وقيل: لقيط، وقد رجَّح ذلك ابن عبد البرّ صاحب الاستيعاب (١٢٦/٤).

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٤٣/٢٩).

(٣) اقرأ سيرة أمامة في ثنايا هذا الكتاب.

تزوّج بها عليّ بن أبي طالب بعد فاطمة الزّهراء، ثم ولدت له، عليّ بن أبي العاص الذي يقال: إنَّ رسول الله ﷺ أردفه وراءه يوم الفتْح، ومات صبيّاً(1).

كان رسولُ الله ﷺ يزور ابنته زينب في دار زوجها أبي العاص بنِ الرّبيع، وكان ﷺ سعيداً بابنته، وزاده غبطةً أنَّ صِهْرَهُ أبا العاص قد عُرِفَ في مكةَ بالأمين، كما عُرِفَ هو بذلك منْ قبلُ، وكان يكرمُ هالة أخت زوجه خديجة، لِمَا لخديجةَ منْ مكانةٍ في نفسهِ، وكانت هالةُ نفسها تحبُّ شمائلَ رسولِ الله ﷺ، وتكرمُه وتكرمُ أولاده وبناته.

زَيْنَبُ وَنُورُ الإِيْمَانِ:

عاشَ رسولُ الله ﷺ معَ النَّاس في حياتهم إنسَاناً يعاشرِهُم، ويتبادل معهم مَطَالبَ الحياة التي تقتضيها طبيعةُ البَشَر في دائرةِ أَفْضَلِ الكمالاتِ التي يمكن أنْ يكونَ عليها إنسانٌ في حياته مع النَّاس والأشياء.

وهذه الكمالات الإنسانية هي التي نشأ عليها، وعُرِفَتْ له في قومه وبلده مكةَ، فتزوّج وَوُلدَ له بنينَ وبناتٍ، وقام على رعايةِ أولاده وزوجته، وأصهر إلى أكْرَمِ قومه، يلجأُ إليه قومه، ويرضَوْنَه لحلِّ معضلاتهم، ويشاركهم في أعمالِ الشّرف والمروءة.

لهذا كلّه أحبَّه القريبُ والبعيدُ، وأصبحَ الأمينُ في نفوسِ قريش، وغدا مَعْقِل آمالهم، ومَجْمَع كلّ فضيلة، وناصية كلّ مكرمة.

بلغ الحبيبُ المصطفى ﷺ أربعين سَنَة، فنزل عليه الوحيُّ، وأَمَرَه ربُّه بتبليغِ أمْرِه للنّاس كافّة، فامتثل الأَمْرَ الإلهيَّ، وقام بأداءِ الرِّسالة، وكان منَ الطّبيعي، ومن البدهي أنْ تكونَ طليعة هؤلاء السَّابقين زوجه الطّاهرة الوفيّة خديجة رضي الله عنها، وكذلك أولاده الأطهار، فأولادُهُ الذّكور: القاسم، وعبد الله، وإبراهيم ابنه من مارية المصريّة، ماتوا جميعاً في عمر الوردِ، وفي سِنِّ الطّفولة البريئة.

وأمّا بناتُه الطّاهرات رضي الله عنهن: زينب، ورقية، وأمّ كلثوم، وفاطمة،

---

(1) عن سيرة أعلام النبلاء (٢/٢٤٦) بتصرف يسير. وانظر، مجمع الزوائد (٩/٢١٢).

فكلّهن أدركْنَ الإسلام وأسلمن[1]، وكنَّ مع أمّهن سيّدتنا وسيّدة نساء العَالمين في طليعة أسبق السَّابقين والسَّابقات إلى ساحةِ الإيمان بهﷺ نبيّاً ورسولاً، وكانتْ زينبُ رضي الله عنها أكبر أخواتها منَ السَّيِّدات اللاتي أكرمهنَّ الله عزَّ وجلَّ بالمسارعة إلى التَّصديق برسالةِ أبيهاﷺ.

وسَبْقُ البناتِ الطَّاهرات، وفي مقدمتهن زينب رضي الله عنهن جميعاً لا يحتاجُ إلى نصٍّ، أو إلى دليل، أو برهان، ولله درّ القائل:

وَهَبْني قُلْتُ هـذا الصُّبحُ لَيْـلٌ ... أَيَعْمى العـالمونَ عنِ الضِّياء[2]

وفي هذا يقول الإمام الزّرقاني ـ رحمه الله ـ في شرح المواهب اللدنية: ولم يذكر بناتهﷺ ـ أي في عداد السَّابقين إلى دوحةِ الإيمان ـ لأنَّه لا شكَّ في تمسّكهِنَّ قبل البعثة بهديه وسيرته.

ومما تَعَطَّرُ به الأسماع في هذا المجالِ الكريم، ما رواه ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ عن أمِّنا عائشة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما قالت: لما أكرمَ الله نبيَّه بالنبوَّةِ، أسلمتْ خديجةُ وبناته.

وفي رواية أخرى عنها أنَّها قالت: أسلمتْ رقيةُ حين أسلمتْ أمّها خديجة، وبايعت حين بايعَ النِّساء، وأسلمت أمُّ كلثوم حين أسلمتْ أخواتُها وبايعت معهن.

أمّا سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها، فقد ولدت ونشأت على الإسلام، وأتقى التقى.

قال الإمامُ الزرقاني ـ رحمه الله ـ: والحاصل أنّه لا يحتاج للنّصِّ على سبقهنَّ إلى الإسلام لأنَّه معلومٌ؛ وهو يقصد بهذا إلى أنَّ ذلك نتيجة لازمة لزوماً قطعياً، لنشأتهنَّ بين أحضان أَصْدَق وأكرم أبوّة، وأفضل وأحنى أُمومة، يأخذن عن أبيهن

---

(١) الكامل (٢/ ٤٠).

(٢) ديوان المتنبي (١/ ١٠).

أكرم المكارم، وعن أمّهن حَصَائِلَ العَقْل الذي لا يُوزنُ به عقل امرأةٍ في السَّابقين ولا في اللاحقين.

فزينبُ وأخواتها الطَّاهرات رضي الله عنهن في قَرَنٍ مع أمّهنّ السَّيِّدة خديجة، يَنْظِمْنَ معها عِقْد أسبق السَّابقين والسَّابقات إلى ارتشافِ رحيق الإيمان منذ ظهرت أولى قطراته العطرة، وكُنَّ من السَّابقين والسَّابقات إلى دَوْحةِ الإسلام، والتَّصديق برسالة أبيهن سيّدنا وحبيبنا رسول اللهﷺ الذي كان أباً كريماً قبل أنْ يكونَ رسولاً بالمؤمنين رؤوف رحيم.

وقد كانت مكارمُ أخلاقِهِ الحِسَان، وعظيم شهرته بها، ورفيعُ صفاته، وصفاتُه الرّفيعة، تلك التي تميّز بها عن سائرِ بيئته وقومه بين أيديهن، يزيّنها رأي البصر والبصيرة، ويسمَعْنَ أحاديثَ النَّاسِ عنها، والولد على نهج أبيه وأمِّه ينشأ.

إنَّ زينبَ رضوان الله عليها عاشتْ في أحضانِ البيت النَّبويّ، بل كانت كبرى البنات الطَّاهرات، وأخذتْ عن أبيهاﷺ خلقه وعَمَله مشاهدةً ومحاكاة، وسمعتْ منه ما يأمُر به ويرغِّب فيه منَ الخير، وما ينهى عنه وينفِّر من مقاربته من الشَّر، فتشرَّبَتْ من يقينه وإيمانه وحكمتِه وآدابه وشرائعهِ، ما يطيقُ قلبها وروحها حمله، وترسم عقلها ما تستطيعُ إدراكه من مشاهدة النّبوّة والوحيّ، وإشراق الرِّسالة. لذلك كان إيمانُها بالله عزَّ وجلَّ وتوحيدها والتَّصديق برسالةِ أبيهاﷺ فطريٌّ طبيعيٌّ، اقتضتْهُ الفطرةُ النَّقيّةُ التي قادتها إلى منابعِ النَّقاء والصَّفاء، وإلى نور الحقِّ، وأنوار اليقين.

زَيْنَبُ وَالأَمَلُ المَفْقُود:

أخذتْ زينبُ بنتُ رسول اللهﷺ تقصُّ على زوجها أبي العاص قصَّة الإيمان، وتحدّثه عن نبوّةِ رسوله محمّدﷺ، وأخبرته بإيمان أمّها خديجة، وإيمانها وإيمان أخواتها، وشهادتهنَّ أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمّداً رسول الله.

كانت زينبُ رضي الله عنها تتحدَّثُ إلى زوجها وقلبُها يخفقُ عَطْفاً وخوفاً، فقد كانت ترجو الله عزَّ وجلَّ أنْ يشرح قلبه للإيمان بالدَّعوة المحمّدية، فهي تحبُّ

له الخير والسَّعادة والهداية، وخشيتْ أنْ تأخذَه العزَّةُ بالإثمِ فيعرض عن الإسلام، ويسلك الطَّريق غير المستقيم، فيهوي في مهاوي الرّدى.

اشتدَّ وجيبُ قلبها، واستولى عليها خوفٌ شديد، فزوجُها أبو العاص لم يجبْهَا بشيء، بل تركها وخرجَ وتوجَّه إلى الكعبةِ؛ ولمَّا عاد إلى منزلِهِ قال لها: لقيتُ أباكِ اليوم في الكعبة، ودعاني إلى الإسلام.

ولم تكنْ زينبُ رضي الله عنها تتصوَّر أنْ يستسلمَ زوجها لعواطفِهِ، وينقاد لمواريث الجاهلية، ويعرضَ عن دعوة الإيمان، بل كانت ترى أنَّ أبا العاص ذو رأي وحكمة، وسيسرعُ إلى الانضمامِ إلى ثلّةِ الأوَّلين الذين فازوا بقصب السَّبْقِ إلى راية الحقِّ، ودعوة الخير.

تعجَّبَ أبو العاص مِنْ إيمان زينب بدعوة الحقِّ، ولاحظتْ زينب ذلك فقالت له: والله ما كنتُ لأكذّب أبي، وإنَّه والله، لكما عرفتَ أنتَ وقومك؛ أنَّه الصَّادقُ الأمين.

لم تقنطْ زينبُ من رحمةِ الله عزَّ وجلَّ، ولم تقفْ وقفةً قاسيةً أمام إعراض زوجها عن الإسلام، وإنَّما ظلَّتْ تدعوهُ إلى الإسلام مرَّةً بعد مرَّةٍ، ويوماً بعد يوم، ولكنَّ أبا العاص كانت تعلو ملامح وجهه إشاراتُ وجومٍ وعلاماتُ استفهامٍ لا يستطيع تفسيرها هو نفسه.

وفي أَحَدِ الأيّام قال لزينبَ بلسانِ الحقيقة وهي تدعوه إلى الله: والله، ما أبوكِ عندي بمتّهم، وليس أحبّ إليّ منْ أنْ أسلكَ معكِ يا حبيبة في شعْبٍ واحد! ولكنّي أكرهُ لك أنْ يُقال: إنَّ زوجَك خَذَلَ قومه وكفر بآبائه إرضاء لامرأته.

أعتقدُ أنَّ أبا العاص كان يودُّ لو يستجيب للإيمان، حيث إنَّ كلامه ينضحُ بالدِّفءِ وصدقِ اللهجة، وكانت تكمنُ في نفسه ينابيعُ المودّةِ للدَّعوة المحمّدية، ولكنَّ قشوراً خفيفة قد حجبتْ بينه وبين أنوار اليقين.

وأعتقد أنَّ زينبَ رضي الله عنها قد أدركتْ ذلك في شخصِ زوجها

أبي العاص[1] بن الرَّبيع، وتوسَّلَتْ إلى الله عزَّ وجلَّ أنْ يكشفَ عن قلبه هذه القشور المتعفِّنة، لينعَم في نعيمِ الإيمان، ويزيح عن كاهله رجس الجاهلية، ليكون من فرسان مدرسة النبوَّة.

زَيْنَبُ وَإِخْلَاصُ زَوْجِهَا:

أخذ عبيرُ الإسلام يعطِّرُ الأجواء في مكةَ المكرمةِ، وراحتِ القلوبُ الكبيرةُ تهمسُ بحبِّ الإيمان، وتتصلُ بخالقها الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودِيْنِ الحقِّ ليظهره على الدِّين كلِّه، وسعى المؤمنون الأوائل لإعلاءِ كلمةِ الله عزَّ وجلَّ والدَّعوة إليه بالحكمة.

وتتابَع النَّاسُ يدخلونَ في دِيْنِ الله أفواجاً، رجالاً ونساء، حتى فشا ذِكْرُ الإسلام بمكةَ، وتحدَّثَ به النَّاس سِرَّاً وعلانية، وأقبل الذين فَتَحَ الله بصائرهم وبصيرتهم ينعمون برحيق الإيمان، بينما طاشتْ عقولُ بعض سادات قريش،

---

(١) عَرَفَ أبو العاص بن الرَّبيع ما اشتهر به النَّبي الكريمﷺ من مكارمِ الأخلاقِ معرفةُ مخالطةٍ لم يَصِلْ إليها أحد غيره، من غير أفراد أسرةِ رسول اللهﷺ الخاصة التي تعيش في كنفه ورعايته.

ولما بُعِثَ رسولُ اللهﷺ عَرَفَ أبو العاص ما كان يدعو إليه النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام من الهدى والهداية والخير والتَّوحيد، وطرح الشِّرك والوثنية، وخلع الأنداد والشّركاء، ولكنه كان في شغلٍ عن الاستجابةِ إلى الإيمان، وآمنتْ زوجته السَّيدة زينب مع أمِّها وأخواتها في السَّابقين، ورأى أبو العاص اشتداد ساعد الدعوة، وشهد عداوة قريش لها وطغيان الكفَّار وإيذاءهم.

إلا أنَّ تاريخ مقاومة الدَّعوة المحمدية لم يعرفْ قطّ موقفاً لأبي العاص شارك فيه قومه في هذه المقاومة بأي لونٍ من ألوانها، وقد كفَّ يده ولسانه عن أصحاب رسول اللهﷺ، وشغله ماله وتجارته وحياؤه من رسول اللهﷺ من مواقف الشَّراسة القرشية في مقاومة الدَّعوة إلى الله، واكتفت قريش من أبي العاص بأنْ يكونَ المضارب لها في تجارتها يحمل إليها في رحلاته الأرباح الطائلة الكثيرة.

قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ وكان أبو العاص مصاحباً لرسول اللهﷺ مصافياً.

وكرهوا هذا الدِّين الجديد، وحاربوه بكلِّ الوسائل، كيما يطفئوا نور الله، ولكنَّ الله متمٌّ نوره، ولو كره المشركون.

مضى الحبيب المصطفى ﷺ يسيرُ في دعوتِهِ، بينما أخذ فجّار الكفّار يقعدون كلَّ مَرْصَد في طريق المؤمنين، ويؤذونهم بألوانِ الأذى، ويحاربونهم بوسائل شتى، وكانوا في خِصَامِهِم يريدون أنْ ينالوا مِنْ رسولِ الله ﷺ، ويشغلوه عن أَمْر الدَّعوة.

وتفتَّقَ خيالهم الشَّيطاني عن فكرةٍ ظنُّوا أنَّهم يوهنون الدَّعوة الإسلامية، فرأوا أنْ يشْغَلوا رسولَ الله ﷺ ببناتِهِ فقالوا: إنّكم قد فَرَغْتُم محمّداً منْ همّه، فردُّوا عليه بناته، فأشغلوه بهنَّ.

ومشى ساداتُ الكفَّارِ من قريش إلى أبي العاص بن الرَّبيع، وبعد حديثٍ عنِ الدَّعوة، وعن رسول الله ﷺ، وقرّبوا له وبعدوا، ثم قالوا - بَعْدَ أَنْ ظنُّوا أنَّ أبا العاص قد لان في أيديهم -: فَارِقْ صاحبتَك بنت محمَّد، ونحن نزوّجك أي امرأةٍ شئتَ من قريش.

إلا أنَّ ما نطقَ به أعيانُ الفَجَرة راحَ أدراج الرِّياح، ولم تثمرْ مكيدتُهم هذه عند أبي العاص الذي كان يحبُّ زوجه زينب، فهو لا يطيقُ فراقَ ابنة خالته، التي لم يَرَ منها إلا كلَّ خيرٍ ووفاءٍ، وفوجىء القوم الكافرون بأبي العاص وهو يقولُ بوضوح: لا ها الله إذاً، لا أفارق صاحبتي وما أحبّ أنَّ لي بامرأتي امرأة من قريش[1].

إنَّ أبا العاص أبى أن يفارقَ أو يطلِّقَ ابنة محمّد ﷺ، وإنْ كان على غيرِ دِيْنه، فهو يحبُّ زينب، ويجلُّ أباها، ولكنَّ مفارقةَ دِيْن قريش كان يصعب عليه صعوبة شديدة، ولكِنْ؛ لكلِّ أَجَلٍ كتابٌ.

زَيْنَبُ وَالزَّوْجُ الأَسِيرُ:

هاجرَ الحبيبُ الأعظم ﷺ إلى المدينة المنوّرة، ولحقَ بأصحابهِ هناك، بينما

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٢) ومجمع الزوائد (٩/٢١٤).

ظلَّتْ ابنتُه زينب في مكة في بيتِ زوجها أبي العاص بن الرَّبيع تنتظر أمْرُ الله عزَّ وجلَّ في الهجرة، وظلَّ قلبُها يخفقُ حتى جاءها الخبر اليقين بأنَّ أباهاﷺ قد استقرَّ في عرين الأنصار الذين يؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة.

وها هي مدينةُ رسول اللهﷺ طيْبَة تنبضُ بالحياة، فقد أكرم الأنصارُ مثوى المهاجرينَ، وعاش جميعُهم في حبٍّ ووئامٍ يَحْمَدونَ الله الذي هداهم للإيمان.

وأطلَّ العامُ الثَّاني للهجرة، وأهلّ هلال شهر رمضان، فإذا بمشركي مكةَ يخرجون نحو المدينة لقتال المؤمنين.

ولكنْ ما هو شعور زينب ابنة الحبيب المصطفى رضي الله عنها، تلك التي خرج زوجُها مع المشركينَ لقتال رسولِ اللهﷺ؟ بل ما هو شعور أبي العاص لحظ ذاك؟

أعتقدُ أنَّ أبا العاص صِهْر الرَّسولﷺ قد خرج كارهاً للقتال، ويبدو أنَّ الأحداثَ لم تتركْ أبا العاص بعيداً عن ضغطها واحتوائها، فخرجَ إلى بدر تتناوشه الأفكار المُتناقصة، والأوهامُ المُصْطَنعة من كبار فجّار الكفّار، بزعامةِ الكفور الفجور عمرو بن هشام أبي جهل المخزوميّ.

ولما دفع أبو جهل بن هشام بقريش وفتيانها دفعاً إلى خوضِ غمار المعركة، امتشقَ أبو العاص سيفه، وهو يرجو أنْ لا يلقى أحداً منَ المسلمين، وخشي أنْ يلقى محمّداًﷺ، إذ الحياء ألجمه، فطالما زاره في بيتِ خالته خديجة قبل أنْ يتزوَّجَ زينب، وألقى إليه سمعه، وأعجب بحلاوةِ حديثه، وحسْنِ منطقه، وكمال خلقهِ، وما أكثر ما اجتمع به بعد زواج ابنته، وكان له خير أسوة، وخير ناصح أمين.

والتقى الجمعان على مياه بَدْر، ودارت رحى الحرب في شراسة فاجرةٍ تعبّأت لها القلّةُ المؤمنةُ من المسلمين مستهدفة إعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ، ودارت رحى القتال، وما هي إلا جولة وأخرى حتى خفقت ألويةُ النَّصر على رؤوسِ المؤمنين، ورفرفتْ أعلامُ الظّفر باسمةً فوقهم، وأنزل الله نَصْره على المؤمنين، وحلَّتِ الهزيمةُ المنكرة بطغاة الكفر والمشركين.

وراح المسلمونَ يقتلون فريقاً، ويأسرونَ فريقاً، بينما هرب باقي المشركين

نحو مكةَ كاسفاً بالُهم، ترهقُ وجوههم ذلّة الهزيمة، وتملأُ نفوسهم غصَّة الآلام.

وكان أبو العاص بن الرَّبيع قد وقعَ أسيراً بِيَدِ المسلمين أَسَرَهُ عبد الله بن جُبير الأنصاريّ، وكان أبو العاص من الذين لم يُسْمَعْ لهم في المعركة صوت، ولم يُعْرَفْ لهم رأيٌ، ولا شُوهدت لهم في قتالٍ جولة. وقُرِنَ في الحِبَال مع زملائه الذين كُتِبَ عليهم الإسَار في هذه المعركة الفاصلة.

وضعتِ الحربُ أوزارها، ورفرفت راياتُ النَّصر فوق رؤوسِ المؤمنين، وسار محمّد رسول الله والذين معه، ليدخلوا المدينة ومعهم الأسرى مقرّنينَ في الأصْفَاد، وهنالك قال رسول الله ﷺ: «استَوْصوا بالأسرى خَيراً».

كان أبو العاص بن الرَّبيع مستأسِراً مع رهْطٍ منَ الأنصار، فأكرموا مَثْواه، وعرفوا مكانه في البيت النَّبويّ، فلمْ يلقَ منهم إلا كلَّ خير وإكرام وكرامة.

لنترك أبا العاص نفسه كيما يحدثنا عن كرمِ الأنصار، وعن مكارمهم، وإيثارهم النّبيل عندما كان أسيراً لديهم فيقول:
كنتُ مع رهْطٍ من الأنصار ـ جزاهم الله خيراً ـ كنّا إذا تعشينا أو تغذينا، آثروني بالخبز، وأكلوا التّمر، والخبز معهم قليل، والتّمر زادهم، حتى إنَّ الرَّجلَ لتقع في يده الكِسْرَة فيدفعها إليّ[1].

لقد وَقَرَ في صَدْرِ أبي العاص أنَّ هذه المعاملة الرَّفيقة الرَّقيقة، لا تصدرُ إلا عن عظماءَ صُنِعُوا على عينِ الله عزَّ وجلَّ، وتغذوا على مائدةِ التَّقوى، وتربوا على محاسنِ الفضائل، فكانوا سادة النَّاس في العَادات، ولا غَرْوَ؛ فعاداتُ السَّاداتِ، ساداتُ العادات.

وأخذتِ الأفكارُ تجولُ في أقطارِ رأْسِ أبي العاص وتعودُ به إلى الأيام الخالية، إنَّه يعرفُ الأنصار هؤلاء ـ الأوس والخزرج ـ من قبل أنْ يقدمَ عليهم رسولُ الله ﷺ، إنَّه يعرفهم معرفةً حقيقية لممارسته التِّجارة، فما كانوا على مثل هذا الخلُق الكريم العطر! فلمّا هاجر إليهم الحبيبُ الأعظمُ ﷺ، ومكثَ بينهم بضعة

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/٤٤).

شهور، كانت معجزة آتتْ ثمارها وأُكلها سريعاً، حيث تخلّقوا بأخلاقهِ الشّريفةِ، واهتدوا بهديه، فصَنعوا الأعاجيب.

واستمرَّ أبو العاص في تفكيره، فإذا بفؤادهِ يهوي إلى الدِّينِ القيِّمِ الذي يدعو إلى مكارمِ الأخلاق، ووجد نفسه تنجذب إلى نور الهداية المنبعثة من الإسلام الذي يدعو إليه رسول الله ﷺ، ولكنّه أسيرٌ الآن، ولا يدري ما سَيفعل بالأسرى.

قِلَادَةُ زَيْنَبَ:

أخذ النّاسُ يَلقَوْن رسولَ الله ﷺ بالتّحيّةِ والتّهنئةِ، بما فتحَ الله عليه في غزاةِ بدر، ودخل النّبيُّ ﷺ المدينة، ووضع الأسرى تحت حراسة مولاه شقْرانَ، وكان من بينهم أبو العاص ابن الرّبيع صهر الرّسول الكريم ﷺ.

كان أبو العاص مشتتَ التّفكير فيما وصل إليه، وقفز به خياله إلى أمِّ القرى حيث غادر زينب رضي الله عنها، غادرها هذه المرّة، ليحاربَ أباها، وليس للتّجارة إلى الشّام وغيرها.

لقد خرجَ مع سفهاء قومه إلى المدينة، لتسمعَ بهم العرب فتهابهم أَبَدَ الدّهر - كما زعموا - كان في فورة حماس، لم يفكر في مشاعر زوجهِ التّقية الطّاهرة وقد خرج لحرب أبيها!

وعاد به خياله إلى وَاقِعِهِ، إنّه أسيرٌ مع الأسرى في مدينةِ رسول الله ﷺ، تُرى ما حال زينب؟ إنّه يحسُّ ويدرك تماماً أنّها لا تعدل بأبيها أحداً.

أمّا زينب رضي الله عنها، فقد كانت في مكةَ المكرمةِ، تبتهلُ إلى الله عزَّ وجلَّ أنْ يشرحَ صَدْرَ أبي العاص إلى الهدى ودِيْنِ الحقِّ، وإلى الهدايةِ وطريق النُّور، وكانت تخشى أنْ يُصابَ رسولُ الله ﷺ أو يصاب زوجها بأذى.

ولم تَطُلِ الأيامُ، فقد جاء مَنْ يخبر زينب بأنَّ أبا العاص قد وَقَعَ أسيراً بِيَدِ رسول الله ﷺ، بالإضافة إلى سبعينَ مِنَ المشركين قد وقعوا أيضاً في الأَسْرِ،

وها هم أهلوهم يتجهّزون للخروجِ إلى المدينة المنوّرة ليدفعوا الفِدْيَة إلى المسلمين.

كانت زينبُ رضي الله عنها تحبُّ أنْ تبعثَ إلى أبيها مَنْ يفتدي منه زوجها أبا العاص، وتهلّلتْ بالفرحِ لما جاءتِ الأخبار العطرة تحمل نَصْرَ الله لرسوله والمؤمنين، ولكنّها شعرت بالحزنِ يسري في أعماقها لأَسْرِ زوجها، إلاّ أنّها كانت تحسُّ بأنَّ عَقْلَ زوجها سيسلمه في يومٍ من الأيامِ إلى خيرٍ، وشعرت بأنَّ أباها سيقدِّرُ حالتها وحالةَ زوجها الأسير.

ودَّتْ زينبُ رضي الله عنها لو تستطيعُ أنْ تخرجَ لتفدي زوجها، وترى أباها، وتهنّئه بنصرِ الله عزَّ وجلَّ، إلا أنّها كانت عاجزة عنِ الخروج وَحدَها، فهي بين ملأ قَدْ مُلِئَتْ قلوبهم حقْداً على أبيها، وعلى الذين معه، ولو همّتْ بالخروجِ لأوذيت أذىً شديداً.

لجأت زينبُ إلى أهلِ زوجها ليذهبوا في فداءِ أبي العاص، فقَدِمَ عمرو بن الرَّبيع في فداءِ أخيه أبي العاص بن الرَّبيع، ووصل المدينة المنوّرة، فقدّم إلى رسولِ اللهﷺ ما أرسلت به ابنته زينب في فداء زوجها أبي العاص، فإذا به مالٌ وقِلادةٌ لها، كانت أمّها خديجة الطّاهرة، قد أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها في مكةَ، حتى تتحلّى بها، فلمّا رأى رسول اللهﷺ القلادة، ترقْرَقَ الدَّمع في عينيه الشّريفتين، فقد ذكّره العقد بالطّاهرة خديجة سيّدة نساء العالَمين، وأعادته إلى تلك الأيام التي قضاها معها، إذ كانت له وزير صِدْقٍ على الإسلام.

لقد كانت هذه القلادة الكريمة مَبْعَثَ ذكرياتٍ أبويّة عند رسول اللهﷺ، وذكريات زوجية، وذكريات أُسَرِيّة، وذكريات عاطفية، قبل أنْ تأتيه رسالة الله عزّ وجلّ بمنهجها الرَّباني القويم.

فالحبيبُ المصطفىﷺ أَبٌ، له منْ عواطفِ الأبوّة أرفع منازلها في سجلِّ المكارم الإنسانية، وأشرفها في فضائل الحياة، فتذكّرَﷺ برؤيته هذه القلادة ابنته الكبرى، في مكةَ وحيدةً مع زوجها مسلمة مؤمنة، وهو على كفْرِه لم تفكّرْ قطّ في مفارقتهِ، لأنّه كان حفيّاً بها، وفيّاً في معاشرتها، محبّاً لها، معتزّاً بها.

ويُؤْسَرُ زوجُها في أشرافِ قومه، ويطلبُ الموقف فداءه، فترسل قِلادتها فداء له، ويرى رسولُ اللهﷺ هذه القلادة، فتنادى إليه الذّكريات، وفيها ذكريات السَّيِّدة خديجة الطّاهرة، وفرحها وهي تدخلُ على ابنِ أختها هالة بنت خويلد، وتحلّيها بأحسنِ ما عندها من الحليّ، وتزيّنها بقلادة تهديها إليها في فرحة العمْرِ، فتقدمّها زينب في فداءِ زوجها طيّبة بها نفسها، وفاء لحياتها الزَّوجية مع أبي العاص ابن خالتها، فيعظم ذلك في نظرِ رسول اللهﷺ.

والرَّسول الكريم أَبٌ، وكافلٌ لأسرةٍ قاعدتها أولاده، وقمّتها زوجه وزيرة الصِّدق، ومَأْنَس القلب، ومفرّجة الأزمات والشّدائد عنه، بما أنعم الله عليها من عَقْلٍ رشيد، ورأي سديد. فإذا رأىﷺ هذه القلادة الكريمة ـ بعد غياب طويل ـ ذكّرته بالودِّ الهامس، وهمس الودّ، وابتسامة الحياة الهادئة مع أطهر الطّاهرات خديجة رضوان الله عليها.

إنّه يذكرها في كلِّ مناسبة، وهنا تذكّرها في هذه القلادة الغالية العزيزة، فماذا فعلﷺ؟

تروي المصادرُ الوثيقة أنَّه لما بَعَثَ أهل مكة في فداء أسراهم، جاء في فداءِ أبي العاص بن الرّبيع أخوه عمرو بن الرّبيع، وبعثتْ معه زينب رسول اللهﷺ في فداء زوجها بمال، وبعثت فيه بقلادة من جزْع ظَفَار كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين زواجها، فلمّا رأى رسولُ اللهﷺ القلادةَ، عرفها، ورقَّ لها رقّةً شديدة، وذكر خديجة ورحمَ عليها، فتوجّه إلى أصحابِهِ الكرام رضي الله عنهم، متلطِّفاً يطلبُ إليهم في رجاءِ الأعزّ الأكرم، رجاء يدفعهم إلى العطاء، ولا يسلبهم حقَّهم في الفداء، لو أنّهم أرادوا الاحتفاظَ بهذا الحقِّ، وهو في أيديهم يملكون التَّصرف فيه، فقال لهم: «إنْ رأيتم أنْ تطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها الذي لها فافعلوا»[1].

---

(١) إنَّ هذا الأسلوب النّبويّ اللطيف مِنْ أبلغ وألطف ما يسري في حنايا النّفوس الكريمةِ، فيطوعها إلى الاستجابةِ الرَّاغبة الرَّاضية رِضاً ينمُّ عن الغبطةِ والبهجة.

فالأساسُ في الطّلب المتلطف إطلاق الأسير الذي هو أسيرها، بهذه الإضافة التي =

قالوا: نعم يا رسول الله.

فأطلقوا أبا العاص بن الرَّبيع، وردّوا إلى زينب متاعها.

وكان رسولُ اللهﷺ قد أخذ عليه العهد أنْ يخليَ سبيلَ زينب، وكانت من المستضعفين من النِّساء، ففعل ووفى بما وعد[1].

وَفاءُ الوَعْدِ وَهِجْرَةُ زَيْنَبَ:

عندما سرحَ الحبيبُ المصطفىﷺ أبا العاص منَ الأسر، خرج أبو العاص عائداً إلى مكةَ فرحاً مسروراً، وفرحَ النَّاسُ بعودةِ مَنْ كان من الرِّجالِ المعدودينَ مَالاً وأمانةً وتجارةً، وقبل أنْ يتوجَّه إلى بيتِهِ، طافَ بالبيتِ العتيق سَبْعاً، ثم توجَّه وهو في شوقٍ شديدٍ إلى زينبَ رضي الله عنها؛ الزَّوجةُ الوفيةُ التي بَعَثَتْ في فدائه بأعزِّ ما تملك؛ قلادتها الغالية. . . .

تذكّر أبو العاص كيف رقَّ رسولُ اللهﷺ رقّةً شديدة لمّا شاهدَ القلادة، وتذكّر أيضاً، أنّه وَعَدَ رسولَ اللهﷺ أنْ يخلي سبيل زينب ويرسلها إلى المدينةِ النّبويّة المنوّرة، كيما تكونَ مع أخواتها في رعايةٍ أبويّة، تعوّضها عنْ مَرارةِ الفرقة والبُعْدِ فيما مضى منَ الزَّمان.

إنَّه وَعْدٌ أليمٌ موجعٌ لقَلبِ أبي العاص، إنّه سيقوِّضُ البيتَ الهاني الهادىءَ

= تكاد تجعل منَ التّلطف استعطافاً شفيعاً، لأنّها إضافة خاصة رَفَعَتْ من شأنِ هذا الأسير، وأدخلته في إطار المخصوصين بالرِّعاية، وأكّدَ هذا المعنى قوله: «أنْ تطلقوا لها أسيرها» المشعرة بالاستعطاف ممن له حقُّ الأمْر النّافذ، لإيحائها بأنَّ صاحبةَ هذه القلادة ابنتهﷺ التي أُفْرِدَتْ عن إخوتها، وسائر أسرتها بالبقاء وحيدةً بمكةَ المكرمةَ، تعاني مرارة الوحدة، والبعد عن حنان الأبوّة الرّحيمة.

(١) عن سير أعلام النبلاء (٢٤٦/٢) ومختصر تاريخ دمشق (٢٩/٤٤ و٤٥) مع الجمع والتّصرف. وانظر: السِّيرة النبوية (٥٨/٣) تحقيق: عمر تدمري، وطبقات ابن سعد (٣١/٨) والمستدرك (٤٤/٤ و٤٥) وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٦٨ و٦٩) والسمط الثمين (ص١٨٣ و١٨٤) وتاريخ الطبري (٤٣/٢) ومجمع الزوائد (٢١٤/٩) وغير ذلك من المصادر المتنوعة.

الذي عجزتْ عواصفُ الأحداثِ منْ قبلُ عَنْ أنْ تزعزعَ أركانَه، وهو لا يستطيعُ أنْ ينكثَ وَعْدَه، وإلّا لطَّخَ أمانته بالأوحالِ، تلك الصِّفَة التي اشتهر بها بين قومه، وسَمَا بها عنْ رجالات قريش.

حقّاً إنَّ هذا الموقف لحرجٌ، ولكنَّ أبا العاص سيفي بما وَعَدَ، وها هو بلغ داره، وما إنْ وقَعَتْ عينا زينب عليه حتى جَرَتْ إليه، ودموعُ الفرحِ تغسلُ وجهها، وسَعِدَ أبو العاص بهذا اللقاء بعد الغياب الطَّويل، ولكنْ تدفَّقَ مِنْ أعماقه ووجدانه صوتُ الوَعْدِ الذي قَطَعَهُ على نَفْسه، وها هو صوتُ رسولِ اللهﷺ يرنُّ في أعماقِهِ، فإذا به يقولُ لزوجهِ زينب: لقد وعدتُ أباك أنْ تلحقي به وقَدِ استكتمني ذلك، وسأفي بما وعدتُه[1]، فقد كان كريماً معي.

ويظهر أنَّ زينبَ رضي الله عنها قد فُوجئت بما نطقَ به أبو العاص، ونظرت إليه في دهَشٍ، وهي تكادُ لا تصدِّقُ ما تسمع، ولكنَّ أبا العاص أكَّدَ لها ذلك وأفهمها أنَّ الإسلامَ قد فرّق بينهما.

لقد وَعَدَ أبو العاص رسولَ اللهﷺ أنْ يحملَ زينب إليه، إلى المدينةِ المنوَّرة فَوْرَ وصوله مكة، وكان يعلمُ قسوة ذلك الوَعْد على قلْبِهِ، ولكنّه لن ينكثَ بما وَعَد، وسينجزُ وعده.

أمّا زينبُ رضوان الله عليها، فقد غَدَتْ تقاومُ عواطفها وهي تتجهّز للهجرةِ

---

(١) الوفاءُ شيمةٌ من شيمِ النّفوس الشّريفة، والأخلاقِ الكريمة، والخلالِ الحميدة، يعظمُ صاحبه في العيونِ، وتصدُقُ فيه خطراتُ الظّنون، وقد قيل قديماً: الوعدُ وَجْهٌ، والإنجازُ محاسنه. وقيل: الوعدُ سحابةٌ، والإنجاز مَطَرهُ.

وهذا وقد مُلئت كتُب تراثنا العظيم بطرائفِ الأخبار، ومحاسنِ الأشعار، وجميلِ القَصَصِ عن الوفاء بالوعدِ وإنجازه ورعاية الذّمم، ولا أدلّ على ذلك من نظرة واحدة في كتاب: «عيون الأخبار» لابن قتيبة، أو «محاضرات الأدباء» للراغب الأصبهاني، أو «المستطرف» للأبشيهي حتى تقرأ وتجد مصداق ما قلناه، ولعلّ شعار أبي العاص بن الربيع في الوفاء قول الشاعر:

إنّي امرؤٌ مني الوفاء سجيّة ... وفعال كلّ مهذّب مفضال

والخروج إلى حَضْرةِ رسول الله ﷺ؛ كانتِ العواطفُ تتصارعُ في داخلها في تلك اللحظات، ولكنَّ لقاء رسول الله ﷺ لا يعدله شيء، ولا تقفُ أمامه عواطف الدُّنيا كلّها، وكان لسانَ حالها يقول: السَّمْعُ والطَّاعةُ لله عزَّ وجلَّ، ولرسولِ الله ﷺ.

أسلمتْ زينبُ أَمْرها إلى الله عزَّ وجلَّ، فهو العليمُ الخبيرُ، بيده مقاليدُ السَّماوات والأرض، وأخذتْ تتجهز للحوق بأبيها ﷺ.

في تلكَ السَّاعات المتموّجةِ بالعواطفِ المتنوّعة، تظهرُ مروءة امرأة لم يكنْ مِنَ المتوقّع أنْ تساعدَ زينب في شيء منْ أمْرِها، لأنَّ هذه المرأة، قد قُتِلَ أبوها، وعمُّها، وأخوها يوم بَدْر، وما يوم بدر منها ببعيد؛ ولكنَّ حديثَ مروءتها وشهامتها يستحقُّ التّأريخ، ويستحقّ الحفْظَ في الصُّدور، لأنّه يرقّقُ ستورَ السُّطور، هذه المرأة النّبيلة هي هند بنتُ عتبةَ رضي الله عنها، إحدى فرائد نسوة قريش حَزْماً وعَقْلاً ورأياً ومكانةً.

وعلى الرغم ممّا كان بين هند بنت عتبة رضي الله عنها، وبين الرَّسول الكريم ﷺ، فإنَّ هنداً كانت عاقلة تنظر إلى الأمورِ نظرة كريمة نديّة، فقد نُمِيَ إليها أنَّ زينبَ ابنة رسول الله ﷺ قد عزمتْ على الهجرةِ إلى المدينة المنوّرة، فذهبتْ إليها عندما هدأتِ الأصواتُ، وسكنَ الليلُ، وعَرضَتْ عليها أنْ تقدِّمَ لها المساعدة، لتتمكّنَ منَ الوصولِ إلى المدينة المنوّرة، وقالت لزينب: يا بنة محمّد، بلغني أنّك تودّين الرَّحيل، واللحوق بأبيكِ فهل هذا صحيح؟

فأجابت زينبُ رضي الله عنها في حَذَرٍ وتخوُّفٍ: مَنْ أنْبأكِ هذا؟ إنني ما أردتُ ذلك؟!

فقالت هند في هدوءٍ: أي ابنة العمّ، لا تفعلي ذلك، ولا تكذبيني، فإن كانتْ لَكِ حاجة في متاع أو ما يرفقُ بكِ في سفرك، أو مالٍ تبلغين به إلى أبيكِ، فإنَّ عندي

---

(١) اقرأ سيرة الصّحابية الجليلة هند بنت عتبة في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (٢/٣٣٥ ـ ٣٥٤) ففي سيرتها آثار حسان، ووقفات لطيفة، وكلمات فواحة بندى الأدب ناهيك بصحبتها رضي الله عنها.

حاجتَكِ، فلا تستحي مني، فإنَّ ما بين الرِّجال لا يتعداهم إلى النِّساء، وإنَّ أَوْلى النَّاسِ بإسعادكِ ابنةُ عمِّكِ[1].

وشعرتْ زينبُ رضي الله عنها بأنَّ هندَ بنتَ عتبة صادقة بما تقول[2]، وما جاءتها إلَّا لتقدمَ المعونة والمشورة والنَّصح والمال بدافعٍ من المروءة العربيّة الصِّرفة، ولكنَّ زينبَ ظلَّتْ حذرة إلى حدٍّ ما، واستعانت على قضاءِ حاجتها بالكتمان والهدوء، وردَّت على هندٍ ردّاً جميلاً، وصرفتها مصحوبة بالثّناء والشّكر لهذهِ المروءة الفريدة.

وتجهّزت زينب رضي الله عنها حتى إذا ما فرغتْ مِنْ جهازها، تقدَّم أخو زوجها كنانة بن الرَّبيع، وحملها على بعيرٍ فركبته، وأَخَذَ قوسه، وكنانته، ثمَّ خرج بها نهاراً يقود بعيرها، وهي في هودجٍ لهاً، وتحدَّث بذلك الرِّجال من قريش، والنِّساء كذلك، وأقبل بعضهم على بعضٍ يتلاوَمُون، وخرجوا في طلبها سِرَاعاً

---

(١) نساء من عصر النبوة (٢/٣٣٩) بشيء من التصرف، وانظر المصادر التالية: مجمع الزوائد (٢١٤/٩ و٢١٥) وتاريخ الطبري (٤٣/٢) وغير ذلك من المصادر المتعددة.

(٢) إنَّ حديث هند بنت عتبة هذا يحملُ صورةً مِنْ مكارمِ العرب في مروءاتها، لأنَّها كانت صادقة فيما قالت. قالت زينبُ رضوان الله عليها: فوالله ما أُراها قالت ذلك إلا لتفعل، ولكنِّي خفتُها فأنكرت أن أكونَ أريد ذلك.

والحقيقة إنَّ هذا الموقف الذي وقفته هند بنت عتبة مِنْ زينبَ بنتِ رسول الله ﷺ من أعجب العجب، ولكنّه في ذرى الشّرف لا يُسْتَغرب من أعلياءِ بيوتات العرب، وهو سَنَن مسلوك في مكارم أخلاقهم مُستَعْذَبٌ مقبول.

فهندُ بنتُ عتبة صاحبة هذا الموقف النّبيل المتسامي بنبلهِ فوق مألوف الطّباع البشرية، هي التي قُتل أبوها وأخوها وعمّها بالأمسِ القريب في بَدْرٍ، ولا تزال دماؤهم على أرض بدر لم تجفّ، قَتَلَهُم ثلاثةٌ هاشميون مِنْ عمومةِ زينب رضي الله عنها، وكأنّما سيوفهم تحشُ أحشاءَ هند حشّاً، وهي تعرضُ على زينب أشرف مكارم المروءة، فقد أحرقوا كبدها، غليلها، حتى كانت غزاة أحد وصَنَعَتْ ما صَنَعَتْ.

ثم إنَّ هند بنت عتبة أسلمتْ، وكانت متكلّمةَ المبايعاتِ من المسلمات، ومن اللاتي كُتِبَ الخلود في دُنيا المكارم، وفي مكارم الدّنيا رضي الله عنها.

حتى أدركوها بذي طوى[1]، وكان أوّل مَنْ سَبَقَ إليها هَبَّارُ بنُ الأسود بن المطلب، ونافعُ بن عبد عمرو، فروَّعَهَا هبَّار بالرُّمحَ وهي في هودجها، وكانت حاملاً، فغدت تنزفُ دَمَاً، فما كان من حموها كنانة بن الرَّبيع إلا أن بَرَكَ، ونَثَرَ كنانته بين يديه، وأخذ منها سَهْماً فوضعه في كَبِدِ قوسه، وراح يهدِّد القوم قائلاً: والله لا يدنو مني رجلٌ إلا وضعتُ فيه سَهْماً.

فتكركَرَ - رَجَعَ - النَّاس عنه وخافوه، وأتى أبو سفيان ابن حرب في جِلَّة منْ قريش وقال: أيّها الرّجل كفّ عنا نبلك حتى نكلّمَك.

فكفّ كنانة، ووقف، فأقبل أبو سفيان حتى وقَفَ عليه وقال له: أيّها الرَّجل، إنَّك لم تُصِبْ، ولم تحسنْ، خَرَجْتَ بالمرأةِ على رؤوس النَّاس علانيّة جهاراً في وضح النَّهار، وقد عرفتَ مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمّد أبيها بالأَمْسِ القريب، فيظنّ النَّاس إذا خرجت بابنته إليه علانية أنَّ ذلك على ذلٍّ أصابنا، وأنَّ ذلك مِنَّا وَهْنٌ وضَعْفٌ، ولعمري ما لنا في حَبْسِها عن أبيها من حاجة، وما فيها منْ ثَأْر نَثْأره، ولكنِ ارجعِ اليومَ، حتى إذا هدأتِ الأصواتُ، وتحدّث النّاس أنا رَدَدْنَاها، فإذا كان الليل، سُلَّها سِرّاً، وأخرجها خفية، وألحقها بأبيها، وإذ ذاك لا يكون عليك أو علينا حَرَجٌ[2].

وراحتْ زينبُ رضي الله عنها تنظرُ إلى الدم الذي ينزفُ منها في خوفٍ، ورأى كنانة بن الرَّبيع أنْ يعودَ بها إلى مكةَ استجابةً لتوسّلِ أبي سفيان ومَنْ معه، وَحِفْظاً لحياةِ زينبَ ابنة الرَّسول رضي الله عنها.

ورجعَ القومُ نحو مكةَ، فلَقِيَتْهم هند بنت عتبة وهم عائدون، وعلمتْ ما فعله هبَّار من عملٍ شائن مع البَضْعَةِ النبويّة زينب، فتأثّرت هند زوج أبي سفيان، وعيّرتهم، وذكرت جُبْنَهم ومهانتهم في الحرب، وتشاجعهم على ردِّ

---

(١) ذو طوى: موضع قرب مكة، به كان البئر المعروف بالطّوى. (معجم ما استعجم للبكري ٨٩٦/٣).

(٢) عن تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص٦٩) ومجمع الزوائد (٢١٥/٩) بشيء من التصرف. وانظر تاريخ الطبري (١٣٤/٢).

امرأةٍ من سفرها إلى أبيها، فأنشدت تذمّهم وتهجوهم:

أَفِي السّلم أعياراً جَفَاءً وَغِلْظَةً
وفي الحربِ أشباه النِّساء العَوَارِكِ[1]

وبينما كانت زينبُ رضي الله عنها في طريقِ عودتها إلى مكةَ ألقتْ ما في بطنها[2]، وأصابها الضَّعَفُ والوهن والمرضُ.

مكثت زينبُ رضي الله عنها بضعة أيّام حتى استردت بعضَ قواها، وهدأ صَخَبَ القرشيين عنها، وغوغاء الفجّار عن هجرتها، وعندئذ حملها كنانة بن الربيع على بعيرها، وخرج بها، وهو يسلُّها سَلاً خَفَيّاً خشية الطّلب ثانية.

وكان رسولُ اللهﷺ، لماخلّى سبيل أبي العاص، بعث بعده زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، وقال لهما: «كونا ببطنِ يأجج حتى تمرّ بكما زينب فتصحبانها حتى تأتياني بها»[3] وذلك بعد بَدْرٍ بسنَةٍ.

خرج زيدٌ وصاحبه ينتظران، حتى خرجَ كنانة بن الرّبيع ليلاً يقودُ هودجَ زينب رضي الله عنها، فسلّمها إلى زيدٍ وصاحبه الأنصاريّ، وهو يذكرُ ما حصل له مع هبَّار، ومع مشركي قريش وينشد قائلاً:

عجبتُ لهبّارٍ وأوباش قومه يريدونَ إخْفَاري ببنتِ محمّدِ
ولستُ أبالي ما بقيتُ ضجيعهم إذا اجتمعتْ يوماً يدي بمهنّدِ[4]

وسارَالرّجُلان حتى قدما بزينبَ رضي الله عنها على النّبيّﷺ، فاستقبل ابنته العزيزة الكريمة العائدة إلى دارِ الإسلام والسّلام؛ وعَلِمَﷺ ما بزينب منْ آلام

---

(١) «السّلم» الصّلح. «أعيار» جمع عير وهو حمار الوحش، والعيّار من الرجال: الذي يخلي نفسه وهواها. «النساء العوارك» النساء الحوائض.

(٢) مجمع الزوائد (٢١٢/٩).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (ص٦٩) وبطن يأجج: مكان من مكة على ثمانية أميال..

(٤) انظر: منح المدح لابن سيد الناس (ص٢١٣) ويروى البيت الثاني على النحو التالي:

ولست أبالي ما حييت عديدهم وماستجمعت قبضاً يدي بمهند

سببها هبّار بن الأسود، وعَرَفَ ما كان من قسوتِهِ، فأهدر دَمَه، ودَمَ صاحبه نافع بن عبد عمرو وقال: «إنْ لقيتموهما فاقتلوهما. . . .»[1].

ويؤيّد هذا ما وَرَدَ في الصَّحيح وغيره عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّه قال: بَعَثَ رسولُ اللهﷺ سرية، وكنتُ فيهم، فقال: «إنْ لقيتم هبَّار بن الأسود، ونافع بن عبد عمرو، فأحرقوهما». وكانا نَخَسَا بزينبَ بنتِ رسول الله حين خرجتْ، فلم تزلْ ضَبِنَة ـ مريضة ـ حتى ماتتْ. ثمّ قال: «إنْ لقيتموهما فاقتلوهما، فإنّه لا ينبغي لَأحَدٍ أنْ يعذِّبَ بعذابِ الله»[2].

أقامت زينبُ رضوان الله عليها بالمدينة المنوَّرة، وهي مستظلة بظلال الحنان والأُنْسِ برعاية أبيها رسول اللهﷺ، وأنستْ بأختيها أمّ كلثوم وفاطمة، بينما كانت رقيّة قد توفيت عندما رجعَ رسولُ اللهﷺ من غَزَاةِ بَدْر.

وبقيت زينبُ رضي الله عنها في المدينة المنوّرة قرابة ست سنين حتى فتح الله على زوجها أبي العاص بالإسلام، وكان لإسلامه قصّة لطيفة ظهرت فيها زينب رضي الله عنها بأروع صور كرامة المرأة، ودقّة وجدانها، وصَوْن كرامتها.

أمَّا كيف كان ذلك، فنحنُ مرسلو القول ـ بإذن الله ـ في ذلك كيما نسعد، ونحنُ نعيش هذه اللحظات المباركة في ظلالِ البيت النَّبويّ الذي أذهب عنه الرِّجس، وطهّره تطهيراً.

كَرَامَتُهَا وَإسْلَامُ زَوْجِهَا:

إنَّ كرامةَ المرأةِ في الإسلام تتناول شَخْصَها وسيرتَها، وتشمل مَشْهَدها ومغيبَها، فمِنْ حقِّها أنْ تكونَ هي في موطنِ الرِّعاية والعنايةِ، وأنْ يكونَ لها من

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢٤٧) والسيرة النبوية (١/٦٥٤) ومجمع الزوائد (٩/٢١٢) والمستدرك (٤/٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد؛ باب لا يعذب بعذاب الله. والتّرمذي في السّير (١٥٧١) ومن الجدير بالذكر أن هبار بن الأسود قد أسلم، ولم تصبه السَّرية، وإنّما أصابه الإسلام، فهاجر.

الحرمَةِ والكرامة ما يضمنُ حرّيتها.

وهذا ما كان لزينبَ ابنة الرَّسولﷺ، فقد عَرَفَ الإسلامُ لها حقَّها، وأشادَ بمكانتها، وحَفِظَ مكانَها لما أجارتْ زوجَها أبا العاص، وإذ ذاك فتحَ الله عزَّ وجلَّ بصيرتَه، وأكرمَه بنعمةِ الإيمان وأضحى أَحَدَ فرسان المدرسة المحمّدية.

أقام أبو العاص بن الرّبيع زَمَناً على الشّرك، وذلك بعد هجرة زينب، وكان يعملُ بالتّجارة، فخرجَ تاجراً إلى الشّام قبل فَتْح مكة ـ وكان رجلاً مأموناً ـ وكانت معه بضائع وأموال لقريش، بالإضافةِ إلى ماله، وفي طريقه إلى الشّام تذكّر زوجه زينب، وطالما تذكّرها وذكرها في شعره، وممّا قال فيها:

ذكــرتُ زيــنــبَ لمــا ورَّكَــتْ أَرمَــا
فَقُلْتُ سُقْياً لِشَخْصٍ يَسْكُن الحَرَمـا(١)
بنت الأمــينِ جَـزَاهــا الله صــالحــةً
وكــلُّ بَعْــلٍ سيثني بــالــذي عَلِمَا(٢)

ودخل أبو العاص الشّام، وباعَ وربح أموالاً كثيرة، فلمّا رجعَ منْ تجارته، لقيته سرية لرسولِ اللهﷺ قوامها سبعين ومئة راكب يرأسها زيد بن حارثة رضي الله عنه؛ وأحاطَ زيدٌ ومَن معه بِعيْر قريش، وإذ ذاك وَجَدَ رجالُ القافلة أنهم عاجزون عنِ الدِّفاع فأسلموا أنفسهم وتجارتهم لرجال السَّرية، وكان فيها فضَّة كثيرةٌ لصفوان بنِ أمية، وأصابوا كلَّ ما في القافلة، واستاقوا العِيْرَ، بينما أفلتَ أبو العاص فأعجزهم هرباً.

قدم زيدُ وأصحابه بالغنائم على رسولِ اللهﷺ فقسمه بينهم، وأقبل

---

(١) «ورّكت»: أي ثنت رجلها على ناقتها لتستريحَ، وقيل: ورّكْتُ الجبل توريكاً، إذا جاوزته «أرم» اسم ناقتها، وقيل: اسم جبل ـ أو مدينة ـ.

(٢) السّمط الثمين (ص١٨٤) وعيون الأثر (٢/٣٦٥) ومنح المدح (ص٢٨٤ و٢٨٥) والمستدرك (٤/٤٤)، وقد روى ابن سيّد النّاس البيت الثّاني على النّحو التالي:

بنتَ النبي جــزاهــا الله صــالحــة   وكـل شخصٍ سيثني بـالـذي علما

أبو العاص بن الرَّبيع في الليلِ حتى دَخَلَ على زينبَ، فاستجار بها فأجارته، وسألها أنْ تطلبَ له مِنْ رسولِ الله ﷺ ردَّ ماله عليه، وما كان معه منْ أموالِ النَّاس فوعدته خيراً.

وترامى في جنباتِ المدينة صوت بلال بن رباحِ وهو يؤذِّن بالفجرِ، فخفَّ زيدُ بنُ حارثة وأصحابُ رسول الله ﷺ ليصلّوا خَلْفَ رسولِ الله ﷺ.

ووقفَ الرَّسولُ الكريم، واصطفَّ المسلمون خَلْفَه في هدوءٍ، فلمّا دخلوا في الصَّلاة، وكبَّر الرَّسول، وكبَّر النَّاس معه، إذ بصوتِ ابنته زينب رضي الله عنها يدوي في المسجد، وينبعثُ مِنْ صُفَّة النِّساء تقول:
أيّها النَّاس إنّي قد أجرتُ أبا العاص بن الرَّبيع[1].

فلمّا قُضيتِ الصَّلاةُ، وسلَّم النَّبيّ ﷺ، أقبل على أصحابه الكرام وقال: «ما علمتُ بهذا، وإنَّه يجيرُ على النَّاس أدناهم».

ثم انصرفَ الحبيبُ المصطفى ﷺ فدخلَ على ابنته زينب رضي الله عنها، ليعرفَ حقيقة الْأمْرِ، ثمّ إنّه قال لها:
«قد أجرنا مَنْ أجرتِ، والمؤمنون يَدٌ على مَنْ سواهم يجيرُ عليهم أدناهم»[2].

وسألته زينب رضي الله عنها أنْ يردَّ على أبي العاص ما أُخِذَ منه، فصمتَ ﷺ قليلاً، ثمّ أَمَرَهَا إلا يقربها ما دام مُشْركاً وقال: «أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك فإنّك لا تحلّين له»[3].

---

(١) مجمع الزوائد (٩/٢١٣) وتاريخ الطبري (٢/٤٤) والكامل لابن الأثير (٢/١٣٥).

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد (٤/١٩٧) و(٢/٣٦٥) من حديث أبي هريرة بلفظ «يجير على أمتي أدناهم» وروى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم». وانظر الكامل في تاريخ (٢/١٣٥) ثبت في الصّحيحين وفي الموطأ والتّرمذي والمسند أنَّ النّبيّ ﷺ أجار رجلين قد أجارتهما أم هانيء ابنةعمه أبي طالب، وقد توسعنا في ذلك في كتابنا نساء من عصر النبوة (٢/٢٢٣ و٢٢٤) بترجمة أم هانيء رضي الله عنها فلتراجع.

(٣) مجمع الزوائد (٩/٢١٦) ودرر السحابة (ص٢٨٢).

كانت زينبُ مسلمة، وكان أبو العاص مشركاً، لا يزال على دِيْن الوثنية، وقد حرّم الله عزَّ وجلَّ نكاح المؤمنات على المشركين.

وخرجَ رسولُ اللهﷺ وبعثَ إلى السَّرية من أصحابه الذين أصابوا مَالَ أبي العَاص وقال لهم: «إنَّ هذا الرَّجل مِنّا حيثُ قد علمتمْ، وقد أصبتم له مالاً، فإنْ تحسنوا وتردُّوا عليه الذي له، فإنّا نحبُّ ذلك، وإنْ أبيتم، فهو فيءُ الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحقُّ به».

فقالوا جميعاً: بل نردّهُ عليه يا رسول الله.

فردّوا عليه ما أصابوا، حتى إنَّ الرَّجل ليأتي بالقِرْبَةِ القديمة، والرَّجل بالإِدَاوَةِ[1]، والرَّجل بالحبْلِ، فما تركوا قليلاً أصابوه، ولا كثيراً إلا ردّوه عليه.

وعاد أبو العاص بأموالٍ وتجارة قريش التي عُقِدَتْ بناصيته أمانتُها - في وقتٍ استحكمت فيه شدائدُ الأزمات بينها وبين المسلمين - لم يفقدْ منها شيئاً، فكان موفورَ الكرامةِ، وفياً أميناً، وأعطى كلَّ إنسانٍ ما كان له مِنْ مالٍ في هذه التِّجارة، ثم نادى في قريش علانية فقال: يا معشر قريش هل بقيَ لأحدٍ منكم معي مَالٌ لم أردّه عليه؟

قالوا: لا فجزاكَ الله خيراً، قد وجدناكَ وفيّاً كريماً.

وعند ذلك أعلنَ أبو العاص بن الرّبيع إسلامه، وشهد شهادة الحقِّ، وقريش مجتمعون عليه فقال وهو مستبشرٌ مشرقُ الوجهِ مطمئنُ القلب والضَّمير: أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً عبده ورسوله؛ أمَا والله - يا معشر قريش - ما منعني أنْ أسلمَ قبل أنْ أقدمَ عليكم إلا خشية أنْ تظنّوا بي إنّما أسلمتُ لأذهب بأموالكم، فلمّا أدّاها الله إليكم، وفرغتُ، أسلمتُ[2].

---

(١) الإداوة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء.

(٢) عن تاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص٧٠) ومختصر تاريخ دمشق (٤٦/٢٩) مع الجمع والتّصرف، وانظر السّيرة النّبويّة (٦٥٧/١ و٦٥٨) وسير أعلام النّبلاء (٢٤٩/٢) وطبقات ابن سعد (٣٣/٨) والاستيعاب (١٢٦/٤ - ١٢٨) والإصابة (١٢١/٤ و١٢٢) والسّمط الثمين (ص١٨٥ و١٨٦) وزاد المعاد (٢٨٢/٣) ومجمع الزوائد (٢١٦/٩) وتاريخ الطّبري (٤٤/٢) وغيرها.

الرَّسُولُ وَزَيْنَبُ وَأَبُو العَاصِ:

كانت زينبُ رضي الله عنها ترى بثاقبِ نور بصيرتها، أنَّ زوجَها أبا العاص بن الربيع، لنْ يسلَمه عقلُه وتفكيره إلا إلى خير، وقد تحققتْ فراستها المنبعثةُ مِنْ نورِ الله، وها هو أبو العاص يعلنُ إسلامه أمامَ الملأ الوثني القرشيِّ، دون خوفٍ أو وَجَل، فقد استنار بنورِ الله، واستشعر عظمةَ الله في نفسه، فلم يَعُدْ يخشى أحداً إلا الله.

خرج أبو العاص رضي الله عنه من مكةَ ميمّماً المدينة المنوّرة مهاجراً، خرجَ وهو منشرحُ الصَّدْرِ، مسرور الفؤاد، رضي النَّفس والعقل، لا يطمع في مالٍ ولا سُلْطان ولا جاه، وإنما يريدُ وَجْه الله عزَّ وجلَّ، إنَّه يريدُ نعمة ينعم فيها، فقد تذوَّقَ حلاوة الإيمان، ومَنْ يتذوق حلاوة الإيمان فلن يرضى بغيره بديلاً.

كان أبو العاص يسيرُ مهاجراً، وأفكاره تَتَألَّقُ في وجدانه، إنَّه قد اعتنقَ الإسلام بعد تدبّرٍ وتأمّلٍ وتفكير، اعتنقه بمحضِ إرادته وحريته بعد أنْ طرحَ عن عاتقه ما ورثه منْ سخافاتٍ عمياءَ خلّفتها الجاهلية البغيضة.

وبلغ أبو العاص المدينة المنوّرة، فاتّجه إلى دُورِ رسول الله ﷺ، فاستقبله المسلمون بالتّرحاب، استقبلوه استقبال المهاجرين إلى الله عز وجل، فقد كانت هجرته إلى الله ورسوله.

وكانت زينبُ رضي الله عنها أكثر النّاس سروراً بعودةِ أبي العاص بن الرَّبيع إلى الإيمان، وإلى المدينة المنوّرة وإلى دَوْحَةِ المؤمنين، وأصبح منَ الرَّاشدين، وكانت عودةُ أبي العاص مهاجراً في المحرّم سنة سَبْع من الهجرة، فردَّ عليه رسولُ الله ﷺ زوجته وابنة خالته زينب بذاك النِّكاح الأوَّل.

أخرج أصحابُ السُّنَنِ وغيرهم عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ رَدَّ ابنته إلى أبي العاص بعد سنين بنكاحها الأوَّل، ولم يحدثْ صَدَاقاً(1).

---

(1) أخرجه أبو داود (٢٢٤٠) في الطّلاق، باب إلى متى تردُّ عليه امرأته إذا أسلم. والتّرمذي (١١٤٣) في النّكاح باب: ما جاء في الزوجين المشركين يسلم أحدهما. =

نعم، فقد كان أبو العاص معدوداً في رجالاتِ قومه ثراءً، وتجارةً، وأمانةً، وشهامةً، ومروءةً، وصدقاً، وإخلاصاً، أَصْهَرَ إلى النّبيِّ ﷺ قَبْل البعثة، واختارته خديجة لابنتها زوجاً، ورضيه النّبيُّ ﷺ له صِهْراً، فكان منْ أكْرمِ النَّاس وفاءً في عشرتهِ الزَّوجية، وتقديره لهذا الإصهار الأكرم، وكان النَّبيُّ ﷺ يثني عليه في صهرهِ. كما رواه في الصَّحيح.

وهذا موقفٌ مباركٌ يمثِّلُ جوانب رائعة منْ منهجِ رسالة الإسلام، كان رسولُ الله ﷺ فيه هو الوجه المشرقُ الذي أضاءَ الطَّريقَ أمام مسيرةِ الدَّعوة، وكانت ابنته زينب رضي الله عنها تمثِّل مفتاح الموقفِ الذي انطلقتِ الحياةُ من أبوابِهِ، وكان أبو العاص بن الرَّبيع المحور الذي دارتِ الوقائعُ والأحداثُ مِنْ حوله.

فالحبيبُ المصطفى ﷺ بَسَط يَدَ مكارمِهِ لهذا الرَّجل الذي كان صاحبه وصفيّه قبل البعثة، وفتح له طريق الهداية بعد بعثته، فوفى له وفاءً بوفاءٍ، وبوّأه منه منزلةَ المصاهرةِ، وهي منزلةٌ لا تكون إلا بين متصافيَيْنِ، ووقفَ منه موقفاً حفظ عليه كرامته بين قومه، وأقرَّ جوارَ ابنته له حتى يطمئن وهو متطلِّعٌ إلى رَدِّ ما أُخِذَ منه ليردَّه على أصحابه، وتحقَّقَ له ما أراد، وعاد إلى مكةَ مرفوعَ الرّأس، موفور الشَّخصية، وأعطى الحقوقَ لأصحابها، حتى إذا لم تبقَ عليه تَبِعَةٌ لأحد، أعلنَ إسلامه الذي كان يضمره منذ أنْ رأى مكارمَ النَّبيِّ ﷺ تغمره، ومنذ أنْ رأى وفاءَ ابنةِ خالته يحقِّقُ له آماله.

لم يعلنْ أبو العاص إسلامه يوم أنْ كانَ بالمدينةِ محفوفاً بالرِّعاية مِنْ رسولِ

= وابن ماجه (٢٠٠٩) في النّكاح باب: الزوجان يُسلم أحدهما قبل الآخر. والدارقطني (ص٣٩٦) والحاكم (٢/٢٠٠) و(٣/٣٢٧ و٢٣٨) و(٤/٤٦) وعبد الرزاق (١٢٦٤٤) انظر: السّيرة النّبوية لابن هشام (١/٦٥٨ و٦٥٩) وابن سعد في الطبقات (٨/٣٣) وزاد المعاد (٥/١٣٤) وتاريخ الإسسلام (المغازي ص٧٠) والإصابة (٤/٣٠٦) والسّمط الثمين (ص١٨٦) وأسُد الغابة (٦/١٣١) وتارخ الطبري (٢/٤٤) وغيرها كثير من المصادر المتنوعة.

اللهﷺ خشية قالة السّوء، وأنَّ قريشاً تظنُّ به أنْ فَعَلَ ما فعل ليأكل أموالهم بالباطلِ ، فلمّا فرغ من أداءِ أمانته، واستبرأ ذمّته أعلنَ إسلامه، وأرضى رسول اللهﷺ فكافأه، وردَّ عليه زوجته الوفيّة الحبيبة الصَّابرة زينب رضوان الله عليها.

نعم لقد ردَّ الحبيبُ المصطفى ابنته زينب على أبي العاص بن الرَّبيع عندما أسلم زَمَنَ الحديبية، وأسلمت هي من أوّل البعثةِ، فبين إسلامها وإسلامه أكثر من ثماني عشرة سنة رضي الله عنهما.

«لَهُمَ دَارُ السَّلَامِ»

اجتمع شَمْلُ زينب وأبي العاص بعد أنْ كان مُمَزّقاً، وكاد أنْ يتلاشى لولا أنْ تداركَ الله أبا العاص برحمته، وتلاقى الزَّوجان المؤمنان بعد فراقٍ طال قرابة سنواتٍ ست، فقد كان بين هجرتها وإسلامه ست سنين عدداً.

وفي كَنَفِ رسول اللهﷺ عاشت زينبُ وزوجها ينهلان من أدب النّبوّةِ، ومن معينها الصَّافي، وراحَ أبو العاص يحضرُ مع رسولِ اللهﷺ الصَّلاة في المسجد النّبويّ الشّريف، ويتداركُ ما فاته مِنَ المعرفة في الأيّام الخاليةِ.

أمّا زينب عليها سحائب الرّضوان فقد لازمها المرضُ وسكنتِ الآلام في أحشائها، ومضتْ بضعةُ أعوام، وزينب تعاني المرض[1]، ولكنّها كانت سعيدة بخروج زوجها منَ الظُّلمات إلى النُّور، إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ.

وأطلت السَّنَةُ الثَّامنةُ[2] منَ الهجرة على المدينة المنوّرة، فإذا بزينب بنتِ رسول الله تودِّع هذه الدُّنيا، لتنتقل إلى دار السَّلام، إلى عند مليك مقتدر، وهي

---

(١) أورد الهيثمي - رحمه الله - في المجمعِ، عن عروة بنِ الزبير أنَّ رجلاً أقبلَ بزينب بنت رسول اللهﷺ، فلحقهُ رجلانِ من قريش، فقاتلاه حتى غلباهُ عليها، فدفعاها، فوقعتْ على صخرةٍ، فأسقطتْ وهريقت دَماً، فذهبوا بها إلى أبي سفيان، فجاءته نساءُ بني هاشم، فدفعها إليهن، ثمّ جاءت بعد ذلك مهاجرةً، فلم تزلْ وجعة حتى ماتتْ من ذلك الوجع، فكانوا يَرونَ أنّها شهيدة. (مجمع الزوائد ٢١٦/٩) وقال الهيثمي: رواه الطّبري وهو مرسل، ورجاله رجال الصّحيح. وانظر (در السحابة ص٢٨٢).

(٢) سير أعلام النّبلاء (٢٥٠/٢) والمواهب اللدنية (٦٠/٢).

متأثرة بِعِلّتها التي لزمتها منذُ أيام هجرتها إلى المدينة المنوّرة.

وتوفيت زينبُ رضي الله عنها في أوَّل سنة ثمان[1] للهجرة، وتركت في نفس زوجها جُرحاً غائراً لفراقها، إذ كان اللقاء عاماً أو أكثر بعد إسلام أبي العاص، ولكنّه مليءٌ بالخيرات.

وَدَوَى في المدينة المنوّرة خبرُ وفاةِ زينب بنت رسول الله ﷺ، فجاءَ النَّاس حتى يشيّعُوها إلى مثواها الأخير.

وجاءتِ الصَّحابيةُ الكريمةُ أمّ عطيّة الأنصاريّة[2] لتقومَ بواجبها تجاه زينب رضي الله عنه، وتروي أمُّ عطية توجيهَ رسولِ الله ﷺ في كيفيةِ غَسْلِ ابنته زينب، تقول أمُّ عطية:

لَمّا ماتت زينبُ بنتُ رسول الله ﷺ قال: «اغْسِلْنَها وتراً ثلاثاً، أو خمساً، واجعلنْ في الآخرةِ كافوراً، أو شيئاً مِنْ كافور، فإذا غَسَلْتُنَّها فأعلمنني» فلمّا غسلناها أعطانا حقْوَه - إزرار - فقال: «أشعرنَها إياه»[3].

وروت أمُّ عطية رضي الله عنها قالت: لما غسلنَا بنت رسول الله ﷺ، قال لنا رسولُ الله ﷺ، ونحنُ نغسلها: «ابدؤا بميامنها ومواضع الوضوء»[4].

---

(١) تفسير القرطبيّ (١٤/٢٤٢) وتاريخ الطّبري ٩٢/١٤٤) والكامل (٢/٢٢٩).

(٢) اقرأ سيرة الصّحابية الجليلة أمّ عطية الأنصارية في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (١/١٦٧ - ١٧٧) فسيرتها عطاء في عطاء رضي الله عنها.

(٣) هذا الحديث من الأحاديث الصّحيحة التي رواها السُّتة في كتبهم.
فقد أخرجه البخاري في الجنائز، باب غسل الميت. وأخرجه برقم (١٢٥٤ و١٢٥٨ و١٢٦٠) وأيضاً (١٦٧ و١٢٥٥ و١٢٥٦ و١٢٦٣) ومسلم (٩٣٩) وأبو داود (٣١٤٢) والنّسائي (٤/٢٨ و٢٩) وابن ماجه (١٤٥٨) والتّرمذي (٩٩٠) وأخرجه كذلك ابن سعد في الطبقات (٨/٣٤ و٣٥) ومالك في الموطأ (١/٢٢٢) وانظر: الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة للبغدادي (ص٩١) وتاريخ الإسلام للذهبي (ص٥٢٠) والإصابة (٤/٣٠٦) والسمط الثمين (ص١٨٧) ونساء من عصر النبوة التابعين (١/١٢٢) وغير ذلك من المصادر.

(٤) انظر السمط الثمين (ص١٨٧).

وصلّى عليها رسول الله ﷺ في مسجدِهِ، ثمَّ شيّعها إلى مثواها الأخير في البقيعِ[1].

وعاد أبو العاص بن الرَّبيع إلى بيتِهِ، ودخل الدَّار، فإذا بها ساكنة سكون القبور، وإذا بها مظلمة وإن انتشرت فيها أشعَّةُ الشَّمْس في وضَحِ النَّهار، وإذا بها موحشة بلا حياة، فقد ذهبتْ زينب رضي الله عنها، تلك التي كانت نَبْض سروره، وأنفاس بهجته، وروح أنْسه، وأنْس روحه، وفؤاد دنياه، ودنيا فؤاده، واستشعر رغبة في أنْ يشمَّ عبير ذكراها، وعبق خيالها، فراحَ إلى حيثُ كانت قلادتها، تلك التي كانت لخالته خديجة بنت خويلد، والتي خصَّتْ بها ابنتها زينب، لقد رقَّ هو الآخر رقَّةً شديدة ذكرته برقَّة رسول الله ﷺ يوم بعثت زينب بالقلادة لتفديه بها.

ألا ما أقسى الفراق، لقد أضحى أبو العاص مُضَعْضَع النَّفس، كسيرَ الفؤاد، فقد كانت زينبُ كلَّ شيء في حياته، وأمَل دنياه، ودنيا أمله، وكادَ الحزنُ يقضي عليه، لولا أنْ وَجَدَ في ابنتِهِ أمامة صورة حيّة منَ الرَّاحلة زينب تؤنس وحشته، وتأسو جراحه، وتخفِّفُ بعضَ ما نزل به.

وعاش أبو العاص مرعيَ الجانب في المدينة المنوّرة، وقد أثنى عليه رسول الله ﷺ في مصاهرته خيراً، فقد وَرَدَ في الصَّحيح وغيره، أنَّ رسول الله ﷺ، أثنى على أبي العاص فقال: «حدَّثني فصدقني، ووعدني فوفى لي»[2].

عاشَ أبو العاص رضي الله عنه أربعة أعوام بعد زينب رضي الله عنها، حيث توفي في خلافة سيّدنا أبي بكر الصِّدِّيق، في ذي الحجّة من السَّنَة الثَّانية عشرة من الهجرة النَّبوية.

---

(١) قال ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ: نزل رسول الله ﷺ في قبرها، وهو مهموم ومحزون، فلما خرج سُرِّي عنه وقال: «كنت ذكرت زينب وضعفها، فسألت تاالله تعالى أن يخفف عنها ضيق القبر وغمّه، ففعل وهوّن عليها» (أسد الغابة ١٣١/٦).

(٢) رواه الشيخان، وأخرجه أبو داود (٢٠٦٩) وأخرجه كذلك ابن ماجه. وانظر الإصابة (١٢٢/٤).

هذه شذرات ذهبية، ووقْفَات[1] عطرة نديّة مِن سيرة زينب ابنة رسول اللهﷺ، أرجو الله عزّ وجلّ أنْ أكونَ قد وفقتُ في الحديثِ عنها، عن أولى حبَّاتِ العِقْد النّبويّ منَ البناتِ الطّاهرات.

وإنّني أرجو الله سبحانه أنْ يكرمني في الحديثِ عن بقيّة بنات النّبيّﷺ الباقيات، لننعمَ معاً في إيناسِ نفوسنا مع سِيَرِ هؤلاء الذين أذهب الله عنهم الرِّجس وطهرهم تطهيراً، وننعمَ في الحياةِ مع نساء أهل البيت النّبويّ الطّاهر كيما يكنَّ زاداً للمسير لنساءِ العَالمين. والحمدُ لله أوّلاً وآخراً.

---

(١) ظلت سيرةُ زينب بنت رسول الله رضي الله عنها حلية المَجَالس، وبهجة المجالس، وأنس المُجَالِس، ومثار الفخر في مجالس الخلفاء والعُلماء، فقد ورد أنَّ سيّدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، قال يوماً لجلسائه: مَنْ أكرم النّاس أباً وأمّاً وجدّاً وجدّة وعمّاً وعمّة وخالاً وخالة؟ فقالوا: أمير المؤمنين أعلم. فأخذ بيد الحسن بنِ علي رضي الله عنهما وقال: هذا؛ أبوه: عليّ بن أبي طالب، وأمّه: فاطمة بنت محمدﷺ، وجدّه: رسول اللهﷺ، وجدّته: خديجة، وعمّه: جعفر، وعمّته: هالة بنت أبي طالب، وخاله: القاسم بن محمّدﷺ، وخالته: زينب بنت محمّدﷺ. (العقد الفريد ٥/٨٧).

رقيّة بنت رسول الله

رضي الله عنها

- تزوّج عثمان رقية بنت رسول الله ﷺ في مكة المكرمة
- هاجرتْ إلى الحبشةِ بصحبة زوجها عُثمان، فكانت سيّدة نساء المُهاجرين، ثمّ هاجرت إلى المدينة.
- ضربتْ أروع الأمثلةِ في الصَّبر والاستسلام لأوامرِ العزيزِ الحميد.
- كانت رقية أوّل بنات النّبيّ ﷺ وفاةً بالمدينة المنوّرة ودُفنتْ بالبقيع.
- ماتتْ في حياةِ أبيها في السَّنَة الثّانيةِ من الهجرة عقب غزاة بدر.

رقية بنت رسول الله رضي الله عنها

نُورُ اللهِ:

في السَّاعاتِ الأولى التَّاليةِ لشروقِ فجرِ الرِّسالة النَّبويّة، أشرقتْ نفسُ خديجةَ بنتِ خويلد وبناتها رضي الله عنهنَّ بنورِ الإيمان، وصُنِعْنَ على عيني رسول الله ﷺ الذي صُنع على عينِ الله عزَّ وجلَّ، فحمل نورَ الله، وهدى الله، وكلمةَ الله إلى الدُّنيا بأسرها.

ومنْ بين صفوف نساء قريش، سيصوغُ الإسلامُ امرأة منهنَّ لتكون واحدة من حبَّاتِ العِقْد الفريد، والدُّر النَّضيد في البيت النَّبويِّ الطَّاهر، الذي أذهبَ الله عنه الرِّجس، وطهَّره تطهيراً.

تُرى مَنْ هذه الجوهرة؟ وأينَ مكانُها في ذلكَ العقْد الثَّمين الذي يفيضُ منْ نورِ الله؟!

إنَّها رقيةُ بنت رسول الله ﷺ الهاشميّة[1]، فهل أتاكَ حديثُ صبرها، وهل

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/٣٦ و٣٧) والمعارفُ (ص١٢٥و١٤١ و١٤٢ و١٥٣ و١٥٨ و١٩٢ و١٩٨) والمعرفةُ والتّاريخ (٣/١٥٩ و١٦٢ و١٦٣) والمستدركُ (٤/٤٦ ـ ٤٨) والاستيعاب (٤/٢٩٢ ـ ٢٩٦) وأسُدُ الغابة (٦/١١٣ ـ ١١٥) ترجمة رقم (٢٩٢١) والسّمط الثمين (ص١٨٧ ـ ١٨٩) ومجمعُ الزّوائد (٩/٢١٦ و٢١٧) والإصابة (٤/٢٩٧ و٢٩٨) وسير أعلام النّبلاء (٢/٢٥٠ ـ ٢٥٢) والمُجتبى (ص٤٢) وتلقيحُ فهومِ الأثر (ص٣٠) وأنساب الأشراف (١/١٢٣ و١٩٩ و٢١٢ و٢٦٩ و٢٨٩ و٢٩٤ و٤٠١ و٤٥٧) والمواهب اللّدنية بالمنح المحمديّة (٢/٦١ و٦٢) والكامل في التّاريخ (٢/٤٠ و٧٦ و١٣٠ و١٣٧ و١٧٦ =

أتاك حديثُ إيمانها وهجرتها وجهادها؟

إنَّ الحديثَ عن هذه المكارم لحديث عَذْبٌ مستعذَبٌ، تشتهيه الأنفس، وتلذُّ له الأسماع، وتتحلّى به الأفواه، وخاصة إذا كان عن سيّدتنا رقية بنت رسول الله ﷺ.

وإذا كان حديثُنا فيما مضى عن سيّدتنا خديجة أمّ المؤمنين ينضح بعرفِ الطِّيب، وطيب العُرْفِ، فلا شكَّ أنَّ رقيّةَ رضي الله عنها قد استمدّت كثيراً من شمائلِ أمِّها، وتمثّلَتْها قولاً وفعلاً في حياتها منْ أوّلِ يوم تنفَّس فيه صبحُ الإسلام، إلى أنْ كانت رحلتها الأخيرة إلى الله عزَّ وجلَّ.

وعندما رحْتُ أقرأُ سيرةَ حياة السَّيِّدة رقيّة رضي الله عنها، استوقفتني كنوزها الغنيّة بمكارمِ الفضائل ونفحات الإيمان، ورشحاتِ التّسليم والاستسلام لله عزّ وجلّ، فكنتُ أُعَاوِدُ الوقوفَ مرّات ومرّات أتزوّدُ من هذه الكنوزِ التي تغني المرءَ عنِ الدّراهم والدّنانير، بل عن أموالِ الدّنيا كلّها، حيث كنوز السَّيّدة رقيّة تجعل النّفوس تحلّقُ في أجواء طيبة، لا يستطيع أصحاب الأموالِ الوصولَ إليها، ولو صرفوا أموالهم.

إنَّ مَنْ يتذوّق طعْمَ الحياة مع الأبرارِ، يترفّع عن الحياةِ التي لا تعرِفُ إلا الدِّرهم، وإلا الدّينار، فدعونا نتذوّق حلاوة الحياة مع الأبرار، ونمتّثل سيرتهم عَمَلاً وعِلْماً في حياتنا، وحياة النِّساء في كلِّ زمان ومكان.

مِنْ نَفَحَاتِ الإِنْعَامِ الإلهيّ:

لا شكَّ في أنَّ العنايةَ الإلهيّة كانت تحفُّ البيتَ النّبويَّ الكريمَ، وكانت

= و٣٠٧) والعقْدُ الفريد (٤/٢٨٥) وتاريخ الطّبريّ (١/٥٢١ و٥٤٦ و٥٤٧) و (٢/ ٣٨ و٤٢ و٢١١ و٦٩٢) ودلائل النّبوة للبيهقيّ (٧/٢٨٢ و٢٨٣) والمغازي النبوية للزّهري (ص٤٣ و٩٦) وتفسير القرطبيّ (١٤/ ٢٤٢) ونسب قريش (ص٢١) ودرّ السّحابة (ص٢٨٣) والمغازي (١/١٠١ و١١٥ و١٥٤) ومختصر تاريخ دمشق (١٦/١١٠) والسيرة النّبويّة (١/٣٣٨) وغيرها كثير من المصادر الأخرى.

نفحاتُ الإنعام الإلهيّ المباركات تجودُ ببركاتها على أهلِ البيت الطّاهر، فلا يخارُ الله لمن طهّرهم إلا الخير وإلا الخيرات، ولا يضعهم إلا في المواضعِ الطّيبة التي تريدها مشيئته سبحانه وتعالى.

وهذا ماكانَ منَ السّيِّدة المؤمنة البَضْعَة النّبوية، رقيّة رضوان الله عليها، إذ اختّصها الباري سبحانه بمكارمِ النّفحات العَطِرة، ونفحاتِ المكارم النّدية، منذ أنْ أيفعتْ، إلى أنْ لقيتْ وجهَهُ الكريم.

قال أصحابُ السِّيرةِ وكتّاب التّراجمِ والطّبقات:

كانتِ السّيِّدةُ رقيّة رضي الله عنها قد خَطَبها عتبةُ بن أبي لهب، وخطب أختها أمّ كلثوم أخوة عُتَيبة بن أبي لهب، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أكرم البيت النّبويّ بأنْ خلَّصَه منْ أبي لهب وزوجه أمّ جميل بنت حرب[1]، بأنْ جَعَلَ المقادير تجري لصالحِ رقيّة رضي الله عنها، وتصرف ابن أبي لهب عن الخطبة، وعن الزّواج.

فلنعشْ سويّا مع البيتِ النّبويّ تلك اللحظات التي تنزّلتْ فيها نفحاتُ الإنعام عليه، وظلّت تحفُّه إلى غيرِ نهاية.

راح سيّدنا رسولُ اللهﷺ، يدعو إلى الإسلام سِرّاً، فاستجاب لله عزّ وجلّ مَنْ شاءَ مِنَ الرِّجال. ومنَ النِّساء والولدان.

وأوحى الله عزّ وجلّ إلى عبده ﴿وأَنْذرْ عشيرتَكَ الأقربين. واخفضْ جناحك لمن اتّبعك منَ المؤمنين. فإنْ عَصَوْك فقل إنّي بريءٌ ممّا تعملون. وتوكّل على العزيز الرَّحيم﴾ [الشُّعراء: ٢١٤ ـ ٢١٧].

وتوكّلَ الحبيبُ المصطفىﷺ على العزيزِ الرَّحيم، وقام بتنفيذ أَمْر ربّه الذي تنزّل ندياً بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فاصدعْ بما تُؤمر وأعرضْ عنِ المشركين﴾[الحجر: ٩٢].

ويبدو أنَّ عمّات رسول اللهﷺ قد نصحنه ألاّ يدعو عمَّه أبا لهب لكيلا

---

(١) اقرأ سيرة أمّ جميل بنت حرب في كتابنا «المبشّرون بالنار» الجزء الثاني، (٢/١٣٩-١٥٢) ولاحظ مدى الحقد العميق الذي ترسخ في داخلها.

ينغّض حياة ابنتيه رقيّة وأمّ كلثوم، ولكيلا تثور هائجته، فلا يدري بما يتكلّم، وحتى لا تنفث زوجه أمّ جميل سمومها في بنات النّبيّ ﷺ فقد كان أبو لهب وأولاده أُلْعُوبة في يَدِ أمِّ جميل التي تنهشُ الغيرة قلبها إذا ما أصاب غيرها خير.

بَلَّغَ رسولُ الله ﷺ الدَّعوة، وأخبر أقرباءه بأنَّ الله عزَّ وجلَّ أَمَرهُ أنْ ينذرَ عشيرته الأقربين، وأنَّه لا يملكُ لهم منَ الدُّنيا منفعة، ولا مِنَ الآخرةِ نصيباً إلا أنْ يقولوا: لا إله إلا الله.

وهنا وقَفَ أبو لهب يلعبُ به الغُرور، ويركبه الطَّيش الأحمق المجنون، وقال: تبّاً لكَ سائرَ اليوم!!!

وانصرفَ أبو لهب تصاحبُه اللّعنات، وترمقه عيونُ الأقربين بشيءٍ منَ الاحتقار، وسأله أحدُ القرشيين: يا أبا لهب ما تفعل إنْ كان ما تقوله محمّد حقّاً؟ فقال أبو لهب في سخريةٍ حقيرة: إنْ كان ما يقوله محمّد حقّاً افتديتُ منه بمالي وولدي.

ورجعَ أبو لهب إلى دارهِ، وراحَ يروي لامرأته الحاقدة أمّ جميل بنت حرب، ما كان من أمْرِ محمّد ابن أخيه الذي أخبرهم أنّه رسول الله إليهم ليخرجهم منَ الظُّلمات إلى صراط العزيزِ الحميد، وراحتْ أمُّ جميل تشارك أبا لهب في سخريته وهزئه.

ويبدو أنَّ أمَّ جميل قد غَلَّفَ الحقدُ قلبها، واستولى الغدر على نفسها، ورانَ الغضبُ على شخصيتها، فأضحت كتلةً منَ الحقد والسُّوء، وأضحتِ الأنانيةُ تحتلُّ أعماقها، فلا تطيقُ الخير لغيرها، فهي تستشعر بنار الحقد ترعى في أحشائها، وخاصة كلّما وصفَ قومها خديجة بالطّاهرة، وكلّما أثنوا عليها، وخلعوا عليها فضائل الصِّفات، وجميل المكارم؛ ولولا الخشيةُ منْ أنْ تكشفَ عن خبيثةِ نفسها الحاسدة الحاقدة الخبيثة، لأعلنتْ على الملأ القُرشيّ سبَّ خديجة، وشَتْم كلّ مَنْ سارع إلى دوحة الإيمان.

ولعب شيطانَ الحقد في نفسها، وأحسّت برغبةٍ عنيفةٍ في داخلها للانتقام من أقرب النّاس إليها من رقيّة وأمّ كلثوم رضي الله عنهما، وإنْ كان هذا الانتقام

سيؤذي ولديها عُتبةَ وعُتَيبة، ولكنّها مادامت ستفرِّغُ كلَّ حِقْد مُمْكن لديها، وتقيء كلَّ عصارةَ كيدٍ في جوانب نفسها، فلا مانع من ذلك كيما تحطِّم - بزعمها - الدَّعوة المحمَّدية.

وانسلَّتْ كالأفعى الرّقطاء، لتدورَ على بيوت قريش وهي تسبُّ الحبيبَ الأعظم محمّداًﷺ، وتنالُ من خديجةَ كيما تشفي حقدها، بل سرطان قلبها، وتحرِّض كفَّار الفجّار على مَنْ جَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً، بل زعمَ أنَّه يُكَّلم من السَّماء.

وطفقت أمُّ جميل تنفثُ من سمومها في كلِّ مكان تكونُ فيه، ولم تكتفِ بكشْف خبيئة نفسها الخبيثة، ولكنَّها راحتْ تزيِّن للنَّاسِ مقاومة الدَّعوة، واجتثاث أصولها، لأنَّها تفرِّقُ بين المرءِ وأخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه، وفصيلته التي تُؤيه.

ولما انتهتْ مِنْ تطوافها، وهي تزرع بذورَ الفتنة، وتبغي نَشْرَ الحقد والفساد، راحتْ تجمعُ الحطبَ لتضعه في طريقِ رسولِ اللهﷺ لتؤذيه، وفي هذا دليلٌ على بُخْلها الذي جُبلت عليه.

ولكنَّ القرآن الكريمَ تَنَزَّل على الحبيبِ المصطفىﷺ نديّاً رَطْباً، نَزَلَ عليه يشيرُ إلى المصيرِ المشؤوم لأمّ جميل بنت حرب، وزوجها المشؤوم أبي لهب، قال الله تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدا أبي لهب وتبّ. ما أغنى عنهُ ماله وما كسب. سيصلى ناراً ذات لهب. وامرأتُه حَمّالة الحطبَ. في جِيْدها حَبْل منْ مَسَد﴾. [المسد: ١-٥].

وهنا تتبدّى النَّفحاتُ الإلهيّة تسري في جنبات البيت النّبويّ، وتحفظُ نساء أهل البيت منْ كلِّ سوء، ومن كلّ ما يمسُّ نقاء الإيمان، وصفاء القلوب الموصولة بالله عزّ وجلّ، وأكرم الله رقيّة وأمّ كلثوم بأنْ جَعَلهما في كَنَفِ ذي النّورين عثمان بن عفان بعد فراق ابني أبي لهب لهما.

كانت رقيّة وأمّ كلثوم ابنتي رسول اللهﷺ في كَنَفِ ابني عمّهما، ولما نزلت سورة المَسَدِ، وذاعت في مكةَ، بل في الدُّنيا بأسْرِها، ومشى بعضُ النّاس بها إلى

أبي لهب وأمّ جميل، اربدَّ وجه كلّ واحد منهما، واستبدَّ بهما الغضب والحنق، ثم أرسلا إلى ولديهما عُتبة وعُتَيبة وقالا لهما: إنَّ محمّداً قد سبَّهما، ثمّ التفتَ أبو لهب إلى ولده عتبة وقال في غضبٍ: رأسي من رأسك حرام إنْ لم تطلّق ابنة محمّد؛ فطلّقها قبل أنْ يدخل بها[1].

وأمّا عُتيبة، فقد استسلم لسَوْرَةِ الغضب وقال في ثورة واضطرب: لآتين محمّداً فلأوذينه في ربِّه.

وانطلق عتيبةُ بنُ أبي لهب إلى رسول اللهﷺ فشتمه وردَّ عليه ابنته، وطلّقها، فقالﷺ: «اللهمّ سلّطْ عليهِ كلباً منْ كلابك» واستُجِيْبَت دعوة الرّسولِﷺ، فأكَلَ الأسدُ عُتيبة في إحدى أسفاره إلى الشّام[2].

رُقَيَّةُ وَ عُثْمَانَ:

طنَّت أمُّ جميل بنت حرب وزوجها أبو لهب أنَّهما بتسريحِ رقيّة وأمّ كلثوم رضي الله عنهما، سيصيبان من البيتِ المحمّدي مَقْتَلاً، أو سيوهنانه، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ خار لرقية وأمّ كلثوم الخير، وردَّ الشَّقيَيْنِ أم جميل وأبا لهب بغيظهما لم ينالا خيراً، وكفى الله البيت النّبويّ شرّهما، وكان أمْرُ الله قَدَراً مَقْدُوراً.

وها هو عثمان بن عفان أحد فتيان قريش مَالاً، وجَمَالاً، وعزّاً، ومنعةً، تصافح سمعه هَمَسات دافئة تدعو إلى عبادةِ العليم الخبير الله ربّ العالمين، وها هو يسمع منَ الملأ القرشيّ بأنَّ محمّداً قد أنكح عُتبة بن أبي لهب رقيّة ابنته ـ وكانت رُقية ذات جمال رائع ـ ويبدو أنَّ عثمانَ قد داخَلْتُه الحسرة؛ لِمَ لا يكون قد سَبَقَ عتبة إلى ذلكَ الشّرف العظيم؟!

وذهب عثمان إلى منزله وهو يفكّر في ذلك، فوجدَ خالته سعدى بنت كُريز

---

(١) المعارف (ص١٤٢) ومجمع الزوائد (٩/٢١٦ و٢١٧) وتاريخ الطبري (٢/٤٣) وتفسير القرطبيّ (١٤/٢٤٢) والمواهب اللدنية (٢/٦١).

(٢) المعارف (ص١٢٥).

أخت أمّه أروى بنت كُريز[1]، وكانت خالته قد تكهَّنَتْ عند قومها، وتعلّمت الخطّ في الرَّمل، والذي يُشْبه التَّنجيم، فلّما رأتْ ابنَ أختها عثمان ـ وكان وضيئاً، حسناً، جميلاً، أبيضَ، مشَرّباً صفرة، جَعْد الشَّعر، تعلوه سِمات الجمال ـ أنشأت تقول:

أَبْشِرْ وحُيِّيتَ ثلاثاً تَتْرى ... ثُمَّ ثلاثاً وثلاثاً أُخْرى
ثمَّ بأُخْرى كي تتمَّ عَشْرا ... أَتاك خيرٌ وَوُقِيتَ شرّا
أُنكِحْتَ والله حَصَاناً زَهْرا ... وأنتَ بِكْرٌ ولَقيْتَ بِكْرا
وافيتها بنت عظيم قَدْرا ... بَنيتَ أمْراً قد أشادَ ذكْرا

وعجب عثمان من قولها، والتفتَ إليها وقال:
يا خالة ما تقولين، فأخذت تقول:

عثمان يا عثمان يا عثمان ... لك الجمال ولك اللّسان
هذا نبيٌّ مَعَه البرهان ... أرسله بحقِّهِ الدَّيَّان
وجاءه التّنزيل والفُرقان ... فاتبعه لا تغتالك الأوثان

وازداد عجب عثمان، وازدادت حيرته ممّا يسمع من خالته وقال لها: يا خالة! إنّك لتذكرينَ شيئاً ما وقع ذكره ببلدنا، فأَبِيْنِيْه لي.
فقالت: محمد بن عبد الله، رسول منْ عند الله، جاء بتنزيل الله، يدعو به إلى الله، مصباحُه مصباح، ودينه فلاح، وأمْرُه نجاح؛ ثمّ إنَّها قامت بعد ذلك، وانصرفت إلى منزلها.

ووقع كلام سعدى في قَلْب عثمان، وجعل يفكّر فيما كانت تقول خالته من كلام، وكان لعثمانَ عند أبي بكر مجلس، فجاءه فوجده في المجلس ليس عنده أحد، وجلس عثمان فرآه أبو بكر متفكراً، فسأله أبو بكر عمّا به، فأخبره عثمان بما

---

(١) اقرأ سيرة الصّحابية الجليلة أروى بن كريز في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (١/١٥٩ ـ ١٦٦) فعبير سيرتها يفوح في أجواء يحكي كرمها، ويحدث عن برها وطاعتها رضي الله عنها.

سمع من خالته سعدى بنت كريز، فقال له أبو بكر: ويحكَ يا عثمان، إنَّك لرجلٌ حازمٌ، ما يخفى عليك الحقّ منَ الباطل، ماهذهِ الأوثان التي يعبدها قومنا؟! أليستْ من حجارة صمٍّ، لا يسمعُ ولا يبصر، ولا تضرُّ ولا تنفع؟!

قال عثمان: بلى والله إنّها لكذلك يا أبا بكر.

فقال أبو بكر: إذن، فقد صدقَتْك خالتك ابنة كريز، هذا رسول الله محمّد بن عبد الله، قد بعثه الله برسالتِهِ إلى خَلْقِهِ، فهل لك أنْ تأتيَه فتسمعَ منه؟

فقال عثمان: نعم.

ويصفُ لنا عثمان رضي الله عنه مشهد إيمانه فيقول: فوالله ما كان أسرع من أنْ مَرَّ رسولُ اللهﷺ، ومعه عليّ بن أبي طالب يحملُ ثوباً، فلّما رآه أبو بكر، قام إليه، فسارّه في أذنهِ بشيء، فجاء رسولُ اللهﷺ فقعد، ثمّ أقبل عليٌّ فقال: «يا عثمان، أجبِ الله إلى جنّتِهِ، فإنّي رسولُ الله إليك وإلى خَلْقه».

قال عثمان: فوالله ما تمالكتُ حين سمعتُ قوله أنْ أسلمتُ وشهدتُ أنْ لا أله إلا الله وحده لا شريك له، ثمّ لم ألبث أنْ تزوَّجْتُ رقيّة بنت رسول اللهﷺ.

فكان يقال: أحسن زوجٍ رآه إنسان: رقية وزوجها عثمان[1].

وفي زواجِ وإسلامِ عثمان تقولُ خالته سُعدى بنت كريز:

هدى الله عُثْماناً بقولي إلى الهُدى
وأرشدهُ والله يهدي إلى الحقِّ
فَتابعَ بالرَّأي السَّديد محمَّداً
وكانَ برأيٍ لا يصدُّ عن الصِّدقِ

---

(١) عن الاستيعاب (٤/٣٢٠ و٣٢١) ومختصر تاريخ دمشق (١٦/١١٤ ـ ١١٦) مع الجمع والتصرف.

وانظر تفسير القرطبي (١٤/٢٤٢) وغير ذلك من المصادر. هذا وقد روي القول على النحو التالي:

أحسن شخصين يرى إنسان   رقية وبعلها عثمان

وأنكحهُ المبعوث بالحقِّ بِنْتَه
فكانا كبدرٍ مازَجَ الشَّمس في الأفقِ
فداؤُك يا بن الهاشميين مهْجَتِي
وأنتَ أمينُ الله أرسلتَ في الخَلْقِ

وسعدتْ رقيّة رضي الله عنها بهذا الزَّواج من التَّقيِّ النَّقيّ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وولدت له غلاماً سمّاه عبد الله، واكتنى به، فبلغ الغلامُ سِت سنين، فَنَقَرَ ديْكٌ عينَه، فتوَّرم وجهه ومرضَ وماتَ، فلم تلدْ له بعد ذلك(١).

رُقَيَّةُ والهِجْرَةُ إلى الحَبَشَةِ:

كانَ المسلمونَ وفي مقدمتهم رقيّةُ وعثمانُ رضي الله عنهما في كَرْبٍ عظيم، فكفّار قريش لا ينفكُّون يُنْزِلون بهم صنوفَ العذاب، وألوان البلاءِ والنّقمة، ﴿وما نقموا بهم إلا أنْ يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ [البروج: ٨].

ولم يكن رسول الله ﷺ بقادرٍ على إنقاذِ المسلمين مما يلاقونه مِنَ البلاء المُبين، وجاءه عثمان وابنته رقية يشكُوَان ممّا يقاسيان منْ فَجَرةَ الكافرين، ويقرّران أنّهما قد ضَاقا باضطهادِ قريش وأذاهم.

وجاء نفرٌ آخزون ممن آمَنَ منَ المسلمين، وشكوا إلى الرَّسول الكريم ﷺ ما يجدون منْ أذى قريش، ومنْ أذى أبي جهل زعيم الفجّار(٢).

---

(١) الاستيعاب (٤/٢٩٢ و٢٩٣) والإصابة (٤/٢٩٧) وسير أعلام النبلاء (٢/٢٥١) والمعارف (ص١٤٢) وتاريخ الطبري (٢/٦٩٢) وتفسير القرطبي (١٤/٢٤٢) ودر السحابة (ص٢٨٣).

قال الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله ـ:

كان عثمانُ في الجاهليةِ يُكنى أبا عمرو، فلّما كانَ الإسلامُ، وُلِدَ له منْ رقية بنت رسولِ الله ﷺ غلام سمّاه عبد الله، واكتنى به، فكنّاه المسلمون أبا عبد الله، فبلغَ عبد الله ست سنين فَنَقَرَهُ ديكٌ على عينِهِ، فمرض، فمات في جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة، فصلّى عليه رسول الله ﷺ ونزل في حفرته عثمان (مختصر تاريخ دمشق ١٦/ ١١٠).

(٢) كان أبو جهل عمرو هشام يأتي الرَّجل الشَّريف إذا أسلم، فيقول له:

وأطرقَ النَّبيُّ ﷺ هنيهةً، ثم أشار عليهم أنْ يخرجوا إلى جهةِ أرضِ الحبشة، إذ يحكمها ملكٌ رفيقٌ لا يُظلم عنده أحد، ومن ثمَّ يجعل الله للمسلمين فرجاً ممّا هم عليه الآن[1].

أخذتْ رقيةُ وعثمان رضي الله عنهما يعدّانِ ما يلزم للهجرة، وتَرْكِ الوطن الأمّ مكةَ أمّ القرى.

وتبدو أمُّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها وهي تودِّعُ ابنتها رقية، وهي تجودُ بدمعٍ غزير، على فراقِ ابنتها إلى بلادٍ بعيدة، ولكنَّ خديجةَ ـ كما عوَّدَتْنا ـ على استعدادٍ لأنْ تجودَ بكلِّ شيء كيما تكون كلمةُ الله هي العُليا، ويشرق نوره على الوجود، وإنَّ فراق الأحبّة ليهون في وجههِ الكريم.

وراحت خديجةُ تنقل بصرها بين فلذة كبدها رقيّة، وبين صهرها عثمان، لتتزوَّد منهما بنظراتٍ هامِسَةٍ هَمْسَ الحنان وذلك قبل الرَّحيل، وخَفَقَ قلبُها هنيهة، ودار في خلدها سؤال عن كيفية حياة ابنتها في تلك الدِّيار البعيدةِ البعيدةِ؛ ولكنَّ هذا الخاطر سرعان ما انقشعَ وتلاشى، ليحلَّ محله الاستسلامُ التَّام لأمْرِ الله عزَّ وجلَّ.

لقد تعَلمتْ خديجةُ وبناتها رضوان الله عليهن في مدرسةِ رسول الله ﷺ لذَّة التَّضحيةِ في سبيلِ مرضاةِ الله عزَّ وجلَّ ورجاء رحمته.

وانطلقَ المهاجرون نحو الحبشةِ تتقدّمهم رقيّة وزوجها عثمان، حتى دخلوا على النَّجاشي، فأكرمَ وفادتهم، وأحسنَ مثواهم، فكانوا في خيرِ جوار، لا يُؤذَوْنَ، يقيمون شعائر دِيْنِهم في أَمْنَ وأَمَان وسلام.

ومع وجود هذا الأمْنَ، وهذا الاستقرار، فإنَّ رقية رضي الله عنها كانت في

= أتترك دِيْن أبيك وهو خيرٌ منك، وتُفيِّل رأيه وتضع شرفه؟ وإن كان تاجراً قال: ستكسد تجارتك، ويهلك مالك، وإن كان ضعيفاً، أغرى به حتى يعذب.
فأذن رسولُ الله ﷺ لأصحابهِ، فهاجروا إلى الحبشة في السَّنة الخامسة من المبعث. (أنساب الأشراف ١/١٩٨).

(١) المغازي النبوية للزهري (ص٩٦).

شوقٍ واشتياق إلى أبيها رسول الله ﷺ، وإلى أمِّها الطَّاهرة خديجة سيِّدة نساء العالمين رضي الله عنها، ولكنَّ المسافةَ بعيدةٌ، وإن كانتِ الأرواحُ لتلتقيَ في الأحلامِ، وإن كان في الحبشةِ ذوو قربى لرقية وعثمان.

ويبدو لي أنَّ السَّيِّدة رقيّة رضي الله عنها كانت أكثر أهل الهجرةِ شوقاً وحنيناً إلى مكةَ، ففيها الحبيبُ المصطفى أبوها ﷺ، وفيها أمّها أطهر الطّاهرات، وصدِّيقةُ المؤمنات خديجة رضي الله عنها، وفيها الأخواتُ المؤمنات الحبيبات الطّاهرات: زينب وأمّ كلثوم وفاطمة، وهؤلاء أساس البيت النّبويّ الطّاهر، ولُحَمتُه وسُدَاه، ولذلك ظلّتْ رقيّة ترقب الأخبار التي تتساقط على الحبشة من مكةَ لتروي ظَمَأ شوقها في سماعِ أخبار الأهل والأحباب.

وجاء من أقصى مكةَ رجلٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ، فاجتمع به المسلمون في الحبشة، وأصاخوا إليه أسماعهم حيث راحَ يقصُّ عليهم خبراً أثلج صدورهم، خبر إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطّاب، وكيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أعزَّ بهما الإسلام.

واستبشرَ المهاجرون بإسلامِ حمزةَ وعمرَ، وعاودهم الحنينُ إلى الوطنِ، إلى أمّ القرى، إلى البيتِ العتيق، وألح عليهم شوقُ الأحبّة بالعودةِ إلى مكةَ، فخرجوا راجعين، وقلوبهم تخفقُ بالأملِ والرَّجاء، وخصوصاً سيّدة نساء المهاجرين رقيّة بنت رسول الله ﷺ التي تعلّقَ فؤادُها وأفئدةُ المؤمنين بنبيّ الله محمّد ﷺ.

ولما أنْ وصلَ المهاجرون العائدون مشارف مكةَ، لقوا ركباً، فسألوهم عن قريش، وعن رسولِ الله ﷺ، وعن المسلمين، فقالوا: ازدادتِ العداوةُ بين قريش والمسلمين ضراماً.

وإذ ذاك توقّف المهاجرون، وائتمروا بينهم؛ أيرجعون إلى الحبشةِ، أمْ يدخلون مكة؟!

ولكنْ؛ أنّى للقلوبِ التي أضناها الحنينُ إلى البيت العتيق، أنْ تعودَ وبينها وبين الأحبابِ ساعة مِنْ نهار! فاستقرَّ رأيهم أنْ يدخلوا مكةَ، ويطفئوا الأشواقِ بلقاءِ الأحبّةِ وقالوا: قد بلغنا مكةَ فندخل ننظر ما فيه قريش، ويحدثُ عَهْداً من

أراد بأَهْلِهِ، ثم نرجع.

ودخلوا مستخفين خائفين يترقَّبُون خشيةَ أنْ يراهم سفهاء قريش، وانطلق كلٌّ منهم إلى الأحبابِ، ومشتْ رقيةُ وعثمانُ إلى دارِ الطّاهرةِ خديجة رضي الله عنها، وهبَّ مَنْ في الدَّار يَسْتَبِقُونَ الباب لاستقبال العائدين، وكان من أشدهم فَرَحاً، رقية التي سعدت بأبيها المصطفى ﷺ، وبأمّها سيّدة النِّساء خديجة عليها سحابات الرّضوان.

وفي تلكَ الليلة اللطيفةِ، كان الحبيبُ المصطفى ﷺ وخديجةُ رضي الله عنها وفاطمةُ الزَّهراء وأمّ كلثوم، ومَنْ في البيت النّبويّ يُصْغُون في اهتمامٍ، إلى ما كانَ بينَ المسلمين والنّجاشي مَلِك الحبشة مِنْ كريمِ الحفاوة، حفاوة التّكريم، وحُسْنِ الاستقبال مَنْ في مكة، وتروي آلامَ وآمالَ الغربة في أرضِ الحبشة إلى أنْ أتوا مكة.

رُقَيَّةُ وَالعَوْدَةُ إلى الحَبَشَةِ:

علمتْ قريشٌ برجوعِ المؤمنين المهاجرين، فسارعوا إلى إيذائهم أكثر منْ ذي قَبْل، واشتدَّتْ عداوتُهم على جميع المؤمنين، ممّا جعلَ أصحاب رسول الله ﷺ في قَلَقٍ، وإن كانوا على نورٍ منْ ربِّهم، وإن كان القرآن ينزل فيزيدهم إيماناً مع إيمانهم، فظُلْمُ قريش لهم كان عظيماً، وقُتِلَ منهم مَنْ قُتِل تحت وطأةِ العذاب، ومزَّقتِ السِّياطُ جلودَ كثيرٍ منهم، ولكنّه الصَّبْر الذي اعتصموا به، زاد من ضراوة المشركين، وزاد من عذابهم.

وراح الفجرةُ الكفرة، يشدِّدونَ على المسلمينَ في العذاب، وفي السُّخرية حتى ضاقت عليهم مكة، وقاسى عثمان بن عفان رضي الله عنه منْ ظلمِ أقربائه وذويه شيئاً كثيراً ولله درّ القائل:

وظلمُ ذوي القُــربى أشـدُّ مضـاضـةً
عـلى المرءِ منْ وَقْـعِ الحُسَام المهنّـدِ

ولكنَّ عثمانَ صَبَرَ، وصبرتْ معه زوجه رقيّة مما جعل قريش، تضاعف

وجَبَات العذاب للمؤمنين، فذهبوا إلى رسولِ الله ﷺ يستأذنونه في الهجرة إلى الحبشة، فأذن لهم، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: يا رسول الله، فهجرتُنا الأولى، وهذه الآخرةُ إلى النَّجاشيِّ، ولَسْتَ معنا.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «أَنْتم مهاجرونَ إلى الله وإليَّ، لكمْ هَاتان الهجرتانِ جميعاً».

فقال عثمانُ رضي الله عنه: فحسبنا يا رسول الله.

وهاجرتْ رقيّةُ ثانيةً إلى الحبشةِ بصحبة زوجها عثمان وثلّة منَ المؤمنين الذين بلغوا ثلاثة وثمانين رجلاً.

وبهذا تتفرّدُ رقيَّةُ ابنة رسول الله ﷺ بأنَّها الوحيدة من بناته الطَّاهرات التي تُكْتَبُ لها الهجرة إلى بلادِ الحبشة، ومن ثمَّ عُدَّتْ من أصحابِ الهجرتين[1]؛ وناهيك بفضلِ هؤلاء الغُرِّ الميامين الذين سارعوا إلى مغفرةٍ منْ ربِّهم ورضوان.

قال الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ عن هجرةِ رقيةَ وعثمانَ رضي الله عنهما: هاجرتْ معه إلى الحبشةِ الهجرتين جميعاً[2]. وفيهما قال رسول الله ﷺ: «إنَّهما لأوّل مَنْ هاجرَا إلى الله بعد لُوْطٍ»[3] وفي رواية: «. . . .بعد إبراهيم ولوط عليهما السَّلام»[4].

وظلّ المسلمون في الحبشةِ في رعايةِ ملكها النَّجاشيِ، حتى إنَّ قريشاً بَعَثَتْ منْ لدنها وفداً إلى النّجاشي، وأغروه بشتى وسائلهم الدّنيوية، كيما يَصْرِفَ عنْ أرضهِ المسلمين، أو يردَّهم إلى قريش، ولكنَّ وسائلهم الرَّخيصة المهزولة، باءت بالخسران المبين، وعادوا إلى مكةَ يجرّون أذيالَ الخيبة، بينما أكرم النّجاسيُّ المسلمين، وزاد في الإحسانِ إليهم، حتى إنَّ أمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها كانت تقولُ: فكُنَّا عنده في خيرِمَنْزل، حتى قَدِمْنَا على رسولِ الله ﷺ وهو في مكة[5].

---

(١) تفسير القرطبي (٢٤٢/٤) والمواهب اللدنية (٦١/٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٥١/٢) وانظر: أسد الغابة (١١٥/٦).

(٣) الإصابة (٢٩٨/٤) والمعارف (ص١٩٢) وسير أعلام النبلاء (٢٥١/٢).

(٤) أنساب الأشراف (١٩٩/١).

(٥) السّيرة النبوية (٣٣٨/١).

العَوْدَةُ إلى مَكَّةَ والهُجرةُ إلى المدينَةِ:

مكثتْ رقيةُ بصحبةِ زوجها عثمانَ في الحبشةِ، وهما يعُبدان الله عزَّ وجلَّ في أمْنٍ، وكذلك بقيّةُ المهاجرين، بينما كانت قلوبُهم جميعاً متعلقةً بالبيتِ العتيقِ، وبأهليهم في أمِّ القرى.

وكانت رقيةُ رضي الله عنها في لهفةٍ شديدة لرؤيةِ أمّها خديجة، بينما كانت خديجة في مكةَ ينتابُها الشُّعور نفسه، إلا أنَّ خديجةَ لم تكن تتوقّع أنّه سيأتي يومٌ تكونُ فيه ابنتها في أرضٍ بعيدة.

ومرضتْ خديجةُ رضي الله عنها، وهي تتلهَّفُ على أنْ ترى ابنتها رقيّة قبل أنْ تموتَ، إنّها في شوقٍ عظيم لأنْ تشمَّ ريحها، فهي تشعرُ بقربِ اللقاء مع الله عزَّ وجلَّ، ولكنْ هيهات! ربّما تذهبُ دونَ أنْ تودِّعَ فلذة كبدها، ويبدو أنَّ وداعهَا الأخير كان في اليومِ الذي خرجتْ فيه ثانية إلى الحبشةِ.

وتوفيت خديجةُ رضي الله عنها، ولم تَرَهَا ابنتُها رقية، ولم ترَهي رقية، بينما كانت رقيةُ، وبعض نسوة المهاجرين ورجالهن في الحبشة، يتجهّزون للعودةِ إلى مكةَ حيثُ وردتْ إليهم الأنباءُ بكثرةِ الدَّاخلين في الإسلامِ منْ أهل مكةَ، فهفتْ قلوبُهم إلى العودةِ إلى مكةَ، وتهيّأ الذين غلبَهُم الحنينُ وخرجوا نحو مكةَ، وفي مقدمتهم رقيّة وعثمان رضي الله عنهما.

وفي مكةَ سألتْ رقيةُ عن أبيها وأمّها، فاستقبلتها أختاها أمّ كلثوم وفاطمة، وأخبرتاها بأنَّ رسولَ الله ﷺ قد خرجَ لرؤيةِ العائدين منْ أصحابه، بينما اثّاقَلَتْ كلُّ واحدةٍ منهما عن إخبارِ رقيةُ بوفاةِ أمّها خديجة رضي الله عنها، ولما علمت رقية بوفاة أمها، أخذها حزنٌ عميق على صدِّيقةِ المؤمنات الأولى، وشكَتْ بثّها وحزنَها إلى الله العليمِ الخبيرِ.

وظلَّتْ رقيةُ رضي الله عنها في مكةَ تأنسُ بأبيها رسولِ الله ﷺ، وبزوجها عثمان رضي الله عنهما، وبأختيها أمّ كلثوم وفاطمةُ، بينما كانت أختها زينبُ لا تزال في بيتِ زوجها أبي العاص بن الرَّبيع، ولم يطلْ مقامُ رقية بمكةَ، فقد أذن بالهجرة

إلى عرينِ الأنْصار في المدينة المنوّرة، فكانت وزوجها في مقدمةِ المهاجرين، وهناك في المدينةِ سَعِدَتْ بقربِ الأنصار الذين وصفهم الله تعالى بالكرم، وأثنى على جُودِهم وإيثارهم حيث: ﴿يحبّون مَنْ هاجروا إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً ممّا أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة. .﴾ [الحشر: ٩].

ولو لم يكن لرقية رضي الله عنها إلا كونها ابنة النّبيّ الكريمﷺ، وكونها هاجرت الهجرتين، لكان في ذلك البلاغ.

«فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار».

بعد أنْ هاجرتْ رقيةُ إلى المدينة المنوّرة مع المؤمنين أخذتْ هنالك مكانتها بين نساء أهل البيت، ورحَّبت بمقدمها نساء الأنصار اللواتي سَمِعْنَ كثيراً عن مكارمِ صفاتها، وعن صبرها وهجرتها إلى أرضِ الحبشة.

أمَّا المؤمنون، فقد كانوا ينعمونَ بأنْعَمِ العبادة، ويَصلُونَ ما أَمَرَ الله به أنْ يُوصلَ، ويحفُّون بالحبيبِ المصطفىﷺ، ويعملون على طاعته، والأئتمار بأمْرِه، وكان من أسرعِ النَّاس امتثالاً لأمْرِه عثمان بن عفان عليه سحائب الرّضوان.

وكانت رقيةُرضي الله عنها تنعمُ بقربِ أبيها وزوجها في المدينة المنوّرة، إلا أنَّ المرضَ لم يتركْهَا، فقد أُصِيبَتْ بمرضِ الحَصْبَة[١]، ولزمتِ الفراشَ في الوقتِ الذي دعا فيه رسولُ اللهﷺ للخروجِ إلى بَدْرٍ لقتال المشركين.

وسارع عثمانُ رضي الله عنه لامتثالِ الأوامرِ المحمديّة، إلا أنَّه تلقَّى أَمْراً بالبقاءِ إلى جانب رقيّة لتمريضها[٢]، وامتثل هذا الأمْر أيضاً بنفسٍ راضية، وبقي

---

(١) الإصابة (٤/٢٩٨) وأسد الغابة (٦/١١٤).

(٢) قال أبو عمر القرطبي ـ رحمه الله ـ:

لا خلافَ بين أهل السِّير أنَّ عثمانَ بن عفان رضي الله عنه إنَّما تخلّفَ عن بدر على امرأتهِ رقية بنت رسول اللهﷺ بأمْرِ رسولِ اللهﷺ، وأنّه ضَرَبَ له بسهمه وأجره، وكانت بدر في رمضان من السَّنةِ الثانيةِ من الهجرة. (الاستيعاب ٤/٢٩٥).

إلى جوارِ زوجه الصَّابرة الطَّاهرة رقيّة[1] ابنة رسول اللهﷺ، إذ اشتدّ بها المرض، وطاف بها شبح الموت.

راحَ عثمانُ يرنو بعينين حزينتين إلى وَجْهِ رقية الذَّابل، فيغصُّ حَلْقُه بالألم ، وترتسمُ الدُّموع في عينيه، وتنثالُ على رأسه الذّكريات البعيدة، ورأى رقية وهي في الحبشة تحدِّثُ المهاجرات حديثاً يدخل البهجة إلى النّفوس، ويبعثُ الآمال الكريمة في الصُّدور، وتقصُّ عليهن ما كانت تراهُ منْ مكارم ِ أبيها رسول اللهﷺ، وحركت هذه الذّكريات أشجانَ عثمان، وزادت في مخاوفهِ، وكان أخشى ما يخشاه أنْ تموتَ رقيّة، فينقطع نَسَبه لرسول ِ اللهﷺ.

ورنا عثمان ثانية إلى وَجْهِ زوجه الذَّابل، ففرّت سكينتُه، ولفَّه حزنٌ شديدٌ ممزوجٌ بخوفٍ واضطراب، حيث كانتِ الأنفاسُ المضطربةُ التي تلتقطها رقية في جَهْدٍ، تدلُّ على فناءِ صاحبتها التي سقطتْ صريعة حُمَّى الحصبة.

كانت رقيةُ رضي الله عنها تغالبُ المرضَ، ولكنَّها لم تستطعْ أنْ تقاومَه طويلاً، فأخذت تجودُ بأنفاسها، وهي تتلهَّفُ لرؤيةِ أبيها الذي خرج إلى بدر، وتتلهَّفُ لرؤيةِ أختها زينب في مكةَ، وجعل عثمانُ رضي الله عنه يرنو إليها من خلال دموعهِ، والحزن يعتصرُ قلبه، مما كان أوجعَ لفؤادهِ أنْ يخطرَ على ذهنه، أنَّ صِلَتَه الوثيقة برسول ِ اللهﷺ توشكُ أنْ تنقطعَ.

إنَّه الآن صِهْرُ رسول اللهﷺ وسيظلُّ زوجَ ابنته ما دامتْ رقيّة على قيد الحياة، إلا أنْ الموتَ كاد، أو يكاد يختطفُ الرُّوح الطَّاهرة، ويترك عثمان وحده، حليف الوحدة والأحزان، إنَّ فجيعَتَه في رقية مزدوجة، فَقْدُ الزّوجة الوفية الطّاهرة؛ وانقطاع نسبه برسول اللهﷺ.

وراحتِ الأفكارُ تجول في أقطار رأسه أتموتُ رقية قبل أنْ يعودَ أبوها من غزوته؟!

أتموت دون أن يكون آخر مَنْ تراه وجه أبيهاﷺ؟!

---

(١) المعارف (ص١٥٣) ومجمع الزوائد (٩/٢١٧).

إنَّ عثمان يكاد أنْ ينهارَ، لولا أنَّه يتجلَّد حتى لا يزيد منْ آلامِ رقية التي تعاني سكرات الموت.

ورفرفت على شفاهِ رقية الذَّابلة آخر ما يرفرف على شفاه الأبرار، حيثُ راحتْ تودِّع نبضَ الحياة وتشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً رسول الله.

وولحقتْ رقيةُ بالرَّفيقِ الأعلى، وكانت أوّل مَنْ لحقَ بأمِّ المؤمنين خديجة منْ بناتها، لكنَّ رقيةَ توفيت بالمدينة، وخديجة توفيت بمكةَ قبل بضع سنين، ولم تَرَهَا رقيّة، وتوفيت رقية، ولم تَرَ أباها رسولَ اللهﷺ، حيث كان ببدر مع أصحابه الكرام، يُعْلُونَ كلمةَ الله، فلم يشهدْ دفنهاﷺ[1].

وجُهِّزَتْ رقية، ثمّ حُمِلَ جثمانها الطّاهر على الأعناق، وقد سار خلفه زوجها عثمان وهو والهٌ حزينٌ، حتى إذا بلغتِ الجنازةُ البقيع، دُفِنَتْ رقيةُ هنالك، وقد انهمرتْ دموعُ المُشَيِّعين.

وسوّيَ التُّرابَ على قَبْرِ رقية بنت رسول اللهﷺ، وفيما هم عائدون، إذا بزيدِ بن حارثةَ قد أقبلَ على ناقةِ رسول الله، يبشِّر بسلامة رسول الله وقَتْلِ المشركين، وأَسْرِ أبطالهم[2].

وتلقّى المسلمون في المدينةِ المنوّرة هذه الأَنْباء بوجوهٍ مستبشرةٍ بنصرِ الله لعباده المؤمنين، وكان مِنْ بين الوجوه المستبشرة وَجْه عثمان الذي لم يستطعْ أنْ يخفيَ آلامه لفَقْدهِ رقية رضي الله عنها.

وفي المدينةِ المنوَّرةِ خرجَ رسولُ اللهﷺ إلى البقيعِ، ووقف على قَبْر ابنته يدعو لها بالغفران.

لقد ماتتْ رقيةُ ذات الهجرتين قبل أنْ تَسعدَ روحها الطَّاهرة بالبشرى

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤/٢٤٢).

(٢) عن الاستيعاب لابن عبد البر (٤/٢٩٥) بشيء من التصرف. وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/٢٥١) وطبقات ابن سعد (٨/٣٦) والمعارف (ص١٥٨) وتاريخ الطبري (٢/٣٨) وتفسير القرطبي (١٤/٢٤٢) والمواهب اللدنية (٢/٦٢) وأسد الغابة (٦/١١٤).

العظيمةَ بنصرِ الله، ولكنّها سَعِدَتْ بلقاءِ الله في داره، فنعْمَ عُقْبى الدار.

وضرَبَ رسولُ اللهِ ﷺ لعثمانَ بسهمهِ مِنْ بدر، فقال عثمان: وأجري يا رسول الله؟

قال: «وأَجْرُكَ[1]».

وبعد عزيزي القارىء، فهذه إشراقات روحية من سيرةِ رقية ابنةِ رسول الله ﷺ، عشْنَا معها في وجداننا، فهل تقتبسُ نساؤنا منْ سيرتها بقبسٍ يضيءُ لهنَّ دربهُنَّ في هذه الحياة؟

(١) مجمع الزوائد (٢١٧/٩).

أمّ كلثوم بنت رسول الله

رضي الله عنها

- ولدتْ أمُّ كلثوم في مكةَ قَبْل البعثة وأسلمتْ معَ أمّها خديجة رضي الله عنهما.
- هاجرتْ إلى المدينةِ المنوّرة وهي صابرة مستسلمة لله.
- قال النّبيُّ ﷺ: «يتزوج عثمان مَنْ هي خيرٌ منْ حفصةَ» فتزوّجَ عُثمان أمّ كلثوم رضي الله عنها سنة (٣هـ).

قال رسولُ الله ﷺ لأمّ كلثوم: «زوجتُك مَنْ يحبّه الله ورسوله ويحبّ الله ورسوله».

- توفيت سنة (٩هـ) في حياةِ أبيها ودُفِنَت بالبقيعِ.

أُمّ كلثوم بنت رسول الله رضي الله عنها

البَضْعَةُ النَّبويَّةُ:

أمُّ كلثوم بنتُ رسولِ اللهﷺ محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمية[1]، إحدى بنات النّبيّﷺ، وإحدى نساء أهل البيت النّبويّ الطّاهرِ، تلك نسعدُ باللقاءِ معها في هذه الصَّفَحات ليطيبَ الحديثُ عن سيرتها المعطاء المعطار.

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/٣٧ ـ ٣٨) والمعارفُ (ص١٢٦ و١٤١ و١٥٨ و١٩٢) والمعرفةُ والتّاريخ (٣/١٥٩) والمستدرك (٤/٤٨ و٤٩) والاستيعابُ (٤/٤٦٣ ـ ٤٦٥) والإصابةُ (٤/٤٦٦) وأُسْد الغابة (٦/٣٨٤) ترجمة رقم (٧٥٧٣) والعبر (١/٥ و١٠) ومجمع الزّوائد (٩/٢١٦ و٢١٧) وشذرات الذّهب (١/١٢٨) وجمهرة أنساب العرب (١/١٦ و١٧٨) وسير أعلام النّبلاء (٢/٢٥٢ و٢٥٣) والسّمط الثّمين (ص١٨٩ ـ ١٩١) والمجتبى (ص٩٨) وتلقيح فهوم الأثر (ص٣٣) وتاريخ الطّبري (٢/٤٢ و٥٤ و١٢٥ و١٩٢ و٢١١ و٦٢٩) وشفاء الغرام (٢/١٨٧ و٢٣٣) والكامل لابن الأثير (٢/٤٠ و١٤٥ و٢٩١ و٣٠٧) وزاد المعاد (١/١٠٣) و(٣/٦١) والفصول (ص٢٤١) وأزواج النبي لأبي عبيدة (ص٥٥) وتفسير القرطبيّ (١٤/٢٤٢ و٢٤٣) والمغازي النّبوية للزهريّ (ص٤٣) والمواهب الّلدنية (٢/٦٢ ـ ٦٤) والعقْدُ الفريد (٤/٢٨٥) ومختصر تاريخ دمشق (٢/٢٦٢ و٢٦٣ و٢٦٤ و٢٦٨) والبداية والنّهايةُ (٣/٢٢١) و(٥/٣٩ و٢٢١ و٣٠٨) وجوامع السّيرة النّبوية (ص٣٦) والسّير والمغازي (ص٨٢ و٢٤٥) وعيونُ الأثر (٢/٣٦٤) والمغازي للواقدي (١/٣٢٢) وغير ذلك كثير من الكتب والمصادر الوثيقة المتنوعة.

ففي كنفِ البيت النّبويِّ الطّاهر نشأت أمُّ كلثوم[1] على أتقى التُّقى، حيثُ لقيت كلَّ عنايةٍ، وصُنِعَتْ على عين أمّها الطّاهرة خديجة رضي الله عنها، فغدتْ واحدة ممن حفظ الدّهرُ مقامهن، وعَرَفَ نسوةُ القومِ مكانتهن.

وهب الله عزَّ وجلَّ لمحمّدٍ ﷺ أُولى بناته زينب، وقد تزوَّجها ابنُ خالتها أبو العاص بن الرّبيع، ثمّ رقيّة، وتزوّجها عثمان بن عفان، ثم أمّ كلثوم، ثمّ فاطمة الزّهراء.

وكانت رقيّةُ وأمُّ كلثوم قد خُطِبَتَا إلى عُتْبَة وعُتَيْبة ابني أبي لهب، وقد مَرَّتْ مَعَنا سيرةُ رقيّة رضي الله عنها، وانتقالها بفضلِ الله إلى بيتِ عثمان بن عفّان، وها نحنُ مرسلو القول في أختها أمّ كلثوم رضي الله عنها وكيف أرادَ الله بها ـ هي الأخرى ـ خيراً، ففارقها عُتيبة بن أبي لهب، وذلك قَبْل أنْ يدخلَ بها[2]، وأكرمها الله بأنْ نجّاها مرارةِ العيش معه ومع والدهِ ووالدته حمّالة الحَطَب.

خَدِيْجَةُ وَأُمُّ كُلْثُوم:

عاشت أمّ كلثوم حياةً كريمةً طيِّبَة في رعايةِ أبويْنِ كريمَيْنِ، سيّدنا رسولُ الله ﷺ، وأمّها الطّاهرة خديجة بنت خُويلد رضي الله عنها. ولَمّا بلغتْ أشدّها واكتملتْ أنوثتها، كانت من أكْملِ فتيات قريش أدباً وسلوكاً وتربيةً وأخلاقاً، وكانت أختُها رقيّة أكبر منها قليلاً، وإذ ذاك تقدَّم لخطبةِ رقيّة وأمّ كلثوم عتبة وعُتيبة ابني أبي لهب، فكانت رقيّة قد خُطِبَتْ لعتبة، وأمّ كلثوم لعُتيبة[3].

كانتْ خديجةُ رضي الله عنها سعيدةً إلى حدٍّ ما بهذهِ الخطبة، ولكنَّ إحْسَاساً غامضاً كان يرفرفُ على نفسها، فتشعر بشيءٍ منَ الانقباض، وكثيراً ما كانت تفكِّرُ في أمِّ جميل بنت حرب التي استولتْ على زوجها أبي لهب، فأصبحَ مسلوبَ

(١) قال الزّرقاني ـ رحمه الله ـ وأمّا أمّ كلثوم فلا يُعرف لها اسم، إنّما تعرف بكنيتها (المواهب اللدنية ٦٢/٢).

(٢) المعارف (ص٢١٦ و١٤٢).

(٣) تفسير القرطبي (٢٤٢/١٤).

الإرادة، لا يقوى على التَّصرُّفِ بأمْرٍ ما، دون أنْ يحصلُ على موافقتها.

ها هي خديجةُ رضوان الله عليها تتهللُ بالفرحِ، حتى إنَّها راحت تناجي الله عزَّ وجلَّ وتشكره بلسانها، وبكلِّ جوارحها على أنِ اصطفى زوجها محمّد بن عبد الله لرسالته، وها هو رسولُ الله ﷺ يلبّي أمْر ربِّه، وينذر عشيرته الأقربين بعد أنْ أوحى إليه ربُّه ما أوحى.

ولما كانت خديجةُ صِدِّيقة المؤمنات الأولى وأوّل خَلقِ الله إسلاماً، كانت بناتُها الطَّاهرات قد نُظِمْنَ معها في عِقْد السَّبْقِ إلى ساحةِ الإيمان(١)، وكَتِبَ لهنَّ الخلودُ في دنيا الخلود، ونلنَ قَصَبَ السَّبْق في عدادِ الأوّلين، وما أدرك ما مكانة الأوّلين؟!

وأسلمتْ أمُّ كلثوم وجْهَهَا لله عزَّ وجلَّ، وَعَرَفَتْ لذّة مناجاتهِ، وراحت تتلقّى المعارفَ عنْ أبيها ﷺ، حتى غدت متعلّقةَ القلبِ بالله عزَّ وجلَّ، تنظر بنورِ الله، وتعمل بنورِ الله.

أمّا خديجة الطّاهرة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها فقد تهلّلتْ بالفرحِ، لما شهدت ابنتاها رقيّة وأمّ كلثوم بوحدانية الله عزّ وجلّ، ورسالة أبيها محمّد ﷺ، إلا أنَّها شَعَرتْ بوجيبِ قلبها قد أخذ يشتدُّ وقد استولى عليها خوفٌ غامض، لمّا فكّرت في مآلِ ابنتيها رقية وأمّ كلثوم في دارِ أبي لهب، حيثُ عُتبة وعُتَيبة ألعوبتان في يَدِ أمّهما أمّ جميل؛ وأمُّ جميل بنت حرب هذه امرأةٌ قاسيةُ القلبِ، عنيفةٌ في عداوتها، كأنّما فؤادها قُدَّ منْ حجرٍ، وأمّا زوجها أبو لهب فقد أطلقَ لشهواتهِ العنان، وراحَ يمضي أوقاته في المقامرة، والشّراب، والتفّاخر بالأموال والأولاد؛ ولم يكن يهمّه في دنياه إلا الحصول على شهواتهِ والانغماس في حمأةِ المعاصي والأوحال.

ويبدو أنَّ خديجة رضي الله عنها، قد أخذت تفكّرُ في مصير ابنتيها رقيّة

---

(١) قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: أسلمت أم كلثوم حين أسلمت أمها، وبايعت رسول الله ﷺ مع أخواتها حين بايعه النساء، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله ﷺ (تفسير القرطبي ١٤/٢٤٢).

وأمّ كلثوم، إذ أصبح مستقبل كلّ واحدة منها متأرجحاً، لا سيا وأنَّ أَمْرَ رسولِ الله ﷺ قد استعلن في مكةَ، ومَنْ حولها، ولم يدخلْ عُتبة أو عُتيبة أو أحدٌ من دارِ أبي لهب في الإسلام، وربما ستُغْلَقُ في وَجْهِ رقيّة وأمّ كلثوم أبواب الزَّواج، وستعودُ كلّ واحدة منهنّ وهي كسيرةُ الفؤاد.

كانت خديجةُ تفكِّرُ في هذا كلِّه، وهي ترنو بعينِ البصيرة إلى أنوارِ اليقين التي تنبعثُ من بيتها، ولكنْ ماذا تستطيعُ أنْ تفعلَ؟! إنّها لا تملكُ إلا الاستسلام لمشيئةِ الله عزَّ وجلَّ الذي بيدهِ مقاليدُ السَّماوات والأرض.

دَعْوَة الأَقْرَبِيْن:

مضى رسولُ الله ﷺ يدعو النَّاس إلى الإسلامِ، فاستجابَ مَن اِستجاب، ودخل دار الأرقم ابن أبي الأرقم ومعه أصحابه يصلّون ويتفقهون في أمْرِ الدِّيْنِ، ثمّ أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى عبده أنْ يجهرَ بالدَّعوة ويعرض عن المشركين، فهو وليّه وناصره.

وفي جلْسةٍ جمعتِ العشيرة الأقربين، عرض الحبيبُ المصطفى ﷺ دعوته على أرقابه، فلم يستجبْ أحدٌ منهم إلى الدَّعوة، ثمَّ مَرّتْ أيامٌ فجمعهم رسول الله ﷺ مرَّةً ثانية، وأخذ يعِظُهُم، وخطبهم ثمّ قال لهم:

«إنَّ الرَّائدَ لا يكذبُ أهله، والله لو كذبت النَّاس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررتُ النَّاس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إنّي لرسولُ الله إليكم خاصّة، وإلى النّاس كافّة؛ والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسانِ إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنّها لجنّة أبداً، أو لنا أبداً؛ والله يا بني عبد المطلب ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إنّي قد جئتكم بأمْرِ الدّنيا والآخرة».

فتكلّم القومُ كلاماً ليّناً غير أبي لهب فإنّه قال: يا بني عبد المطلب، هذه والله السّوءة، خذوا على يديه قبل أنْ يأخذ على يديه غيركم، فإنْ أسلمتموه حينئذ ذللتم، وإن منعتموه قتلتم.

وكان في المجلس صفية عمّة رسولِ الله ﷺ، وكانت عاقلة قد استنارت بنورِ الإيمان فقالت لأخيها أبي لهب: أي أخي، أيَحْسُنُ بك خذلان ابن أَخيك، فوالله ما زال العلماء يخبرون أنّه يخرج من ضِئْضىء ـ أَصْل ـ عبد المطلب نبيٌّ فهوَ هُوَ.
فقال أبو لهب في ضيقٍ وقد أخذه هياجُ الغضب: هذا والله الباطل والأماني، وكلام النِّساء في الحِجَال، إذا قامت بطونُ قريش، وقامت معها العربُ، فما قوّتنا بهم، فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس.

وانصرف أبو لهب من ذلكَ المجلس غاضباً لا يرى أمامه من شدّةِ ما نزل به، وبعد أيّام كان رسول الله ﷺ يهتفُ على جَبَل الصَّفا، ويدعو قومه إلى صراطِ العزيزِ الحميد، وإلى شهادة أنْ لا إله إلا الله؛ وإذ ذاك قال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم، وعاد إلى داره، وأخذ يروي على امرأته أمّ جميل ما سمعه من محمّد ابن أخيه، فأحسَّت بنارِ الحقد تسري في جوفها، وتغلي في أحشائها، وقرّرت تحطيم الدَّعوة الجديدة بكلّ ما تملكُ من وسيلة.

وأخذت وزوجها يكيدان لرسولِ الله ﷺ وللمؤمنين، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ أوحى إلى رسوله محمّدٍ ﷺ قوله: ﴿**تبتْ يدا أبي لهب وتب. ماأغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى ناراً ذات لهب. وامرأته حمّالة الحطب. في جيدها حبل من مَسَد**﴾[المسد: ١ ـ ٥].

وذاعتِ السورةُ في مكةَ، وأُذِيْعَتْ أمام أبي لهب، فعرف وزوجه أمّ جميل ماأنزل الله فيهما، منْ أليمِ العذاب، وشديدِ العقاب، فاستبدَّ بهما الحمق والحنق والغضب، وأرادا ـ بزعمهما ـ أنْ ينتقما من رسول الله ﷺ، فأمَرا ولديهما عتبة وعتيبة أنْ يفارقا ابنتي محمّدٍ ﷺ.

فأمّا عُتبة، ففارقَ رقيّة دون أنْ يؤذيَها أو يؤذي رسولَ الله ﷺ؛ وقد سأله رسول الله ﷺ طلاقَ رقية، وسألته رقيّة ذلك، فقالت أمُّ جميل لابنها عتبة: طلِّقْها يا بني فإنَّها قد صَبَتْ. فطلّقها.

وأمّا عُتيبة فقد لَعِبَ به الغضبُ، وركبه الغرور، وأقسم بأنّه سيؤذي محمّداً ﷺ في ربّه، وفي شخصه، وطلَّق عُتيبة أمَّ كلثوم رضي الله عنها، وجاء إلى

النبيّ ﷺ حين فارق أمّ كلثوم وقال: كفرتُ بدينك، وفارقتُ ابنتك، لا تحبّني ولا أحبّك، ثمّ سَطا عليه فشقّ قميص النّبيّ ﷺ؛ فقال ﷺ: «اللهم ابعثْ عليه كَلْباً منْ كلابك».

واستجابَ الله عزَّ وجلَّ دعوة سيّدنا رسول الله ﷺ، وافترسَ الأسدُ عُتيبة وهو في تجارةٍ له إلى الشَّام، أمّا كيف استجيبت دعوةُ رسول الله ﷺ، فنحنُ مرسلو القول في ذلك إنْ شاء الله كيما نشهد مشهداً جليلاً من دلائلِ نبوة سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ؛ وكيما ندرك مكانة سيّدتنا أمّ كلثوم بنت النّبيّ رضي الله عنها.

الدَّعْوَةُ المُسْتَجَابَةُ في عُتَيْبَةَ:

روتِ المصادرُ الوثيقةُ خبر موتِ عتيبة بن أبي لهب بدعوةِ رسول الله ﷺ، فقالت:

كانَ أبو لهب واسمه عبد العُزى بن عبد المطلب، وابنه عُتيبة قد تجهّزا إلى الشَّام في تجارةٍ لهما مع قافلةٍ لقريش، وكانتِ الدَّعوةُ المحمديّةُ قد أشرقتْ بنورِها على مكةَ أمَّ القرى، فآمَنَ مَنْ آمن، وكَفَرَ مَنْ كَفَر، وكان منْ بين الذين كفروا واشتدّت أذيتهم للإسلام وأهله: عُتيبة بن أبي لهب، فقال لأبيهِ: والله لأنطلقنَّ إلى محمّد، ولأوذينه في ربّه.

وانطلقَ عُتيبةُ تاركاً القافلة وراءه، وأتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا محمّد، هو الذي يكفُر بالذي ﴿دنا فتدلى. فكان قَابَ قوسين أَوْ أدنى﴾[1] ثمّ تكلّمَ كلاماً شنيعاً تَنْبو عنه الأخلاق الحميدة.

فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «اللهم ابعث عليهِ كلباً مِنْ كلابك» ثمَّ انصرف عنه.

ورجعَ عُتيبة إلى أبيهِ فقال له: يا بُنيّ، ما قلتَ له؟ فذكرَ ما قال له مِنْ فُحْشِ وفاحشِ القول وسوء الكلام. وأحسَّ أبو لهب بخطرٍ غريبٍ يقتحمُ قلبه فقال لابيه عتيبة: ما قال لك وبماذا ردَّ عليك؟

قال عُتيبة: قال: «اللهم سَلِّطْ عليهِ كَلْباً مِنْ كلابك» فشعر أبو لهب بالأسى

(١) سورة النجم (آية ٨ ـ ٩).

والخوف وقال: يا بُني، والله ما آمنُ عليك دعاء محمّد.

وانفصلتِ القافلةُ، وانطلقتْ لتغيبَ في الأفقِ البعيد، وأبو لهب لا تفارقُ مخيلته دعوة ابن أخيه على ابنه عتيبة، وهو يحذر كلَّ الحذر أنْ يُصَابَ بسوءٍ.

ظلتِ القافلةُ تسيرُ حتى نزلتْ في مكان يُسمّى الشَّراة ـ وهي مَأسَدة ـ فنزلوا منزلاً قريباً إلى صَوْمَعةِ راهب، فأشرفَ عليهم الرَّاهب منَ الدَّيْرِ وقال متعجباً: يا معشر العرب، ما أنزلكم هذه البلاد؟! فإنّما يسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم!!!.

فقال أبو لهب لِمَنْ مَعَه منْ رجالِ القافلة: إنّكم قد عرفتم كِبَرَ سِنّي وحقّي عليكم.
فقالوا: أَجَل يا أبا لهب.
قال: إنَّ هذا الرَّجل ابن أخي، وقد دعا على ابني دعوة، والله ما آمنُها عليه، فاجمعوا متاعكم إلى هذهِ الصَّومعة، وافرشوا لابني عليها، ثمّ فرشوا حوله.

وسَقَطَ الليلُ، وأرخى سدوله على مكانٍ، وبات القومُ حول عُتيبة، وأبو لهب معهم أسفل، وبات عُتيبة فوق ذلك المتاعِ، وهو يظنُّ أنَّه في مأْمَنٍ وأمان.

وفي هدأةِ الليل جاء أسدٌ، وأخذ يشمُّ وجوهَ القوم كأنَّه آسٍ يجسُّ عليلاً، ويبدو أنَّ الأسد لم يجدْ ما يريدُ وما يبغيه بين هؤلاء، فاستجمعَ قوَّتَه، ووثبَ وثبةً شديدة، فإذا هو فوقَ المتاعِ، يشمُّ وَجْهَ عتيبة، وإذ ذاك وثبَ عليه، وضربه ضربةً شديدةً هَشَمَ بها رأسه.

وشقَّ سكونَ الليلِ صرخةُ عُتيبة المفزوعة، وهبَّ رجالُ القافلة من نومهم، ودبَّ الذُّعر بينهم، فاستشعرَ الأسدُ بالخطرِ، فانسلَّ بعيداً.

والتفَّ رجالُ القافلةِ حول عُتيبة وهو يجودُ بأنفاسه بين يدي أبيه وهو يقول: يا ويل أميّ، وهو والله كما دعا محمد عليَّ، وهو بمكةَ وأنا بالشَّام.

ولاحَ في وجْهِ أبي لهب الرُّعب الممزوج بالأسى، وأرسل زفرةً كادت روحه

تخرج معها وقال: قد عرفت أنّه لا ينفلت منْ دعوةِ محمّد[1].

ومنَ الجدير بالذْكر أنَّ عُتبة بن أبي لهب، قد أسلم، وأسلم معه أخوه مُعْتّب، وقد نَظَم بعضُ الفُضَلاء أسماء أولادِ أبي لهب، وذكر إسلام عتبة ومعتب، وكفر عتيبة فقال:

كـرهتُ عُتَـيـبـةَ إذْ أجْـرَمَـا ... وأحـبـبـتُ عُـتـبـة إذْ أَسَـلما
كـذا مُعَتّبُ مُسْلِمٌ فـاحتـرزْ ... وخَفْ أَنْ تسبَّ فتىً مُسْلما[2]

الصَّابِرةُ المُهاجِرَةُ:

عادتِ الأخْتَان رقيّة أمّ كلثوم رضي الله عنهما إلى البيتِ النّبويّ، فأمّا رُقية، فقد تزوّجها عثمانُ بنُ عفّان رضي الله عنه، وهاجرت معه إلى الحبشة الهجرتين جميعاً.

وأمّا أمّ كلثوم، فقد بقيتْ مع أختها الصُّغرى فاطمة الزَّهراء في بيتِ أبيهما رسولِ اللهﷺ بمكة المكرمة.

وفي البيتِ النَّبويِّ الطَّاهر، عاشت أمُّ كلثوم تشهد الأحداثَ التي يمرُّ بها

---

(١) عن مختصر تاريخ دمشق (١٦/٧٣ و٧٤) بشيء من التصرف. وانظر المصادر التالية: تفسير القرطبي (١٧/٨٣) وتفسير ابن كثير (٤/٢٢٣) ودلائل النبوة للأصبهاني (٢/٥٨٥ و٥٨٦) والسيرة الحلبية (١/٤٦٨) وربيع الأبرار للزمخشري (٥/٢١٣) وحجة الله على العالمين (٢/١٨٨ و١٨٩) والمواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٢/٦٢) وغيرها من المصادر كثيرة.

ويبدو أنَّ هذه الحادثة قد لقيتْ صَدىً لطيفاً عند الأدباء والشّعراء، وقد عبّر عن هذه الواقعة، وصاغها شعراً جميلاً أحد الفَضلاء، وصّور مقتل عتيبة فقال:

فـاستـوجبَ الـدَّعـوةَ منـه بمـا ... بـينّ لـلنّـاظـرِ والـسّـامـعِ
أنْ سـلّط الله بـه كـلبـه ... يمشي الهـويـنـا مشـيـة الخـادعِ
حـتى أتـاه وسْطَ أصـحـابـه ... وقـد عـلتهـم سِنَـةُ الهـاجـعِ
فـالـتـقـمَ الـرَّأس بـيـافـوخـه ... والـنـحـرَ مـنـه فـغـرة الجـائـعِ

(٢) انظر: تفسير الصّاوي على الجلالين (٤/٣١٢).

رسول الله ﷺ والذين معه، وشهدتْ أمّ كلثوم جوانبَ العظمةِ، في حياة أمّها خديجة أمّ المؤمنين، وتقتبسُ من أخلاقها الكريمة، ما استطاعتْ إلى ذلك سبيلاً.

وتمضي الأيامُ والشُّهور والأعوامُ، وقريش تزدادُ ضراوةً وعداوةً للذين آمنوا، على الرّغم منْ إسلام الفاروق عمر بن الخطّاب، وإسلام عدد منْ شجعان قريش وشبابها. ولكنّ هذا كلّه لم يرجعْ قريشاً عن غيِّها، وعن ائتمار مشركيها فيما بينهم على مقاطعةِ رسول الله ﷺ وبني هاشم، وسجّلُوا مقاطعتهم الغاشمة الظَّالمة في وثيقةٍ علّقوها في جَوْفِ الكعبة.

ودخلتْ نساءُ البيت النّبويّ الطّاهر إلى شِعْبِ أبي طالب ليُضْرَب عليهن الحصار، وكانت أمّ كلثوم وأختها فاطمة وأمّها خديجة في جملة المحاصَرين، أمّا زينب ابنة خديجة فكانت عند زوجها أبي العاص بن الرّبيع، وأمّا رقية فكانت مهاجرة في الحبشة مع زوجها عثمان رضي الله عنه.

وعاشت أمّ كلثوم رضي الله عنها أيام الحصار في صيقٍ وضَنَكٍ وشدّة، تقاسِمُ أباها وأمّها ضيقَ الحصار، حتى بلغ الجوع منهم مَبْلغاً عظيماً جعلهم يأكلون خَشِنَ الطَّعام، وورق الشُّجر، وما شابه ذلك لسدِّ غضب الجوع الرَّهيب...

وصبرتْ أمّ كلثوم بنت رسول الله صبراً جميلاً، وتحملتْ مِنَ المشقَّةِ والعناء، ما تنوءُ بحملهِ راسياتُ الجبالِ، وكان شعارها وشعار نساء أهل البيت: ﴿**فصبرٌ جميلٌ والله المُسْتَعان**﴾ [يوسف: ١٨].

ويبدو أنَّ الحصَارَ الأليمَ الذي دامَ ثلاث سنين عدداً قد أوهن بعض النّاس، وممن أثّر فيه ذلك الحصار سيّدة نساء العالمين أمّنا خديجة رضي الله عنها، فقد كانت متقدّمة في السِّنِّ، وقد أضناها الحصارُ الزّنيم، ورقدت في فراشِ المرضِ، وسَهِرتْ أمُّ كلثوم على رعايتها، حتى أذنَ الله عزَّ وجلَّ بالفرجِ، ونُقِضَتِ الصَّحيفةُ الغاشمةُ التي كُتِبَتْ فيها معاهدة قريش على المقاطعةِ الغاشمةِ الظَّالمة.

وخرج الموحِّدون من الشِّعْبِ، وفيهم أمّ كلثوم وأمّها خديجة وأختها الزَّهراء، إلا أنَّ المرض أَقْعَد السَّيِّدة خديجة، وألزمها الفراش، ولمْ تمكث فترة حتى انتقلتْ إلى دار السَّلام إلى عند مليكٍ مقتدر لتحلَّ في جنَّات ونَهر، مبشّرة منَ

الرّسول الكريم، بما أعدّ الله لها منْ نعيمٍ مقيمٍ، في بيتٍ من قَصَبٍ، لا صَخَب فيه ولا نَصَب.

وبكتها أمّ كلثوم بكاء شديداً، فهي الأمّ والصَّديقة والأخت، وهي فيض الحَنان، ومنبع العطف وكلّ فضيلة.

كانت وفاةُ السّيِّدة خديجة في اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من البعثة النّبوية، وحُمِلَتْ إلى الحجون، وهنالك نزلَ رسولُ الله ﷺ في حفرتها، وأودعها التّراب بيديه الشّريفتين، ثمَّ عاد إلى بيته، وضمَّ إليه ابنتيه أمّ كلثوم وفاطمة، يواسيها وتواسيانه على المصابِ الفادح، ولكن ﴿فصبرٌ جميل والله المستعان﴾[يوسف: ١٨].

وتمضي الأيامُ والمسلمون يلقون ما يلقون ويلاقون من أذى قريش شيئاً عظيماً، حتى أذن الله عزَّ وجلَّ بالهجرة إلى المدينةِ المنوَّرة، فهاجر رسولُ الله ﷺ تارِكاً أمّ كلثوم وفاطمة وحيدتين، يكادُ يقضي عليهما الأسى لولا رحمةُ الله التي فاضتْ ببركاتها على البيتِ الكريمِ، وعلى البناتِ الطّاهرات.

ولما تمّتْ هجرةُ النّبيِّ ﷺ إلى المدينة، أرسل زيدَ بنَ حارثة وأبا رافع ـ وهُما موليا رسول الله ﷺ ـ ليأتيا بأهليهما، فذهبا وجاءا ببنتي الرّسول أمّ كلثوم وفاطمة، وزوجته أمّ المؤمنين سَوْدَة بنت زمعة، وأمّ أيمن زوج زيد وابنها أسامة بن زيد. هذا وقد كُتِبَتْ أمّ كلثوم بنت رسول الله في سجلّ المهاجرات إلى الله ورسوله، وحظيت بالتّكريم الإلهي، لما أعدَّه الله لهؤلاء منَ الأَجْرِ والثّواب.

وفي المدينةِ المنوّرة استقبلتْ نساءُ الأنصارِ أمّ كلثوم بنت رسول الله بالحفاوةِ والتّكريمِ، وراحت تتابعُ حياةَ الصَّبر والجهاد في المدينة المنوّرة.

ويأتي شهرُ رمضان منَ العام الثّاني للهجرة، فإذا برقيّة أختها تلزمُ فراشَ المرض، وتقعدها حمّى الحَصْبَةِ في الفراش، وإذ ذاك، دعا داعي الجهاد إلى الخروج لِبَدْرٍ، وأذنَ رسولُ الله ﷺ لعثمانَ بالبقاءِ إلى جانبِ رقيّةَ ليقومَ على تمريضها، بينما خرجَ الرَّسولُ والذين معه إلى بَدْرٍ حيث أنزلَ الله عزَّ وجلَّ نَصْرَهُ عليهم، وأيّديهم بجنودٍ لم تَرَوْهَا، وجَعَلَ كلمة الذين كفروا هي السُّفلى وكلمةُ الله

هي العُليا، وعاد رسولُ اللهﷺ والمؤمنون منْ بدر، وهم يلهجون بالثَّناء على الله الكبير المتعال الذي أيّدهم بنصره.

وما أن جاءَ البشيرُ إلى المدينةِليلقي بشارة النَّصْر على النَّاسِ، بما فتحَ الله على رسولِهِ من ظفر، إلّا وكانت رقيّة ابنة الرّسول قد ماتتْ ورجعَ النَّاس من جنازتها، وحزن المؤمنون لوفاتها، وكان منْ أشدهم حزناً أختها أمّ كلثوم التي شهدتْ وفاتها، وأيّامها الأخيرة وهي تغالبُ المرض والأسقام.

وسجّلتْ أمُّ كلثوم في سجلِّ الصَّابرين المؤمنين أسمى آيات التَّسليم لقَضَاءِ الله وقدره، واقتدتْ بذلك بأبيهاﷺ حتى نالت درجةً رفيعةً لم تبلغها واحدة منْ نساء آلِ البيت؛ ممّا جعل رسول اللهﷺ يطلقُ عليها اسم الخيِّرة، فما أجمل الحياة مع الخيِّراتِ!

الخَيِّرةُ والخَيِّرَاتِ:

عندما يصفُ رسولُ اللهﷺ ابنته أمّ كلثوم بأنّها خيِّرة، فلأنَّه أَعْرفُ النَّاس بالنَّاسِ، ورسول اللهﷺ **﴿ما ينطقُ عن الهوى. إنْ هو إلا وحيٌ يوحى. علّمه شديد القوى.﴾** [النجم: ٣ ـ ٥].

وقد عرفَﷺ المكانة الكريمة التي اقتعدتها ابنته أمّ كلثوم، فأطلقَ عليها لقب الخيِّرة، ولعمري فإنَّ هذا اللقب هو مجمع الفَضَائل كلِّها.

فقد ذكرت كُتُب الصَّحيح والسُّنن وغيرها من المصادر الوثيقة خبر زواج عثمان بن عفّان من أمِّ كلثوم الخيرة الفاضلة، وأوردوا ثناء رسولِ اللهﷺ عليها بما فيها من صفات الفَضْل التي تَفَوَّقَتْ بها على حفصةَ بنتِ عمر التي غدت أمّ المؤمنين.

ذكروا أنَّ خُنَيس بن حُذافة زوج حفصة بنت عمر قد ماتَ عنها عقب غزوة بدر، وكانت رقيّة ابنة الرَّسولﷺ قد ماتتْ، ولّما يقدم رسول اللهﷺ مِنْ بدر، وحزنَ عثمانُ بن عفان لوفاةِ زوجه حزناً شديداً، وأمّا عمر بن الخطاب، فقد أحبَّ أنْ يخِّففَ بعضَ حزن عثمان، فذهب إليه وحيّاهُ بتحيةِ الإسلام، ومن ثم

عرضَ عليه حفصة وقال: إنْ شئتَ أنكحتكَ حفصة.

ولكنَّ جرح عثمان ما زال طريّاً، ورقية لم تغبْ عنْ بالِهِ، رغم أنَّ ثرى البقيع قد احتوى جثمانها الطّاهر، ولم يشأ أنْ يتكلَّمَ برأي أو يَصُدَّ رغبة عمر، وإنّما قال له بلهجةٍ ممسوحة بالحزن: سأنظرُ في أمري يا عمر.

ومكث عمر بضعة أيام، فإذا بعثمانَ لا يبدي رغبة في الزَّواج من حفصة، بل لقيَ عمر، وأخبره أنَّه مُعْرِضٌ عنِ الزَّواجِ في هذه الأيّام.

وتركه عمر وشأنه، ولكنّه وَجَدَ في نفسه بعضَ الحزن لإعراضِ عثمان عنه، وذهب عمرُ إلى أبي بكر الصِّدّيق رضوان الله عليه، وبثَّ إليه ما يخبو في خفايا نفسه من زواج حفصة، وقال له: يا أبا بكر: إنْ شئتَ زوجتك حفصة.

ولكنَّ أبا بكر الصِّديق لم ينطقْ بحرفٍ واحد، ولزم الصَّمتَ أمامَ عمر الذي مضى والتأثّر بادٍ على محيّاه مِنْ موقفِ أبي بكر وعثمان، ولم يَدْرِ لماذا وقف كلّ واحد منهما هذا الموقف!.

وانطلق عمر إلى الحبيبِ الأعظم محمّدﷺ يعرض عليه ما حدث ويشكو حاله، وكانت أمّ كلثوم رضي الله عنها تسمعُ شكوى وشكايةَ عمر، وإذ ذاك قال رسولُ اللهﷺ لعمر: «يتزوّج حفصة مَنْ خير من عثمان، ويتزوّج عثمان مَنْ هي خير من حفصة».

وكأنَّ قَلْبَ أمّ كلثوم رضي الله عنها قد شَعَرَ بما يقصدهُ رسولُ اللهﷺ، فليس خيرٌ منْ حفصة سوى ابنة النّبيّﷺ؛ وهذا ما كان فعلاً، فقد تزوّج عثمان بأمّ كلثوم في سَنَةٍ ثلاث من الهجرة، وتزوّج رسولُ اللهﷺ حفصة ابنة عمر.

أمّا كيف تزوّج عثمانُ منْ أمِّ كلثوم، فسيّدنا أبو هريرة رضي الله عنه يذكرُ لنا ذلك فيخبرنا: أنَّ عثمانَ لما ماتتْ رقيةُ امرأته بنت رسول اللهﷺ بكى، فقال رسولُ اللهﷺ: «ما يبكيكَ»؟

قال: أبكي على انقطاعِ صهري منك.

قال: «فهذا جبريل عليه السَّلام يأمرني بأمْرِ الله عزَّ وجلَّ أن يزوّجك أختها».

وفي حديثٍ آخر بمعناه: «أنْ أزوّجك أختها أمّ كلثوم على مثل صداقها وعلى مثل عشرتها»[1].

وتروي أمُّ المؤمنين الصِّدِّيقة بنتُ الصِّدِّيق رضي الله عنهما خبر زواج أمّ كلثوم منْ عثمانَ رضي الله عنهما فتقول:
لما زوّج النّبيُّ ﷺ بنته أمّ كلثوم قال لأمِّ أيمنَ: «هيئي ابنتي أمّ كلثوم وزفّيها إلى عثمانَ، وخفّقي بين يديها بالدُّف» ففعلتْ ذلك، فجاءها النّبيّ ﷺ بعد الثّالثة، فدخل عليها فقال:
«يا بنية، كيف وجدتِ بَعْلك»؟
قالت: خير بَعْل.
فقال النّبيُّ ﷺ: «أَما إنّه أشبه النّاس بجدِّك إبراهيم، وأبيك محمّد صلى الله عليهما»[2].

وعن أمِّ عياش ـ وكانت أَمَةً لرقية بنت رسول الله ﷺ ـ قالت: سمعتُ النّبيَّ ﷺ يقول: «ما زوَّجتُ عثمانَ أمّ كلثوم إلا بوحي من السَّماء»[3].

وهذا يشيرُ إلى مكانة عثمان رضي الله عنه، وإلى مقامهِ بين الصَّحابة الكرام في عَهْدِ النّبوّة، ولعلَّ عثمان قد احتلَّ مساحةً كبيرةً من محبَّةِ رسول الله ﷺ ومنْ عطفهِ واحترامهِ لجليلِ صفاتهِ، وكريم عطائه؛ ولعلَّ أمّ كلثوم رضي الله عنها قد لاحظتْ هذا الاهتمام النّبوّي بعثمان، فازداد سرورها بذلك.

ويروى عن أمِّ كلثوم رضي الله عنها أنّها جاءت إلى النّبيّ ﷺ، فقالت:
يا رسول الله، زوجُ فاطمة خيرٌ من زوجي؟
قال: فأسكتَ النّبيّ ﷺ مَليّاً، ثمَّ قال: «زوجتُكِ مَنْ يحبّه الله ورسوله ويحبّ الله

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٦/ ١٢٠) وأسد الغابة (٦/ ٣٨٤) والعقد الفريد (١/ ٢٨٥) وذكر ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ أن عثمان قد تزوج أم كلثوم وابتنى بها بعد ابتناء علي بفاطمة بخمسة أشهر ونصف.
(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٦/ ١١٧ و١١٨).
(٣) المصدر السابق (١٦/ ١٢١).

ورسوله» فولّت، فقال: «هلمّي، ماذا قلتُ»؟
قالت: زوجتني مَنْ يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله.
قال: «نعم وأزيدك: لو قد دخلتِ الجنّة فرأيتِ منزله لم تَرَيْ أحداً منْ أصحابي يعلوه في منزله»[1].

إذن فمنزلةُ عثمان رضي الله عنه عالية، ولهذا سميّ بذي النّورَيْنِ. قال الحسنُ - رحمه الله -: إنّما سُمّي عثمان ذا النّورين لأنّه لا نعلم أحداً أغلق بابه على ابنتي نبيّ غيره[2].

وكان عثمانُ رضوان الله عليه من القانتين بآياتِ الله، آناء الليل ساجداً حَذَراً لآخرته، ورجاءً لرحمة ربّه، يحيي القرآن جلَّ لياليه في ركعة حياةِ رسولِ اللهﷺ وخليفتيه، فلّما وُلّي كان خَيْرِ الخيرة، وإمام البَررَة.

قال ابنُ قتيبة - رحمه الله -: وكانَ عثمانُ رضي الله عنه محبباً في قريش وفيه يقول قائلهم:
أحبُّك والرّحمان حبَّ قريش عثمان[3]
نَعَمْ فعثمانُ هو القانت ذو النّورين، والخائف ذو الهجرتين، والمصلّي إلى القبلتين، عثمان بن عفان رضي الله عنه[4].

وفي بيتِ عثمان رضي الله عنه عاشت أمّ كلثوم رضي الله عنها قرابة ست سنين، رأت فيها الإسلام قد بَسَطَ جناحيه على الجزيرة العربية، بقيادة أبيها رسول اللهﷺ، وكان زوجُها عثمانِ واحداً مِنْ فرسان مدرسة النّبوّة، وسفيراً للنّبيّﷺ عند صلح الحديبية، وأدركت كذلك الفَتْح الأعظم فتح مكة، كما أدركت المسير إلى غزوةِ تبوك سنة تسع، وشهدت يوم ذاك كَرَمَ زوجها عثمان

(١) انظر مختصر تاريخ دمشق (١٦/١٢١ و١٢٢).
(٢) المصدر السابق (١٦ و١٢٢).
(٣) المعارف (ص١٩٢).
(٤) حلية الأولياء (١/٥٥).

وتجهيزه لجيش العُسْرة! وبعد ذلك اقتربَ لقاؤها مع الله عزّ وجلّ، والرَّحيل إلى الدَّار الآخرة، لتكون مع أمِّها الطَّاهرة خديجة بنت خويلد أمّ المؤمنين، وأوّل خَلْق الله إسلاماً، ولتكون مع أختيها زينب ورقيّة رضي الله عنهن أجمعين. وفي هذه الصَّفحات التّالية نشهد رحلة الخلود لأمّ كلثوم رضوان الله عليها.

«سَلاَمٌ عَلَيْكُم ادخلُوا الجَنَّة»:

في شهرِ شعبان سنة تسع[1] من الهجرة النّبويّة المباركة، شعرت أمّ كلثوم بلقاءِ الله عزَّ وجلَّ، وهبطَ عليها المرض، فأضحت طريحة الفِراش؛ وفي صُبْح أَحَدِ تلك الأيام، كان صوتُ بلال ينسكبُ في أذانِ المسلمين، وتهيّأ عثمان للخروجِ إلى المسجد النّبويّ الشّريف، وألقى نظرةَ إشفاق على زوجه الصَّابرة الطَّاهرة أمّ كلثوم، ثم هبطَ ليصلي الفجر خَلْفَ رسول الله ﷺ.

كانت أمّ كلثوم رضي الله عنها ذابلة الجسدِ، قد نال منها الوهن، فتمددتْ في فراشها تغالبُ المرضَ، ولكنَّ لسانَها ظلَّ يتحرك بذكر الله عزَّ وجلَّ، ودخلت عليها أمّ عياش، فألفتها في النَّزع الأخير، فأرسلت إلى الرِّجال في المسجد النّبويّ الشّريف، فأسرعَ عثمانُ زوجها إلى داره، فإذا بأمِّ كلثوم تعالجُ سكرات الموت، فراح ذو النورين يناديها في وجد، وهو مشفقٌ عليها، وعلى نفسه! كان يفزعه أنْ ينقطعَ بموتها نسبه برسولِ الله ﷺ.

وجاء الحبيبُ المصطفى ﷺ، وأبو بكر الصّديق وعمر الفاروق، وعليّ رضي الله عنهم وبعض الأنصار، ودخل النبي الكريم على ابنته، وهي تجودُ بآخرِ أنفاسها، فدمعت عيناه الشَّريفتان، وإنَّ قلبَه الشَّريف ليقطر أسىً، ولسانه يتحرّك بما يرضي الرّب جلَّ وعلا.

وصَعِدَتْ روحُ أمّ كلثوم إلى ربِّها راضية مرضية تشهد شهادة الحقّ،

---

(١) تاريخ الطبري (١٩٢/٢) والكامل (٢٩١/٢) والمواهب اللدنية (٦٣/٢) وشذرات الذهب (١٢٨/١).

وغسلتها أسماء بنت عميس وصفية بنت عبد المطلب وأمّ عطية الأنصاريّة رضي الله عنهن[1].

وصلّى عليها النبي الكريم، ومن ثمّ انطلقت الجنازة إلى البقيع، ووضعت أمّ كلثوم في قبرها.

ويروي سيّدنا أنس بن مالك رضي الله عنه نبأ دفن أمّ كلثوم فيقول: رأيتُ النّبيّ ﷺ جالساً على قبرها، وعيناه تدمعان فقال: «هل منكم رجل لم يقارفِ الليلةَ»؟

فقال أبو طلحة: أنا.

قال: «فانزلْ».

قال: فنزلَ في قبرها[2].

ونزل معه عليّ بن أبي طالب، والفَضْل بن العّباس وأسامة ابن زيد.

وعن أبي أمامة قال: لما وُضِعَتْ أمّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ في القبر، قال رسول الله ﷺ: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [طه: ٥٥] ثم قال: «بسمِ الله وفي سبيلِ الله، وعلى ملّةِ رسول الله»، فطفقَ يطرحُ إليهم الجُبُوب ـ التّراب ـ ويقول: «سدُّوا خلال القبر» ثمّ قال: «إلا أنَّ هذا ليس بشيء، ولكن يطيب بنفس الحي»[3].

ودفنت أمّ كلثوم رضي الله عنها في البقيع، وكان عثمان غارقاً في حزنه، تنفرُ الدُّموع من عينيهِ على إحدى فرائد البيت النّبويّ، وإحدى حبَّات عقْدهِ الفريد، ورأى رسولُ الله ﷺ عثمان وهو يسيرُ مطرقاً، وفي وجهه حزنٌ لما أصابه، فدنا منه وقال: «لو كانتْ عندنا ثالثة لزوجناكها يا عثمان».

(١) الكامل في التاريخ (٢٩١/٢) وتاريخ الطبري (١٩٢/٢).
(٢) للحديث أصل في البخاري، وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٣٨/٨) والحاكم (٤٧/٤) وأحمد (١٢٦/٣ و٢٢٨) والسمط الثمين (ص١٩٠) والمواهب اللدنية (٦٣/٢).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٦٨/٢).

وأوردَ ابنُ سعد ـ رحمه الله ـ في الطَّبقات: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لو كنَّ عشراً لزوجتهن عثمان»[1].

والآن، ما رأيك عزيزي، ونحنُ في وداع السَّيِّدة أمّ كلثوم رضي الله عنها نعطِّر الأفواه والأسماع بقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيِّبين يقولونَ سلامٌ عليكم ادخلوا الجنَّة بما كنتم تعملون﴾[2] صدق الله العظيم.

---

(١) طبقات ابن سعد (٣٨/٨) ومجمع الزوائد (٢١٧/٩).

(٢) سورة النحل (آية ٣٢).

فاطمة بنت رسول الله

رضي الله عنها

- سيّدةُ نساءِ أهل الجنّة، وأصغرُ بنات النَّبيّ ﷺ وأشهرهنّ، وفضائلها لا تُحصى ولا تُحصَر.
- تزوجّها فارسُ الإسلام وبطل المسلمين عليّ بن أبي طالب وهي أمُّ الحسنَيْنْ، ومنْ رَواة الحديث النّبويّ.
- قال رسولُ الله ﷺ: «إنّما ابنتي بَضْعَةٌ منّي يريبني ما رابَها، ويؤذيني ما آذاها».
- اختصَّ الله عزَّ وجلَّ فاطمة الزَّهراء بالذُّرية الطَّاهرة.
- قالتعائشة أمّ المؤمنين: ما رأيتُ أفضْل منْ فاطمةَ غير أبيها.

ماتت فاطمة بعد أبيها بستةِ أشهر ودُفنت بالبقيع.

فاطمة بنت رسول الله رضي الله عنها

الزَّهْرَاءُ وَالبِدَايَةُ العَطِرَةُ

لو قُدِّر في يومٍ منَ الأيّام، أنْ تُصَاغَ الكلماتُ مِنْ عبير الزَّهْر، ورحيق الوَرْدِ، وتُكْتَبَ بها سيرُ النُّبلاء، وحياة الفُضَلاء، لكانت سيّدتنا الزّهراء أحقّ النَّاسِ في هذا، كيما تكون سيرتها نديّة شذيّة عَطِرة؛ كتابةً وقراءةً وسَماعاً وحفْظاً.

فالزَّهراءُ رضوان الله عليه جوهرةٌ فريدةٌ بين النِّساء؛ اختصَّتْ بمكارمَ حسانٍ لم تَرْقَ إليها امرأة قطّ في عَصْرٍ منَ العصور؛ فهي البَضْعَةُ النّبويّةُ الطّاهرة، وأمُّ الفَضَائل الكريمة الباهرة، ابنة الرَّسول الكريمﷺ، وابنة أحبّ أزواجه إليه، وهي زوج أقرب أصحابهﷺ منه، قد اختصَّتْ بالذّريَّةِ الطّاهرةِ منْ أولادهِﷺ.

وليتني أستطيعُ كتابةَ حياة الزَّهراء على أوراق الوَرْدِ بفُتَاتِ المِسْك، لتكون سيرتها حياة كلّ بيت، وتكون معالمها في كلِّ وردة تفوحُ منها رائحة المسك، وليس هذا فحسب ، بل لتكون سيرتها قدوة لكلّ امرأةٍ تريدُ مرضاة الله عزَّ وجلَّ في هذه الحياة الدُّنيا، لتفوزَ بنعيمِ الدَّار الآخرة.

إنَّ سيرةَ نساءِ أهل البيت خيرُ زادٍ لنساءِ الدُّنيا في كلِّ الأزمان، حيث تجعلُ القلوبَ تتدفَّقُ بنورِ اليقين؛ وتتصل بحبلٍ منَ التُّقى والتَّقوى، بأولئك اللاتي نُظِمْنَ في عِقْدٍ فريد، وَنِلْنَ التَّشريف بالارتباطِ في بيتِ النّبوّةِ الكريم، فكُنَّ سادة النِّساء في دُنيا السِّيادة.

الزَّهراءُ؛ فاطمةُ بنتُ إمام المتّقين رسول الله محمّدﷺ بن عبد الله بن

عبد المطلب القرشيّة الهاشميّة[1] التي يطيبُ الحديث عنها ومعها اليوم، فهي ريحانةُ البيتِ الطّاهر الذي أحلّه الله عزَّ وجلَّ مكانةً رفيعةً في قلوبِ المؤمنين، ونفوسِ المحبّين، وهي سيّدة نساء العالمين في زمانها، البَضْعَة النّبويّة، والجهةُ المصطفوية، أمّ الحسنين رضي الله عنها وأرضاها.

كانت فاطمةُ رضي الله عنها أصغرَ بناتِ النّبيِّ ﷺ، وأحبّهن إليه، واختُلِفَ في أيّتهن أصغر، والذي تسكنُ إليه النَّفْسُ، ويرتاحُ له اليقين على ما تواترت به

---

(١) المسندُ (٢٨٢/٦) وطبقاتُ ابن سعد (١٩/٨ ـ ٣٠) والمعارفُ (ص١٤١ و١٤٢ و١٥٨ و٢٠٠) وحليةُ الأولياء (٣٩/٢ ـ ٤٣) والمستدركُ (١٥١/٣ ـ ١٦١) والاستيعاب (٣٦٣/٤ ـ ٣٦٩) وجامعُ الأصول (١٢٥/٩) وأُسُدُ الغابة (٢٢٠/٦ ـ ٢٢٧) ترجمة رقم (٧١٧٥) والعبر (١٣/١) ومجمع الزّوائد (٢٠١/٩ ـ ٢١٢) وتهذيبُ التّهذيب (٤٤٠/١٢ ـ ٤٤٢) والإصابةُ (٣٦٥/٤ ـ ٣٦٨) وكنزُ العمال (٦٧٤/١٣) ونساء مبشّرات بالجنّة (٥٣/٢ ـ ٩٤) وشذراتُ الذّهب (١٣٤/١) والفصولُ (ص١٩٧ و٢٤١ و٢٤٢ و٣٤٢) والبدايةُ والنّهايةُ (٢٣٢/٦) والكاملُ في التّاريخ لابن الأثير (انظر الفهارس ٢٧١/١٣) وتفسير القرطبيّ (٢٤١/١٤) وتهذيب الأسماء واللغات (٣٥٢/٢ و٣٥٣) وتاريخُ الطبريّ (انظر الفهارس ١٩١/٦) وسير أعلام النّبلاء (١١٨/٢ ـ ١٣٤) وصحيحُ مسلم في فضائل الصّحابة؛ باب فضائل فاطمة بنت النبيﷺ. والمغازي (انظر الفهارس ١٢٢١/٣) وعيونُ الأثر (٣٦٤/٢) والسّيرة الحلبية (٣٩١/٣) وجوامعُ السّيرة النبوية (ص٣٦) وزادُ المعاد (انظر الفهارس ٣٦٦/٦) والسّمطُ الثمين (ص١٧١ ـ ١٨٣) والمجتبى (ص٩٦ و٩٧) وصفةُ الصفوة (٩/٢) وتقليحُ فهوم الأثر(ص٣١) وفضائلُ الصَّحابةِ للإمام أحمد (٧٥٤/٢) وشفاءُ الغرام (١٣٧/٢ و١٧٧ و١٨٧ و١٨٩ و١٩٧ و١٩٨ و١٩٩ و٢٣٣ و٢٣٤) ودلائل النبوّة للبيهقيّ (انظر الفهارس ١٦٩/٧) وعيونُ الأخبار (١٤٠/٢ و١٤١) و(٧٠/٤ و١٠٦) والمواهبُ اللدنية (٦٤،٢ ـ ٦٨) والعقدُ الفريدُ (انظر الفهارس ١٤١/٦) والفرج بعد الشّدة (٢٩٠/٢ و٢٩١) و(١٧٢/٤ و٣٨٥) وربيعُ الأبرار (٣٠٣/٥) وسننَ الترمذي في التفسير (٣٢٠٦) ودرُّ السّحابة (ص٢٧٣ ـ ٢٧٩) ومسندُ أبي يعلى (١٠٥/١٢ ـ ١٢٣) وغيرها كثير جداً من مصادر التّراث المتعددة.
وقد رحتُ أتصفّحُ المصادر التي تحدثت عن الزّهراء فألفيتُ أنَّ عددها تجاوزَ المئات ولا يتسع المقام لايرادها في هذا الموضع، ولكن اكتفيت بانتقاء بعضها دون النظر إلى التّرتيب الزمني لعصر المؤلف، ولكن ذكرت ذلك حسب أهمية المادة المطلوبة في المصدر.

الأخبار من ترتيب بنات رسول الله ﷺ أنَّ أكبرهن زينب، تليها رقيّة، ثمّ أمّ كلثوم، ثم الرّابعة فاطمة الزَّهراء رضي الله عنهن.

وذكر الإمامُ شمس الدِّين الذَّهبيّ ـ رحمه الله ـ أنَّ فاطمةَ قد وُلدتْ قَبْل البعثة[1] بقليل في مكةَ أمِّ القرى؛ وذكر الحافظ ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ أنّها تُلقَّب بالزَّهراء، وكانت تكنى أمّ أبيها[2].

الزَّهرَاءُ أمُّ أَبِيْهَا:

إذا أحببنا أنْ نجملَ صفات فاطمة الزَّهراء رضوان الله عليها بكلمةٍ واحدة تغني عن كلماتٍ وكلمات، نستطيعُ أنْ نقولَ: إنّها أمُّ أبيها، حيث دَرَجَتْ في بيتِ أبويها؛ ومَنْ أَبَوَاهَا؟

سيِّدنا وحبيبنا رسولُ الله ﷺ أكرم خَلْقِ الله على الإطلاق، المبعوث رحمة للعالمين.

وسيِّدتنا وأمّنا خديجة الطّاهرة سيِّدة نساءِ العالمين، وأكرم امرأة على الرَّسول ﷺ، وأحبّهن إلى قلبهِ الشّريف.

إذن، لقد دَرَجَتْ فاطمةُ في دارٍ عظيمةٍ، كانت مقبلة على أمْرٍ عظيم، لم تكن في غيرهِ منْ دُوْرِ مكةَ، بل دور الدُّنيا. . . . . لا ريب أنَّك عزيزي القارىء تسألني ما الأمْر العظيم إذ ذاك؟

أقول: هو أمْرُ الدَّعوةِ الإسلامية التي اختصَّ الله عزَّ وجلَّ نبيَّه محمّداً ﷺ بحملها وتبليغها إلى النّاسِ كافّة. .

على مائدةِ التُّقى والطُّهر، فَتَحَتْ فاطمةُ عينها، ونشات على أتقى التُّقى، بين الصَّلوات والتَّسبيحات التي تنبعثُ مِنْ فَمِ أبيها وأمّها، وهذا كان له كبير الأثرِ في تكوين شخصيتها الفريدة بين نساء أهل البيت رضي الله عنهن، إذ كانتِ

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١٩/٢).

(٢) الإصابة (٣٦٥/٤).

الزَّهْراءُ الوحيدةُ ـ تقريباً ـ في بيتِ أبويها، حيث تزوّجت كُبْرى أخواتها زينب، ثمّ رقية، ولم تَبْقَ معها إلا أمّ كلثوم التي تكبرها بقليل.

في ربى رياضِ قَلْبَيْنِ كبيرَيْنِ؛ قلب أبيها، وقلب أمّها، نَعِمَتْ فاطمةُ الزَّهراء بحنانهما، وقَطَفَتْ مِنْ زَهْرِ رياضهما الحبَّ والعطفَ والرَّحمةَ، فحظيت بالحنانِ منهما، لكونها أصغر الذُّرية الطَّاهرة في البيتِ المحمّدي.

وفي جنَّةِ أبويها، تبوَّأَتِ الزَّهراءُ مكاناً علياً، فتعلَّمَتْ منهما ما لم تتعلّمه فتاة في مكةَ أو غيرها. . . . . تعلَّمَتْ آيات مِنَ الذّكْرِ الحكيم، كان للوحيُ الأمينُ يهبطُ بها نديّةً على الرَّسولِ الأمين محمّدٍﷺ.

ففي مَهْدِ الإيمان نشأتِ الزَّهراءُ نشأَةَ جدٍّ واعتكافٍ؛ نشأةَ وقَارٍ وَحَياءٍ، فكانت ساكنةَ النّفْسِ، قوية القلب، صافية السَّريرة، لا تعرفُ إلا الإيمان، ولا يعرفُها إلا الإيمان.

في تلكَ الدَّار المباركة عَلِمَتِ الزَّهراء ـ على مرِّ السّنين ـ أنّها سليلة شرفٍ لا يُدانى، ومكانة لا تُبارى، ونقاءٍ لا يُجارى؛ جَمَعَتْ إلى عراقةِ النَّسبِ، وكرامة المحتد، كريمَ الصِّفات، وجميلَ المحّاسِنِ، فَغَدَتْ متفرّدة بين بناتِ قومها، بل بنات الدُّنيا بأسرها.

بعد وفاةِ خديجة أمّ الزَّهراء، كانتِ الزَّهراءُ تنهضُ بأعباء البيتِ النبويّ، وترعى أباها الكريم، وتفيض عليه منْ عطفها وحبّها، حتى دعاها أصحابُ رسولِ اللهﷺ بأمِّ النبي أو أمّ أبيها. .

لقد نشأتْ فاطمةُ الزَّهراءُ رضي الله عنها وهي تسمعُ كلام أبيها أبلغ البلغاء، وأفصح الفصحاء، وسمعتْ آيات القرآن الكريم تُتلى في الصَّلَواتِ، وفي سائر الأحايين والأوقات، فغدتْ لا تخرج عن ضوءِ القرآن الكريم، أو الحديثِ الشَّريف، في كلّ ما تقوم به مِنْ عمل.

الزَّهْرَاءُ والبعْثَةُ المُحَمَّدِيَّةُ

لما وُلِدَتْ فاطمةُ رضي الله عنها، استقبلها خير(١) أبٍ على الإطلاق، وخيرُ أمّ بينَ الأمّهاتِ، فنشأتْ في خَيْرِ نشأة، وأخذتْ عنهما صفاتهما الجليلة، واقتبستْ أعمالها الكريمة، فكانت سيّدةَ نساء العالمين.

ولما بُعثَ الحبيبُ المصطفى ﷺ كانت فاطمةُ الزَّهراءُ تعقلُ ما يُقال، فأسلمتْ وهي صغيرةٌ مع إسلام أمّها وأخواتها زينب ورقية وأمّ كلثوم بأدبِ القُرآن الكريم، مع نزول أُولى آياته، وأوَّلِ أحكامه، وترفدُ ذلك بأدبِ النّبوّة العظيم، حتى احتلت مكانة عُظمى في نَفْسِ رسولِ الله ﷺ لم تبلغْها واحدة منْ نساء آلِ البيت النّبويّ الطّاهرات.

أرسل الله عزَّ وجلَّ رسوله بالهدى ودينِ الحقِّ إلى النَّاس كافّة، وراح محمّد رسولُ الله ﷺ يدعو إلى الإسلامِ سِرّاً وجهراً، وبلغ قريشاً ما يدعو إليه رسول الله ﷺ، فأخذها ما قَرُبَ، وما بَعُدَ، وطاشتْ أحلامُها منْ هذا الذي سفَّه أحلامها، ويُسَفِّه أصنامها، وما ورثته عنِ الآباء والأجداد.

ظهرتْ شرذمةٌ مِنَ المعاندين الذين ركبوا طريقَ اللّددِ، ولجّوا في العداوة، وأخذوا على عاتقهم محاربةَ رسولِ الله ﷺ ودعوته ما بَلَّ بَحْرَ صوفة.

وأشار القرآنُ الكريم، والحديثُ الشَّريف، وكُتُبُ المصادرِ إلى هؤلاء الكفرة، الذين سوَّلَتْ لهم أنفسهم النَّيْلَ مِنْ رسولِ الله ﷺ، وفي مقدمتهم: أبو لهب بنُ عبد المطّلب، وأبو جهل بنُ هشام، وأُبَيُّ بنُ خَلَف، والعاصُ بنُ وائل، والنَّضرُ بنُ الحارث، وأمُّ جميل بنت حرب، وعتبةُ بنُ ربيعةَ، وعقبةُ بنُ أبي معيط، وأميَّةُ بنُ خلف وغيرهم كثير(٢)، وكان منْ أشدِّهم عداوةً وضراوةً

---

(١) لله درُّ مَنْ قال:

قـريشٌ خِيَـارُ بني هـاشـمِ ... وخَـيرُ قـريش بَـنُـو هـاشـمِ
وخـيرُ بـني هـاشـم أَحْمَـد ... رسـولُ الإلـهِ إلى الـعـالمِ

(٢) يمكنُ للقارىء الكريم الرُّجوع إلى كتابنا «المبشّرون بالنّار» في جزأيه لمراجعةِ أخبارِ هؤلاء =

أبو جهل الذي طغى في عداوتهِ وعُدْوَانه إلى حدٍّ لا يُطاق، فأخذه الله أَخْذَ عزيزٍ مقتدر، وكانت نهايته في غزاةِ بَدْر على يَدِ مَنْ كان يستضعِفُهم.

كانَ لفاطمةَ الزَّهراءِ رضي الله عنها مواقفُ زاهرةٌ وضيئةٌ، مع هؤلاء في مَطْلَعِ البعثة النّبويّة بمكةَ المكرمةِ، وتصدَّتْ لهم أكثر منْ مرّةٍ، فأسكتتهم جرأتُها، وخافوا دعوةَ أبيها.

تروي المصادر الوثيقةُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد دَخَلَ إلى الحَرَم، ومعه بعض صَحْبه، وجلس المسلمون، وقام رسولُ اللهِ ﷺ يُصلّي، وقد نُحِر جَمَلٌ قُرْبَ أَحَدِ الأصنام، وبقي روثه في كرشِهِ، وبعض الدِّماء والأقذار، وكان أبو جهل بن هشام وعقبة بن أبي معيط، وبعض كفَّار فجّار قريش في مجلسهم قربَ الكعبةِ.

ورأى أبو جهل رسولَ اللهِ ﷺ ساجداً يصلّي لله ربّ العالمين، فاستخفّه الحقدُ الأسودُ، والتفتَ إلى المجلس وقال لِمَنْ عنده: أيّكم يأخذُ سَلا هذا الجزور، فيضعه بين كتفَي محمّد وهو ساجد؟!

فقام عقبةُ بنُ أبي معيط أشقى القوم ـ وكان مغموزَ النَّسب بينهم ـ فأخذ ذلك الفَرثَ وجاءَ به، فألقاهُ على ظهْرِ رسول الله ﷺ وهو ساجد، والقومُ ينظرون، فاستضحكوا ببلاهةٍ شديدة، وجَعَلَ بعضُهم يميلُ على بعضٍ من شدّةِ الضَّحك والسُّخرية، ولم يجرؤ أحدٌ منَ المسضعَفِينَ أنْ يلقيَهُ عَنْ ظهرِ النّبيِّ ﷺ، وإذا بفاطمةَ الزَّهراء قد أقبلتْ، ورأتِ الرَّوثَ بين كتفَيْ أبيها، فأسرعتْ إليه وألقته عن ظهرهِ الشَّريف، وغَسَلتْ ما لحقَ بهِ منْ أذىً، ثمّ نظرتْ إلى الجَبَانِ الرِّعديد أبي جهل وعقبة بن أبي معيط ومَنْ كان هناك مِنَ المستهزئين، فسبَّتْهم وشَتَمَتْهم، فلم يرجعوا إليها شيئاً، وفوَّضَتْ أمْرَها وأمْرَ أبيها إلى العليمِ الخبيرِ الذي بيده مقاليد السَّماوات والأرض.

= الفَجَرة الكفرة، ونهاية كلّ واحد منهم؛ وكان الحديث عن هؤلاء في ضوء القرآنِ الكريم والحديث الشّريف، فجاء البحثُ ـ بعون الله ـ بِكْراً فَريداً، أرجو الله أنْ يجعلَه خالصاً لوجهه الكريم، وأنْ ينفعَ به النّاس.

ولما قضى رسولُ اللهِ ﷺ الصَّلاة، رَفَعَ يديه واستقبلَ ربَّه وقال: «اللّهم عليك بشيبةَ بنِ ربيعة، اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، اللهم عليك بعقبة بنِ أبي معيط، اللهم عليك بأميّة بن خلف».

فلمّا سمع الفجرةُ المستهزئون صوتَ رسول اللهِ ﷺ، اختفَتْ ضَحِكَاتُهم، واخْتَنَقَتْ أصواتُهم، وذَهَبَ عنهُم السُّرور المُصْطَنَع، وخافوا دعوته خوفاً شديداً، إذ يعلمون سوءَ ما يصنعون[1]. ﴿وسيعلمُ الذين ظَلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون﴾ [الشعراء: ٢٧٧].

سرى هذا الخبر في مكةَ، وسمعَ القرشيون ما أسمعته فاطمة الزّهراء، لقساةِ الأكباد هؤلاء الذين استخفَّ بهم الشَّيطان، وأغراهم ووعدهم الباطل، فلم يزددْ هؤلاء إلا عِناداً، بل أُغْرِمُوا في المخاصمةِ، وراحوا يكيدونَ أشدَّ الكيدِ رسولَ اللهِ ﷺ، ويحسدونه على ما أتاه الله مِنْ فضلِهِ، وذلك لخبثِ نفوسهم المتعفّنة، ولتكبّرهم وتعجّبهم منْ هذا الذي نشأ يتيماً، ثمَّ دعاهم إلى عبادةِ إلهٍ وَاحدٍ، هو الإله الواحدُ القهّار، ووجدوا أنفسهم في وَادٍ سحيق لا يملكونَ حتى أنفسهم، فقد تَبعَ واتَّبَعَ رسول اللهِ ﷺ كثيراً مِنْ أولادِهم وبناتِهم، وآمنوا بتوحيدِ الله، وشهدوا برسالة محمّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام، فازدادتِ النِّيرانُ اضطراماً في قلوبهم حَسَداً وبَغْياً، وبدتِ البغضاءُ منْ أفواههم، وما تخفي صدورهم أكْبَر، وطفقوا يُسْمِعُونَ رسولَ اللهِ ﷺ ما تعافه النُّفوسُ الكريمة، ولكنَّهم كانوا في ضلالاتهم يَعْمَهون.

خرجتْ فاطمةُ الزَّهراءُ رضي الله عنها إلى الحَرَمِ، فأَلْفَتْ أكابرَ المجرمين بقيادةِ أبي جهل، وهم جالسونَ في الحِجْرِ، وكانوا يتحدَّثُون عنِ الدِّيْنِ الجديد، وعنْ محمّدٍ رسول اللهِ ﷺ، والذين معه؛ وراحوا يتحاوَرون، وقد سَمِعَتِ الزَّهراءُ إذ قالوا: إذا مَرَّ محمّد فليضربه كلّ واحدٍ مِنّا ضربةً.

---

(١) عن دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٧٨ - ٢٨٠) بشيء من التصرف. وانظر: أنساب الأشراف (١/١٢٥) والبداية والنهاية (٣/٤٤) ونساء مبشرات بالجنة (٢/٦١ و٦٢) وغير ذلك من المصادر الكثيرة.

وأسرعتْ فاطمةُ عليها سحابات الرُّضوان، ودخلتْ على أبيهاﷺ، وقالت وهي تسترسلُ في البُكاء: تركتُ الملأ منْ قريش قَدْ تعاقَدوا في الحِجْرِ، وحَلَفُوا باللاتِ والعزّى، ومناة الثَّالثة الأُخرى، وإساف ونائلة إذا هم رأَوْكَ يقومون إليك فيضربونَك بأسيافهم فيقتلونَك. . . .

فقال الحبيبُ المصطفىﷺ لفاطمةَ في حنانٍ وفي ثِقَةٍ عظيمةٍ بالله عزَّ وجلَّ: «يا بُنَيَّة لا تبكي فإنَّ الله تعالى مانعٌ أباكِ».

وذهبَﷺ وتَوَضَّأَ، ثمَّ خرجَ، فدخلَ عليهم المسجد، فرفعوا رؤوسهم ثمَّ نكِسُوا، فأخذ قبضةً مِنْ تراب، فرمى بها نحوهم ثمّ قال: «شَاهَتِ الوجوهُ» ووقفَ رسول اللهﷺ وهو يصلّي ولا يستطعون أنْ يتكلّموا بحرفٍ واحد، وألجمهم الخوفُ وركبهم الفَزَعُ، ووقفوا ينظرون إلى رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام كأنّهم خُشُبٌ مسندة، وكانتِ الآياتُ الكريمةُ تنزل منذرة[1] هؤلاء الأَشْرار بسوءِ المُنْقَلَب، وبالخزي والعار.

ولفاطمةَ الزَّهراء رضوان الله عليه مواقفُ لا تُنسى في مجالِ تحدّي زعماء قريش ورؤسائهم، وقد تضيقُ الصَّفحاتُ ـ هنا ـ عنِ الاسْتِيْعَابِ لِمَا أَوْرَدَه تاريخُ

(١) كانت جلودُ هؤلاءِ الأشرار الفجّار تقشعرُّ منَ الرَّهبة كلّما نزلَ القرآنُ الكريمُ بهم، فكانَ أبو جهل بنُ هشام، وعقبة بنُ أبي معيط، وأبيّ بن خلف، والنَّضْر بنُ الحارث يسخرونَ سخريةً شديدة من محمّد رسولِ اللهﷺ، ويقولون للتّهوينِ منْ شأنِهِ ـ والحسرةُ تملأ قلوبهم ـ: الله أعظم منْ أنْ يكونَ رسولهِ بَشَراً مثل محمّد.

ولكنَّ القرآنَ الكريمَ ينزلُ فيقوِّضُ هذه الحجّة على رؤوسِ أصحابها. قال الله تعالى: ﴿آلر تلكَ آياتُ الكتابِ الحكيم. أكَانَ للنَّاسِ عَجَباً أنْ أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر النَّاسَ وبشّر الذين آمنوا أنَّ لهم قَدَمَ صِدْقٍ عند ربّهم قال الكافرون إنّ هذا لساحرٌ مبين. إنَّ ربَّكم الله الذي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ ثمّ استوى على العَرْشِ يدبّر الأَمْر ما من شفيع إلا منْ بَعْدِ إذنه ذلكم الله ربّكم فاعبدوه أفلا تذكّرون. إليه مرجعُكم جميعاً وَعْد الله حقّاً إنّه يبدأ الخَلْق ثمّ يعيده ليجزيَ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات بالقسط والذين كفروا لهم شرابٌ منْ حميمٍ وعذابٌ أليم بما كانوا يكفرون﴾ [يونس: ١ ـ ٤].

فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها في التَّصدي لأبي جَهْل ومَنْ شايَعه مِنْ أكابر المجرمين؛ ومنَ الإصَابَة أنْ نشيرَ إلى قصَّةٍ تدلُّ على ثباتِ فاطمةَ الزَّهراء في موقفٍ عظيم زاخر بالجرأة، زاهرٍ بالعطاء منْ جوهرة النِّساء، فاطمة الزّهراء.

يحكي تاريخُ فاطمةَ الزَّهراء الزَّاهِر، ما حَدَثَ بينها وبين لَعِيْنِ الكفْرِ والوثنية الجَبَان أبي جهل بن هشام، فقد كانت فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها تمرُّ ذاتَ يوم بأبي جهل، فإذا بهِ يرميها بنظرةٍ قاسيةٍ، ثم يَلْطُمها لطمةً قويّةً يُوْدِعُها كلَّ بغْضِهِ وحِقْدِهِ لأبيها ولها، وتتألَّمُ سيِّدةُ النِّساء فاطمةَ الزَّهراء ألمًا شَديداً لهذه اللطمة الحاقدة، وتنظرُ إلى الرِّعديد أبي جهل الذي تطاوَلَ على فتاةٍ لا تملكُ سلاحاً، ولا قوَّةً، فيضربها، فتنزل منزلته إلى الحضيضِ في ذلك المجتمع الذي يحتقرُ مثل هذه الأعمال.

وأبصرتْ فاطمةُ الزَّهراء أبَا سُفْيَانَ بنَ حرب ـ وكان حاكماً في قريش ـ فَشَكَتْ إليه ما فَعَل النَذْلُ الجبانُ أبو جهل، فإذا بأبي سُفيان تأخذه حميّة الحقِّ، فيرجعُ بفاطمةَ الزَّهراء إلى حيثُ يجلسُ أبو جهل، ثمّ يقولُ لها: الطميهِ قبّحه الله..

وتلطمُ فَاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها أبَا جهل كما لَطَمَها، وتقتصُّ لنفسها، وإذا بأبي جهل ينكسُ رأسه خزياً، وقد جلّله العارُ من إقْدَامِه على هذه الفِعْلة المشينة الشّنيعة.

وتذهبُ فاطمة الزّهراء رضوانُ الله عليها، إلى أبيها رسول الله ﷺ وتقصُّ عليه القَصَصَ بما كان، فيقولُ ﷺ: «اللهم لا تَنْسَها لأبي سفيان» واستجاب الله عزَّ وجلَّ للرسول الكريم ﷺ دعوته، وفَتَح على بصيرةِ أبي سفيان، فأسلمَ عام الفَتْح، فكان في ركْبِ السُّعداءِ.

الزَّهْرَاءُ وَعَامُ الحُزْنِ

كانتِ السّنونُ تمرُّ ورسولُ الله ﷺ يدورُ على مجالسِ قريش، يدعوهم إلى عبادةِ الله الخالق الباريء المصوِّر، وإلى الإسلام الدِّيْن القيِّم القَوِيم، فيلقُون إليهِ

أسماعَهم مرَّة، ويعرِضُون عنه مستهزئين مرَّات، والرَّسولُ الكريمُ ﷺ صَابرٌ يَصْدع لأَمْرِ الله، وكان يلقى مِنْ عطْفِ زوجه خديجة، ورعاية ابنته فاطمة الزَّهراء، ما ينْسِيه قسوةَ ما يتحمّل منْ آلامٍ وإيلام.

وكانت فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها تنظرُ بعين البصيرة إلى أمِّها خديجة حاضنة الإسلام، وهي تمسحُ لوعةَ الأسى عن قَلْبِ رسولِ الله ﷺ حينما يؤذيه قومه، وكانت ترى أمَّها خديجةَ أيضاً وهي تهوِّنُ عليه ما يقاسيه مِنْ عذابٍ واضطهاد، وتزوِّده بثقةٍ في نفسه، وتؤيِّده بكلٍّ ما تملك من قوَّةٍ ماديَّةٍ وروحيَّةٍ، فكانت فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها تسلكُ الطَّريق نَفْسَه في رعايةِ أبيها رسول الله ﷺ الذي يأخذ بِيَدِ البشرية إلى ينابيعِ النُّور، وروافدِ الإخلاص، ومناهل العرفان، وحَبْل الاعتصام بتقوى الله عزَّ وجلَّ.

مضتْ بضع سنين على الدَّعوة المحمديَّة، فإذا بكفَّار قريش يجتمعون قُرْبَ الكعبةِ ووجوهم باسرة، وعقولهم مشتتة، وقلوبهم تنزفُ غضَباً وحقداً وكراهية، فأمْرُ محمَّد رسول الله ﷺ يشتدُّ، وأتْبَاعه يزيدون يوماً بعد يوم، وها هو سيِّد فتيان قريش حمزة بن عبد المطلب يعلنُ إسلامه، ثم يتلوه عمر بن الخطَّاب، ويعلو أَمْرُ المسلمين، ولم يَقِفِ الأمْر عند هذا الحدّ، بل أطار عقول الكافرين أنَّ بعضَ هؤلاء المسلمين، قد تمكَّنُوا منْ أن ينسلّوا إلى الحبشةِ، وأنْ ينزلوا بلداً أصابوا به أَمْناً، وكانوا في خيرِ دار، عند خير جار.

راح رؤوسُ ورؤساءُ الكفَّارِ يتشاورون في أمْرِهم، فرأوا أنَّ هناك أمْراً قد يجدي نَفْعَاً لهم، واقترحَ النَّضْرُ بنُ الحارث أحد أحلافهم وكبّارهم حلَّاً، ظنَّ أنَّه سيلقي الستار على الدَّعوة المحمَّدية، ومن ثَمَّ تتلاشى إلى الأبد.

وأخذَ النَّضْرُ بنُ الحارث يعرضُ ما أتى به، واقترحَ على عصبة الشِّرْك منابذة بني هاشم، وبني المطلب، وإخراجهم من مكةَ، وحَصْرَهم في شِعْبِ أبي طالب، والتَّضييق عليهم بمنع حضور الأسواق، وأضافَ إلى اقتراحه الخبيث بأن لا يناكحوهم، وألّا يقبلوا لهم صفحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يُسْلِموا رسول الله ﷺ لهم كيما يقتلوه.

كان الملأُ الفاجرُ، يستمعُ لما يقوله الفاجر النّضر بن الحارث، فارتفعتِ الأصواتُ مؤيدةً مُرَدّدة ما قاله النّضر، وحسبوا أنَّهم سيفلحون، وسيصِلُون إلى مآربهم الدّنيئة بهذه الفعْلة الشّنيعة.

وكتبوا بذلك صحيفة، وعلّقوها في الكعبةِ توكيداً على أنفسهم أنّهم قطعوا كلَّ علاقة مع بني هاشم، وبني المطلب، ودخل رسولُ اللهﷺ وبنو هاشم وبنو المطلب إلى الشّعْبِ، وكان دخولُهم هلال شهر المحرّم من سَنَةِ سَبْع من النّبوّة.

دخلتْ فاطمةُ الزّهراء، ونساء أهل البيت النّبويّ وغيرهن من نساء بني هاشم وبني المطلب شِعْب أبي طالب، ومرّتِ الأيامُ والزّهراءُ ومَنْ معها في ضِيْقٍ، فقد نَفَدَ ما كان عندهم، وخَوَتِ البطونُ، وزاغتِ العيون، وتفككتِ الأوصال، وبكى الصّغار، وراحوا يطلبونَ الطّعام، وكانتْ دموعُ النّساء تنهمر، وأكباد الرِّجال تكاد تتفتت.

راح الجوعُ يطاردُ بني هاشم والمطلب مؤمنهم وكافرهم، ولكنْ لم ينلْ ذلك منهم، وإنّما ازدادوا إصراراً على نصْرةِ محمّدﷺ حتى مضتْ على الحصارِ الظّلوم ثلاثة أعوام، هُذِّبتْ فيها نفوسُ المؤمنين، ولقيت فاطمةُ الزّهراء رضي الله عنها خلالها أذىً شديداً، فوهَنَ جسمها، ومرضت أمّها خديجة نتيجة الحصار الأليم.

وخرجَ رسولُ اللهﷺ، وبنو هاشم والمطلب من الشّعْبِ بعد ثلاثة أعوام وهم يكبّرون: الله أكبر الله أكبر، ولم تزدهم هذه المحنة إلا إيماناً وتسليماً.

في تلكَ الأثناء كانت أمُّ المؤمنين خديجة تكابدُ ألواناً منَ الأسى والأمراض، فقد أثّر في صحتها ذلك الحصار الأليم، ممّا جعلها طريحة الفراش، وقد قامت ابنتها الزّهراء وابنتها أمّ كلثوم على شؤونها ورعايتها.

لكنَّ الأيامَ لم تكن طويلة، فقد توفيت أمُّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وشعرتْ فاطمةُ الزّهراء أنّها فقدت ينبوع الحنان بينما تفجّرتْ ينابيعُ الأسى بين ضلوع نساء أهل البيت لِفَقْدِ خديجة وزيرة الإسلام، وحاضنة الدّعوة منذ أنْ أزهرت إلى أنْ أينعتْ وآتَتْ أُكُلَها.

ومنذ أنْ توفيتْ خديجة راحتْ فاطمةُ الزَّهراء تقصُّ آثارها، وتهتدي بهديها لتكون ـ فيما بعد ـ أشهر امرأة في نساء أهل البيت، بل في دنيا النِّساء.

الزَّهْرَاءُ وَأَحْدَاثُ الهِجْرَةِ:

في العامِ العاشر منَ البعثةِ لحقتْ خديجةُ بالرَّفيقِ الأَعْلى، وبدأَ المشركون يُلْحِقُونَ الأذى بالرَّسول الكريمِ ﷺ، وبدأتْ فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها تشهدُ الأحداثَ العظيمةَ التي يمرُّ بها رسولُ الله ﷺ، وعاشتْ تفاصيلها ساعةً فساعة ويوماً فيوم.

ومنذ أنْ ماتتْ خديجةُ رضي الله عنها نَزَلَ بدارِها حزنٌ عميقٌ، شَمَل رسولُ الله ﷺ، وفاطمة الزّهراء، وأخواتها، فقد كانت خديجةُ تفيضُ على البيتِ النّبويِّ منْ حنانها وكرمها ما جعله منَ البيوتِ المباركة الميمونة وخاصّة بوجود سيّدة نساء العَالمين فاطمة بنت الرَّسول ﷺ ورضي الله عنها.

وخرج رسولُ الله ﷺ إلى الطَّائفِ يدعو أهلها إلى الله عزَّ وجلَّ، ولكنَّه قُوبل بالاستهزاء، فرجعَ وهو يناجي ربَّه أَعْذَبَ وأرقَّ مناجاة تشيرُ إلى عظمةِ رسول الله ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

دخل الحبيبُ المصطفى ﷺ مكةَ، فَخَفَّتْ فاطمةُ الزّهراء وأمّ كلثوم إليه يُقَبِّلانه والدُّموع تنهمرُ من أعينهما، وقصَّ رسولُ الله ﷺ على فاطمةَ الزَّهراء ما فعلَ به سفهاء أهل الطَّائف، وتضاحكهم من دَعْوَتِه، ولكنَّه أنبأها بأنَّ الله عزَّ وجلَّ ناصرُ دِيْنِهِ، ومُظْهِرُ نبيه، وأنَّ الأمْرَ بيده، وله الحكمُ، وسيجعل الله بعد عسرٍ يسراً.

وفتح الله عزَّ وجلَّ على قلوبِ الأنصار، واستقبلوا دعوة الدِّيْنِ الجديد بقلوبٍ مفعمة بالحبِّ والإعجاب، ودعوا رسول الله ﷺ ليحلَّ في دارهم يمنعونه من الأحمر والأسود، ويمنعونه بما يمنعون نساءهم. وأتى أمْرُ الله سبحانه بالهجرة، فهاجر المسلمون إلى عرين الأنصار، ثمَّ لحق رسولُ الله ﷺ أصحابه إلى المدينة.

أقامتْ فاطمةُ الزّهراء وأختها أمّ كلثوم في بيت النّبيّ ﷺ بمكةَ المكرمةِ،

وكانت معهما أمّ المؤمنين سَوْدَة بنت زمعة التي خطبها بعد خديجة، ثمَّ جاء رسولٌ منَ النَّبيِّ ﷺ فصحب نساء البيت النّبويّ إلى المدينة، وكَتَبَ الله عزَّ وجلَّ لسيّدة نساء العالمين فاطمة الزَّهراء الهجرةُ في زُمْرةِ المهاجرين إلى الله ورسوله.

ذكر ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ في السِّيرة أنَّه في طريق الهجرة إلى المدينة المنوّرة، لقيت فاطمةُ الزَّهراء بعضَ الأذى، فقد طاردَ بعضُ مشركي قريش الرّكب المهاجر، ولحقَ الحُويرث بن نُقيذ القرشيّ الرّكْبُ، ونَخَسَ بعير فاطمة وأمّ كلثوم فرمى بهما إلى الأرضِ، وباء الحويرث بغضبٍ منَ الله ورسوله.

ويبدو أنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها كانت نحيلة الجسم، ضعيفة القوّة، حيثُ أتعبتها الأحداثُ الجِسَام بعد وفاةِ والدتها خديجة، وترك الحصارُ قبل ذلك أثره في جسمها، بينما زاد يقينها قوة بالخالقِ الباري.

تابعت فاطمةُ الزَّهراءَ رضي الله عنها والرّكب معها الهجرة إلى المدينة المنوّرة، وكانت متعبة ممّا لاقته منَ الحويرث بن نقيذ القرشي[1]، ولما وصلتِ المدينة رحَّبَ رسولُ الله ﷺ بمقدمها، وأخذتْ مكانتها بين نساء المسلمين لتبدأ عهداً جديداً في المدينة المنوّرة، ولتكون مع فارسِ المسلمين وفدائي الإسلام سيّدنا عليّ بن أبي طالب أوفى زوجة في تاريخ النّساء.

الزَّهْرَاءُ وَعَلِيٌّ رضيَ الله عَنْهُمَا..

إذا علمنا أنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها هي الحبيبةُ القريبة من نَفْس رسول الله ﷺ، فلنعلم أنَّ سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه سيّد الفرسان وفارس الأسياد، هو ربيبُ البيتِ النّبويّ، وأحد رجال أهل البيت الأطهار الأخيار

(١) كان الحويرث بن نقيذ، يعظّمُ القول في رسولِ الله ﷺ، وينشدُ الهجاءَ فيه، ويكثر أذاهُ وهو بمكةَ، فلمّا كان يومُ الفَتْح هربَ من مكةَ، فلقيه عليّ بن أبي طالب فقتله. (أنساب الأشراف ١/٤٥٩).

ومن الجدير بالذّكْر أنَّ رسولَ الله ﷺ كان قد أَمَرَ بقتلِ ستة نَفَرٍ منهم الحويرث بن نقيذ هذا.

الأبرار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ولهذا فقد كان أحد أصْهَارِ الحبيب المصطفىﷺ، وأحد أبطال مدرسة النّبوة، وأحد عظماء التّاريخ الذين سجّلهم الزّمان في تاريخ العُظماء، ولا جرم أنَّ مكانة عليّ رضي الله عنه مستمدة مِنْ عظمة رسول اللهﷺ رأس البيت الطّاهر، وسيّد الأوّلين والآخرين.

ويطيبُ الحديثُ عنِ الزَّهراء كما يطيبُ الحديث عن عليّ بنِ أبي طالب، وتلذُّ الأسماع بسيرةِ الأطهار الأخيار منْ أهْلِ البيت النّبويّ، فسيرتهم غذاءٌ للأرواحِ، ونزهةٌ للمجالس، وأنسٌ للقلوب، وزادٌ للمعَاد، حيثُ تبعثُ سيرتهم على الفضائل والشّمائل الكريمة لتكون قدوة للنّاس في كلِّ زمان ومكان.

ما أبدعَ الحديث عن ربيبِ الحبيبِ عليّ رضي الله عنه! بل كان لعليّ رضي الله عنه في رسول الله أسوة حَسَنة، حيث تخلّقَ بالأخلاقِ المحمّدية منذ نعومة أظفاره، ففاقَ أقرانه لما بلغ أشدّه واستوى.

ولما كانت غزاة بدر، أبلى عليّ بلاءً حسناً، وعُرفَ بعد بَدْرٍ بفارس الإسلام، وحظيَ بالتكريم النّبويّ مرّات ومرّات، ولكنَّ ذلك كلّه، كان يزيده تواضعاً وزهداً وتُقَىً ووَرَعاً؛ أَلَمْ أَقُلْ لكم: إنَّ علياً فاقَ أقرانه في المكارم، وفي الفضائل؟!

لهذا كان رسول اللهﷺ يحلّه مكاناً علياً بين أصحابه، واختاره ليكونَ زوجاً لفاطمةَ الزَّهراء رضي الله تعالى عنهما.

تروي المصادرُ المتعدّدةُ المتنوّعة خطبة الصَّحابة لفاطمة الزَّهراءِ إلى أنْ تقدَّم عليٌّ لخطبتها.

تقولُ المصادرُ مع الجَمْعِ بينهما:

جاء سيّدنا أبو بكر الصِّدِّيق عليه سحائب الرّضوان إلى الحبيبِ الأعظم رسول اللهﷺ يخطبُ فاطمةَ الزَّهراء، فأطرقَﷺ قليلاً ثمَّ قال لأبي بكر الصِّدّيق: «أنتظرُ بها القَضَاء». ويبدو أنَّ فاطمة الزَّهراء قد علمتْ بخطبةِ أبي بكر إياها، وسمعتْ ما قال أبوها، وترقَّبتْ قضاء الله عزّ وجلّ فيها.

ثم جاء بعد ذلك سيّدنا عمر الفاروق إلى رسولِ اللهﷺ يخطبُ فاطمة

الزَّهراء، فأجابهﷺ الإجابة نفسها وقال: «أنتظرُ بها القضاء».

ويبدو أنَّ العُمَريْن[1] قد فَطِنَا إلى أنَّ رسولَ اللهﷺ قد ادَّخَرَ فاطمةَ الزَّهراء لفارسِ الإسلام، وابن عمّه عليّ بن أبي طالب، فجاءا إلى عليّ يشيران عليه أنْ يخطبَ فاطمة الزَّهراء، ووافق قولهما مكاناً خالياً في نفس عليّ رضي الله عنه، فانطلق إل النّبيِّﷺ، وسألَ في أدب واستحياء: تزوجني فاطمة؟

فابتسمﷺ وأمهله حتى يستشيرها، فدخل عليها وقال: «أي بُنيّة، إنَّ ابنَ عمّك عليّاً قد خَطَبَكِ، فماذا تقولين»؟!

وانهمرتِ الدُّموعُ من عيني فاطمة، وبكتْ، ثم قالت: كأنَّك يا أبت إنّما ادخرتني لفقير قريش!

ولكنَّ الحبيبَ المصطفىﷺ قال منبهاً لها لفضل وفضائل علي: «مَالَكِ تبكينَ يا فاطمة! فوالله لقد أنكحتُكِ أكثرهم عِلْماً، وأفضلهم حِلْماً، وأولهم سِلْماً».

الزَّهْرَاءُ وَخِطْبَةُ الزَّوَاجِ :

تهلل وجهُ رسولِ اللهﷺ بالبشْرِ، وارتسم السُّرور على محيّاه الشَّريف، عندما جعلتْ فاطمةُ الزَّهراء رضوان الله عليها رضاء الله ورسوله نصب عينها، ورضيتْ بالزَّواج من سيّدنا عليّ رضوان الله عليه.

وجاء عليٌّ إلى الحضْرةِ النّبوية، بعد أنْ علمَ موافقتهﷺ على زواجه من فاطمةَ الزَّهراء، ولكنْ لا بدَّ مِنْ مَهْرٍ، وعليٌّ رضي الله عنه من أئمةِ الزَّاهدين ولا مال كثير لديه، فسأله النّبيّﷺ:

«هل عندك منْ شيءٍ»؟

قال علي: كلا يا رسول الله.

فقالﷺ: «وأينَ درعك الحُطَميّة[2]»؟

فقال عليٌّ: عندي.

---

(١) يطلق على أبي بكر وعمر لقب: «العُمَران» و«الشَّيخان».

(٢) أي التي تحطم السيوف.

قالﷺ: «فأَعْطِها إيّاها».

دفَعَ عليٌّ بالدِّرعِ إلى غلامه ليبيعها، فانطلقَ بها إلى السُّوق، وباعها بأربعمئةِ درهم، فأَمَرَهﷺ أنْ يجعَلَ ثُلثَها في الطِّيبِ، وثلثها في المتاع ففعل.

ثمَّ قالَ النَّبيُّﷺ لأَنَسِ بنِ مالك رضي الله عنه: «انطلقْ وادعُ لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزُّبير وبعدَّتهم من الأنصار».

فانطلق أنسٌ رضي الله عنه فدعاهم ليحضروا، فلمّا أخذوا مجالسهم، التفتَ النَّبيُّﷺ إلى سيّدنا عليٍّ وقال له: «يا عليّ اخطبْ لنفسِكَ».

فقامَ عليٌّ بين يدي رسول اللهﷺ والحياءُ يملأُ صَفْحَةَ وجهه وقال في أدبٍ مرفود بنبعِ القرآنِ الكريم والبلاغةِ النّبوية:
الحمدُ لله شُكراً لأنْعُمِهِ وأَياديه، وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله شهادة تبلغهُ وتُرضيه، وهذا محمّد رسولُ اللهﷺ زوّجني ابنته فاطمة على صداقٍ مبلغه أربعمئة درهم، فاسمعوا ما يقول واشهدوا.

وإذ ذاك خطب رسولُ اللهﷺ خطبة الزَّواج وقال:
«الحمدُ لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع لسلطانهِ، المهروب إليه منْ عذابهِ، النَّافذ أمْره في أرضهِ وسمائهِ، الذي خَلَقَ الخَلْق بقدرتهِ، ونيّرهم بأحكامه، وأعزّهم بدِيْنِه، وأكرمهم بنبيّه محمّدﷺ.

إنَّ الله عزَّ وجلَّ جَعَلَ المُصَاهرة نَسَباً لاحقاً، وأمْراً مفترضاً، وحكماً عادلاً، وخيراً جامعاً، أَوشَجَ بها الأرحام، وألزمها الأنام، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وهو الذي خَلَقَ منَ الماءِ بشراً فجعله نَسَباً وصِهْراً وكان ربُّك قديراً**﴾ [الفرقان: ٥٤] وأَمْرُ الله يجري إلى قضائِه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكلِّ أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب، ثمّ إنَّ الله تعالى أمرني أنْ أزوّج فاطمة من عليّ، وأشهدكم أنّي زوجتُ فاطمة منْ عليٍّ على أربعمئة مثقال فضّة، إنْ رضي عليٌّ بذلك على السُّنَّةِ القائمة، والفريضة الواجبة، فجمعَ الله شملهما، وبارك لهما، وأطاب نسلهما، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة، ومعادن الحكمة، وأمنَ الأمّة، أقول هذا، وأستغفر الله لي ولكم».

وبدا السُّرور على وجْهِ عليّ رضي الله عنه وقال: رضيتُ يا رسول الله. ثمَّ إنَّ عليّاً خَرَّ ساجداً شكراً لله عزَّ وجلَّ، فلمّا رفعَ رأسه قال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما وعليكما، وأَسْعَدَ جدّكما، وأخرج منكما الكثير الطَّيِّب».

ثمَّ إنَّ رسولَ الله ﷺ أَمر لأصحابهِ الكرام، بطبقٍ فيه تَمْر، فأكلوا منه، ودعوا الله عزَّ وجلَّ أنْ يكتب السَّعادة لكلا الزَّوجين[1].

الزَّهْرَاءُ وَبَرَكَةُ الزَّوَاجِ

كانَ الجهازُ الذي جُهِّزَت فيه فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها في غاية البساطة والتَّواضع، وأَجْمَعَ الذين نقلوا لنا الأخبار عن جهازها أنَّه لم يكن غير سرير مشروط، ووسادة من أَدَمٍ حشوها ليف، وإناء يُغسَل فيه، وسقاء ومنخل، ومنشفة، وقدح، ورحى للطَّحن، وجرَّتان.

هذا هو جهاز سيِّدة نساء العالمين، وهذا ما جهَّز به سيِّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنها بيته كيما يستقبل به، فاطمة البتول، ابنة الرَّسول ﷺ، وهو كما ترى بيتاً عنوانه الزّهد ليس غير.

جاءت ليلةُ الزِّفاف، وفرحَ بنو عبد المطلب فرحاً شديداً، كما سرى الفرح في جميع دور المسلمين منَ المهاجرين والأنصار، ويومها قال الحبيبُ المصطفى ﷺ للرَّبيب الأديب سيِّد الرِّجال والشُّجعان عليّ بن أبي طالب:

«يا عليّ لا بدّ للعروسِ منْ وليمة»

فقال سعدُ بنُ مُعَاذ رضوان الله عليه: عندي كَبْشٌ، وجمع له رَهْطٌ مِنَ الأنصار أَصْوِعاً[2] من ذُرَةٍ، وأَوْلَمَ رسولُ الله ﷺ وقال لعليٍّ: «لا تُحْدِثْ شيئاً حتى تلقاني»[3].

---

(١) انظر المصادر التالية مع الجمع بينهما: سنن النَّسائي (٦/٦٢) والحاكم (٢/١٦٧) والمسند (٥/٣٥٩) وطبقات ابن سعد (٨/١٩) ومجمع الزوائد (٩/٢٠٩) ودلائل النبوة للبيهقي (٣/١٦٠) وأسد الغابة ترجمة رقم (٧١٧٥) والبداية والنّهاية (٣/٣٤٦) والسِّمط الثمين (ص١٧١ ـ ١٧٣) والصواعق المحرقة (ص١٤٢) وغيرها كثير.

(٢) أصوعاً: جمع صاع.

(٣) الإصابة (٤/٣٦٦).

وجاءَ رسولُ اللهِ ﷺ فقال لفاطمةَ الزَّهراءِ: «ائتني بماء» فقامت تَعْثُرُ في ثوبها منَ الحياءِ، فأتته بقَعْبٍ فيه ماء، فأخذه رسولُ اللهِ ﷺ ثمَّ قال لها: «تقدَّمي»؛ فتقدمتْ يفوحُ منها عطرٌ طيِّبٌ، فقد أَمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ بلالاً ـ كما أسلفنا ـ أنْ يشتريَ طِيْباً بثلث الصَّدَاق، فَنَضَحَ بين ثدييها وعلى رأسها وقال: «اللهم إنّي أعيذُها بكَ وذرّيتها منَ الشَّيطان الرَّجيم». ثمَّ دعا ثانية بماءٍ، فقام عليٌّ رضيَ الله عنه، وملأ القعب، فأتاه به، فأخذه وصَنَع بهِ كما صَنَعَ بفاطمةَ الزَّهراء، ودعا له بما دعا لها به وقال: «اللهمَّ باركْ فيهما، وباركْ عليهما، وبارك لهما في شبلهما»(١) ثمَّ تلا رسولُ اللهِ ﷺ المعوذتين وقال: «ادخلْ بأهلِكَ باسمِ الله والبركة».

مكثَ الحبيبُ المصطفى ﷺ ثلاثة أيّام لا يدخل على فاطمةَ الزَّهراء، وفي اليومِ الرَّابعِ، دَخَلَ عليهما في غَداةٍ باردةٍ، وهما في قطيفة لهما، إذا جعلاها بالطُّول انكشفتْ ظهورهما، وإذا جعلاها بالعرض انكشفتْ رؤوسهما، فلمّا رأياه همّا بالنُّهوضِ، فقال لهما ﷺ: «كما أنتما» وجلسَ عند رأسهما، ثم أدخلَ قدميه وساقيه بينهما، وراحا يستمعان إلى عَذْبِ حديثه الفيّاض بالرّحمةِ والحنانِ، والحكمة والموعظةِ الحَسَنةِ.

الزَّهْرَاءُ وَالبَيْتُ القَرِيْبُ

تشيرُ الأخبارُ الواردة إلينا منَ المصادر الحديثيّةِ، والتَّاريخيةِ، وكُتُب السِّيرة وغيرها أنَّ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه قد أصابَ منزلاً بعيداً عن بيوتِ النَّبيِّ ﷺ عندما تزوّج فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها.

ولما كان رسول الله ﷺ إنساناً عظيماً، ومجمَعاً للفضائلِ والمكارم، فإنَّه كانَ يحنو على ابنته فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها، ويعطف عليها، ولا يكاد يصبر على فراقها، فلمّا تحولت عن داره الشَّريفة قرب المسجد النَّبويِّ الشَّريفِ بعد زواجها، لم تمضِ أيام حتى جاء النَّبيُّ ﷺ إلى فاطمةَ الزَّهراءِ يزورها، وقال لها: «إنّي أريدُ أنْ أحوّلك إليَّ».

---

(١) مجمع الزوائد (٢٠٩/٩) وانظر: السمط الثمين (ص١٧٦ و١٧٧).

فقالت فاطمةُ الزَّهراء رضوان الله عليها في استحياء: فكلّم حارثة بنَ النُّعمان[1] أنْ يتحوّل عنّي ـ تريد أن يتحول لي عن منزله ـ.
فقال رسول الله ﷺ: «قد تحوّلَ حارثة عنّا حتى قد استحييتُ».

فبلغَ ذلك حارثة بن النّعمان الأنصاريّ، فتحول، وجاء إلى النّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! إنَّه قد بلغني أنَّكَ تحول فاطمة إليك، وهذه منازلي وهي أسْقَبُ ـ أقرب ـ بيوت بني النّجار بك، وإنّما أنا ومالي لله ولرسوله، والله يا رسول الله للذي تأخذ مني أحبّ إليّ منَ الذي تَدَع.

فقال رسولُ الله ﷺ: «صدقتَ وباركَ الله عليك». فحول رسول الله ﷺ فاطمة الزَّهراء، إلى بيتِ حارثةَ لتكون ملاصقة لحجراته الشّريفة[2].

وفي كتابهِ المبارك «وفاء الوفا» ذكر السّمهوديّ أنَّ بيت فاطمة الزّهراء رضي الله عنها في الزّور الذي في القبر، بينه وبين بيت النَّبيِّ ﷺ خوخة. . . . وكانت فيه كُوّة إلى بيتِ عائشة رضي الله عنها، فكان رسولُ الله ﷺ إذا قام اطّلع من الكوّةِ إلى فاطمةَ فعلم خبرهم، وأنَّ فاطمة رضي الله عنها قالت لعليّ: إنَّ ابنيّ أمْسَيا عليلينْ، فلو نظرتَ لنا أدماً نستصبح به!

فخرج عليٌّ إلى السُّوق، فاشترى لهم أدماً، وجاء به إلى فاطمةَ، فاستصبحت. . . فأبصرت عائشة المصباح عندهم في جوفِ الليل ـ وذكر كلاماً وقع بينهما ـ فلمّا أصبحوا سألت فاطمةُ النّبيَّ ﷺ أنْ يسدَّ الكوّة فسدَّها. .

وهكذا انتظمتِ الحياةُ لفاطمةَ وعليّ رضي الله عنهما في السَّكن الجديد القريب منَ الحبيبِ المصطفى ﷺ، واقتدى الزَّوجان في معيشتهما بالبيت النّبويّ الطَّاهر، فكانت حياتُهما حياةَ كفافٍ وخدمة يتعاونان عليها لتحقيقِ مرضاة الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) اقرأ سيرة الصحابي النجيب حارثة بن النعمان الأنصاري في كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» (٢/٢٩٩ ـ ٣٢٩) ففي سيرته إشراقات تشرق على النفوس بأنوار كرمه ووفائه.
(٢) عن طبقات ابن سعد (٨/١٦٦) بشيء من التصرف. وانظر: السمط الثمين (ص١٧٤ و١٧٥).

الزَّهْرَاءُ وَحَيَاةُ الزُّهْد:

إذا كان رسولُ اللهﷺ إمامَ المتقين، وإمامَ الزَّاهدين، فلا شكَّ أنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها من أزهدِ النِّساء في الدنيا إنْ لم تكن أزهدهن، حيثُ كانت سعيدة في حياتها على الرّغم منَ الشَّظفِ والفاقه، وما كان حطام الدُّنيا وزخرفها عند الزّهراء ليساوي مثقال ذرّةٍ من هَبَاء.

عَرَفَتْ فاطمة الزَّهْراء رضي الله عنها أنَّ مرضاةَ الله عزَّ وجلَّ، ومرضاة رسوله فوق متاع الدُّنيا، وكان شعارها قول الله عزَّ وجلَّ: **﴿قل متاعُ الدُّنيا قليلٌ والآخرة خيرٌ لمنِ اتقى. .﴾** [النساء: ٧٧] ولهذا فقد وضعت فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها الآخرة نصب عينيها، وسَعَتْ لها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، لتكون ممن عناهم الله عزَّ وجلَّ بقوله: **﴿ومَنْ أرادَ الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمنٌ فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾** [الإسراء: ١٩].

على الطَّريق الموصل إلى رضا الله الباري سبحانه، سارت فاطمةُ الزَّهراء، وهي تستضيءُ بنورِ الله عزَّ وجلَّ كيما تحظى بما أعدَّ للمؤمناتِ الصَّابرات من أَجْرٍ ومن نعيمٍ مقيم، ومن جنَّاتٍ وعيون ومقام كريم، فعاشت مع زوجها عليّ رضوان الله عليهما حياة زهد، وصَبْر على شظفِ العيش.

كان سيِّدنا عليّ رضي الله عنه من أئمةِ الزَّاهدين، ولم يكن ينظرُ إلى الدّنيا إلا بما يبلغه الآخرة، فكان فقيراً زاهداً، لم يستطعْ أنْ يشتريَ خادماً أو يستأجر خادماً في البيتِ المتواضع، ليكفي فاطمة الزّهراء رضي الله عنها عمل المنزل، ورعاية شؤونه، ولذلك قال لأمّهِ فاطمة بنت أسد رضي الله عنها: اكفي فاطمة بنت رسول اللهﷺ الخدمة خارجاً، وتكفيك هي العمل في البيت، والعجن والخبز والطّحن(١).

(١) صفة الصّفوة (٢/٥٤) وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (عهد الخلفاء الراشدين ص٦٢١) ومجمع الزّوائد (٩/٥٦) وسير أعلام النّبلاء (٢/١٢٥) ونساء مبشّرات بالجنة (١/٦٥) والاستيعاب (٤/٣٦٣) وغيرها كثير من المصادر.

ويبدو أنَّ سيِّدنا عليّاً رضي الله عنه، قد صَعُب عليه أنْ يرى زوجه البتول فاطمة الزَّهراء رضوان الله عليها قد أنهكها عمل الطَّحن حتى أثَّر في يديها، وأضحى جسمها نحيلاً خائر القوى، وهو لا يملكُ المال لاستقدامِ خادماً يخفِّفُ عنها عِبء العمل.

وذات يومٍ وصلت بعضُ الغنائم والسَّبايا إلى رسولِ الله ﷺ منْ إحدى الغَزَوات، ويبدو أنَّ عليّاً رضي الله عنه قد وَجَدَ الفرصة مناسبة ليفصحَ عمّا يجول في داخله؛ فقال لزوجه فاطمة الزَّهراء رضي الله عنهما: والله لقد سَنَوْتِ ـ تعبت ـ من سقاية الماء حتى اشتكيتُ صدري، وقد جاء الله عزَّ وجلَّ أباك بسبيٍ، فاذهبي فاستخدميه، واطلبي خادماً تعينك على ما أنتِ فيه.

فقالت فاطمةُ الزَّهراء تشكو ما بها أيضاً: وأنا والله قد طحنتُ حتى مَجَلَتْ[1] يداي وأثّر فيهما.

وقامت فاطمةُ الزَّهراء عليها سحائب الرّضوان وأتت النَّبيَّ ﷺ فقال لها: «ما جاء بك يا بُنيّة»؟

قال: جئتُ لأسلّمَ عليك يا رسول الله، واستحيَتْ أن تسألَه شيئاً، ورجعت إلى بيتها.

فقال لها سيِّدنا عليّ رضوان الله عليه: ما فعلتِ يا فاطمة؟

قالت فاطمةُ رضوان الله عليها: والله، لقد استحييتُ أنْ أسأله فرجعت.

ويبدو أنَّ عليّاً وفاطمة قد شجَّعَ كلّ واحد منهما الآخر لكي يذهب إلى رسول الله ﷺ، وقاما وهما يمشيان في حياءٍ وعلى استحياءٍ، حتى أتيا الحبيب المصطفى ﷺ، وأوضحا له حالهما، وطلبا منه أنْ يخدمهما خادماً مما أفاءَ الله عليه.

فقال رسولُ الله ﷺ في رفقٍ هامسٍ: «لا والله لا أعطيكما، وأدعُ أهل الصُّفة

= وذكر ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ أنَّ عطاء بن أبي رباح ـ رحمه الله ـ قال: كانت فاطمة ابنة رسول الله ﷺ لتعجن وإن قصّتها تضرب الجفنة. (صفة الصفوة ٢/٦).

(١) مجلت: أي ثخن جلدها وتعجّر.

تطوي بطونهم لا أجِدُ ما أنفقُ عليهم، ولكنّي أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم».

ورجعا وهما يعرفان أنَّ رسولَ اللهﷺ ما ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا حقّاً، ولا يفعل إلا حقّاً، ولم يلبثا إلا قليلاً حتى أتاهما رسولُ اللهﷺ وقد دخلا في قطيفتهما مِنَ البرد، فكانا إذا غطيَا رؤوسهما تكشّفَ أقدامهما، وإذا غطّيا أقدامهما تكشّفَ رؤوسهما.

فقاما لاستقبالِ الحبيب المصطفىﷺ، فقال لهما: «مكانكما» ثمَّ اقترب منهما وقال: «ألا أخبركما بخيرٍ مما سألتماني»؟

فأجابا: بلى يا رسول الله.

قال: «كلماتٌ علمنيهن جبريل؛ تسبّحان الله في دبْر كلّ صلاة عَشْراً، وتحمدان عَشْراً، وتكبران عشْراً، وإذا أويتما إلى فراشكما تسبّحان ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين، وتكبران ثلاثاً وثلاثين»[1].

ثم إنَّ رسولَ اللهﷺ ودعهما وانصرف بعد أنْ تركَ أعظم الأَثَر وأبقاه في

---

(١) عن طبقات ابن سعد (٢٥/٨) وصفة الصّفوة (١٠/٢ و١١) مع الجمع بينهما والتصرف قليلاً.

وللحديث أصل في الصَّحيح، وقد رُوي هذا الحديث مطولاً ومختصراً، وبرواياتٍ متعددة، وألفاظ مقاربة أحياناً، ومختلفة أحياناً.

فقد أخرجه البخاري ـ رحمه الله ـ في مواضعَ من صحيحه برقم (٣١١٣ و٣٧٠٥ و٥٣٦٢ و٦٣١٨).

وأخرجه مسلم برقم (٢٧٢٧ و٢٧٨٢) في الذّكر والدّعاء، باب: التّسبيح عند النوم

وأخرجه التّرمذي في الدُّعوات برقم (٣٤٠٨)

وأخرجه النّسائي في السُّنن الكبرى في كتاب «عشرة النّساء» وفي عَمَل اليومِ والليلة (ص١٦).

وأخرجه أبو داود في الخراج والإمارة.

وأحمد في المسند (٨٠/١) و(٩/٦ و١٠٦٠ و١٠٧ و١٣٦ و١٤٤ و١٤٦ و١٥٣ و٢٩٨).

وأبو نعيم في الحلية (٤١/٢).

وانظر: مجمع الزّوائد (٢١/٥ و٢٢) والإصابة (٣٦٨/٤) والسّمط الثمين (ص١٧٨) ونساء مبشّرات بالجنة (٦٨/٢ ـ ٧٠) وغيرها كثير من المصادر.

نفسِ الزَّهراء وعليّ رضي الله عنهما، ولم يتركا هذه الكلمات المباركات إلى أنْ لقيَ كلّ واحد منهما ربّه.

الزَّهْرَاءُ وَالحَنَانُ النَّبويُّ:

إنَّ الحنانَ النَّبويَّ الفيَّاض الذي تعودته فاطمة الزَّهراء من أبيها، جعلها تبحرُ في بحرهِ، وتركنُ إلى عطفه الذي يفيضُ من قلبه الشَّريفﷺ.

ويبدو أنَّ كلَّ حَنَانٍ أو عطف ـ بعد ذلك الذي يصدر عن أبيها ـ قريب من القسوة عند فاطمة الزّهراء رضي الله عنها، حيثُ حنان رسول اللهﷺ لا يشبهه حنان.

هذا وقد ظهر هذا الحنان الحنون في حالات مختلفة الظّروف في حياة فاطمة الزّهراء رضوان الله عليها، إذ لم تخلُ حياة زوجين من ساعات خلاف، أو ساعات شكاية وشكوى، فربما شكتْ فاطمةُ الزَّهراء، وربما شكى عليٌّ، وربما وجدت فاطمة الزّهراء بعض الشِّدَّةِ من عليّ ـ وما هي بشدّة ـ لأنَّ عليّاً رضي الله عنه كان يعرفُ مكانَ فاطمة الزّهراء من قلبِ رسولِ اللهﷺ.

كانتِ السَّعادة تغمر دار فاطمة الزّهراء، وترفرف بأجنحتها على البيتِ الذي أذهب الله عنه الرِّجس وطهّره تطهيراً؛ ففاطمة الزَّهراء رضي الله عنها سعيدة بزوجها عليّ التّقي النّقي، وهو سعيدٌ ببنتِ رسول اللهﷺ، ولكنّه كان يعود أحياناً إلى بيته، فيقسو على زوجه قسوة لم تكن تألفها، فكانت تشكو ما لقيت من عليٍّ إلى النّبيّﷺ، وكانﷺ يصلح بينهما، وقد رُئي ذات يوم وهو يسعى إلى دار ابنته فاطمة الزَّهراء، تبدو عليه علامات الهمّ، فأمضى هناك وقتاً ثمَّ خرج منه منطلق الأسارير، يفيض وجهه الشَّريف بالبشر، فسأله سائل من الصَّحابة الكرام: يا رسول الله، دخلتَ وأنتَ على حال، وخرجتَ ونحنُ نرى البِشْر في وجهك؟ فيجيبُﷺ ويقول: «وما يمنعني وقد أصلحتُ بين أحبّ اثنين لي»[1] وفي رواية: ولمَ

(١) طبقات ابن سعد (٨/٢٦) ونساء مبشرات بالجنة (٢/٧٦) والإصابة (٤/٣٦٨) والسمط الثمين (ص١٧٩).

لا وَقَدْ أصلحتُ بين أحبِّ النّاس إليّ».

بهذا الحنان الأبوي الفريد الذي يحلِّقُ عالياً في سماء العطف، كان رسول الله ﷺ يعامل فاطمة الزّهراء، ولذلك كانت فاطمة الزّهراء رضي الله عنها لا تصبر على شدّة عليٍّ أحياناً، ففي يوم من الأيام ظهرت بعض قسوة من سيدنا عليّ على فاطمةَ الزّهراء رضي الله عنها فقالت: والله لأشكونَّكَ إلى رسولِ الله ﷺ. فانطلقت، وانطلق عليّ بأثرها، فقام حيث يسمع كلامهما؛ فشكت فاطمةُ الزّهراء إلى رسولِ الله ﷺ غِلَظَ عليّ وشدّته عليها، فقال ﷺ: «يا بنية، اسمعي واستمعي واعقلي، إنّه لا إمْرة بامرأة لا تأتي هوى زوجها وهو ساكت».

قال عليّ: فكففتُ عمّا كنتُ أصنع، وقلتُ والله لا آتي شيئاً تكرهينه أبداً[1].

لكنَ نَبْعَ الحنان النّبويّ لم ينضبْ، وظلَّ يرفد فاطمة الزَّهراء بطيب سلسبيله، فتتغذى روحها بذلك وهي تشعر بتدفقِ العطف الأبوي النّبويّ نحوها فيرفعها مكاناً عليّاً.

ففي لحظة من لحظات الحياة بين عليّ وفاطمة، يبلغ الحنان النّبويّ أَوْجه على فاطمةَ الزَّهراء، وينتصرُ لها.

وسنعيش لحظات نستروحُ خلالها عبير الحنان الأبوي المحمديّ، الذي عطّر أجواء فاطمة الزّهراء بأنفسِ وأحلى العبير.

فقد أسلمت ابنة أبي جهل بن هشام المخزوميّة، وهمّ عليّ بن أبي طالب بما رآه سائغاً من خطبة هذه الفتاة، وذاع الخبر في المدينة المنوّرة حتى بلغ سيِّدة النِّساء فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها، فاستولى عليها حزنٌ عميق، وشقَّ عليها ذلك، وانطلقتْ إلى نبعِ الحنان، ومنهل العطف، إلى أبيها الحبيب المصطفى سيّد الرّحماء، والدُّموع في عينيها وقالت: يزعم قومك أنّك لا تغضب لبناتك، وهذا عليٌّ ناكح بنتَ أبي جهل[2].

---

(١) عن السمط الثمين (ص١٧٨) بتصرف يسير. وانظر: طبقات ابن سعد (٨/٢٦).

(٢) ربما سأل سائل؛ مَن ابنة أبي جهل هذه التي همّ علي بن أبي طالب بخطبتها؟! فالحافظ محمّد بن طاهر المقدسي ـ رحمه الله ـ يجيب عن هذا السّؤال في كتابه اللطيفة «إيضاح

وأثّرت دموعُ فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها في نَفْسِ النّبي الكريمﷺ، فإذا به يغضب لابنته، ويقف بشدّة ليحول بين عليّ، وبين هذا الأمْر الذي أهمَّ فاطمة الزَّهراء سيّدة النّساء رضي الله عنها.

روى هذا أصحاب الصَّحيح وأصحاب السُّنَن عن المِسْوَر بن مخرمة قال: سمعتُ رسولَ اللهﷺ على المنبر وهو يقول: «إنَّ بني هشام بن المغيرة استأذنوني أنْ ينكحوا عليّ بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثمّ لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، إلا أنْ يحبَّ ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنّما ابنتي بَضْعَةٌ مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها»[1].

وأخرج أحمد والتّرمذي والحاكم في المستدرك عن عبد الله بنِ الزُّبير، عنِ النَّبيِّﷺ أنّه قال: «إنّما فاطمةُ بَضْعَةٌ مني يُؤذيني[2] ما آذاها وينصبني ما أنصبها».

= الإشكال» فيقول ما مفاده: إنَّ ابنة أبي جهل التي خطبها عليّ بن أبي طالب هي: جويرية بنت أبي جهل، وقد شقَّ ذلك على فاطمة الزهراء رضي الله عنها، فأرسل إليها عتاب بن أسيد الأموي أمير مكة في عهد النبيﷺ: أنا أريحك منها؛ فتزوجها فولدت له عبد الرحمن بن عتاب. (إيضاح الأشكال ص١٤٨)

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٩) باب: مناقب فاطمة رضي الله عنها، ورواه البخاري أيضاً في مواضع أخرى من صحيحه.
وأخرجه أحمد (٣٢٨/٤).
وأخرجه أبو داود في النكاح برقم (٢٠٦٩).
وابنُ ماجه (٦٤٣/١) برقم (١٩٩٨) في النكاح أيضاً.
والترمذي في المناقب؛ انظر تحفة الحوذي (٣٦٩/١٠ و٣٧٠) حديث رقم (٣٩٥٩).
وانظر: سير أعلام النبلاء (١١٩/٢) ودر السحابة (ص٢٧٤). وغيرها من المصادر المتعددة التي لا يتسع المقام لإيرادها.

(٢) مما تحسنُ إليه الإشارة هنا ما أورده أكابرُ العلماء والفقهاء، حيثُ قالوا عن هذه الحادثة:
في هذا الحديثِ تحريمُ إيذاءِ النّبيّﷺ بكلِّ حالٍ وعلى كلّ وَجْه، وإنْ تولد الايذاء، مّما كان أصله مُباحاً وهو حيٌّ وهذا بخلاف غيره.
قالوا: وقد أعلم النّبيّﷺ بإباحة نكاح بنت أبي جهل لعليّ بن أبي طالب بقولهﷺ: «لستُ أحرّم حلالاً» ولكنْ نهى عنِ الجمع بينهما وذلك لعلتين منصوصتين:

بروائعِ هذا الفيض الرَّحماني، تركَ عليٌّ الخطبة رِعاية لأبي الزَّهراء، ورعاية للزَّهراء، وانقشعتْ تلك السَّحابة التي عكَّرتْ صَفْوَ الحياة الزَّوجيّة حيناً منَ الزَّمن، وعاد سيّدنا عليٌّ إلى فاطمةَ الزَّهراءِ يسترضيها، ويمسحُ عنها دموعها الحزينة، فرضيتْ وعادت حياة المودَّة والصَّفاءِ إلى بيت الزَّوجية التي هبَّتْ عليها عواصف هوجاء، أرّقت كلَّ مَنْ في البيتِ النّبويّ، حتى وَضَعَ النّبيﷺ حدّاً وحلاً لهذه العاصفةِ التي تلاشت أمام حنانهِ العظيم، ونبع عطفه الكريم، وحُسْن رعايته لفاطمة الزَّهراء رضي الله عنها.

ويبدو أنَّ الحنانَ النَّبويَّ ظلَّ يغمر فاطمة الزَّهراء في جميع أحوالها، فتشعر بدفءِ هذا الحنان، وتشمّ أريج زهره المعطار، وخاصّة عندما يشعرها رسول اللهﷺ بمكانتها من قلبه الشّريف.

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال:

دخلَ رسولُ اللهﷺ على عليٍّ وفاطمةَ وهما يضحكان، فلمّا رأيا النَّبيَّﷺ سكتا، فقال لهما: «ما لكما كنتما تضحكان، فلمّا رأيتماني سكتّما»؟

فبادرت فاطمة فقالت: بأبي أنتَ يا رسول الله،

قال هذا: أنا أحبّ إلى رسولِ الله منك.

فقلتُ: بل أنا أحبّ إلى رسولِ الله منكَ.

فتبسّمَ رسولُ اللهﷺ وقال: «يا بُنيّة لك رقّة الولد، وعليٌّ أعزّ عليَّ منك».

وسأل عليٌّ رسول الله مرّة فقال: يا رسول الله، أيّما أحبّ إليك: أنا أمْ فاطمة؟

قال: «فاطمة أحبّ إليّ منك، وأنتَ أعزّ عليّ منها»[1].

واخرج الطَّبراني بإسنادٍ رجاله رجال الصَّحيح عن ابنِ جُريج قال: قال لي غير واحد: كانت فاطمةُ أصغر وَلَد رسول اللهﷺ، وأحبّهن إليه[2].

= إحداهما: أنّ ذلك يؤدّي إلى أذى فاطمةَ رضوان الله عليها، فيتأذى حينئذٍ النّبيّﷺ، فيهلك مَنْ أذاه، فنهى عن ذلك لكمال شفقته على عليٍّ وفاطمةَ رضي الله عنهما. والثّانية: خوف الفتنة على فاطمةَ بسببِ الغيرة.

(١) انظر: مجمع الزوائد (٩/٢٠٥) وعزاهما الهيثمي للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) مجمع الزوائد (٩/١١) ودر السحابة (ص٢٧٨).

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لفاطمةَ: «فداكِ أبي وأمّي»[1].

وهكذا نجدُ أنَّ الحنَانَ النَّبويَّ معينٌ ثرٌّ لا ينضب، كما نجدُ الزَّهراء أهلاً لهذا الحنان منَ الأبِ الكريم الذي وصفه الله عزَّ وجلَّ بأنَّه: ﴿بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨].

الزَّهْرَاءُ وَمَرْضَاةُ النَّبيِّ ﷺ:

إذا كانَ الحبيبُ المصطفى ﷺ إمام الزَّاهدين، وسيّد العالَمين في كلّ مكرمة، فلا شكَّ أنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها كانت تقتفي آثاره الكريمة، وتحرصُ على مرضاته في جميعِ أمورها، وهل هناك شيءٌ أعزّ من مرضاةِ الله ورسوله؟! هل هناك شيءٌ أفضل من طاعةِ رسول الله؟! أليس الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿مَنْ يطعِ الرَّسولَ فَقَدْ أطاعَ الله. . .﴾ [النّساء: ٨٠] إذن، فلتحرص فاطمةُ الزَّهراء على مرضاةِ الله ورسوله كيما تفوز بالفوزِ العظيم، وهذا ما كان منها رضي الله عنها، وسنرى من خلال الخبر التالي مدى حرصها، لتحصل على مرضاة أبيها رسول الله ﷺ.

أوردتِ المصادرُ الوثيقةُ ذلك فقالت:

كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا قدمَ من سفرٍ، أتى فاطمة، فدخل عليها، وأطال عندها المكث، فخرج مرّة في سفر، وصَنَعَتْ فاطمةُ مَسْكَتين[1] من وَرِق[2] وقلادة وقرطين، وسترت بابَ البيتِ لقدوم أبيها وزوجها، فلمّا قدم رسول الله ﷺ دخلَ عليها، ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أيبقون أمْ ينصرفون لطولِ مكثه عندها، فخرجَ رسولُ الله ﷺ، وقد عُرِفَ الغضب في وجهه حتى جلسَ على المنبر، ففطنت فاطمةُ أنَّه فعل ذلك لِمَا رأى من المسكتين والقلادة والسِّتر، فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها، ونزعتِ السِّتْرَ، وبعثت به إلى رسول الله ﷺ، وقالت للرَّسول: قُلْ له؛

---

(١) در السحابة (ص٢٧٩).

(١) المسكة: السوار.

(٢) الورق: الفضة. قال تعالى: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة. .﴾ [الكهف: ١٦].

تقرأ ابنتك عليك السَّلام وتقول لك: اجعل هذا في سبيل الله، فلمّا أتاه قال: «قد فعلتْ فداها أبوها، قد فعلتْ فداها أبوها، قد فعلتْ فداها أبوها ـ ثلاثاً ـ ليست الدُّنيا من محمّد، ولا من آلِ محمّد، ولو كانت الدُّنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء».

أرأيتَ ـ عزيزي القارىء ـ كيف تبذل فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها نفسها لإرضاءِ ومرضاةِ رسول اللهﷺ؟! إنَّ فاطمةَ الزَّهراء عليها سحائب الرّضوان لم تكن تحفل بما تحفل به النِّساء من حليّ وأساور وغير ذلك، بل لم تكن تحفل بالدُّنيا وزخرفها، ولا تريد منها ما يزيد عن حاجتها، تقتدي بذلك بقول الحبيبِ المصطفىﷺ الذي كان دعاؤه: «اللهم اجعل رزق آل محمّد كفافاً».

ويبدو أنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها، قد سبقت نساء عصرها في الورعِ والزُّهد طلباً لمرضاةِ رسول اللهﷺ، وتخلّتْ في لحظةٍ من اللحظات عن سلسلةٍ من ذهب كانت أثيرة لديها، حيث أهداها لها سيّدنا علي رضي الله عنه، ولكنَّ مرضاةَ الله ورسوله فوق كلّ رغبة، وفوق كلّ حبٍّ للأشياء.

أخرج النسائي ـ رحمه الله ـ بسنده عن ثوبان مولى رسول اللهﷺ قال: جاءت بنت هُبيرة إلى رسولِ اللهﷺ وفي يدها فَتَخٌ[1] فجعل رسولُ اللهﷺ يضربُ يدها، فدخلتْ على فاطمةَ بنتِ رسول اللهﷺ تشكو إليها الذي صَنَع بها رسولُ اللهﷺ، فانتزعت فاطمةُ سلسلة في عنقها منْ ذهب وقالت: هذه أهداها إليّ أبو حسن، فدخلَ رسولُ اللهﷺ، والسّلسلة في يدها فقال:
«يا فاطمة أيغرّك أنْ يقول النَّاس: ابنة رسول الله في يدها سلسلة من نار»؟!
ثمَّ خرج ولم يَقْعُدْ، فأرسلتْ فاطمةُ بالسِّلسلةِ إلى السُّوق، فباعتها، واشترت بثمنها غلاماً فأعتقَتْه، فَحُدِّثَ بذلك فقال: «الحمد لله الذي أنجى فاطمة منَ النَّار»[1].

---

(١) فتخ: خواتيم كبار ضخام.

(١) سنن النسائي (١٥٨/٨) وأخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٣٥٤/٢) والحاكم (١٥٢/٣ و١٥٣) وأحمد (٢٧٨/٥ و٢٧٩) وغيرها كثير من المصادر.

إنَّ في خلائق فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها مَدَدٌ صالحٌ للحصولِ على مرضاة الله ورسوله، فكانت تتحرّى ذلك ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وبهذا تفرَّدت بين نساء العصر النّبويّ بهذه الصِّفات الفريدة الكريمة النَّادرة، فحقٌّ لها أنْ تكون سيّدة نساء العالَمين، وتقتعد سدّة السِّيادة في الفضائلِ، وهاتيك منزلة اختصَّها بها الله عزَّ وجلَّ، وهو العليم الخبير.

ولهذه الصِّفات العالية كان رسولُ اللهﷺ يحبُّ فاطمة الزَّهراء، بل كان أحبَّ النِساء إلى رسول اللهﷺ منْ أهل بيته فاطمة، وكان أحبّ الرّجال إليهﷺ، فأهل البيت كُثُر رجالاً ونساء، ولكنَّ رسولَ اللهﷺ آثر هذين الكريمين بحبّه.

أخرج الإمام التّرمذي ـ رحمه الله ـ في جامعه بسندهِ عن عبد الله بنِ عطاء، عن ابن بُريدة، عن أبيهِ قال: «كان أحبّ النِّساء إلى رسولِ اللهﷺ فاطمة، ومنَ الرِّجال عليّ»[1] ـ يعني من أهل بيته ـ.

الزَّهرَاءَ وَفَضْلُ الجِهَادِ:

عندما يتتبّعُ الباحثُ حياةَ سيِّدتنا فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها، يجدها سبَّاقة إلى كلِّ فضيلةٍ تقومُ بها امرأة في عصرِها إلى وقتنا الحاضر، وحينما رحتُ أتفيّأُ في ظلالِ سيرتها المعطار، وأدرسُ جانبَ الجهاد في حياتها الخيِّرة، ألفيتُها قدّمتِ الكثيرَ في ميادينِ الجهاد، بما يتوافقُ مع طبيعتها.

ولمّا كان الرَّسولُ الكريمﷺ هو القائد الأعلى لجنودِ الرّحمن، والمرجعُ الأوّلُ في الأمورِ العسكرية، والمتخصِّصُ في أحكامِ الجهاد، أبانَ دورَ المرأةِ، وأصدرَ أحكاماً تتناسبُ وطبيعة المرأة التي فَطَرها الله عليها.

اباحَ رسولُ اللهﷺ خروجَ المرأةِ إلى الجهاد، كيما تقدِّمَ خدماتها في التَّمريض، وتُداوي الجرحى ضمْنَ الحدود التي شرعها الله عزَّ وجلَّ، كما كلّفها بأشياءَ تعينُ المجاهدين على المضيِّ قُدُماً في قتالِ أعداء الله، فأباحَ لها إعداد

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي (١٠/٣٧٠ و٣٧١) حديث رقم (٣٩٦٠).

الطَّعام وإيصاله مع الماء إلى المجاهدين.

هذا وقد كانت بعضُ النِّسوة، ومنهن نساءُ رسولِ اللهﷺ يخرجنَ إلى الغزواتِ في معيّةِ الرَّسولﷺ.

ويبدو أنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها أحبَّتْ أن تضيفَ إلى رصيدها الإيماني رصيداً آخرَ في ساحاتِ الجهاد لتحظى برضوانٍ منَ الله ورسوله.

ففي غزاةِ أُحُدٍ كانت فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها مع أبيها وزوجها، ولمّا يمضِ على زواجها سَنَة، فقد كان زواجها بعد غزوة بدر في السَّنَةِ الثَّانية من الهجرة، وكانت غزوةُ أُحُد في السَّنَةِ الثَّالثة منَ الهجرة.

التقى الجمعان في أُحُد، فأمَّا المسلمون فقلبُهم ينبضُ بالتَّوحيدِ، وأمّا المشركون فتنبضُ قلوبهم بالحقدِ على المسلمين الذين هزموهم ـ بإذن الله ـ في غزاةِ بدر من العام الفائت.

وحميَ وطيسُ المعركةِ، ولاحت تباشيرُ النَّصر للمسلمينَ في بدايتها، وراح عليُّ بنُ أبي طالب يجولُ في صفوفِ المشركين يجندلُ أبطالهم، ويقتطفُ رؤوسَ فرسانهم وهو ينادي بشعار المعركة: أمت.. أمت.

لكنَّ وَجْهَ المعركةِ قد تغيَّر، لمّا تركَ بعض الرُّماةِ مواضعهم منْ على جَبَل أحد، وعطفَ المشركونَ على المسلمينَ، وأعْمَلوا فيهم السَّيف، فاختلطَ الأمْرُ على المسلمينَ، واستشهد عددٌ منهم، بينما انهزم بعضُهم، وكادوا يلوذون بالفرار.

وثبتتْ فئةٌ حولَ الرَّسولﷺ، يقاتلون ويدافعون عنه، وفي تلكَ اللحظات برزتْ إحدى بطلات الإسلام، وهي نَسيْبَة بنتُ كعب المازنيّة[1] التي فعلتِ الأفاعيلَ بالمشركين.

وكان أربعةٌ من قريش قد تعاهدوا وتواصوا فيما بينهم بقَتْلِ رسولِ اللهﷺ، وصرَّحوا بذلك، وعَرَفَ المشركون نيّتهم اللئيمة هذه، وكان هؤلاء الأشقياء هم:

(١) اقرأ سيرتها العطرة في كتابنا «نساء مبشرات بالجنة» (١/٩١ ـ ١٢٦) فسيرتها إمتاع للأسماع.

عبد الله بن شهاب الزّهريّ، وعُتبة بن أبي وقّاص الزّهريّ، وعمرو بن قميئة أحد بني الحارث بن فهر، وأُبيّ بن خلف الجُمحيّ.

ولّما كانتْ معركةُ أحد دائرةً بين الفريقين، أَخَذَ هؤلاء الفجرة على عاتقهم تنفيذ ما بيّنوه منْ قبل.

فأمّا عبد الله بن شهاب، فقد شجَّ رسولَ الله ﷺ في جبهته الشّريفة حتى سال الدَّمُ على وجهه الشّريف.

وأمّا عتبةُ بنُ أبي وقاص، فقد أصاب شفةَ النَّبيِّ السُّفلى، وكسَرَ رباعيته اليمنى.

وأمّا عمرو بن قمئة، فقد أصاب وجنته الشّريفة، وضربه بالسّيف على عاتقه، وظلَّ رسولُ الله ﷺ يجد أَلَمَ هذه الضَّربة شهراً.

وأمّا أُبيُّ بنُ خلف، فقد شدَّ على رسول الله ﷺ وهو يقول: يا كذّاب أين تفرّ؟! فطعنه رسولُ الله ﷺ بحربةٍ في عنقه، فمال عن فرسهِ يخور، ثم ماتَ في طريق عودة المشركين إلى مكةَ[1].

وانتهتِ المعركةُ، وقد أُصيب الحبيبُ المصطفى ﷺ في بَدَنِهِ ووجهه، وتدفَّقَ دمه الشّريف من وجهه المنير، وخرج عليُّ بنُ أبي طالب حتى ملأ درقته ماء، وغَسَلَ به وَجْهَ رسولِ الله ﷺ، فترايدَ الدَّمُ منْ وجههِ، وهنا تأتي فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها، لتقومَ بدورها في هذه السّاعة العصيبة.

تحدَّثَ الإمامُ البيهقيُّ ـ رحمه الله ـ عن دَوْرِ فاطمة الزَّهراء يومذاك فقال: خرجَ نساءٌ من المهاجرات والأنصار، فحملْنَ الماءَ والطَّعامَ على ظهورهن، وخرجتْ فيهن فاطمةُ بنت رسول الله ﷺ، فلمّا أبصرتْ أباها والذي به من الدّماء اعتنقته، وجعلت تمسحُ الدِّماء عن وجهه، ورسولُ الله ﷺ يقول: «اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ دموا وَجْه رسول الله»[2].

---

(١) رجال مبشّرون بالجنة (٢/ ٢٧ و٢٨) بشيء من التّصرف.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٨٣).

وروى الإمام البخاريُّ ومسلم رحمهما الله عن سهلِ بنِ سَعَد قال: جُرِحَ رسولُ اللهﷺ وكُسِرت رباعيته، وهُشِمَتِ البيضةُ على رأسه، فكانت فاطمةُ بنتُ رسول اللهﷺ تغسلُ الدَّمَ وعليٌّ يسكبُ الماءَ عليه بالمجنِّ، فلما رأتْ فاطمةُ أنَّ الماءَ لا يزيدُ الدَّمَ إلا كثرة، أخذتْ قطعةً مِنْ حصيرٍ أحرقتها، حتى إذا صارتْ رماداً، ألصقتها بالجرحِ فاستمسك الدم[1].

وعاد رسولُ اللهﷺ والذين معه من أُحُد، وقد دَفَنَ هناك عمَّه حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وثلَّة من فرسانِ المسلمين، مِنَ الذين رزقهم الله الشَّهادة في غزاة أحد، وراحتْ فاطمةُ الزَّهراء تقومُ على رعاية أبيها حتى برىءَ من جراحه.

وتمضي الأيّامُ في المدينةِ المنوّرة، وتتوالى غزواتُ رسولِ اللهﷺ، وتشارك فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها بدورها في المغازي، فلمّا كانت غزوة الخندق، كان لها دورٌ عظيمٌ مع نساءِ المسلمين حتى تمَّ نَصْرُ الله للمؤمنين، وهَزَمَ الأحزاب وحده، وأرسلَ جنوداً مِنْ عنده، وفرحَ المؤمنونَ بِنَصْرِ الله لهم، وسعدتْ فاطمةُ الزَّهراء بانحسارِ الجموع المتحلّقةِ حول المدينة المنوّرة.

وفي السَّنَةِ السَّابعة من الهجرة، دعا داعي الجهاد للخروجِ إلى خيبر، وكانت فاطمةُ الزّهراء رضي الله عنها ممن خرجَ إلى هذه الغزوة بمعيّة أبيها وزوجها، وفُتحت حصون خيبر، ودُكَّتْ أمامَ جنود الرّحمن، وأفاءَ الله على رسوله، وعلى المسلمين منَ الغنائم، وكان نصيبُ فاطمة الزَّهراء في هذا الغزاة خمسة وثمانين وسقاً من قمح خيبر. . . . .

ما زلنا في رحاب جهاد فاطمة الزّهراء رضي الله عنها، وجهاد فاطمة الزّهراء يدلُّ على شخصيتها المتفرّدة بين نساءِ الصَّحابة، ونساء آلِ البيت بالحزم والالتزام بعهد الله وعهد رسوله.

ففي رحابِ غزوة الفتح كان لفاطمة الزَّهراء موقفٌ عَطِرٌ فريدٌ، يرشحُ بصدقِ وفاء العهدِ، ويشيرُ إلى مكانةِ فاطمة الزَّهراء، وصدارتها في البيت النّبويّ.

---

(١) رواه الشيخان؛ البخاري في المغازي، ومسلم في الجهاد والسير.

فقد انسابَ أبو سفيان بن حرب في المدينة لتوثيقِ العهد مع المسلمينَ، وكان حلفاؤه قد نقضوا العهد، فلم يحفلْ به أَحَدٌ في المدينةِ المنوَّرة، حتى ابنته أمَّ حبيبة أمّ المؤمنين، أَقْصَتْ عنه فراشَ رسولِ اللهﷺ، ولم تستقبلْهُ بابتسامةٍ مُشْرقةٍ، وإنّما استقبلته استقبالاً لا حرارةَ فيه ولا شوقَ، فهو لا يزالُ على شركهِ، وخرج منْ بيتها حانقاً، ورجا أنْ يكونَ عند أبي بكر شيءٌ من حرارةِ الاستقبال، وأنْ يزيدَ في مدَّةِ العهد، ولكنَّ أبا بكر الصِّدِّيق رضوانُ الله عليه، أجابه بأنَّ جوارَه في جوارِ رسول اللهﷺ، ولا يمكن أنْ يخالفَ رسولَ اللهﷺ في شيءٍ، وفعل كذلك عمرُ وعثمان رضي الله عنهما وقالا:

إنَّ جوارهما في جوارِ رسول اللهﷺ، ولا يستطيعان أنْ يكلّما الحبيبَ المصطفىﷺ في هذا أبداً.

وسقط في يَدِ أبي سفيان، ولم يَدْرِ ما يفعل، وفجأة سَقَطَ شعاعٌ مِنْ أملٍ على ذهنه، تذكّرَ فاطمةَ الزَّهراء وزوجها عليّ بن أبي طالب فارس الفرسان، فلعلّه تتحركُ فيه فروسيته، فيكلّم له رسول اللهﷺ في تجديدِ العقد، وزيادة المدة.

ودخل بيت عليّ وعنده فاطمة الزّهراء رضي الله عنها، وكان الحسنُ بنُ عليّ ما يزال غلاماً يدبُّ بين يديها، فقال له أبو سفيان بلهجة أَمَل ورجاء: يا عليُّ، إنّكَ أَمَسُّ القوم بي رَحِماً، وإنّي قد جئتُ في حاجةٍ فلا أرجعَنّ كما جئتُ خائباً، اشفعْ لي إلى محمّد.

فقال له سيّدنا عليّ رضي الله عنه: ويحك يا أبا سفيان! لقد عزمَ رسولُ اللهﷺ على أمْرٍ ما نستطيع أنْ نكلّمه.

وأحسَّ أبو سفيان أنَّ الأرضَ تميدُ منْ تحتِ قدميهِ، وشعر بأنَّ خنجراً مسموماً قد صُوِّبَ إلى قلبهِ، فالتفتَ إلى فاطمةَ الزَّهراء وقال في صوتٍ يرشحُ بالأنين: يا ابنة محمّد، هل لك أنْ يجيرني بين النّاس؟

فقالت رضي الله عنها: إنّما أنا امرأة.

ولكنَّ أبا سفيان تذكّر أنَّ أختَها زينب قد أجارت زوجها أبا العاص بنَ الرَّبيع، فطمعَ أن تجيرَه فاطمة الزَّهراء، وقال لها: لقد أجارت أختُكِ زوجها،

وأجاز ذلك أبوك!

فقالت فاطمة الزَّهراء بلسانِ اليقين: إنّما ذاك إلى رسولِ الله ﷺ، وأبتْ عليه. . . . .

وفهم أبو سفيان أنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها لا تريدُ أنْ تجيرَ في النّاس كي لا تُغْضِبَ أباها.

نظر أبو سفيان، فإذا بكنانةِ أفكاره لم يَبْقَ فيها إلا سَهْماً واحداً، وأحبَّ ألا يترك مهمته هذه دون أنْ يرمي بسهمهِ الأخير، فلعلّه يصيبُ به ما يصبو إليه، ونظر إلى ابنها الحسن، فأحبَّ أن يحركَ كوامنَ العطف نحوه بأنْ يجيره هذا الطّفل، فقال لفاطمةَ الزَّهراء: هل لك أنْ تأمري ابنك هذا فيجير بين النَّاس، فيكون سيّد العرب إلى آخر الدَّهر؟

ولكنَّ فاطمةَ الزَّهراء ردَّتْ سَهْمَ أبي سفيان بكلامٍ شَافٍ كَافٍ وَافٍ، وقالت: والله ما يبلغُ بُنَيَّ ذلك أنْ يجيرَ بين النَّاس، وما يجيرُ أَحدٌ على رسولِ الله ﷺ.

وعادَ أبو سفيان بخفَّيْ حُنَين، لم يَنَل شيئاً ممّا أراد، ثمَّ كان الفتحُ الأعظم، ودخل الحبيبُ المصطفى ﷺ مكة؟ ولمّا اغتسلَ كانت فاطمةُ الزَّهراء هي التي تستره بثوبهِ، ثمَّ صلى ثماني ركعات.

وعادتْ فاطمةُ الزَّهراء إلى المدينةِ كيما تتابع حياتها في ظلالِ البيتِ النَّبوي، وفي رعايةِ زوجها، وكانتِ المشيئةُ الإلهية قد منَّتْ على هذا البيتِ بنفحات إنعامها، ومنَّ الله عليه بالذّرية الطّاهرة، كيما تظلّ ذرية رسول الله في أولاد فاطمةَ الزَّهراء سيّدة النّساء رضي الله عنها.

الزَّهْرَاءُ والذُّريَّةُ الطّيِّبَةُ:

لمّا كانت ليلةُ زفافِ الزَّهراء رضي الله عنها، كان منْ دعاءِ رسولِ الله ﷺ لهما: «اللهمّ باركْ فيهما، وباركْ عليهما، وبارك في نسلهما».

وتمضي الأيّام، فإذا بالزَّوجَيْنِ الكريمَيْنِ فاطمة الزّهراء وعليّ رضي الله عنهما

يترقرقُ البشرُ في محياهما، وتملأ نفس كلّ واحد منهما الغبطة التي تملأ كلّ زوج يرقب قدوم وليده الأوّل.

وأخذَ عليٌّ يلاطفُ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها، فقد نزلتِ السَّعادةُ بالدَّار الصَّغيرة المتواضعة، وانسكبَ فيضٌ منْ أملٍ في القلوبِ التي تفيضُ بالدُّعاء إلى الله أن يهبهما الذُّرية الطَّيبة.

وأطلَّ شهرُ شعبان من السَّنَةِ الثَّالثة منَ الهجرة، وحان يوم ولادةِ فاطمة الزّهراء، فتوجّه عليّ إلى ربّه ضارعاً أنْ يكرمَ زوجه ويهون عليها آلام الوضع. وظلّ عليّ قلقاً إلى أن مزَّقَ الهواء صوت الوليد صارخاً باكياً، فانتشت روحه، وسكنت طمأنينةُ قلبهِ، ونادى منادٍ منَ البيت: أنْ بُشْراكَ يا عليّ بغلام.

وصل الخبرُ السَّعيدُ إلى الحبيبِ المصطفىﷺ أن قد ولدتْ فاطمةُ الزَّهراء غلاماً زكيّاً، فجاءَﷺ، فأُخرِجَ له المولودُ في خِرقة صَفْراءَ، فرمى بها، وقال لهم: «ألَم أنهكم أنْ تلفُّوا الولدَ في خرقة صفراء»؟ ثم أَمَرَﷺ أن يُلَفّ الوليدُ في خرقة بيضاء، فلفّوه وجاءوا به.

وفرحَ به النَّبيُّﷺ أشدَّ الفرح، وفي اليومِ السَّابع لميلادهِ، عقَّ عنه كبشاً، وأعطى القابلة فخذاً وديناراً، وحلقَ رأسه، وأمر أنْ يُتَصَّدقَ بِزِنَةِ شعره فضَّة[1].

أتى الحبيبُ المصطفىﷺ منزل فاطمة الزَّهراء، كيما يرى السُّبْط الوليد، ولنتركِ الحديثَ لوالد الغلام سيّدنا عليّ رضي الله عنه، حيث يروي ذلك فيما أخرجه البيهقي في الدلائل قال:

لمّا وُلِدَ الحسن، جاء رسول اللهﷺ، فقال: «أروني ابني ما سميتموه»؟

قلتُ: حرباً.

قال: «بل هو حَسَن»[2].

---

(١) انظر: الترمذي حديث رقم (١٥١٩) في الأضاحي، وأحمد في المسند (٦/٣٩٠ و٣٩٢) ومجمع الزوائد (٤/٥٧) والنسائي (٧/١٦٥ و١٦٦) وانظر: تحفة المودود لابن قيم الجوزية (ص٩٧ ـ ٩٩).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٣/١٦١) وانظر: المسند (١/٩٨ و١١٨) والحاكم (٣/١٦٥ =

ودلف السُّرور إلى نفسِ عليّ رضي الله عنه وأرضاه، وانسكبت أنوارُ السَّعادة في قلبه، فقد وَهَبَه الله عزَّ وجلَّ هِبَةً كريمة، وهبه ذريّة طيّبة من نَسْلِ رسولِ الله ﷺ، وخرَّ عليٌّ ساجداً لله عزَّ وجلَّ، وطفق يقول: اللهم إنّي أعيذه بكَ وولده من الشَّيطان الرجيم.

ويبدو لي أنَّ سيّدنا عليّاً قد توجّه إلى ربِّه ضارعاً قائلاً داعياً، بما دعا قبله سيّدنا زكريا عليه السَّلام قال: ﴿واجعله ربِّ رضيّاً﴾ [مريم: ٦].

ويتمثل لي أنَّ الشَّاعر قد عَنَاه بقولِهِ مادحاً ومهنئاً:

هُنِّئْتَ بالولد السَّعيد فقد أتى
وفْقَ المرادِ وأنتَ وفْقَ مراده
الله يبقيهِ ويبقيكم له
حتى ترى الأولادَ مِنْ أولاده

أمّا فاطمةُ الزَّهراء، فقد كان سرورها عظيماً، فقد انشرحَ صدرُها بوليدها الحسن الذي زرع السَّعادة في نفسها، وكانت ترقصه وهي سعيدةٌ به أشدَّ السَّعادة، وكانت تقول له:

أَشْبِهْ أباكَ ياحسن واخلعْ عن الحقّ الرَّسَنْ
واعبدْ إلهاً ذا مِنَنْ ولا تُوالي ذا الإِحَن

وروى صاحبُ العِقْد الفريد أنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها، كانت إذا رقّصَت ابنها الحسن غَنّتْ له فقالت:

وبأبي شِبْهُ النَّبيّ غير شبيهٍ بعليّ[1]

= و١٦٨) ومجمع الزوائد (٥٢/٨) وابن حبان في الموارد (٢٢٢٧).

(١) أخرجَ الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ في المسند (٢٨٣/٦) عن طريق أبي مليكة قال: كانت فاطمةُ تنقزُ الحسن بن عليّ وتقول: بأبي شبه النّبي وليس شبيها بعلي. والصّحيح، أنَّ هذا جاء عن أبي بكر الصّديق رضي الله عنه ـ كما رواه البخاريّ وغيره ـ عن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال:
صلّى أبو بكر العصر، ثم خرجَ يمشي ومعه علي، فرأى الحسن يلعبُ مع الصِّبيان، فحمله

وتطلُّ السَّنَةُ الرَّابعة منَ الهجرة، ويدخلُ شهر شعبان، وفي اليومِ الخامس منه، وضعتِ الزَّهراء ابنها الثّاني؛ الحُسين، وسَعِدَ به الأبوان، كما فرح لمقدمه جدّه رسول اللهﷺ، وسمّاه حسينا، وعقَّ عنه كما عقَّ عن أخيه، وأذَّنَ في أذنِهِ اليُمنى[1].

ثمّ ولدت الزَّهراء ابنتها زينب في السَّنة الخامسة، وفي السَّنَةِ السَّابعةِ ولدت ابنتها أمّ كلثوم.

وكان رسولُ اللهﷺ يكرمُ سبطيه ويحبّها غاية الحبّ. يقولُ أنس بنُ مالك رضي الله عنه فيما رواه التّرمذي قال: كان رسول اللهﷺ يقول لفاطمة رضي الله عنها: «ادعي لي ابنيّ فإذا ما جاءا إليه شمّهما وضمهما».

وكانﷺ يحمل الحسنَ على عاتقهِ الشَّريف ويقول: «اللهم إنّي أحبّه فأحِبَّه»[2].

وصحَّ عنهﷺ أنَّه قال عن سبطيه: «هما ريحانتاي منَ الدُّنيا»[3].

ويبدو أنَّ الأخويْنِ الصَّغيرَيْن كانا يلعبان، والرّسول الكريمﷺ مسرورٌ بهما؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان الحسنُ والحُسين يصطرعان بين يدي رسول اللهﷺ، فجعل يقول:

«هَيَّ حسين» ـ أي أسرع فيما أنت فيه ـ

فقالت فاطمة: لِمَ تقول: «هَيَّ حسين»؟

فقال: «إنَّ جبريل يقول: هي حسين»[4].

على عاتقه وقال: بأبي شبه النّبي، وليس شبيها بعليّ، وعليٌّ رضي الله عنه يضحك.

قال الحافظُ ابن حجر ـ رحمه الله ـ بعد أنْ ذكرَ حديث فاطمة: وفيه إرسال، فإنْ كان محفوظاً فلعلّها تواردت في ذلك مع أبي بكر، أو تلقّى ذلك أحدهما من الآخر.

(١) أخرجه الترمذي (١٥١٤) وأبو داود (٥١٠٥) وعبد الرزاق (٧٩٨٦) وانظر الاستيعاب (ترجمة الحسين).

(٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه البخاري والترمذي وأحمد.

(٤) الإصابة (١/٣٣٢).

وقد أكرم الله سبحانه وتعالى فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها، واختصَّها بفضلِهِ منْ نساء آلِ البيت النّبوي بالذّرية الطّاهرة، إذ لم يكن للنّبيِّ ﷺ عقب من سواها.

هذا وقد كان سيّدنا بلال رضي الله عنه يؤذّنُ للصَّلاة، فينسكبُ صوته العذب في الأذان، فتنشط النّفوس، وتخفُّ إلى الصَّلاة، لتتصلَ بخالقها، وأذن بلال بصلاةِ الصّبح، فأتى الحبيب المُصطفى ﷺ باب فاطمة الزَّهراء وقال: «السَّلام عليكم أهل البيت.. الصَّلاة.. .. الصَّلاة.. الصَّلاة، إنّما يريدُ الله ليذهب عنكم الرجس أهْل البيت ويطهركم تطهيراً»(١).

ووقفَ رسولُ الله ﷺ يصلي بالمسلمين، فجاء الحسنُ والرَّسول ساجد، فجلس على ظهرهِ الشَّريف، فرفعه ﷺ رفعاً رفيقاً رقيقاً، فلمّا فرغ من صلاته، وضعه في حجره الشَّريف، فكان يدخل أصابعه في لحيته الشّريفة، والنّبي الكريم ﷺ يضمَّه ويقبِّله في عطفٍ وحنانٍ ويقول: «اللهم إنّي أحبُّه».

ورأى الصَّحابة الكرام هذا الحبَّ الدَّافقَ المتدفِّقَ فقالوا: يا رسول الله، إنّا رأيناك تصنعُ بهذا الصَّبي شيئاً ما رأيناك تصنعه بأحد!.

فقال ﷺ: «إنَّ هذا ريحانتي منَ الدُّنيا، وإنَّ هذا ابني سيّدٌ، وعسى الله أنْ يصلحَ به بين فئتين منَ المسلمين»(٢).

ونهضَ النَّبيُّ ﷺ وحَمَلَ الحسنَ، فنظرَ إليه عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه

---

(١) انظر: الدر المنثور للسيوطي.(٦/٦٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في مواضع: في فضائل الصَّحابة برقم (٣٧٤٦).
وفي الصّلح، باب قول النبي ﷺ: ابني هذا سيّد.
وقوله عز وجل ﴿فاصلحوا بينهما﴾ (فتح الباري ٧/٩٤٢).
والترمذي في المناقب برقم (٣٧٧٣ و٣٧٧٥).
وأبو داود في السّنّة برقم (٤٦٦٢).
والنسائي في الجمعة (٧/١٠٧) و(٣/١٠٧).
وأحمد (٥/٣٨ و٤٤ و٤٩ و٥٢).

فقال: «نِعْمَ المركبُ ركبتَ يا غلام» فقال ﷺ: «ونعمَ الراكبُ هو»[1].

ودخل النَّبيُّ ﷺ دارَ فاطمة الزَّهراء فرأى الحُسين، فوضع الحَسن، وراح يستدرجُ الحُسين حتى إذا أقبل عليه غدا يرقّصه ويداعبه ويقول: «حُزُقَّة. . . . حُزُقَّة. . . . ترقَّ عينَ بَقَه»[2].

وبلغ من اهتمامه ﷺ بفاطمةَ الزَّهراءِ وابنيها أنَّه كان يبيتُ عندهم حيناً بعد حين، ففي إحدى الليالي، سمع سبطه الحسن يستسقي، فقام ﷺ إلى قِربَةٍ، ثمَّ ملأ القدح، فتناوله الحسين، فمنعه وبدأ بالحسن، فقالت فاطمةُ الزّهراء رضي الله عنها: كأنّه أحبّ إليك.

فقال ﷺ: «إنّما استسقى أوَّلاً».

كان الحبيبُ المصطفى ﷺ يحبُّ ولديها حبّاً شديداً، فهما ريحانتاهُ منَ الدُّنيا، ويَظْهَرُ هذا الحبّ في أَوْجِهِ عندما ينزل ﷺ من على المنبر ليضعهما بجانبه.

قال أبو بُريدة: كان رسولُ الله ﷺ يخطبنا، إذ جاءَ الحسنُ والحُسين ـ عليهما السَّلام ـ عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزلَ رسولُ الله ﷺ منَ المنبر، فحملهما، ووضعهما بين يديه، ثمَّ قال: «صَدَقَ الله: ﴿**إنّما أموالُكم وأولادُكم فتنةٌ**﴾ [التَّغابن: ١٥] فنظرتُ إلى هذين الصَّبيَيْنِ يمشيان ويعثران، فلم أصبرْ حتى قطعتُ حديثي ورفعتهما»[3].

---

(١) قال السَّيد الحميريّ في قصّة الحسنِ والحسينِ ودخولهما المسجد «نِعْم الراكبان» من قصيدة:

أتى حَسَنٌ والحُسين النَّبيَّ ... وقد جَلَسا حجزةً يلعبان
ففدَّاهُما ثمَّ حيَّاهما ... وكانا لديه بذاكَ المكان
فراحا وتحتهما عاتقاه ... فنِعْمَ المطيّة والرَّاكبان
وليدان أمّهما برة ... حَصَان مطهّرة للحَصَان.

(الأغاني ٧/١٥)

(٢) انظر: لسان العرب؛ مادة بقق وحزق، وانظر كنز العمال برقم (٣٧٦٤٢ و٣٧٦٩٨ و٤٥٤٢١ و٤٥٤٣٠) و«الحزقة»: القصير الصغير.

(٣) رواه الترمذي (٣٧٧٦) وانظر: المسند (٥/٣٥٤) وسنن أبي داود (١١٠٩) والنسائي

وأخرجَ التّرمذي وأحمد وأبو يعلى عن أبي سعيدٍ الخدريّ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الحَسَنُ والحُسين سيّدا شباب أهل الجنّة، وفاطمة سيّدة نسائهم إلا ما كان لمريم بنتِ عمران»[1].

الزَّهْرَاءُ والقُرْآن:

في القرآنِ الكريم مواضع تشيرُ إلى مكانةِ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها، ومكانة أولادها في البيتِ النّبويّ الذي أذهب الله عنه الرِّجس وطهّره تطهيراً.

وفي سورةِ آل عمران لمحاتٌ لطيفة إلى فاطمةَ الزَّهراء وأولادها رضوان الله عليهم، في وَفْدِ نجرانَ وقصّة المباهلة.

ونجران ـ كما نعلم ـ بَلَدٌ قديمٌ، متَّسعُ الأرجاء من بلدان الجزيرة العربية الجنوبية على حدودِ اليمن، كانت في الزَّمن القديم مجموعة كبيرة منَ القرى، تربو على المئةِ قرية، وهي على سَبْعِ مراحل من مكةَ المكرّمة، مسيرة يوم للراكب السَّريع سير العهد القديم، وهي من المدينة المنوّرة أبْعَد، وفي إحدى قراها كانت حادثةُ الأخدود المذكورة في القُرآن الكريم في سورة البروج.

كانت وفادةُ أهل نجران في السَّنة التَّاسعة من الهجرة، وكان قوامُ الوَفْدِ ستون رجلاً، منهم أربعة عشر ـ وقيل أربعة وعشرون ـ من الأشراف فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران:

أحدهم: ولقبه العَاقب؛ كانت إليه الإمارة والحكومة، واسمه عبد المسيح.

والثَّاني: ولقبه السَّيد؛ كانت تحت إشرافه الأمور الثَّقافية والسِّياسية، واسمه الأيهم، أو شرحبيل.

والثَّالث: الأسقف؛ وكانت إليهِ الزَّعامة الدِّينية، والقيادة الرُّوحية، واسمه: أبو حارثة بن علقمة.

= (١٠٨/٣) وابن ماجه (٣٦٠٠) وفضائل الصحابة للإمام أحمد برقم (١٣٥٨) وابن حبان الموارد (١٢٣١).

(١) در السحابة (ص٢٧٧) ومجمع الزوائد (٢٠١/٩).

ونزل الوفدُ النَّجراني بالمدينة، ولقيَ الحبيب المصطفىﷺ، فسألهم وسألوه، ثمّ دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فامتنعوا وأبوا، وسألوه عمّا يقولُ في عيسى بنِ مريم عليه السَّلام، فمكثَ رسولُ اللهﷺ يومه ذاك حتى نزل عليه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**إنَّ مَثَلَ عيسى عند الله كمثلِ آدمَ خلقه من تراب ثمّ قال له كُنْ فيكون. الحقُّ منْ ربِّك فلا تكنْ منَ الممترين. فمَنْ حاجّك فيه من بَعْدِ ما جاءك منَ العلمِ فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمَّ نبتهل**[1] **فنجعل لعنةَ الله على الكافرين**﴾ [آل عمران: ٥٩ و٦٠ و٦١].

ولمّا أصبح رسولُ اللهﷺ أخبرهم بقولهِ في عيسى بنِ مريم ـ عليه السَّلام ـ في ضَوءِ هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم، كيما يفكّروا في أمورهم، وكيما يتشاوروا بينهم، فأبوا أنْ يقرّوا بما قال في عيسى من أنَّه عبد الله.

وأصبحَ النَّجرانيون، وقد أبوا عن قبولِ ما عرض عليهم رسول اللهﷺ منْ قولهِ في عيسى، وأبوا عن الإسلام، فدعاهم رسولُ اللهﷺ إلى المباهلةِ، ثمَّ أقبل مشتملاً على الحَسنِ والحُسين[2] في خميل له، وفاطمة الزَّهراء تمشي عند ظهره، وقال

---

(١) قال الإمامُ فخر الرازي ـ رحمه الله ـ في تفسيرهِ لهذه الآية الكريمة: ﴿**ثم نبتهل**﴾ أي نتباهل، كما يُقال: اقتتل القومُ وتقاتلوا، واصطحبوا وتصاحبوا، والابتهال فيه وجهان:
أحدهما: أنَّ الابتهال هو الاجتهاد في الدُّعاء، وإنْ لم يكن باللعنِ، ولا يُقال: ابتهل في الدُّعاء إلا إذا كان هناك اجتهاد.
الثَّاني: أنَّه مأخوذ من قولهم: عليه بهلة الله؛ أي لعنته، وأصله مأخوذٌ مما يرجع إلى معنى اللعن، لأنَّ معنى اللعن هو الإبعاد والطّرد، وبهله الله: أي لعنه من رحمته. (التّفسير الكبير للرازي ٨/٧٢ و٧٣).

(٢) تحدّث ابنُ قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ عن ذرّية أهلِ البيت النّبويّ، وعن الحَسنِ والحُسين فقال: إنَّ المسلمينَ مجمِعُون على دخول أولادِ فاطمة رضي الله عنها في ذريّة النّبيّﷺ المطلوب لهم من الله الصَّلاة، لأنَّ أحداً منْ بناته لم تُعقبْ غيرها، فمنِ انتسبَ إليهﷺ منْ أولاد ابنته، فإنّما هو منْ جهة فاطمة رضي الله عنها خاصة، ولهذا قال النّبيّﷺ في الحَسنِ ابن ابنته: «إنَّ ابني هذا سيّد» فسمّاه ابنه، ولما أنزل الله سبحانه آية المباهلة ﴿**فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم**﴾ [آل عمران: ٦١] دعا النبيﷺ فاطمةوحسناً وحسيناً، وخرج للمباهلة. (جلاء الأفهام ص٢٠٣).

لابنيه وأمّها الزّهراء «وإذا دعوتُ فأمّنوا».
فقال أسقفهم عندما رآهم: إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله أنْ يزيلَ جَبَلاً منْ جباله لأزاله.

ورأى الوفد النَّجراني الجدّ والتهيؤَ منْ رسولِ الله ﷺ فخلوا وتشاوروا، فقال كلٌّ منَ العَاقبِ والسَّيِّد للآخر: لا تفعل ولا تباهل، فوالله لئن كان نبيّاً، فلاعَنَنا لا نفلحُ نحن، ولا عَقْبنا من بعدنا، فلا يبقى على وجْهِ الأرض منّا شعرة، ولا ظفر إلا هلك.

ثمَّ اجتمع رأيهم ـ وقد عرفوا نبَّوة رسول الله ﷺ ـ على تحكيمِ رسولِ الله في أمرهم، فجاءوا وقالوا: يا أبا القاسم، لا نلاعنْك، وإنَّا نعطيك ما سألْتَنَا؛ فقبلَ رسولُ الله ﷺ منهم الجزية، وصالحهم على ألفي حلّة، ألف في رجب، وألف في صفر، ومع كلّ حلة أوقية، وأعطاهم ذمّة الله وذمّة رسوله، وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم، وكتب لهم بذلك كتاباً، وطلبوا منه أنْ يبعثَ عليهم رجلاً أميناً، فبعث عليهم أمين هذه الأمّة سيّدنا أبا عُبيدة بن الجراح، ليقبض مال الصّلح[1].

هذا وقد وَرَدَ ذكر فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها في مواضعَ أُخَر من القُرآن الكريم، حيث وَرَدَ في سورةِ الأحزاب ما يشيرُ إلى ذلك إشارة بينه واضحة.

فقد وَرَدَ في التَّفاسير والصِّحاح والسُّنن أنَّ رسول الله ﷺ كان يمرُّ ببابِ فاطمةَ ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول: «الصَّلاة يا أهل البيت

(١) انظر: فتح الباري (٧/١١٦ ـ ١١٨) وزاد المعاد (٣/٦٢٩ ـ ٦٣٧) مع الجمع والتصرف.
أقولُ: عندما رحتُ أبحث في هذه القصّة وفد نجران، ألفيتُ اضطراب الرّوايات في بيانِ كيفية وفد نجران، فقد وَرَدَ عند ابن سعد غير الذي عند ابن إسحاق وغير البيهقي، وقد حاولنا جهد المستطاع أنْ ننظمَ الرِّوايات ونؤلف بينها، كيما تخرج موافقة لما ورد في القرآن والسّنة، وكيما تتوافق مع المصادر الوثيقة التي وصلتنا من علماءَ أعلياء ثقاة.
وللمزيد من هذه الأخبار انظر: تفسير القرطبي (٤/١٠٢ ـ ١٠٥) والتفسير الكبير للرازي (٨/٦٦ ـ ٧٤) والدر المنثور للسيوطي (٢/٢٣١) وأسباب النزول للواحدي (ص٨٩) وغيرها من المصادر.

الصَّلاة؛ ﴿إنّما يريدُ الله ليذهبَ عنكم الرِّجسَ أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ووردَ أنَّ رسولَ اللهﷺ وَضَعَ على الحسنِ والحسينِ وعليٍّ وفاطمةَ كساء ثمَّ قال: «اللهمّ هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أَذْهِبْ عنهم الرِّجس وطهّرهم تطهيراً»(١).

ويشيرُ القُرآن الكريم إلى فاطمةَ الزَّهراءِ وأخواتها الطَّاهرات رضي الله عنهنَّ إشارةً واضحةً في سورةِ الأحزابِ في نداءٍ ربّانيٍّ كيما يرخينْ ويَسْدلْنَ عليهن جلابيبهن، قال عزَّ وجلَّ: ﴿يا أيها النّبيّ قُلْ لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً﴾[الأحزاب: ٥٩].

تحدَّث ابنُ جَمَاعةَ ـ رحمه الله ـ عن بناتِ رسولِ اللهﷺ فقال: وأمّا بناتُه فأربع:

أكبرهن: زينب زوجة أبي العاص بن الرَّبيع

ثمّ رقيّة زوجة عثمان

ثمّ أمّ كلثوم زوجته بعدها

ثمّ فاطمة وهي أفضلهن، وجميعهن من خديجة(٢) رضي الله عنهن.

وفي سورةِ الشُّورى إشارة إلى الزَّهراء وبنيها في قولهِ تعالى: ﴿. . . .قُلْ لا أسألكم عليه أجْراً إلا المودّة في القُربى. .﴾ [الشورى: ٢٣].

قال المفسِّرون: هي مودّة أقاربه لأَهْلِهِﷺ(٣). وقيل: هم بنو فاطمةَ رضي

---

(١) انظر: الدُّر المنثور للسيوطي (٦/٦٠٤) وأُسْدُ الغابة ترجمة رقم (٧١٧٥) وتفسير الماورديّ (٣/٣٢٣) والحديث في صحيح مسلم، في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٢٤) باب: فضائل أهل بيت النّبيﷺ، والحاكم (٣/١٤٧) وانظر تفسير الطبريّ والرازيّ والبغويّ والقرطبيّ وابن كثير وغيرها للآية (٣٣) من سورة الأحزاب.

(٢) غرر التّبيان لابن جماعة (ص٤٢٤) وانظر: السّيرة النبوية (١/١٩٠) ومفحمات الأقران (ص١٦٨).

(٣) زاد المسّير لابن الجوزي (٧/٢٨٤).

الله عنها[1].

وأخرج الإمامُ أحمد والطّبراني وابنُ أبي حاتم والحاكم عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما، أنّ هذه الآية الكريمة لما نزلت قالوا: يا رسول الله مَنْ قرابتُك هؤلاء الذين وَجَبَتْ علينا مودّتهم؟

قالﷺ: «عليٌّ وفاطمةُ وابناها»[2].

ويبدو أنَّ هذه الآية الكريمة قد راقَتْ ورقَّتْ لكثيرٍ منَ العُلماء الشُّعراء الأدباء، فأغرِمُوا في نظمِ الشِّعر بما يتوافقُ مع مفهوم الآية، وأسباب نزولها، ومنْ أبدعِ ما قيل في اقتباس هذه الآية، ما نظمه الشَّيخ شمس الدِّين بن العربي ـ رحمه الله ـ حيث قال:

رأيتُ وَلائي آلَ طـه فـريضـةً ... على رغمِ أهلِ البُعْدِ يورثني القُربا
فما طَلَبَ المبعوثُ أجراً على الهدى ... بتبليغـهِ «إلا المودّة في القـربى»[3]

وشمل القرآنُ الكريمُ كذلك جانباً من سيرة فاطمة الزَّهراء رضوان الله عليها، وتحدَّث عنْ جانبٍ من جوانب الخيرِ في حياتها المباركة المعطاء، ففي سورة الدَّهر[4] أثنى الله عزَّ وجلَّ على البيتِ الطَّاهرِ الذي عاشت فيه سيِّدتنا فاطمةُ الزَّهراء، كما أثنى على زوجها عليّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه.

ذكر أهلُ التَّفْسير[5] أنَّ الحسنَ والحُسين قد مَرِضا، فنذر عليٌّ وفاطمة وجارية

---

(١) الدُّر المنثور للسّيوطي (٦/٧) طبعة دار المعرفة.

(٢) الصَّواعق المحرقة (ص١٧٠).

(٣) يلاحظ الاقتباس للآية (٢٣) من سورة الشورى، وتتجلى في ذلك براعة الناظم ومقدرة يراعه وفطنته وإبداعه.

(٤) ذكر أحد الشّعراء أهل البيت في شعره وذلك ببعض السّور التي تحدثت عنهم فقال:

همُ العـروةُ الـوثقى لمعتصمٍ بهـا ... منـاقبهـم جـاءتْ بـوحيٍ وإنـزال
مناقب في الشّورى وفي هل أتى أتتْ ... وفي سـورةِ الأحـزاب يعـرفُهـا التّـالي
وهـمُ آل المـصـطفـى فـودادهـم ... عـلى النّاس مفـروضٌ بحكمٍ وإسجال

(٥) انظر: تفسير القُرطبي (١٢٨/١٩) وغرر التّبيان (ص٥٢٥).

لها اسمها فضّة إنْ عُوفيا صيام ثلاثة أيام، فبرأ، فصاموا أوّل يوم، ووضعوا العشاء أقراصاً منْ شعير، فوقفَ سائلٌ، فآثروه وطووا، ثمّ وقف عليهم في الليلةِ الثَّانية يتيم، فآثروه وطووا، وفي الليلة الثَّالثة وقَفَ عليهم أسيرٌ، فآثروه وطووا، فنزلَ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**يُوفون بالنُّذر ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً ويطعمونَ الطَّعامَ على حبِّهِ مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنَّما نطعمكم لوجهِ الله لا نريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً**﴾ [الإنسان: ٧ - ٩][١].

ذكَرَ بعضُ المفسِّرين؛ كالثَّعلبي والقُشيري والنَّقَّاش وغيرهم قصَّة في سيِّدنا عليٍّ وسيدتنا فاطمة الزَّهراء وجاريتهما، وقد أوردوا حديثاً تباروا في بَسْطِهِ ونظْمِهِ في ثنايا تفاسيرهم، ونَقَلَ عنهم بعض كتّاب التّراجم[٢] والسّيرة هذه القصّة الطّويلة العريضة، وفيها أشعارٌ «مَشْعورة» تخصُّ المسكينَ واليتيمَ والأسيرَ، يخاطبون بها بيت النّبوة الطّاهر، وكذلك أوردوا أَشْعاراً لفاطمةَ رضي الله عنها تخاطب كلّ واحدٍ من هؤلاء، ومنَ الطَّريف أنَّ ظاهرها الاختلاق، فألفاظُها منَ الرّكاكةِ والسَّفْسَاف بما لا يستقيمُ مع فَصَاحة أميرِ البيان سيّدنا عليّ، ولا يستقيمَ أيضاً مع سليلةِ بنت النّبوّة ومعدنِ الفصاحة سيّدتنا فاطمة الزّهراء، ناهيك بأبياتها المكسورة، ومعانيها الهابطة، التي لا يقبلها مَنْ له أدنى معرفة بأساليبِ البيان، وأسباب الفصاحة، فكيف بأمراء البيانِ، وفُرسان الفصاحة ورجال اللّغة والأدب: أهلَ البيت رجالهم ونساؤهم؟!! إنَّ هذا لشيءٌ عجيب!.

وإنّي مقتطفٌ لك - عزيزي القارىء - قطعةً من هذه القصة الموضوعة المصنوعة، كيما تكون على بصيرة من الأَمْر.

تقول القصّة: لما وقَفَ المسكينُ بباب عليّ وفاطمة وطلبَ الطَّعام، أنشأَ عليٌّ يقول:

فـاطمُ ذاتَ الفَضْـل واليَقـين يـا بنت خَيْر النَّـاس أَجْمعـين

---

(١) قال القرطبي - رحمه الله -: والصحيح أنّها نزلت في جميع الأبرار، ومَنْ فعل فعلاً حسناً، فهي عامّة.

(٢) انظر مثلاً: كتاب نور الأبصار للشلبنجي (ص١٢٤ - ١٢٦) فقد أورد القصة والأشعار.

أَمَــا تَــرَيْنَ البــائسَ المِسكــين   قَــدْ قَـامَ بــالبابِ لــه حَنــينْ
يـشكــو إلى الله ويــسـتــكــين   يشكــو إلينـا جـائـع حــزيـن

فأنشأتْ فاطمةُ رضي الله عنها تقول:

أَمْرِكَ عندي يا بن عمّ طَاعَـه   مـا بي منْ لؤمٍ ولا وَضَاعَـه
غـديتُ في الخبزِ لـه صِنَاعـه   أطعـمُـه وَلا أبـالي الـسَّـاعـه

وفي يومِ اليتيم قال عليّ:

فــاطمُ بنتَ السَّيِّـد الكـريـم   بـنـت نـبـيّ لـيـسَ بـالـزَّنـيـم
لـقــد أتى الله بــذي الـيـتـيـم   مَنْ يرحم اليوم يَكُنْ رحيم. . .

وتجيبه فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها:

أطـعـمُـه الـيـومَ ولا أبـالي   وأوثـرُ الله عـلى عـيـالي
أمْسُـوا جيـاعـاً وهمُ أشبـالي   أصغـرهم يُقْتَـلُ في القِتَـال. . .

وعلى مثل هذا الكلام تمضي القصّة وفيها رجمٌ منَ الغيب الذي لا يعلمه إلا العليمَ الخبير، والذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أنَّ القصَّة وُضِعَتْ وصُنِعَتْ وحِيْكَتْ بعد وقعةِ كربلاء بِزَمَنٍ، لأنَّ في الأبياتِ الشّعرية إشاراتُ إلى ذلكَ، وإلى مَقْتِلِ الحُسين بن عليِّ رضي الله عنهما.

هذا وقد أَحَبْبْتُ أنْ أوردَ نموذجاً من القصَّة والشّعر لكي يعرفَ القارىءُ الكريم، ومَنْ يحبُّ أَهْلَ البيتِ الأطهار، أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد خَصَّهم بالبَيَانِ والفَصَاحة، فكيف ينزلون إلى هذا الدَّرْكِ الأسفلِ من ضَحَالةِ المعاني، وشحِّ الألفاظ، وسقْمِ العَاطفة[1]؟! ونحنُ نعلم كمالَ فصاحةِ فاطمةَ الزَّهراء، ونَعْلم

(١) أوردَ الإمامُ القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ القصّة كاملةً في تفسيرهِ الجامع، وقد استغرقتْ بضْعَ صفحات منَ القطع الكبير، انظر تفسير القرطبي (١٩/١٢٨ ـ ١٣٢) هذا وقد تصدّى الإمام القرطبيّ ـ رحمه الله ـ للردِّ على واضعي هذه القصّة فقال: ما يُرَوِّجُ مثل هذا ـ أي الحديث والشّعر ـ إلا على حمقى جهَّالٍ؛ أبى الله لقلوب متنبّهة أنْ تظنّ بعليٍّ مثل هذا ـ أي الإسفاف وظلم الحَسنِ والحُسين جوعاً ـ وليتَ شعري مَنْ حفَظَ هذه الأبيات كلّ ليلة عن

جمالَ فصاحة عليّ رضي الله عنه، فهل يُعْقَل أنْ تصدرَ عنه مثل تلك الأشعار والمعاني الهزيلة؟!

إنَّ الآثارَ التي وصلَتْنا عنْ فصاحةِ سيِّدنا عليّ رضي الله عنه تشيرُ إلى امتلاكهِ ناصية البيان النَّابع من فيضِ نورِ القرآن، والمرفود بأدب النُّبوّة الكريم، إنَّ ذلك كلّه يختلفُ اختلافاً متبايناً مع ما قرأنا في ثنايا القصّة الفائتة.

الزَّهْرَاءُ وَالبَرَكَةُ

أنْبَتَ الله عزَّ وجلَّ فاطمةَ الزَّهراء نباتاً حَسَناً، ويسَّرَ لها أسبابَ القَبُول، فقد عاشتْ في أكرمِ بيت في الدُّنيا، ألا وهو بيت الرَّسولِ الكريمﷺ، واقتبستْ منْ معالمِ النّبوّة، ما جعلها من سيِّدات نساءِ العالَمين، اللاتي قُرِنَّ بالصَّلاح، وفُزْنَ بالعِلْم والخير والدِّيْنِ.

هذا وقد كان النَّبيُّﷺ يحبُّ فاطمةَ الزَّهراء ويكرمُها، وكانت صابرةً دَيِّنةً خيِّرةً صيِّنة قانعةً شاكرةً لله عزَّ وجلَّ، وطَرَحَ في طعامِها البركة والنَّماء، فإنَّها كانت من أولياء الله الصَّالحين.

عليٍّ وفاطمةَ، وإجابة كلّ واحدٍ منهما صاحبه، حتى أدّاه إلى هؤلاء الرّواة؟!

فهذا وأشباهه منْ أحاديث السّجون فيما أرى، بلغني أنَّ قوماً يخلّدونَ في السُّجون فيبقونَ بلا حِيْلَة، فيكتبون أحاديث في السَّمر، ومثل هذه الأحاديث مفتعلة، فإذا صارتْ إلى الجهابذةِ رموا بها وزيّفوها، وما منْ شيء إلا وله آفة ومكيدة، وآفة الدِّيْنِ وكيدهِ أكثر. (تفسير القرطبيّ (١٩/١٣٢ و١٣٣).

وقال التّرمذيُّ الحكيمُ أبو عبد الله في «نوادر الأصول»:

فهذا حديثٌ مزيّفٌ قد تطرّفَ فيه صاحبه حتى تشبَّهَ على المستمعين، فالجاهلُ بهذا الحديثِ يعضُّ شفتيهِ تلهفاً ألّا يكون بهذه الصِّفةِ، ولا يعلمُ أنَّ صاحبَ هذا الفِعْل مذمومٌ. . . . . إلى أنْ يقولَ: أفيحسبُ عاقل أنَّ عليّاً جَهَلَ هذا الأمْر حتى أجهد صبياناً صغاراً من أبناء خمسٍ أو ستٍّ على جوع ثلاثة أيام ولياليهن حتى تضوروا منَ الجوع؟! وغارتِ العيونُ منهم لخلاء أجوافهم حتى أبكى رسول اللهﷺ ما بهم من الجهد.

نقل الإمامُ الحافظ ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ في التَّفسير وغيره كرامةً لفاطمةَ الزَّهراء عنِ الحافظِ أبي يعلى بسنده إلى جابرٍ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهﷺ، أقامَ أيّاماً لم يطعَمْ طعاماً حتى شقَّ ذلك عليه، فطافَ في منازلِ أزواجه، فلم يَجِدْ عند واحدةٍ منهن شيئاً، فأتى فاطمة فقال: «يا بُنيّة هل عندكِ شيءٌ آكله، فإنِّي جائعٌ»؟!

قالت: لا والله ـ بأبي أنتَ أمّي ـ.

فلمّا خرجَ منْ عندها، بعثتْ إليها جَارة لها برغيفينِ وقطعة لحم، فأخذته منها، فوضعَتْه في جفنةٍ لها، وقالت:

والله لأوثرن بهذا رسولَ اللهﷺ على نفسي ومَنْ عندي، وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعةِطعام.

فبعثتْ حَسَناً أو حُسَيناً إلى رسولِ اللهﷺ فرجع إليها، فقالت: بأبي أنتَ وأمّي، قد أتى الله بشيء فخبأْتُهُ لكَ.

قال: «هلمّي يا بُنيّة».

قالت: فأتيتُه بالجفنةِ، فكشفتُ عنها، فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلمّا نظرتُ إليها بُهِتُّ، وعرفتُ أنَّها بركةٌ مِنَ الله، فحمدتُ الله، وصليتُ على نبيِّه، وقدمتُه إلى رسولِ اللهﷺ، فلمّا رآهُ، حَمِدَ الله، وقال: «مِنْ أينَ لكِ هذا يا بُنية»؟

قالت: يا أبتِ **﴿هُوَ مِنْ عندِ الله إنَّ الله يرزقُ مَنْ يشاءُ بغيرِ حسَاب﴾** [آل عمران: ٣٧].

فحمدَ لله وقال: «الحمدُ لله الذي جعلك يا بُنية شبيهة بسيّدة نساء بني إسرائيل ـ أي مريم ـ فإنّها كانت إذا رزقها الله شيئاً وسُئلت عنه قالت: **﴿هو منْ عندِ الله إنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾**.

فبعثَ رسولُ اللهﷺ إلى عليٍّ، ثمّ أكل رسولُ اللهﷺ، وأكلَ عليٌّ وفاطمة وحسن وحسين، وجميع أزواجِ النَّبيِّﷺ، وأهل بيته حتى شبعوا جميعاً.

قالت: وَبَقِيَتِ الجفنةُ كما هي.

قالت: فأوسعتُ ببقيتها على جميعِ الجيران، وجعلَ الله فيها بركةً وخيراً كثيراً[1].

ومنَ البركاتِ التي اختصَّتْ بها فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها أنَّها حظيتْ بدعوةٍ مباركةٍ من رسول اللهﷺ؛ فقد أوردَ القاضي عياض في «الشِّفا» أنَّ النَّبيَّﷺ قد دعا الله عزَّ وجلَّ ألّاَ يجيعَ فاطمة، واستجاب الله عزَّ وجلَّ دعاءه، تقولُ فاطمة رضي الله عنها: فما جُعْتُ أبداً.

الزَّهْرَاءُ وَالفَضَائِلُ الكَرِيْمَةُ:

إذا اجتمعتِ الفضائلُ في طاقةٍ فوَّاحةٍ بأريجِ العطر الزّكي، ففاطمةُ الزّهراء عنوانُها؛ وكيف يستطيعُ الإنسان أنْ يجمعَ فضائل سيّدة نساءِ أهل الجنَّة في كتاب؟!!

ولَمّا رُحْتُ أقرأُ فضائل فاطمة الزَّهراء، وأستروحُ عبيرَ سيرتها، وجدتُني أعيشُ في رياضٍ أنيقةٍ جميلةٍ مباركةٍ، لا تسلوها النَّفس، ولا تملّها القلوب، ووجدتُ في هذه الرِّياضِ ما تشتهيه الأَنْفُس منْ كريمِ الصِّفات، ومن قصورِ المحامد التي شيّدتها الزَّهراء بالفضائلِ الحِسَان، والشَّمائل العظيمة.

ويبدو أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنها كانت ترى أنَّ فاطمةَ الزَّهراء أفضل النَّاس خَلا رسول اللهﷺ، وكما نعلم، فعائشة رضوان الله عليها أفْقَه نساء الأمَّةِ على الإطلاق، بل أكثر نساء النَّبيِّﷺ حِفْظاً وعِلْماً، فهي ترى بعينِ بصيرتها وبصرها أنَّ فاطمةَ الزَّهراء لا يمكن أنْ تكون كسائر النِّساء: وصَفَتْها الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق بقولها: ما رأيتُ أفْضَلَ منْ فاطمةَ غير أبيها[2].

وعائشةُ أمُّ المؤمنين رضي الله عنها تَصِفُها بشدّةِ الشَّبه بالكلام والسَّمْتِ بأبيها رسولِ اللهﷺ فتقول: ما رأيتُ أحداً أشبه سَمْتاً وَدَلّاً وهَدْياً برسولِ الله منها

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣١٦/٦ و٣١٧) ومختصر تفسير ابن كثير (٢٧٩/١) والبداية والنهاية (١١١/٦) وحياة الصحابة (٦٢٨/٣) طبعة ثانية.

(٢) مجمع الزوائد (٢٠١/٩) ودرر السحابة (ص٢٧٧).

في قيامها وقعودها من فاطمةَ بنتِ رسول الله، كانت إذا دخلتْ على رسول الله ﷺ قام إليها فقبلها وأجْلَسَها في مجلسه، وكان النَّبيُّ ﷺ إذا دخَلَ عليها قامتْ مِنْ مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها(١).

ومن أرفعِ فضائلها أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يرضى لرضاها ويغضبُ لغضبها، فقد أخرج البخاريُّ ـ رحمه الله ـ بسندهِ إلى المِسْوَر بنِ مخرمةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «فاطمةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، فَمَنْ أغضبها فقد أغضَبَني»(٢).

ولعلَّ محبَّةَ رسولِ الله ﷺ لفاطمةَ الزَّهراء كان يُعْتَبرُ مَعْقِد الفضيلة، فالرَّسولُ الكريم لا يحبُّ إلا طيِّباً، وناهيك بفاطمةَ الزَّهراءِ طِيْبَ أصْلٍ، وكَرَمَ منبت.

عن بُريدة رضي الله عنه قال: كان أحبَّ النِّساء إلى رسولِ الله ﷺ فاطمة، ومن الرِّجال عليّ(٣).

هذا وقد وردت كثيرٌ منَ الأحاديثِ النَّبويّة الشَّريفة، التي تشهدُ بفضل سيِّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها.

عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «أَفْضَلُ نساءِ أهل الجنَّة خديجة وفاطمة»(٣).

وقد نُظِمَتْ فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها في عقْدٍ واحد مع سيِّدات نساء العالَمين في مختلفِ العصور، وهل هناك مكانة أرفع من مكانة هؤلاء اللاتي نطقَ القُرآن والحديث بفضلهن؟ فلنقرأ معاً حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه فيما رواه الإمام أحمد: «حسبك منْ نساءِ العالمين أربع:

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب برقم (٥٢١٧) والترمذي في المناقب برقم (٣٨٧١ و٣٨٧٢) وانظر الاستيعاب (٤/٣٦٦).
(٢) رواه البخاري برقم (٣٧٦٧).
(٣) أخرجه الترمذي برقم (٣٨٦٨).
(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (١/٢٩٣) والحاكم في المستدرك (٢/٤٩٤) وانظر: مجمع الزوائد (٩/٢٢٣).

مريم بنت عمران، وخديجة بنت خُويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»[1].

هذا وقد حازتْ فاطمةُ الزَّهراء، قصب السَّبْقِ في الكمال الذي لم تُحقّقه إلا بضع نساء في دنيا النِّساءِ، بينما كَمَلَ منَ الرِّجال كثير، وقد شهدَ الحبيبُ المصطفى ﷺ لها بذلك فقال: «كمل من الرّجال كثير، ولم يكمل من النِّساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد، وفضل عائشة على النِّساء كفضل الثَّريد على الطَّعام»[2].

ومنَ الفضائل الحِسَان التي اختصَّتْ بها فاطمةُ الزَّهراء دون أحدٍ من نساء أهل البيت، ما أورده صاحب «الاستيعاب» حيثُ يقول: كان رسولُ الله ﷺ إذا قَدِمَ منْ غزوٍ أو سَفَر، بدأ بالمسجدِ فصلّى فيهِ ركعتين، ثمّ يأتي فاطمة، ثم يأتي أزواجه»[3].

ومنْ فضائلِ فاطمة الزَّهراء وكرامتها، أنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه لم يتزوَّجْ عليها حتى ماتت، وتنفردُ الزَّهراء كأمّها خديجة بهذهِ الخصوصيّة الكريمة.

ولو رحنا نتتبّع فضائل فاطمة الزَّهراء التي هي منبع فضائل نساء أهل البيت النّبوي، لَمَا وسعنا المقام لذكرها، ولكنّا اكتفينا بما أوردناه من غُررِ مآثرها وفضائلها التي عطّرتِ الأفواه والأسماع، وبُوركت فيها الأوقات والسَّاعات، وانتفعتْ بسيرتها وفضائلها نساء الدُّنيا ورجالها.

ونرجو الله عزَّ وجلَّ أنْ تكونَ سيرتها قدوة لنا ولأهلنا، كيما نفوزَ معَ مَنْ فاز

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٣٥/٣) والترمذي في المناقب برقم (٣٨٧٨) وابن حبان في الموارد (٢٢٢) وانظر الاستيعاب (٣٦٥/٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء برقم (٣٤١١) باب قول الله تعالى: **﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك﴾**.
أخرجه مسلم في فضائل الصحابة برقم (٢٤٣١) باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وانظر جامع الأصول (١٢٤/٩) وسير أعلام النبلاء (١٤٥/٢).

(٣) الاستيعاب (٣٦٤/٤).

بحبِّ أهل البيت النّبويّ الذين أذهب الله عنهم الرِّجس، وطهرهم تطهيراً.

الزَّهْرَاءُ وَنَصَائِحُهَا للمَرْأَةِ . . :

لا شكَّ أنَّ سيِّدةَ النِّساءِ وقدوتهنَّ سيِّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها أعرف النِّساء بشؤون النساء، وأعرف النّساء بما للمرأةِ وما عليها، وكيف لا، وقد نَشَأَتْ أكرمَ نشأة وأطهرها في أحضان سيّدة الطّاهرات، وأطهر السِّيدات أمنا خديجة رضوان الله عليها، ثم صُنِعَتْ على عينِ رسول الله ﷺ لتغدو درّة في عقْدٍ فريدٍ لنْ يتكررَ في هذه الحياة الدُّنيا.

ولهذا نجد أنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها حريصة كلَّ الحرصِ على تقديم النَّصيحةِ لبنات جنسها، ولبناتِ حوَّاء بشكلٍ عام، فهي مصدر كلّ فضيلة، ومَنْبَع الفوائد، ومنْ ينابيعِ مودّتها ترتوي كلّ امرأة تنشدُ الفضيلة أينما وُجدت، وتبحثُ عن الحقيقة أينما كانت.

والآن، لتكن حليتنا من «الحِلْيةِ» حيث نستمعُ إلى نصيحةِ فاطمة الزّهراء لكلِّ امرأة تؤمنُ بالله، وتؤمنُ برسولهِ، وتؤمنُ بالفضيلةِ أنّها خير تاجٍ تضعه المرأة على رأسها، بل خير ستر لصونها وعفافها.

أخرج أبو نُعيم - رحمه الله - في الحليةِ بسندٍ عن الحَسن عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما خيرٌ للنِّساءِ»؟ فلم نَدْرِ ما نقول، فسار عليٌّ إلى فاطمةَ فأخبرها بذلك.

فقالت: فهلاّ قلتَ له: خَيْرٌ لَهنَّ أن لا يرينَ الرِّجال ولا يرونهنَّ.

فرجعَ فأخبره بذلك.

فقال - ﷺ - له: «مَنْ عَلَّمكَ هذا»؟

قال - عليٌّ -: فاطمة.

قال - ﷺ -: «إنّها بَضْعَةٌ منّي»[1].

إنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها ترى أنَّ خير شيءٍ للمرأة ولعفافها أنْ تكون

---

(١) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٢/ ٤٠ و٤١).

بمعزلٍ عن الرِّجال، وعدمِ الاختلاط بهمَ، وقد أخذ الشَّيخ يُوسُف النّبهانيُّ - رحمه الله - هذا المعنى منَ السَّيِّدة فاطمة وصاغه شعراً فقال:

وخِلْطَةُ النِّساء بالرِّجالِ في شرعنا منْ أقبحِ الخصالِ
وَسَمَةُ الفسَّاق والجهّال ومِنْ أجلِّ موجبات الطّردِ

ولعلَّ الخير كلّه فيما ذكرته فاطمة الزّهراء رضي الله عنها من ابتعاد النّساء عنِ الرّجال، وقد كانت فاطمةُ الزّهراء تدركُ الأثَر الكبيرَ الذي يجرّه الاختلاط، لذلك كانتِ القدوةُ الحَسَنَةُ للنِّساء في هذا المجالِ، بل وفي كلّ مجال.

وهل أتاك حديث عليّ عن فاطمةَ رضي الله عنهما؟!

وصفَ سيدنا عليٌّ زوجه فاطمة الزّهراء بأنّها مجمع الفضيلة، وقدوة كلّ امرأة في بيتها، وفي طاعتها لله عزَّ وجلَّ، فقال يحدث أحد أصحابه ويُدعى ابن أَعْبد. قال عليّ: يا ابن أَعْبد، ألا أخبرك عنّي وعن فاطمة؟!

كانت ابنةُ رسولِ اللهﷺ وأكرم أهله عليه، وكانت زوجتي، فجرّت بالرّحاء حتى أثّر الرّحاءُ بيدها، واستقت بالقِربة حتى أثّرت القربة بنحرها، وقَمَّتِ البيتَ حتى اغبرّتْ ثيابُها ، وأوقدت تحت القِدر حتى دنست ثيابها، وأصابها من ذلك ضرّ[1].

وأعتقدُ أنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه إنّما تحدّث بذلكَ عن فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها كيما تنهج النساءنهجها علىمرِّ الزَّمان، وأعتقد أنَّ اللاتي ينهجنَ نهجها، قد يَفُزْنَ بمرضاةِ الله عزَّ وجلَّ - إنْ شَاءَ - وينضوين تحت نساء أهل البيت اللاتي كُنَّ القدوة الحسنة في كلّ حسنة.

الزَّهْرَاءُ وأَهْلُ البيتِ وَثَرْوَةٌ أَدبيّةٌ:

في رحلتي الميمونة المباركة مع سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها، لاحظتُ عظيمَ الأثرِ الذي تركته بصماتها المِعْطَار في سطورِ علماء الأدباء، وأدباء العلماء، كالشَّافعي، وأبي نُعيم الأصبهانيّ، وابن جابر الأندلسيّ، والذّهبيّ، وغيرهم كثير ممَن لا يُحْصَون.

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٤١).

وعندما وضعتُ نصْبَ عيني الحديث عن فاطمةَ الزَّهراء، وجدتُ أمامي ثروة عظيمة منْ تُراثِ الفكر، ومن نفحاتِ ورشَحاتِ الأقلام التي جَادَتْ بها قرائحُ أعلياء العُلماء، وأكابر السَّادات، وسادات الأكابر، في كلّ فنٍّ من فنونِ المعرفة، ولو جمعت تلكم الآثار الحِسَان لتحصل عندنا مجلدات كبيرة، قد لا نستطيع حصرها ضمن مئات الصَّفحات.

سنعيشُ لحظاتٍ في ظلال تلك النَّفحات النَّدية التي سمحتْ بها القرائحُ في مختلفِ العصور من علماءَ وأدباء وشعراء، استلهموا فنَّ معارفَهم منْ فاطمةَ الزَّهراءِ، ومنْ أهلِ البيت النَّبويّ الكريم، فجاءوا بسحرٍ حلال، يهمسُ بأعماقِ القلوب، فيأخذَ بمجامعها، ويروي ظمأَ النَّفوسِ التي تودُّ الاستزادة من شربِ رحيق سِيَر هؤلاء الأَطهَار، ومَنْ منّا لا يرتوي من معينِ سيرتهم؟!

افتتحَ الحافظُ أبو نُعيم الأصبهانيّ ـ رحمه الله ـ ترجمته لفاطمةَ الزَّهراء بنت رسول اللهﷺ بقولِهِ اللطيف: ومنْ ناسكاتِ الأَصْفِياء، وصفيَّات الأَتْقياءِ، فاطمة رضي الله تعالى عنها، السَّيّدة البتول، البَضْعَة الشَّبيهة بالرَّسول، أَلْوَطُ ـ ألصق ـ أولاده بقلبِهِ لصوقاً، وأوّلهم بعد وفاته به لحوقا، كانتْ عنِ الدُّنيا ومتعتها عازفة، وبغوامضِ عيوب الدّنيا وآفاتها عارفة[1].

ونَقَلَ القسطلاني ـ رحمه الله ـ ما يخصُّ فاطمة الزَّهراء منْ أشياءَ لطيفةٍ تُضاف إلى الرَّصيدِ الأدبيّ، فقد ذكر أنّها سُمّيتْ فاطمة، لأنَّ الله قد فَطَمها وذريّتها عنِ النَّارِ يوم القيامة، وقال أيضاً: لانقطاعها عنِ الدّنيا إلى الله[2].

ولم يكنْ لرسولِ اللهﷺ عقِبٌ إلا منِ ابنتهِ فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها، فانتشر نَسْلُه الشَّريف منها من جهة السِّبطين الحسن والحُسين فقط.

ويُقال للمنسوبِ لأوّلهما: حَسَنيّ.

ولثانيهما: حُسَينيّ[3].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/٣٩).

(٢) المواهب اللدنية (٢/٦٤).

(٣) المواهب اللدنية (٢/٦٦).

هذا وقد أُغرِمَ فقهاء المسلمين في التَّسابقِ المحمودِ إلى إبرازِ فضائل فاطمة الزَّهراء، وأهل البيت النَّبويّ؛ ذكر الإمام فخر الدِّين الرّازي، أنَّ أهلَ بيتهِ ﷺ ساووه في خمسةِ أشياء:

في الصَّلاة عليه وعليهم في التّشهد، وفي السَّلام والطّهارة، وفي تحريم الصَّدقة، وفي المحبَّةِ.

وقد نصَّ الإمامُ الشَّافعي ـ رحمه الله ـ على هذا فأنشد:

يا آل بَيتِ رسول الله حُبّكم ... فرضٌ منَ الله في القُرآن أنزله
يكفيكم منْ عظيمِ الفخر أنّكم ... مَنْ لم يُصَلِّ عليكم لا صلاة له

وقد أُغرِمَ الحسنُ بنُ جُبير ـ رحمه الله ـ في نظم القصائد الكثيرة، بامتداحِ أهل البيت النّبويّ الطّاهر، وذكر بأنّهم هم: رسول الله ﷺ، وفاطمة الزَّهراء، وعليّ، والحَسَنُ والحُسين رضي الله عنهم، ولكنَّه لا ينسى أنْ يثنيَ على بقيّةِ الصَّحابةِ الكرامِ، فيقول:

أحبُّ النَّبيَّ المصطفى وابن عمّه ... عليّاً وسبطيه وفاطمة الزَّهرا
هموا أهل بيتٍ أذهب الرّجس عنهمُ ... وأطلعهم أفْقَ الهدى أنْجُما زهرا
موالاتهم فرضٌ على كلِّ مسلم ... وحبهموا أسنى الذَّخائر للأخرى
وما أنا للصَّحْبِ الكرام بمُبْغِضٍ ... فإنّي أرى البغضاء في حقِّهم كُفْرا
هموا جاهدوا في الله حقَّ جهادِهِ ... هم نصروا دِيْن الهدى بالظُّبا نَصْرا
عليهم سلامُ الله ما دام ذِكْرهم ... لدى الملأ الأعلى وأكرِمْ به ذِكْرا

ومنَ المحاسنِ الحِسَان التي صاغها الشُّعراء، هذه القلادة الشّعرية الجميلة، التي تنضحُ بعبيرِ الحبِّ والودِّ لأهلِ البيت عموماً، فقال بعضُ شعراء العصر الخالي:

همُ القومُ مَنْ أصفاهم الودّ مخلصاً
تمسَّك في أخراهُ بالسَّبب الأقوى
همُ القومُ فاقوا العالَمين مَنَاقباً
محاسنهم تجلى وآثارهم تروى

موالاتهم فرضٌ وحبهمو هدى
وطاعتهم ودٌّ وودهمو تقوى

ومنْ فقهاءِ العُلماء، وشعراء الفقهاء الإمام الشّافعي ـ رحمه الله ـ الذي شاركَ في شعرِه الموزون بامتداحِ الحضرة النّبوية، وخصَّ آل البيت النّبويِّ الطّاهر، بغررٍ منْ لوامعِ أنوارِ كلامه، فقال فيهم:

آل النّبيّ ذريعتي وهمو إليه وسيلتي
أرجو بهم أُعطى غداً بيدي اليمين صحيفتي

ويبدو أنَّ الشّيخ محيي الدِّين بن العربي ـ رحمه الله ـ قد افتتحَ أَحَدَ فصولِهِ في «الفُتوحات» بامتداحِ أهل البيت الأسياد الأَطهار فقال:

فلا تَعْدلْ بأهلِ البيت خَلْقاً فأهلُ البيت هم أهل السِّياده
فبغضهمُ منَ الإنسانِ خُسْرٌ حقيقيٌّ وحبُّهم عباده

وممّا تلذُّ له الأسماع، ما أنشده أبو الفضل الواعظ ـ رحمه الله ـ في ذكْرِ أهلِ البيت قال:

حبُّ آلِ النّبيّ خالطَ عظمي وجرى في مفاصلي فاعذروني
أنا والله مغرمٌ بهواهم عللوني بذكرهم عللوني

وتظلُّ فاطمةُ الزَّهراء رضوان الله عليها تحظى بأرفعِ المكانة في نفوس النّاس على اختلاف مشاربهم، فكان الشُّعراء ينسبون أولادها إليها، وبعضهم يُنادي رسول الله ﷺ بأبي الزّهراء، ولعلّنا نتذكر قول الفِرزدق يمتدحُ زين العابدين عليّ بن الحسين؛ حيث يقول قصيدته الشّهيرة التي مطلعها:

هذا الذي تعرفُ البطحاء وطأته والبيتُ يعرفه والحلُّ والحرم

ومنِ أبياتِ هذه القصيدة الرّائعة قوله ينسبُ زين العابدين إلى جدته فاطمة الزّهراء، فيقول:

هذا ابنُ فاطمة إن كنتَ جاهله
بجدِّهِ أنبياء الله قد خُتِموا

وفي العصرِ الحالي نجد الشّاعر أحمد شوقي يمتدحُ رسولَ الله ﷺ، ويناديه بأبي الزَّهراء، فيقول:

أبا الزَّهراءِ قد جاوزتُ قَدْري   بمدحك بَيْدَ أنَّ لي انتسابا

ولعلَّ العلماء والأدباء لم يتركوا باباً فيه امتداحٌ لأهلِ البيتِ إلا وطرقوه، ولم يجدوا معنىً طريفاً إلا وذكروه، فهذا بعضُ الأدباء الشُّعراء يلجأُ إلى الاقتباسِ من آي الذِّكْرِ الحكيم مع ما يتوافق مع هواه في امتداحِ آل النّبي الكرام، فيقول:

مديحُ آلِ النّبيّ عندي   «خَيْرٌ منَ اللهو ومِنَ التِّجارة»[1]

أنجو بهم منْ عذابِ نارٍ   «وَقُودُها النَّاس والحجارة»[2]

وبابُ الأدبِ هذا باب واسعٌ جداً، ليس له حدود، ولا تزال أُكُله تؤتى كلّ حين إلى ما شاء الله.

الزَّهْرَاءُ وَوَفَاةُ الرَّسُولِ:

كانت فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها تجدُ كلّ أُنْسٍ، وكلَّ نعيمٍ إلى جانبِ أبيها رسولِ الله ﷺ، فقد استلهمت كلَّ فضيلة منْ حياةِ أبيها الذي كان يغمرها بحبِّهِ، ويشملها برعايته وعطفهِ.

ويبدو أنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها كانت قريرة العين بأنْ وهبَها الله عزَّ وجلَّ الذُّريّة الطَّيِّبة منَ البنينَ والبناتِ، وقد لقيَ هؤلاء كلَّ حبٍّ ورعايةٍ من الحبيبِ الأعظم ﷺ، ومنَ الصَّحابةِ الكرام رضي الله عنهم.

وبدأتْ رحلةُ الخلودِ، فقد أحسَّتْ فاطمةُ الزَّهراء بفراقِ رسولِ الله ﷺ، روي هذا عنِ ابن عبّاس رضي الله عنهما قال:

لما نزلتْ ﴿إذا جاءَ نَصْرُ الله والفتح﴾ [النَّصر: ١] دعا النّبيّ ﷺ فاطمةَ، فقال لها:

---

(١) لاحظ الاقتباس من سورة الجمعة للآية (١١).

(٢) لاحظ الاقتباس من سورة التحريم للآية (٦).

«نُعِيَتْ إليَّ نفسي» فبكتْ، فقال: «لا تبكينَ فإنَّكِ أوَّلُ أهلي لاحقاً بي» فضحكت[1].

واشتدّ المرضُ برسولِ الله ﷺ، وكانت أزواجه الطّاهرات يجتمعنَ عنده في بيت أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنهن جميعاً، وكانت فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها تأتي لزيارتهِ دائماً وتفقُّدِ أحواله الشَّريفة، فإذا بوجههِ الشَّريف يشرقُ بابتسامةٍ رقيقة رفيقة، ويخفقُ قلبه الشَّريف ابتهاجاً وبهجة بالزَّهراء، فالزَّهراء تذكِّرهُ بخديجةَ، وزينب، وأمّ كلثوم، ورقيّة، بأولئك الأحبّة الذينَ رحلُوا، وتركوا في القلب الآثار الحِسَان.

ويبدو أنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها كانت تصحبُ أولادها معها لزيارة جدهم ﷺ، وكان ﷺ يرنو إلى حفيدتيه زينب وأمّ كلثوم ابنتي فاطمة الزَّهراء التي حَمَلَتْ كلّ واحدةٍ منهما اسم خالتها الرّاحلة زينب زوج أبي العاص بن الرَّبيع، وأمّ كلثوم زوج عثمان بن عفّان، وكان رسولُ الله ﷺ يفيضُ بحنانِهِ وعطفهِ على هاتين الطِّفلتين الكريمتين؛ وكانتِ ابتسامتُه التي ترتسم على شفتيهِ كلّما وقعتْ عيناه على زينبُ وأمّ كلثوم الصَّغيرتين تفجّران الحنان في قلبهِ الشَّريف.

كانت فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها تنظرُ إلى ذلكَ المشهد الرَّقيق في سرورٍ، وتكادُ الدُّموع أنْ تبللَ عينيها منَ الفرح، نعم، فقد كانت فاطمةُ الزَّهراء بَضْعَة منْ أبيها، وكان كلُّ واحدٍ منهما مُتَعَلِّقٌ قلبه بالآخر، بل كان النَّبيُّ ﷺ إذا قَدِمَ من سَفَرٍ، يصلّي ركعتين لله، ثمّ يبدأُ بزيارتها قبل أنْ يعودَ إلى داره.

وظلتْ فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها تقومُ بزيارةِ أبيها في مرضه، وذات يوم خفَّتْ لزيارتهِ والسّؤال عنه، فإذا به يدنيها منه، ويسرُّ إليها بحديثٍ فتبكي ثمّ تضحك، وتستغربُ أمّ المؤمنين عائشة لذلك؛ فلنتركِ الحديثَ الآن لأمِّنا عائشة كيما تخبرنا عن هذه الواقعة.

أخرجَ الحافظُ أبو يعلى ـ رحمه الله ـ بسنده عن الشَّعبيِّ عن مسروق ـ رحمهما

---

(١) المسند (١/٢١٧) وانظر: مجمع الزوائد (٧/١٤٤).

الله ـ عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت:
أقبلتْ فاطمةُ تمشي كأنَّ مشيتها مشية رسول الله ﷺ، فقال: «مرحباً بابنتي» وأجلسها عن يمينه ـ أو عن يساره ـ وأسرَّ إليها حديثاً فبكتْ، ثمَّ أسرَّ إليها حديثاً فضحكت.
فقلتُ: ما رأيتُ كاليوم حُزْناً أقربَ من فَرَحٍ! أي شيء أسرَّ إليك رسولُ الله ﷺ؟
قالت: ما كنتْ لأفشي سِرَّ رسول الله ﷺ.
فلمّا قُبِضَ سألتها، فقالت: قال:
«إنَّ جبريل كان يأتيني فيعارضني القرآن مرّة! وإنَّه أتاني العام فعارضني به مرتين، ولا أرى أجلي إلا قد حَضرَ، ونِعْمَ السَّلَفُ أنا لك، وإنّك أوّل أهل بيتي لُحوقاً بي».
فبكيتُ لذلك، فقال:
«أمَا ترضين أنْ تكوني سيِّدة نساء المؤمنين ـ أو نساء هذه الأمّة ـ» قالت: فضحكتُ[1].

وفي شهر ربيع الأوّل منَ السَّنَةِ الحادية عشرة للهجرة، اشتدَّ الوجعُ برسولِ الله ﷺ، وأخذَ في الموت، فصار يُغمى عليه، ثمّ يفيق، وكان عنده ـ وقد اشتدَّ به الأمر ـ قَدَحٌ فيه ماءٍ، فصار يُدْخِل يده الشَّريفة في القدحِ، ثمَّ يمسحُ وجهه بالماء ويقول: «اللهم أعنِّي على سكرات الموت».

ورنتْ فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها إلى أبيها ﷺ، فرأته يتألَّم أشدَّ الألَم، فأحسَّتْ ناراً تضرمُ في داخلها، فراحتْ تقول: واكربَ أبتاه. ولكنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ راحَ يقول في صوتٍ لطيفٍ خافتٍ لابنته فاطمةَ الزَّهراء: «ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم».

ووجدتْ عائشةُ رضي الله عنها رسول الله ﷺ يثقلُ في حجرها، فذهبتْ

---

(١) مسند أبي يعلى الموصلي (١٢/١١١ و١١٢) حديث رقم (٦٧٤٥). وللحديث أصل عند الإمام أحمد (٦/٢٨٢) والبخاري في المناقب (٣٦٢٣ و٣٦٢٤) والبيهقي في الدلائل (٦/٣٦٤) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٠) وابن ماجه في الجنائز (١٦٢١).

تنظرُ في وجههِ الشَّريف، فإذا بصره قد شَخَصَ وهو يقول: «اللهم الرّفيق الأعلى من الجنَّةِ».

فقالت عائشة: خُيِّرتَ فاخترتَ، والذي بعثك بالحقِّ.

وقُبِضَ رسول اللهﷺ يوم الاثنين بين سَحْر عائشة ونحرها، وارتفعَ صوتُ فاطمة الزّهراء تبكي أباها رسول اللهﷺ، وقالت في صوتٍ حزينٍ وَالهٍ: يا أبتاه! أجاب ربّاً دعاه! يا أبتاه مَنْ جنّة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه[1].

ونَزَلَ بقلوبِ النَّاس حزنٌ ثقيلٌ، وخَيَّم الأسى على مدينةِ رسولِ اللهﷺ، بينما راحَ سيّدنا عليّ بنُ أبي طالب، وأسامةُ بنُ زيد، والعبّاس بن عبد المطلب، وولداه الفَضْل وقُثَم يشتغلون بجهازِ رسولِ اللهﷺ، وتولى عليّ غسله.

وبعد ذلك تهيّأ المسلمونَ لدفنهِﷺ والصَّلاة عليه، أمّا كيفَ كانت عمليّة دَفْنِهِ والصَّلاة عليه، فذلك ممّا يرويه سيّدنا عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما حيثُ يقول:

لما أرادوا أنْ يحفروا لرسولِ اللهﷺ، وكان أبو عُبيدة بن الجرّاح يَضْرَحُ ـ يَحْفِرُ ـ لأهل مكةَ، وكان أبو طلحة زيد بن سهل ـ الأنصاريّ ـ هو الذي كان يحفرُ لأهلِ المدينة، وكان يلحدُ، فدعا العبّاس رجلين، فقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عُبيدةَ.

وللآخر: اذهب إلى أبي طلحةَ.

ثمّ قال: اللهم خِرْ لرسولكَ.

فوجد صاحبُ أبي طلحة أبا طلحة، فجاء به، فَلَحَدَ لرسولِ اللهﷺ، فلمّا فُرِغَ من جهاز رسول اللهﷺ يوم الثّلاثاء، وُضِعَ على سريره، وقد كان المسلمون اختلفوا في دفْنِهِ، فقال قائلٌ: ندفنُه في مسجده.

وقال قائلٌ: بل يُدْفَنُ مع أصحابه.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٤٦٢) في المغازي، باب: آخر ما تكلم به النبيﷺ.

فقال أبو بكر: إنّي سمعتُ رسولَ اللهﷺ يقول: «ما قُبِضَ نبيٌّ إلا دُفِنَ حيثُ قُبِضَ».

فَرُفِعَ فراشُ رسولِ اللهﷺ الذي توفى فيه، فَحُفِرَ له تحته، ثم دُعِي الناس أرسالاً؛ الرِّجال، حتى إذا فُرِغَ منهم، أدْخِل النِّساء، حتى إذا فُرغ من النّساء، أدخل الصِّبيان، ولم يؤمّ النّاس على رسولِ اللهﷺ أحدٌ، فَدُفِنَ رسول اللهﷺ منْ أوسطِ الليل ليلة الأربعاء[1].

وكانت فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها، وأهل بيت النَّبيِّﷺ يبكونَ تلك الليلة، لم يناموا، وسمعوا صوتَ المساحي وهم يدفنون رسولَﷺ، وبكتْ فاطمةُ الزَّهراء فرقاً على أبيها، وقالت لأنسِ بنِ مالك:

يا أنس كيف طابت أنفسكم أنْ تحثوا التُّراب على رسول اللهﷺ[2].؟! تقول ذلك من شدّةِ حزنها على رسول اللهﷺ.

الزَّهْرَاءُ وَرِثَاءُ رَسُوْلِ اللهِ:

لا شكَّ أنَّ وفاةَ رسولِ اللهﷺ تركَ أثراً كبيراً في دنيا المعرفة والمعارف، وخاصّة فنّ الرِّثاء الذي اشتهر به العربُ في بثِّ أحزانهم.

وهناك شعرٌ إسلامي ـ غزيرٌ ـ دوَّنَتْه كُتُب السِّيرة. وكتب الطَّبقات والتّأريخ والأدب وتاريخه، لشُعراء وشاعراتٍ من أصحاب[3] رسولِ اللهﷺ، ومنْ أهل بيته الأطهار، وكلّه قد قيل في رثاءِ الحبيبِ المصطفىﷺ، ولكنّي أحببتُ أنْ أنوّهَ ـ في هذه الفِقْرةِ ـ إلى أشياءَ كثيرةٍ في هذا الموضوع من خلال دراستي لفنّ الرثاء في

---

(١) مسند أبي يعلى (١/ ٣١ و٣٢) حديث رقم (٢٢) وللحديث أصل في مسند الإمام أحمد، وأخرجه ابن ماجه في الجنائز برقم (١٦٢٨).

(٢) صحيح البخاري، باب: مرض رسول اللهﷺ ووفاته.

(٣) أفرد ابنُ سيّد النّاس ـ رحمه الله ـ مصنفاً كبيراً في شعراء وشاعرات الصّحابة ممن مَدَحَ أو رثى رسول اللهﷺ، وهذا المصنّف عنوانه «مِنَحُ المِدَح» أو شعراء الصّحابة، وقد استوفى واستعرض فيه أسماء الصّحابة والصّحابيات الذين أُثر عنهم النّفحة الشّعرية. وقد طُبع الكتاب بدار الفكر بدمشق.

العصر النّبويّ. وأحببتُ أنْ تُوضعَ النِّقاطُ على الحروفَ في مواضعها السَّليمة كيما نكون على بصيرةٍ منَ الأمر، وكيما نعرف مقام سيّدتنا فاطمة الزّهراء معرفةً تتوافقُ ومقامها الكريم في عِقْد آل البيت الفُصَحاء البلغاء.

ولا ريب في أنَّ كثيراً منَ الأبياتِ والمقاطع الشّعرية التي وصلتنا عن سيّدتنا فاطمة الزّهراء وغيرها، يحومُ مِنْ حولها الشَّك، ولعلّ السَّبب في ذلك الأحداث التَّاريخية، والملابسات الأخرى، كلّ ذلك أتاح للخرافةِ ـ وأحياناً العاطفة ـ أنْ تنسجَ خيوطها حول أولئك الطَّاهرات منْ آلِ البيت الطَّاهر الكريم، فحيكتْ بذلكَ أساطير شتى، وطفق بعضُ المحبّين ـ بحُسْنِ نيّة ـ ينسبون لفاطمةَ الزَّهراء ولعليّ ولحمزةَ ولأبي بكر الصِّدِّيق وغيرهم أشعاراً وأقوالاً لا تتّفِقُ مع فصاحتهم وبلاغتهم.

إذن لتكن رحلتنا علميّة، وزادنا في ذلك حبَّ المعرفةِ ليس غير، لنحظى بمرضاةِ الله عزَّ وجلَّ، وليكون عملنا خالصاً لوجههِ الكريم، ولكي نؤديَ واجبنا نحو سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها التي أكرمنا الله عزَّ وجلَّ بسيرتها وأنعم علينا بالحديثِ عنها، كيما تطيبَ نفوسنا، وتطمئنَ قلوبنا، وتهفو أرواحنا نحو البيتِ الطَّاهر، وأهل البيت الأخيَار الذين أذْهَبَ الله عنهم الرِّجس، وطهّرهم تطهيراً.

قال الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: وممّا يُنْسبُ إلى فاطمةَ ولا يَصِحُّ:

ماذا على مَنْ شمَّ تربة أحمدٍ ... ألّا يشم مدى الزَّمان غواليا
صُبَّتْ عليَّ مَصَائبُ لو أنَّها ... صُبَّتْ على الأيامِ عُدْنَ لياليا

فالإمام الذَّهبيُّ ـ رحمة الله ـ ببصيرته العِلْمية يرى أنَّ هذه الأبيات لاتصحُّ نسبتها إلى فاطمةَ الزّهراء، ومثله رأى ابنْ سعد ـ منْ قبلُ ـ الرّؤيا نفسها في كتابه «الطَّبقات الكبرى».

وإنّني منْ خلالِ حياتي مع سيرة فاطمة الزّهراء في مكةَ، ثمّ في المدينةِ، والنَّظر نظرة فاحصةً في فصاحتها وبلاغتها، وجدتُ أنّه لمْ يُؤثر عنها أنّها نطقتْ بالشِّعرِ، ولم يُؤثَر أنّها كانت تروي شيئاً منَ الشِّعر، بل لم يُعْرَفْ عنها أنَّه كان لها

مَيْلً إلى شيءٍ منْ هذا، وإنّما كانت مناجاتها مع الله عزَّ وجلَّ، وكانت موصولةَ القلبِ بهِ، لا تكاد تَفْتُر عن الذّكْرِ والتّسبيحِ والتّكبير بحسبِ ما أوصاها رسولُ الله ﷺ عندما طلبتْ منه خادماً ـ كما مرّ معنا ـ.

ففاطمةُ الزّهراء رضوان الله عليها التي نشأتْ في البيتِ النّبويّ، ونهلتْ من معينِ القُرآنِ الكريم، ومنْ أساليبِ الفَصَاحة النّبوية، وعَرَفَتْ بلاغة زوجها عليّ بن أبي طالب ﷺ أرفع مستوىً منْ هذا الشّعر المصنوع الذي نُسِبَ إليها، لأنها تأدبتْ بأدبِ النّبوّةِ العظيم، وكانت ترى أباها ﷺ، في هذهِ المواقف لا يقولُ ما يغضب الرَّبَ عزَّ وجلَّ، وإنّما كان يُسْلِمُ أمْرهُ إلى الله العليَ الكبيرِ المتعالِ، ولا شكَّ بأنّها كانت تنهجُ النَّهج نَفْسَه في هذا المضمار، والذي وَرَدَ في الصَّحيح يُغْني عن هذه الرّوايات.

وممّا يُنْسَبُ إلى سيّدتنا فاطمة الزَّهراء بضعة أبياتٍ في رثاء رسولِ الله ﷺ، كانت تقولها وهي قائمةٌ على قَبْرِه؛ منها:

إنَّــا فَقَـدْنَــاكَ فَقْـد الأرضِ وَابلهــا
وغابَ مُذْ غِبْتَ عنّا الوحيّ والكُتُبُ

والذي ظَهَر أنَّ هذه الأبيات لإحدى شَاعرات الصَّحابة، وهي هند بنت أثاثة القرشيّةِ المطلبيّة التي رثتِ النّبيّ ﷺ ببضعةِ قصائدَ أوردها ابنُ سعد في طبقاته[1]، ممّا جعل بعض النّاس ينسبها إلى فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها.

ويبدو أنَّ هندَ بنتَ أثاثة هذه، قد خاطبتْ فاطمةَ الزَّهراء في رثاءِ أبيها، وتأثّرت هند لحزنِ فاطمةَ الشَّديد، فقالت تدعوها للصّبر الجميل:

أَشَــابَ ذؤابــتي وأذلَّ ركْــني بكــاؤك فَــاطمَ الْمَيْتَ الـفقيــدا
أفــاطم فــاصبري فلقــد أصابتْ رزيئتــك التّهــائم والـنُّجـودا[2]

وتقول هند بنتُ أثاثة في قصيدة أخرى:

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٢/٣٣١ و٣٣٢).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/٣٣١).

ألا يا عينُ بكّي لا تملّي فقد بَكَرَ النّعي بِمَنْ هويت
أفاطم إنّه قد هُدَّ ركني وقد عظمتْ مصيبةُ مَنْ رُزيت[1]

من خلالِ البحث في رثاء النَّبيِّ ﷺ، ألفيتُ أنَّ بعضَ الذين تركوا أشعاراً في الرّثاء منْ شعراءَ وشاعراتٍ، يوجّهون خطابهم وعزاءهم لفاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها؛ وأعتقدُ أنّ كثيراً منَ النَّاس - فيما بعد - قد نسجوا بعضَ الأشعار والمقطَّعَاتِ، ونسبوها إلى فاطمةَ الزَّهراء، وهي بريئةٌ منها براءة واضحة، لمن كانَ له قلبٌ أو ألقى السَّمْعَ وهو شهيد.

منْ تلكَ الأشعار، ما ذكره ابنُ سيِّد النَّاس - رحمه الله - بأنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها، قالت لمّا دُفِنَ رسولُ الله ﷺ:

اغبرّ آفاق السَّماء وكُوِّرَتْ شمسُ النَّهار وأَظْلَم العصران
الأرضُ مِنْ بعد النّبيّ كئيبةٌ أَسَفاً عليه كثيرة الرَّجفان[2]

أمّا الذين خاطبوا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها في رثائهم لرسولِ الله ﷺ، فلا يتسعُ المقام لذكرهم، ويُعتقد أنّهم أرادوا بذلك التّقرب لمرضاةِ فاطمةَ الزَّهراء من ناحيةٍ، ومن ناحية أخرى لأنَّها الوحيدةُ التي عاشت بعد الرَّسول ﷺ مِنْ أولاده.

ومنَ الشَّاعرات اللاتي رَثَيْنَ رسولَ الله ﷺ، وذكَرْنَ فاطمة الزَّهراء: أَرْوَى بنت عبد المطلب حيثُ قالت من قصيدة:

أَلا يا رسول الله كُنْتَ رَجاءَنا وكنتَ بِنَا برّاً ولم تَكُ جافيا
وكنتَ بنا رَؤُفاً رحيماً نبيّنا لِيَبْكِ عليك اليوم مَنْ كان باكيا
أفاطم صلى الله ربّ محمّد على جَدَثٍ أمسى بيثربَ ثاويا[3]

وقالت صفيّةُ بنتُ عبد المطلب رضي الله عنها من قصيدة:

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) منح المدح (ص٣٥٨) وأعتقد أنك قد لاحظت أثر التكلف في هذين البيتين.
(٣) طبقات ابن سعد (٢/٣٢٥).

أفاطمَ بكِّي ولا تسأمي بصبحِك ما طلعَ الكوكبُ
هو المرءُ يُبكى وحُقّ البكاء هو الماجد السّيد الطّيبُ
فبكّي الرَّسولَ وحُقَّتْ له شهود المدينة والغُيَّبُ

ونقل ابنُ عبد البرّ عن ابنِ إسحاق، أنَّ أبا سُفيان بن الحارثِ بن عبد المطلب، قد بكى النّبيَّ ﷺ ورثاه، وذكر فاطمة الزّهراء برثائه فقال:

أرقتُ فباتَ ليلي لا يزولُ وليلُ أخي المصيبة فيه طولُ
لقد عظمتْ مصيبتُنا وجلَّتْ عشية قيلَ قد قُبضَ الرّسولُ
أفاطمُ إنْ جزعتِ فذاك عذرٌ وإنْ لم تجزعي ذاك السَّبيلُ
فقبرُ أبيك سيّد كلّ قبر وفيه سيّد النّاس الرّسول[2]

ومثل هذه القصائد كثيرة في تراثنا، وقد لاحظنا منْ خلالها أنَّ معظمَ الشِّعر الذي قيل في رثاء النّبي ﷺ فيه خطابٌ لفاطمة الزَّهراء، ولم نجد أنَّ المصادر الوثيقة قد أتتْ بدليلٍ قاطع يقول: إنَّ فاطمة الزَّهراء قد رثت رسول الله ﷺ؛ وإنّما وجدنا أنَّ العلماء قد نفوا ذلك عن فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها.

الزَّهْرَاءُ وَأَبُو بَكْرٍ رَضيَ الله عَنْهُما:

قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنّا مَعْشَر الأنبياء لا نورثُ ما تركنا صَدَقة»[2].

أتت فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها ـ بعد وفاة النّبيّ ﷺ ـ أبا بكر الصِّدِّيق خليفة رسول الله، وقد تعلَّقَتْ آمالُها بميراثه، ولكنَّ أبا بكر الصِّدِّيق رضوان الله عليه حدَّثَها بأنْ تقلعَ عنِ التماسِ ميراثها، لأنَّه سمعَ منَ النَّبيِّ ﷺ بأنّه «لا نورث».

أخرجَ أصحاب الصَّحيح والسُّنَنِ وغيرهم عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ فاطمةَ بنتَ رسولِ الله ﷺ سألتْ أبا بكر بعد وفاةِ رسول الله ﷺ أنْ يقسمَ لها

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٨٤ و٨٥).
(٢) رواه الإمام أحمد (٣/ ٤٦٢).

ميراثها مِمّا ترك رسولُ اللهﷺ، مما أفاء[1] الله عليه منَ المدينة وفَدَك وما بقي من خُمْس ِ خيبر.

فقال لها أبو بكر: إنَّ رسولَ اللهﷺ قال:

«لا نُورَثُ ما تركناه صَدَقَةٌ»[2].

وفي روايةِ مسلم: «لا نورثُ ما تركناه صدقة، إنّما يأكلُ آل محمّد في هذا المال». وإنّي والله لا أغير شيئاً مِنْ صدقةِ رسول ِ اللهﷺ عن حالها التي كانت عليها، ولأعملَنَّ فيها بما عَمِلَ به رسولُ اللهﷺ.

وفكّرتْ فاطمةُ الزّهراء رضي الله عنها فيما قاله أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، فهي لم تسمعْ ذلك منْ أبيهاﷺ، وقد علمتْ أنَّ أزواجَ النّبيِّﷺ أَرَدْنَ أنْ يبعثْنَ عثمان بن عفّان إلى أبي بكر رضي الله عنهما ليسألْنَه ميراثهنَّ، فقالت عائشةُ: أليس قد قال رسولُ اللهﷺ:

«لا نُورثُ ما تركناهُ صَدقَةٌ».

إنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها لو كانت سمعتْ ذلك مِنْ أبيهاﷺ ما طالبتْ بميراثه، وظنَّتْ فاطمةُ الزَّهراء أنّها ترثُ النَّبيَّﷺ، فكان جواب الصِّدِّيق: لستُ بالذي أقسم منْ ذلكَ شيئاً، ولستُ تاركاً شيئاً، كان رسولُ اللهﷺ يعملُ به فيها إلا عملته، وإنّي أخشى إنْ تركتُ أمْرَه، أو شيئاً مِنْ أمرهِ أنْ أزيغَ.

---

(١) أفاءَ إفاءة: قال صاحب «التّهذيب» الفيءُ ما ردَّ الله تعالى على أهل ِ دِيْنِهِ منْ أموال ِ مَنْ خَالفَ دينه بلا قتال، إمّا أنْ يجلوا عن أوطانهم ويخلوها للمسلمين أو يصالحوا على جزيةٍ يؤدونها عن رؤوسهم، أو مال غير الجزية يفتدون به من سَفْك دمائهم، فهذا هو الفيء.

(٢) الحديث أخرجه البخاريّ في مواضعَ من صحيحه في المغازي برقم (٤٢٤٠) وفي فضائل الصحابة برقم (٣٧١١) وفي فرض الخمس برقم (٣٠٩٢). وأخرجه مسلم في الجهاد والسير برقم (١٧٥٩) باب: قول النبيﷺ: «لا نورث ما تركناه صدقة». وأخرجه أبو يعلى في مسنده (١/٤٥) حديث رقم (٤٣) وأخرجه النسائي في الجهاد، وأحمد في المسجد، وابن سعد في الطبقات (٢٧/٨) وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/١٢٠ و١٢١) وغيرها من المصادر.

ولمّا لَمْ يعْطِها أبو بكر الصِّدِّيق شيئاً مما طلبتْ، قامتْ فاطمةُ الزَّهراء رضوان الله عليها مغضبة، وحلَفَتْ لا نكلّم أبا بكر أبداً، ثمّ هجرته.

وساء أبو بكر الصِّدِّيق غَضَب[1] فاطمة الزَّهراء وهجرتها[2] إيَّاه، ثمَّ إنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها تشاغلت عنه وتلَّهتْ؛ ولكنَّ أبا بكر رضي الله عنه أَوْجَسَ خيفةً منْ غضبها، فانطلقَ إلى منزلها، واستأذنَ عليها ـ وكانت مريضة ـ فقال لها سيّدنا علي رضي الله عنه: يا فاطمة، هذا أبو بكر يستأذنُ عليك.

فقالت: أتحبُّ أنْ آذنَ له.

قال: نعم[3]. فأذنت لأبي بكر، فدخلَ عليها يترضَّاها، وقال: والله يا ابنة رسولِ الله، ما تركتُ الدَّار والمالَ والأهلَ والعشيرة، إلا ابتغاءَ مرضاةِ الله ورسوله،

---

(١) أخرج أبو يعلى ـ رحمه الله ـ بسنده عن أبي الطفيل قال:
أرسلت فاطمةُ إلى أبي بكر فقالت: مالك يا خليفة رسولِ اللهﷺ؟ أنتَ ورثتَ رسول الله، أمْ أهله؟
قال: لا بل أهله.
قالت: فما بال سَهْم رسولِ اللهﷺ؟
قال: إنّي سمعتُه يقول: «إنَّ الله إذا أطعم نبياً طُعمة، ثم قَبَضَه إليه، جعله للذي يقوم بعده» فرأيتُ ـ أنا بعده ـ أنْ أردَّه على المسلمين.
قالت: أنتَ وما سمعته منْ رسول الله. (مسند أبي يعلى ١/ ٤٠ حديث رقم ٣٧).

(٢) قال بعضُ الأئمة:
إنّما كانت هجرتُها انقباضاً عن لقائهِ، والاجتماع به، وليسَ ذلك منَ الهجران المحرَّمِ، لأنَّ شرطه أنْ يلتقيا، فيعرضُ هذا وهذا، وكأنَّ فاطمة عليها السَّلام لما خرجت غضبى من عند أبي بكر تمادت في اشتغالها بحزنها، ثمّ بمرضها.
وأمّا سبب غضبها مع احتجاجِ أبي بكر بالحديث المذكور، فلاعتقادها تأويل الحديث على خلاف ما تمسَّك به أبو بكر، وكأنَّها اعتقدت تخصيص العموم في قولهِ: «لا نورث» ورأت أنَّ منافع ما خلفه من أرض وعقار لا يمتنع أنْ تورث عنه.
وتمسّك أبو بكر بالعموم، واختلفا في أمْرٍ محتملٍ للتأويل، فلمّا صمّم على ذلك انقطعتْ عنِ الاجتماع به لذلك.

(٣) علّق الإمام الذّهبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ على هذا الموقف النّفيس بقوله: عَمِلتِ السُّنّة رضي الله عنها، فلمْ تأذن في بيتِ زوجها إلا بأمره. (سير أعلام النبلاء ٢/ ١٢١).

ومرضاتكم أهْلَ البيت.

ثمَّ إنَّ أبا بكرٍ ما زال يترضّاها حتى رضيتْ، وانصرفَ أبو بكر برضائها مَسْروراً[1].

ويبدو أنَّ سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها قد تذكَّرتْ أنَّها ذهبتْ مرَّة بالحَسَنِ والحُسين إلى رسولِ اللهﷺ وقالت له: يا رسول الله، هذان ابناك، فورّثْهُما شيئاً.

فقال: «أمَّا الحَسَنُ فإنَّ له هيبتي وسؤددي،

وأمَّا الحُسين فإنَّ له جرأتي وجودي».

فلو كان هناك ميراثٌ غير هذا لذكَرَ ذلك.

ولرُبَّ سائل يسأل: لِمَ نازعتِ الزَّهراء الصِّدِّيق في الميراث؟ فالجواب: إنَّ منازعة سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها لأبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه في ميراثِ النّبيّ الكريمﷺ ليس بمستغربٍ، وليس بمستنكر.

ففاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها لم تكنْ تَعْلَمُ بما قاله رسولُ اللهﷺ عنْ ميراثِ الأنبياء، وظنَّت أنَّها ترثه، كما يرثُ الأولاد آباءهم، وكما كان رسولُ اللهﷺ يقضي بالميراثِ بين النّاس، وقد شهدتْ ذلك الميراث أكثر من مرّة، وسمعتْ آيات الله تُتلى في هذا المجال.

ولكنَّ سيّدنا أبا بكر الصِّدِّيق رضوان الله عليه عندما أَبْلَغَها[2] قول رسول

---

(١) عن طبقات ابن سعد (٢٧/٨) وسير أعلام النبلاء (١٢١/٢) بتصرف يسير.

(٢) قال ابنُ قتيبة ـ رحمه الله ـ في كتابه القيّم اللطيف «تأويل مختلف الحديث» ما مفاده:

كيف يسوغُ لأحد أنْ يظنَّ بأبي بكر رضي الله عنه أنَّه مَنَعَ فاطمة حقّها من ميراثِ أبيها، وهو يعطي الأحمر والأسود حقوقهم؟ وما مقصوده في دفعها عنه، وهولمْ يأخذْلنفسه، ولا لولده، ولا لأحدٍ من عشيرته؟ وإنَّما أجراه مجرى الصَّدقة، وكان دَفْعُ الحقّ إلى أهله أولى به؟! وكيف يركب مثل هذا ويستحله منْ فاطمةَ رضي الله عنها، وهو يردّ إلى المسلمين ما بقي في يديه منْ أموالهم مُذْ وَلِيَ؟ وإنَّما أخذه على جهةِ الأجرة، فجعل قيامه لهم صدقة عليهم؟

وقال لعائشة رضي الله عنها: انظري يا بُنية، فما زاد في مالِ أبي بكر مذ وَلِيَ هذا =

اللهﷺ، بشأنِ ميراثِ الأنبياء، كفّتْ وتركت هذا الطَّلب أدباً مَعَ الله ورسوله، وعَمِلتْ بالذي قاله أبوهاﷺ، فكانت منْ أشدِّ النَّاس طاعة له حَيّاً وميتاً، وهذا منْ وفورِ عقلها وتمامِ دينْها، وقد عُرفتْ بحكمةِ البلغاءِ، وبلاغة الحكماءِ، وكيف لا، وهي ابنةُ سيّد الأنبياء، وخاتم المرسلين؟! إنَّ هذا وذلك كلّه مِنْ تمامِ إكرام الله عزَّ وجلَّ لفاطمةَ الزَّهراء، ومن تمام التَّوفيق لها. ـ والله أعلم ـ.

ويبدو لي أنَّ سيّدتنا فاطمة الزَّهراء ـ عليها سحائب الرضوان ـ بالإضافةِ إلى سيادتها نساء العالمين، فهي كذلك سيّدة الزَّاهدات في دنيا الزُّهد، فالرَّسولُﷺ إمام المتّقين، وإمام الزّاهدين، فلا عَجَبَ أنْ تنهجَ فاطمة الزَّهراء نَهْجَه في نظرتها إلى الدُّنيا كيما تأخذ حاجتها منها لما يبلغها إلى الدَّار الآخرة، إذ الآخرةُ خيرٌ وأبقى.

الزَّهْرَاءُ ورِوَايةُ الحَديْث النَّبويّ:

سيّدتنا فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها، واحدة منْ نِساء أهل البيتِ اللواتي حَفِظْنَ حديثَ رسول الله وروينه ونقله إلى أئمّةِ الحفّاظ، والعلماء والفقهاء؛ فقد كانت فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها حافظة واعية، وهي الوحيدةُ من بناتِ النّبي الطّاهرات، اللاتي رَوَيْنَ الحديثَ الشَّريف.

قال الإمامُ أبو الفرج ابن الجوزيّ ـ رحمه الله ـ: ولا نعلمُ أحداً منْ بناتِ رسول اللهﷺ أسْنَدَ عنه غير فاطمة رضي الله عنها.

روتْ سيّدتنا فاطمةُ الزَّهراء عن أبيها رسولِ اللهﷺ؛ وروى عنها الحديث منَ الرِّجال: ابناها؛ الحَسن والحُسين رضي الله عنهما، وأبوهما عليّ بن أبي طالب

= الأمر، فردّيهِ على المسلمين، فوالله ما نِلْنَا من أموالهم إلا ما أكلنا في بطوننا من جريش ـ خشنِ ـ طعامهم، ولبسنا على ظهورها من خشن ثيابهم. فنظرت، فإذا بأشياء لا تساوي خمسة دراهم وناقة سوداء؟ فلمّا جيءَ بذلك إلى عمرَ رضي الله عنه قال: رحم الله أبا بكر، لقد كلَّف مَنْ بعده تعباً.

ولو كان ما فعله أبو بكر من هذا الأمْر ظلماً لفاطمة الزَّهراء رضي الله عنها، لردَّه علي رضي الله عنه حين وَليَ الأمْرِ على ولدها. (تأويل مختلف الحديث ص٣٦٥ و٣٦٦).

رضي الله عنه، وكذلك أنس بن مالك رضي الله عنه.

وروى عنها الحديث النّبوي الشّريف عددٌ من النِّساء:

فمن أمّهات المؤمنين: عائشة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق وأمّ سَلَمة رضي الله عنهما.

ومن الصَّحابيّات: سلمى أمُّ رافع مولاة رسول اللهﷺ.

ومنَ التَّابعيات: حفيدتها فاطمة بنت الحُسين بن عليّ، وقد روتْ عنها الحديث مرسلاً. ورواية فاطمة الزّهراء في الكُتُب السِّتة[1].

روت فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها ثمانية عَشَر حديثاً[2]، توزّعت في كُتُبِ الصَّحيح والسُّنَن والمسانيد؛ منها حديثٌ واحدٌ، اتّفق عليه الشَّيخان البخاري ومسلم[3].

ومنْ مروياتها التي وردت في الصَّحيح والسُّنن، ما روته أنَّ رسول اللهﷺ حدَّثها: «أنَّ جبريلَ كان يعارضه بالقرآنِ كلَّ سَنَةٍ مرة، وإنَّه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتّقي الله واصبري، فإنّي نِعْم السَّلف أنَا لك» قالت: فبكيتُ، فلمّا رأى جزعي قال: «يا فاطمة ألا ترْضَين أنْ تكوني سيّدة نساء المؤمنين، أو سيّدة نساء هذه الأمّة»[4]؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/١١٩) وتهذيب التهذيب (١٢/٤٢٥ و٤٤٠ و٤٤١) والاستيعاب (٤/٣٢٢) وتلقيح فهوم الأثر (ص٣٦٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/١٣٤).

(٣) انظر: صحيح البخاري في المغازي، باب مرض النبيﷺ برقم (٤٤٣٣) ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل فاطمة بنت النبيﷺ برقم (٢٤٥٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٨٥ و٦٢٨٦) ومسلم (٢٤٥٠) وابن ماجه (١٦٢١) وأبو داود (٥٢١٧) والتّرمذي (٣٨٧١) وأبو يعلى (٦٧٤٥) وأحمد (٦/٢٨٢).

وفي هذا الحديث الشّريف دليلٌ من دلائل النبوة، وعَلَم منْ أعْلامها، إذْ أَخْبَرَ الرَّسولُﷺ بما سيقع؟ وقد وقَعَ كما قال تماماً؛ فإنَّ المحدثين وكتّاب السّيرة، والتّاريخ والتّراجم وعلماء المسلمين، على أنَّ سيّدتنا فاطمة الزّهراء رضي الله عنها، كانت أول مَنْ مات من أهلِ البيت النّبوي بعد النبي حتى منْ أزواجِهِ.

وسبب الضّحك في هذا الحديث، فهو إخباره لها بأنها أوّل مَنْ يتبعه من أهل بيته.

وممّا أخرجه لها الحافظ أبو يعلى ـ رحمه الله ـ بسندهِ عن عبد الله بن الحَسن عن فاطمةَ بنتِ رسول الله قالت:

كان رسول اللهﷺ، إذا دخَلَ المسجد قال:

«بسمِ الله، والسَّلام على رسولِ الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتحْ لي أبواب رحمتك» وإذا خرج قال: «بسمِ الله، والسَّلام على رسولِ الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك»[1].

الزَّهْرَاءُ والأَيَّامُ الأَخِيْرَةُ والنَّعِيْمُ المُقِيْمُ:

لم تضحكْ فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها مُذْ ماتَ أبوها رسول اللهﷺ، بل باتتْ تذوبُ حُزناً عليه، وشوقاً إليه، وحقّ لها أنْ تكونَ كذلك، ولله دَرُّ مَنْ قال:

فما فَقَدَ الماضون مثل محمّد   ولا مثله حتى القيامة يَفْقَدُ

مرضت فاطمةُ الزَّهراء أمّ أبيها، فراحَ أولادها يرنونَ إليها في إشفاقٍ وجزعٍ، إنّها تذوي كما يذوي القضيبُ منَ الزَّند، والموت يزحفُ إليها لتلحقَ برسولِ اللهﷺ، وبالأحبّة أخواتها: زينب ورقيّة وأمّ كلثوم.

وفتحت فاطمةُ الزهراءُ عينين واهنتين، فرأتْ زوجها عليّاً والهاً حزيناً، والحَسن والحُسين وفي أعينهما الدّموع، بينما كانت ابنتاها زينب وأم كلثوم تكادان تذوبان منَ الأسى، فأرادتِ الزَّهراء أنْ تواسيهم جميعاً، إلا أنَّ الكلمات رقدتْ على شفتيها، ولم تتكلم.

= وقد روى النّسائي عن عائشة في سبب البكاء أنّه ميتٌ، وفي سبب الضّحك الأمرين.
ولابن سعد عن عائشة في سبب البكاء أنّه ميتٌ، وفي سبب الضّحك أنّها سيّدة النساء.
وفي رواية التابعية عائشة بنت طلحة أنَّ سببَ البكاء موته، وسبب الضّحك لحاقها به.
قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح: وقد يقال: لا منافاة بين الخبرين إلا بالزيادة، ولا يمتنع أن يكون إخباره بأنها أول أهله لحوقاً به سبباً لبكائها أو ضحكها معاً باعتبارين، فذكر كل من الراويين ما لم يذكره الآخر.

(١) مسند أبي يعلى (١٢/١٢١) وانظر فيه تخريج الحديث. وانظر الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية (٢/٥٠ و٥١) ونساء من عصر التابعين (١/٣٧).

كان الموتُ يطلبها، وإنّها لتترك الدنيا غير آسفة على فراقها، فما تنافستْ في عزِّها وفخرها، وما بهرتها زينتها ونعيمها وزخرفها، إنّها ستصبحُ ميتاً يُبكى، وستتركُ مِنْ ورائها دُنيا لا خير في شيءٍ من أزوادها إلا التّقوى، نَعَمْ، فإنَّ خيرَ الزَّادِ التَّقوى، وخيرُ لباسٍ التّقوى، وقد كان التّقوى لباسُها وزادُها.

وعَادَتْها ـ زارتْها ـ أسماءُ بنتُ عُميس ـ وكانت زوج أبي بكر ـ فهمستْ إلى أسماءَ قائلة: إنّي أستقبحُ ما يُصنع بالنِّساء، يُطرحُ على المرأةِ الثّوبُ فَيَصِفُها[1].

فقالت أسماءُ: يا ابنة رسولِ الله، ألَا أريكَ شيئاً رأيتُه بالحبشة؟ ـ وكانت أسماء منْ مهاجرة الحبشة ـ

فقالت فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها: فأرينيه.

عندئذ دعتْ أسماءُ بجرائدَ رطبةٍ، فَحَنَتْها، ثمَّ جَعَلَتْ على السَّرير نَعْشَاً، ثمَّ طرحتْ عليها ثوباً.

فلمّا رأته فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها تبسَّمَتْ ـ وما رُئيتْ مبتسمةً إلا يومئذ[2] ـ ثمّ قالت لأسماء بصوتٍ هادىءٍ رفيق: ما أَحْسَنَ هذا وأجمله! تُعرفُ به المرأةُ من الرَّجل، سترِكِ الله كما سترتني، إذا متُّ فغسّليني أنتِ وعليّ، ولا يدخلنَّ أحدٌ عليَّ[3].

وفي يومِ الثّلاثاء، لثلاثٍ خَلَوْنَ منْ رمضانَ سنة إحدى عشرة من الهجرةِ، فاضتِ الرُّوح المطمئنةُ، ورجعت إلى ربِّها راضيةً مرضيّةً.

توفيت فاطمةُ الزَّهراء، فأجهش زوجُها بالبكاء، وراحَ الحسنُ والحسينُ وزينبَ وأمّ كلثوم يذرفون الدُّموع على أعظمِ أمٍّ في الوجود؛ فاطمة الزَّهراء سيّدة نساءِ أهل الجنَّة، وابنة سيّدة نساء أهل الجنَّة.

---

(١) يصفها: أي يظهر حجم أعضائها.

(٢) أي لم تبتسم فاطمة الزهراء بعد وفاة النبيﷺ إلا يومذاك.

(٣) عن طبقات ابن سعد (٨/٢٨) وحلية الأولياء (٢/٤٣) وسير أعلام النبلاء (٢/١٣٢) مع الجمع والتصرف.

وقام عليٌّ بنُ أبي طالب[1]، وأسماءُ بنت عميس[2]، وسلمى أمّ رافع، وراحوا يغسلون الجسدَ الطّاهر، وعيونهم تذرفُ الدُّموع، واجتمع النّاس في المسجدِ النّبويّ، وقد نزلَ بقلوبهم حزنٌ ثقيل، فقد جدَّدَ موتُ فاطمةَ الزَّهراء أحزانهم على فراقِ أبيها رسول اللهﷺ، وقد توفيت بعده بستّةِ أشهر، وأوصت أنْ تُدفنَ بليلٍ.

وصلّى عليها زوجها عليّ، وعمّه العبّاس بن عبد المطلب؛ وفي سكونِ الليل، خرجتِ الجنازةُ إلى البقيعِ إلى حيثُ تثوي زينب ورقية وأمّ كلثوم، ودُفنت على أضواءِ المشّاعل، ونزل في حفرتها عليّ والعبّاس والفَضْل بن العبّاس رضوان الله عليهم[3].

وشَعَرَ عليٌّ رضي الله عنه بنار الحزنِ تلسع فؤاده، فلم يقدرْ على أنْ يكتمَ ما به من حُزْنٍ شديد، واسترجَعَ، وصَبَرَ، وتمثّل قائلاً:

(١) إنَّ كثيراً منَ النَّاس يحرّمُ على الزَّوجةِ أنْ ترى زوجها الميت، أو تلمسه، بحجّةِ أنَّ أحَدَ الزَّوجين إذا مات صار محرماً عليه النّظر واللمس.

وقد ورد أنَّ الصَّحابية الجليلة أسماء بنت عميس رضي الله عنها قد غسَّلَتْ زوجها أبا بكر الصِّديق، حيثُ كانت وصيته أنْ تتولى غسله، وهذه الوصيةُ أكبر دليل على أنَّ ما شاعَ منَ التَّحريمِ غير صحيح، بل لا بأس بأنْ يغسل أحد الزّوجين الآخر إذا مات.

وقد أخرج الإمام مالك ـ رحمه الله ـ عن عبيد الله بن أبي بكر، أنَّ أسماء غسَّلت أبا بكر، فسألت مَنْ حَضرَ من المهاجرين، وقالت: إنّي صائمةٌ، وهذا يوم شديد البَرْدِ، فهل عليَّ منْ غُسْلٍ؟

فقالوا: لا. انظر (موطأ مالك بشرح السّيوطي ٢٢٢/١ و٢٢٣) و(طبقات ابن سعد ٢٨٤/٨) وعبد الرزاق في المصنف (٦١٢٣).

هذا وقد قام سيّدنا عليّ رضوان الله عليه بغَسْل زوجته سيدتنا فاطمة الزّهراء رضي الله عنها، ولا حرمة في ذلك، ويحسبُ كثير من النَّاس أنَّ ذلك حراماً، وليس هذا بحرام، والله أعلم وهو الموفق للصواب.

(٢) قالت أسماءُ بنت عميس رضي الله عنها: غسَّلتُ أنا وعليّ فاطمةَ بنتَ رسول اللهﷺ. (المستدرك ١٦٣/٣ و١٦٤).

(٣) الاستيعاب (٣٦٧/٤ و٣٦٨) وأنساب الأشراف (٤٠٢/١ و٤٠٥) وتهذيب التهذيب (٤٤٢/١٢) وغيرها كثير.

لكلِّ اجتماعٍ منْ خَليلين فرقةٌ
وكلّ الذي دون المماتِ قليلُ
وإنَّ افتقادي فَاطماً بعد أحمدٍ
دليلٌ على ألاّ يدومَ خليلُ(1)

هذا وقد روى ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ الأبيات في قصَّة ذكرها عن سعيد بن المسيّب ـ رحمه الله ـ قال:

دخلنا مقابر المدينة مع عليّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه، فقام عليٌّ إلى قَبْرِ فاطمة رضي الله عنها، وانصرف النَّاس، فتكلَّمَ وأنشأَ يقول:

لكلِّ اجتماعٍ منْ خليلين فرقةٌ
وإنَّ بقائي بَعْدَكُم لقليلُ
وإنَّ افتقاديَ واحداً بعدَ واحد
دليلٌ على أنْ لا يدومَ خليلُ
أرى عللَ الدُّنيا عليَّ كثيرةٌ
وصاحبها حتى الممات عليلُ(2)

وبعد ـ عزيزي القارىء ـ فالحياةُ مع سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها معينٌ لا يَنْضَبُ، وشمْسٌ لا تغرب، فهل هناك أجمل من هذه الحياة؟!

رضيَ الله عن فاطمة الزَّهراء، وجعلنا معها في جنَّات ونعيمٍ، إنّه سميعٌ مجيب.

---

(1) أورد الحاكم في المستدرك هذا البيت على النحو التالي:

وإنَّ افتقادي واحداً بعد واحد دليل على أنْ لا يدوم خليلُ
(المستدرك ٣/١٦٣).

(2) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١١٧/١٢).

حفيدة النبي

أُمامة بنت أبي العاص

رضي الله عنها

- الحفيدةُ الأولى للنّبي ﷺ وأمُّها زينب بنت رسول الله ﷺ.
- كان النَّبيُّ ﷺ يكرمها ويعطفُ عليها، ويحملها أحياناً وهو يصلي.
- كانت أحبَّ أهل البيت إلى رسولِ الله ﷺ.
- تزوَّجها عليّ بن أبي طالب بعد وفاةِ فاطمة الزَّهراء.
- كانت وفاتها في زَمَنِ معاوية.

أمامة بنت أبي العاص رضي الله عنها

حفيدة الرسول

في رِحَابِ الإِيْمَانِ:

هذهِ واحدةٌ منْ نساءِ أهلِ البيتِ النّبويِّ الطَّاهر، اللآئي عَقَدْنَ مَعَ الإيمان عقدةً مكينةً متينةً، وعَقَدَ الإيمانُ معها عِقْداً أميناً مباركاً، لتغدو إحدى كريمات البيت الطَّاهر ممْنْ لهنَّ في تاريخِ الإسلام نصيب.

وإذا أردنا أنْ نعرفَ مكانةَ هذه الجوهرة في رحاب الطُّهر والإيمان، فلا بدَّ وأنْ نتعرَّفَ البيئةَ الطَّاهرة التي أَنْبَتَها الله عزَّ وجلَّ فيها، لتكون الصُّورة أَضْوَأ، ولتكون الحياةُ مرسومة في تاريخها بشيء منَ الدِّقَّةِ والوضوح.

فجدّها لأمّها سيّدنا وحبيبنا محمّدﷺ سيّد الأوّلين والآخرين، ورسول ربّ العالمين، وأكرم خَلْق الله أجمعين.

وجدتها لأمّها خديجة رضي الله عنها، أمّ المؤمنين، وأوّل خلقِ الله إسلاماً، الطَّاهرة الكريمة، سيّدة نساء العالمين.

وأمّها: زينب بنت رسول اللهﷺ، وأكبر إخواتها، الصَّابرة الطَّاهرة المهاجرة رضي الله عنها.

وخالتها: فاطمة الزَّهراء، إحدى نساء الدّنيا فضلاً ومكانة، وأفضل بنات النّبيّﷺ ورضي عنها.

وزوجُها: فارسُ النّبيّ وبطل الإسلام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه.

في هذه الرِّحاب العَطِرة الفوّاحة برحيقِ الإيمان، كانت نشأةُ أمامة بنت أبي العاص بن الرَّبيع العبشيّمة الأمويّة القرشيّة(1)، حفيدة رسول الله ﷺ، من ابنتِهِ السَّيِّدة زينب رضوان الله عليها.

وُلدت أمامة بنت أبي العاص على عَهْدِ رسول جدها رسول الله ﷺ، ودرجت في بيت أبويها، فقد كان أبوها أبو العاص بن الرّبيع العبشميّ القرشيّ صهر رسول الله ﷺ أحَدَ رجال مكةَ المعدودين بمحاسنِ المكارم، وكان يُقال له الأمين إذ عُرِفَ باستقامته في تجارته لقريش، وأداء الحقوق لأصحابها.

كان أبو العاص بنُ الرّبيع مُواخِياً مصافياً لرسولِ الله ﷺ، وكان يكثر زيارته في منزلِهِ، وكان قد زوّجه ابنته زينب أكبر بناته، وهي ابنةُ خالته خديجة. وكان أبو العاص قد أبى أنْ يفارقَ زينب رسول الله ﷺ، حينما مشى إليه مشركو قريش، وساداتهم وكبّار فجّارهم فقالوا له: يا أبا العاص، فارقْ صاحبَتك ابنة محمّد، ونحنُ نزوّجك أيّ امرأة منْ قريش شئتَ.

ولكنَّ أبا العاص ردَّ عليهم بحزمٍ وصدق: لا واللهِ لا أفارقُ صاحبتي وما أحبُّ أنَّ لي بامرأتي امرأة من قريش.

جرت هذهِ المحاورات عندما سطعت شمسُ الإسلام على أمِّ القرى، لينتشر

---

(1) الاستيعاب (٤/٢٣٧ ـ ٢٤١) وأسدُ الغَابة (٦/٢٢) ترجمة رقم (٦٧١٧) والإصابة (٤/٢٣٠ و٢٣١) ونسبُ قريش (ص١٥٨) وطبقاتُ ابن سعد (٨/٢٣٢ و٢٣٣) والمحبر (ص٥٣ و٩٠) والمعارف (ص١٢٧) والمعرفة والتّاريخ (٣/٢٧٠) وأنساب الأشراف (١/٤٠٠) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/٣٣١) والوافي والوفيّات (٩/٣٧٧ و٣٧٨) وتاريخ الإسلام (عهد معاوية ص٢٤ و١٢٤) ونساء من عصر النّبوة (٢/٢٧١ ـ ٣٦) والسِّمط الثمين (ص١٩١ و١٩٢) وسنن النّسائي (٢/٤٥) و(٣/١٠) وسنن أبي داود حديث رقم (٢٠٦٩) والشّفا (١/٢٥٩) ومجمع الزوائد (٩/٢٥٤) ودر السحابة (ص٥٣٥ و٥٣٦) وزاد المعاد (١/٢٦٥) والعقد الثمين (٨/١٨١ و١٨٢) وسير أعلام النبلاء (١/٣٣٥) وحياة الصحابة (٣/٤٥) وعيون الأثر (٢/٣٦٥) والسير والمغازي (ص٢٤٦) وجمهرة أنساب العرب (١/١٦ و٧٠ و٧٧) ومسند أبي يعلى (٧/٤٤٥) ومسند أحمد (٦/١٠١) وغير ذلك من كتب الصّحيح والسّيرة والتّراجم والطّبقات والتّاريخ.

الضِّياء في الدُّنيا، وكان أبو العاص إذ ذاك مقيماً على شركه، ولكنّه لم تُعرف عنه مقاومة للدعوة إلى أنْ مَنَّ الله عليه بالإسلام، وأسلم بعد الهجرة، وكُتبَ في زمرةِ السُّعداء.

ولقد شكرَ رسولُ اللهﷺ مصاهرته الكريمة، وأثنى عليه بذلك خيراً أمام أصحابه الكرام في المسجد في خطبة مِنْ على المنبر وقال: «حدَّثني فصدقني، ووعدني فأوفى لي...»[1] الحديث.

أُمَامَةُ وَذِكْرَيَاتُ البَيْتِ الطَّاهِرِ:

نستخلصُ منَ الأخبارِ التي وصلتنا عن أمامةَ بنتِ أبي العاص أنّها ولدت ونشأت في مكةَ قبل الهجرة، وأخذت مكانها في البيت النَّبويّ الطَّاهر، حيث كانتِ الحفيدة الأولى لرسولِ اللهﷺ، وكانتِ المولودة التي احتلَّتْ مكانة كبيرة في قلوب آلِ البيت الأطهار.

أخذ نورُ الإسلام يملأ الدنيا، وكانت نساءُ أهلِ البيت أوّل النساء إسلاماً؛ خديجة وبناتها الطّاهرات، هن اللاتي كنّ في سجلٍّ الأوائل.

فقد كان رقم خديجة الإيماني هو الأول في الصَّفحة النَّاصعة لقائمةِ الأبرار الذين سارعوا إلى دوحةِ الإيمان، ولهذا أجمع أعلياء العلماء، وأكابرهم، بمسانيدهم الوثيقة بأنَّ سيّدتنا خديجة بنت خويلد هي أول خَلْقِ الله إسلاماً من الذّكور والإناث، ثمّ تلاها بناتها الطّاهرات، فنُظِمْنَ في عقد السَّابقات.

وكانت زينب ابنة رسول اللهﷺ قد استجابت للإيمان وهي في بيت زوجها

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع، في الشّروط: باب الشّروط في المهر عند عقد النكاح؛ وفي فضائل الصحابة برقم (٣٧١٩) باب: ذكر أصهار النبيﷺ؛ وفي النكاح برقم (٥٢٣٠) باب: ذبّ الرجل عن ابنته في الغيرة وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة برقم (٢٤٤٩) باب: فضائل فاطمة، وأبو داود في النكاح برقم (٢٠٦٩) باب: ما يكره أن يجمع بينهم من النساء، وابن ماجه في النكاح أيضاً برقم (١٩٩٩) باب الغيرة.

أبي العاص بن الرّبيع الذي تأخّر إسلامه إلى ما بعد الهجرة.

أخذت زينبُ رضي الله عنها ترضعُ ابنتها الصَّغيرة أمامة حبَّ الإيمان، وحبَّ رسولِ اللهﷺ، وتزرعُ في نفسها الصَّغيرة محاسن الفضائل، وتغرسُ فيها حبَّ التَّضحية في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

وراحتِ الأمُّ الكريمةُ زينب بنت الحبيب المصطفى تروي لصغيرتها قصَصَ الوحي الذي ينزلُ على جدِّها الكريم ليخرج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور، وليدلّهم ويهديهم إلى صراط العزيزِ الحميد.

روت زينبُ لابنتها أمامة قصّة جدّتها الطّاهرة خديجة سيّدة نساء العالمين، وحكتْ لها مواقفها العظيمة وتألّقها المبارك في بداية ظهورِ الإسلام، ثمّ كيف توفاها الله عزّ وجلّ وكيف حزنَ عليها رسولُ اللهﷺ.

كانتِ الصَّغيرة أمامة تسمعُ هذه الأخبار عن أَصْلِ دوحتها فتزداد حبّاً وفخراً بهذا البيتِ الكريم الذي اختصّه الله عزَّ وجلَّ بالنّبوّة.

وأخذتِ الأمُّ تتابع حديثها لابنها أمامة، فقصَّتْ عليها أخبار هجرةِ رسول اللهﷺ، وبصحبته الصّدِّيق وكيف استقبله الأنصارُ في عرينهم خيرَ استقبال، وهم يهتفون:

الله أكبر. . جاء رسول الله.

الله أكبر. . جاء محمّد.

الله أكبر، الله أكبر. . . جاء رسول الله[1].

---

(١) استقبل رسولُ الله وأبا بكر زهاء خمسمئة منَ الأنصار، فقالتِ الأنصارُ لهما: انطلقا آمنين مطاعَيْنَ، فأقبلَ رسول اللهﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهلَ المدينة، حتى إنَّ العواتقَ فوق البيوتِ يتراءينه يقلن: أيّهم هو، يقول سيّدنا أنس بن مالك، فما رأينا منظراً شبيهاً به.

وجاء في الصَّحيحين أنَّ الناسَ قد خرجوا حينَ قدمَ رسول اللهﷺ وأبو بكر المدينة، فكانوا في الطُّرق، وعلى البيوت الغلمان والخدم يقولان:

الله أكبر! جاء رسول الله، الله أكبر! الله أكبر! جاء محمد، الله أكبر! جاء رسول الله.

ولا شكَّ في أنَّ الدَّموع قد ملأتْ عين زينب، وهي تحكي لابنتها شذرات ذهبيّة من تاريخِ أهلها، وتذكّرت أنّه لا يوجد أحدٌ بالقربِ منها.

فرسولُ الله ﷺ في المدينة المنوّرة بين أصحابه وأنصاره.

وأمّها خديجة بنت خويلد، قد ضمّها ثرى مكة منذ بضعة أعوام.

وأخواتها: رقيّة وأمّ كلثوم وفاطمة قرب أبيهم ينعمن بعطفه وحبِّهِ.

وأمّا أخواها: القاسم، عبد الله، فقد ماتا وهما في سِنِّ الطّفولة، وعمر الزّهر.

وها هو زوجها أبو العاص بن الرّبيع، قد خرجَ إلى المدينة مع قريش لمحاربة أبيها وأصحابه، ولا تدري بماذا تنقشعُ هذه السَّحابات التي ظلّلتْ حياتها.

أُمَامَةُ وَأَسْرُ أَبِيْهَا وَقِلادَةُ أُمِّهَا:

في رحلةِ البغيّ، ومرحلةِ الفسوق والعدوان، خرجت قريش تصاحبُها مسحة الغرور التي تقودها إلى حتفها، خرجتْ عصبةُ الكفرة الفَجَرة، يقودهم غرورُ أبي جهل، وفسوقُ عتبة بن ربيعة، وكفْرُ أمية بن خلف وغيرهم، ليحاربوا رسولَ الله ﷺ ذلك الذي سفَّهَ أحلامهم، وعابَ عليهم آلهتهم التي لا تعقل شيئاً، وأراد أنْ يأخذَ بأيديهم إلى شاطىءِ الأمْنِ والأمانِ والأيمانِ على قارب النّجاة الذي يحمل عنوان الفوز: لا إله إلا الله... محمّد رسول الله.

خرجَ أبو العاص معَ قريش تتَنَازعه عواطف شتى، وتنثال على رأسِهِ الأفكار تِلْوَ الأفكار؛ كيف يحارب رسول الله أبا زوجه زينب التي يحبُّها ويحبُّه؟! بل ما هو موقفه لو لقي رسول الله في ساحةِ المعركة؟! لم يستطعْ أنْ يجيبَ عن مثل هذه الأسئلة!...

خرج أبو العاص بعد أنْ طبعَ قبلةَ حنانٍ على وجهِ ابنته أمامة التي لا تعرف أين سيذهب، بل لا تعرف معنى لتلك الأحقاد التي تحتلّ قلوبَ قريش، وتعتمل في صدورهم؛ ودَّعها وودَّع زوجه البارّة زينب وقد لاحظ أنّ الدّموع قد طفرت من عينيها، وارتسم الحزنُ على وجهها.

في بدر التقى الجمعان وقُضيَ الأمْرُ، وجعل الله كلمةَ الذين كفروا السّفلى وكلمته العليا، وقُتِلَ صناديدُ قريش، وأُسِرَ فريقٌ منْ أبطالهم وفرسانهم، وفَرَّ سائرهم، وكان أبو العاص بن الرَّبيع مع فريقِ المأسورين، وكان في المدينة عند رسول اللهﷺ، فأوصى بالإحسان إلى الأسرى قائلاً: «استوصوا بالأسرى خيراً».

في مكةَ ذاعتْ وأُذيعتِ الأخبارُ التي تحكي هزيمة قريش في غزاةِ بدر، ومقتل صناديدهم، بينما أصبحَ أكابرهم وذوو الرّأي منهم مقرَّنين في الأصفاد، يرهقُ وجوههم قتر الذّل والهوان، وخافتْ زينبُ وابنتها أمامة على أبي العاص منْ أنْ يكونَ منَ الذين لقوا حَتْفَهم، ولاقوا منيتهم بأيدي فرسان المسلمين، إلا أنَّ الأنباءَ جاءت لتؤكّد أنَّ أبا العاص هو أسيرٌ، وهو في عداد الأسرى، وتحت رعاية رسول اللهﷺ.

أخذَ المشركون منْ أهلِ مكة يعدّون العدّة، كيما يذهبون في فداءِ الأسرى، وتجهّز عمرو بنُ الربيع أخو أبي العاص ليقدم مكة في فداءِ أخيه.

وفي تلك اللحظات، رأتِ الفتاة الصَّغيرة أمامة بنت أبي العاص موقفاً عطراً لأمّها، لا تزاال ذكراه تلوحُ في ذاكرتها طيلة حياتها، وكذلك يلوحُ ذلك الموقف في ذاكرة العابدين إلى يوم يبعثون.

رأتْ أمامةُ والدتها زينب وهي تنزعُ قلادة لطيفة من عنقها، لتبعثها في فداءِ أبيها أبي العاص، وكانت زينب قد روتْ لابنتها أمامة قصّة هذا العقد النَّفيس، وكيف أهدتها إياه أمّها خديجة في يومِ زفافها، وظلّ هذا العِقْد الكريم اللطيف يذكّرها بالطّاهرة خديجة التي تثوي عنها غير بعيد.

انطلق عمرو بن الرَّبيع يحملُ الفداء؛ وفي المدينة المنوّرة تقدّم فقال لرسولِ اللهﷺ: بعثتني زينب بنت محمّد بهذا في فداء زوجها؛ أخي أبي العاص بن الرّبيع.

وأخرجَ عمرو بنُ الربيع العقْد الفريد النَّفيس كيما يقدمه لرسولِه اللهﷺ، فإذا به يرى رسول اللهﷺ قد رقَّ رقَّةً شديدة، وبدا وجهه الشَّريف وقد ظهَر عليه

التّأثر، فقد تذكّر الطّاهرة خديجة، وتذكر ابنته زينب، وتذكر حفيدته وسبطته أمامة.

في صوتٍ ملائكي عَذْبٍ جميل، توجّه النَّبيُّ الكريمﷺ نحو أصحابه وقال لهم: «إنْ رأيتم أنْ تطلقوا لها أسيرها، وتردّوا عليها مالها، فافعلوا..»؟!

وهتفَ الصَّحابَة الكرامُ في قلوبٍ خاشعة مؤمنة: نعم يا رسول الله، حُبّاً وكرامة.

وردَّ العِقْدَ ليصيرَ إلى صاحبتِهِ، بينما أطرقَ أبو العاص خَجلاً مِنْ ذلك الموقفِ الذي زَرَعَ في نفسه بذورَ الإيمان، وقبل أنْ يغادرَ أبو العاص المدينة، أخَذَ عليه الرَّسولﷺ العَهْدَ أنْ يخليَ سبيلَ زينب وأمامة حتى تهاجران إلى المدينة إلى رسولِ اللهﷺ؛ فهل وفّى أبو العاص بما وعد؟!

المُهَاجِرَةُ الصَّغِيْرَةُ:

قَفَلَ أبو العَاص راجعاً إلى مكةُ يدفعهُ شوقٌ إلى صغيرتِهِ أمامة، وإلى زوجه الطّاهرة البّارة زينب بنتِ رسولِ اللهﷺ، فاستقبلته زينب بدموعٍ حائرة حَارّة، بينما احتضنَ صغيرته أمامة التي أحسَّتْ بأنَّ شيئاً ما قد حَدَثَ في غيابِ أبيها.

وقفتْ أمامةُ لتسمعَ من أبيها، وهو يخاطبُ أمّها قائلاً: لقد وعدتْ أباكِ أنْ أبعثَك للرّحيل، وأكرمي أمامة.

تجهَّزَتْ زينبُ، وأعدَّتْ ما تحتاجه في هجرتها، وراحتْ تجهِّزُ ابنتها أمامة، كانت عواطفُها موزعةً بين أبيها وزوجها، ولكنَّ طاعةَ الله ورسوله أَوْلى، وهَمَسَتْ في هدوءٍ متضرِّعةً إلى الله تعالى أنْ يشرحَ صَدْرَ زوجها إلى الإسلام، فيسعد مع السُّعداء، فقد كانت زينبُ وابنتها أمامة منَ المستضعفينَ منَ النِّساء والولدان، ولا تملك إلا الدُّعاء واللجوء إلى الله أنْ يفرِّجَ عنها كربتها.

وخرجتْ زينبُ وابنتها أمامة يصحبهما كِنانةُ بنُ الرَّبيع أخو أبي العاص، كان الوقتُ نهاراً، وساء قريشٌ أنْ تخرجَ هذهِ الظَّعينةُ من بين أظهرهم في رابعة النَّهار، فأظلمتِ الدُّنيا في أعينهم، وخرجَ رجالٌ من قريش في طلبها حتى أدركوها

بذي طوى(١)، وهناك روّعها هبَّار بنُ الأسود بالرُّمحِ، ونَخَسَ البعيرَ، فألقى راكبته على الأرض، ورأتْ أمامةُ ذلك المشهد فتأثّرت لهؤلاء الأجلافِ الذين خرجوا ليقفوا بوجهِ امرأة ضعيفة بكاملِ سلاحهم!!

هؤلاء أنفسهم همُ الذين ولّوا الأدبارَ في يوم بَدْرٍ، وما يوم بَدْرٍ منهم ببعيد.

وعادت زينبُ وأمامةُ إلى مكةَ وهي تشعرُ بالمرضِ، ثم نَشَطتْ بعد ذلك فخرجتْ مهاجرةً، وقد صحبت ابنتها لتُكتب في قائمةِ المهاجرين إلى الله ورسوله.

وفي المدينة المنوّرة، استقبل الحبيبُ المصطفىﷺ ابنتَه زينب وحفيدته أمامة، وجعلها في مكانٍ قريبٍ منه، وراحَ يغدقُ منْ عطفِهِ وحبِّهِ على الصَّغيرة أمامة التي كانت أوّل مولودة لبناته، فكان لها مكانة عظمى في قلبهﷺ(٢).

لقيت أمامة ابنة أبي العاص منْ أخلاقِ جدّهاﷺ، ما جعلها تنشأُ نشأةً متميزة فريدة في ظلالِ الآداب النّبويّة الكريمة، لتغدو واحدةً من نساءِ الإسلام الشّهيرات، وواحدات من نساء أهل البيت الطّاهر الذي أذهب الله عنه الرِّجس وطهّره تطهيراً، فقد كانت ترى مكارم الأخلاق النّبويّة، وتلمسُ ذلك العطف النّبويّ الذي عوَّضها عن عطفِ أبيها الذي لا يزالُ في مكةَ مشغولاً بتجارته وأمواله.

كانتِ الأيامُ والشّهور تمرُّ، وأمامة تعيشُ في كنفِ جدّها رسول اللهﷺ، تلقى الأُنْسَ والطِّيْب والرُّعاية الكاملة، إلى أنْ مَنَّ الله عزَّ وجلَّ على أبيها بنعمةِ

---

(١) اسم مكان يبعد عن مكة قليلاً.

(٢) روى ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ عن أمِّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت تصفُ رسولَ اللهﷺ: كان ألين النّاس، وأكرم النّاس، وكان ضحاكاً بسّاماً.

هذه صفاتٌ حلوةٌ، وشمائل كريمة للحبيب المصطفىﷺ، ومنها نستطيعُ أنْ نفهمَ كيفَ عَامل رسول الله حفيدته أمامة، كما نفهم كيف كان يعامل أهله وعياله بالرحمةِ والملاينةِ.

عن أنس رضي الله عنه قال: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول اللهﷺ رواه الإمام أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه.

الإيمان قبل فتح مكةَ، وردَّ عليه رسولُ اللهﷺ ابنته زينب.

روى الإمام أحمد وغيره عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: ردَّ النَّبيُّﷺ ابنته زينب على أبي العاص بن الرَّبيع بعد ستِ سنين بالنّكاح الأوَّل، ولم يحدثْ نكاحاً[1].

وسعدتْ أمامةُ بإسلامِ أبيها، وعاد إلى البيتِ ذلك الهدوء اللطيف، وذلك الوئام؛ وَنَعِمَ أبو العاص بنعيم الإسلام، كما نَعِمَ بقربِ ابنته أمامة التي كان يرى فيها صورة جدّتها الطّاهرة خديجة رضوان الله عليها.

كان صوتُ أمامة يرنُّ في جُنُبَاتِ الدَّار، وكانت أمُّها زينب سعيدة بها غاية السَّعادة، بينما كان أبو العاص يشعرُ بفيضٍ من الحنَان يغمرُ قلبه ويغزو نفسه، فلا يملك أحاسيسه، فَيُقْبِلُ على صغيرته، ويضمُّها إلى صدرهِ في عَطْفٍ، ثمَّ يقبِّلُها في حبٍّ أبوي، وتستخرجُ ما بنفسه من ينابيع المَوّدة والعطف والرَّحمة.

وكان رسولُ اللهﷺ من أكثر النّاسِ سَروراً بإسلام صهره أبي العاص بن الرَّبيع، ويبدو وأنَّ سروره ﷺ، نابعٌ من وفائه للطّاهرة خديجة أمّ المؤمنين رضوان الله عليها، فقد كانت خديجةُ تعدُّ ابنَ أختها أبا العاص بن الرَّبيع بمنزلةِ ولدها، وكانﷺ يكرمه إكراماً لها، وتمنّى لو أنَّ الطّاهرة خديجة قد شهدتْ إسلام ابن أختها الأثير لديها، وإنَّ نفسه لتحبُّ كلَّ مَنْ أحبَّتْ خديجةُ رضي الله عنها.

مَكَانَةُ أُمَامَةَ وَحُبُّ النَّبيِّ لَهَا:

عَرفَ الصّحابةُ الكرامُ رضوان الله عليهم رأْفَة النَّبيِّﷺ بالأولادِ، وعَطْفِهِ عليهم، وتعلّموا منه هديه في تربيتهم والإحسان إليهم، والعطف عليهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد (١/٢٦١ و٣٥١) و(٦/٣٦٦).
وأبو داود في الطّلاق برقم (٢٢٤٠) باب: إلى متى تردّ عليه امرأته إذا أسلم بعدها.
والتّرمذي في النّكاح برقم (١١٤٣) باب: ما جاء في الزّوجين المشركين يُسْلمُ أحدهما.
وابنُ ماجه في النّكاح برقم (٢٠٠٩) باب؛ الزّوجين يسلم أحدهما قبل الآخر.
والحاكم (٢/٢٠٠) وصححه ووافقه الذهبي.

ولأمامةُ ابنة أبي العاص رضي الله عنها نصيبٌ وافرٌ مِنْ حبِّ النّبيّ الكريمﷺ، ومساحةٌ واسعةٌ منْ ودِّهِ ورحمته بها، ولئن كان للحَسَنِ والحُسَين رضي الله عنهما مكانة عظيمة عنده، لقد كان لأمامَة مكانة لا تقلُّ عنْ مكانةِ ابني خالتها فاطمة الزَّهراء.

كانت أمامةُ ابنة زينب رضي الله عنها كلّما تقبلُ نحو رسولِ اللهﷺ، يهفو قلبه الشَّريف إليها، إنَّه يحبُّها بكلِّ جوارحه. إنَّ قلبه الكبير يَسَعُ حبَّ أبنائه وحبَّ بناته، وحبَّ أحفاده، وكذلك حبَّ أصحابه وحبَّ المسلمين، وحبَّ البشر أجمعين، فما أرسله الله إلا رحمة للعالَمين، وكذلك وصفه بأنَّه ﴿بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم﴾[التوبة: ١٢٨].

لقد كان لأمامةَ رضي الله عنها مكانة متميّزة عند رسولِ اللهﷺ، فقد كان يصحبُها معه أحياناً إلى المسجدِ النّبويّ الشَّريف، ويحملها في الصَّلاة على عاتقِهِ، فإذا ركع وضعها، وإذا رفعَ رأسه الشَّريف منَ السُّجود أعادها.

فقد وَرَدَ في الصَّحيح والسُّنن وغير ذلك مصداق ما ذكرناه؛ ففي صحيح مسلم ـ رحمه الله ـ عن أبي قتادة أنَّ رسولَ اللهﷺ كان يصلِّي، وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول اللهﷺ، ولأبي العاص بن الرّبيع، فإذا قامَ حملها وإذا سجدَ وضعها(١).

وفي روايةِ أبي داود ـ رحمه الله ـ صورة واضحة عن مكانةِ أمامة رضي الله عنها؛ فقد أخرج أبو داود بسنده عن أبي قتادة صاحب رسول اللهﷺ قال: بينما نحنُ ننتظرُ رسولَ اللهﷺ في الظّهر، أو العَصْر، وقد دعاه بلال للصَّلاة، إذ خرجَ إلينا، وأمامة بنت أبي العاص بنت ابنته على عنقِهِ، فقامَ رسولُ اللهﷺ في مصلّاة، وقُمْنَا خَلْفَه، وهي في مكانها الذي هي فيه.
قال: فكبّر فكبّرنا.
قال: حتى إذا أرادَ رسولُ اللهﷺ أن يركعَ، أخَذَها فوضعها، ثمَّ ركع وسجدَ،

(١) رواه مسلم.

حتى إذا فرغَ من سجوده ثمَّ قام، أخذها فردَّها في مكانها، فما زال رسولُ اللهﷺ يصنعُ بها ذلك في كلِّ ركعةٍ حتى فرغَ من صلاته[1].

وكان الحبيبُ المصطفىﷺ يكرمُ حفيدته أمامة إكراماً عظيماً، ويخصّها بعطفِهِ، ويحبّها محبّة شديدة، فربما فضّلها على أهلِ بيته بمحبته لها، وربما خصّها بالهدية كيما يدخلِ السّرور إلى قلبها، وكيما يعرف نساء أهل البيتِ النّبويّ مكانة أمامة من قلبِهِ الشّريف، وهذا الذي لاحظَتْهُ فاطمة الزّهراء رضي الله عنها، ممّا جعلها تقتدي بأبيهاﷺ، وتهتدي بهديه، ولعلّها أوصتْ زوجها علي بن أبي طالب ـ وهي مريضة ـ أن يتزوَّجَ أمامة بنت أبي العاص ـ كما سنرى ـ.

ولعلَّ حبَّ النّبيِّﷺ لحفيدته أمامة، قد فجَّر ذات مرّةٍ الغيرة في نفوسِ نسائه الطّاهراتِ وخاصة أمّنا عائشة، ولكنَّها لّما عَلِمَتْ أنَّ هذا الحبَّ وهذا الاهتمام منصرفٌ إلى هذهِ الحفيدة الكريمة الغالية، ذهبتْ عن نفوسهنَّ بوادر الغيرة.

روتِ المصادرُ الوثيقة، عن أمّنا عائشة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما أنَّها قالت: أُهْدِي لرسولِ اللهﷺ قِلادةً مِنْ جِزْع ملمَّعَة بالذَّهب، ونساءه مجتمعات في بيتٍ كلّهن، وأمامةُ بنت زينب بنت رسول اللهﷺ، وهي بنت أبي العاص بن الرّبيع، جارية تلعب في جانب البيت بالتُّراب.

فقال رسول اللهﷺ: ـ أي لنسائه ـ : «كيف ترينَ هذه»؟

---

(١) أخرجه أبو داود في الصّلاة برقم (٩١٧ و٩١٨ و٩١٩ و٩٢٠) باب العمل في الصلاة.
وأخرجه كذلك البخاري في موضعين: في سترة المصلي: باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه، وفي الأدب: باب رحمة الولد وتقبيله. ومسلم في المساجد برقم (٥٤٣) باب جواز حمل الصبيان.
ومالك في الموطأ (١/١٧٠) في قصر الصلاة: باب جامع الصلاة.
والنّسائي في موضعين: في المساجد (٢/٤٥) وفي السهو (٣/١٠).
وابن سعد في الطّبقات (٨/٢٣٢).
وانظر: السّمط الثمين (ص١٩١) والشّفا للقاضي عياض (١/٢٥٩) والإصابة (٤/٢٣٠) وبلوغ المرام (ص١٠١ و١٠٢) والاستيعاب (٤/٢٣٧) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص٢٤).

فنظرنا إليها فقلنا: يا رسول الله! ما رأينا أَحْسَن من هذه قطّ ولا عجب!
فقال: «أردِدنها إليّ».
فلّما أخذها قال: «والله لأضعنّها في رقبةِ أحبِّ أهل البيت إليّ».
قالت عائشة رضي الله عنها: فأظلمتْ عليَّ الأرض بيني وبينه خشية أنْ يضعَها في رقبةِ غيري منهنَّ، ولا أراهنَّ إلا قد أصابهن مثل الذي أصابني، ووجمنَ جميعاً، فأقبل بها حتى وضعها في رقبةِ أمامة بنت أبي العاص، فَسُرِّيَ عنّا[1].

لقد اعتقدتْ أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّ تلك القِلادة الجميلة الحَسَنَة، ستكون من نصيبها، فهي تدركُ مكانتها المتميزة عن أمّهات المؤمنين في قلبِ رسولِ الله ﷺ، ولكنَّ رسول الله ﷺ أَعْلَقَ القلادةُ في عنقِ أمامة رضي الله عنها، وهذه منقبةٌ كريمةٌ لأمامةَ إحدى نساء أهل البيت الطَّاهر الذي أذهب الله عنه الرِّجْسَ وطهّره تطهيراً.

وقد حظيتْ أمامةُ أكثر منْ مرّةٍ بهديةٍ نبوّية تنمُّ عن حبِّ النَّبيِّ ﷺ لها، ورعايته لشأنها، وكان من شدّةِ حبِّهِ لها واهتمامه بها يدعوها «يا بُنية».

عن أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق عن أختها عائشة أمّ المؤمنين، أنَّ النّجاشي ـ ملك الحبشة ـ أهدى رسول الله ﷺ حِلْية فيها خاتم منْ ذَهَب، فأخذه، وإنّه لمعرضٌ عنه، فأرسل به إلى ابنةِ ابنته زينب فقال: «تَحَلَّيِ بهذا يا بُنية»[2].

---

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٢٥٥) وقال: اللفظ للطبراني وأحمد باختصار. وانظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٤٠) والسّمط الثمين (ص١٩١) والاستيعاب (٤/ ٢٣٨) والسّيرة الحلبية (٢/ ٤٥٢) ودرر السحابة (ص٥٣٥) والإصابة (٤/ ٢٣٠ و٢٣١) وأسد الغابة (٦/ ٢٢) والمسند (٦/ ١٠١ و٢٦١) ومسند أبي يعلى (٧/ ٤٤٥ و٤٤٦) حديث رقم (٤٤٧١).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٠) والإصابة (٤/ ٢٣١) والسّمط الثمين (١٩٢) مع الجمع والتصرف.
وانظر: مسند أبي يعلى (٧/ ٤٤٥) حديث رقم (٤٤٧٠) وأخرجه الإمام أحمد (٦/ ١١٩) وأبو داود برقم (٤٢٣٥) باب: ما جاء في الذهب للنساء. وابن ماجه في اللباس برقم (٣٦٤٤) باب: النهي عن خاتم الذهب.

فِرَاقُ الأَحْبَابِ:

في بدايةِ السَّنَةِ الثَّامنة منِ الهجرة النّبويّة، وبعد أن مضى عامٌ على إسلام أبي العاص بن الرَّبيع بدأت زينبُ ابنة رسول اللهﷺ رحلة الخلود، وكانت قد لزمتها الأمراضُ منذ أنْ هاجرت إلى أبيها؛ وها هي في أيّامها الأخيرة تنظر إلى ابنتها أمامة نظرةَ إشفاق، وتذكّرتْ في تلك اللحظات أمّها خديجة عندما أهديها قلادة يوم زفافها؛ ولكنْ ماذا ستقدِّمُ هي لابنتها أمامة؟!

إنَّ المرضَ بدأ يغالبها، ويتغلَّبُ عليها، وفي مستهلِّ سَنَة ثمانٍ من الهجرة توفيت زينب ابنة رسول اللهﷺ، وشعرتْ أمامةُ بالفراغِ الكبير الذي تركته أمّها، ولم تملك إلا دموعها، وهي ترى أمّها مسجّاة في فراشِها، وقد ودّعتِ الدُّنيا لتكونَ عند مليكٍ مقتدرٍ.

وجاءَ رسولُ اللهﷺ ليشهد وفاة ابنته، وكانت أمُّ عطية الأنصارية قد غسلتها، فدفع لها إزاره، واستودعها الله عزّ وجلّ.

روت أمُّ عطية رضي الله عنها ذلك فيما أخرجه البخاريّ عنها قالت: دخلَ علينا رسولُ اللهﷺ ونحنُ نغسل ابنته، فقال: «اغسلنها وتراً أو خمساً، أو أكثر من ذلك بماءٍ وسدر، واجعلنَ في الآخرةِ كافوراً، فإذا فرغتنَّ فآذنني» فلّما فرغنا آذناه، فألقى إلينا حِقْوه فقال:
«أَشْعِرْنَها إياه»[1].

(1) هذا الحديث الشّريف ورد في الكتب السّنة، وفي الموطأ وغيره.
فقد أخرجه البخاري في الجنائز برقم (١٢٥٤) باب: ما يستحب أن يغسل وتراً.
وأخرجه أيضاً برقم (١٢٥٧ و١٢٥٨ و١٢٦١).
وأخرجه مسلم في الجنائز برقم (٩٣٩) باب في الجنائز: باب ما جاء في غسل الميت.
وأبو داود في الجنائز برقم (٣١٤٢) باب: كيف غسل الميت.
والتّرمذي في الجنائز برقم (٩٩٠) باب: ما جاء في غسل الميت.
والنّسائي في الجنائز برقم (٤/٢٨ ـ ٣٢) باب ما جاء في غسل الميت والسدر.
وابن ماجه في الجنائز برقم (١٤٥٨) باب ما جاء في غسل الميت. =

وأصبحتْ أمامةُ ترى دار أمّها ساكنةً سكونَ القبور، موحشة بلا حياة، فقد ذهبتِ الحبيبةُ التي كانت نَبْضَ بهجتها، وروح أنسها، وأنس روحها، ونظرت أمامةُ فرأت قلادة أمّها، تلك القلادة التي كانت لجدّتها خديجة، ولطالما حدثتها أمّها عن جدتها خديجة، وعن مكانةِ هذه القلادة عند رسول الله ﷺ، وكيف أكرمَ رسولُ الله أباها عندما وقع أسيراً في غزوة بدر.

تذكّرت أمامةُ كلَّ هذا فاستعبرت، فضمّها أبو العاص إلى صدرهِ في حَنَانٍ، وأخذ يمسحُ عن عينيها دموعَ الحزن، فقد وَجَدَ في ابنتهِ ما يخفِّفُ بعضَ حزنه على زوجه زينب.

وكان رسولُ الله ﷺ يكرم أمامة، فقد وجَدَ فيها ما يُخفِّفُ حزنه على زينب، ويذكّره بذكرى عطرة، ذكرى الطَّاهرة خديجة رضي الله عنها التي قَضَتْ نحبها منذ أكثر من عقد منَ الزَّمن.

عاشت أمامةُ مرعية الجانب في البيتِ النَّبويِّ، ويبدو أنَّها عاشت في كَنَفِ خالتها فاطمة الزَّهراء رضوان الله عليها، وراحتِ الزَّهراءُ تفيضُ عليها منْ حنانها وعطفها ما تغمر به أولادها: الحَسن والحُسين وزينب وأمّ كلثوم؛ وكانت تعدّها لتكون إحدى النِّساء الشَّهيرات في دنيا الفضيلة والفضائل؛ وما ظنّك بإمرأةٍ يشرفُ عليها رسول الله ﷺ، وتكرمها فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها؟!

ومضتِ الأيامُ والحبيبةُ النّبويّة أمامةُ تنعمُ في كنفِ أكرمِ بيوت الدنيا، ولكنْ ما إن جاءَ شهرُ ربيع الأوّل من السَّنةِ الحادية للهجرة حتى توفي رسول الله ﷺ، وانتقل إلى الرّفيقِ الأعلى، فدخلَ حزنٌ عظيم على قلب أمامة بفقده، وكذلك أُصيب المسلمون به جميعاً، وأحسَّتْ أمامةُ بأنَّها فقدتِ الرُّكنَ الكبيرَ في حياتها بوفاته ﷺ.

وعاشتْ أمامةُ رضي الله عنها تحتَ رعاية خالتها فاطمة الزَّهراء، وصُنِعَتْ على عينها، إلا أنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها لم تمكثْ بعد أبيها طويلاً، وإنَّما

= وقوله: «في الآخرة» أي في الغسلة الأخيرة.
«وآذنني» أي أعلمنني. و«حقوه» بفتح الحاء وكسرها: إزاره.

مرضتْ، وذوى جسمها، وأخذ الموتُ يزحفُ إليها كيما تلحقَ برسول اللهﷺ، تحقيقاً لما أخبرها به بأنّها أوّل أهله لحوقاً به.

وجاءت أمامةُ، وألقت نظرةً على خالتها فاطمة الزَّهراء، فتسوَّرَ الحزنُ صدرها، واعتصر الأسى قلبها، فقد عاشت في كنفِ خالتها الزَّهراء بعد موت الأحبّة؛ أمّها زينب، وجّدها رسول اللهﷺ، فأنْسَتْها الزّهراء بعطف حنانها، وحنان عطفها، وحبّها لها، آلام اليتم، وإيلام الفراق، فكانت لها أمّاً بعد أمّها، وسدّتْ بعضَ الحبِّ العطف بعد جدّها رسول اللهﷺ، وقفزتْ إلى ذهنِ أمامة فكرة صعبة، ماذا لو ماتت خالتها فاطمة الزّهراء؟! إنّها ستكون قد تجرّعَتْ قسوة اليتم مرتين، بل ثلاث.. أمّها.. جدّها وخالتها.

ولكنَّ الزّهراء لم تلبثْ إلا ستة أشهر بعد وفاةِ أبيها رسول اللهﷺ، وماتت لتلحقَ به في علّيينّ، بعد أنْ أوصتْ زوجها عليّاً أنْ يتزوَّجَ أمامة ابنة أبي العاص.

وبكت أمامةُ خالتها فاطمة الزّهراء بكاءً مريراً، ووجدت لفقدها، وأحسَّتْ باليتمِ الحقيقي، لقد ذهبَ الأحبّة واحداً تلو الآخر، وها هي تنظر إلى أبيها أبي العاص الذي بقي أملها الوحيد في هذه الحياة.

وفي السَّنة الثّانية عشرة من الهجرة، وفي شهر ذي الحجة من السَّنةِ نفسها، كان أبو العاص بن الرّبيع يودّع الأيام الخيرة مِنْ دنياه، وقد ألزمه المرضَ الفراش، فإذا به يلقي نظرةً على ابنته أمامة التي فَقَدتِ الأحبّة، وها هو في طريقهِ إليهم في رحلة خلود.

رأى أبو العاص ابنته أمامة وقد تخطَتْ مرحلة الطّفولة، إنّها تذكرة بأمّها وجدتها خديجة، ووقع نظره على القلادة في جِيْدِها، إنّها قلادة خديجة التي قدّمتها إلى زينبَ في ليلةِ زفافها، تُرى مَنْ يقّدم القلادة لأمامة الآن؟!

تلاشتِ الأفكارُ والذّكريات من رأسِ أبي العاص، ورفّتْ على شفتيه ابتسامةٌ رقيقة، كأنّه تذكر أن سيلحق برسول اللهﷺ وخديجة وزينب، كانت أمامة تقفُ أمام أبيها وهو يجودُ بأنفاسه الأخيرة، لتصعد روحه إلى بارئها راضية مرضية.

هنالك شعرتْ أمامةُ بأنَّها أضحتْ وحيدةً في هذه الدُّنيا بعد فقدان

الأحبّة. . . أمّها. . جدّها. . خالتها. . وأبوها. ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ سيكرمُها، وستغدو إحدى النِّساء الفاضلات في دنيا الفضل، وكيف لا ؟ وهي من أهل بيتٍ حظي بإكرامِ الله عزَّ وجلَّ.

زَوَاجُهَا مِنْ فَارِسِ الْمُسْلِمِيْنَ:

أصبحتْ أمامةُ بنت أبي العاص رضوان الله عليها وحيدةً بعد ذهاب الأحباب، إلا أنّها استسلمتْ لقضاء الله وقَدَرِه، فإذا بصوتِ خالتها فاطمةَ الزَّهراء يرنّ في وجدانها، وهي توصي عليّ بن أبي طالب ـ عندما كانت تجود بأنفاسها ـ أن يتزوَّج أمامة بنت زينب.

هذا وقد كان أبو العاص بن الرَّبيع رضي الله عنه أوصى قبل وفاته ابن خاله الزَّبير بن العوّام رضي الله عنه ليكون وليّاً لأمامة؛ وعاشت أمامةُ في كَنَفِ الزُّبير وزوجه أسماء بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهم جميعاً. وكان الزُّبير وزوجه أسماء يكرمان أمامة أشدَّ الإكرام، فهما يَعْلَمان مكانتها من قلبِ رسول الله ﷺ، لذا فقد كانا يحرصان كلَّ الحرص على مرضاته ﷺ حيّاً وميتاً.

وفي خلافةِ الفاروق عمر[1]، تزوّجها سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد زوّجها الزّبير بن العوّام، وبهذا نُفِّذَتْ وصيةُ فاطمة الزّهراء رضي الله عنها.

أقامتْ أمامةُ مع عليٍّ رضي الله عنهما طيلة الخلافة الرّاشدة تقتبس من معين معارفه الواسعة، ثمّ شهدت معه وقائع العَصْر الرَّاشديّ، كما شهدتْ انتقاله إلى الكوفة، وظلَّتْ معه أكثر من ربع قرنٍ من الزَّمن إلى أنْ قُتِلَ غدراً سنة أربعين في ليلة الأحد لإحدى وعشرين ليلة مضت من شهر رمضان، وبكته أمامة رضوان الله عليها بكاءً مرّاً، وكان مشهدها وهي تنظر إليه إذ هو على فراشه يؤثّر بالنُّفوس، ويفتّتُ الأكباد.

وتبارى الشُّعراء في رثاءِ سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ووصفِ

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٣٥).

حال أمامة التي آلمها موتُ زوجها. قالت أمُّ الهيثم بنت الأسود النّخعية ترثي عليّاً، وتذكر أمامة بنت أبي العاص من قصيدة طويلةٍ، نقتطفُ منها بعض الأبيات الكاشفة ومطلعها:

ألا يا عينُ ويحكِ أَسْعِدينا ... ألا تبكي أميرَ المؤمنينا

ثمَّ تقول:

أفي شهرِ الصِّيامِ فجعتمونا ... بخيرِ النَّاس طرّاً أجمعينا
ولو أنّا سُئِلنا المالَ فيه ... بَذَلْنَا المالَ فيه والبنينا
أشابَ ذؤابتي وأطالَ حزني ... أمامةَ حين فارقتِ القرينا
تطوفُ بها لحاجتها إليهِ ... فلّما استيأستْ رفعتْ رنينا[1]

في سِجِلِّ الخَالِدَاتِ:

عندما كان سيّدنا عليٌّ رضوان الله عليه على فراشِ الموتِ بعد تلك الضَّربة الغادرة، وأيقن بالشَّهادة، دعا زوجه أمامة إليه وأوصاها قائلاً: إن كان لكِ في الرِّجال حاجة فقد رضيتُ لك المغيرة بن نوفل[2] عشيراً[3]؛ وأوصاها ألّا تخرج عن

(١) اختلفَ رواةُ الأخبارِ في ترتيب هذه الأبيات وفي عددها، واختلفوا كذلك في نسبتها لعدد من الشّعراء والشّاعرات، فقد نسبها أبو الفرج الأصبهانيّ في الأغاني إلى أبي الأسود الدؤلي، كما نسبها الطبري وابن الأثير أيضاً في تاريخها إلى أبي الأسود أيضاً، ونسبها ابن عبد البر في الاستيعاب إلى أمّ الهيثم النخعية.

(٢) المغيرةُ بن نوفل بن الحارث عبد المطلب المطلبيّ الهاشميّ، وُلدَ على عَهْدِ رسول الله ﷺ قبل الهجرة أو بعدها . . . . تزوّج بعد مقتل سيّدنا علي رضي الله عنه بأمامة بنتِ أبي العاص بن الرّبيع، كان وقد ولي القضاء في خلافةِ عثمان، وشهد صفّين مع عليّ رضي الله عنه.

أثر عنه أنّه كان شديد القوّة، وهو الذي ألقى على عبد الرحمن بنِ ملجم بساطاً لما رآه يحمل بالسّيف على النّاس، ثمّ احتمله وضرب به الأرض، وأخذ منه السّيف، له حديثٌ عن النّبي ﷺ رواه عنه أولاده.

عن (طبقات ابن سعد ٥/٢٢ و٢٣) و (تاريخ الإسلام عهد معاوية ص١٢٤ و١٢٥) مع الجمع والتصرف.

(٣) انظر: نساء من عصر النبوة (٢/٣٥).

رأيِ المغيرة بن نوفل.

مكثت أمامةُ بعد عليّ رضي الله عنها حتى انقضت عدّتها، ثمّ انقضت عدتها، ثم انتقلتْ أمامةُ إلى المدينةِ المنوّرة، وكان واليها مروان بن الحكم.

فلّما انقضتْ عدّتها، بعثَ معاويةُ رضي الله عنه كتاباً إلى واليه مروان بن الحكم يأمره أنْ يخطبَها عليه، وبذلَ لها مبلغاً كبيراً منَ المال، وهنالك تذكّرتْ أمامة وصية عليّ رضي الله عنه، فجاءت إلى المغيرةِ تستأمره، فقال لها:
أنا خير لك منه، فاجعلي أمركِ إليّ؛ ففعلتْ.

وإذ ذاك دعا المغيرةُ بن نوفل المطلبيّ الهاشميّ رجالاً من بني هاشم فيهم الحَسن بن عليَ رضي الله عنهما، وأشهدهم على زواجها، وتزوّجها، وبهذا نُفِّذَتْ وصية سيّدنا عليٍّ رضوان الله عليه.

أقامت أمامةُ زَمَناً مع المغيرة، حتى وافاها الأجل في دولةِ معاوية رضي الله عنه، ولم تلدْ لعليّ ولا للمغيرة.

ولا نعرفُ الزَّمنَ الذي قَضَتْه أمامة مع المغيرة بنِ نوفل، ولكنّا نعرف أنّها توفيت عنده.

وبموتِ أمامة ابنة أبي العاص، انقطعَ عقب زينب بنت رسول اللهﷺ، وكذلك لْم يكن لرقيّة أو أمّ كلثوم عقب، بل بقيتِ الذّرية الطّاهرة لفاطمة الزّهراء رضي الله عنها.

وفي مجموعة الخالدات من أهْلِ البيت النّبويّ الطّاهر، تظلُّ أمامة بنت أبي العاص إحدى نسائه الطّاهرات اللاتي نِلْنَ محبّة النّبيﷺ، وفُزْنَ بشهادة الطّهارة الرّبانية التي عنوانها: ﴿**إنّما يريدُ الله ليذهبَ عنكم الرّجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ [الأحزاب: ٣٣] - رضي الله عن أمامةَ، وأحلّها دار المُقامة.

حفيدة النبي

زينب بنت علي

رضي الله عنها

- ابنة الزَّهْراء وسبطة النَّبي ﷺ.
- ولدتْ سنة (٥ هـ) بالمدينة المنوّرة، وكانت حازمة عاقلة لبيبة عالمة.
- شهدتْ أحداثَ خلافةِ أبيها عليّ رضي الله عنه.
- اشتهرت بالفَصاحة وَالجرأةِ، ولها موقفٌ مشهور أمام عُبيد الله بن زياد.
- حظيتْ زينب بمكانةٍ خاصة في البيت النّبويّ وتوفيت سنة (٦٢هـ) بالمدينة على أرجحِ الأقوال.

زينب بنت علي رضي الله عنها

حَفيدةُ الرَّسول

أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا في السَّماءِ:

هذه امرأةٌ منْ نساءِ أهْلِ البيت، ذات مكانة متميّزة بين نساءِ الإسلام، فهي ذاتُ أصْلٍ ثابتٍ في كَرَمِ الأصول، متطاول الفروعِ في سماءِ الشَّرف والكرم والحسَب والدِّيْن والفضيلة.

ولمّا رحتُ أدرسُ سيرتها في العِقْد الفريد لنساءِ أهل البيت العتيد، وقفتُ طويلاً أمام هذا التّراث التّليدِ لهذه المرأةِ التي شَغَلَتْ مساحةً من تاريخِ النِّساءِ المجيد في صَدْرِ الإسلام.

لقد وجدتُ أنّها منَ المنبتِ الزّاكي، والشَّجرة الطَّيِّبة الكريمة، ذات الأصلِ الثّابت، والفرع المتطاولِ في السَّماء.

وجدتُ أنّها نشأَتْ في بيتٍ تجمَّعَتْ فيه صفاتُ الإنسانية، وخلال الرَّحمة والوفاءِ، وتتهاوى في جنباتهِ شمائل الشَّرف والكرم والحياء.

فهي كريمةُ الأصولِ من جهةِ أبويها. . رجالهم، ونساؤهم. . فمن الرجال:

جدُّها: رسول الله ﷺ، وهو رأس البيت النّبوي، سيّد الأوّلين والآخرين، وأفضل خلْق الله.

وأبوها: سيّدنا عليٌّ بن أبي طالب فارسُ المسلمين، وسيّدٌ منْ أسيادِ الصَّحابة الكرام رضوان الله عليه.

وزوجُها: عبدُ الله بن جعفر بن أبي طالب، السَّيِّد العَالم، أبو جعفر القرشيّ

الهاشميّ، الجَوادُ بنُ الجَواد ذي الجناحين، له صحبةٌ ورواية، رضوان الله عليه.

وأخَوَاها: الحسنُ والحُسين سيِّدا شبابِ أهل الجنَّة، وريحانتا رسول اللهﷺ.

وعمُّها: سيّدنا جعفر بن أبي طالب، أحد نجباء الصَّحابةِ وشجعانهم، قال له رسول اللهﷺ: «أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي» وهو أحد أجواد الصَّحابة، وكرماء الدُّنيا رضي الله عنه.

وأمَّا أصولها وشرفها من جهة النّساء، نذكر:

جدَّتُها: خديجة بنت خويلد أمّ المؤمنين، وأوّل خلقِ الله إسلاماً منَ الرِّجال والنِّساء، الطَّاهرة في الجاهلية والإسلام، وزيرة الصِّدق، وصدِّيقةُ المؤمناتِ الأولى، وممن كمُلَ منَ النِّساء رضوان الله عليها.

وجدَّتُها لأبيها: فاطمةُ بنتُ أسد بن هاشم بن عبد مناف الهاشميّة القرشيّة، إحدى السَّابقات في مواكبِ الفضيلة والفضائل، ومنَ المهاجرات الأُوَل، وممن حازت قصب السَّبْقِ في مضمار الخيرات رضي الله عنها.

وأمُّها: فاطمةُ الزَّهراء بنت النَّبيِّﷺ، الحبيبة النّبويّة، وأمُّ الذّرية الطّاهرة، وسيّدة نساءِ أهل الجنّة، وممن بشَّرها النَّبيُّ بالجنَّةِ، ومناقبها لا تُحصى رضي الله عنها.

وخالاتها: أمّ كلثوم وزينب ورقيّة بنات النّبيِّ الطَّاهرات رضي الله عنه، وهنَّ مع أمِّهنَّ أوّل نساءِ الدُّنيا إسلاماً واستجابة لنور الله.

وأختها: أمّ كلثوم بنت عليّ رضي الله عنهما، إحدى نساء أهل البيت فضلاً وكرماً.

إذن فالمرأةُ التي يطيبُ الحديث عنها من صميم البيت النَّبويِّ، وهي زينب بنت عليّ بن أبي طالب الهاشميّة[1]، سبطة رسول اللهﷺ.

---

(١) الإصابةُ (٤/٤١٣ و٣١٥) وأسدُ الغابة (٦/١٣٢) ترجمة رقم (٦٩٦١) وتجريد أسماء الصحابة للذهبي (٢/٢٧٣) والكامل لابن الأثير (٤/٥٦ و٥٨ و٧٨ و٨١ و٨٦ و٨٨) وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النّساء ص١١٩ ـ ١٢٤) وتاريخ ا لطبري (٣/١٦٢ و٣٣١ و٣٣٣ و٣٣٤ و٣٣٦) وطبقات ابن سعد (٨/٤٦٥) ونسب قريش (ص٤١) وجمهرة

ففي حياةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وفي العام الخامس منَ الهجرةِ المباركة، كان قدومُ زينب بنت عليّ إلى هذه الدُّنيا، لتسجل أجملَ الصَّفحات في أوراقِ الأيام، لتبقى ذات أثرٍ معطار على مرِّ العصور.

ذاعَ في المدينةِ المنوّرة سَنَة ولادتها، أنَّ قد ولدتْ فاطمة الزَّهراء طفلةً سمّاها رسول الله ﷺ زينب حبّاً بأكبر بناته زينب رضي الله عنها.

واستبشر المسلمون منَ المهاجرين والأنصار بهذه الوليدة التي أدخلتِ السُّرورَ إلى قلبِ الحبيب المصطفى ﷺ، وقلب فاطمة الزّهراء رضي الله عنها، وقلب عليّ والحسن والحسين رضي الله عنهم، وهؤلاء عماد البيت النّبويّ الطّاهر، وذريّتهم هي الذّريةُ الطّاهرةُ التي كَتَبَ الله عزَّ وجلَّ لها الخلود في دنيا الخلود.

لقد استقبلَ البيتُ النّبويّ الطّاهر الكريم، هذه الوليدة الكريمة زينب، تلكم التي يفوحُ عبيرها في المهد الصَّغير، إنّه عبير المنبت الطّيب المبارك، فهي سليلةُ الأشرافِ الشُّرفاء، أولئك الذين خصَّهم الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿إنّما يريدُ الله ليذهب عنكم الرّجس أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وممّا لا شك فيه بأنَّ سيدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها، كانت أحبَّ بنات النَّبيِّ ﷺ إلى قلبهِ الشَّريفِ، كما كانتِ الزَّهراء أشبه الخَلْقِ بهِ ﷺ خَلْقاً وخُلقاً ومنطقاً، وهو الذي يقول عنها: «فاطمة بَضْعَةٌ منّي» فلا عجب إذن؛ أنْ تكونَ هذه الوليدةُ الصَّغيرةُ زينب ابنة فاطمة حبيبة إلى قلبِ الرَّسول ﷺ، قريبة من نفسه، وكيف لا؟ وهو معدن الرّحمة، ومعْقل الحنان، ومعقد الرَّجاء!

= أنساب العرب (٣٧/١) ونور الأبصار (ص٢٠١ ـ ٢٠٤) وأعلام النّساء لعمر رضا كحالة (٩١/٢ ـ ٩٩) والسّمط الثمين (ص١٩٤) والأعلام للزّركلي (٦٦/٣ و٦٧) والعقد الفريد (١٣٦/٦) ومقاتل الطّالبيين (ص٩٥ و١١٥ و١١٦ و١١٩ و١٢٠) والأخبار الطّوال (ص٢٢٨) ونساء من عصر التابعين (١٨١/٢ ـ ١٩٢) وبلاغات النّساء لطيفور (ص٢٥) والبداية والنّهاية (٣٣١/٧) و (١٧٧/٨) وبالإضافة إلى عشرات المصادر المتنوعة من حديث وتراجم وطبقات وتاريخ، يُضاف إليها الكتب التي تناولت فصولاً وآثاراً لحياة هؤلاء مثل كتاب الكامل للمبرد وغيره.

لقد أخذتْ زينبُ رضي الله عنها مكانها في البيت النّبويّ، وعُرِفَتْ بمنزلتها الكريمة عند النّبيّ ﷺ، فحقّ لها الخلود مع الخالدين.

زَيْنَبُ وَالزَّهْرَاءُ:

في ذلك الجوِّ الفوّاحِ بعبير التُّقى والإيمانِ، والعبق بنسمات الدِّيْن والورعِ، تفتَّحَتْ زينبُ تلكم النّبتة الزَّاكيةُ الزّكيّةُ التي أنبتها الله نباتاً حَسَناً في المنبتِ الطَّيب المبارك، رأتْ زينبُ منذ أنْ رأَتْ نورَ الحياة، أنَّ النُّور المشرق في وَجْه جدِّها ﷺ هو عبيرُ الحياة، ورأت وَجْه أمّها إحدى كوامل النِّساء في دنيا النّساء، منذ أنْ خَلَقَ الله الأرض ومَنْ عليها، إلى أنْ يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها، ورأتْ في أمّها كلَّ معاني الفضيلة، والمكارم الإنسانية، وفي مقدمتها الصَّبر والدِّيْن والخير والصّيانة والقناعة والشُّكر.

راحت سيّدتنا فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها تُقْبِلُ على صغيرتها الجميلة زينب، وتحنو عليها، وتغذّيها غذاء الإيمان مع رضاع طفولتها. ويبدو أنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها كانت ترى في ابنتها زينب هذه كلُّ معاني الرّحمة والعَطْفِ وخصوصاً بعد أنْ توفيت أختُها زينب زوج أبي العاص بن الرَّبيع في مستهلِّ السَّنَةِ الثَّامنةِ من الهجرة.

وأخذت فاطمةُ الزَّهراء رضوان الله عليها تعدُّ ابنتها الصَّغيرة زينب لتسيرَ على نهج نساء أهل البيت.

رضعتْ زينبُ من ثدي الإسلام، وتغذَّتْ برحيقِ الإيمان، واقتبستِ المعرفة من البيت النّبويّ العريق، ونهلتِ العلمَ من نساء أهل البيت الطَّاهرات، وهي ما تزال طريّة العُود، فقد وجدت أمامها في البيت النّبويّ صفوة النّاس في البيان، وفي المعارف كلّها.

وتمضي الأيامُ، وتطلّ السَّنَة الحادية عشرة من الهجرة، فإذا بالحبيبِ المصطفى ﷺ ينتقلُ إلى الرّفيق الأعلى، وانتبهت زينب على النَّبأ الذي اهتزَّتْ له الجزيرة العربية كلّها، ألا وهو موت جدّها رسول الله ﷺ، لقد رأتْ بكاء الباكين

والباكيات فيما حولها حزناً على الحبيب المصطفى ﷺ.

كم أثّر بقلبها الصَّغير ذلك المشهد الذي ودَّع فيه المسلمون رسولَ الله ﷺ، ولكنّها سُنَّةِ الحياة، نَعَمْ سُنَّةَ الحياة، وقَضَاء الله الذي قضى به على عباده أجمعين.

وتعودُ زينب لتجد أنَّ الأحزان قد أثقلتْ صَدْرَ فاطمة الزَّهراء، لوفاة أبيها، فتراها باكية العين، حزينة الفؤاد، لقد بدأ المرضُ يؤثّر على فاطمة الزّهراء، أمَّا زينب فكانت بقربِ أمّها وهي إذ ذاك لا تتجاوز خمس سنين، وكانت تشفقُ أنْ تموتَ أمّها فتغدو - مع أختها أمّ كلثوم - بلا أمٍّ ترعى مصالحها.

لقد لزمتْ زينبُ وأخواتها فراش أمّها التي اعتلَّتْ بعد وفاةِ النّبيّ ﷺ، كانت زينبُ تنظرُ إلى أمّها بإشفاقٍ، وتعمل على ما يدخل السُّرور إلى قلبها.

ولكنَّ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها لحقتْ بأبيها بعد ستة أشهر راضية مرضية لترثَ الفردوسَ، فانتابَ زينب حزنٌ عميق، وشعرتْ بأنَّ الدَّار، قد أضحتْ موحشة بعد رحيلِ فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها، وها هو أبوها عليّ رضي الله عنه يغمرها بعطفهِ وحبِّه، ويحلّها من قلبهِ مكاناً رَحْباً، فهي تذكّره بالزّهراء، وبأمّه فاطمة بنت أسد، وتذكره بخديجة أمّ المؤمنين رضوان الله عليها.

ودرجت زينبُ في بيت أبيها عليّ وقد تحمَّلَتْ مسؤوليّة هذا البيت منذ نعومة أظفارها، فشغلتْ جزءاً من مكانةِ الأمِّ فيه، وكان أخواها الحسنُ والحسين يحوطانها برعايتهما ما استطاعا إلى ذلك سبيلاً.

وسنرى كيف أثبتتْ زينبُ بنت عليّ رضي الله عنهما، أنّها امرأةٌ من طرازٍ فريد في عالَم النِّساء، وسنرى مسيرها إلى الشَّام، وسنلاحظ مواقفها البارزة، وبيانها الرّائع في مواقف عظيمة يعجزُ عنها كثيرٌ من الرِّجال، ولكنَّ سليلة البيت النّبوي الهاشميّ، سجّلت أنْصَعَ الأثر في عالم الأثر، وعالم التُّراث.

زَوْجُ الجَوَادِ بنِ الجَوَاد:

نشأت زينبُ بنت علي رضوان الله عليهما نشأةً صافية في بيتِ أبيها، ومنذ نعومة أظفارها، لوحظت علائم الذّكاء والنّباهة ترتسمُ على وجهها، فقد كانت

كأمِّها فاطمة الزَّهراء وجدَّتها خديجة صفاءً ونقاءً ودِيْناً وصيانةً، وعُرِفَتْ بين بنات عليٍّ بهذه الصِّفات الكريمة.

ولمَّا بلغت مَبْلَغَ الزَّواج، كان يتهافتُ عليها الطُّلاب من شبابِ عبد شمسٍ وهاشم، ومن غيرِ هاشم وغيرِ قريش.

وأوردتْ المصادرُ أنَّ غيرَ واحد منْ أمراءِ النَّاس قد تقدَّم لخطبةِ زينب، فكان أبوها يردُّه جميلاً، فقد كان عليٌّ رضي الله عنه يريدُ لابنته رجلاً من أقاربه، وكان ما أراد، فقد تقدّم لخطبتها ابن أخيه الشَّقيق عبد الله بن جعفر الجواد بن الجواد..

وعبدُ الله بنُ جعفرَ ـ هذا ـ له صحبةٌ ورِوَايةٌ، ويَعَدُّ مِنْ صِغَار الصَّحابةِ رضوان الله عليهم، استشهد أبوه جعفر في يومِ مؤتة، فكفِلَه الحبيبُ المصطفىﷺ، فنشأ عبد الله في حِجْرِهِ، وصُنِعَ على عينه، ونَهَلَ منْ معينِ البيتِ النَّبويِّ ما استطاعَ إلى ذلكَ سبيلاً.

وعبدُ الله بنُ جعفرَ، هو آخِر مَنْ رأى النَّبيَّﷺ وصَحِبَه منْ بني هاشم، وكان كبيرُ الشَّأْنِ، كريماً جواداً، يصلح للإمامةِ، وكان يشبهُ النَّبيَّﷺ، وفيه قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «وأمَّا عبدُ الله؛ فشبه خَلْقي وخُلُقي».

وَرَدَ في الصَّحيحِ وغيرِه عن عبدِ الله بنِ جعفر رضي الله عنهما قال: كان رسولُ اللهﷺ إذا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، تُلُقِّيَ بالصِّبيان مِنْ أهلِ بيته، وإنّه جيء بأحدِ ابني فاطمة، فأردفه خلفه، فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة[1].

وهذا السَّيِّدُ العالم كان منَ السَّادة الكُبراء، وكان ابن عُمر إذا سلَّم على عبدِ الله بنِ جعفر قال: السَّلامُ عليك يا ابن ذي الجناحين[2].

وعبدَ الله بن جعفر ـ هذا ـ قد حَظِيَ بدعوةِ البركةِ من الحبيب الأَعْظَم محمّدﷺ. فقد ذكر الهيثميُّ في المجمعِ قال: مرَّ النَّبيُّﷺ بعبد الله بن جعفر وهو

---

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٢٨) باب: فضائل عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما. وأخرجه الإمام أحمد (١/٢٠٣).

(٢) فتح الباري (٧/٥١٥).

يلعبُ بالتُّراب فقال: «اللهم بارك له في تجارته»(١).

هذا وقد كان سيّدنا عليٌّ رضوان الله عليه على عِلْمٍ بمكانةِ ابن أخيه، وخَبَرهُ، وعَرَفَ حُبَّ النّبيِّ ﷺ له، ولذا فإنّه اختاره لابنتهِ الأثيرة زينب رضي الله عنها، ليكون زَوْجاً لها.

انتقلتْ زينبُ عليٍّ إلى بيتِ عبد الله بن جعفر، وعاشت معه عزيزة كريمة الجانب، وكانت ودوداً ولوداً.

أخرج ابنُ عساكر بسندهِ عن ابن سعد قال:
زينبُ بنتُ عليّ بنِ أبي طالب، وأمّها فاطمة بنت رسول الله ﷺ، تزوّجها عبدُ الله بن جعفر بن أبي طالب، فولدتْ له: عليّاً، وعوناً الأكبر، وعبّاساً، ومحمّداً، وأمّ كلثوم(٢).

وقد نَشَأَ أولادُها هؤلاء أكْرَمَ نشأةٍ، فكانوا كلّهم مِنْ أعلامِ العلماء، وحفظةِ الحديث النّبويّ الشّريف، فرووا عنْ أبيهم عبد الله بن جعفر، وكانوا من علماءِ الثّقات، ومن ثقاتِ العُلماء.

كانت زينبُ رضيَ الله عنها قد عاشت مع عبدِ الله بن جعفر، ذلك السَّيِّد الشَّهم النَّبيل الكريم، وكان سخيّاً جَواداً له أخبارٌ رائعةٌ في البذلِ والكرم، وعن جودهِ أشار أحدُ الشُّعراء حينما امتدح أحد الأمراء فقال:

وما كنتُ إلا كالأغرِّ ابن جَعْفر
رأى المالَ لا يبقى فأبقى له ذِكْرا

نعم فقد كانتِ الأموالُ لا تستقرُّ في جيبِ عبدِ الله، أو في بيته، ويتوافقُ حاله مع قول القائل:

وإنّي امرؤٌ لا تستقرُّ دَرَاهمي
على الكفِّ إلا عابراتُ سبيل

---

(١) مجمع الزوائد (٩/٢٨٦) وقال: رواه أبو يعلى والطبراني، ورجالهما ثقات.
(٢) تاريخ مدينة دمشق (ترجم النساء ص١٢١) وطبقات ابن سعد (٨/٤٦٥).

وكانت زينبُ رضي الله عنها مِعْوَاناً لزوجها على الكرم، وكيف لا، وهي سليلة آلِ البيت النّبويّ الأجواد؟ وتشيرُ أخبارها إلى أنَّها كانت تحضُّه على إكرام الوافدين إليه، كيما ينالوا نواله وعطاءه؛ وأعتقد أنَّها شهدت واقعة تدلُّ على كرمِهِ الشَّديد الذي تجاوز كرم الكرماء.

حدَّثَ الأصمعيُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ امرأةً أَتَتْ بدجاجةٍ مسموطةٍ في مِكْتَلٍ، فقالت لعبدِ الله بن جعفر: بأبي أنتَ! هذه الدَّجاجةُ كانتْ مثلَ بُنَيّتي، آكلُ مِنْ بيضِها وتؤنسُني، فآليتُ أن لا أدفنها إلا في أكرمِ موضعٍ أقدرُ عليه، ولا والله ما في الأرض أكرم منْ بطنِكَ!.

قال عبدُ الله بن جعفر رضي الله عنهما: إذن، خذوها منْ هذهِ التي قصدَتْنَا، واحملوا إليها من الحنطةِ كذا، ومن التَّمر كذا، وأعطوها منَ الدَّراهم كذا، وذكر أنواعاً كثيرة منَ العطاء، حتى تعجَّبَتْ تلك المرأة وهتفتْ قائلةً: بأبي أنتَ! ﴿إنَّ الله لا يحبُّ المُسْرفين﴾[1] [الأنعام: ١٤١].

وطار هذا الخبرُ بين النّاس، وتداولته الألسنة في المجالسِ، فراق للشُّعراء ذلك، فقال الشَّماخ بن ضرار من رقائق كلامه يمتدحه:

إنَّك يا ابن جعفر نِعْمَ الفتى ونِعْمَ مأوى طارقٍ إذا أتى
وربَّ ضيفٍ طرقَ الحيَّ سُرى صادفَ زاداً وحديثاً ما اشتهى
إنَّ الحديثَ جانبٌ منَ القِرَى[1]

وأخبار الكرم والكرام والمكارم[2] تشحذُ الهمم، وتصقلُ النُّفوس، وتهذِّبُ طباع المتعلّمين، وممّا يصلح ذكْرُهُ في هذا المقام، ما أورده الذَّهبيُّ في ترجمةِ عبد الله بن جعفر، حيثُ قال: يُروى أنَّ شاعراً جاءَ إلى عبدِ الله بن جعفر، فأنشده:

رأيتُ أبا جعفرٍ في المَنَام كساني من الخزِّ دُرَّاعه

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٨٣/١٢) بشيء من التصرف.

(٢) قال خَلَفُ الأحمر: ومن سُنَّةِ الأعراب إذا حدّثوا الغريب، وهشّوا إليه، وفاكهوه، أيقنَ بالقرى، وإذا أعرضوا عنه، أيقن بالحرمان، فمن ثم قيل: إن الحديث جانب القرى.

شكوتُ إلى صاحبي أمْرَها فقال ستُؤتى بها السَّاعه
سَيَكْسُوكَها الماجدُ الجعفريّ ومن كفُّه الدَّهر نفّاعه
ومَنْ قال للجودِ لا تعدني فقال له السَّمْع والطَّاعه

فقال عبد الله لغلامه: أعْطِهِ جبَّتي الخزّ.

ثمَّ قال له: ويحك كيف لم تَرَ جبَّتي الوشي؟

فقال: أنامُ فلعلّي أراها.

فضحكَ عبدُ الله، وقال: ادفعوها إليه[1].

أليس عبد الله هذا بحاتَمِ الأجوادِ، وخَاتَمِ الأَجواد؟!!

وكأنَّ الشَّاعر عَنَاه بقوله:

فتىً تهربُ الأَمْوالُ منْ جودِ كفِّهِ
كما يهربُ الشَّيطان من ليلةِ القَدْرِ

وعرفَ النَّاس أنَّ زينبَ بنتَ عليٍّ رضي الله عنهما من نساءِ أهل البيت النّبوي الكريم، وأنَّ زوجَها عبد الله بن جعفر بحرُ الجودِ والمعروف، ولذلك فإنّ كثيراً مِنَ الأعراب كانوا يقصدون البيت الذي يفيضُ بالنَّدى على كلِّ مَنْ يقصده، وكان هؤلاء القصّاد يدركون مكانة زينب وعبد الله في البيت النّبويّ، فكانوا يذكرون ذلك في امتداحهم.

ذُكِرَ أنَّ أعرابيّاً قَصَدَ مروان بنَ الحاكمِ أمير المدينة[2] يطلبُ منه نوالاً، فاعتذرَ مروان للأعرابيّ، وقال له: يا أخا العرب، ليس عندنا شيء الآن، ولكنّي أرشدك إلى ابنِ ذي الجناحين عبد الله بن جعفر، فهو كَهْفُ الفضائلِ والجود.

فانطلقَ الأعرابيُّ يسأل عن عبدِ الله بن جعفر صهر سيّدنا عليّ بن أبي طالب، فأرشدوه إلى منزلِ عبد الله، ولما لقيه أنشأ الأعرابيُّ يقول:

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٤٥٩ و٤٦٠).

(٢) عندما وليَ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما الخلافةَ، ولّى مروانُ بن الحاكم المدينة مرتين، مرّة من سنة (٤٢ ـ ٤٩هـ) ثمّ تولاها مرّة أخرى سنة (٥٦ ـ ٥٧هـ).

أبوجعفر منْ أهلِ بيت نبوّةٍ صلاتُهم للمسلمينَ طهورُ

فرحَّبَ به عبدُ الله بن جعفر، ثمَّ تابعَ الأعرابيُّ يذكر حاجته وما لاقاه منْ مروانَ فقال:

أبا جعفرٍ إنَّ الحجيجَ ترحَّلوا وليسَ لرحْلي فاعْلَمَنَّ بعيرُ
أبا جعفرٍ ضَنَّ الأميرُ بمالهِ وأنتَ على مافي يديكَ أميرُ
أبا جعفرٍ ياابن الشَّهيد الذي له جناحان في أعلى الجنانِ يطيرُ
أبا جعفرٍ مامثلك اليوم أرتجي فلا تتركني بالفلاةِ أدورُ

فالتفتَ عبدُ الله بن جعفر إلى الأعرابي، وأشار إلى راحلةٍ محمّلةٍ وعليها سيفٌ ثمينٌ فقال: يا أعرابي، سار الثّقل، فعليكَ بالرّاحلةِ بما عليها، وإياك أنْ تُخْدَعَ عنِ السَّيفِ فإنّي أخذتُه بألفِ دينار.

وانطلقَ الأعرابيُّ إلى باديتهِ وهو يثني على أهلِ البيتِ النّبويّ، مَنْبع الجود، ونَبْع الكرم والمكارم(١).

وقَصَصُ كرم البيت النّبويّ لا تتسعُ لها هذهِ الصّفحات، ولكنّا أحببنا أنْ نعطِّرَ الأسماعَ والأفواه بشيءٍ منْ كرمِ هؤلاء الأعلام الأطهار.

زَيْنَبُ وَخِلاَفَةُ أَبِيْهَا:

عاشت زينبُ بنتُ عليٍّ رضوان الله عليهما شَطْرَ حياتها في ظلالِ الخلافةِ الرَّاشدة بالمدينةِ المنوّرة، ولمّا بُويع سيّدنا عليّ بن أبي طالب بالخلافةِ في سنةِ خمسٍ وثلاثينَ من الهجرة النّبويّة، كان عُمْرُ زينبَ يقتربُ منَ الثلاثين، وشهدتْ أحداثَ الخلافةِ كاملة، لقد شهدت والدها وهو يصعدُ المنبرَ ليخطبَ أوَّل خطبةٍ له بعد أنْ تولّى الخلافة فقال:

إنَّ الله تعالى أنزلَ كتاباً هادياً، بَيَّنَ فيه الخير والشَّر، فخذوا بالخير، ودعوا الشَّر، إنَّ الله حرَّم حرماً مجهولة، وفضَّلَ حرمةَ المسلمِ على الحرم كلّها، وشدَّ

---

(١) من سيرة أعلام النبلاء (٣/٤٥٩) بتصرف يسير.

بالإخلاصِ والتَّوحيد حقوق المسلمين، والمسلم مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحقّ، لا يحلّ لمسلمٍ أذى مسلم إلا بما يجب، بادروا أَمْرَ العامّةِ، وخاصّة أحدكم الموت، فإنّما ينتظر بالنّاس أخراهم، اتقوا الله عبادِه وبلادِه، فإنّكم مسؤولون حتى عنِ البقاع والبهائم، ثمّ أطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشرَّ فدعوه ﴿واذكروا إذْ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض﴾ [الأنفال: ٢٦](١).

ثمَّ إنَّ سيّدنا عليَّ بنَ أبي طالب غادرَ المدينةَ نحو العراق، وكانت بصحبته ابنته زينب، وكذلك صهره عبد الله بن جعفر، فقد كان عبد الله أحد الفرسان في جيش عليّ يوم صفّين؛ قال أبو عُبيدة ـ رحمه الله ـ: كان على قُريش وأَسَد وكِنانة يوم صفّين عبد الله بن جعفر(٢).

وعاشت زينبُ أحداثَ خلافة أبيها في الكوفةِ بالعراق، وكان سيّدنا عليّ رضي الله عنه قد تنغّصتْ عليهِ الأمورُ، واضطرب عليه جيشه، وخالفه أهل العراق، ونكلوا عن القيامِ معه، وضَعُفَ جأشهم، وكان أميرهم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه خير أهل الأرض في ذلك الزّمان، أعبدهم وأزهدهم، وأعلمهم وأخشاهم لله عزَّ وجلَّ، ومع هذا كلّه، خذلوه، وتخلّوا عنه، حتى كرهَ الحياة، وذلك لكثرة الفتن، وظهور المحن(٣).

ولمّا كان شهرُ رمضانَ عام أربعين من الهجرةِ، قُتِلَ سيّدنا عليّ شهيداً، وشهدتْ زينبُ ابنته مقتله، ولمّا احتُضِرَ جَعَلَ يكثرُ منْ قول لا إله إلا الله، حتى قُبِضَ رضي الله عنه.

وبكتْ زينبُ أباها بكاءً شديداً، فقد كان حادث مقتله أليماً على الأمّة الإسلامية آنذاك، وعلى الدّنيا بأسرها، وعلى أهل البيت النّبوي الطّاهر، ولكنَّ أَمْرَ الله كان قَدَرَاً مقدوراً.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٧/٢٢٦ و٢٢٧).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٤٦٠).

(٣) عن البداية والنهاية (٧/٣٢٣) بشيء من التصرف.

زَيْنَبُ وَالحُسَيْنُ:

في العراقِ مرّةً أخرى، تفقدُ زينب أخاها الحُسين بن عليّ رضي الله عنهما، فَقَدَتْهُ بعد مَقْتل أبيها بأكثر من عشرين سَنَة، كان مقتلُ الحُسين رضي الله عنه في كربلاء يوم عاشوراء سنة إحدى وستين من الهجرة النّبويّةِ.

لم تفقدْ زينبُ أخاها وَحْدَه في كربلاء، وإنّما قُتِلَ عددٌ كبيرٌ منْ أهلِ بيتها.

قال الإمام الذّهبيُّ ـ رحمه الله ـ:

ولم يفلتْ منْ أهلِ بيت الحُسَين سوى ولدِه عليّ الأصغر، فالحُسينية من ذريّته، كان مريضاً.

وحَسن بنُ حَسن بن عليّ، وله ذريّة

وأخوه عمرو، ولا عقب له.

والقاسم بنُ عبد الله بنِ جعفر.

ومحمّد بن عقيل.

فَقَدِمَ بهم وبزينب، وفاطمة بنتي عليّ، وفاطمة وسكينة بنتي الحُسَين، وزوجته الرَّباب والدة سكينة، وأمّ محمّد بنت الحسن بن عليّ، وإماء لهم[1].

كانت زينبُ مع أخيها الحُسين رضي الله عنهم، لما كان في كربلاء، ويبدو أنّها شَعَرتْ بما سيحلُّ بالبيتِ النّبويّ من كارثة، ولكنَّ الحُسينَ رضي الله عنه كان يخبرها بأنّه لكلّ أجلٍ كتاب.

روى عليُّ بنُ الحُسين ـ زين العابدين ـ هذا الخبر، وأورده قصّة عمّته زينب بنت عليّ مع والدِهِ الحُسين فقال: إنّي لجالسٌ تلك العشية التي قُتِل أبي في صبيحتها، وعمّتي زينب تمرضني، إذ اعتزلَ أبي في خبائهِ، ومعه أصحابه، وعنده حُويٌّ مولى أبي ذَرٍّ الغفاريّ، وهو يُعالج سيفه ويصلحه، وأبي يقول:

يا دهرُ أفٍ لك مِنْ خَليلِ ... كَمْ لَكَ بالإشْراقِ والأَصيلِ
مِنْ صَاحبٍ أَوْ طَالبٍ قَتيلِ ... والدَّهْرُ لا يقنعُ بالبديلِ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣٠٣/٣)

وإنَّما الأَمْرُ إلى الجليلِ وكلُّ حيٍّ سالكُ السَّبيلِ

فأعادها مرتين أو ثلاثاً حتّى حفظتُها، وفهمتُ ما أراد، فخنقَتْني العبرةُ، فرددتها، ولزمتُ السُّكوت، وعلمتُ أنَّ البلاءَ قد نزل؛ وأمّا عمّتي، فقامتْ حاسرةً حتى انتهت إليه، فقالت: واثكلاه! ليتَ الموتَ أعدمني الحياة اليوم! ماتتْ أمّي فاطمة، وعليّ أبي، وحسن أخي، يا خليفة الماضي، وثمال الباقي.

فنظرَ إليها وقال: يا أُخيّة، لا يذهبنَّ حِلْمك الشَّيطان. فقالت: بأبي أنتَ وأمّي أبا عبد الله استقتلتَ؟! نفسي لنفسكَ الفدى! ولطمتْ وجهها، وشقّتْ جيبها، وخرَّتْ مغشياً عليها، فردّد غُصَّتَه، وترقرقَتْ عيناهُ، وقامَ إليها، فصبَّ على وجهها الماء وقال: يا أُخيّة، اتقي الله واصبري، وتعزي بعزاءِ الله، واعلمي أنَّ أهلَ الأرض يموتون، وأنَّ أهلَ السَّماء لا يبقون بقدرته، ويميتهم بقهره وعزّته، ويعيدهم فيعبدونه وحده، وهو فردٌ وحْدَه.

يا أُخيّة اعلمي أنَّ أبي خيرٌ منّي، وأمّي خيرٌ مني، وأخي خيرٌ منّي، ولي ولهم ولكلّ مسلم برسولِ الله أسوة حَسَنة.

ثمَّ حرج عليها أنْ لا تفعل شيئاً من هذا بعد مهلكه، ثمَّ أخذ بيدها فردّها إلى عندي[1].

وبعد ذلك أخذ الحَسَنُ يعزيها بنحو الكلام الذي تقدم، ثمّ قال لها: يا أُخيّة زينب، إنّني أقسمُ عليك لا تشقّي عليَّ جيباً، ولا تخمشي عليَّ وجهاً، ولا تدعي عليَّ بالويل والثّبور إنْ أنا هلكتُ[2].

وقُتِلَ الحُسَين رضي الله عنه شهيداً، ووجد فيه ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة غير الرَّمية[3].

رُويَ عن محمّد بنِ الحنفية أنّه قال: قُتِلَ مع الحُسين سبعة عشر رجلاً كلّهم

---

(١) عن البداية والنهاية (١٧٧/٨) بتصرف يسير جداً.

(٢) الكامل لابن الأثير (٥٩/٤).

(٣) الكامل (٧٩/٤) والبداية والنهاية (١٨٨/٨).

من أولاد فاطمة.

وعنِ الحَسَنِ البصريّ أنّه قال: قُتِلَ مع الحُسين ستة عشر رجلاً كلّهم من أهل بيته، ما على وجه الأرض يومئذ لهم شبه.

وذكر آخرون أنّه قد قُتِلَ مع الحُسَين من ولده، وإخوته، وأهل بيته ثلاثة وعشرون رجلاً:

فمن أولاد عليّ رضي الله عنه: جعفر، والحُسين، والعبّاس، ومحمّد، وعثمان، وأبو بكر.

ومن أولاد الحُسين: عليّ الأكبر، وعبد الله.

ومن أولاد أخيه الحسن ثلاثة: عبد الله، والقاسم، وأبو بكر بنو الحسن بن علي بن أبي طالب.

ومن أولاد عبد الله بن جعفر اثنان: عوف ومحمّد ـ وغيرهما من أولاد زينب.

ومن أولاد عقيل: جعفر، وعبد الله، وعبد الرّحمن، ومسلم، وغيرهم[1].

وبعد مرورٍ يومين على مَقْتَل الحُسين، حُمِلَ بناته وأخواته ومَنْ كان معه من الصِّبيان، وأُرْكِبُوا على الرَّواحل في الهوادج، واجتازوا بهم على الحُسَين وأصحابه صرعى مطروحين على أرض كربلاء، هنالك بكته النِّساء، وصَرَخْنَ، ولطمن خدودهن، وصاحت زينبُ، ونَدَبَتْ أخاها الحُسين وأهلها، فقالت وهي تبكي: يا محمّداه، يا محمّداه، صلى عليك ملائكة السَّماء، هذا حُسين بالعراء، مزمل بالدِّماء، مقطع الأعضاء، يا محمّداه، وبناتك سبايا، وذريّتك مقتلة، تسفي عليها الصَّبا!!.

ولما ندبت زينب أخاها الحسين أبكت كلّ عدوٍ وصديق[2].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٩٤/٨).

(٢) عن الكامل (٨١/٤) والبداية والنهاية (١٩٣/٨) مع الجمع والتصرف.

زَيْنَبُ وَشَجَاعَةٌ نَادِرَةٌ:

كانت زينبُ بنت عليّ رضي الله عنها امرأة من طراز فريد بين النِّساء اللاتي عِشْنَ في عصر النّبوّةِ، وعَصْرِ الخلافة الرّاشدة، وصَدْرِ الدُّولة الأمويّة، فقد كانت ذات شجاعة عظيمة، وكانت عاقلة لبيبة ذات رأيٍ صائب، لا تخاف منَ الكلام في أصعب المواقف، وإنّما تتحدث بقوةٍ وثبات جَنَان. وقد احتفظ لنا التّاريخ في ذاكرته مواقف وضيئة لها أمام الأمراء والخلفاء.

ولما دخلتْ زينبُ وبقيّة آل بيتها الكوفة، أدخلوهم على عُبيد الله بن زياد، وإذ ذاك دخلتْ زينبُ رضي الله عنها، وقد لبستْ أرذل ثيابها، قد تنكّرت وحفّتْ بها أماؤها.

فقال عُبيد الله بن زياد: مَنْ هذه الجالسة؟ وأشار إلى زينب!! فلم تكلمْهُ زينب بحرفٍ واحد؟ فقال ذلك ثلاثاً وهي لا تكلمه؛ وعند ذلك قال بعض إمائها: هذه زينب بنت فاطمة.

فقال لها ابنُ زياد: الحمد لله الذي فضحكم وقتّلكم وأكذب أحدوثتكم!

وعندئذ قالت زينبُ في لهجةٍ حادَّةٍ حازمة: بل الحمد لله الذي أكرمنا بمحمّد، وطهّرنا تطهيراً، لا كما تقول - يا ابن زياد - وإنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر.

فقال ابنُ زياد وقد كُسِرت شوكته: فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟ فقالت بلهجةٍ أشدّ وأقوى: كُتب عليهم القَتْل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينْك وبينهم، فيحاجوك إلى الله عزَّ وجلَّ.

ولّما سمع عُبيد الله بن زياد هذا الكلام من السَّيِّدة الحازمة زينب بنت عليّ رضي الله عنها، أَخَذَهُ الغضب، وظهرت عليه سَوْرته، واستشاط، فقال له عمرو بن حريث:

أصلح الله الأمير!! إنّما هي امرأة، وهل تُؤَاخذ المرأة بشيءٍ من منطقها؟ إنّها لا تؤاخذ بما تقول، ولا تُلام على خَطَل.

عندها قال ابنُ زياد لزينب: قد شفى الله غيظي من طاغيتك، والعصاة

المردة من أهل بيتك.

فبكت زينبُ رضي الله عنها؛ ثمّ قالت له بحزمٍ: لعمري لقد قتلت كهلي، وأبرزت أهلي، وقطعتَ فرعي، واجتثثت أصلي، فإنْ يشفك هذا فقد اشتفيتَ.

فتعجَّب ابنُ زياد من جرأتها، ووجم قليلاً، ثمّ قال: هذه شُجاعة، لعمري لقد كان أبوك شجاعاً!.

فقالت زينب بشيء من السُّخرية: ما للمرأة والشَّجاعة[1]!!

ولما أراد عُبيد الله بن زياد أنْ يقتل عليّ بن الحسين، قال له عليّ: مَنْ توكّل بهذه النِّسوة؟! فلم يَرُدَّ ابن زياد، وعندئذ تعلقتْ زينب بابن أخيها عليّ بن الحسين، وقالت: يا ابن زياد، حسبك منّا ما فعلت بنا، أَما رويتَ من دماءنا؟ وهل أبقيت منّا أحداً؟ ثمّ اعتنقتْ ابنَ أخيها، وقالت: أسألك بالله إن كنتَ مؤمناً إنْ قتلته لما قتلتني معه.

فقال له عليّ بن الحسين: يا ابن زياد، إن كان بينك وبينهن قرابة، فابعث معهن رجلاً تقياً يصحبهن بصحبةِ الإسلام.

فنظر عُبيد الله إلى زينبَ ساعة، ثمّ نظر إلى القوم أيضاً فقال: عجباً للرّحم!! والله إنّي لأظنُّ أنّها ودَّتْ لو أنّي قتلته أنْ أقتلَها معه، دعوا الغلام ينطلق مع نسائه[2].

ثمّ إنَّ عُبيد الله بن زياد أمر بزينب، وبنساء الحُسين وصبيانه وبناته، فجهزن، وأرسل بهنَّ إلى الشَّام إلى يزيدَ بنِ معاوية، وهناك كان لزينب موقف جريء، لا يقلّ روعة عن موقفها أمام ابن زياد. فلنشهد هنالك حزمها وجرأتها وشجاعتها.

الحَازِمَةُ العَاقِلَةُ:

قدم آلُ الحسين دمشق، ودخلوا على يزيد بنِ معاوية، وكانت هيئتهم رثّة

(١) عن الكامل (٤/٨١ و٨٢) والبداية والنهاية (٨/١٩٣) مع الجمع والتصرف اليسير.
(٢) عن البداية والنهاية (٨/١٩٤) بشيء من التصرف.

منَ السَّفر، ويبدو أنَّ يزيد بن معاوية قد استحيا منْ ذلك، فأكرمَ مثواهم، وجَرَتْ محاورة بينه وبين زينب بنت عليّ تشير إلى حزمها، ورجاحة عقلها، وإلى شجاعتها في مثل هذا الموقف، وشهد شاهدٌ من أهلها بذلك.

رُوي عن فاطمةَ بنتِ علي ـ أخت زينب لأبيها ـ أنّها قالت:
لما أجلسنا بين يدي يزيد، رقّ لنا، وأمر لنا بشيء، وألطفنا، ثمَّ إنَّ رجلاً منْ أهل الشَّام أحمر قام إلى يزيد فقال: يا أمير المؤمنين، هَبْ لي هذه ـ يعنيني ـ وكنتُ جاريةً وضيئةً، فارتعدتُ فزعةً من قوله، وظننتُ أنْ ذلك جائز لهم، فأخذتُ بثياب أختي زينب ـ وكانت أكبر مني وأعقل، وكانت تعلم أنَّ ذلك لا يجوز ـ فقالت لذلك الرجل: كذبتَ والله ولؤمتَ، ما ذلك لكَ وله.
فغضب يزيد فقال لها: كذبتِ! والله إنَّ ذلك لي، ولو شئت أنْ أفعله لفعلت.
قالت زينبُ بحزمٍ وجرأة: كلا يا يزيد! والله ما جعل الله ذلك لك، إلا أنْ تخرجَ من ملّتنا، وتدينُ بغير ديننا.

وعندئذ، غضبَ يزيد غضَباً شديداً، وشُوهد الدّم يصعدُ إلى وجهه، وترتسمُ إماراتُ الاضطرابِ عليه، وكاد يستطير من شدة الهياج، ثمّ قال لزينب: إياي تستقبلين بهذا؟! إنّما خرج من الدِّيْنِ أبوك وأخوك..
فقالت زينبُ في حزمٍ يدلُّ على عَقْلٍ وقوة جَنَان[1]: بدينِ الله، ودين أبي، ودين أخي وجدي، اهتديت أنتَ وأبوكَ وجدّك.
قال يزيد في حدّة أقل من الأولى: كذبتِ يا عدوة الله.
قالت زينب: أنت أمير المؤمنين مُسَلّط تشتمُ ظالماً، وتقهر بسلطانك.

تقول فاطمة بنت عليّ راوية هذا الخبر: فوالله لكأنَّ يزيد بن معاوية استحى، فسكت.
ثمَّ قال ذلك الرَّجل فقال: يا أمير المؤمنين هَبْ لي هذه ـ وأشار إليّ ثانية ـ فقال له يزيد: اعزب، وهبَ الله لكَ حتفاً قاضياً؛ وأمره بالسُّكوت.

---

(١) قال ابن الأثير في «أسد الغابة»: كانت زينب امرأة عاقلة لبيبة جزلة.

والتفتَ يزيد بن معاوية إلى النُّعمان بن بشير[1] رضي الله عنهما، وأمره أنْ يبعث مع آلِ البيت النَّبويّ إلى المدينةِ المنوّرة رجلاً منَ الأمناء الأوفياء، ويصحبه رجالٌ وخيل وعدّة وسلاح[2].

وصمت يزيد بعد ذلك لحظات، ثمّ أمَرَ بنساءِ أهل البيت وفيهم زينب، فأدخلنَ على نسائه وحريمه في دار الخلافة، وأمر نساء آلِ معاوية أنْ يبكين، وينحن على الحُسين، فأقمنَ المأتم والمناحة ثلاثة أيام، وبكت زوجة يزيد أمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر، فقال يزيد: حقّ لها أنْ تعول على كبير قريش وسيدها.

وفي تلكَ الأيام، كان يزيدُ لا يتغذى ولا يتعشى إلا ومعه عليّ بن الحسين وأخوه عمر بن الحُسين، فكان يكرمها ويلطف بهما، وكان يعتذر إلى عليّ بنِ الحسين عمّا حدث، وقال له: إنَّ الله قد قضى ما رأيت.

ولما انتهتِ الأيامُ الثَّلاثة، ودّعهم يزيد، وجهزّهم وأعطاهم مالاً كثيراً، وكساهم، وأوصى بهم ذلك الرجل الشَّامي التَّقي وقال له: كاتبني بكلِّ حاجة تكون لك.

وفي الحقيقةِ كان ذلك الرَّجل مستوصياً تقيّاً نقيّاً محبّاً لأهلِ البيت النَّبويّ الطّاهر، فحبّهم يصقل النّفوس، ويغسل القلوب منَ الشّوائب، وقد بلغ من أدبِ ذلك الرِّجل الذي أرسله يزيد معهن، أنّه كان يسير عنهن بمعزلٍ من الطّريق، ويبعد عنهن بحيث يدركهنّ طرفه، وهو في خدمتهم حتى وصلوا المدينة المنوّرة.

---

(١) النُّعمان بن بشير بن سعد الأنصاريّ الخزرجيّ، الأميرُ العالم، صاحب رسول الله ﷺ وابنُ صاحبه، وَلد النُّعمان سنة اثنتين من الهجرة، وعدّ من الصَّحابة الصّبيان باتفاق. كان من أمراء معاوية، ولاّه الكوفة مدّة، ثمّ ولي قضاء دمشق، ثم ولي إمرة حمص. قُتل في قرية «بِيْرين» بعد وقع مرج راهط في آخر سنة (٦٤هـ) ويبلغ مسنده (١١٤ حديثاً) وأحاديثه مروية في الصّحاح رضي الله عنه. (سير أعلام النبلاء ٣/٤١١ و٤١٢).

(٢) عن البداية والنّهاية (٨/١٩٤ و١٩٥) وسير أعلام النبلاء (٣/٣٠٩ و٣١٠) مع الجمع والتصرف اليسير. وانظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص١٢٢ و١٢٣).

وكانت زينب وأختها فاطمة، ومَنْ معهن مِنَ النِّساء يقدرن شهامة ذلك الرّجل الطّاهر، ولذلك قالت فاطمة لأختها زينب: يا أختي، إنَّ هذا الرَّجل الذي أُرسل معنا قد أحسن صحبتنا، فهل لكِ أنْ نَصِله ونكرمه؟!

فقالت زينب: والله يا أختي ما معنا شيء نصله به إلا حُلّينا.

فقالتا معاً: نعطيه حلّينا.

فأخذت كلّ واحدة منهما سوارهما ودملجها، ثمّ بعثتا به إليه، واعتذرتا إليه وقالتا: هذا جزاؤك بحُسْنِ صحبتك معنا، وإخلاصك في سفرنا هذا، ولو كان معنا أكثر لبعثنا به لك، واعتذرتا إليه ثانية.

ولكنَّ الرَّجل الشَّامي قال في هدوء، وعيناه تدمعان:

والله، لو كان الذي صنعتُ معكم، إنّما هو للدّنيا، كان في هذا الذي أرسلتموه ما يرضيني وزيادة، ولكنْ والله ما فعلتُ ذلك إلا لله تعالى. ولقرابتكم منْ رسولِ الله ﷺ.

ثمّ إنَّ ذلك الرَّجل، ردَّ الحلي إلى السَّيدتين الكريمتين زينب وفاطمة ابنتي علي رضي الله عنهم، وأبى أنْ يأخذَ شيئاً ممّا بعثنا إليه، وطلب منهما الدُّعاء له، ثم قَفَل راجعاً من حيث أتى، بعد أنْ زار المسجد النّبوي الشّريف.

لقد عادتْ زينبُ إلى المدينة المنّورة بعد أنْ دَفَنَتْ بكربلاء أخاها الحُسين رضي الله عنه، ودفنت ولديها كذلك حيث قُتِلا شهيدين مع خالهما الحُسين، بينما كان أبوهما عبد الله بن جعفر في المدينة قد تلقّى نَعْيَ ولديه بالصَّبر والتَّسليم لقضاءِ الله وقدره.

روى ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ في كتابه «الكامل» هذا الخبر عن سماحةِ وصبر عبد الله بن جعفر فقال:

لّما بلغ عبد الله بن جعفر ـ رضي الله عنهما ـ قَتْل ابنيه مع الحسين رضي الله عنه، دخل عليه بعض مواليه يعزيه، والنّاس يعزونه، فقال مولاه: هذا ما لقيناه من الحسين!.

فحذفه ابنُ حعفر بنعله، وقال: يا ابن اللخناء، أللحُسين تقول هذا؟ والله لو

شهدته لأحببتُ أنْ لا أفارقه حتى أقتل معه، والله إنّه لمّا يُسَخّي بنفسي عنهما، ويهون عليّ المصاب بهما، أنّهما أُصيبا مع أخي، وابن عمّي، مواسيّيْن له، صابرين معه.

ثمّ قال: إنْ لم تكن آستِ الحُسينَ يدي، فقد آساه ولديّ[1].

الله أكبر، ألا ما أعظم هذه النّفوس، وما أكرم هذه القُلوب التي تغذّتْ على مائدة البيت النّبويّ الطّاهر، فنضحت بأنبل المكارم، وأكرم المواقف في أعظم المشاهد!

زَيْنَبُ وَالعِلْمُ:

لا بدَّ لنا، ونحنُ في تطوافنا مع زينبَ ابنةِ عليّ رضي الله عنهما أنْ نقفَ معاً باب العلم، فقد كانت زينب رضي الله عنهما واحدة منَ المحدّثات اللاتي روين الحديث النّبويّ الشّريف، وحدَّثن عن غيرهن، ونقلنَ العِلْم إلى النّاس وشُداة المعرفة.

حدثت زينبُ عنْ أمِّها فاطمة الزّهراء بنت رسول الله ﷺ، كما حدثت عن أمِّ زوجها أسماء بنت عُميس رضي الله عنها.

وحدَّثَتْ زينبُ كذلك عن مولى للنّبيِّ ﷺ اسمه طهمان، أو ذكوان.

وقد حدَّث عن زينبَ عددٌ منْ جِلّة العُلماء والفقهاء والتّابعين فروى عنها محمّد بن عمرو، وعَطَاء بن السّائب منَ الرِّجال.

وروى عنها من النِّساء: ابنة أخيها فاطمة بنت الحُسين بن عليّ وهي إحدى سيّدات نساء عَصْر التّابعين فِقْها وعلماً، وإحدى النِّسوة القدوة في تاريخ النِّساء[2].

ومِنْ مروّياتها ما أخرجه ابنُ عَساكر ـ رحمه الله ـ بسنده عن روايتها عطاء بن

---

(١) الكامل لابن الأثير (٤/٨٩).

(٢) اقرأ سيرة فاطمة بنت الحُسين في كتابنا «نساء من عصر التّابعين» (١/٣١ ـ ٤٨) ففي سيرتها لمسات مباركة، ومواضع ندية، ومواقف مشرقة.

السَّائب قال: دلّني أبو جعفر على امرأة يُقال لها زينب بنت عليّ - أو مِنْ بنات عليّ - قالت: حدثني مولى للنّبيّ ﷺ يقال له: طهمان - أو ذكوان - أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الصَّدقةَ لا تحلّ لمحمدٍ ولا لآلِ محمد، وإنَّ مولى القوم منهم»(1).

هذا، وقد تركت زينبُ رضي الله عنها بعض الحِكَم التي تفيضُ بكمال العطاء الأدبي، وترفد تراثنا بثروة فكرية رائعة، من ذلك ما حفظ من كلماتها، أنّها كانت تقول:

مَنْ أرادَ أنْ يكونَ الخلق شُفعاءه إلى الله عزَّ وجلَّ فليحمده أَلَمْ تسمع قولهم: سَمِعَ الله لمن حمده؟ فخفِ الله لقدرته عليك، واستحِ منه لقربك منه.

مَعَ الأَبْرارِ وَالخَالِدينَ:

تركتْ زينبُ بنتُ عليّ رضي عنها ذِكْراً حَمِيداً في دُنيا نِساء البيت النّبويّ خاصّة، ودنيا نساء الصّحابة عامّة، وقد بارك الله في ذريّتها، حيثُ أخرج منها الكثير الطّيِّب، وذكر غيرُ واحد من علماء النّسب أنَّ ذريّة زينب ابنة علي موجودة بكثرة في مختلف البلاد.

وذريّة زينب بنت عليٍّ رضي الله عنهما لها خصائص البيت النّبويّ، قال العُلماء: ويُتكلم على ذريّة زينب بنت عليّ من عَشَرةِ وجوه، نوردُ منها:

أنّهم منْ آلِ النّبيّ ﷺ، وأهل بيته بالإجماع لأنَّ آله هم المؤمنون منْ بني هاشم والمطلب، وعبد الله بن جعفر زوج زينب هاشميّ.

وأنّهم كذلك من ذريته وأولاده بالإجماع، لأنَّ أولاد بنات الإنسان معدودين في ذريّته وأولاده.

وأنّهم تحرم الصَّدقة عليهم لأنْ بني جعفر منَ الآل قَطْعاً..

---

(1) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النّساء ص١٢٠). وفي صحيح الإمام مسلم ما يتوافقُ مع هذا، إذْ أخرج بسنده عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد، إنّما هي أوساخ الناس» «وإنها لا تحلّ لمحمد ولا لآل محمّد». أخرجه في الزكاة برقم (١٠٧٢).

وأعتقدُ أنَّ هذه الخصائص تشيرُ إلى مكانةٍ كبيرة في قلوب النَّاس على مرِّ العُصُور، وشَغَلتْ جانباً هاماً من تراثنا وتاريخنا، وقد تبارى الشُّعراء والأدباء في امتداحِ السَّيِّدة زينب بنتِ عليّ رضي الله عنها اعترافاً بفضلها ومكانتها في عِقْدِ آل البيت النّبويّ الطَّاهر، وقد امتدحها أحد أفاضل العُلماء في قصيدة طويلة تجاوزت أبياتها عن السَّبعين، نقتطفُ منها بعض الأبيات:

آل طـه لكم علينـا الـولاءُ   لا سِـواكـم بمـا لـكـم آلاءُ
مـدحُكم في الكتابِ جاء مُبيناً   أنبـأتْ عنـه ملَّةٌ سمـحـاءُ
حبُّكم واجبٌ على كلِّ شخصٍ   حـدثتنـا بـضمـنِهِ الأنبـاءُ
منكم بَضْعَـةُ الإمـام علـيّ   سيف دِيْـن لمن بـه الاهتـداءُ
زينبُ فضلهـا علينـا عميـمُ   وحمـاهـا من السّقـام شفـاءُ
فهي بدرٌ بلا خسوف وشمس   دون كسف والبضعـة الـزّهـراءُ
لا يضـاهي آل النّبيّ وصيفٌ   لا يـوفي كـما لهـم أدبـاءُ
شرفتْ منهم النفـوسُ وسـاروا   حيثـما أشرفـوا منهم شرفـاءُ..

مكثتْ زينبُ في المدينةِ المنوّرة بعد استشهاد الحُسين، واستشهاد ولديها عون ومحمّد، وعاشتْ بعد استشهادهم أكثر من سَنَة، وهي مرعيّة الجانب، مكرمة منْ مجتمع المسلمين في المدينة، ومَنْ بقيَ من الصَّحابة الكرام حيث كانت إحدى مراجع العلم في البيت النّبويّ الطَّاهر.

وتروي المصادر أنَّ زينب رضي الله عنها قد توفيت في سنة (٦٢هـ) ويبدو أنها قد دفنت في البقيع بالمدينة المنورة.

وقد أشارت بعض المصادر إلى أنها قد دفنت في مصر، بينما أوردتْ بعضُ المصادر أنّها مدفونة بالشَّامِ، ولا توجد أقوال قاطعة يقينيّة في هذا الموضوع.

وممّا يدلُّ على أنَّ وفاتها لم تكن بمصرَ، ما أورده شاهدٌ من مصر، إذ أدلى دلوه في هذا المضمار، وأتى بشيء يدخل الاطمئنان إلى النَّفس، وهذا الشَّاهد هو عَلي مُبَارك ـ رحمه الله ـ صاحب الكتاب الشَّهير «الخطط التوفيقيّة».

يقول علي مبارك في خُططه تعليقاً على المتداولِ بين النَّاس مِنْ أنَّ زينبَ ابنة

عليّ رضي الله عنهما هي المدفونة في الحيِّ المعروف الآن باسم السَّيِّدة زينب في القاهرة: لم أرَ في كُتُبِ التَّواريخ أنَّ السَّيِّدة زينب بنت عليّ رضي الله عنهما، جاءت إلى مصرَ في الحياة، أو بعد الممات[1].

إذن يمكننا الآن أنْ نقول: إنَّ الصَّحيح بأنَّ زينبَ بنتَ علي رضي الله عنهما، قد توفيت ودُفنت في المدينةِ المنوَّرة والله أعلم.

ويمكننا أنْ نقولَ أيضاً: لو تركت زينب بنت عليّ المدينة المنوّرة، إلى أيِّ مدينةٍ أخرى لتحدثتِ المصادرُ الوثيقةُ بذلك، ولذكر أحد أهلها ذلك أيضاً.

لكنَّ الذي تطمئنُ إليه النَّفس أنَّ زينبَ رضي الله عنها بقيتْ في المدينةِ المنوّرة، وأحبَّتْ أنْ تُدفن في البقيعِ إلى جوار نساء أهل البيت النّبويّ الطَّاهر.

رضيَ الله عن زينب بنتِ علي، وجَعَلها في الآمنين، والحمد لله ربِّ العَالمين.

---

(١) الخطط التوفيقية (٩/٥).

حفيدة النبي ﷺ

أمّ كلثوم بنت علي

رضي الله عنها

- ابنة الزَّهراء وشقيقة الحَسَن والحُسين، ولها منقبةٌ فريدة حيث شهد جدّها وأبوها وزوجها غزوة بدر.
- إحدى فرائد الدَّهر حزماً ورأياً وفطنة وفضْلاً وكرماً وكرامة.
- كان لها مع زوجها عمر بن الخطّاب أخبار وضيئة في مجالات خيّرة كريمة.
- كان ابنها زيد بن عمر يقول: أنا ابنُ الخليفتين.
- توفيتْ وابنها زيد بن عمر في يومٍ واحد ودُفنتْ بالبقيعِ.

أُمّ كلثوم بنت علي رضيَ اللهُ عنهَا

حَفِيْدَةُ الرَّسُول

السِّيْرَةُ العَطِرَةُ الزَّاكِيَةُ:

ما أجملَ السَّاعاتِ التي نقضيها في رحابِ البيتِ النَّبويّ الطَّاهر!

في هذه السَّاعاتِ المباركات نَأْنسُ بعبيرِ سِيَرِ أعلام هذا البيت الكريم ـ وكلّهم أعلام ـ فنجني الفائدة في الدِّينِ والدُّنيا.

ونحنُ اليوم نستروحُ عبير سيرة واحدة من نساء أهل البيت المبارك، هذه المرأَة خلّدت ذِكراً حميداً زاكياً في عالم الحمد والثَّناء، وسجَّلَت آثاراً ناصعةً في أوراق الأيام، في العصر النَّبويّ، والعصر الرَّاشدي.

في البيتِ النَّبويِّ المبارك، نشأتْ ضيفتُنا اليوم، فكانَ لها نصيبٌ في دنيا النِّساء الطَّاهرات، وكان لها طَيِّب الأثر في مقام الصَّفاء والوفاء والنَّقاءِ، وكذلك لها طيِّب الأثر في تاريخِ الخلفاء الرَّاشدين.

وإذا أردنا أن نعرفَ هُوِّيَةَ هذه المرأة فنقول: إنَّ زوجَها خليفة، وأباها خليفة، أمَّا جدها فهو سيِّد الأوَّلين والآخرين، وأمّها سيِّدة نساء العَالمين، وهي نفسها إحدى معادن الطُّهر في دنيا الطَّهارة.

فما رأيك ـ عزيزي القارىء ـ أنْ نستأذنَ هذه السَّيِّدة الكريمة، وندخل في أجواءِ سيرتها الفوَّاحة بأطيبِ الطِّيب، كيما نعطر الأسماع في سَمَاعِ قصّة حياتها المعطاء؟!

إنّها أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب الهاشميّة القرشيّة(١)، شقيقة الحسن والحُسين وزينب أولاد عليّ بن أبي طالب وأمّها فاطمة الزّهراء رضوان الله عليها، وجدتّها خديجة بنت خُويلد أمّ المؤمنين رضوان الله عليها.

ولدت أمّ كلثوم ابنة عليّ في أخريات العهد النّبويّ وعلى الرّاجح في بيت عليّ بن أبي طالب بالمدينة المنوّرة في حياة جدّها الحبيب المُصطفى ﷺ، وقد فَرِحَ بهذه المولودة البيت النّبويّ كلّه، وسمّاها رسولُ الله ﷺ أمّ كلثوم على اسمِ خالتها أمّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ.

رأت أمّ كلثوم ابنة عليّ رضي الله عنهما جدَّها رسولَ الله ﷺ، ولكنّها لم تَرْوِ عنه شيئاً، لأنّه لما توفي ﷺ، كانت أمّ كلثوم ما تزال صغيرة لم تتجاوزِ الخامسةَ من عمرها.

وفي السَّنَةِ التي تُوفي فيها جدّها، توفيت أمّها فاطمة الزَّهراء أيضاً، فنشأت أمّ كلثوم تحتِ رعاية أبيها عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، ونهلتْ من معين

---

(١) البداية والنهاية (١٣١/٧ و١٣٦ و١٣٩) و(٨٦/٨) ونَسَب قريش (ص٣٤٩) والمحبّر لابن حبيب (ص٥٣ و٥٤ و٥٦ و١٠١ و٣٩٩ و٤٣٧) وطبقات ابن سعد (٤٦٣/٨ و٤٦٤) والسِّير والمغازي (ص٢٤٧ و٢٥٠) والمعارف (ص١٤٣ و١٨٥ و٢١٠ و٢١١) والعقد الفريد (٣٦٥/٤) و(٩٠/٦) والمعرفة والتاريخ (٢١٤/١ و٣٦١) وتهذيب الأسماء واللّغات (٣٦٥/٢) وسير أعلام النّبلاء (٥٠٠/٣ ـ ٥٠٢) والاستيعاب (٤٦٧/٤ ـ ٤٦٩) والإصابة (٤٦٨/٤ و٤٦٩) وأُسُدُ الغابة (٣٨٧/٦ و٣٨٨) ترجمة رقم (٧٥٧٨) والكامل في التّاريخ (٥٣٧/٢) و(٥٤/٣ و٥٥ و٩٩ و٢٠٦ و٣٩١ و٣٩٧ و٣٩٨ و٤٠٠) و(١٢/٤) ونساءٌ من عَصْر التّابعين (١٣١/١ ـ ١٥٧) وتاريخ الإسلام (عهد معاوية ص١٣٧ ـ ١٣٩) ومناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي (ص٨٤ و٨٥) ونوادر المخطوطات (٦٠/١) وأعلام النّساء (٢٥٥/٤ ـ ٢٦٠) وربيع الأبرار (٣٠٤/٥) وتاريخ الطبري (٤٩٢/٢ و٥٥٨ و٥٥٩) و(٥٦/٤ و٦٠١) ودرر السحابة (ص٥٤٩) ومجمع الزوائد (١٧٣/٩) والمستدرك (١٤٢/٣) والسّمط الثّمين (ص١٩٢ ـ ١٩٤) والأخبار الطول (ص٢١٤ و٢٢٨) ومختصر تاريخ دمشق (١٥٩/٩) والمنمق (ص٣٠١ و٣١٢ و٤٢٦) وغيرها من المصادر المتعددة في مختلف فنون الحديث والتاريخ والسيرة.

أدبه الصّافي المرفود بنورِ النّبوة ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، واقتبستْ من أخلاقهِ وزهده ما جعلها إحدى فرائد الدّهر حزماً ورأياً وفطنة.

عاشت أمّ كلثوم رضي الله عنها مع أسرتها الكريمة، وكان أخواها الحَسن والحُسين يَحُوطانها برعايتهما وعطفهما، وكذلك راحت نساءُ النّبيّ الطّاهرات رضوان الله عليهن يرعَيْنَ أمّ كلثوم وشقيقتها زينب رعايةً كاملة إلى أنْ تزوَّجت كلّ واحدة منهما.

أمَّا عن زواجِ زينب بنت عليّ، فإنّها تزوّجت ابن عمّها عبد الله بن جعفر أبي طالب المعروف ببحرِ الجود، وقطب السّخاء.

وأمّا أمّ كلثوم، فتزوجت منَ الفاروقِ سيّدنا عمر بن الخطاب وكان لزواجه منها قصة شائقة رويت في المصادر الوثيقة، وتشيرُ إلى مكانة أمّ كلثوم في البيتِ النّبويّ الذي أذهب الله عنه الرِّجس وطهّره تطهيراً.

زَوْجُ أَمِيرِ المُؤْمِنِين:

قبل أنْ أتحدَّثَ عن قصّةِ زَوَاجِ أمّ كلثوم[1] بنت عليٍّ منْ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنهم، وإلى مكانة كلٍّ واحدٍ منهما أودُّ أنْ أتحدثَ عن عمرَ وعليٍّ كيما تتوضح الصُّورة في هذا البيتِ الكريم المعطاء.

قالتِ الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق رضي الله عنهما في عمرَ بنِ الخطاب رضي الله

(١) لأمّ كلثوم بنت عليّ رضي الله عنهما فضيلة باهرة لم تجتمعْ لواحدةٍ من نساءِ أهلِ البيت الطّاهر فهي المرأة القرشيّة التي شَهِدَ جدُّها وأبوها، وزوجها غزاة بدر.
فجدّها: الحبيب المصطفى سيدنا رسول الله ﷺ.
وأبوها: سيّدنا عليّ بن أبي طالب فارسُ الحبيبِ، وفارسُ المسلمين، وعبقريُّ الحرب، وقاهر المشركين، رضي الله عنه وأرضاه.
وزوجُها: سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وزير الحبيبِ المصطفى ﷺ وأحد أسياد الصّحابة الكرام.

عنه: زيِّنوا مجالِسكم بالصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ، وبذكْرِ عمر بن الخطاب[1].

وقال عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما في عمرَ بنِ الخطاب: أكثروا ذكْر عمر، فإن عمر إذا ذُكِرَ ذُكِرَ العدل، وإذا ذكر العدل ذكر الله[2].

وقالتِ الصِّدِّيقة بنت الصّديق رضي الله عنهما في سيِّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: عليٌّ أعلَمُ النّاسِ بالسُّنَّة[3].

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما عن عليٍّ رضي الله عنه: عقم النِّساء أنْ يأتين بمثلِ أميرِ المؤمنين عليّ بن أبي طالب، والله ما رأيتُ، ولا سمعتُ رئيساً يُوزَنُ به[4].

ولكنْ ما رأي سيّدنا عليّ في عمرَ رضي الله عنهما؟!

ذكر الحافظُ ابنُ عساكر ـ رحمه الله ـ قصَّة تشيرُ إلى مكانة عمرَ في نفسِ عليّ فقال: رُؤي على عليٍّ بُرْد كان يكثر لُبسه، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنّك لتكثر لبْسَ هذا؟!

قال: إنّه كسانيه خليلي، وصفيي، وصديقي، وخاصّتي عمر بن الخطاب، إنَّ عمرَ ناصَحَ الله، فَنَصَحه الله تعالى ثمّ بكى[5].

هذا الرّأيُ السَّديد الرَّشيد رأي عليّ في عمرَ رضي الله عنهما، وكان لعمر رضي الله عنه الرّأي نفسه في عليٍّ رضي الله عنه، ولهذا فكلّ واحد مَدَحَ الآخر بما فيه.

ولا بدّ لنا ونحنُ في معرضِ الحديث عن سيّدنا عمر، أنْ نعرفَ رأي عمر في المرأةِ، فلنستمع إلى أصنافِ النِّساء عند عمر، إذ يقول:

(١و٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٩/٢٢).

(٣) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٨/٢٦) وللمزيد من هذه الأخبار العطرة، اقرأ ترجمة سيدنا علي، وسيدنا عمر في مختصر تاريخ مدينة دمشق، ففيها ما تتعطر به الأفواه والأسماع.

(٤) مختصر تاريخ دمشق (١٨/٤٩).

(٥) مختصر تاريخ دمشق (١٩/١٩).

النِّساءُ ثلاثةٌ: امرأةُ عفيفةٌ مسلمةٌ، هنية لينة ودود ولود، تعينُ أهلها على الدَّهر، ولا تعينُ الدَّهر على أهلها وقلَّ ما تجدها.

والأخرى: وعاءٌ للولد، لا تزيدُ على ذلك شيئاً.

وأخرى: غلٌّ قِملٌ يجعلها الله في عنقِ مَنْ يشاءُ، وينزعه إذا شاء[1].

ونظر عمر بنُ الخطاب رضي الله عنه حوله إلى امرأةٍ تجمع الصِّفات الحميدة، بالإضافة إلى كرم المحتد، وطيب العِرقِ، فألفى ما يطلب عند سيِّدنا عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه في ابنته أمّ كلثوم رضي الله عنها، فأحبَّ أنْ يَصِلَ نَسَبَه[2] برسول اللهﷺ، إذ أمّ كلثوم ابنة فاطمة الزَّهراء بنت رسول اللهﷺ، وكان عمر رضي الله عنه، قد سمع رسول اللهﷺ يقول:

---

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) روى الطَّبري ـ رحمه الله ـ في تاريخه: أنَّ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، خطب أمّ كلثوم بنت أبي بكر، وهي صغيرة، وأرسل فيها إلى عائشة؛
فقالت: الأَمْر إليك.
فقالت أم كلثوم: لا حاجة لي فيه.
فقالت لها عائشة: ترغبين عن أمير المؤمنين؟!
قالت: نعم؛ إنّه خشنُ العيش، شَديدٌ على النِّساء.
فأرسلت عائشةُ إلى عمرو بنِ العاص فأخبرته، فقال: أكفيك؛
فأتى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني خبرٌ، أعيذك بالله منه.
قال: وما هو؟
قال: خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر!
قال: نعم، أفرغبتَ بي عنها، أمْ رغبتَ بها عني؟
قال: لا واحدة، ولكنّها حَدَثة، نشأت تحت كنف أمّ المؤمنين عائشة، في لينٍ ورفق، وفيك غلظةٌ، ونحن نهابك، وما نقدر أنْ نردَّك عن خُلُقٍ من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتكَ في شيءٍ، فسطوتَ بها، كنتَ قد خلفتَ أبا بكر في ولده بغيرِ ما يحقّ عليك.
قال: فكيف بعائشة وقد كلّمتها؟
قال: أنا لك بها، وأدلّك على خيرٍ منها؛ أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب، تَعْلَقْ منها بنسب من رسول اللهﷺ (تاريخ الطبري ٢/٥٦٤).

«كلّ سببٍ ونسبٍ منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»[1].

وأخذ أميرُ المؤمنين عمر طريقهِ إلى بيت عليّ، وطلب أنْ يزوِّجه ابنته أمّ كلثوم، وكلّمه في هذا الأمْر راجياً محبّاً للاتصال بهذا البيت النّبويّ الطّاهر كيما يكون موصولاً برسول الله ﷺ يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنون، فأجابه علي رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، إنّك تعلم أنّني قد حَبَسْتُ بناتي على أولادِ أخي جعفر الطّيار، وإنَّ أمّ كلثوم ماتزال صبية صغيرة!

فقال عمرُ رضوان الله عليه: زوّجينها يا عليّ! فوالله يا أبا الحَسَن ما على ظهر الأرض يرصدُ من حُسْنِ صحابتها ما أرصدُ، وأرصد من كرامتها ما لا يرصده أحد.

وما زال عمر رضي الله عنه يقول لعليٍّ مثل هذا الكلام حتى أجاب عمر قائلاً: قد فعلتُ يا أمير المؤمنين، وسأبعثُها إليك، فإنْ رضيتَها فقد زوجتكها!!

وأخذَ عليٌّ رضي الله عنه ثوباً، فطواهُ، وقال لابنته أمّ كلثوم: يابنية، انطلقي بهذا الثّوب إلى عمرَ أمير المؤمنين وقولي له: إنَّ أبي قد أرسلني بهذا الثّوب، وهو يقرئك السَّلام، ويقول: إنْ رضيتَ هذا الثّوب فأمسكه، وإنْ لم ترضَه فردّه.

وجاءتْ أمّ كلثوم رضوان الله عليها تحملُ الثّوبَ في يدِها، فلّما رأتْ عمر قالت له: يا أميرَ المؤمنين، هذا الثّوب الذي أخبرَكَ أبي عنه.

فقال عمرُ رضوانُ الله عليه: باركَ الله فيكِ، وفي أبيكِ، قد رضينا ما قال.

وعادت أمُّ كلثوم إلى عليٍّ رضي الله عنهما، فقالتْ في استغراب: يا أبتِ إنَّ عمرَ لم ينظرْ إلى الثّوبِ، ولم ينشره، ولكنّه ما نظر إلا إليَّ، ولم أكنْ لأتوقعَ ذلك!.

قال عليٌّ رضي الله عنه: يا بُنية، قد زوجتك إياه، وهو زوجك.

وصمتت أمّ كلثوم، وأدركت مقصد عليّ رضي الله عنه من إرسالها بالثّوب

---

(١) انظر المستدرك للحاكم (١٤٢/٣) وطبقات ابن سعد (٤٦٣/٨) ومجمع الزوائد للهيثمي (١٧٣/٩) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص١٣٧).

إلى عمر، وأجابت إلى هذا الزّواج الميمون من عمر بنِ الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه[1].

الزَّوَاجُ المَيْمُونُ وَالبَيْتُ العُمَرِيّ:

كان تاريخُ زواجِ عمرَ مِنْ أمِّ كلثوم رضي الله عنهما في ذي القِعْدة من السَّنَةِ السَّابعة عشرة من الهجرة، كما ذكرَ أميرُ مؤمنين المؤرخين محمّد بن جرير الطّبري ـ رحمه الله ـ في تاريخه النَّفيس وتابعه على ذلكَ الإمامُ الحافظ شمس الدِّيْن الذَّهبي ـ رحمهما الله ـ.

هذا وقد كانت سعادةُ سيدنا عمر عظيمة بهذا الإصهار الكريمِ الميمون إلى البيت النّبويّ الذي أَذْهَبَ الله عنه الرِّجْسَ وطهّره تطهيراً.

وانطلق عمرُ إلى المسجد النّبويّ الشَّريف، إلى مجلسِ المهاجرينَ الشَّريف، والمنبر النّبويّ، وكان هذا المكان يجلسُ فيه المهاجرون الأوّلون السَّابقون إلى دوحةِ الإيمان، ومنهم: سيّدنا عليُّ بنُ أبي طالب، وعثمانُ بنُ عفان، والزُّبير بنُ العوام، وطلحة بنُ عُبيد الله، وعبد الرحمنِ بنُ عوف رضي الله عنهم وأرضاهم، ـ وهؤلاء جميعاً من المبشّرين بالجنّة ـ فإذا كان الشّيء، أو الخبر يأتي عمر منَ الآفاق، جاء عمر فأخبر هؤلاء الغرّ الميامين بذلك واستشارهم فيه، فقد كان هؤلاء مجلس شوراه، وهل يُوزن بهم في دنيا الرِّجال أحد؟!

وأطلَّ عمرُ على أصحابِهِ، ووجهه مشرقٌ باسمٌ، فألقى عليهم السَّلام وقال: معشر المهاجرين والأصحاب، هَنّوني، وزفّوني.

فهنّاه الحضور وقالوا: بِمَنْ يا أمير المؤمنين؟

قال عمرُ رضي الله عنه: بأمِّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب وابنة فاطمة الزّهراء.

---

(١) عن نساء من عصر التّابعين (١/١٤٢) بتصرف. وانظر: طبقات ابن سعد (٨/٤٦٣ و٤٦٤) والسّمط الثّمين (ص١٩٢ و١٩٣) والاستيعاب (٤/٤٦٨) وأعلام النِّساء (٤/٢٥٦) ومختصر تاريخ دمشق (٩/١٥٩ و١٦٠) وتاريخ الطّبري (٢/٥٦٤) وأسُد الغابة (٦/٣٨٧) والعِقد الفريد (٦/٩٠) وغيرها.

وأقبل على أصحابهِ يحدّثهم أنّه سمع الحبيب المصطفى ﷺ يقول: «كلُّ سببٍ ونَسَبٍ منقطع يوم القيامة ما خَلا سببي ونسبي، وكلّ ولد، فإنَّ عصبتهم لأبيهم، ما خلا ولد فاطمة، فإنِيّ أَنَا أبوهم وعصبتهم»[1].

وتابعَ عمرُ رضي الله عنه فقال للصَّحابة الكرام: كنتُ قد صحِبْتُ النَّبيَّ ﷺ، فأحببتُ أنْ يكونَ هذا النَّسب بالإضافةِ إلى الصَّحبة.

وتزوّج عمر أمّ كلثوم رضي الله عنهما على مَهْرِ أربعين ألف درهم، وولدت له زيد بن عمر، ويُدعى بزيد الأكبر؛ كما ولدت له ابنة تُدعى رقية بنت عمر. . وكان لهَذيْن الولدَيْن آثار جميلة وضيئة في العَصْرِ الرَّاشدي، والعصر الأمويّ.

الزَّوْجَةُ الكَرِيْمَةُ:

حظيتْ أمّ كلثوم ابنة عليّ عند عمر رضي الله عنهم بمكانةٍ مرموقةٍ، ومنزلةٍ عاليةٍ، فكان ينظرُ إليها نظرة احترام وإكبار، فهي امتدادٌ لذلك النّسب المحمديّ العريق الذي تَقِفُ وتنقطعُ دونه الأنساب، وهي ابنةُ الزّهراء، ومَنْ كالزَّهراء؟ بل سَعِدَ مَنْ كانتِ الزّهراء حَمَاته، وعليٌّ حَمَاه.

وكانت أمّ كلثوم رضي الله عنها من خِيْرة الزَّوجات في تاريخ الخلفاء الرَّاشدين، وكان لها مع عمر بعضِ المواقف التي تفوحُ بالطِّيب، وتشيرُ إلى أصلها الثّابت في منابتِ الفضيلة، وتدلُّ على فرعها المتطاوِلِ بالخير في عنَان السَّماء؛ أليستْ أمّ كلثوم ابنة الزَّهراء سيّدة النّساء؟ أو ليست خديجة سيّدة النّساء في كلِّ فضيلةٍ هي جدّة أمّ كلثوم بنت عليّ؟!

إذن فلتكن أمّ كلثوم مثل أمّها وجدّتها في الفَضْل والجودِ وإحياءِ المكارم، ولا أدلّ على شهامتها وكرامتها من تلكم القصّة التي وردت في المصادرِ الوثيقة تحكي عَطْفَ أمّ كلثوم على امرأةٍ بدوية يساعدها في ذلك عمر رضي الله عنهما.

---

(١) انظر در السَّحابة (ص٥٤٩) وقد نقله الشّوكاني مؤلف كتاب در السَّحابة عن كنز العمال (١٣/ ٦٢٤) رقم (٣٧٥٨٦).

ونحنُ مرسلو القول في قصّة عمر وأمّ كلثوم وتلك المرأة التي جاءها المخاضُ في ليلةٍ من ليالي المدينة المنوّرة التي كان عمر ساهراً فيها على راحةِ رعيّته.

خرجَ سيِّدُنا عمر رضي الله عنه في إحدى الليالي يتحسّسُ أخبارَ رعيته في المدينة وما حولها، ليطمئن على أحوالِ العباد، فيقضي حاجةَ المحتاج، ويقوم بمساعدة مَنْ يحتاج إلى مساعدة.

ومرّ عمرُ برحبةٍ من رحابِ المدينة المنوّرة، فإذا به يرى بيتَ شَعْرٍ يتخايلُ في الظَّلام لم يكنْ في الليلةِ الفائتةِ، فتعجَّبَ ثمَّ سار نحوَ البيتِ، فإذا به يرى رُجلاً قاعداً، وسمع منْ داخلِ البيت أنينَ امرأةٍ لم يتبينّ نوع ذلك الأنين.

ودنا عمر منَ الخيمة وقال: السَّلام عليكم يا أخا العرب.

قال الرَّجل: وعليكم السَّلام ورحمة الله وبركاته.

قال عمر: مَنِ الرَّجل، ومنْ أينَ أقبل؟

قال الرّجل في نبرةٍ حزينةٍ: يا هذا إنّي رجلٌ منْ أهلِ البادية، وقد قدمتُ لأصيبَ مِنْ نوال أمير المؤمنين عمر، وآخذ منْ فضله، فقد سمعنا أنَّه يعطي النَّاسَ كلّهم.

وانبعثَ أنينُ المرأةِ منْ داخل بيتِ الشَّعْر يقطع صَمْتَ الظَّلام، ويمزِّقُ السُّكون، ويلامسُ سَمْعِ عمر، ويحرِّكُ عواطفه، ويفجِّر ينابيع مودّة رحمته، فقال للرّجل: ما هذا الصَّوتُ الذي يرشحُ بالألمِ وأسمعه في البيتِ، أخبرني يرحمك الله!.

فقال الرَّجل في شيءٍ منَ الأسى: يا أخا العرب، انطلقْ لحاجتِكَ يرحمك الله! ودَعْني وشأني.

قال عمرُ في هدوء: عليَّ ذلك، فما هو هداك الله؟!

فقال الرَّجل في صوتٍ خفيض: إنّها امرأتي، وقد جَاءهَا المخاضُ في هذه الليلةِ، وفي هذه البقعة.

صمتَ عمرُ رضي الله عنه لحظات، ثمّ أردف قائلاً: هل عندها أحدٌ من النِّساء كيما يساعدها؟!

فقال الرجل: ليس عندها أحد، وقد قدمنا الليلة ونحنُ وحيدان في هذا المكان.

وبينما كان الرَّجل يجيبُ عمر، أسرعَ عُمر مهرولاً نحو بيته، فلّما دخله، أيقظَ امرأته الوفيّة أمّ كلثوم بنت عليّ وقال لها: يا ابنة الكرام، هل لك في أَجْرٍ ساقه الله عزَّ وجلَّ إليك؟

فقالت: وما هو يا أمير المؤمنين؟

قال: امرأة منَ البَدْوِ قد جاءها المخاضُ بظاهرِ المدينة، وهي غريبةٌ وليس عندها أحد.

فقالت أمّ كلثوم في أدبٍ منبعثٍ منْ أدبِ التَّربية النّبوية: نعم إنْ شئتَ وأذِنْتَ يا أمير المؤمنين لي في الخروج.

قال عمر: أحبُّ ذلك، فأسرعي وخذي معك ما ينفعُ هذه المرأة ويصلح لولادتها منَ الخرقِ والدّهن وغير ذلك.

ولما أعدَّتْ أمّ كلثوم ما يلزم المرأة قال لها عمر: يا ابنة الكرام، آتيني بقدْرٍ، وشحم، وحبوب؛ فجاءته بما طلب.

وعندئذ قال عمر لأمّ كلثوم: انطلقي بنا على بركةِ الله.

وحمل عمر القِدْر والسَّمْن والحبوب، وسارت أمّ كلثوم خلفه وقد حملت حوائجها، حتى انتهيا إلى بيتِ البدويّ، فتوقّف عمر وقال لزوجه أمّ كلثوم: ادخلي فأصلحي شَأْنَ المرأةِ وساعديها.

واقتربَ عمرُ منَ الرَّجل، ثمَّ جهَّز القِدْرَ وأصلحها، وقال للرَّجل في هدوءٍ: يا هذا، أوقِدْ لي ناراً. وسارعَ الرَّجل، فأوقد تحت القدر، وأخذ عمرُ يعالج الطّعام حتى نَضَج.

ومضى جزءٌ من الليل، فولدتِ المرأةُ غلاماً، وأخذ بكاء الغلام يخترق الصَّحراء منْ داخلِ البيت، وإذ ذاك خرجت أمّ كلثوم ونادت: يا أمير المؤمنين، بشر صاحبك بغلام.

وداخَلَ الرَّجل رهبةٌ شديدةٌ لما سمعَ أمير المؤمنين عمر، واستعظم أنْ يكون عمر هو الذي يُصْلِح الطّعام أمامه، وأمّ كلثوم زوج عمر هي القَابِلة، وأخذ يبتعدُ قليلاً استحياء وهيبة لعمر، ثمّ طفقَ يعتذرُ ويقول: لا تؤاخذني يا أمير المؤمنين.

ولكنَّ عمرَ رضي الله عنه، هدّأ مِنْ روعه وقالَ له: مكانك يا أخا العرب، كما أنتَ، ولا يكن في صدرِكَ حَرَجٌ، ولا تُرَعْ، فَسَكَنَ الرَّجلُ، وشَكِر لعمر صنيعه.

وحملَ عمر القِدْر، ثمّ وضعه على بابِ البيت، ونادى امرأته وقال: خذي القِدْرَ، وأشبعي صاحبتك.

تناولت أمّ كلثوم القِدْر، وأطعمتِ المرأة بيدها، وأكرمتها وآنستها، ثمّ أخذتِ القِدْر، وجعلته أمامَ البيت، فأخذه عمر، ثمّ وضعه بين يدي الرَّجل، وقال له والبِشْر يملأ صفحة وجهه: كُلْ فإنّك قد سهرتَ منَ الليل، وأضناك التَّعب والسَّفر، فأكَلَ الرَّجل، وحَمِدَ الله، وأثنى عليه، وشكر عمر أمير المؤمنين ودَعَا له.

وبعد أنِ أطمأن عمرُ على الرَّجل والمرأةِ والوليدِ، نادى زوجه أمّ كلثوم وقال: هيا اخرجي. ثمّ توجه نحو الرَّجل وقال له: يا هذا، إذا أصبحَ الصَّبَاح، فتعال نأمرك لكَ بما يصلحك إن شاء الله.

وفي الغَدِ، توجَّه الرَّجل نحوَ المدينةِ المنوّرة، ودخل على عمرَ، فوصله بنفقةٍ، وأحسنَ نُزُلَه، وأعطاه ما يصلحه، وردّه إلى أهلِهِ ضاحكاً مسروراً بما أجازه وأكرمه[1].

وهنا كانت السَّعَادة تخيِّمُ على البيتِ العُمريّ، وعلى أمّ كلثوم خاصّة، تلك التي سَاقَ الله لها الأَجْرَ، وآنست امرأة غريبة وساعدتها في ولادتها، ولم تبخلْ في تلك الليلة المظلمةِ بمَديد العون والمساعدة لهذه المرأة البدوية التي ساق الله الأجْر على يدها وبسببها، وكان كِلا الزَّوجين كريماً شهماً عمر وزوجه أمّ كلثوم، فأكرمْ بهما!

صُوَرٌ مِنْ حَيَاتِهَا مَعَ عُمَرَ:

كانت أمّ كلثوم بنتُ عليٍّ رضي الله عنهما سعيدة غاية السَّعادة في حياتها مع

(١) عن البداية والنهاية (١٣٦/٧) بتصرف.

الرَّجل المِعْوان المعطاء عمر بن الخطاب عليه سحائب الرّضوان، وكانتِ نعْمَ الزَّوجة الوفيّة للرّجل الوفي.

وعلى الرغمِ من أنَّ أمّ كلثوم رضي الله عنها كانتْ صغيرة السِّنِّ عند زواجها من عمرَ، إلا أنّها كانت جليلة القَدْرِ، واسعة الإدراك، استطاعت أنْ تعيشَ مع سيِّدنا عمر حياة ترفرف عليها السَّعادة الحقيقية على الرّغم من خشونة عيش عمر ـ كما نعلم ـ ولكنّه كانَ رقيق القلب، غني النَّفس، يوزِّعُ من كنوزِ رقّته وعطفِهِ على أمّ كلثوم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، دون أنْ يفرط في ذلك، أو أن ينسى حقَّ أحدٍ مهما كان شأنه.

كانت نظرةُ عمرَ رضي الله عنه إلى الأمورِ نظرةَ رجلٍ عرف الله حق المعرفة، فباتَ لا يخرجُ عن هذا الطَّريقِ، ولا سبيل إلى قلبهِ من أجل عاطفةٍ أو قرابةٍ أو رحمٍ، إذا كان ذلك يخالف عَدْلَ الإسلام.

وتروي المصادر أنَّ عمر آثر إحدى نسوة المدينة بثوبٍ على زوجهِ الأثيرة أمّ كلثوم بنت عليّ رضي الله عنهما، وعلل ذلك بمكانةِ تلك المرأة في قاموسِ نساء الإسلام.

أخرج الإمامُ البُخاريّ ـ رحمه الله ـ بسندهِ عن ابنِ شهاب عن ثعلبةَ عن أبي مالك: إنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قَسَمَ مروطاً بين نساء مِنْ نساءِ المدينة، فبقي مِرْطٌ جيّد؛

فقالَ له بعض مَنْ عنده:

يا أمير المؤمنين، أعط هذا ابنة رسولِ اللهﷺ التي عندكَ ـ يريدون أمّ كلثوم بنت عليّ ـ.

فقال عمر: أمُّ سليط أحقّ. ـ وأمّ سليط من نساء الأنصار ممّنْ بايع رسول اللهﷺ ـ.

قال عمر: فإنّها كانت تزفرُ لنا القرب يوم أُحُد[1].

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/٩٢ و٩٣) حديث رقم (٢٨٨١) وأخرجه أيضاً في المغازي (٤٠٧١) و«مِرْط»: كساء. و «تزفر»: تحمل. =

إنَّ سيّدنا عمر رضي الله عنه قد أَظهر بهذا التّصرفِ الكريم فَضْلَ أمّ سليط الأنصاريّة هذه، في الوقتِ الذي نسيها كثيرٌ ممن حولها، ولكنَّ العبقريَ عمر يعرف أقْدار العباد.

وكان عمرُ رضي الله عنه يعاملُ نفسه بأقسى ممّا يعامل به زوجه البارّة أمّ كلثوم بنت عليّ رضي الله عنهما، فهو لا يريد أنْ تكون دنياه دنيا ترفٍ، فيكون حظّه منَ الآخرة قليلاً، ولكنّه كان لا يحفل بزخرفِ الدُّنيا، وكان يعلِّمُ زوجه أمّ كلثوم أنْ تسلكَ هذا السَّبيل الذي يؤدي إلى طريقِ الفوز والنّجاة والنّجاح في اليوم الآخر.

فقد كان عمر رضي الله عنه يستطيعُ أنْ يتناولَ أطايب الطَّعام، ويطعم زوجه أمّ كلثوم ذلك، ويلبس ألين الثِّياب وكذلك زوجه، فقد فُتحت كثيرٌ من البُلدان في عهده الميمون، ووفدتِ الخيراتُ إلى المدينة المنوّرة عاصمة الدولة الإسلامية، فكان عمرُ لا يخصُّ نفسه بشيءٍ، ولا زوجه، وإنّما يؤثرُ غيره، ويتناول خَشِنَ الطَّعام، ويلبس وزوجه خَشِن الثّياب.

ذكر ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ أنَّ ساريةَ بنَ زنيم قد فَتَحَ الله على يديه بعضَ بلاد الفرس، وغنم مع جيوشة شيئاً كثيراً، ومالاً عظيماً، فكان منْ جُملة ذلك سفط من جوهر، فاستوهبه سارية المسلمين لعمر بن الخطاب، وبعثه مع المال.

فلّما وصلَ المال ومعه السّفط، قدَّمَ الرَّسولُ المالَ، فوجد عمر رضي الله عنه قائماً وفي يده عصا، وهو يطعمُ المسلمين سماطهم، فلّما رأى عمر رسول قائده سارية قال له: اجلس ـ ولم يعرفه عمر ـ فجلس ذلك الرَّجل فأكل مع النّاس.

وعندما فرغَ المسلمون منَ الطَّعام، انطلق عمر إلى منزله، فاتبعه الرّجل ومشى خَلْفَه، ثمَّ استأذن على عمر فأذن له، وإذا بعمر رضوان الله عليه، قد وُضِعَ له خبزٌ وزيتٌ وملح، فقال للرّجل: ادنُ فكُلْ.

= قال ابن عبد البر: أمّ سليط امرأة من المبايعات، حضرت مع رسول الله ﷺ يوم أحد. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كانت تزفر لنا القرب يوم أحد (الاستيعاب ٤/٤٤٣).

فجلس الرَّجل إلى جانب عِمر، فجعل عمر يقول لامرأته أمّ كلثوم: ألا تخرجين يا هذه فتأكلين؟

فقالت أمّ كلثوم: إنّي أسمعُ حسَّ رجل عندك يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: أجل.

فقالت: لو أردتَ أنْ أخرجَ إلى الرِّجال اشتريتَ لي غير هذه الكسوة، ولكسوتني كما كَسَا عبد الله بن جعفر امرأته، وكما كَسَا الزَّبير بن العوّام امرأته، وكما كَسَا طلحة بن عُبيد الله امرأته!.

فقال عمر رضي الله عنه: أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي وامرأة أمير المؤمنين عمر.

قالت: ما أقلَّ غناء ذلك عنّي.

عندئذ قال عمر للرجل: ادن فكُلْ، فلو كانتِ راضيةً، لكان أطيب ممّا ترى.

فأكلا، فلّما فرغا منَ الطّعام قال الرّجل: أنا رسول سارية بن زنيم يا أمير المؤمنين.

فقال عمرُ رضي الله عنه: مرحباً وأهلاً.

ثمّ أدناه حتى مَسَّتْ ركبته ركبةَ الرَّجل، ثمَّ أَخَذَ يسأله عنِ المسلمين وعن قائدِهم سارية بن زنيم، فأخبره الرَّجل بنصرِ الله عزَّ وجلَّ وفتوح البلاد، ثمّ ذكر له شَأْنَ السّفط منَ الجوهر، فأبى عمر أنْ يقبله، وأَمَر بردِّهِ إلى جنود الرّحمن[1].

وهكذا لم يقبلْ عمر رضي الله عنه ذلك السّفط عِلْماً بأنَّ جنود سارية قد وهبوه إياه، ولكنَّ عمرَ كان القدوة الحَسَنة لرعاياه رضي الله عنه.

ورحم الله الحافظ ابن كثير إذ أَحْسنَ وَصْفَ عمر فقال: كان متواضعاً في الله، خَشِنَ العَيْش، خَشِنَ المطعم، شديداً في ذاتِ الله، يرقعُ الثّوب بالإديم، ويحملُ القِرْبَة على كتفيه مع عظم هيبته. . . . . وكان قليل الضّحك، لا يمازح

---

(١) عن البداية والنهاية (٧/١٣٠ و١٣١) بشيء من التّصرف والاختصار، وانظر: تاريخ الطّبري (٢/٥٥٧ و٥٥٨) وأعلام النّساء (٤/٢٥٦ و٢٥٧).

أحداً، وكان نقش خاتمه: كفى بالموتِ واعظاً يا عمر[1]. وكان وهو خليفة يلبس جبّة صوفٍ مرقوعة بعضها بأدم، ويطوف بالأسواق على عاتقه الدّرة، يؤدِّب بها النّاس[2].

وقد عرفت أمّ كلثوم زوجه أنّها أمامَ رجلٍ أرادته الدُّنيا فلم يُرِدْها، وردّها على عَقِبِها، فلم يكن إليها من سبيل إلى نفسه، فعظم في نفسها، وأكبرته، وعرفت أنّها زوج عمر التّقي النّقي، وشاهدت مِنْ أنوارِ أفعاله مع رسول سارية بن زنيم ما جعلها تشعر بكرامة هذا الزَّوج العبقري الكريم.

وقد عُوتب عمر مرّة، فقيل له:

يا أمير المؤمنين، لو أكلتَ طعاماً طيّباً، كان أقوى لك على الحقّ؟ فقال رضي الله عنه: إنّي تركتُ صاحبي على جادة، فإنْ أدركتُ جادتهما فلم أدركهما في المنزل[3].

هَدِيَّةُ مَلِكَة الرُّوْمِ وَدَرْسٌ عُمَرِيٌّ:

في سيرةِ أمِّ كلثوم بنت عليّ رضي الله عنهما مواقف نديّة تستحقُّ الوقوف، وخاصّة أنَّ بعضَ تلكم المواقف تتعلَّقُ بتوجيهاتِ زوجها عمر رضي الله عنهما، وإذا وقفنا أمام تلك التّوجيهات العُمريّة لألفينا أنّها ترفعُ من مقام أمّ كلثوم عالياً في سماءِ المكارم .

ففي تاريخه الحافلِ بألوانِ السِّيَر، ذكرَ الإمام محمّد بن جرير الطّبري ـ رحمه الله ـ قصّة تشيرُ إلى ذلك، ومفادها أنَّ السَّيِّدة الكريمة أمّ كلثوم بنت عليّ رضي الله عنهما قد أهدتْ ملكة الرُّوم[4] هدية، فيها شيءٌ منْ الطِّيب

(١ و٢ و٣) البداية والنهاية (٧/١٣٤).

(٤) قال الطبريُّ ـ رحمه الله ـ في تاريخه:
تركَ ملكُ الرّوم الغزو، وكاتَبَ عمر وقاربَه، وسأله عن كلمة يجتمعُ فيها العِلْم كلّه، فكتب إليه: أحِبّ للنّاس ما تحبّ لنفسك، واكره لهم ما تكره لها، تجتمع لك الحكمة كلها، واعتبر النّاس بما يليك، تجتمع لك المعرفة كلّها.
وكتب إليه ملكُ الرّوم ـ وبعث إليه بقارورة ـ: أن املأ لي هذه القارورة من كلّ شيء،

وأَحْفَاش[1] منْ أَحَفْاشِ النِّساء، وبعض المشارب،ثمَّ جعلت تلك الهدايا مع البريدِ الذي يذهب إلى بلاد هرقل ملك الرُّوم.

وأَخَذَ صاحبُ البريد هدايا أمّ كلثوم، فأوصلها إلى ملكة الرُّوم، فأُخِذَتْ منه الهدايا، وأُعْطِيَتْ للملكة، ففرحتْ بها، وجَمَعَتْ نساءها وجواريها، ثمَّ أرتهم الهديَّة وقالت لهنَّ: هذه الهدية هدية امرأةِ ملكِ العرب، وابنة نبيِّهم.

ثمَّ أَمَرتْ بكتابٍ، فكتبتْ فيه شكرها لأمّ كلثوم وكافأتها، وبعثتْ لها بهدايا رقيقة رفيقة، وكان فيها أهدت لها، عقْدٌ فاخرٌ يصلحُ لبناتِ ونساءِ الملوك.

وعاد البريدُ إلى المدينة المنوّرة بتلكَ الهدايا، فلما انتهى البريدُ إلى سيّدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه وشاهد فيه هدية تخصُّ زوجه أمّ كلثوم أَمَرَ بإمساكه ثمّ دعا: الصَّلاة جَامِعَةٌ.

سمعَ الصَّحابة الكرام نداء عمر بالصَّلاة، فعلموا أنَّ أمراً ما قد حَدَثَ في المدينةِ المنوّرة، فاجتمعوا في المسجد النّبويّ الشّريف، فصلّى بهم عمر ركعتين، ثمّ وقَفَ فقال:

إنَّه لا خيرَ في أَمْرٍ أُبْرِمَ عن غيرِ شُورى مِنْ أموري، قولوا في هديةٍ أهدتها أمّ كلثوم لامرأةِ ملك الرُّوم، فأهدتَ لها امرأةُ مَلِكَ الرّوم.

فقال قائلون منَ الصَّحابة الكرام: يا أمير المؤمنين، هو لها، بالذي لها، وليست امرأةُ المَلِكِ بذمّة فتصانع به، ولا تحت يدك فتتقيكَ.

وقال آخرون منهم: يا أمير المؤمنين، إنَّك كنتَ تعلم أنّا قد كنّا نُهدي الثّياب وغيرها لِنَسْتَثِيْبَ، ونبعث بها لتباع ولنصيب ثمناً.

وقال غيرهم أقوالاً تشبه ما قال أصحابهم، ولكنَّ عمرَ رضي الله عنه كان

= فملأها عمر ماء، وكتب إليه: إنَّ هذا كلّ شيء من الدّنيا. (تاريخ الطبري ٢/٦٠١) وكتب إليه أشياء أخرى وأسئلة أخرى، ولهذا فإنّ أمّ كلثوم رضي الله عنها على ما يبدو قد أرسلت بهدية إلى ملكة الروم والله أعلم.

(١) «الحِفْش»: الدرج تضع فيه المرأة حاجتها، وهي من أوعية الطيب. وجمعها: أحفاش.

يسمعُ للجميع، فلَّما انتهوا قال:

معاشر المسلمين؛ إنَّ الرَّسولَ[1] رسولَ المسلمين، والبريدَ بريدهم، والمسلمون عظَّموا أمّ كلثوم في صدورهم.

ثمّ نظر عمر إلى الهديةِ ، وأَمَر بأن تُردّ إلى بيتِ مالِ المسلمين، وأتى أمّ كلثوم، فردّ عليها بِقَدْرِ نفقتها، وقصَّ عليها القَصَصَ الذي حَدَث في المسجدِ النّبويّ وأخبرها بأنّها لو لم تكن زوج أمير المؤمنين، لما بعثت لها ملكة الرُّوم بما بعثتْ، وأخبرها كذلك أنَّه أَمَرَ بردِّ الهدية إلى بيتِ المال، ليحظى هو، وتحظى هي بمرضاةِ الله عزَّ وجلَّ، فشكرت أمّ كلثوم صنيعه، ودعتْ له بخير[2].

عَبْرَةُ أُمِّ كلْثُومٍ:

في البيتِ العمريِّ كانت أمّ كلثوم رضي الله عنها تعيشُ أيام حياتها تحتَ ظلال العَدْلِ العمريّ، وعاشت أوّليات عمر الخالدة، فعمر رضي الله عنه هو أوّل مَنْ دُعي أمير المؤمنين[3]، وأوّل مَنْ كَتَبَ التَّاريخ، وجَمَعَ النّاس على صَلاةِ التّراويح، وأوّل مَنْ عسَّ بالمدينة المنوّرةِ، وحَمَل الدّرة وأدَّبَ بها، وجَلَدَ في الخمرِ ثمانين جلدة، وفَتَح الفتوح، ومَصَّرَ الأمصار، وجَنَّدَ الأجناد، ووضع الخراج، ودوَّن الدَّواوين، وعرض الأعطية، واستقضى القضاة، ومآثره وآثاره الحِسَان كثيرة لا تُحصى.

عاشت أمّ كلثوم هذه المآثر، وعرفت أنَّ عمرَ رضي الله عنه هو الذي أعزَّ الله به دِيْنه، وهو الفاروق.

شهدت أمّ كلثوم الأحداث العظيمة في صَدْرِ الخلافة الرّاشدة، وعاشت مع سيّدنا عمر بضع سنين، وهي ترى أنَّ الأرض قد مُلِئت عَدْلاً وأَمْناً وسلاماً.

---

(١) يقصد صاحب البريد.

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٢/٦١) مع التصرف اليسير. وانظر: أعلام النساء (٤/٢٥٧).

(٣) لما ولي سيدنا عمر بن الخطاب الخلافة قال له الصحابة الكرام: يا خليفة خليفة رسول الله. فقال عمر رضي الله عنه: هذا أمر يطول، بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فسمي أمير المؤمنين.

وفي سَنَةِ ثلاث وعشرين من الهجرة، حجَّ سيِّدنا عمر رضي الله عنه، فلّما فرغ منَ الحجِّ، ونزل بالأبطح، دعا الله عزَّ وجلَّ، وشَكَا إليه أنَّه قد كبرت سِنّه، وضعُفَتْ قوّته، وانتشرتْ رعيته، وخافَ مِنَ التَّقْصير، وسأل الله أنْ يقبضَه إليه، وأنْ يَمُنَّ بالشَّهادة عليه في بلدِ النَّبيِّ ﷺ، كما ثبتَ عنه في الصَّحيح أنَّه كان يقول: اللهم إنّي أسألكَ شَهَادةً في سبيلكَ، وموتاً في بلدِ رسولك، فاستجابَ له الله هذا الدُّعاء، وجمعَ له بين هذين الأمرين؛ الشَّهادة والموت في المدينة المنوّرة، وهذا عزيز جداً، ولكنَّ الله لطيفٌ بما يشاء، فاتّفقَ أنْ غَدَرَ به أبو لؤلؤة فيروز المجوسيّ الأصل[1]، الرُّومي ا لدَّار، وهو قائمٌ يصلي في المحراب، وذلك في صَلاةِ الصُّبحِ مِنْ يومِ الأربعاءَ، لأَرْبَعٍ بقينَ مِنْ شَهْرِ ذي الحجة سَنَة ثلاث وعشرين من الهجرة، وقد ضَرَبَه أبو لؤلؤة بخنجرٍ ذات طرفين، ضربه بضْعَ ضربات، إحداهنَّ تحتَ سرته، فخرَّ من قامتهِ، ووقع، واستخلفَ على الصَّلاةِ عبد الرّحمن بن عوف رضي الله عنه.

وحُمِلَ سيّدنا عمر رضي الله عنه إلى منزله، والدم يسيلُ من جرحه ـ وذلك قبل طلوع الشَّمس ـ فجعل يفيق ثمّ يغمى عليه، ثمّ يذكّرونه بالصلاة فيفيق، ويقولُ: نعم، ولاحَظَّ في الإسلامِ لمن تركها.

ثمَّ إنَّ سيدنا عمر رضي الله عنه صلى في الوقتِ، ومن ثمَّ سأل عَمَّنْ قَتَلَه مَنْ هو؟

فقالوا له: هو أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة.

فقالَ عمرُ رضوان الله عليه: الحمدُ لله الذي لم يجعلْ منيّتي على يدي رجلٍ يدعي الإيمان، ولم يسجْد لله سجدةً.

وقضى الفاروقُ نَحْبَه، ودُفِنَ بالحجرة النّبويّة إلى جانبِ سيّدنا أبي بكر الصِّدِّيق عليه سحائب الرضوان، عن إذن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ وفي هذا يقول شاعر الحبيب المصطفى ﷺ سيّدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه، في النّبيّ الكريم وفي أبي بكر وعمر:

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٣٧/٧).

ثلاثةٌ برزوا بِسَبْقهم نَصَرهم ربّهم إذا نَشروا
عاشوا بلا فرقةٍ حياتهم واجتمعوا في المماتِ إذ قبروا
فليس مِنْ مسلمٍ له بَصَرٌ ينكر مِنْ فضلهم إذا ذكروا(١)

وحزنت أمّ كلثوم رضي الله عنها حُزْناً شديداً على زوجها عمر بن الخطاب، وكذلك زوجاته الأخريات، كما حزن المسلمون لوفاته، وبكاه القريب والبعيد، لأنَّه أمات الفتن، وأحيا السُّنَن، وخَرَجَ نقيَّ الثَّوب، بريّاً مِنَ العيب.

وأمّا أمّ كلثوم، فإنَّ سيّدنا عليّ بن أبي طالب قد أخذها إلى بيته، حتى انقضت عدّتها مِنْ عمر رضي الله عنه، وظلَّتْ ذكريات عمر في ذاكرتها، فكانت تذكره بفضائلهِ الحِسَان وفي بدايتها ومقدمتها العَدْل، كما كانت ترى في ابنها زيد بن عمر شبْهاً لعمر رضي الله عنه، فكان ذلك ممّا يخفّفُ لوعتها وأحزانها رضي الله عنها.

أُمُّ كلثومٍ بَعْدَ عُمَرَ:

بعد أن انقضت عدّة السَّيِّدة الكريمة أمّ كلثوم بنت عليّ رضي الله عنهما، تقدَّم لخطبتها أحد الأجواد، وهو سعيد بن العاص الأمويّ القرشيّ أحد فُضَلاء الأجواد، وأحد الأجوادِ الفضلاء، ممن تركوا في سجلِّ الجود أخباراً وضيئةً مضيئةً.

وسعيدُ بنُ العاص هذا، أدركَ النَّبيَّ ﷺ وله عنه رواية، وكان سعيدٌ عاملَ عثمان على الكوفة، واستعمله معاوية رضي الله عنه على المدينة غير مرّةٍ.

كان سعيدُ بنُ العاص من سَادات المسلمين، ومن الأجواد المشهورين، ومن الفُصَحاء المعروفين، وجعله عثمان بن عفان رضي الله عنه فيمن يكتبُ المصاحف لفصاحته وبلاغته، وكان سعيدٌ أشْبَهَ النَّاس لحيةً برسولِ الله ﷺ، وكان حَسَن السِّيرة جيّد السّريرة، كريماً مضيافاً، بارّاً بأصحابه، وكان حليماً وقوراً حكيماً، له كِلمَاتٌ حكيمةٌ تدلُّ على عقلِهِ وفصاحته.

---

(١) انظر: ديوان حسان (ص ٣٨٩).

وقد خَطَبَ سعيدٌ هذا أمَّ كلثوم بنت عليّ رضي الله عنهما فأجابتْ إلى ذلك، ثمَّ شاورت أخويها الحَسَن و الحُسين، فأمّا الحسن رضي الله عنه، فإنَّه أجابَ ورحَّبَ بسعيد بنِ العاص، وأمّا الحسين رضي الله عنه فإنّه كَرِهَ ذلك، وقال لأخته أمّ كلثوم: لا تتزوّجيه.

وكانت أمّ كلثوم قد وَعَدَتْ سعيداً، فهيَّأَتْ دارها، ونَصَبَتْ سريراً، وتواعدوا للكتابِ، وأمرت ابنها زيداً أنْ يزوّجها من سعيدٍ، فبعثَ لها بمئةِ ألف درهم.

وكان سعيدٍ قد وَعَدَ ناساً، وأرسلَ إليهم ليحضروا تزويجه، فلّما اجتمعوا عنده ـ وكان قد بلغه كراهية الحُسين للأمْرِ ـ قال لهم: إنّي قد دعوتكم لأمْرٍ، ثمَّ بدا لي غيره، إنّي كنتُ خطبتُ أمّ كلثوم بنت عليّ فأنْعَمَتْ، والله ما كنتُ لأُدخِلَ على ابني فاطمة الزّهراء بأمْرٍ يكرهانه.

ثمَّ إنَّ سعيداً ترك التَّزويج، وأطلق جميع ذلك المال لها(١).

وبهذا أظهر سعيد بنَ العاص حُسْنَ ودّةِ لأَهْلِ البيت النّبويّ الطَّاهر، كما أَبَانَ عَنْ طِيْبِ نَفْسِهِ، ونُبْلِ مكارمه، وهو الذي كان يوصي أولاده قائلاً: يا بني، إنَّ المكارمَ، لو كانت سَهْلة يَسِيرة لسابقكم إليها اللئام، ولكنّها كريهة مرّة، لا يصبرُ عليها إلا مَنْ عَرفَ فضلها ورجا ثوابها(٢).

ولله دَرُّ مَنْ قال:

كلُّ الأمورِ تزولُ عَنْكَ وتَنْقَضي   إلا الثَّناء فإنَّه لكَ باقِ
ولو أنّني خُيِّرتُ كلَّ فَضيلةٍ   ماخترتُ غيرَ مكارمِ الأَخلاقِ

---

(١) عن مختصر تاريخ دمشق (٩/٣١٣) والبداية والنهاية(٨/٨٦) مع الجمع والتصرف. وانظر: نوادر المخطوطات (١/ ٦٠) وسير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤٦ و٤٤٧) وتاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص٢٢٧).
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٣١٥ و٣١٦).

مَعَ ابْنِ عَمِّهَا:

قال ابنُ إسحاق ـ رحمه الله ـ لما تُوفي عن أمِّ كلثومٍ بنت عليّ رضي الله عنهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تزوّجت عون بن جعفر بن أبي طالب[1] ـ وهو ابن عمّها ـ أمّا قصة هذا الزَّواج فيرويه ابن أخي أمّ كلثوم وهو الحَسنُ بن الحسن بن عليّ رضي الله عنهم، يقول:

دخل على عمّتي أمّ كلثوم بنت عليّ أخواها الحَسن والحُسين، وذلك بعد أنْ ماتَ عمر رضي الله عنه فقالا لها: يا أمّ كلثوم، إنّك ممن عرفتِ، سيّدة نساء المسلمين وبنت سيّدة نساء العالمين، وإنّك والله إنْ مَكَّنْتِ أباكِ منْ رقَّتِكِ أنكحك بعضَ أيتامه، وإنْ أردتِ أنْ تصيبي بنفسكِ مالاً عظيماً لتصيبنّه.

ويتابعُ الحَسنُ بنُ الحَسنِ حديثه فيقول: فوالله ما قام الحسنُ والحُسين منْ مجلسهما مع عمتي أمّ كلثوم حتى أقبل جدّي عليّ يتكىءُ على عصاه، فسلّمَ عليهم، ثمَّ جلسَ، فحمد الله عزَّ وجلَّ، وأثنى عليه، وذكَرَ منزلتهم منْ رسولِ اللهﷺ، ومكانتهم في البيتِ النّبويِّ الطّاهرِ الذي أذْهَبَ الله عنه الرجّس، وطهّره تطهيرا، ثمّ توجّه بحديثه إليهم وقال:

قد عرفتم منزلتكم عندي يا بني فاطمة، وآثرتكم على سائر ولدي، لمكانتكم الكريمة منْ رسولِ اللهﷺ، وقرابتكم منه.

فقال الحسنُ والحُسين وأمّ كُلثوم: يا أبانا صدقتَ ـ رحمك الله ـ فجزاك الله عنّا خَيْرَ الجزاء وأعظمه.

ثمّ توجه عليٌّ إلى ابنتهِ أمّ كلثوم وقال لها: أي بُنيّة، إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد جَعَلَ أمْرَكِ بيدك، فأنا أحبُّ أنْ تجعليه بيدي.

فقالت أمّ كلثوم: أي أبتي، إني امرأة أرغبُ فيما يرغب فيه النِّساء، وأحبُّ أنْ أصيَب ممّا تصيبُ النِّساء منَ الدُّنيا، وأنا أريدُ أنْ أنظر في أمْرِ نفسي.

ونظر عليٌّ رضي الله عنه فيما تقول ابنته، فَعَلِمَ أنَّ هذا الرَّأي ليس من

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص١٣٧) بتصرف يسير جداً.

عندها، فعليٌّ هو العبقريُّ الذي لا تفوته مثل هذه الأشياء، وعندئذ قال لأم كلثوم بشيء من الحزم: لا والله يا بنية، ما هذا من رأيك، ما هو إلا رأي هذين، وأشار إلى الحَسَنِ والحُسَين.

ثمَّ إنَّ علياً رضي الله عنه قام وأرادَ الخروج وقال: والله لا أكلّمُ رجلاً منهما، أو تفعلين.

ونهضَ الحَسنُ والحُسَين رضي الله عنهما مسرعيْن، فأخذا بثيابه، وهما يقولان: اجلسْ يا أبة، فوالله ما لنا على هجرتك منْ صَبْرٍ!

ثمّ التفتا إلى أختهما أمّ كلثوم وقالا لها في لهجةِ رجاء: يا أُخيّة، اجعلي أمْرَكِ بيده رحمك الله.

فقالت أمّ كلثوم: قد فعلتُ.

قال عليٌّ رضوان الله عليه: فإنّي قد زوجتُك منْ عونِ بنِ جعفر وهو ابن عمّك[1]

ومكثتْ أمّ كلثوم حيناً منَ الدَّهْرِ مع ابن عمّها عون بن جعفر حتى استشهد بتُسْتر، ولا عقب له.

ولما انقضت عدّتها، أبقتْ أمّ كلثوم أمْرَها بيدِ أبيها عليّ، فزوّجها من ابن أخيه الثَّاني محمّد بن جَعْفر، واستشهد محمّد بن جعفر أيضاً، ولا عَقِب له منها.

ثم زوجها أبوها بعبدِ الله بن جعفر ابن عمّها أيضاً، فماتت عنده، ولم يجئها ولدٌ منَ الإخوة الثلاثة.

أُمُّ كلْثومٍ وابْنُ عُمَرَ:

كان لعبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما مكانة عظيمة عند أمّ كلثوم بنت علي رضي الله عنهما، وذكر الطَّبريُّ ـ رحمه الله ـ في تاريخه قصَّة تشيرُ إلى ذلك.

---

(١) عن تاريخ الإسلام (عهد معاويةص١٣٨) ونساء من عصر التابعين (١٥٢/١) مع الجمع والتصرف وانظر: أسد الغابة (٣٨٨/٦) وسير أعلام النبلاء (٥٠١/٣ و٥٠٢) وأعلام النساء (٢٥٨/٤).

فقد أوردَ الطّبريُّ في حوادثِ سنةِ ستٍ وثلاثين أنَّ عبدَ الله بنَ عمر خرج من المدينة إلى مكةَ معتمراً، وأخبرَ أمَّ كلثوم بنت عليّ أنّه يخرج معتمراً مقيماً على طاعةِ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما صدوقاً فاستقرَّ عندها صِدْقُه ووفاءه.

وأصبح سيّدنا عليّ رضي الله عنه فقيل له: يا أمير المؤمنين، حدث البارحة حَدَثٌ هو أشدّ منْ طلحةَ والزّبير وأمّ المؤمنين ـ عائشة ـ ومعاوية رضي الله عنهم!
قال عليّ رضوان الله عليه: وما ذلك؟!
قيل: خرج عبدُ الله بنُ عمر بن الخطّاب إلى الشّام ليخرجَ عليك فخرج عليٌّ رضي الله عنه وأتى السّوقَ، ودعا بالظَّهْرِ، فَحَمَلَ الرِّجال، وأعدَّ لكلِّ طريقٍ إلى الشّام طّلاباً لعبد الله بن عمر.

وماجَ أهلُ المدينة لذلك، وسمعت أمّ كلثوم رضي الله عنها بالذي هو فيه، فدعت ببغلتها، فركبتها في رحْلٍ، ثمّ انطلقتْ، فأتتْ سيّدنا عليّاً، وهو واقفٌ في سوقِ المدينة يفرّق الرِّجال، ويبعثهم في طَلَبِ ابن عمر؛ فحيّته وقالت له: ما لَكَ يا أمير المؤمنين يضيقَ صدرك منْ هذا الرّجل؟!
إنَّ الأمْرِ على خلاف ما بُلِّغْتَه وحُدِّثْتَه عنه، وإنَّ عبدَ الله بنَ عمر رجلٌ صالحٌ كما تعلم. ثمَّ قالتْ: يا أمير المؤمنين، أنا ضامنة لعبد الله بن عمر.

عند ذلك طابت نَفْس عليّ رضي الله عنه، ودخل السُّرور إلى قلبهِ بما عرف من الحقِّ، والحقيقة، ثمّ قال لرجاله وأصحابه: انصرفوا، هداكم الله، لا والله ما كذبت ابنتي أمّ كلثوم، ولا كذب عبدُ الله بنُ عمر، وإنّه عندي ثقة، فانصرفوا[1].

أُمُّ كلْثُومٍ وَمَقْتَل أَبِيْهَا:

في سنةِ أربعين من الهجرةِ النَّبويّةِ المباركةِ، قُتل سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفةِ، أمّا سبب مقتله، فكما ذكر ابنُ جرير، والدِّينوري، وابن كثير، وابن الأثير، وغير واحد من علماء التّاريخ والسِّير وأيّام النّاس، ما مفاده أنَّه

---

(١) عن تاريخ الطبري (٣/٥) بتصرف.

اجتمعَ ثلاثةٌ منَ الخوارجِ وهم: عبد الرّحمن بن عمرو والمعروف بابن ملجم المراديّ، والبرك بن عبد الله التّميمي، وعمرو بن بكر التّميمي، وذلك بعد موقعةِ النّهروان بشهْرٍ، فتذاكروا ما فيه أمْرِ النّاس من تلك الحروب، فقال بعضُهم لبعض؛ ما الرّاحة إلا في قَتْل هؤلاء النّفر الثّلاثة: عليّ بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص.

فقال ابنُ ملجم: أمّا أنا فأكفيكم قَتْل عليّ بن أبي طالب.

وقال البرك: وعليَّ قَتْل معاوية.

وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم قَتْل عمرو بن العاص.

واتّعدوا لليلةٍ واحدةٍ يقتلونهم فيها، وكانت ليلة السّابع عشر منْ رمضانَ، من سنةِ أربعين للهجرة.

وأقبل عبد الرحمنِ بنُ ملجم حتى قدم الكوفة، فرأى امرأة يقال لها قطام، وكانت فائقة الجمال مشهورة به، وقد كان عليّ قَتَل أباها وأخاها يوم النّهروان، فخطبها عبد الرحمن فاشترطتْ عليه قائلة: لا أتزوّجك إلا على ثلاثةِ آلاف درهم وعبد وقينة، وقَتْل عليّ بن أبي طالب، فتزوجها على ذلك الشّرط.

فلّما كانت الليلة المتّفق عليها، تقلّد ابن ملجم سيفه، وكان قد سمّه، وقعدَ مُغَلّساً ينتظر أنْ يمرَّ بهِ عليٌّ رضوان الله عليه مقبلاً إلى المسجدِ لصَلاة الصُّبح.

فبينما هو في ذلك إذْ أقبل عليٌّ وهو ينادي: الصّلاة أيها النّاس، الصّلاة أيها النّاس، فقامَ إليه ابن ملجم، فضربه بالسّيف على رأسه، فاجتمع النّاسُ فأخذوه.

وحُمل سيدنا عليّ رضي الله عنه إلى منزلهِ، وأُدْخِلَ عليه ابن ملجم، فقالت له أمّ كلثوم ابنة عليّ رضي الله عنهما: يا عدو الله، أقتلتَ أمير المؤمنين؟

قال ابن ملجم: لم أقتلْ أمير المؤمنين، ولكنّي قتلتُ أباكِ.

قالت أمّ كلثوم: أمَا والله إنّي لأرجو أنْ لا يكون عليه بأسٌ.

قال ابن ملجم: فعلام تبكين إذن؟ أما والله لقد سممتُ السّيف شهراً، فإنْ أخلفني أَبْعَدَهُ الله.

وفي روايةٍ أنَّه قال: أمّا أنا فقد أرهفتُ السَّيفَ، وطردتُ الخوف، وحشثُ الأَمَل، ونفيتُ الوجل، وضربته ضربة لو كانت بأهلِ عكاظ قتلهم.

وفي رواية أخرى، أنَّ ابن ملجم قال لأمّ كلثوم رضي الله عنها: فعلى مَنْ تبكين؟ والله لقد اشتريته بألف، وسممته بألف، ولو كانت هذه الضّربة على جميع أهل المِصْرَ، ما بقي منهم أحد[1].

هذا ولم يُمْسِ عليٌّ رضي الله عنه يومه ذلك حتى لحقَ بالرفيقِ الأعلى رضي الله عنه وأرضاه[2].

وفي كلامِ ابن ملجم يقول النّجاشي الشّاعر[3]:

إذا حيّـة أعْيـا الـرّقـاة[4] دواؤهـا
بَعَثْنـا لهـا تحتَ الـظّلام ابن ملجم

وقال ابن ميّاس المراديّ يذكر مَهْر ابن ملجم:

ولم أرَ مَهْـراً سَاقَـهُ ذُو سَـاحـةٍ كمهْر قَطَامٍ مِنْ فَصيحٍ وأعْجَم
ثـلاثـة آلاف وعَـبْـدٌ وقَـيْـنَـةٌ وضـربُ عـليٍّ بـالحسـامِ المصمّم

---

(١) أعلام النساء (٤/ ٢٥٩).

(٢) عن تاريخ الطبري (٣/ ١٥٥ و١٥٦) والأخبار الطوال (ص٢١٣ و٢١٤) مع الجمع والتصرف. وانظر: البداية والنّهاية (٧/ ٣٢٥ ـ ٣٢٩) ونساء من عصر التابعين (١/ ١٥٣ و١٥٤).

(٣) النّجاشي الشّاعر: اسمه قيس بن عمرو بن مالك، وهو أحد بني الحارث بن كعب. كان النّجاشي هذا من أشراف العرب، ولكنّه كان من الفسّاق وشاربي الخمر، وهو الذي أُتي به سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان سكران، وذلك في شهر رمضان، فجلده علي ثمانين جَلْدة، ثم زاده عشرين أخرى، فقال معترضاً: ما هذه العلاوة يا أبا الحسنِ؟ قال عليٌّ رضوان الله عليه: لجرأتك على الله عزَّ وجلَّ، وشربكَ الخمر في رمضان، ولأنَّ ولداننا صيام، وأنتَ مفطر، ووقَّفه للنَّاسِ في تبَّانٍ، وعند ذلك قال:

إذا حيّـة أعيا الـرّقـاة دواؤهـا بعثنـا لها تحت الـظّلام ابن ملجم

(٤) الرقاة: جمع راقي، وهو صانع الرقية. والرقية: العَوْذَة التي يرقى بها المريض.

فلا مَهْر أغلى منْ عليٍّ وإنْ غلا ولاقَتْل إلا دون قَتْل ابن ملجم[1]

كان المصابُ أليماً عظيماً على المسلمين، وعلى أمّ كلثوم خاصّة، فقد فقدت زوجها وأباها في صلاة الفجر، فلّما قُتل أبوها جعلت تقول: مالي ولصلاة الصُّبح، قُتل زوجي عمر صلاة الغداة، وقتل أبي صلاة الغداة.

وبكتْ أمُّ كلثوم بكاءً شديداً، وكذلك ابنة خالتها أمامة بنت أبي العاص، وكانت زوجة أبيها، وفي حزْنِ هاتين، تذكر أمّ الهيثم النّخعيّة حالهما، وهما حول جثمان عليّ رضي الله عنه:

أَشَابَ ذؤابتي وأطالَ حُزْني أمامة حين فارقتِ القرينا
وعبرة أمّ كلثومٍ إليها تجاوبها وقد رأتِ اليقينا

أُمُّ كلْثُوم وشَجَاعَةُ ابنها زَيْد:

ورثَ زيدُ بنُ عمر عن أبيهِ شجاعتهِ، وعن أمّه أمّ كلثوم فصاحتها وجرأتها، وقد وصَفَه علماء التّاريخ وكتّاب التّراجم بأنّه كان جميل الطّلعة، لطيف الشّكل، حلو الشّمائل، وكان لا يسكتُ على ضيم أو انتقاصٍ لأحد، وكان يفتخرُ بقوله: أنا ابنُ الخليفتين[2].- يقصد عليّا وعمر رضي الله عنهما-

ولزيدٍ هذا موقفٌ أمام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما يشير إلى

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٦٠) والبداية والنهاية (٧/ ٣٢٨) والأخبار الطوال (ص٢١٤).

(٢) قال محمّد بن حبيب ـ رحمه الله ـ في «المنمق» عن زيد بن عمر: رجل من قريش استشهد أبوه، وعمّه، وجدّه أبو أمه، وعم أمّه، وعمّ أبي أمه، وخاله؛ هو زيد بن عمر بن الخطاب.

استشهد أبوه عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.
وعمّه زيد بن الخطاب في الردة رضي الله عنه.
وجدّه أبو أمّه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
وعمّ أمّه: جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.
وعم أبي أمه: حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.
وخاله: الحسين بن علي أبي طالب رضي الله عنه. (المنمق ص٤٢٦).

شجاعته وجرأته، فقد ذكر غير واحد من علماء التّاريخ والسِّير والتّراجم قال: وفدنا مع زيد بن عمر بن الخطاب إلى معاويةَ بنِ أبي سفيان رضي الله عنهما، فأدنى معاوية زيداً منه وأجلسه بجانبه على السَّرير، وزيدٌ يومئذ من أجملِ النَّاس وأبهاهم.

وكان في المجلسِ بُسْرُ بنُ أرطأة العامريّ القرشيّ، فبينما هو جالس، أسمعه كلمة نال فيها من جدّه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فقال له بُسر بسخرية: يا بن أبي تُراب، فقال له زيد: إياي تعني؟ لا أم لك، أنا والله خير منك وأزكى وأطيب؛ وما زال الكلام بينهما حتى علاه زيدٌ بعصا فشجّه، ثمّ نزل إليه زيدٌ فخنقه حتى صرعه، ورماه على الأرض، وبرك على صَدْره، ثمَّ قال لمعاوية: أنا ابنُ الخليفتين، والله لا تراني بعدها عائداً إليك، وإني لأ علم أنَّ هذا لم يكن إلا عن رأيك. فنزل معاويةُعن سريره، فحجز بينهما، ثمّ قال لزيدٍ: عمدت إلى شيخٍ من قريش سيّد أهل الشّام فضربته!.

ثمّ إنَّ معاوية قال: أَبْعَدَ الله بُسْراً، أبعد الله بُسْراً أما علمَ بسر أنَّ زيداً ابن عليّ وعمر، وأمّ زيد ابنة عليّ من فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ؟

والتفت معاوية إلى بُسْر وقال له: تشتم عليّاً وهو جدّه، وابن الفاروق على رؤوس النّاس، أَوَ كنتَ ترى أنه يصبرُ على ذلك؟!

وخرج بسرٌ منْ مجلس معاوية، وقد تشعَّثَ رأسه وعمامته؛ ثمّ خرج زيد من مجلسِ معاوية، فدعا بإبله فارتحل، فأتاه آذنُ معاوية، فقال: إنَّ أميرَ المؤمنين يقرأ عليك السَّلام ويقول: عزمتُ عليك لما آتيتني، فإن أبيتَ أتيتك.
قال زيد: لولا العزيمةُ ما أتيتُ.

فلّما رجع إليه زيد أجلسه معاوية على سريره، وقبّل بين عينيه، ثمّ اعتذرَ منه وقال: مَنْ نسيَ بلاء عمر، فإنّي والله ما أنساه، لقد استعملني وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، وأنا يومئذ حديث السِّنِّ، فأخذتُ بأدبه، واقتديتُ بهديه، واتبعتُ أثره، فوالله ما قويتُ على العامّةِ إلا بمكاني منه.

ثمَّ إنَّ معاويةَ أَمَرَ لزيدٍ بمئة ألف درهم، وأَمَر لكلِّ واحد مِنْ أتباعه بأربعة

آلاف، وكانوا عشرين رجلاً، وقضى حوائج زيد. وأمر معاوية كذلك لبسر بنِ أرطأة بصلة، وأرضاهما جميعاً.

ثمَّ إنَّ معاويةَ رضي الله عنه قال كلمته المشهورة:

إنِّي لأرفعُ نفسي مِنْ أَنْ يكونَ ذَنْبٌ أعظم من عفوي، وجهل أكثر منْ حلمي، أو عورة أواريها بستري، أو إساءة أكثر من إحساني[1].

وَفَاةُ أُمِّ كلْثُومِ رضي الله عنها:

روى أصحابُ الأخبارِ والتَّراجم أنَّ أمَّ كلثوم وابنها زيداً قد ماتا في يومٍ واحد. وقيل إنَّ زيداً قد توفي شاباً، والسَّبب في وفاتهِ كما وَرَدَ أنَّ فتنةً، قد وقعتْ في قومهِ بني عدي بن كعب ليلاً، فخرج زيدٌ كيما يصلح بينهم، وينهى بعضهم عن بعضٍ، فخالطهم، فضربه رجلُ منهم في الظُّلمةِ ـ وهو لا يعرفه ـ على رأسه فشجّه، وصُرعَ عن دابّتِهِ، وتنادى القوم: زيدٌ. . . زيدٌ. . . فتفرقوا، وأسقط في أيديهم[2]. وقيل أصابه حَجَرٌ فمات.

وخرجت أمّه أمّ كلثوم وهي تقولُ، يا ويلاه، ما لقيتُ من صلاةِ الغَداة، وذلك أنَّ أباها وزوجها وابنها قُتِلوا في صلاة الصُّبح، ثمّ إنّها وقَعتْ عليه حزناً، فقُبِضَتْ هي وابنها في ساعةٍ واحدة[3]. وقال محمّد بن إياس بن البكير يرثي زيدَ بنَ عمر منْ قصيدة منها:

---

(١) عن تاريخ الطّبري (٣/٢٦٧) وتاريخ الإسلام (عهد معاوية ص٥٨ و٥٩) وربيع الأبرار (٥/٣٠٤) مع الجمع والتصرف. وانظر: تهذيب تاريخ دمشق (٦/٢٨ و٢٩) ونساء من عصر التابعين (١/١٥٥ و١٥٦) وسير أعلام النبلاء (٣/٥٠٢) ومختصر تاريخ دمشق (٩/١٦٠ و١٦١) والكامل لابن الأثير (٤/١٢) والعقد الفريد (٤/٣٦٥).

(٢) المنمق لابن حبيب (ص٣٠٩ ـ ٣١٢).

(٣) المنمق (ص٣١٣) وأسد الغاية (٦/٣٨٧).

قال ابنُ عبد البر ـ رحمه الله ـ: كانت في زيدِ وأمّه سُنّتان فيما ذكروا، لم يورثْ واحد منهما من صاحبه، لأنّه لم يُعرف أوّلهما موتاً، وقدّم زيد قبل أمّه ممّا يلي الإمام (الاستيعاب ٤/٤٦٩).

ألا يا ليتَ أمّي لم تلدني ... ولم أكُ في الغواةِ لدى البقيع
ولم أرَ مَصْرعَ ابن الخير زيد ... وهدٌّ به هنالك منْ صريع
هو الرَّجل الذي عظمتْ وجلَّتْ ... مصيبته على الحيِّ الجميع
شفيع الجود ما للجود حقّاً ... سواه إذا تولّى من شفيع

وشَيَّعَ أمّ كلثوم كما شَيَّعَ ابنها إلى البقيع عَدَدٌ من الصَّحابة، وفي مقدمتهم: عبد الله بن عمر والحَسن والحُسين وعبد الله بن عبّاس وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم.

وقال عبدُ الله بن عمر لأخيها الحسن: تقدّم فصلِّ على أختك وابن أختك. فقال الحسن رضي الله عنه لابن عمر: بل تقدّم أنتَ فصلِّ على أمِّك وأخيك[1]. وتقدم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وجَعَل زيداً ممّا يليه، ثم جعل أمّ كلثوم وراءه، ثمّ صلى عليهما وكبر أربعاً، وخلفه الحَسَن والحُسين رضي الله عنهما.

كانت وفاةُ أمّ كلثوم في عَهْد سيّدنا معاوية رضي الله عنهما، وبموت أمّ كلثوم بنت عليّ طوى التّاريخ حياتها، إلا أنّه نَشَرَ فضائلها الفوّاحة بأَلَقِ العبير على مدى الأيّام، لتكون قدوة لغيرها من بنات حوّاء.

رضي الله عن أمّ كلثوم بنتِ عليّ، وجَعَلها في مستقرِّ رحمته، ممن يرثون الفِردوس مع المقرّبين في روحٍ وريحانٍ وجنّة نعيم.

= وقال ابن عساكر: فجرتِ السُّنّة في الرجل والمرأة بذلك بعد (مختصر تاريخ دمشق ١٦٢/٩).

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٦٢/٩) والمنمق (ص٣١٢).

فهرس المصادر والمراجع[1]

١ـ القُرآن الكريم.

٢ـ إتحافُ السَّادة المتّقين بشرح إحياء علوم الدين: للزبيدي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٩م.

٣ـ الإتْقانُ في علوم القرآن: للسّيوطيّ ـ تقديم وتعليق ـ د. مصطفى ديب البغا ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٧٩م.

٤ـ آثارُ البلاد وأخبار العباد: للقزويني ـ دار بيروت للطباعة والنَّشر ـ بيروت ـ ١٩٧٩م.

٥ـ الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصَّحابة: للزركشيّ ـ تحقيق سعيد الأفغاني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ط٤ ـ ١٤٠٥هـ.

٦ـ الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم الظاهري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٥م.

٧ـ أحكام القرآن: لابن عربي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت.

٨ـ الأخبار الطوال: للدينوري ـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ مراجعة د: جمال الدين الشيال ـ مصر ١٩٥٩م.

٩ـ أخبار القضاة: لوكيع محمد بن خلف بن حيان ـ عالم الكتب بيروت.

(١) كانت المصادر التي اعتمدنا عليها في هذه الموسوعة متنوعة، قد تجاوزت المئات، ولا يمكن استقصاؤها في هذا الفهرس، وكان في مقدمة المصادر عشرات كتب التفسير والحديث ـ كما ستلاحظ في ثنايا البحث ـ وسنكتفي بذكر بعضها في هذا المقام.

١٠- أخبار مكة: للأزرقي - تحقيق رشدي الصالح ملحس - دار الأندلس - بيروت ط٤ - ١٩٨٣م.
١١- الأخبار الموفقيات: للزبير بن بكار - تحقيق د. سامي مكي العاني - مطبعة العاني - بغداد - ١٩٧٢م.
١٢- أدب الدنيا والدين: للماوردي تحقيق مصطفى السقا - دار الكتب العلمية - بيروت ط٤ - ١٩٧٨م.
١٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: لأبي السعود - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١٤- أزواج النبي وأولاده: لأبي عبيدة - تحقيق يوسف علي بديوي - دار مكتبة التربية - بيروت - ١٩٩٠م.
١٥- أزواج النبي للصالحي: تحقيق محمد نظام الدين الفتيح - دار ابن كثير - دمشق ط١ - ١٩٩٢.
١٦- أسباب النزول: للواحدي - تحقيق د. مصطفى البغا - دار ابن كثير - دمشق ط١ - ١٩٨٨م.
١٧- أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين: لعبد الفتاح القاضي - دار الندوة الجديدة - بيروت ١٩٨٧م.
١٨- الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار: لابن قدامة المقدسي - تحقيق علي نويهض - دار الفكر.
١٩- الاستيعاب - بهامش الإصابة: لابن عبد البر - دار الكتاب العربي - بيروت.
٢٠- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير - دار الفكر - بيروت - ١٩٨٩م.
٢١- الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة: للخطيب البغدادي - أخرجه دكتور عز الدين علي السيد - مكتبة الخانجي - القاهرة ط١ - ١٩٨٤م.
٢٢- الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر العسقلاني - دار الكتاب العربي - بيروت.

٢٣ـ الأعلام: لخير الدين الزّركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ط٨ ـ ١٩٨٤م.
٢٤ـ أعلام النساء: لعمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٩ ـ ١٩٨٩م.
٢٥ـ أعلام النبوة: للماوردي ـ تقديم وتعليق ـ محمد المعتصم بالله البغدادي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٧م.
٢٦ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: لابن قيم الجوزية ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ دار الجيل للطباعة ـ مصر.
٢٧ـ الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني ـ دار الفكر ـ طبعة مصورة ـ بيروت.
٢٨ـ الإكليل في استنباط التنزيل: للسيوطي ـ تحقيق سيف الدين الكاتب ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٥م.
٢٩ـ أمالي المرتضى: للشريف المرتضى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١٩٥٤م.
٣٠ـ أنساب الأشراف: للبلاذري ـ تحقيق محمد حميد الله ـ دار المعارف ـ مصر.
٣١ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للبيضاوي ـ مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع ـ بيروت.
٣٢ـ الأوائل: لأبي هلال العسكري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ـ ١٤٠٧هـ.
٣٣ـ إيضاح الإشكال: لمحمد بن طاهر المقدسي ـ تحقيق د. باسم جوابرة ـ مكتبة المعلا ـ الكويت ط١ ـ ١٩٨٨م.
٣٤ـ البداية والنهاية: لابن كثير ـ دار الفكر بيروت ـ ١٩٧٨م.
٣٥ـ البرهان في علوم القرآن: للزركشي ـ دار إحياء الكتاب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٥٧م.
٣٦ـ بلاغات النساء: لطيفور ـ صححه وشرحه ـ أحمد الألفي ـ مطبعة مدرسة والدة عباس الأول ـ القاهرة ـ ١٩٠٨م.
٣٧ـ بلوغ المرام من أدلة الأحكام: لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق يوسف علي بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٣م.

٣٨- بهجة المَجَالس وأنس المُجالِس: لابن عبد البر ـ تحقيق محمد مرسي الخولي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٣٩- التاج الجامع للأصول: لمنصور علي ناصف ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ط٤ .
٤٠- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهر والأعلام: للذهبي ـ تحقيق د . عمر تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٧م.
٤١- تاريخ الأمم والملوك: للطبري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٨م.
٤٢- تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٤٣- تاريخ الخلفاء: للسيوطي ـ دار الفكر ـ ١٩٧٤م.
٤٤- تاريخ مدينة دمشق ـ تراجم النساء ـ: لابن عساكر ـ تحقيق سكينة الشهابي ـ دار الفكر ـ دمشق.
٤٥- تاريخ المدينة المنوّرة: لابن شبة ـ تحقيق فهيم محمد شلتوت دار التراث ـ بيروت ط١ ـ ١٩٩٠م.
٤٦- تأويل مختلف الحديث: لابن قتيبة ـ تحقيق محمد محيي الدين الأصفر ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٩م.
٤٧- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: للمباركفوري ـ صححه عبد الوهاب عبد اللطيف ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ط٣ ـ ١٩٧٨م.
٤٨- الترغيب والترهيب: للمنذري ـ بعناية مصطفى محمد عمارة ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ط٣ ـ ١٩٦٨م.
٤٩- تفسير البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسيّ ـ دار الفكر ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٣م.
٥٠- تفسير الخازن وبهامشة البغوي: للخازن والبغوي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ط٢ ـ ١٩٥٥م.
٥١- تفسير الرازي: لأبي بكر الرازي ـ تحقيق د . محمد رضوان الداية ـ دار الفكر ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٠م.

٥٢- تفسير القاسمي - لجمال الدين القاسمي - علق عليه محمد فؤاد عبد الباقي - دار الفكر - بيروت ط٢ - ١٩٧٨م.
٥٣- تفسير القرآن العظيم: لابن كثير - مكتبة المنار - الأردن ط١ - ١٩٩٠م.
٥٤- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: لفخر الدين الرازي - دار الكتب العلمية - بيروت ط١ - ١٩٩٠م.
٥٥- تفسير الماوردي - النكت والعيون -: للماوردي - تحقيق خضر محمد خضر - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - التراث الإسلامي - كويت ط١ - ١٩٨٢م.
٥٦- تفسير المراغي: لأحمد مصطفى المراغي - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٨٢م.
٥٧- تفسير النسفي: للنسفي - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٨٢م.
٥٨- تقريب التهذيب: لابن حجر العسقلاني - تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف دار المعرفة - بيروت.
٥٩- تلقيح فهوم الأثر في عيون التاريخ والسير: لابن الجوزي - مكتبة الآداب - مصر.
٦٠- تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء: لابن حمير- تحقيق د . محمد رضوان الداية - دار الفكر - دمشق ط١ - ١٩٩١م.
٦١- تهذيب الأسماء واللغات: للنووي - دار الكتب العلمية - بيروت.
٦٢- تهذيب التهذيب: لابن حجر العسقلاني - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - طبعة مصورة.
٦٣- جامع الأصول: لابن الأثير- تحقيق عبد القادر الأرناؤوط - دمشق ١٩٧٣م.
٦٤- جامع البيان في تفسير القرآن: للطبري - دار الفكر - دمشق - ١٩٨٤م.
٦٥- الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٦٦- جلاء الأفهام: لابن قيم الجوزية - تحقيق محيي الدين مستو دار ابن كثير- دمشق ط١ - ١٩٨٨م.

٦٧- جمهرة أنساب العرب: لابن حزم الأندلسي - دار الكتب العلمية - بيروت ط١ - ١٩٨٣م.
٦٨- جوامع السيرة النبوية: لابن حزم - تحقيق الشيخ نايف العباس - دار ابن كثير - دمشق ط٢ - ١٩٨٦م.
٦٩- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: لابن قيم الجوزية - تحقيق يوسف علي بديوي - دار ابن كثير - دمثق ط١ - ١٩٩١م.
٧٠- حاشية الصاوي على الجلالين: للصاوي - دار إحياء الكتب العربية - مصر.
٧١- حجة الله على العالمين: ليوسف النبهاني - تحقيق محمد مصطفى أبو العلا - مكتبة الجندي - مصر - ١٩٧١م.
٧٢- حدائق الإنْعام: لعبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي - تحقيق يوسف بديوي - دار الضياء - بيروت ط١ - ١٩٨٩م.
٧٣- حُسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة: للقنوحي - تحقيق د. مصطفى الخن ومحيي الدين مستو - مؤسسة الرسالة - بيروت ط٥ - ١٩٨٥م.
٧٤- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم الأصبهاني - دار الكتاب العربي - بيروت ط٢ - ١٩٦٧م.
٧٥- حياة الصحابة: للكاندهلوي - بعناية نايف العباس ورفيقه - دار القلم ط١ - ١٩٦٨م.
٧٦- الداء والدواء: لابن قيم الجوزية - تحقيق يوسف علي بديوي - دار ابن كثير - دمشق ط٢ - ١٩٨٩م.
٧٧- الدارس في تاريخ المدارس: للنعيمي - تحقيق جعفر الحسيني مطبوعات المجمع بدمشق - ١٩٥١م.
٧٨- در السحابة في مناقب القرابة والصحابة: للشوكاني - تحقيق د. حسن العمري - دار الفكر - دمشق ط١ - ١٩٨٤م.
٧٩- الدرر في اختصار المغازي والسير: لابن عبد البر - تحقيق د. مصطفى البغا - مؤسسة علوم القرآن - دمشق ط٤ - ١٩٨٤م.

٨٠- الدر المنثور في التفسير المأثور: للسيوطي - دارالفكر- بيروت ط١ - ١٩٨٣م.
٨١- دلائل النبوة: للأصبهاني - تحقيق محمد رواس قلعه جى وعبد البر عباس - دار التراث - حلب ط١ - ١٩٧٠م.
٨٢- دلائل النبوة: للبيهقي - تحقيق د. عبد المعطي قلعجي - دار الكتب العلمية - بيروت ط١ - ١٩٨٥م.
٨٣ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: للصديقي الشافعي - دار الكتاب العربي بيروت ط١٠ - ١٩٨٥م.
٨٤- ديوان أمية بن أبي الصلت: جمع وتحقيق ودراسة د. عبد الحفيظ السطلي - المطبعة التعاونية بدمشق - ١٩٧٤م.
٨٥- ديوان حسان بن ثابت: تحقيق د. سيد حنفي حسنين - دار المعارف - مصر - ١٩٧٤م.
٨٦- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: للزمخشري - تحقيق د. سليم النعيمي - دار الذخائر للمطبوعات - إيران.
٨٧- رجال مبشرون بالجنة: لأحمد خليل جمعة الحرستاني - دار ابن كثير- دمشق ط٢ - ١٩٩٢م.
٨٨- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: للآلوسي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٨٨- الروض الأنف - بهامش السيرة النبوية - للسهيلي: تحقيق طه عبد االرؤوف سعد - مكتبة الكليات الأزهرية - مصر - ١٩٧١م.
٩٠- الرياض النضرة في مناقب العشرة: للمحب الطبري - دار الكتب العلمية - بيروت ط١ - ١٩٨٤م.
٩١- زاد المسير في علم التفسير: لابن الجوزي - المكتب الإسلامي - دمشق ط٣ - ١٩٨٤م.
٩٢- زاد المعاد: لابن قيم الجوزية - تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت ط٦ - ١٩٨٤م.

٩٣- الزهد: للإمام أحمد بن حنبل - دار الكتب العلمية - بيروت ط١ - ١٩٨٣م.
٩٤- زهر الأداب: للحصري: تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - مصر ط٣ - ١٩٥٣م.
٩٥- السمط الثمين: للمحب الطبري - مكتبة التراث الإسلامي - حلب.
٩٦- سنن ابن ماجه: تحقيق فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٩٧٥م.
٩٧- سنن أبي داود: إعداد وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٩٨- سنن الترمذي: إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس - حمص ط١ - ١٩٦٦م.
٩٩- سنن الدارقطني: بعناية عبد الله اليماني - دار المعرفة - بيروت - ١٩٦٦م.
١٠٠- سنن الدارمي: دار الفكر - بيروت.
١٠١- سنن سعيد بن منصور: حققه حبيب الرحمن الأعظمي - بيروت ط١ - ١٩٨٥م.
١٠٢- السنن الكبرى: للبيهقي - دار الفكر - بيروت.
١٠٣- سنن النسائي: بشرح السيوطي وحاشية السندي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١٠٤- سير أعلام النبلاء: للذهبي - تحقيق جماعة من العلماء - مؤسسة الرسالة - بيروت ط٣ - ١٩٨٥م.
١٠٥- السيرة الحلبية: لعلي بن برهان الدين الحلبي - مطبعة البابي الحلبي - مصر ط١ - ١٩٦٤م.
١٠٦- السير والمغازي: لابن إسحاق - تحقيق د. سهيل زكار - دار الفكر - ط١ - ١٩٧٨م.
١٠٧- السيرة النبوية: لأحمد زيني دحلان - الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت - ١٩٨٣م.

١٠٨- السيرة النبوية: لابن هشام - تحقيق السقا ورفاقه - مطبعة البابي الحلبي - مصر ط٢ - ١٩٥٥م.
١٠٩- السيرة النبوية: لابن هشام - تحقيق د. عمر التدمري - دار الكتاب العربي - بيروت ط٢ - ١٩٨٩م.
١١٠- السيرة النبوية: لابن هشام - مع شرح أبي الخشني - تحقيق د. همام عبد الرحيم سعيد ومحمد أبو صعيليك - مكتبة المنار - الأردن ط١ - ١٩٨٨م.
١١٢- شاعرات العرب: جمع وتحقيق عبد البديع صقر - المكتب الإسلامي - ط١ ١٩٦٧م.
١١٣- شذرات الذهب: لابن العماد الحنبلي - تحقيق محمود الأرناؤوط - دار ابن كثير - دمشق ط١ - ١٩٨٦م.
١١٤- شرح الصدور: للسيوطي - تحقيق يوسف بديوي - دار ابن كثير - دمشق ط١ - ١٩٨٩م.
١١٥- شرح المواهب اللدنية: للزرقاني - دار المعرفة - بيروت لبنان ط٢ - ١٩٧٣م.
١١٦- الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض - تحقيق محمد أمين قرة علي ورفاقه - مؤسسة علوم القرآن - دمشق ط٢ - ١٩٨٦م.
١١٧- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام: للفاسي - تحقيق د. عبد السلام تدمري - دار الكتاب العربي - بيروت ط١ - ١٩٨٥م.
١١٨- صحيح ابن حبان: بعناية كمال الحوت - دار الكتب العلمية - بيروت ط١ - ١٩٨٧م.
١١٩- صحيح ابن خزيمة: تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي - المكتب الإسلامي - بيروت - ١٣٩٠هـ.
١٢٠- صحيح مسلم: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٢١- صحيح مسلم بشرح النووي: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - السعودية.
١٢٢- صفة الصفوة: لابن الجوزي: تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعجي - دار المعرفة - بيروت ط٢ - ١٩٧٩م.
١٢٣- الصواعق المحرقة: لابن حجر الهيتمي - تخريج وتعليق عبد الوهاب عبد اللطيف - مكتبة القاهرة - مصر ط٢ - ١٩٦٥م.
١٢٤- طبقات الحفاظ: للسيوطي - دار الكتب العلمية - بيروت ط١ -١٩٨٣م.
١٢٥- الطبقات الكبرى: لابن سعد - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت.
١٢٦- الطب النبوي: لعبد اللطيف البغدادي - تحقيق يوسف علي بديوي - دار ابن كثير- دمشق ط١ - ١٩٩٠م.
١٢٧- العبر في خبر من غبر: للذهبي - تحقيق محمد زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت ط١ - ١٩٥٨م.
١٢٨- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: للفاسي - تحقيق فؤاد سيد - القاهرة - ١٣٥٨هـ.
١٢٩- عون المعبود شرح سنن أبي داود: لأبي الطيب الآبادي - تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان - مكتبة ابن تيمية - القاهرة ط٣ - ١٩٨٧م.
١٣٠- عيون الأثر في فنون المغازي والسير: لابن سيد الناس- دار الآفاق الجديدة - بيروت ط٣ - ١٩٨٢م.
١٣١- عيون الأخبار: لابن قتيبة - مصورة عن دار الكتب - مصر - ١٩٦٣م.
١٣٢- غرر التبيان في مَنْ لم يُسَمَّ في القرآن: لابن جماعة الحموي - تحقيق د. عبد الجواد خلف - دار قتيبة - دمشق ط١ - ١٩٩٠م.
١٣٣- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني - حققه محب الدين الخطيب - رقمّه وبوّبه: محمد فؤاد عبد الباقي - أشرف على التصحيح: قصي محب الدين الخطيب - المكتبة السلفية - القاهرة ط٤ - ١٤٠٨هـ.

١٣٤- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير: للشوكاني - دار الفكر - بيروت.
١٣٥- فتوح البلدان: للبلاذري - نشره د. صلاح الدين المنجد - مكتبة النهضة المصرية - مصر.
١٣٦- الفرج بعد الشدة: للتنوخي - تحقيق عبود الشالجي - دار صادر - بيروت - ١٩٧٨م.
١٣٧- الفضول في سيرة الرسول: لابن كثير - تحقيق محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو- دار ابن كثير - دمشق ط٤ - ١٩٨٥م.
١٣٨- فضائل الصحابة: للإمام أحمد - تحقيق وصي الله بن محمد عباس - مؤسسة الرسالة - بيروت ط١ - ١٩٨٣م.
١٣٩- الفوائد المجموعة: للشوكاني - تحقيق عبد الرحمن اليماني - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٧٩هـ.
١٤٠- القاموس المحيط : للفيروز آبادي - مؤسسة الرسالة بيروت ط٢ - ١٩٨٧م.
١٤١- الكامل في التاريخ: لابن الأثير - دار صادر - بيروت.
١٤٢- الكامل في اللغة والأدب: للمبرد: عارضه بأصوله وعلّق عليه - محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي - القاهرة.
١٤٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للزمخشري - دار المعرفة - بيروت.
١٤٤- كشف الخفاء ومزيل الإلباس: للعجلوني - بعناية أحمد القلاش - دار التراث - القاهرة.
١٤٥- كنز العمال: لعلاء الدين علي المتقي الهندي - بعناية حياني والسقا - مؤسسة الرسالة - بيروت ط٥ - ١٩٨٥م.
١٤٦- لباب النقول للسيوطي - دار إحياء العلوم - بيروت ط٤ - ١٩٨٣م.
١٤٧- لسان العرب: لابن منظور - طبعة مصورة عن طبعة بولاق - مصر.

١٤٨ـ المبشرون بالنار: لأحمد خليل جمعة الحرستاني ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٣م.
١٤٩ـ المجتبى من المجتنى: لابن الجوزي ـ تحقيق د. علي حسين البواب ـ دار الفرقان ـ عمان الأردن ط١ ـ ١٩٨٨م.
١٥٠ـ مجمع الأمثال: للميداني ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السنةالمحمدية ـ القاهرة ـ ١٩٥٥م.
١٥١ـ مجمع الزوائد: للهيثمي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
١٥٢ـ المحاسن والمساوىء ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٠م.
١٥٣ـ محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار: لابن العربي ـ دار اليقظة العربية ـ دمشق ـ ١٩٦٨م.
١٥٤ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: للراغب الأصفهاني ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت.
١٥٥ـ المحبر: لابن حبيب ـ رواية السكري ـ صححه الدكتورة إيلزه ليختن شتيتر ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.
١٥٦ـ مختصر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: للإمام ابن منظور ـ تحقيق عدد من الأفاضل ـ دار الفكر ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٠م.
١٥٧ـ مروج الذهب ومعاون الجوهر: للمسعودي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد دار المعرفة ـ بيروت.
١٥٨ـ المستدرك على الصحيحين: للحاكم النيسابوري ـ مكتب الطبوعات الإسلامية ـ حلب.
١٥٩ـ المستطرف في كل فن مستظرف: للأبشيهي ـ دار الفكر.
١٦٠ـ مسند أبي يعلى الموصلي: للموصلي ـ تحقيق حسين أسد ـ دار المأمون للتراث ـ دمشق ط١ ـ ١٩٨٤م.
١٦١ـ المسند: للإمام أحمد ـ دار الفكر ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٧٨م.
١٦٢ـ مسند الطيالسي: دار المعرفة ـ بيروت.

١٦٣ـ مشاهير علماء الأمصار: لابن حبان ـ تحقيق مرزوق علي إبراهيم ـ دار الوفاء ـ مصر ـ المنصورة ط١ ـ ١٩٩١م.
١٦٤ـ المصنف: لعبد الرزاق الصنعاني ـ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ـ المكتب الإسلامي بيروت ط١ ـ ١٩٧٢م.
١٦٥ـ المعارف: لابن قتيبة ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف ـ مصر ط٤ ـ ١٩٧٧م.
١٦٦ـ معاني القرآن: للفراء ـ عالم الكتب بيروت ط٣ ـ ١٩٨٣م.
١٦٧ـ معجم البلدان: لياقوت الحموي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٦٨ـ معجم المؤلفين: لعمر رضا كحالة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٦٩ـ المعجم الوسيط: أخرجه د. إبراهيم مصطفى ورفاقه ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ط٢.
١٧٠ـ المعرفة والتاريخ: للبسوي ـ تحقيق د. أكرم ضياء العمري ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨١م.
١٧١ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: للذهبي ـ تحقيق بشار عواد ورفيقه ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٤م.
١٧٢ـ المغازي: للواقدي ـ عالم الكتب ـ بيروت.
١٧٣ـ المغازي النبوي: للزهري ـ تحقيق د. سهيل زكار ـ دار الفكر ـ دمشق ط١ ـ ١٩٨٠م.
١٧٤ـ مفحمات الأقران: للسيوطي ـ تحقيق إياد خالد الطباع مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٨م.
١٧٥ـ مقاتل الطالبين ـ لأبي الفرج الأصبهاني ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٨٧م.
١٧٦ـ منح المدح ـ أو شعراء الصحابة ـ: لابن سيد الناس ـ تحقيق عفت وصال حمزة ـ دار الفكر ـ دمشق ط١ ـ ١٩٨٧م.
١٧٧ـ المنمق في أخبار قريش: لابن حبيب البغدادي ـ تحقيق خورشيد أحمد فاروق ـ عالم الكتب ـ بيروت ط١ ـ ١٩٨٥م.

١٧٨ـ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: للقسطلاني ـ تحقيق صالح أحمد الشامي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ط١ ـ ١٩٩١م.
١٧٩ـ الموطأ: للإمام مالك ـ صححه ورقمه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة.
١٨٠ـ نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسنة: لأحمد خليل جمعة الحرستاني ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٣م.
١٨١ـ نساء مبشرات بالجنة: لأحمد خليل الحرستاني ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط٢ ـ ١٩٩٢م.
١٨٣ـ نساء من عصر التابعين: لأحمد خليل الحرستاني ـ دار ابن كثير ـ دمشق ط١ ـ ١٩٩٢م.
١٨٤ـ نساء من عصر النبوة: لأحمد خليل جمعة الحرستاني ـ دار ابن كثير دمشق ط١ ـ ١٩٩٢م.
١٨٥ـ نسب قريش: لمصعب الزبيري ـ دار المعارف ـ مصر ط٣.
١٨٦ـ نكت الهميان في نكت العميان: للصفدي ـ بعناية أحمد زكي بك ـ المطبعة الجمالية ـ مصر ـ ١٩١١م.
١٨٧ـ نهاية الأرب: لأحمد بن عبد الوهاب النويري ـ دار الكتب المصرية ـ ١٩٢٤م.
١٨٨ـ نوادر المخطوطات: تحقيق عبد السلام هارون ـ طبعة البابي الحلبي مصر ط٢ ـ ١٩٧٢م.
١٨٩ـ هذه الشجرة: لعباس محمود العقاد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط٣ ـ ١٩٧١م.
١٩٠ـ الوافي بالوفيات: للصفدي ـ جمعية المستسرقين الألمانيين.
١٩١ـ وفاء الوفا: للسمهودي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار إحياء التراث العربي ط٤ ـ ١٩٨٤م.
١٩٢ـ وفيات الأعيان: لابن خلكان ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت.

فهرس الموضوعات

أم سلمة هند بنت أبي أمية أم المؤمنين

زينب بنت جحش أم المؤمنين

جويرية بنت الحارث أم المؤمنين

ريحانة بنت زيد

بنات النبي

زينب بنت رسول الله

رقية بنت رسول الله

أمّ كلثوم بنت رسول الله

فاطمة بنت رسول الله

حفيدات النبي

أمامة بنت أبي العاص

زينب بنت علي

أم كلثوم بنت علي

* * *

كتب للمؤلف

١ ـ رجال مبشرون بالجنة جزءان دار ابن كثير دمشق ١٩٩٠م
٢ ـ نساء مبشرات بالجنة جزءان دار ابن كثير دمشق ١٩٩٠م
٣ ـ نساء من عصر النّبوّة جزءان دار ابن كثير دمشق ١٩٩٢م
٤ ـ نساء من عصر التّابعين جزءان دار ابن كثير دمشق ١٩٩٢م
٥ ـ نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسُّنَّة جزء واحد دارابن كثير دمشق ١٩٩٣م
٦ ـ المبشّرون بالنار جزءان دار ابن كثير دمشق ١٩٩٣م
٧ ـ رجال من الإسلام ٣ أجزاء دار الهجرة دمشق ١٩٩٢م
٨ ـ نساء من الإسلام ٣ أجزاء دار الهجرة دمشق ١٩٩٢م
٩ ـ فرسان حول الرسولﷺ ٣ أجزاء دار الكلم الطيب دمشق ١٩٩٤م
١٠ ـ الصبر والصابرون في القرآن والسنة جزء واحد دار الكلم الطيب دمشق ١٩٩٤م
١١ ـ القُرآن وأصحاب رسول الله جزء واحد دار الكلم الطيب دمشق ١٩٩٤م
١٢ ـ الصدق والصادقون في القرآن والسنة جزء واحد دار الكلم الطيب دمشق ١٩٩٤م

وسيصدر قريباً بعون الله:

١ ـ علماء الصحابة.
٢ ـ أمّهات الأنبياء.
٣ ـ التقوى والمتقون.
٤ ـ النفس في القرآن الكريم.
٥ ـ التوبة والتائبون في السنة والكتاب.